

ثم توضح الآيات سبب وعلة إكرام الله واستجابته لنبيه زكريا -
عليه السلام : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا
وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (٩٠) [الأنبياء]

هذه صفات ثلاث أملت زكريا وزوجته لهذا العطاء الإلهي ، وعلينا
أن نقف أمام هذه التجربة لسيدنا زكريا ، فهي أيضاً ليست خاصة به
إنما بكل مؤمن يُقدّم من نفسه هذه الصفات .

لذلك ، أقول لمن يُعاني من العقم وعدم الإنجاب وضاقَتْ به
أسباب الدنيا ، وطرق باب الأطباء أن يلجأ إلى الله بما لجأ به زكريا -
عليه السلام - وأمله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا
وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (٩٠) [الأنبياء] خذوها (رويته) ربانية ، ولن
تتخلف عنكم الاستجابة بإذن الله .

لكن ، لماذا هذه الصفة بالذات ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي
الْخَيْرَاتِ﴾ .. (٩٠) [الأنبياء] ؟

قالوا : لأنك تلاحظ أن أصحاب العقم وعدم الإنجاب غالباً ما
يكونون بخلاء مُمسكين ، فليس عندهم ما يُشجّعهم على الإنفاق ،
فيستكثرون أن يُخرجوا شيئاً لفقير ؛ لأنه ليس ولده .

فإذا ما سارع إلى الإنفاق وسارع في الخيرات بشتى أنواعها ،
فقد تحدّى الطبيعة وسار ضدها في هذه المسألة ، وربما يميل هؤلاء
الذين ابتلاهم الله بالعقم إلى الحقد على الآخرين ، أو يحملون ضغينة
لمن ينجب ، فإذا طرحوا هذا الحقد ونظروا لأولاد الآخرين على أنهم
أولادهم ، فعطفوا عليهم وسارعوا في الخيرات ، ثم توجهوا إلى الله
بالدعاء رَغَبًا وَرَهَبًا ، فإن الله تعالى وهو المكوّن الأعلى يخرق لهم
النواميس والقوانين ، ويرزقهم الولد من حيث لا يحتسبون .

ومعنى : ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (٩٠) [الأنبياء] يعنى : راضين بقدرنا

فيهم ، راضين بالعقم على أنه ابتلاء وقضاء ، ولا يُرفع القضاء عن العبد حتى يرضى به ، فلا ينبغي للمؤمن أن يتمرد على قدر الله ، ومن الخشوع التطامن لمقادير الخلق في الناس .

﴿وَأَلْقَى أَحَصَنَتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩١)

ولك أن تسأل : لماذا يأتي ذكر السيدة مريم ضمن مواكب النبوة ؟ نقول : لأن النبوة اصطفاء الله لنبي من دون خلق الله ، وكونه يصطفى مريم من دون نساء العالمين لتلد بدون ذكورة ، فهذا نوع من الاصطفاء ، وهو اصطفاء خاص بمريم وحدها من بين نساء العالمين ؛ لأن اصطفاء الأنبياء تكرر ، أما اصطفاء مريم لهذه المسألة فلم يتكرر في غيرها أبداً .

وقوله تعالى : ﴿وَأَلْقَى أَحَصَنَتَ فَرْجَهَا ..﴾ (٩١) [الأنبياء] يعني : عَفَّتْ وحفظت فَرْجَهَا ، فلم تمكّن منها أحداً^(١) .

ومعنى : ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا^(٢) مِنْ رُوحِنَا ..﴾ (٩١) [الأنبياء] يعني :

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٥١٨/٦) : « قيل : إن المراد بالفرج فرج القميص ، أي : لم تعلق بثوبها ربيبة ، أي : أنها طاهرة الأثواب . وفروج القميص أربعة : الكُمَان والأعلى والأسفل . قال السهيلي : فلا يذهب وهمك إلى غير هذا ، فإنه من لطيف الكتابة . لأن القرآن أنزه معنى ، وأوزن لفظاً ، واللفظ إشارة ، وأحسن عبارة من أن يريد ما يذهب إليه الوهم » .

(٢) أي : في جيب درعها . قاله أبو يحيى زكريا الأنصاري في (فتح الرحمن) (ص ٢٧١) وقال قتادة : نفخ في جيبها . وقال مقاتل : نفخ في فرجها . ذكرهما السيوطي في الدر المنثور (٦٧١/٥) . والدرج : ثوب المرأة .

مسألة خاصة به ، خارجة على قانون الطبيعة ، فليس في الأمر ذكرورة أو انتقاء ، إنما النفخة التي نفخها الله في آدم ، فجاءت منها كل هذه الأرواح ، هي التي نفخها في مريم ، فجاءت منها روح واحدة . فالروح هي نفسها التي قال الله فيها : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ۖ ۝ (٢٩) ﴾ [الحجر]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١) ﴾ [الأنبياء] يعنى : شيئاً عجيباً في الكون ، والعجيبه فيها أن تلد بدون ذكرورة ، والعجيبه فيه أن يولد بلا أب ، فكلاهما آية لله ومعجزه .
ثم يقول الحق سبحانه بعد سرد لقطات من موكب الأنبياء :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۝ (٩٢) ﴾

الامة : الجماعة يجمعها رباط واحد من ارض أو ملك أو ملك أو دين ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ۖ ۝ (٢٢) ﴾ [الزخرف] يعنى : على دين .

فالمراد : هذه أمتكم أمةً حال كونها أمةً واحدة ، لا اختلاف فيها^(١) والرسول جميعاً إنما جاءوا ليتمموا بناءً واحداً ، كما قال ﷺ : « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٥١٩/٦) : « لما ذكر الأنبياء قال : هؤلاء كلهم مجتمعون على التوحيد ، فالامة هنا بمعنى الدين الذي هو الإسلام . قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما . »

وُضِعَتْ هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين ^(١) .

والمعنى أن به ﷺ تتم النبوة وتختتم .

وتُطَلَّق الأمة على الرجل الذى يجمع خصال الخير كلها : لأن الله تعالى بعث خصال الخير فى الخلق ، فليس هناك مَنْ هو مَجْمَع مواهب وفضائل ، إنما فى كل منا ميزة وفضيلة فى جانب من الجوانب ؛ ليتكامل الناس ويحتاج بعضهم إلى بعض ، ويحدث الترابط بين عناصر المجتمع ، هذا الترابط يتم إما بحاجات تطوعية ، أو حاجات اضطرارية .

فلو تعلَّم الناس جميعاً وتخرَّجوا فى الجامعة فَمَنْ للمِهَن والحِرَف الأخرى ؟ مَنْ سيكنس الشوارع ، ويقضى مثل هذه الأمور ؟ لو تعطلت مجارى الصرف الصحى ، اجتمع هؤلاء الدكاترة والأساتذة لإصلاحها ، ولو أصلحوها مرة فهذا تطوع .

أما المصالح العامة فلا تقوم على التطوع إنما تقوم على الحاجة والاضطرار ، ولولا هذه الحاجة لما خرج عامل الصرف الصحى فى الصباح إلى هذا العمل الشاق المنفر ، لكن كيف وفى رقبته مسئولية أسرة وأولاد ونفقات ؟

وسبق أن قلنا : ينبغى ألا يغتر المرء بما عنده من مواهب ومميزات ، ولا يتعالى بها على خلق الله ، وعليه أن يسأل عما عند الآخرين من مواهب يحتاج هو إليها ، ولا يؤديها بنفسه .

إذن : الحاجة هى الرابطة فى المجتمع ، ولو كان التطوع

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٥٣٥) ، ومسلم فى صحيحه

(٢٢٨٦) كتاب الفضائل (حديث ٢٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والتفضل فلن نحقق شيئاً ، فلو قلنا للعامل : تفضل بكنس الشارع لوجد ألف عذر يعتذر به ، أما إن كان أولاده سيموتون جوعاً إن لم يعمل فلا شك أنه سيسرع ويبادر .

فالحقيقة أن كل فرد في المجتمع لا يخدم إلا نفسه ، فكما تنتفع الآخريين تنتفع بهم ؛ لذلك إياك أن تحسد صاحب التفوق على تفوقه في أمر من الأمور ؛ لأن تفوقه في النهاية عائد عليك .

وكما نقول هذه المسائل في أمور الدنيا نقولها في أمور الآخرة ، حين نرى صاحب التدبّر ، وصاحب الخلق والالتزام لا نهزأ به ولا نسخر منه ، كما يحلو للبعض ؛ لأن صلاحه سيعود عليك ، وسوف تنتفع بتدبّره واستقامته ولعلنا نُرزق بسبب هؤلاء .

وقد يكون في البيت الواحد فتوات وأذكىاء ومتعلمون وفيهم معوق أو مجنون أو مجذوب ، فتري الجميع يحتقرونه ، ويهونون من شأنه ، أو تراه منبوذاً بين هؤلاء مُبعداً ، لا يشرف بمعرفته أحد ، وربما يعيشون جميعاً في ظله ويُرزقون كرامة له .

وكثيراً ما نرى الناس يغضبون وينقمون على قضاء الله إن رزقهم بمولود فيه عيب أو إعاقة ، والله لو رضيت به وتقبلت قضاء الله فيه ، لكان هو الظل الظليل لك .

فهؤلاء خلّقوا هكذا لحكمة ، حتى لا نتمرد على صنعة الله في كونه ، وحتى يشعر أهل النعمة والسلامة والصحة بفضل الله عليهم ، ولنعلم أن الله تعالى لا يسلب شيئاً من عبده إلا وقد أعطاه عوضاً عنه .

ولك أن تلاحظ مثلاً أحوال الناس المجاذيب الذين تراهم في أي

مكان مُهملين يستقلهم الناس ، وينفرون من هيتهم الرئة ، ومع ذلك ترى أصحاب الجاه والسلطان إذا نزلت بهم ضائقة وأعييتهم الأسباب يلجئون لمثل هؤلاء المجاذيب يلتمسون منهم البركة والدعاء ، وهذا فى حد ذاته أسمى ما يمكن أن يتطلع إليه أهل الجاه وأهل السلطان والنفوذ ، أن تكون كلمتهم مسموعة وأمرهم مطاعاً ، وأن يلجأ الناس إليهم كما لجئوا إلى هذا المجذوب المسكين .

فإذا ما أجرى الله الخير على يد هذا الشيخ المجذوب ترى السيد العظيم يتمحك فيه ، ويدعوه إلى طعامه ، ويدفع عنه أذى الناس ويحتضنه ، لأنه جرب وعلم أن لديه فيضاً من فيض الله وكرامة يختص الله بها مَنْ يشاء من عباده ، ونحن جميعاً عباد الله ليس فينا مَنْ هو ابن الله ، أو بينه وبين الله قرابة .

وإن كان العقل هو أعز ما يعتز به الإنسان ، وهو زينته وحليته ، فلك أن تنتظر إلى المجنون الذى فقد العقل ، وحرم هذه الآلة الغالية ، وترى الناس يشيرون إليه : هذا مجنون ، نعم هو مجنون ، لكن انظر إلى سلوكه : هل رأيت مجنوناً يسرق ؟ هل رأيت مجنوناً يزنى ؟ هل رأيت مجنوناً انتحر ؟

إذن : مع كونه مجنوناً إلا أنه مدرك لنفسه تماماً : لأن خالقه عز وجل وإن سلبه العقل إلا أنه أعطاه غريزة تحكمه كما تحكم الغريزة الحيوان ، وهل رأيت حماراً ألقي بنفسه مثلاً أمام القطار ؟

إذن : علينا ألا نُحَقِّر هؤلاء ، وألاً نستقل بهم فقد عوضهم الله عما سلبه منهم ، ومَنْ مَن يسعى ليصل إلى ما وصلوا هم إليه ولا يستطيع ، ومَنْ مَن لا يتمنى أن يكون مثل هذا المجذوب الذى يتمسح الناس فيه ، ويطلبون منه البركة والدعاء ؟ وأى عظمة يطلبها الإنسان

فوق هذا ؟ ويكفى هذا أنه لا يُسأل عما يفعل في الدنيا ، ولا يُسأل كذلك في الآخرة .

نعود إلى قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً .. ﴾ (٩٢) [الأنبياء] فمن معاني أمة : الرجل الذي جمع خصال الخير كلها ؛ لذلك وصف الله نبيه إبراهيم بأنه أمة ، فقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ^(١) .. ﴾ (١٢٠) [النحل]

يعنى : جمع من خصال الخير ما لا يوجد إلا في أمة كاملة .
والأمة لا تكون واحدة ، إلا إذا صدر تكوينها المنهجي عن إله واحد ، فلو كان تكوينها من متعدد لذهب كلُّ إله بما خلق ، ولعلَّ بعضهم على بعض ، ولفسد الحال . إذن : كما قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ .. ﴾ (٧١) [المؤمنون]
فلا تكون الأمة واحدة إلا إذا استقبلت أوامرها من إله واحد وخضعت لمعبود واحد ، فإن نسيت هذا الإله الواحد تضاربت وتشتتت .

وكان الحق سبحانه يقول : أنتم ستجربون أمة واحدة ، تسودون بها الدنيا وتنطلق دعوتكم من أمة أمية لا تعرف ثقافة ؛ ولا تعرف علماً ، ولم تتمرس بحكم الأمم ؛ لأنها كانت أمة قبلية ، لكل قبيلة قانونها وسيادتها وقيادتها .

ثم ينزل لكم نظام يجمع الدنيا كلها بحضاراتها ، نظام يطوى تحت جناحه حضارة فارس وحضارة الروم ويَطْوَعُها ، ولو أنكم أمة

(١) سئل ابن مسعود : ما الأمة ؟ قال : الذي يُعَلِّمُ الناس الخير . وقال قتادة : إمام مدي يُقَدِّى به ، وتُتَّبَعُ سنته . [الدر المنثور للسيوطي ١٧٦/٥] .

متقفة لقالوا قفزة حضارية ، إنما هذه أمة أمية ، ونبينا أيضاً أمي
إثن : فلا بُدَّ أن يكون المنهج الذي جاء به ليسلب هذه الحضارات
عزّها ومجدها منهجاً أعلى من كل هذه المناهج والحضارات .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٩٢) [الأنبياء] أي : التزاموا
بمنهجي لتظلوا أمة واحدة ، واختار صفة الربوبية فلم يقل : إلهكم ؛
لأن الرب هو الذي خلق ورزق وربى ، أما الإله فهو الذي يطلب
التكاليف .

فالمعنى : ما دُمْتُ أنا ربكم الذي خلقكم من عَدَم ، وأمدكم من
عَدَم ، وأنا القيوم على مصالحكم ، أكلؤكم بالليل والنهار ، وأرزق
حتى العاصي والكافر بي ، فأتا أولي بالعبادة ، ولا يليق بكم أن
أصنع معكم هذا كله وتذهبون إلى إله غيري ، هذا منطق العقل
السليم ، وكما يقولون (اللى يأكل لقمتي يسمع كلمتي) .

ومن العبادة أن تطيع الله في أمره وتَهَيَّه ؛ لأن ثمرة هذه الطاعة
عائدة عليك بالنفع ، فله تعالى صفات الكمال الأزلي قبل أن يخلق مَنْ
يطيعه ، فطاعتك لن تزيد شيئاً في ملك الله ، ومعصيتك لن تنقص
منه شيئاً . إذن : فالأمر راجع إليك ، وربك يُثَبِّك على فعل هو في
الحقيقة لصالحك .

لكن ، هل سمع الناس هذا النداء وعملوا بمقتضاه ، فكانوا أمة
واحدة كهذه الأمة التي أدخلت الدنيا في رحاب الإسلام في نصف
قرن ؟ هذه الأمة التي ما زلنا نرى أثرها في البلاد التي تمردت على
العروبة ، وعلى لغة القرآن ، ومع ذلك هم مسلمون على لغاتهم وعلى
حضارتهم ، إن الدين الذي يصنع هذا ، والأمة الواحدة التي تحمّلت
هذه المسؤولية ما كان ينبغي أن نتخلي عنها .

والسؤال : هل بقيت الأمة الواحدة ؟ تجيب الآيات :

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ

إِلْتِنَارٍ رَاجِعُونَ﴾ ٩٣

أى : صاروا شيعاً وأحزاباً وجماعات وطوائف ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْياً لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (١٥٩) [الأنعام]
لماذا ، لست منهم فى شيء ؟ لأنهم يقضون على واحدية الأمة ، ولا يقضون على واحدية الأمة إلا إذا اختلفت ، ولا تختلف الأمة إلا إذا تعددت مناهجها ، هنا ينشأ الخلاف ، أما إن صدروا جميعاً عن منهج واحد فلن يختلفوا .

وما داموا قد تقطعوا أمرهم بينهم ، فصاروا قطعاً مختلفة ، لكل قطعة منهج وقانون ، ولكل قطعة تكاليف ، ولكل قطعة راية ، وكان آلهتهم متعددة ، فهل سيتركون على هذا الحال ، أم سيعودون إلينا فى النهاية ؟

﴿كُلُّ إِلْتِنَارٍ رَاجِعُونَ﴾ ٩٣ [الأنبياء] إنن : أنتم أمة واحدة فى الخلق من البداية ، وأمة واحدة فى المرجع وفى النهاية ، فلماذا تختلفون فى وسط الطريق ؟

إنن : الاختلاف ناشئ من لختلاف المنهج ، وكان يقبضى لن يكون واضح المنهج واحداً . وقد جاء النبى ﷺ خاتماً للرسالات ، وجاءت شريعته جامعة لمزايا الشرائع السابقة ، بل وتزيد عليها المزايا التى تتطلبها العصور التى تلى بعثته .

فكان المفروض أن تجتمع الأمة المؤمنة على ذلك المنهج الجامع

المانع الشامل ، الذى لا يمكن أن يستدرك عليه ، وبذلك تتحقق وحدة الامة ، وتصدر فى تكليفاتها عن إله واحد ، فلا يكون فيها مدخل للأهواء ولا للسلطات الزمنية أو الأغراض الدنيئة .

لذلك ، إذا تعددت الجماعات التى تقول بالإسلام وتفرقت نقول لهم : كونوا جماعة واحدة ، وإلا فالحق مع أى جماعة منكم ؟ لأن الله تعالى خاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿ إِنِّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْبًا لَّسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۖ ۝ (١٥٩) ﴾ [الانعام]

ولا يتفرق الداعون لدعوة واحدة إلا باتباع الأهواء والأغراض ، أما الدين الحق فهو الذى يأتى على هوى السماء ، موافقاً لما ارتضاه الله تعالى لخلقهِ .

لقد انفضَّ المؤمنون عن الجامع الذى يجمعهم بأمر الله ، فانفضت عنهم الوحدة ، وتدابروا حتى لم يعدَّ يجمعهم إلا قولُ « لا إله إلا الله محمد رسول الله » أما مناهجهم وقوانينهم فقد أخذوها من هنا أو من هناك ، وسوف تعضهم هذه القوانين ، وسوف تخذلهم هذه الحضارات ، ويرون أثرها السيئ ، ثم يعودون فى النهاية إلى الإسلام فهو مرجعهم الوحيد ، كما نسمع الآن نداء لا حلَّ إلا الإسلام .

نعم ، الإسلام حلٌّ للمشاكل والأزمات والخلافات والزعامات ، حلٌّ للتعددية التى أضعفت المسلمين وقوّضت أخوتهم التى قال الله فيها : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ۖ ۝ (١٠٣) ﴾ [آل عمران]

ووالله ، لو عدنا إلى حبل الله الواحد فتمسكنا به ، ولم نلعب بنا الأهواء لعدنا إلى الامة الواحدة التى سادت الدنيا كلها .

إذن : ﴿إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ (٩٣) ﴿[الأنبياء] أى : فى الآخرة للحساب ، وأنا أقول يا رب .. لعل هذا الرجوع يكون فى الدنيا بأن تعضنا قوانين البشر ، فننزع إلى الله ونعود إليه من جديد ، فيعود لنا مجدنا ، ويصدق فينا قول الرسول ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ غريباً ، فطوبى للغرباء »^(١) .
ويُعزِّز هذا الفهم ويقوى هذا الرجاء قول الله تعالى بعدها :

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ
لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ﴾ (٩٤)

الحق - سبحانه وتعالى - يستأنف معنا العظة بالعمل الصالح ليعطينا الأمل لو رجعنا إلى الله ، والدنيا كلها تشهد أن أى مبدأ باطل ، أو شعار زائف زائل يُزخرفون به أهواءهم لا يلبث أن ينهار ولو بعد حين ، ويتبين أصحابه أنه خطأ ويعدلون عنه .

ومثال ذلك الفكر الشيوعى الذى ساد روسيا منذ عام ١٩١٧ وانتهكت فى سبيله الحرمات ، وسفكت الدماء ، وهدمت البيوت ، وأخذت الثروات ، وبعد أن كانت أمة تصدر الغذاء لدول العالم أصبحت الآن تتسول من دول العالم ، وهم أول من ضج من هذا الفكر وعانى من هزم القوانين .

وقوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ..﴾ (٩٤) ﴿[الأنبياء] ربط العمل الصالح بالإيمان : لأنه مُنْطَلَقُ الْمُؤْمِنِ فى كُلِّ ما يأتى وفى كُلِّ ما يدع : لينال بعمله سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .
أما مَنْ يَعْمَلُ الصَّالِحَ لذات الصَّالِحِ ومن منطلق الإنسانية

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٥) كتاب الإيمان ، وابن ماجه فى سننه (٣٩٨٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والمروءة ، ولا يخلو هذا كله في النهاية عن أهواء وأغراض ، فليأخذ نصيبه في الدنيا ، ويحظى فيها بالتكريم والسيادة والسمعة ، وليس له نصيب في ثواب الآخرة ؛ لأنه فعل الخير وليس في بآله الله .

والحق سبحانه يعطينا مثالا لذلك في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوْقَافَهُ حِسَابَهُ ۖ ۝ (٢٩) ﴾ [النور]

يعنى : فوجيء بوجود إله يحاسبه ويجازيه ، وهذه مسألة لم تكن على بآله ، فيقول له : عملت ليقال وقد قيل . وانتهت المسألة ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدْ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ ۝ (٢٠) ﴾ [الشورى] أى : نعطيه أجره في عالم آخر لا نهاية له ﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدْ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ۖ ۝ (٢١) ﴾ [الشورى]

لأنه عمل للناس ، فليأخذ أجره منهم ، يُخلّدون ذكره ، ويُقيمون له المعارض والتعائيل .. الخ .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ۖ ۝ (٩٤) ﴾ [الأنبياء] يعنى : لا نبخسه حقّه ولا نجحد سعيه أبداً ﴿ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ۖ ۝ (٩٤) ﴾ [الأنبياء] نسجل له أعماله ونحفظها ، والمفروض أن الإنسان هو الذى يُسجل لنفسه ، فإن سجل لك عملك ربك الذى يُثيبك عليه ، وسجله على نفسه ، فلا شك أنه تسجيل دقيق لا يبخطك مثقال ذرة من عملك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۖ ۝ (٩٥) ﴾

لَا يَرْجِعُونَ ۖ ۝ (٩٥)

﴿ حَرَامٌ .. (٩٥) ﴾ [الانبياء] يعنى : ممقتع ، لا يجب أن يكون ،
والقرية : أى قرية أهلكتها : لأنها كذبت الرسل ، ووقفت منهم موقف
اللُدِّ والعناد والمعارضة ، فأهلكها الله بذنوبها فى الدنيا ، أيعقل بعد
هذا أن نتركها فى الآخرة من غير أن نلخذها بذنوبها ؟
لا بدّ - إذن - أن ترجع إلينا فى الآخرة لنحاسبها الحساب الدائم
الخالد ، فلا نكتفى بحساب الدنيا المنتهى .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ حَقَّ إِذَا فُزِعَتْ يَأْجُوجُ وَمَاجُوجُ وَهُمْ مِنْ
كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ (٩٦)

وردت قصة ياجوج وماجوج فى آخر سورة الكهف ، حينما سئل
النبي ﷺ عن الرجل الجوال الذى طاف الارض ، فنزلت : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ
عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ (٨٢) [الكهف]

وقد تكلم العلماء فى ذى القرنين ، منهم من قال : هو قوريش
ومنهم من قال هو : الإسكندر الاكبر . والقرآن لا يعنيه الشخص والأ
لذكره باسمه ، فالقرآن لا يُؤرَّخ له ، ولا يقيم له تمثالا ، إنما يريد
التركيز على الاوصاف التى تعنى الحق وتعنى الخلق .

فيكفى أن نعلم أنه إنسان مكَّته الله فى الارض . يعنى : أعطاه من
أسباب القوة وأسباب المهابة والسيطرة ، وأعطاه من كلِّ مقومات

(١) الحدب : ما ارتفع من الارض . أى أنهم يحضرون من كل جانب ، ولو كان مرتفعاً شاقاً
لا يعرفهم شيء لأنهم فى غير المرتفع أسرع والسير فيه أيسر . فهم يأتون من كل جهة
ولو شقت . [القاموس الفيوم ١/ ١٤٤] .

القوة : أعطاه المال والعلم والجيش ، فلم يكتف بذلك كله ، بل ﴿فَاتَّبَعَ سَبِيلًا﴾ (٨٥) [الكهف] يعنى : أخذ بالأسباب التى تؤدى إلى الخير .

وسبق أن تحدثنا عن تشخيص البطل فى قصص القرآن ؛ لأن القرآن لا يُورِّخ للشخصية ، ولا يُعطى لها خصوصية ، وإنما يريد لها عامة لتكون مثلاً يُحتذى ، ويتم بها الاعتبار ، وتُحدث الأثر المراد من القصة .

فما يعنينا فى قصة ذى القرنين أنه رجل مُكِّن فى الأرض ، وكان من صفاته كذا وكذا ، وما يعنينا من أهل الكهف أنهم فتية آمنوا بربهم وتمسكوا بدينهم وعقيدتهم وضُحُوا فى سبيلها ، لا يهمنى الأشخاص ولا الزمان ولا المكان ولا العدد .

لذلك : أبهم القرآن كل هذه المسائل ، فأى فتية ، فى أى زمان ، وفى أى مكان ، وبأى أسماء يمكن أن يقفوا هذا الموقف الإيمانى ، ولو شخصناهم وعيَّنناهم لقال الناس : إنها حادثة خاصة بهؤلاء ، أو أنهم نماذج لا تتكرر ؛ لذلك أبهمهم القرآن ليكونوا عبرة وأُسوة تسير فى الزمان كله .

كذلك ، لما أراد القرآن أن يضرب مثلاً للذين كفروا ذكر امرأة نوح وامرأة لوط ولم يُعيِّنهما ، وكذلك ضرب مثلاً للذين آمنوا بامرأة فرعون ولم يذكر مَنْ هى ^(١) ، فالغرض من ضرب هذه الأمثال ليس الأشخاص ، إنما لنعلم أن للمرأة حرية العقيدة واستقلالية الرأى ، فليست هى تابعة لأحد ، بدليل أن نوحاً ولوطاً لم يتمكن كل منهما من هداية امرأته .

(١) قال تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَغَاتَاهُمَا فَلَمْ يَجِدَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ..﴾ (١٢) [التحريم] .

وَفِرْعَوْنَ الْكَافِرِ الَّذِي ادَّعَى الْإِلَهِيَّةَ ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَمْنَعَ زَوْجَتَهُ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَهِيَ الَّتِي قَالَتْ : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١١) [التحریم]

إِذَنْ : مَا يَعْنِينَا فِي قِصَّةِ « ذِي الْقَرْنَيْنِ » أَنَّ اللَّهَ مَكِّنَ لَهُ فِي الْأَرْضِ ، وَأَعْطَاهُ كُلَّ سَبَابِ الْقُوَّةِ وَالسَّيْطَرَةِ ؛ لِذَلِكَ ائْتَمَنَهُ أَنْ يَكُونَ مِيزَانًا لِلْخَيْرِ وَالْحَقِّ ، وَفُوضَهُ أَنْ يَقْضِيَ فِي الْخَلْقِ بِمَا يَرَاهُ مِنَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ .

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَسْأَلُ الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ (٨٦) [الكهف]

لَا نُنَا مَكْنَاهُ وَفُوضناه ، فَاسْتَغْمَلِ التَّمَكِينَ فِي مَوْضِعِهِ ، وَأَخَذِ الْأَمَانَةَ بِحَقِّهَا ، فَقَالَ : ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴾ (٨٧) [الكهف] أَيْ : نُعَذِّبُهُ عَلَىٰ قَدَرِ مَقْدَرَتِنَا ، ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَلَىٰ قَدَرِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى .

﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ (٨٨) [الكهف]

وَهَكَذَا يَكُونُ دَسْتُورُ الْحَيَاةِ مِنَ الْحَاكِمِ الْمَمْكُونِ فِي الْخَلْقِ ، دَسْتُورُ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ الَّذِي تَسْتَقِيمُ بِهِ أُمُورُ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ ، فَحِينَ يَرَىٰ تَقْصِيرًا لَا بُدَّ أَنْ يَأْخُذَ عَلَىٰ يَدِ صَاحِبِهِ مَهْمًا تَكُنْ مَنْزِلَتُهُ ، لَا يَخَافُهُ وَلَا يَنَافِقُهُ وَلَا يَخْشَىٰ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً ، وَإِنْ رَأَى الْمَحْسَنَ الْمُجْتَهِدَ يُثَبِّتُهُ وَيُكَافِئُهُ .

وَهَذَا الْقَانُونُ نَرَاهُ فِي مَجْتَمَعِنَا يَكَادُ يَكُونُ مُعْطَلًا بَيْنَ الْعَامِلِينَ ، فَاخْتَلَطَ الْحَابِلُ بِالنَّابِلِ ، وَتَدَهَوْرَتِ الْأُمُورُ ، وَدَخَلَتْ بَيْنَنَا مَقَابِيسُ

أخرى للشواب وللعقاب ما أنزل الله بها من سلطان ، فانقلبت
الموازين ، حيث تبجح الكسالى ، وأحبط المجدون المحسنون .
﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجْدَهَا تَطَلَّعَ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ
دُونِهَا سِتْرًا ۝٩٠ ﴾ [الكهف]

هذا كُلُّ ما أخبر الله به ، ويبدو أنه وصل فى تجواله العام إلى
بلاد تظل الشمس بها مشرقة ثلاثة أو ستة أشهر لا تغرب ؛ لذلك لم
يجد لهم من دون الشمس ستراً يسترها أى ظلمة ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ
السَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۝٩١ ﴾ [الكهف]

ومع ذلك احتمال أن يفهم منهم ، ويخاطبهم ؛ لحرصه على نفعهم
وما يصلحهم ، وهذه صفة الحاكم المؤمن حين يُمكن فى الأرض ،
وتُعطى له أسباب القيادة ، ويُفوض فى خلق الله ، ولو لم يكن حريصاً
على نفعهم لوجد العذر فى كونه لا يفهم منهم ولا يفهمون منه .

فلما توصلوا إلى لغة مشتركة ، ربما هى لغة الإشارة التى نتفاهم
بها مع الأخرس مثلاً :

﴿ قَالُوا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَاجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ
لَكَ خَرْجًا^(١) عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝٩٢ ﴾ [الكهف]

ثم أمرهم أن يأتوا بقطع الحديد ، فاشعل فيها النار حتى احمرَّت
فقال ﴿ أَتُونِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۝٩٣ ﴾ [الكهف] وهكذا صنع لهم السد الذى
يحميهم من هؤلاء القوم ، فلم يقصر نفعه لهم على هذه القضية
ذاتها ، إنما نفعهم نفعاً يعطيهم الخير والقوة فى الأ يتعرضوا لمثلها

(١) الخَرْج والخراج : ما يخرج منه صاحب المال للعامل عنده من الأجر جزاء عمله . أو
ما يخرج منه الزكاة للإمام . [القاموس القويم ١/ ١٩٠] .

بعد ذلك ، عملاً بالحكمة التي تقول : لا تعطنى سمكة ، ولكن علمنى كيف اصطاد .

ذلك لانه اشركهم فى العمل : ليشعروا بأهميته ويتمسكوا بالمحافظة عليه وصيانيته ، وإذا ما تعرضوا لمثل هذا الموقف لا ينتظرون مَنْ يصنع لهم .

هذا هو النموذج الذى تُقدِّمه قصة « ذى القرنين » وهو نموذج صالح لكل الزمان ولكل المكان ولكل حاكم مكَّنه الله فى الأرض ، وألقى بين يديه أزمّة الأمور ، وفى حديث أفضل العمل يقول ﷺ : « تعين صانعاً ، أو تصنع لآخرق »^(١) .

وقد تضاربت الأقوال حول : مَنْ هم ياجوج وماجوج ، فمن قائل : هم التتار . وآخر قال : المفلول . وآخر قال : هم الحتيت ، أو السرديال ، أو قبائل الهون .

ولو كان فى تحديدهم فائدة لعينهم القرآن ، إنما المهم من قصتهم أنهم قومٌ مفسدون فى الأرض لا يتركون الصالح على صلاحه ، فإذا ما تصدَّى لهم الممكن فى الأرض فعليه أن يحول بينهم وبين هذا الإفساد فى غيرهم ، وعلينا نحن ألا نُفسد الصالح كهؤلاء ، إنما نترك الصالح على صلاحه ، بل ونزيده صلاحاً .

وفى بناء ذى القرنين للسد دروس يجب أن يعيها أولو الأمر الذين يتولون مصالح الخلق ، من هذه الدروس أنه لم يقف عند طلبهم

(١) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال : الإيمان بالله والجهاد فى سبيله . قال قلت : أى الرقاب أفضل ؟ قال : أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنًا . قال قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : « تعين صانعاً أو تصنع لآخرق » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٤) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٢٥١٨) بلفظ : « تعين ضائعاً » .

فِي بِنَاءِ سَدٍّ يَمْنَعُ عَنْهُمْ أَذَى عَدُوِّهِمْ ، إِنَّمَا اجْتَهِدْ وَتَرَقَّى بِالمَسْأَلَةِ إِلَى مَا هُوَ أَفْضَلُ لَهُمْ ، فَالسَّدُّ الْأَصَمُّ الْعَتَمَاسُ كَقِطْعَةٍ وَاحِدَةٍ يَسْهَلُ هَدْمُهُ أَوْ النِّفَازُ مِنْهُ ؛ لِذَلِكَ قَالَ : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ (٩٥) [الكهف]

لَقَدْ طَلَبُوا سَدًّا وَهُوَ يَقُولُ : رَدْمًا ، لَقَدْ رَقَى لَهُمُ الْفِكْرَةُ ، وَأَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ لَهُمْ سَدًّا عَلَى هَيْئَةٍ خَاصَّةٍ تَمْتَصُّ الصَّدَمَاتِ ، وَلَا تُؤْثِرُ فِي بِنَائِهِ ؛ لِأَنَّهُ جَعَلَ بَيْنَ الْجَانِبَيْنِ رَدْمًا كَأَنَّهُ سَوْسَتَةٌ تُعْطَى السَّدُّ نَوْعًا مِنَ الْمَرْوَةِ . وَهَكَذَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُ عِنْدَ تَحْمُلِ مَسْئُولِيَةِ الْخَلْقِ .

وَلَمَّا عَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَالَ نَظِيرَ عَمَلِهِ أَبِي ، وَقَالَ : ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ .. ﴾ (٩٥) [الكهف] أَيْ : عِنْدِي الْمَالَ الْكَثِيرُ مِنْ عَطَاءِ اللَّهِ لَكِنْ أَعِينُونِي بِمَا لَدَيْكُمْ مِنْ قُوَّةٍ . إِنْ : زَكَاةُ الْقُوَّةِ أَنْ تَمْنَعَ الْفُسَادَ مِنَ الْغَيْرِ .

نَعُودُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ .. ﴾ (٩٦) [الأنبياء] فَلَهَا عِلَاقَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ .. ﴾ (٩٣) [الأنبياء] فَتَقَطَّعَ أَهْلُ الْخَيْرِ وَتَفَرَّقَهُمْ يُجْرِيءُ عَلَيْهِمْ أَصْحَابُ الْفُسَادِ ، وَأَقْلَمَ مَا يَقُولُونَهُ فِي حَقِّهِمْ أَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا عَلَى خَيْرٍ لَنَفَعُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَدَعَوْكُمْ مِنْ كَلَامِهِمْ ، وَهَكَذَا يَفْتُ أَهْلُ الْبَاطِلِ فِي عَصْدِ أَهْلِ الْحَقِّ ، وَيَصْرِفُونَ النَّاسَ عَنْهُمْ .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ .. ﴾ (٩٦) [الأنبياء] يَعْنِي : جَاءَتْ عَنَاصِرُ الْفُسَادِ وَالْفِتْنَةِ فِي الْكُونِ ، وَعَنَاصِرُ الْفُسَادِ وَالْفِتْنَةِ لَا تَتِمَّكِنُ وَلَا تَجِدُ الْفُرْصَةَ وَالسُّلْطَةَ الزَّمْنِيَّةَ إِلَّا إِذَا غَفَلَ أَهْلُ الْحَقِّ وَتَفَرَّقُوا فَلَمْ يَرُدُّوهُمْ ، وَيَأْخُذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ .

ويأجوج ومأجوج هم أهل الفساد فى كل زمان ومكان ،
فجنكيزخان الذى هدم أول ولاية إسلامية فى خوارزم ، وكان عليها
الملك قطب أرسلان ، ثم جاء من ذريته الثالثة هولاكو الذى دخل
بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية وخربها وقتل أهلها حتى سالت
الدماء ، وألقى بالكتب الإسلامية فى النهر حتى كانت قنطرة يعبرون
عليها . هؤلاء الذين نُسِمَ بهم التتار .

إذن : فالقرآن قصّ علينا من التاريخ القديم قصة يأجوج ومأجوج
أيام ذى القرنين ، ثم رأيناهم فى حياتنا الإسلامية ، وشاء الله أن
يستفيد المسلمون من هجمات هؤلاء البرابرة ، وأن تتجمع ولاياتهم
ويصدّوا هجمات التتار على أرض مصر بقيادة قطز والظاهر بيبرس ،
وهما مثالان للممكّنين فى الأرض ، مع أنهما من المماليك .

هذه الهجمات التتارية للمفسدين فى الأرض كانت هجمات همجية
وحشية ، وقد تجمع أحفاد هؤلاء من يأجوج ومأجوج العصر الحديث
فى هجمات مدنية تغزونا بحضارتها ، إنهم الصليبيون الذين انهزموا
أمام وحدة المسلمين بقيادة صلاح الدين .

وهكذا على مرّ التاريخ ننتصر إذا كنا أمة واحدة ، ونُهْزَم إذا
تفرّقنا وتقطّعنا أمماً وأحزاباً ، وهذه حقائق تُثَبِّتُ صِدْقُ القرآن فيما
وجّهنا إليه من الوحدة وعدم التفرق .

ثم يقول تعالى : ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (٩٦) [الأنبياء]

الحَدَبُ : المكان المرتفع ، نقول : فلان أحْدَبُ الظهر يعنى : فى
ظهره منطقة مرتفعة ، وكذلك هؤلاء المفسدون أتوا من أماكن مرتفعة
فى هضبة شمال الصين . ومعنى ﴿يَنْسِلُونَ﴾ (٩٦) [الأنبياء] يعنى :
يسرعون ، ومنه نقول : انسل القماش ؛ لأن القماش مَكُونٌ من سُدى

وأُحْمَة ، يعنى خيوط طويلة وخيوط عرضية ، تتداخل فتكون القماش ، فنسل القماش أن تنزع خيوط العرض وتفكّ تداخلها مع خيوط الطول ، ولا تُنزع خيوط الطول لأنها دائماً مُحْكَمَة بنُتْنَى السُدَى على اللحمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيَّائِنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٩٧)

فكونُ أهل الفساد يأتون مُسْرِعِينَ من كل حَدَبٍ وصَوْبٍ إلا أن فسادهم لن يطول ، فقد اقتربت القيامة ، قال تعالى : ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (١)

[القمر]

وقال : ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ..﴾ (١)

[النحل]

وهذا تنبيه للغافل ، وتحذير للباغى من أهل الفساد ، وتطمين ورجاء للمظلومين المستضعفين المعتدى عليهم : اطمئنوا فقد قرب وقت الجزاء .

﴿أَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ..﴾ (٩٧) [الأنبياء] والوعد الحق أى : الصادق الذى يملك صاحبه أن يُنفِذه ، فقد تعد وعداً ولا تملك تنفيذه فهو وعدٌ ، لكنه وعدٌ باطل ، فالوعد يختلف حسب مروءة الواعد وإمكانياته وقدرته على إنفاذ ما وعد به .

(١) شخص بصره : انفتحت عيناه فلا تطرف ، من الخوف والفرح والحيرة ، وهو كناية عن شدة الهول والفرح يوم القيامة . [القاموس القويم ٢٤٣/١] .

لكن مهما كانت عندك من إمكانيات ، ومهما ملكت من أسباب التنفيذ ، أتضمن أن تُمكنك الظروف والأحوال من التنفيذ ؟ ولا يملك هذا كله إلا الله عز وجل ، فإذا وعد حقق ما وعد به ، فالوعد الحق - إذن - هو وعد الله .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ .. ﴾ (٩٧) [الأنبياء] فتنبه ولا تَقَسُ الدنيا بعمرها الاساسي ، إنما قَسُ الدنيا بعمرِكَ فيها ، فهذه هي الدنيا بالنسبة لك ، ولا دَخَلَ لك بدنياً غيرك ، فإذا كنت لا تعلم متى تفارق دنياك فلا شك أن عمرك قريب ، واقترب الوعد الحق بالنسبة لك .

وكذلك مدة مُكُنَّكَ في قبرك إلى أن تقوم الساعة ستمر عليك كساعة من نهار ، كما قال سبحانه : ﴿ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ .. ﴾ (٤٥) [يونس]

ولو تنبّه كل منا إلى إخفاء الله لأجله ، لعلم أن في هذا الإخفاء أعظم البيان ، فحين أخفاه ترقبناه في كل طَرْفَةِ عَيْنٍ ، وتنقُصُ نَفْسٌ ؛ لذلك يقولون : « مَنْ مَاتَ قَامَتِ قِيَامَتُهُ »^(١) ، لأن القيامة تعني الحساب والجزاء على الأعمال ، وَمَنْ مَاتَ انقطع عمله ، وطُوِيََتْ صحيفته .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴾ (٩٧) [الأنبياء] وَعَدَ الله هنا هو القيامة ، وهي تفاجئنا وتأتينا بغتة ؛ لذلك نقول في (فَإِذَا) أنها الفجائية ، كما تقول : خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب ،

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وتامه : « أكثرُوا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه في غنى كُدره عليكم ، وإن ذكرتموه في ضيق وسَّعه عليكم . الموت القيامة » .

يعنى : فوجئت به ، وهكذا ساعة تقوم الساعة سوف تُفاجيء الجميع ، لا يدري أحد ماذا يفعل .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴾ (٩٧) [الانبياء] وشخوص البصر يأتى حين ترى شيئاً لا تتوقعه ، ولم تحسب حسابه ، فتتنظر مُتدهشاً يجمد جفئك الأعلى الذى يتحرك على العين ، فلا تستطيع حتى أن ترمش أو تطرف .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (٤٢) [ابراهيم]

وإذا أردت أن ترى شخوص البصر فانظر إلى شخص يُفاجأ بشيء لم يكن فى باله ، فتراه - بلا شعور وبغريزته التكوينية - شاخص البصر ، لا ينزل جفنه .

ثم يقولون : ﴿ يَسْأَلُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا .. ﴾ (٩٧) [الانبياء]

فلم يقتصر الموقف على شخوص البصر إنما تتحرك أيضاً أدوات الإدراك فيقول اللسان : (يَا وَيْلَتَا) وهذا نداء للويل أى : جاء وقتك فلم يعد أمامهم إلا أن يقولوا : يا عذاب هذا أوانك فاحضر .

والويل : هو الهلاك السريع ينادونه ، فهل يطلب الإنسان الهلاك ، ويدعو به لنفسه ؟ نقول : نعم ، حين يفعل الإنسان الفعل ويجد عواقبه السيئة ، وتواجهه الحقيقة المرة يميل إلى تعذيب نفسه ، ألا تسمع مثل هؤلاء يقولون : أنا أستحق .. أنا أستاهل الضرب .. إنه لَوَم النفس وتانيبها على ما كان منها ، فهى التى أوقعته فى هذه الورطة .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٩٧) [الزخرف]

فلماذا لا يُؤْتَبُ نفسه ، ويطلب لها العذاب ، وهي التي أردته في التهلكة ، ففي هذا الموقف تنقلب موازينهم التي اعتادوها في الدنيا ، فالاصدقاء في الشر وفي المعصية هم الآن الاعداء .

﴿ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا .. ﴾ (٩٧) [الانبياء] لم يكن هذا الموقف في بالنا ، ولم نعمل له حساباً ، والغفلة : أن تدرا عن بالك ما يجب أن يكون على بالك دائماً .

لكن ، أى غفلة هذه والله - عز وجل - يُذَكِّرُنَا بهذا الموقف في كل وقت من ليل أو نهار ، ألا ترى أنه سبحانه سَمَّى القرآن ذِكْرًا ليزيح عنا هذه الغفلة ، فكلما غفلتَ ذكرك ، وهزَّ مواجذك ، وأثار عواطفك .

إذن : المسألة ليست غفلة : لذلك نراهم يستدركون على كلامهم ، فيقولون : ﴿ بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (٩٧) [الانبياء] لانهم تذكروا أن الله تعالى طالما هزَّ عواطفهم ، وحرك مواجيدهم ناحية الإيمان ، فلم يستجيبوا .

لذلك اعترفوا هنا بظلمهم ، ولم يستطيعوا إنكاره في مثل هذا الموقف ، فلم يعد الكذب مُجْدِيًا ، ولعلمهم يلتمسون بصدقهم هذا نوعاً من الرحمة ، ويظنون أن الصدق نافعهم ، لكن هيهات .

وكان الحق سبحانه يحكى عنهم هذه المواجهة حين تفاجئهم القيامة بأهوالها ، فتشخص لها أبصارهم ، ويقول بعضهم ﴿ يَوَلَّيْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا .. ﴾ (٩٧) [الانبياء] فيرد عليهم إخوانهم : أى غفلة هذه ، وقد كان الله يُذَكِّرُنَا بالقيامة وبهذا الموقف في كل وقت ﴿ بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (٩٧) [الانبياء]

و (بَلْ) حرف إضراب عن الكلام السابق ، وإثبات للكلام اللاحق ،
وهكذا يُراجعون أنفسهم ، ويواجه بعضهم بعضاً ، لكن بعد فوات الأوان .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ
جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴾ (٧٨)

فالذين اتخذتموهم آلهة من دون الله من الأصنام والأوثان والشمس
والقمر والأشجار سيسبقونكم إلى جهنم لنقطع عليكم أى أمل فى
النجاة ؛ لأنهم حين يرون العذاب ربما تذكروا هؤلاء ، وفكروا فى
اللجوء إليهم والاستنجاد بهم ، لعلهم يخرجونهم من هذا المازق ، وقد
سبق أن قالوا عنهم : ﴿ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ .. ﴾ (١٨) [يونس]
وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى .. ﴾ (٣) [الزمر]

لذلك ، يجمعهم الله جميعاً فى جهنم ليقطع عنهم الآمال ، ويبدو خجل
المعبود وخيبة العابد ؛ لأنه جاء النار فوجد معبوده قد سبقه إليها ..
لكن ، هل هذا الكلام على إطلاقه فقد عبد الكفار الأصنام ، ومنهم مَنْ
عبدوا عيسى عليه السلام ، ومنهم مَنْ عبدوا عُزَيْرًا ، ومنهم مَنْ عبدوا
الملائكة ، فهل سيجمع هؤلاء أيضاً مع عابديهم فى النار ؟

لو قلنا بهذا الرأى فدخولهم النار مثلما دخلها إبراهيم ، فجمع الله
له النار والسلامة فى وقت واحد ، ويكون وجودهم لمجرد أن يراهم

(١) قُرئَ هذا اللفظ فى القرآن ثلاث قراءات :

١ - حصب جهنم : قراءة الجمهور .

٢ - حطاب جهنم : قراءة على بن أبى طالب وعائشة .

٣ - حصب جهنم : قراءة ابن عباس . [تفسير القرطبي ٤/٦٠٢٤] .

عابدوهم ، ويعلموا أنهم لا ينفعونهم^(١) .

ومعنى ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ ..﴾ (٩٨) [الأنبياء] الحصب مثل : الحطب ، وهو كل ما توقد به النار أياً كان خشباً أو قشاً أو بترولاً أو كهرباء ، وفى آية أخرى : ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ..﴾ (٦) [التحريم] لذلك فإن النار نفسها تشتاق للكفار ، وتنتظرهم ، وتتلف عليهم كما يقول تعالى : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٣٠) [ق] ويقول تعالى : ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ (٧) تكاد تَمِيزُ مِنَ الْغَيْظِ .. (٨) [الملك]

وقوله تعالى : ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (٩٨) [الأنبياء] الورد هنا بمعنى : الدخول والمباشرة ، لا كالورد^(٢) فى الآية الأخرى : ﴿وَأَنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ..﴾ (٧١) [مريم]

(١) عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما نزلت ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء] . فقال ابن الزبعرى : ألسنت تزعم يا محمد أن عيسى عبد صالح ، وأن عزيزاً صبد صالح ، وأن الملائكة صالمون ؟ قال : بلى . قال : فهذه النصارى تعبد عيسى ، وهذه اليهود تعبد عزيزاً ، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة ، فضج أهل مكة وفرحوا ، فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ مَنَّكَ اللَّهُ مِنْ آلِ الْفِرْعَوْنَ أُولَئِكَ مِنْكُمْ مُنْجُونَ﴾ [الأنبياء] عزيز وعيسى والملائكة . أخرجه أبو داود فى ناسخه وابن المنذر وابن مردويه والطبرانى ، قاله السيوطى فى الدر المنثور (٦٧٩/٥) .

(٢) اختلف العلماء فى معنى الورد فى قوله تعالى : ﴿وَأَنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ..﴾ (٧١) [مريم] على أقوال عدة منها :

- الورد : الدخول ، قاله ابن عباس وخالد بن معدان وابن جريج وغيرهما .
- هو ورود إشراف وإطلاع وقرب ، وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو يقرب جهنم ، فيرونها وينظرون إليها فى حالة الحساب ثم ينجى الله الذين اتقوا معا نظروا إليه ، ويصار بهم إلى الجنة .
- الورد : النظر إليها فى القبر ، فينجى منها الفائز ، ويصلاها مَنْ قُدِّرَ عليه دخولها ، ثم يخرج منها بالشفاعة أو بغيرها من رحمة الله . قال القرطبى فى تفسيره (٤٣١٠/٦) بعد إيراد هذه الأقوال : « ظاهر الورد الدخول إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين ، وينجون منها سالمين » . ثم قال : « هذا القول يجمع شتات الأقوال ، فإن من وردها ولم تؤذ به بلهبها وحرها فقد أبعد عنها ونجى منها » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ إِلَهَةً مَّا وَرَدُّوهُمْ
وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٩٩)

لأنهم سيدخلون فيجدون آلهتهم أمامهم ؛ لينقطع أملهم في شفاعتهم التي يظنونها ، كما قال تعالى في شأن فرعون : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ..﴾ (٩٨) [هود] فرئيسهم وقتوتهم يتقدمهم ، ويسبقهم إلى النار ، فلو لم يكن أمامهم لظنوا أنه ينقذهم من هذا المأزق . ولو كان هؤلاء آلهة - كما تدعون - ما وردوا النار . ومعنى : ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٩٩) [الأنبياء] لأن المعروف عن النار أنها تأكل ما فيها ، ثم تنتهي ، أما هذه النار فلا نهاية لها ، فكلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ، وهكذا تظل النار متوقدة لا تنطفئ . ومعنى ﴿كُلٌّ ..﴾ (٩٩) [الأنبياء] أى : العابد والمعبود .

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٠٠)

معلوم أن الزفير هو الخارج من عملية التنفس ، فالإنسان يأخذ في الشهيق الأكسجين ، ويخرج في الزفير ثاني أكسيد الكربون ، فنلاحظ أن التعبير هنا اقتصر على الزفير دون الشهيق ؛ لأن الزفير هو الهواء الساخن الخارج ، وليس في النار هواء للشهيق ، فكانه لا شهيق لهم ، أعاذنا الله من العذاب .

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٠٠) [الأنبياء]

وهذه من الآيات التي توقف عندها المستشرقون ، لأن هناك آيات أخرى تثبت لهم في النار سَمْعًا وكلامًا . كما في قوله سبحانه :

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف]

نعم ، هم يسمعون ، لكن لا يسمعون كلاماً يسرُّ ، إنما يسمعون تبكيتاً وتانيباً ، كما في قوله تعالى : ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمُهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف]

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾

بعد أن ذكر سبحانه جزاء الكافرين في النار ذكر المقابل ، وذكر المقابل يوضح المعنى ، اقرأ قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار]

ويقول : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا .. ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة] ؛ لذلك تظل المقارنة حية في الذهن .

ومعنى : ﴿سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ .. ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء] الحُسْنَى : مؤنث الأحسن ، تقول : هذا حَسَنٌ وهذه حسنة ، فإن أردت المبالغة تقول : هذا أحسن ، وهذه حُسْنَى . مثل : أكبر وكُبْرَى . ومعنى : ﴿سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ .. ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء] أنهم من أهل الطاعة ، ومن أهل الجنة ، فهكذا حُكْمُ الله لهم ، وقد أخذ الله تعالى جزءاً من خلقه

وقال : « هؤلاء للجنة ولا أبالي ، وهؤلاء للنار ولا أبالي »^(١) ،
ولا تَقَلْ : ما ذنب هؤلاء ؟ لأنه سبحانه حكم بمسابق علمه بطاعة
هؤلاء ، ومعصية هؤلاء .
وقوله : ﴿ أُولَئِكَ^(٢) عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) ﴾ [الأنبياء] أى : مبعدون
عن النار .
ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ
أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) ﴾

حسيس النار : أزيزها ، وما ينبعث منها من أصوات أول
ما تشتعل ﴿ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) ﴾ [الأنبياء] فلم يقل
مثلاً : وهم بما اشتهت أنفسهم ، إنما ﴿ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ ..
(١٠٢) ﴾ [الأنبياء] كأنهم غارقون فى النعيم مما اشتهت أنفسهم ، كأن
شهوات أنفسهم ظرف يحتويهم ويشملهم . وهذا يشوق أهل الخير
والصلاح للجنة ونعيمها ، حتى نعمل لها ، ونُعد العدة لهذا النعيم .

وسبق أن قلنا : إن الإنسان يتعب فى أول حياته ، ويتعلم
صناعة ، أو يأخذ شهادة لينتفع بها فيما بعد ويرتاح فى مستقبل
حياته ، وعلى قدر تعبك ومجهودك تكون راحتك ، فكل ثمرة لا بد لها

(١) عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه
اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم
الحمم فقال للذى فى يمينه : إلى الجنة ولا أبالي . وقال للذى فى كفه اليسرى : إلى النار
ولا أبالي » أخرجه أحمد فى مسنده (٤٤١/٦) .

(٢) قال ابن عباس : أولئك أولياء الله يَمْرُون على الصراط مرأ ، هو أسرع من البرق . ويبقى
الكلار فيها جثياً وقال آخرون : بل نزلت استثنائه من المعبودين وخرج منهم عزيز والمسيح
كما قال حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس
قاله ابن كثير فى تفسيره (١٩٨/٢) .

من حَرَّثَ ومجهود ، والله عز وجل لا يُضيع أجرَ مَنْ أحسنَ عملاً .

وكنا نرى بعض الفلاحين يقضى يومه فى حقله ، مهمل الثياب ، رث الهيئة ، لا يشغله إلا العمل فى زرعهِ ، وآخر تراه مُهنّداً نظيفاً يجلس على المقهى سعيداً بهذه الراحة ، وربما يتندر على صاحبه الذى يُشقى نفسه فى العمل ، حتى إذا ما جاء وقت الحصاد وجد العامل ثموة تعبهِ ، ولم يجد الكسول غير الحسرة والندم .

إفّن : ربك - عز وجل - أعطاك الطاقة والجوارح ، ويريد منك الحركة . وفى الحركة بركة ، فلو أن الفلاح جلس يُقلب فى أرضه ويثير تربتها دون أن يزرعها لَعُوضَهُ الله وأثمر تعبهِ ، ولو أن يجد شيئاً فى الأرض ينتفع به مثل خاتم ذهب أو غيره .

وترف الإنسان وراحته بحسب تعبهِ فى بداية حياته ، فالذى يتعب ويعرق مثلاً عشر سنين يرتاح طوال عمره ، فإنّ تعبَ عشرين سنة يرتاح ويرتاح أولاده من بعده ، وإنّ تعبَ ثلاثين سنة يرتاح أحفاده وهكذا .

وترف المتعلم يكون بحسب شهادته : فهذا شهادة متوسطة ، وهذا علياً ، وهذا أخذ الدكتوراة ، ليكون له مركز ومكانة فى مجتمعه .

لكن مهما أعد الإنسان لنفسه من نعيم الحياة وترفها فإنه نعيم بقدر إمكانياته وطاقاته ؛ لذلك ذكرنا أننا حين سافرنا إلى سان فرانسيسكو رأينا أحد الفنادق الفخمة وقالوا : إن الملك فيصل - رحمه الله - كان ينزل فيه ، فأردنا أن نتجول فيه ، وفعلنا أخذنا بما فيه من مظاهر الترف والأبهة وروعة الهندسة ، وكان معى ناس من عليّة القوم فقلتُ لهم : هذا ما أعدّه العباد للعباد ، فما بالكم بما أعدّه ربّ العباد للعباد ؟

فإذا ما رأيت أهل النعيم والترف في الدنيا فلا تحقد عليهم ؛ لأن نعيمهم يذكرك ويشوقك لنعيم الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ^(١) هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (١٠٣)

ذلك لأنهم في نعيم دائم لا ينقطع ، وعطاء غير مجذوز ، لا يفوتك بالفقر ولا تفوته بالموت ؛ لذلك ﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ .. ﴾ (١٠٣) [الأنبياء] وأي فزع مع هذه النعمة الباقية ؟ أو : لا يحزنهم فزع القيامة وأهوالها .

وقوله : ﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (١٠٣) [الأنبياء] فقد صدقكم الله وعده ، وأنجز لكم ما وعدكم به من نعيم الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (١٠٤)

أي : ما يحدث من عذاب الكفار وتنعيم المؤمنين سيكون ﴿ يَوْمَ ﴾

(١) قال مجاهد : تتلقاهم الملائكة الذين كانوا قرناءهم في الدنيا يوم القيامة فيقولون : نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة . أخرجه ابن أبي حاتم وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٨٣/٥) .

نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ .. ﴿١٠٤﴾ [الأنبياء] و (يَوْم) : زمن وظرف للأحداث ، فكان ما يحدث للكافرين من العذاب والتكليف ؛ وما يحدث للمؤمنين من الخلود في النعيم يتم في هذا اليوم .

والسجل : هو القرطاس ، والورق الذي نكتب فيه يُسمى سجلاً ؛ ولذلك الناس يقولون : نسجل كذا ، أى : نكتبه في ورقة حتى يكون محفوظاً ، والكتاب : هو المكتوب .

والحق سبحانه يقول في آية أخرى : ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَاتٌ بِيَمِينِهِ .. ﴿٦٧﴾ [الزمر] يطويها بقدرته ؛ لأن اليمين عندنا هي الفاعلة في الأشياء ، ولكن لا نأخذ الطي أنه الطي المعروف ، بل نأخذه في إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴿١١﴾ [الشورى]

وقوله تعالى : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ .. ﴿١٠٤﴾ [الأنبياء] يدلنا على أن الحق سبحانه يتكلم عن الخلق الأول و ﴿نُعِيدُهُ .. ﴿١٠٤﴾ [الأنبياء] تدل على وجود خلق ثان .

إذن : فقوله تعالى في موضع آخر : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ [إبراهيم] دليل على أن الخلق الأول خلق فيه الأسباب وفيه المسبب ، فالحق سبحانه أعطاك في الدنيا مقومات الحياة من : الشمس والقمر والمطر والأرض والماء الخ ، وهذه أمور لا تدخل لك فيها ، وكل ما عليك أن تستخدم عقلك الذي خلقه الله في الترقى بهذه الأشياء والترف بها .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٧٢١/٥) : « روى مرفوعاً من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ فَيُبَسِّطُهَا وَيَمْدُهَا مَدَ الْأَدِيمِ الْمَكَاطِي ، لَا تَرَى فِيهَا عَوْجاً وَلَا امْتًا ، ثُمَّ يَزْجُرُ اللَّهُ الْخَلْقَ زَجْرَةً فَلَمَّا هُمْ فِي الثَّانِيَةِ فِي مِثْلِ مَوَاضِعِهِمْ مِنَ الْأُولَى ، مَنْ كَانَ فِي بَطْنِهَا فَفِي بَطْنِهَا ، وَمَنْ كَانَ عَلَى ظَهْرِهَا كَانَ عَلَى ظَهْرِهَا ، ذَكَرَهُ الْغَزَنَوِيُّ .

أما في الخلق الثاني فانت فقط تستقبل النعيم من الله دون أخذ
بالأسباب التي تعرفها في الدنيا : لأن الآخرة لا تقوم بالأسباب إنما
بالمسبب سبحانه ، وحين ترى في الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن
سمعت ، ولا خطر على قلب بشر تعلم أن فعل ربك لك أعظم من
فعلك لنفسك .

ومهما ارتقت أسباب الترف في الدنيا ، ومهما تفنن الخلق في
أسباب الراحة والخدمة الراقية ، فقصارى ما عندهم أن تضغط على
زر يفتح لك الباب ، أو يحضر لك الطعام أو القهوة ، لكن أتحدى
العالم بما لديه من تقدم وتكنولوجيا أن يقدم لى ما يخطر ببالى من
طعام أو شراب ، فإراه أمامى دون أن أتكلم : لأن هذه مسألة لا يقدر
عليها إلا الله عز وجل .

فقوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ .. ﴾ (١٠٤) [الأنبياء] فالمعنى
ليست مجرد إعادته كما كان ، إنما نعيده على أرقى وأفضل مما كان
بحيث يصل بك النعيم أن يخطر الشئ ببالك فتجده بين يديك ، بل
إن المؤمن في الجنة يتناول الصنف من الفاكهة فيقول : لقد أكلت مثل
هذا من قبل^(١) فيقال له : ليس كذلك بل هو أفضل مما أكلت ، وأهنا
مما تذوقت . فلو تناولت مثلاً تفاح الدنيا تراه خاضعاً لتنوعية التربة
والماء والجو المحيط به والمبيدات التي لا يستغنى عنها الزرع هذه
الأيام ... إلخ . أما تفاح الآخرة فهو شئ آخر تماماً ، إنه صنعة
ربانية وإعداد إلهي .

وكان الحق سبحانه يلفت عباده إلى أن عنايته بهم أفضل من

(١) هذا قوله تعالى : ﴿ كَلِمًا رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا فَالْتُوا هَذَا الَّذِي رَزَقُوا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. ﴾ (١٥) [البقرة] .

عنايتهم بأنفسهم ؛ لأنه سبحانه أولى بنا من أنفسنا ، ولكي نعلم الفرق بين الشيء في أيدينا والشيء في يده عز وجل .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَعَدْنَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (١٠٤) [الأنبياء] أى : لا يُخْرِجُنَا شَيْءٌ عَمَّا وَعَدْنَا بِهِ ، ولا يَخَالِفُنَا أَحَدٌ .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ
يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (١٠٥)

والكتب : التسجيل ، لكن علم الله أزلي لا يحتاج إلى تسجيل ، إنما التسجيل من أجلنا نحن حتى نطمئن ، كما لو أخذت من صاحبك قَرْضاً وبينكما ثقة ، ويأمن بعضكم بعضاً ، لكن مع هذا نكتب القَرْضَ ونُسجِّله حتى نطمئن النفس .

ومعنى : ﴿ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ .. ﴾ (١٠٥) [الأنبياء] الزبور : الكتاب الذي أنزل على نبي الله داود ، ومعنى الزبور : الشيء المكتوب ، فإنْ أُلْقِيتْهَا عَلَى عَمُومِهَا تُطْلَقُ عَلَى كُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ ، ومعنى : ﴿ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .. ﴾ (١٠٥) [الأنبياء] الذِّكْرُ : يُطْلَقُ مَرَّةً عَلَى الْقُرْآنِ ، وَمَرَّةً عَلَى الْكُتُبِ السَّابِقَةِ . وما دام الزبور يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ فَلَا بُدَّ أَنْ لِلذِّكْرِ مَعْنَى أَوْسَعٍ ؛ لِذَلِكَ يُطْلَقُ الذِّكْرُ عَلَى اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ ، لِأَنَّهُ ذِكْرُ الذِّكْرِ ، وَفِيهِ كُلُّ شَيْءٍ .

فمعنى : ﴿ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ .. ﴾ (١٠٥) [الأنبياء] أى : فى الكتب التى

(١) الزبور والكتاب واحد ، ولذلك جاز أن يقال للتوراة والإنجيل زبور . وقال سعيد بن جبیر : الزبور : التوراة والإنجيل والقرآن . (تفسير القرطبي ٤٥٢٩/٦) .

أُنزِلَتْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مَا كَتَبْنَاهُ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ ، أَوْ مَا كَتَبْنَاهُ فِي الزَّبُورِ ، لَا أَنْ سَيِّدَنَا دَاوُدَ أَعْطَاهُ اللَّهُ فَوْقَ مَا أَعْطَى الْآخَرِينَ .

ومعنى : ﴿ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .. ﴾ (١٠٥) [الأنبياء] هذه تدل على أن واحداً أسبق من الآخر ، نقول : القرآن هو كلام الله القديم ، ليس في الكتب السماوية أقدم منه ، والمراد هنا ﴿ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .. ﴾ (١٠٥) [الأنبياء] بعديّة ذكريّة ، لا بعديّة زمنيّة .

فما الذي كتبه الله لداود في الزبور ؟ كتب له ﴿ أَنْ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (١٠٥) [الأنبياء] كلمة الأرض إذا أُطْلِقَتْ عموماً يُراد بها الكرة الأرضية كلها .

وقد تُقَيَّدُ بوصف معين . كما في : ﴿ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ .. ﴾ (٢١) [المائدة] وفي : ﴿ فَلَنْ أَرْحَ الْأَرْضَ .. ﴾ (٨١) [يوسف] أي : التي كان بها . وهنا يقول تعالى : ﴿ أَنْ الْأَرْضَ .. ﴾ (١٠٥) [الأنبياء] أي : الأرض عموماً ﴿ يَرِثُهَا .. ﴾ (١٠٥) [الأنبياء] أي : تكون حقاً رسمياً لعبادى الصالحين . فأي أرض هذه ؟ أمى الأرض التي نحن عليها الآن ؟ أم الأرض المبدلة ؟

ما دُمْنَا نَتَكَلَّمُ عَنْ بَدْءِ الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ الْأَرْضَ الْمَبْدَلَةَ الْمَعَادَةَ فِي الْآخِرَةِ^(١) ، والتي يرثها عباد الله الصالحون ، وَالْإِرْثُ هُنَا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤٣) [الأعراف]

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٥٣٠/٦) : « أحسن ما قيل فيه أنه يُراد بها أرض الجنة كما قال سعيد بن جبیر : لأن الأرض في الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم . وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما » .

فَعَنْ مَنْ وَرَثُوا هَذِهِ الْأَرْضَ ؟

الحق سبحانه وتعالى حينما خلق الخلق أعد الجنة لتسع كل بني آدم إن آمنوا ، وأعد النار لتسع كل بني آدم إن كفروا ، فليس في المسألة زحام على أي حال . فإذا ما دخل أهل الجنة الجنة ، ودخل أهل النار النار ظلت أماكن أهل النار في الجنة خالية فيورثها الله لأهل الجنة ويُقسّمها بينهم ، ويُفسح لهم أماكنهم التي حُرِم منها أهل الكفر .

أو نقول : الأرض يُراد بها أرض الدنيا^(١) . ويكون المعنى أن الله يُمكن الصالح من الأرض ، الصالح الذي يَعْمُرُهَا ولو كان كافراً ؛ لأن الله تعالى لا يحرم الإنسان ثمار عمله ، حتى وإن كان كافراً ، يقول تعالى ﴿ مَنْ كَانَ يَرْهَبُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يَرْهَبُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُزَتْ مِنْهُ وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ (٢٠) [الشورى]

لكن عمارة الكفار للأرض وتكوينهم للحضارة سرعان ما تنزل بهم النكبات ، وتنقلب عليهم حضارتهم ، وما نحن نرى نكبات الأمم المرتقية والمتقدمة وما تعانيه من أمراض اجتماعية مستعصية ، فليست عمارة الأرض اقتصاداً وطعاماً وشراباً وترفاً . ففي السويد - مثلاً - وهي من أعلى دول العالم دخلاً ومع ذلك بها أعلى نسبة انتحار ، وأعلى نسبة شذوذ ، وهذه هي المعيشة الضنك التي تحدث عنها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (١٢٤) [طه]

فالضنك لا يعنى فقط الفقر والحاجة ، إنما له صور أخرى كثيرة .

(١) عن ابن عباس : إنها أرض الأمم الكافرة ، ترثها أمة محمد ﷺ بالفتوح [تفسير القرطبي ٤٥٣٠ / ٦] .

إذن : لا تَقَسُ مستوى التحضر بالماديات فحسب ، إنما خُذْ في حُسْبَانِكَ كُلَّ النَوَاحِي الأخرى ، فَمَنْ أتقن النواحي المادية الدنيوية أخذها وترف بها في الدنيا ، أما الصلاح الديني والخلقى والقيَمى فهو سبيل لترف الدنيا ونعيم الآخرة .

وهكذا تشمل الآية : ﴿ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (١٠٥) [الأنبياء] الصلاح المادى الدنيوى ، والصلاح المعنوى الأخرى ، فإن أخذت الصلاح مُطلقاً بلا إيمان ، فإنك ستجد ثمرته إلى حين ، ثم ينقلب عليك ، فأين أصحاب الحضارات القديمة من عاد وثمود والفراعنة ؟

إن كُلَّ هذه الحضارات مع ما وصلت إليه ما أمكنها أن تحتفظ لنفسها بالدوام ، فزالت وبادت .

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) ﴾ [الفجر]

إنها حضارات راقية دُفِنَتْ تحت أطباق التراب ، لا نعرف حتى أماكنها . أما إن أخذت الصلاح المعنوى ، الصلاح المنهجي من الله عز وجل فسوف تحوز به الدنيا والآخرة ؛ ذلك لأن حركة الحياة تحتاج إلى منهج يُنظّمها : افعل كذا ولا تفعل كذا . وهذا لا يقوم به البشر أما ربُّ البشر فهو الذى يعلم ما يُصلحهم ويُشرّع لهم ما يُسعدهم .

إن منهج الله وحده هو الذى يأمرنا وينهانا ، ويضربنا بالحلال والحرام ، وعلينا نحن التنفيذ ، وعلى الحكام وأولياء الامر الممسكين بميزان العدل أن يراقبوا مسألة التنفيذ هذه ، فيُولّوا مَنْ يصلح للمهمة ، ويقوم بها على أكمل وجه ، وإلا فسد حال المجتمع ، الحاكم

يُشرف وَيُرَاقِب ، يُشجّع العامل وَيُعاقِب الخامل ، ويضع الرجل المناسب فى مكانه المناسب .

فمناصر الصلاح فى المجتمع : علماء يُخططون ، وحكام يُنفذون ، ويديرون الأمور ، وكلمة حاكم مأخوذة من الحكمة (بالفتح) وهى : اللجام الذى يكبح الفرس ويوجهها .

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « مَنْ وَلَّى أَحَدًا عَلَى جَمَاعَةٍ ، وَفِي النَّاسِ خَيْرٌ مِنْهُ لَا يَشْمُ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ »^(١) .

لماذا ؟ لأن ذلك يُشيع الفساد فى الأرض ، ويُثبِّط العزائم العالية والهمم القوية حين ترى مَنْ هو أَقَلُّ منك كفاءة يتولَّى الأمر ، وتُسْتَبعد أنت . أما حين تعتدل كِفَّة الميزان فسوف يجتهد كُلُّ مَنْأ ليصل إلى مكانه المناسب .

إذن : مهمة الحكام وولاية الأمر ترقية المجتمع ، فلا نقول لحاكم مثلاً يُعَدُّ لنا طعاماً ، أو يصنع لنا آلة ، فليست هذه مهمته ، ولقد رأينا أَحَدَ الأمراء وكان له أرض يزرعها ، يتولاها أحد الموظفين يقولون له (الخولى) ومهمة الخولى الإشراف والمراقبة .

وفى يوم جاء الأمير ليباشر أرضه ويتفقد أحوالها فى صُحبة الخولى ، وفى أثناء جولتهما بالأرض رأى الخولى قناةً ينسابُ منها الماء حتى أغرق الزرع فنزل وسدَّ القناة بنفسه .

وعندها غضب الأمير وفصله من عمله ؛ لأنه عمل بيده فى حين أن مهمته الإشراف ولديه من العمال مَنْ يقوم بمثل هذا العمل .

(١) عن أبى بكر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً فأمر عليهم أحداً معابة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم » أخرجه أحمد فى مسنده (٦/١) .

لكن ، لماذا هذه النظرة فى إدارة الاعمال ؟ قالوا : لانك إن غملت بيدك فانت واحد ، لكن إن أشرفت فيمكن أن تُشرف على آلاف من العمال . ومن هنا جاءت مسألة التخصص فى الأعمال .

وعلى الحاكم وولى الأمر أن يحافظ على منهج الله ، ويتابع تطبيق الناس له ، فيقف أمام أى فساد ، ويأخذ على يد صاحبه ، ويثيب المجتهد العامل ، كما جاء فى قوله تعالى فى قصة ذى القرنين :

﴿ قَالَ أَمَا مِنْ ظَلَمٍ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكْرًا ﴾ (٨٧) وَأَمَا مِنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ [الكهف]

ذلك ، لأن الله تعالى يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، ولو تركنا أهل الفساد والمنحرفين لجزاء القيامة لفسد المجتمع ، لا بد من قوة تصون صلاح المجتمع ، وتضرب على أيدي المفسدين ، لا بد من قوة تمنع من يتجرؤون علينا ويطالبون بتغيير نظامنا الإسلامى .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ..﴾ (٦٠) [الأنفال] لا بد أن يعلم العدو أن لديك الرادع الذى يردعه إن اعتدى عليك أو حاول إفساد صلاح المجتمع .

لذلك ، فالنبي ﷺ يقول فى الحديث^(١) إن السهم الذى يرمى فى سبيل الله ، لكل من شارك فى إعداده ورميه جزء من الثواب ، فالذى قطعه من الشجرة الذى براه ، والذى وضعه فى القوس ورمى به ؛ لأن فى ذلك صيانة للحق وصيانة للصلاح حتى يدوم ، ولا يفسده أحد .

(١) عن عقبه بن عامر قال قال ﷺ : « إن الله عز وجل يدخل الثلاثة بالسهم الواحد الجنة : صانعه يحتسب فى صنعه الخير ، والمعد به ، والرامي به » أخرجه الداريمى فى سننه (٢٠٤/٢) والترمذى فى سننه (١٦٣٧) . وابن ماجه فى سننه (٢٨١١) .

والمسئولية هنا لا تقتصر على الحكام وولاة الأمر ، إنما هي مسئولية كل فرد فيمن ولى أمراً من أمور المسلمين ، كما جاء في الحديث : « كلکم راع ، وكلکم مسئول عن رعيته : فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلکم راع وكلکم مسئول عن رعيته »^(١) .

وعلى العامل ألا ينظرَ إلى مراقبة صاحب العمل ، وليكنْ هو رقيباً على نفسه ، والله عز وجل يراقب الجميع ، وقد جاء في الحديث القدسي « إن كنتم تعتقدون أنني لا أراكم فالخلل في إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنني أراكم فلمْ جعلتموني أهونَ الناظرين إليكم ؟ » .

والمعامل في حركة الحياة يجدها متداخلة ، فمثلاً لو أردتَ بناء بيت ، فالهندسة حركة ، والبناء حركة ، والكهرباء حركة ، والنجارة حركة ، وهكذا .. ، فلو قلنا : إن هذا العمل يتكون من مائة حركة مثلاً ، فإنك لا تملك منها إلا حركة واحدة هي عملك الذي تتقنه ، والباقي حركات لغيرك ، فإنْ أخلصتَ فيما للناس عندك ألهمهم الله أنْ يخلصوا لك ولو عن غير قصد ، فأنت أخلصتَ وأتقنتَ حركة واحدة ، وأخلص الناس لك في تسع وتسعين حركة .

واعلم أن الخواطر والأفكار بيد الله سبحانه ، فإنْ راقبتَ الله فيما للناس عندك راقبهم الله لك فيما لك عندهم ، وكفاك مؤنة المراقبة ، فقد يصنع لك الصانع شيئاً ، ويريد أنْ يغشك فيه فيحول الله بينه وبين

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وأحمد في مسنده (٥٤/٢ ، ١١١) ، والبخاري في صحيحه (٢٤٠٩) .

هذا ؛ ربما يجلس معه أحد معارفه فيستحي أن يغش أمامه ، أو لا يجد الشيء الذي يغشك به ، أو غير ذلك من الأسباب التي يُسخرها الله لك ، فيتقن لك الصانع صنّعتَه ، ولو رَغَمًا عن إرادته .

إنّ : إن أردتَ صلاحَ أمرِكَ فاصلحْ أمورَ الآخرين .

ومن الأساسيات التي تُصلح بها ونورث الأرض أن ننظر إلى الناس جميعاً على أنهم سواسية ، لا فضلَ لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ، فليس فينا مَنْ هو ابنُ الله عز وجل ، وليس منا مَنْ بينه وبين الله قرابة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ ۚ .. ﴾ (١٣) [الحجرات]

والإسلام لا يعرف الطبقيّة إلا في إتقان العمل ، فقيمة كل امرئ ما يُحسنه ، وقد ضربنا لذلك مثلاً ، وما نزال نذكره مع أنه لرجل غير مسلم ، إنه رجل فرنسي كان نقيباً للعمال ، وكان يدافع عن حقوقهم ، ويطلب لهم زيادة الدُخْل من ميزانية الوزارة ، فلما تولى منصب الوزارة وتولى المسئولية عدلَ عَمَّا كان يطالب به ، فضجّ العمال ، وأراد أحدهم أن يغيظه فقال له : اذكر يا معالي الوزير أنك كنت في يوم من الأيام ماسح أحذية ، فما كان من الرجل إلا أن قال : نعم .. لكنني كنت أجيدها .

وسبق أن ذكرنا أن الله تعالى وزّع المواهب والقدرات بين خلقه ، فساعة ترى نفسك مُميزاً على غيرك في شيء فلا تغتر به ، وابحث فيما مُمِيز به عنك غيرُكَ ؛ لأننا جميعاً عند الله سواء ، لا يحابي منا أحداً على أحد ، فأنت مُميز بعلمك أو قوتك ، وغيرك أيضاً مُميز في سعادته مع أهله أو في أمانته وثقة الناس به ، أو في رضاه بما قسم له أو في مقدرته على نفسه ورضاه بالقليل ، وقد يُمِيز الواحد منا بالولد الصالح الذي يكون مطواعاً لأبيه ، وقرة عين له .

إذن : هذه مسألة مُقدّرة محسوبة : لأن ربك سبحانه قيوم عليك ، لا تخفى عليه منك خافية ، وحين يُميّز بعضنا على بعض إنما ليذكّر فينا الغرور والكبرياء ، وينزع من قلوبنا الحقد والغل ، وهكذا يتوازن المجتمع ، ولا يكون التميز مثار حقد : لأن تميزاً غيرك لصالحك ، وسيعود عليك .

والحق - سبحانه وتعالى - يُحدّثنا عن يوم القيامة ، وكيف أن الشمس ستندنو من الرؤوس ، ويشتدّ بالناس الكرب ، إلا هؤلاء الذين يُظلمهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله ، ذلك لأنهم كانوا مظلة أمان في الدنيا ، فأظلمهم الله في الآخرة .

كما جاء في الحديث الشريف : « سبعة يُظلمهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه »^(١) .

نعم ، لقد صنع هؤلاء بسلوكهم القويم مظلة أمان في الكون ، فاستحقوا مظلة الله في الآخرة . وبمثل هؤلاء يتوازن المجتمع المسلم ويرقى إلى القمة ، هذا المجتمع الذي نريده هو مجتمع غنيّه متواضع ، وفقيره كريم شريف ، وشابّه طائع .

يقول رب العزة سبحانه في الحديث القدسي : « أحب ثلاثة وحبّي لثلاثة أشدّ - فهؤلاء ستة نقسمهم إلى قسمين - أحب الفقير

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٦٠) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

المتواضع ، وحبى للغنى المتواضع أشد - لان عنده أسباب الكبر ومع ذلك يتواضع - وأحب الغنى الكريم وحبى للفقير الكريم أشد ، وأحب الشيخ الطائع وحبى للشاب الطائع أشد ، .

« وأكره ثلاثة وكُرِهى لثلاثة أشد : أكره الغنى المتكبر ، وكُرِهى للفقير المتكبر أشد ، وأكره الفقير البخل ، وكُرِهى للغنى البخل أشد ، وأكره الشاب العاصى وكُرِهى للشيخ العاصى أشد » .

هؤلاء اثنا عشر نوعاً : ستة فى المحبوبة ، وستة فى المكروهية ، وكلما التزمنا بتطبيق هذا المنهج وجدنا مجتمعاً راقياً من الدرجة الاولى .

﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ (١٠٦)

البلاغ : الشئ المهم الذى يجب أن يعلمه الناس ؛ لذلك حين ينشغل الناس بالحرب ، وينتظرون أخبارها تأتيمهم على صورة بلاغات ، يقولون : بلاغ رقم واحد ، لانه أمر مهم .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا .. ﴾ (١٠٦) [الانبياء] أى : أن ما جاء به القرآن هو البلاغ الحق ، والبلاغ الاعلى الذى لم يترك لكم عذراً ، ولا لغفلتكم مجالاً ، ولا لمستدرك أن يستدرك عليه فى شئ . فهو منتهى ما يمكن أن أخبركم به .

وهو بلاغ لمن ؟ ﴿ لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ (١٠٦) [الانبياء] أى : يتلقفون مراد الله لينفذوه ، سواء أكان أمراً أم نهياً .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٧)

وما دام ﷺ خاتم الرسل ، وبعثته للناس كافة ، وللزمن كله إلى أن تقوم الساعة . وقد جاء الرسل السابقون عليه لفترة زمنية

محددة ، ولقوم بعينهم ، أما رسالة محمد ﷺ فجاءت رحمة للعالمين جميعاً ؛ لذلك لا بُدُّ لها أن تتسع لكل أفضية الحياة التي تعاصرها أنت ، والتي يعاصرها خَلْقُكَ ، وإلى يوم القيامة .

ومعنى : العالمين ، كُلُّ ما سوى الله عز وجل : عالم الملائكة ، وعالم الجن ، وعالم الإنس ، وعالم الجماد ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات . لكن كيف تكون رسالة محمد ﷺ رحمة لهم جميعاً ؟

قالوا : نعم ، رحمة للملائكة ، فجبريل - عليه السلام - كان يخشى العاقبة حتى نزل على محمد قوله تعالى : ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ (٢٠) [التكوير] فاطمان جبريل عليه السلام وأمن .

ورسول الله ﷺ رحمة للجفناد ؛ لأنه أمرنا بإماطة الأذى عن الطريق . وهو رحمة بالحيوان . وفي الحديث الشريف : « ما من مسلم يزرع زرعاً ، أو يفرس غرساً فيأكل منه طيرٌ أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة »^(١) .

وحديث المرأة التي دخلت النار في هرة حبستها ، فلا هي أطعمتها وسقتها ، ولا هي تركتها تأكل من خَشَاشِ الأرض^(٢) .

وحديث الرجل الذي دخل الجنة ؛ لأنه سقى كلباً كان يلهث يأكل الثرى من شدة العطش ، فنزل الرجل البئر وملاً خُفَّهُ فسقى الكلب ، فشكر الله له وغفر له ، لأنه نزل البئر وليس معه إناء يملأ به الماء ،

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٢٢٠) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٥٥٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال : « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خَشَاشِ الأرض » أخرجه البخاري في صحيحه (٢٣/٨) قال ابن حجر في الفتح (٢٥٧/٦) : « المراد (بخَشَاشِ الأرض) هوام الأرض وحشراتنا من فارة ونحوها » .

فاحتال للأمر ، واجتهد ليسقى الكلب^(١) .

وهكذا نالت رحمة الإسلام الحيوان والطير والإنسان ، ففي الدين مبدأ ومنهج يُنظّم كل شيء ولا يترك صغيرة ولا كبيرة في حياة الناس ؛ لذلك فهو رحمة للعالمين .

فقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٧) [الانبياء] يعنى أن كل ما يجيء به الإسلام داخل في عناصر الرحمة .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ
فَهَلْ أُنثِرُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٠٨)

فالوحدانية هي أول رحمة بنا ، أن نكون كلنا سواء ، ليس لنا إلا إله واحد ، هذه من أعظم رحمات الله أن نعبد وحده لا شريك له ، فعبادته تُغنينا عن عبادة غيره ، ولو كانت آلهة متعددة لأصابتنا الحيرة بين إله يأمر ، وإله ينهى .

لذلك ؛ فالحق - سبحانه وتعالى - يطلب منا أن نعتز وأن نفخر بهذه الوحدانية ، وبهذه الألوهية ، وفي هذا يقول الشاعر الإسلامي محمد إقبال :

وَالسُّجُودَ الَّذِي تَجْتَوِيهِ مِنْ أُلُوفِ السُّجُودِ فِيهِ نَجَاةٌ

(١) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل بها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي ، فنزل البئر فملا خُفَّهُ ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له . قالوا : يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال : في كل ذات كبد رطبة أجر ، أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٠٩) .

فسجودك لله وتعظيم وجهك له سبحانه يحميك من السجود لغيره ، ولولا سجودك لله لَسَجَدْتَ لِكُلِّ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنْكَ ، فعليك - إذن - أن تعتز بعبوديتك لله ؛ لأنها تحميك من العبودية لغيرك من البشر ، وحتى لا يقول لك شخص أنت عبد ، نعم أنا عبد لكن لستُ عبداً لك ، فعبد غيرك حرٌ مثلك .

وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً في هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا .. ﴾ (٢٩) [الزمر]

فهل يستوى عبد لعدة أسياد يتجاذبون في وقت واحد ، وهم مع ذلك مختلفون بعضهم مع بعض ، وعبد سَلَمًا لسيد واحد ؟

وهكذا ، نحن جميعاً عبيد لله - عز وجل - حين نخضع لا نخضع إلا له سبحانه ، فلا أخضع لك ولا تخضع أنت لى ؛ لذلك يقولون « اللى الشرع يقطع صباغه ميخرش دم » لأنه أمر من أعلى ، من السماء ، لا دَخَلَ لأحد فيه .

لذلك ؛ فالعبودية تُكره حين تكون عبودية للبشر ، لأن عبودية البشر للبشر يأخذ السيد خير عبده ، أما العبودية لله فيأخذ العبد خير سيده .

والشاعر^(١) يقول :

حَسَبُ نَفْسِي عِزًّا بِأَنِّي عَبْدٌ يَحْتَفِي بِي بِلَا مَوَاعِيدَ رَبُّ
هُوَ فِي قُدْسِهِ الْأَعَزُّ وَلَكِنْ أَنَا أَلْقَى مَتَى وَأَيْنَ أَحِبُّ

ولك أن تقارن بين مقابلة عظيم من عظماء الدنيا ، ومقابلة ربك عز وجل . فإن أردت الدخول على أحد هؤلاء لا بُدَّ أن تطلب المقابلة ،

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

ويا ترى تقبل أم ترفض ، وإن قبلت فلا تملك من عناصرها شيئاً ،
فالزمان ، والمكان ، وموضوع الكلام ، كلها أمور يحددها غيرك .

أما إن أردت مقابلة ربك - عز وجل - فما عليك إلا أن تتوضأ
وترفع يديك قائلاً : الله أكبر بعدها ستكون في معية الله ، وقد اخترت
أنت الزمان ، والمكان ، وموضوع الحديث ، وإنهاء اللقاء .

ألا ترى كيف امتنَّ الله تعالى على رسوله في رحلة « الإسراء
والمعراج » بأن وصفه بالعبودية له سبحانه ، فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي
أَسْرَى بِعَبْدِهِ ... ﴾ (١) [الإسراء] إذن : جاء قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي
إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ .. ﴾ (١٠٨) [الأنبياء] بعد قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٧) [الأنبياء] ليدلنا : أن دعوة الله لنا إلى عبادة إله
واحد ترحمنا من عبوديتنا بعضنا لبعض .

ثم يُرغِّبنا الحق سبحانه في هذه العبودية ، فيقول : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ ﴾ (١٠٨) [الأنبياء] كما تحت ولدك المتكاسل أن يكون مثل زميله
الذي تفوق ، وأخذ المركز الأول ، فتقول له : ألا تذاكر وتجتهد حتى
تكون مثله ؟

وهكذا في ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٠٨) [الأنبياء] أي : مسلمون لله ؛
لأن مصلحتكم في الإسلام وعزكم في عبوديتكم لله .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ أَذْنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَذْرِي
أَقْرَبُ أَمْرِ بَعِيدٍ مَّا تُوْعَدُونَ ﴾ (١٠٩)

(١) أذنه الأمر ، وأذنه به : أعلمه ، وأذنك بالشئ : أعلمتك . [لسان العرب - مادة :
أذن] .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا .. (١٠٩) ﴾ [الأنبياء] يعنى : أعرضوا وانصرفوا ﴿ فَقُلْ آذَنْتُكُمْ .. (١٠٩) ﴾ [الأنبياء] مادة : أذن ومنها الإذن تعنى الإعلام بالشئ ، والأصل فى الإعلام كان فى الأذن بالكلام ، حيث لم يكن عندهم قراءة وكتابة ، فاعتمد الإعلام على الكلام والسمع بالأذن ، فمعنى : ﴿ آذَنْتُكُمْ .. (١٠٩) ﴾ [الأنبياء] أعلمتكم وأخبرتكم .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَى سَوَاءٍ .. (١٠٩) ﴾ [الأنبياء] يعنى : جاء الإعلام لكم جميعاً لم أخص أحداً دون الآخر ، فأنتم فى الإعلام سواء ، لا يتميز منكم أحد على أحد ؛ لذلك كان النبى ﷺ يحرص على إبلاغ الجميع ، فيقول :

« نَضَّرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها ، ثُمَّ أَدَّاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ، فَرُبُّ مَبْلُغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ »^(١) وهكذا يشيع الخير ويتداول بين الجميع .

﴿ فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ .. (١٠٩) ﴾ [الأنبياء] فلم أعلم قوماً دون قوم ، ولم أسمع أذنًا دون أذن ، وجعلت من كمال الإيمان أن يخبر السامع مَنْ لم يسمع ؛ لأنه لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

ثم يُنبِّههم إلى أمر الساعة : ﴿ وَإِنْ أَذْرَى أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) ﴾ [الأنبياء] فانتبهوا وخذوا بالكم ، واحتاطوا ، فلا أدري لعل الساعة تكون قريباً ، ولعلها تفاجئكم قبل أن أنهى كلامى معكم .

لذلك ؛ لما سألوا أحد الصالحين : فيم أفنيت عمرك ؟ قال :

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٢٧/١) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجه فى سننه (٢٢٢) والحميدى فى مسنده (٤٧/١) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

« أفنيتُ عمرى فى أربعة أشياء : علمتُ أنى لا أخلو من نظر الله طرفة عين فاستحييتُ أنْ أعصيه ، وعلمتُ أن لى رزقاً لا يتجاوزنى قد ضمنه الله لى فقنعتُ به ، وعلمتُ أن على ديناً لا يؤديه عنى غيرى فاشتغلتُ به ، وعلمتُ أن لى أجلاً يبادرنى فبادرتُ » .

إذن : فالمراد : استعدوا لهذه المسألة قبل أن تفاجئكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ
وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾

وما دام ربك - عز وجل - يعلم الجهر ويعلم السر وأخفى ، فإياك أن تنافق ؛ لأننا ننهاك عن النفاق مع البشر ، فمن باب أولى أن ننهاك عن نفاق ربك سبحانه الذى يعلم سرّك كما يعلم علانيتك ، وقصارى أمر البشر أن يُراقبوا علانيتك . لذلك ، فإن كل احتياطات أهل الإجرام التخفى عن أعين الدولة ، والهرب من مراقبة الشرطة ، لكن كيف التخفى عن نظر الله وعلمه ؟

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ (١١١) [الانبياء] يُعلمنا الأدب حتى فيما نكتم ، فالأدب فى الجهر من باب أولى ، ونحن مؤمنون بأن الله سبحانه غيب غير مشهود ، وهب أنك فى بيتك تعلم كل شيء فيه ؛ لأنه مشهود لك ، أما ما كان خارج البيت فهو غيب عنك لا تعلمه ، أما الحق سبحانه فهو غيب يعلم كل مشهود وكل غيب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتْنٌ لِإِيَّائِى ﴾

أى : لعل الإمهال وبقاءكم دون عذاب وتباطؤ الساعة عنكم
فتنة واختبار ، يا ترى أتوقفون وتفوزون فى هذا الاختبار ،
كما قال سبحانه فى موضع آخر :

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٥٥) [التوبة]

وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنْفُسِهِمْ
إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (١٧٨) [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (١١١) [الأنبياء] أى : لن يدوم هذا
النعيم وهذا المتاع : لأن له مدة موقوتة .

ثم يقول الحق سبحانه فى ختام سورة الأنبياء :

﴿ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ
عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (١١٢)

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. ﴾ (١١٢) [الأنبياء] كما دعا
بذلك الرسل السابقون : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ^(١) بَيْنَنَا وَقَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ
الْفَاتِحِينَ ﴾ (٨٩) [الأعراف]

(١) قال قتادة : كانت الأنبياء تقول ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَقَوْمِنَا بِالْحَقِّ .. ﴾ (٨٩) [الأعراف] فأمر
النبي ﷺ أن يقول : ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. ﴾ (١١٢) [الأنبياء] فكان إذا لقى العدو يقول - وهو
يعلم أنه على الحق وعدوه على الباطل - ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. ﴾ (١١٢) [الأنبياء] أى : اقض
به . ذكره القرطبي فى تفسيره (٤٥٣٢/٦) والسيوطى فى الدر المنثور (٦٨٩/٥)
وعزاه لابن أبى حاتم .

(٢) أى : انصرنا عليهم ، ويجوز أن يكون المعنى : ربنا افتح بيننا وبين قومنا باب التفاهم
والمحبة بالحق حتى يؤمنوا ويتركوا عنادهم . [القاموس القويم ٧٠/٢] .

وهل يحكم الله سبحانه إلا بالحق ؟ قالوا^(١) : الحق سبحانه يُبَيِّنُ
لنا : لأننا عشنا في الدنيا وراينا كثيراً من الباطل ، فكاننا لأول مرة
نسمع الحكم بالحق .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ
(١١٢) ﴾ [الأنبياء] أى : المستعان على ما تُجرمون فيه من نسبتنا إلى
الجنون ، أو إلى السحر .. الخ .

وتلاحظ أن الحق سبحانه في آيات سورة الأنبياء تكلم عن طَيِّ السَّما
كطَيِّ السَّجَلِ للكتب ، ثم قال ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ ﴾ (١١١) [الأنبياء] ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَى
حِينٍ ﴾ (١١١) [الأنبياء] ، ثم قال : ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. ﴾ (١١٢) [الأنبياء]
هذا كله لِيُقَرَّبَ لنا مسألة الساعة وقيامها ، ويُعَدَّنَا لاستقبال
« سورة الحج » .

(١) قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن جرير الطبري وابن المنذر ، أورده السيوطي في الدر المنثور (٦٨٩/٥) قال : لا يحكم الله إلا بالحق ، ولكن إنما يستعجل بذلك في الدنيا يسأل ربه على قومه .

سُورَةُ الْحَجِّ

سورة الحج^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ كُنْتُمْ إِتْ زَلَزَلَةً
السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ١

الخطاب هنا عام للناس جميعاً ، وعادة ما يأتى الخطاب الذى يطلب الإيمان عاماً لكل الناس ، إنما ساعة يطلب تنفيذ حكم شرعى يقول : يا أيها الذين آمنوا .

لذلك يقول هنا : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ كُنْتُمْ إِتْ زَلَزَلَةً ﴾ [الحج] يريد أن يلفتهم إلى قوة الإيمان . وكلمة ﴿ اتَّقُوا رَبَّ كُنْتُمْ إِتْ زَلَزَلَةً ﴾ [الحج] التقوى : أن تجعل بينك وبين ما أحدثك عنه وقاية ، أى : شيئاً يقيك العذاب الذى لا طاقة لك به .

(١) سورة الحج هى السورة رقم (٢٢) فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٧٨ آية ، وهى سورة مختلطة فيها آيات مدنية ، وآيات مكية ، وهو قول جمهور العلماء . قال ابن الفرس فى أحكام القرآن فيما نقله عنه السيوطى فى (الإتيان فى علوم القرآن ١/٢٢) ورجحه القرطبى أيضاً فى تفسيره (٤٥٣٢/٦) وقال : « وهذا هو الأصح » . قال الفرنولى : « هى من أعاجيب السور ، نزلت ليلاً ونهاراً ، وسفراً وحضراً ، مكية ومدنية ، سلمياً وحربياً ، ناسخاً ومنسوخاً ، محكماً ومتشابهاً ، مختلف العدد » . نقله القرطبى فى تفسيره (٤٥٣٢/٦) .

ونلاحظ أن الله تعالى يقول مرة : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ .. ﴾ (١٩٤) [البقرة] ومرة يقول : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ .. ﴾ (٢٤) [البقرة] نعم ، لأن المعنى ينتهى إلى شىء واحد . معنى : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ .. ﴾ (٢٤) [البقرة] أى : اجعل بينك وبينها وقاية تحميك منها ، ويكون هذا بفعل الأمر وترك النهى . وقوله : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ .. ﴾ (١٩٤) [البقرة] لأن الله تعالى صفات جمال ، وصفات جلال ، صفات الجمال كالرحمن ، والرحيم ، والباسط والستار ، وصفات الجلال كالقهار والجبار وغيرها مما نخاف منه . فاجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية ، فليست بك طاقة لقاهريته ، وبطشه سبحانه ، والنار من جنود الله ، ومن مظاهر قهره . فكما نقول : اتق الله نقول : اتق النار .

واختار فى هذا الأمر صفة الربوبية ، فقال : ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. ﴾ (١) [الحج] ولم يقل : اتقوا الله ؛ لأن الرب هو المتولى للرعاية والتربية ، فالذى يُحذرك هو الذى يُحبك ويُعطيك ، وهو الذى خلقك ورباك ورعاك .

فالربوبية عطاء : إيجاد من عدم وإمداد من عدم ، فأولى بك أن تتقيه ، لأنه قدّم لك الجميل .

أما صفة الألوهية فتعنى التكليف والعبادة بأفعل ولا تفعل ، الله معبود ومُطاع فيما أمر وفيما نهى .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) [الحج] الزلزلة : هى الحركة العنيفة الشديدة التى تُخرج الأشياء عن ثباتها ، كما لو أردت أن تخلع وتدأ من الأرض ، فعليك أولاً أن تهزّه وتخلخله من مكانه ، حتى تجعل له مجالاً فى الأرض يخرج منه ،

إنما لو حاولت جذبُه بدايةً فسوف تجد مجهوداً ومشقةً في خلعه ، وكذلك يفعل الطبيب في خلع الضرس .

فمعنى الزلزلة : الحركة الشديدة التي تزيل الأشياء عن أماكنها ، والحق سبحانه وتعالى تكلم عن هذه الحركة كثيراً فقال : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴾ (٤) وَبُسَّتِ^(١) الْجِبَالُ بَسًا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا (٦) ﴿ [الواقعة] ويقول : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْفَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُعَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾ [الزلزلة]

فالزلزال هنا ليس زلزالاً كالذي نراه من هزات أرضية تهدم بعض البيوت ، أو حتى تبتلع بعض القرى ، فهذه مجرد آيات كونية تثبت صدق البلاغ عن الله ، وتنبهك إلى الزلزال الكبير في الآخرة ، إنه صورة مصغرة لما سيحدث في الآخرة ، حتى لا نغتر بسيادتنا في الدنيا فإن السيادة هبة لنا من الله .

وعندما حدث زلزال « أغادير » لاحظوا أن الحيوانات ثارت وهاجت قبل الزلزال بدقائق ، ومنها ما خرج إلى الخلاء ، فأى إعلام هذا ؟ وأى استشعار لديها وهى بهائم فى نظرنا لا تفهم ولا تعى ؟ إن فى ذلك إشارة للإنسان الذى يعتبر نفسه سيد هذا الكون : تنبه ، فلو لا أن الله سيّدك لوكرتكَ هذه البهائم فقضت عليك .

نقول : ليس هذا زلزالاً عاماً ، إنما هو زلزال مخصوص منسوب إلى الأرض بوحي من الله ، وبأمر منه سبحانه أن تتزلزل .

(١) بَسَّ : فَنَّهُ وجعله اجزاء دقيقة . أى : فَنَنَّتْ تَفَنَّتْاً شديداً . [القاموس القويم ٦٦/١] .

لذلك وَصِفَ هذا الزلزال بأنه شيء عظيم : ﴿إِنْ زُلْزَلَتِ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج] فحين تقول أنت أيها الإنسان : هذا شيء عظيم فهو عظيم بمقياسك أنت ، أما العظيم هنا فعظيم بمقاييس الحق سبحانه ، فلك أن تتصور فظاعة زلزال وصفه الله سبحانه بأنه عظيم .

لقد افْتُتِحَتْ هذه السورة بزلزلة القيامة : لأن الحق سبحانه سبق أن قال : ﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ..﴾ [٩٧] ﴿[الأنبياء] فلا بُدَّ أَنْ يعطينا هنا صورة لهذا الوعد ، ونُبْذَة عما سيحدث فيه ، وصورة مُصَغَّرَةٌ تدل على قدرته تعالى على زلزال الآخرة ، وأن الأرض ليس لها قوام بذاتها ، إنما قوامها بأمر الله وقدرته ، فإذا أراد لها أن تزول زالت .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [٢] [الزلزلة]

فَمَا نراه من البراكين ومن الثروات فى باطن الأرض وعجائب يقع تحت هذه الآية : لذلك قال تعالى : ﴿لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [٦] [طه]

وما دام الحق سبحانه يمتنُّ بملكية ما تحت الثرى فلا بُدَّ أن تحت الثرى ثروات وأشياء نفيسة ، ونحن الآن نُخْرِجُ معظم الثروات من باطن الأرض ، ومعظم الأمم الغنية تعتمد على الثروات المدفونة من بترول ومعادن ومناجم وذهب .. إلخ .

وسبق أن ذكرنا أن الحق - سبحانه وتعالى - بعث الخيرات فى كونه ، وجعل لكل منها وقته المناسب ، فالرزق له ميلاد يظهر فيه : ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [٢١] [الحجر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ
وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى
وَمَا لَهُمْ بِسُكَرَى وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾

والرؤية : قلنا قد تكون رؤية علمية أو رؤية بصرية ، والشيء
الذى نعلمه إما : علم اليقين ، وإما عين اليقين ، وإما حقيقة اليقين .
علم اليقين : أن يخبر من تثق به بشيء ، كما تواترت الاخبار عن
الرحالة بوجود قارة أسموها فيما بعد أمريكا ، وبها كذا وكذا ، فهذا
نسميه « علم يقين » ، فإذا ركبت الطائرة إلى أمريكا فرأيتها وشاهدت
ما بها فهذا « عين اليقين » فإذا نزلت بها وتجولت بين شوارعها
ومبانيها فهذا نسميه « حقيقة اليقين » .

لذلك : حين يخبر الله تعالى الكافرين بأن هناك عذاباً في النار
فهذا الإخبار صادق من الله فعلمنا به « علم يقين » ، فإذا رأيناها
فهذا « عين اليقين » ، كما قال سبحانه : ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ
الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر]

فإذا ما باشرها أهلها ، وذاقوا حرها ولظاها - وهذا مقصور على
أهل النار - فقد علموها حق اليقين ، لذلك يقول تعالى :

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ
الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾

(١) أى : تشتغل . قاله قطرب . وقيل : تنسى . وقيل : تلهو . وقيل : تسلو والمعنى متقارب .
[تفسير القرطبي ٤/٦٠٣٦]

وَتَصَلِّةٌ جَاحِمٌ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) [الواقعة]

ومعنى : ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ .. ﴾ (٩٦) [الحج] الذهول : هو انصراف جارحة عن مهمتها الحقيقية لهول رآته فتتشغل بما رآته عن تأدية وظيفتها ، كما يذهل الخادم حين يرى شخصاً مهيباً أو عظيماً ، فيسقط ما بيده مثلاً ، فالذهول - إذن - سلوك لا إرادى قد يكون ذهولاً عن شيء تفرضه العاطفة ، أو عن شيء تفرضه الغريزة .

العاطفة كالأم التى تذهل عن ولدها ، وعاطفة الأمومة تتناسب مع حاجة الولد ، ففي مرحلة الحمل مثلاً تجد الأم تحتاط فى مشيتها ، وفى حركاتها ، خوفاً على الجنين فى بطنها ، وهذه العاطفة من الله جعلها فى قلب الأم للحفاظ على الوليد ، وإلا تعرض لما يؤذيه أو يودي بحياته .

لذلك ، لما سألوا المرأة العربية عن أحب أبنائها ، قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى ، فحسب الحاجة يعطى الله العاطفة ، فالحامل عاطفتها نحو ولدها قوية ، وهى كذلك فى مرحلة الرضاعة .

فانظر إلى المرضعة ، وكيف تذهل عن رضيعها وتنصرف عنه ، وأى هول هذا الذى يشغلها ، ويعطل عندها عاطفة الأمومة والحنان ويعطل حتى الغريزة .

وقد أعطانا القرآن صورة أخرى فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) ﴾ [عبس]

لَيْسَ بِحِمْلٍ مَا أَطَاقَ الظَّهْرُ مَا الْحِمْلُ إِلَّا مَا وَعَاهُ الصَّدْرُ

أى : أن الشيء الذى تطيق حمله ويقوى عليه ظهرك ليس بحمل ، إنما الحمل هو الهم الذى يحتويه الصدر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (٢) [الحج]

سكارى : أى يتميلون مضطربين ، مثل السكارى حين تلعب بهم الخمر ، (وتطوحهم) يمينا وشمالا ، وتلقى بهم على الأرض ، وكلما زاد سكرهم وخروجهم عن طبيعتهم كان النوع شديداً !!

وهكذا سيكون الحال فى موقف القيامة لا من سُكْرٍ ولكن من خوف وهول وفزع ﴿ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (٢) [الحج]

لكن ، من أين يأتى اضطراب الحركة هذا ؟

قالوا : لأن الله تعالى خلق الجوارح ، وخلق فى كل جراحة غريزة الانضباط والتوازن ، وعلماء التشريح يُحدِّدون فى الجسم أعضاء ومناطق معينة مسئولة عن حفظ التوازن للجسم ، فإذا ما تأثرت هذه الغدد والأعضاء يشعر الإنسان بالدوار ، ويفقد توازنه ، كأن تنظر من مكان مرتفع ، أو تسافر فى البحر مثلاً .

فهذا الاضطراب لا من سُكْرٍ ، ولكن من هول ما يروونه ، فيحدث لديهم تغييراً فى الغدد والخلايا المسئولة عن التوازن ، فيتميلون ، كمن اغتالته الخمر .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (٢) [الحج] إنهم لم يَرَوْا العذاب بعد ، إنها مجرد قيام الساعة وأهوالها أفقدتهم توازنهم ؛

لأن الذي يَصَدِّقُ في أن القيامة تقوم بهذه الصورة يَصَدِّقُ في أن بعدها عذاباً في جهنم ، إذن : انتهت المسألة وما كنا نكذب به ، ها هو ماثل أمام أعيننا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَتَّبِعُ كُلَّ

شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ۝ ٢ ﴾

الجدل : هو المحاورة بين اثنين ، يريد كل منهما أن يؤيد رأيه ويدحض رأي الآخر ، ومنه : جدل الخوص أو الحبل أى : فتله واحدة على الأخرى .

ولو تأملت عملية غزل الصوف أو القطن لوجدته عبارة عن شعيرات قصيرة لا تتجاوز عدة سنتيمترات ، ومع ذلك يصنعون منه حبلاً طويلاً ، لانهم يداخلون هذه الشعيرات بعضها في بعض ، بحيث يكون طرف الشعرة في منتصف الأخرى ، وهكذا يتم فتله وغزله ، فإذا أردت تقوية هذه الفتلة تجدلها مع فتلة أخرى ، وهكذا يكون الجدل في الأفكار ، فكل صاحب فكرة يحاول أن يقوّي رأيه وحجته ؛ ليحض حجة الآخرين .

فقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ .. ۝ ٢ ﴾ [الحج] فكيف يكون الجدل في الله تعالى ؟

يكون الجدل في الله وجوداً ، كالملاحذ الذي لا يعترف بوجود إله ،

(١) قال أبو مالك فيما أخرجه ابن أبي حاتم : نزلت في النضر بن الحارث [النضر المنثور للسيوطي ٨/٦] . قال القرطبي في تفسيره (٤٥٣٧/٦) : « قال أى : النضر بن الحارث : إن الله غير قابل على إحياء من قد بلى وعاد تراباً » .

أو يكون الجدل في الوجدانية ، كمن يشرك بالله إلهاً آخر ، أو يكون الجدل في إعلام الله بشيء غيبي ، كآمر الساعة الذي ينكره البعض ولا يُصدّقون به ، هذا كله جدل في الله .

وقوله : ﴿بَغِيرِ عِلْمٍ .. (٣)﴾ [الحج] إذن : فالجدل في ذاته مُباح مشروع ، شريطة أن يصدر عن علم وفقه ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥)﴾ [النحل]

فالحق سبحانه لا يمنع الجدل ، لكن يريده بالطريقة الحسنة والأسلوب اللين ، وكما يقولون : النصيح ثقيل ، فلا تجعله جَدَلًا ، ولا ترسله جَبَلًا ، ولا تُخرج الإنسان مما يالف بما يكره ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. (١٢٥)﴾ [النحل] وقال سبحانه : ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦)﴾ [العنكبوت]

لذلك : فالقرآن الكريم يعلم الرسول ﷺ لَوْثًا من الجدل في قوله تعالى : ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبا] فانظر إلى هذا الجدل الراقى والأسلوب العالى : ففي خطابهم يقول : ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا .. (٢٥)﴾ [سبا] وينسب الإجرام إلى نفسه ، وحين يتكلم عن نفسه يقول : ﴿وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبا] ولم يقل هنا : تجرمون لتكون مقابلة بين الحالين . وفي هذا الأسلوب ما فيه من جذب القلوب وتحنيها لتقبل الحق .

ولما اتهموا رسول الله ﷺ بالجنون ردّ عليهم القرآن بالعقل وبالمنطق ، فسألهم : ما الجنون ؟ الجنون أن تصدر الأفعال الحركية عن غير بدائل اختيارية من المنع ، فهل جرّبتم على محمد شيئاً من

سُورَةُ الْحَجِّ

٥١٦٩٥

هذا ؟ وما هو الخلق ؟ الخلق : استقامة المنهج والسلوك على طريق الكمال والخير ، فهل رأيتم على محمد خلاف هذا ؟

لذلك يقول تعالى في الرد عليهم : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفِرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾^(١) مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ .. (٤٦) ﴿ [سبا] وكيف يكون صاحب هذا الخلق القويم والسلوك المنضبط في الخير مجنوناً ؟

ولما قالوا : كذاب ، جادلهم القرآن : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٤٦) ﴿ [يونس]

لقد أتته الرسالة بعد الأربعين ، فهل سمعتم عنه خطيباً أو شاعراً ؟ فهل قال خطبة أو قصيدة تحتفظون بها كما تحتفظون بقصائد شعرائكم ؟

وقالوا : إنها عبقرية كانت عند محمد ، فأي عبقرية هذه التي تتفجر بعد الأربعين ، ولو تأملت العبقريات لوجدتها في العقد الثاني أو الثالث من عمر صاحبها ، فكيف يُوجَل محمد عبقريته إلى الأربعين ، ومن يضمن له الحياة وهو يرى الناس يتساقطون من حوله : أبوه مات قبل أن يُولد ، وأمه ماتت وهو رضيع ، وجده مات وهو ما يزال صغيراً .

وهكذا ، يعطينا القرآن مثالا للجدل بالحكمة والموعظة الحسنة ، للجدل الصادر عن عِلْم بما تقول ، وإدراك لحقائق الأمور .

(١) أي : تقوموا قياماً خالصاً لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية ، فيسال بعضكم بعضاً : هل بمحمد من جنون فينصح بعضكم بعضاً ، فينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكر في ذلك . [قاله ابن كثير في تفسيره ٥٤٣/٣] .

لذلك ؛ لما ذهب الشَّعْبِيُّ^(١) لملك الروم قال له الملك : عندكم في الإسلام أمور لا يُصدِّقها العقل ، فقال الشَّعْبِيُّ : ما الذي في الإسلام يخالف العقل ؟ قال : تقولون إن في الجنة طعاماً لا ينفد أبداً ، ونحن نعلم أن كل ما أخذ منه مرة بعد مرة لا بُدَّ أن ينفد . انظر إلى الجدل في هذه المسألة كيف يكون .

قال الشَّعْبِيُّ : أرأيتَ لو أن عندك مصباحاً ، وجاءت الدنيا كلها فقُبِسَتْ من ضوئه ، أينقص من ضوء المصباح شيء ؟ هذا - إذن - جدل راقٍ وعلى أعلى مستوى .

ويستمر ملك الروم فيقول : كيف نأكل في الجنة كُلُّ ما نشتهي دون أن نتغوّط أو تكون لنا فضلات ؟ نقول : أرأيتم الجنين في بطن الأم : أينمو أم لا ؟ إنه ينمو يوماً بعد يوم ، وهذا دليل على أنه يتغذى ، فهل له فضلات ؟ لو كان للجنين فضلات ولو تغوّط في مشيمته لمات ، إذن : يتغذى الجنين غذاءً على قَدَر حاجته نموه ، بحيث لا يتبقى من غذائه شيء .

ثم قال : أين تذهب الأرواح بعد أن تفارق الأجساد ؟ أجاب الرجل إجمالاً : تذهب حيث كانت قبل أن تحلَّ فيك ، وأمامك المصباح وفيه ضوء ، ثم نفخ المصباح فانطفأ ، فقال له : أين ذهب الضوء ؟

ومن الجدل الذي جاء عن عُلَم ودراية ما حدث من الإمام على رضي الله عنه ، حيث قتل أصحابُ معاويةَ عمارَ بن ياسر ، فغضب الصحابة في صفوف معاوية وتذكروا قول رسول الله ﷺ عن عمار :

(١) هو : عامر بن شراحيل الشعبي الحميري ، أبو عمرو ، راوية من التابعين ، يُضرب المثل بحفظه ، ولد عام ١٩ هـ ، ونشأ ومات فجأة بالكوفة عام ١٠٢ هـ عن ٨٤ عاماً اتصل بعبد الملك بن مروان فكان نديمه ورسوله إلى ملك الروم ، كان ضئيلاً نحيفاً ، وهو من رجال الحديث الثقات ، وفقهاً وشاعراً . [الأعلام للزركلي ٢/٢٥١] .

« تقتله الفئة الباغية » ^(١) وأخذوا يتركون جيش معاوية واحداً بعد الآخر ، فذهب عمرو بن العاص إلى معاوية وقال : لقد فشنت في الجيش فاشية ، إن هي استمرت فلن يبقى معنا رجل واحد ، فقال معاوية : وما هي ؟ قال : يقولون : إننا قتلنا عماراً والنبي ﷺ قال عنه : « تقتله الفئة الباغية » .

فأحтар معاوية ثم قال : قل لهم قتله من أخرجه للقتال ^(٢) - يعني : على بن أبي طالب ، فلما بلغ الكلام سيدنا علياً ، قال : قولوا لهم : فمن قتل حمزة بن عبد المطلب ؟ أي : إن كان الأمر كما تقولون فالنبي ﷺ هو قاتل حمزة ؛ لأنه هو الذي أخرجه للقتال .

هذا هو الجدل عن علم ، والعلم قد يكون علماً بدهياً وهو العلم الذي تؤمن به ولا تستطيع أن تدلل عليه . أو علماً عقلياً استدلالياً ، وقد يكون العلم بالوحي من الله لا دخل لأحد فيه ، وسبق أن ضربنا مثلاً للبهديات بالولد الصغير حينما يرى أخاه يجلس بجوار أبيه على المقعد مثلاً ، فيأتي الصغير يريد أن يجلس هو بجوار الأب ، فيحاول أولاً أن يقيم أخاه من المكان فيشدّه ويجذبه ليخلى له المكان .

وهنا نتساءل : كيف عرف الطفل الصغير أن الحيز لا يسمع اثنين ؟ ولا يمكن أن يحلّ بالمكان شيء إلا إذا خرج ما فيه أولاً ؟

(١) من أم سلمة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩١٦) كتاب الفتن ، والبخاري في صحيحه (٤٤٧) .

(٢) عن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه قال : لما قتل عمار بن ياسر دخل عمرو بن حزم على عمرو ابن العاص فقال : قتل عمار . وقد قال رسول الله ﷺ : تقتله الفئة الباغية ، فقام عمرو بن العاص فزعاً يرجع حتى دخل على معاوية فقال له معاوية : ما شأنك ؟ قال : قتل عمار . فقال معاوية : قد قتل عمار ، فماذا ؟ قال عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول : تقتله الفئة الباغية . فقال له معاوية : نحضت في بولك أو نحن قتلناه إنما قتله على وأصحابه ، جاءوا به حتى ألقيوه بين رماحنا - أو قال : بين سيوفنا . أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/٤) .

هذه أمور لم نعلمها إلا في دراستنا الثانوية ، فعرفنا معنى الحيز وعدم تداخل الأشياء ، هذه المسألة يعرفها الطفل بديهياً .

ولو تأملت النظريات الهندسية لوجدت أن كل نظرية تُبنى على نظرية سابقة ، فلو أردت أن تبرهن على النظرية المائة تستخدم النظرية تسعين مثلاً ، وهكذا إلى أن تصل إلى نظرية بدئية لا برهان عليها .

وهكذا تستطيع أن تقول : إن كل شيء علمي في الكون مبني على البديهيات التي لا تحتاج إلى برهان ، ولا تستطيع أن تضع لها تعريفاً ، فالسماء مثلاً ، يقولون : هي كل ما علاك فأظلك ، فالسقف سماء ، والغيم سماء ، والسحاب سماء ، والسماء سماء ، مع أن السماء لا تحتاج إلى مثل هذا التعريف ؛ لأنك حين تسمع هذه الكلمة (السماء) تعرف معناها بديهية دون تعريف .

وهذه الأمور البديهية لا جدل فيها ؛ لأنها واضحة ، فلو قلت لهذا الطفل : اجلس على أخيك ، فهذا ليس جدلاً ؛ لأنه لا يصح .

أما العلم الاستدلالي فأن تستدل بشيء على شيء ، كأن تدخل بيتك فتجد (عقب سيجارة) مثلاً في (طفاية السجائر) فتسال : مَنْ جاءكم اليوم ؟ ومثل الرجل العربي حين سار في الصحراء ، فوجد على الأرض أثراً لخف البعير وبعره ، فقال : البعرة تدل على البعير ، والقدم تدل على المسير .

أما علم الوحي فيأتي من أعلى ، يلقيه الله سبحانه على مَنْ يشاء من عباده .

فعلى المجادل أن يستخدم واحداً من هذه الثلاثة ليجادل به ، فإن جادل بغير علم فهي سفسطة لا طائل من ورائها .

وهذا بخلاف الشيطان إذا تابيت عليه ولم تُطعهُ في معصية صرفك إلى معصية أخرى ، أياً كانت ، المهم أن تعصى ، وهكذا يمكنك أن تُفرّق بين المعصية من نفسك ، أو من الشيطان .

ولما سُئل أحد العلماء : كيف أعرف : أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ قال : هذه مسألة ليست عند العلماء إنما عندك أنت ، قال : كيف ؟ قال : انظر في نفسك ، فإن كان الذي يأخذ منك الصدقة أحب إليك ممّن يعطيك هدية ، فاعلم أنك من أهل الآخرة ، وإن كانت الهدية أحب إليك من الصدقة فأنت من أهل الدنيا .

ذلك لأن الإنسان يجب من عمر له ما يحب ، فالذي يعطيك يعمر لك الدنيا التي تحبها فأنت تحبه ، وكذلك الذي يأخذ منك يعمر لك الآخرة التي تحبها فأنت تحبه . فهذه مسألة لا دُخْل للشيطان فيها .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان]

فهذه الآية تُجمل أنواع العلم الثلاثة التي تحدثنا عنها : فالعلم يُراد به البدهيات ، والهدى أى : الاستدلال ، والكتاب المنير يُراد به ما جاء وحياً من الله ، وبهذه الثلاثة يجب أن يكون الجدل وبالتى هى أحسن .

ومعنى : ﴿ مُرِيدٍ ﴾ [الحج] من مَرَدَ أو مَرَدَ يَمُردُ كُنْثَرُ يَنْثُرُ ، والمرود : العُتُوّ وبلوغ الغاية من الفساد ، ومنها مارد ومريد ومتمرد ، والمارد : هو المستعلى أعلى منك .

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ ، وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٤)

أى : كتب الله على هذا الشيطان المريد ، وحكم عليه حكماً ظاهراً ، هكذا (عني عينك) كما يقال ﴿ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ .. ﴾ (٤) [الحج]
أى : تابعه وسار خلفه ﴿ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٤) [الحج] يضلّه ويهديه ضِدَّان ، فكيف نجمع بينهما ؟

المراد : يُضِلُّهُ عن طريق الحق والخير ، ويهديه أى : للشر ؛ لأن معنى الهداية : الدلالة مُطلقاً ، فإن دلت على خير فهي هداية ، وإن دلت على شر فهي أيضاً هداية .

واقرا قوله سبحانه وتعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ^(١) وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) ﴾ [الصافات]

أى : دلوهم وخذوا بأيديهم إلى جهنم .

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ .. ﴾ (١٦٩) [النساء]

والسَّعِير : هى النار المتوهجة التى لا تخدم ولا تنطفىء .

(١) قال النعمان بن بشير : يعنى بازواجهم اشباهم وامثالهم . قال عمر : يجسء اصحاب الزنا مع اصحاب الزنا ، واصحاب الربا مع اصحاب الربا ، واصحاب الخمر مع اصحاب الخمر . [تفسير ابن كثير ٤/٣] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلِّغُوا أَشَدَّكُمْ^(١) وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾

قوله : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ .. ﴾ (٥) [الحج]

الريب : الشك . فالمعنى : إن كنتم شاكّين في مسألة البعث ، فالإيكم الدليل على صدقه ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ .. ﴾ (٥) [الحج] أى : الخلق الأول ، وهو آدم عليه السلام ، أما جمهرة الناس بعد آدم فخلقوا من (نطفة) حية من إنسان حى .

(١) النطفة : الماء الصافى ، وتطلق في القرآن على ماء الرجل أو المرأة الذى يُخلق منه الولد .
العلقة : الدم الجامد الغليظ الذى يعلق بما يمسّه . والمضغة : القطعة من اللحم تمضغ لتماسكها . ومخلقة : أى مضغة مشكّلة ومصورة على هيئة طفل . وغير مخلقة : أى غير مشكّلة ، أى غير تامة التصوير [القاموس القويم للقرآن الكريم] .
(٢) هو : الهرم والخرف حتى لا يعقل . [تفسير القرطبي ٤/٦ : ٤٥٤٤] .

والمتتبع لآيات القرآن يجد الحق - سبحانه وتعالى - يقول مرة في خلق الإنسان : ﴿مِنْ تُرَابٍ .. (٥)﴾ [الحج] ، ومرة ﴿مِنْ مَّاءٍ .. (٦)﴾ [الطارق] ، و ﴿مِنْ طِينٍ .. (٢)﴾ [الأنعام] ، و ﴿مِنْ حَمَإٍ^(١) مُسْنُونٍ (٢٦)﴾ [الحجر] ، و ﴿مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤)﴾ [الرحمن] وهذه التي دعت المستشرقين إلى الاعتراض على أسلوب القرآن ، يقولون : من أى هذه الأشياء خُلِقْتُمْ ؟

وهذا الاعتراض ناشىء من عدم فهم لغة القرآن ، فالتراب والماء والطين والحما المسنون والصلصال ، كلها مراحل متعددة للشئ الواحد ، فإذا وضعت الماء على التراب صار طيناً ، فإن تركت الطين حتى يتخمر ، ويتداخل بعضه فى بعض حتى لا تستطيع أن تُميز عنصراً فيه عن الآخر . وهذا عندما يعطَنُ وتتغير رائحته يكون هو الحما المسنون ، فإن جَفَّ فهو صلصال كالفخار ، ومنه خلق الله الإنسان وصورة ، ونفخ فيه من روحه ، إذن : هذه مراحل للشئ الواحد ، ومرور الشئ بمراحل مختلفة لا يُغيّره .

ثم تكلم سبحانه عن الخلق الثانى بعد آدم عليه السلام ، وهم ذريته ، فقال : ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ .. (٥)﴾ [الحج] والنطفة فى الأصل هى قطرة الماء العذب ، كما جاء فى قول الشاعر :

بَقَايَا نِطَافٍ أودَعَ الغيمُ صَفْوَهَا مُثْقَلَةُ الأرجاء زُرْقُ الجَوَانِبِ

ولا تظهر زُرْقَةُ الماء إلا إذا كان صافياً لا يشوبه شئ ، وكذلك النطفة هى خلاصة الخلاصة ، لأن جسم الإنسان تحدث فيه عملية

(١) الحما والحماة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مصور بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصلل . [القاموس القويم ٢٣١/١] .

الاحتراق ، وعملية الأيض أى : الهدم والبناء بصفة مستمرة ينتج عنها خروج الفضلات المختلفة من الجسم : فالبول ، والغائط ، والعرق ، والدموع ، وصَعَّغُ الأذن ، كلها فضلات ناتجة عن احتراق الطعام بداخل الجسم حيث يمتص الجسم خلاصة الغذاء ، وينقلها إلى الدم .

ومن هذه الخلاصة يُستخلص منى الإنسان الذى تؤخذ منه النطفة ، فهو - إذن - خلاصة الخلاصة فى الإنسان ، ومنه يحدث الحمل ، ويتكوّن الجنين ، وكان الخالق - عز وجل - قد صَفَّأها هذه التصفية ونَقَّأها كل هذا النقاء ؛ لأنها ستكون أصلًا لأكرم مخلوقاته ، وهو الإنسان .

وهذه النطفة لا تنزل من الإنسان إلا فى عملية الجماع ، وهى الذُّى متعة فى وجود الإنسان الحى ، لماذا ؟ لو تأملت متعة الإنسان ولذاته الأخرى مثل : لذة الذُّوق ، أو الشم ، أو العلمس ، فهى لذاتٌ معروفة محددة بحاسة معينة من حواس الإنسان ، أمّا هذه اللذة المصاحبة لنزول المنى أثناء هذه العملية الجنسية فهى لذة شاملة يهتز لها الجسم كله ، ولا تستطيع أن تُحدّد فيها منطقة الإحساس ، بل كل ذرة من ذرات الجسم تحسها .

لذلك أمرنا ربنا - عز وجل - أن نغتسل بعد هذه العملية ؛ لأنها شغلت كل ذرة من ذرات تكوينك ، وربما - عند العارفين بالله - لا تغفل عن الله تعالى إلا فى هذه اللحظة ؛ لذلك كان الأمر بالاغتسال بعدها ، هذا قول العلماء .

أما أهل المعرفة عن الله وأهل الشطح وأهل الفيوضات فيقولون :

إن الله خلق آدم من طين ، وجعل نسله من هذه النطفة الحية التي وضعها في حواء ، ثم أتى منها كل الخلق بعده ، فكان في كل واحد منا ذرة من أبيه آدم ؛ لأنه لو طرأ على هذه الذرة موت ما كان نسل بعد آدم ، فهذه الذرة موجودة فيك في النطفة التي تلقىها ويأتى منها ولدك ، وهى أصغى شئ فيك ؛ لأنها الذرة التي شهدت الخلق الأول خلق أبيك آدم عليه السلام .

وقد قربنا هذه المسألة وقلنا : لو أنك أخذت سنتيمتراً من مادة ملونة ، ووضعت في قارورة ماء ، ثم أخذت ترج القارورة حتى اختلط الماء بالمادة الملونة فإن كل قطرة من الماء بها ذرة من هذه المادة ، وهكذا لو ألقيت القارورة في برميل .. الخ .

إذن : فكل إنسان منا فيه ذرة من أبيه آدم عليه السلام ، هذه الذرة شهدت خلق آدم ، وشهدت العهد الأول الذى أخذه الله على عباده فى قوله تعالى :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢)﴾ [الأعراف]

لذلك : يُسمّى الله تعالى إرسال الرسل بعثاً فيقول : ﴿بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١)﴾ [الفرقان] بعثه : كأنه كان موجوداً وله أصل فى رسالة مباشرة من الله حين أخذ العهد على عباده ، وهم فى ظهْر آدم عليه السلام ، كما يخاطب الرسول بقوله : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١)﴾ [الغاشية] أى : مُذَكِّرٌ بالعهد القديم الذى أخذناه على أنفسنا .

لذلك اقرأ الآية : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا .. (١٧٢)﴾ [الأعراف]

هذا فى مرحلة الذُّرِّ قبل أن يأتى الهوى فى النفوس ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ [الاعراف]

إذن : بعث الله الرسل لتذكُّر بالعهد الأول ، حتى لا تحدث الغفلة ، وحتى تقيم على الناس الحجة .

ثم يقول تعالى : ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ۖ﴾ (٥) [الحج] سَمِيَتْ النطفة علقه ؛ لأنها تعلق بالرحم ، يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿أَلَمْ يَكْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢٨﴾ [القيامة]

فالمنى هو السائل الذى يحمل النطفة ، وهى الخلاصة التى يتكوَّن منها الجنين ، والعلقة هنا هى البُويضة المخصَّبة ، فبعد أن كان للبويضة تعلق بالأم ، وللحيوان المنوى (النطفة) تعلق بالاب ، اجتماعاً فى تعلق جديد والتقياً ليتشَبَّها بجدار الرحم ، وكان فيها ذاتية تجعلها تعلق بنفسها ، يُسمونها (زيجوت) .

ومنها قولهم : فلان هذا مثل العلقه إذا كان ملازماً لك .

بعد ذلك تتحول العلقه إلى مضغة ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ ۖ﴾ (٥) [الحج] والمضغة : هى قطعة لحم صغيرة قدر ما يُمضغ من الطعام ، وهو خليط من عدَّة أشياء ، كما لو أكلت مثلاً قطعة لحم مع ملعقة خضار مع ملعقة أرز ، وبالمضغ يتحوَّل هذا إلى خليط ، ذلك لأن جسم الإنسان لا يتكوَّن من عنصر واحد ، بل من ستة عشر عنصراً .

هذه المضغة ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ۖ﴾ (٥) [الحج] معنى مخلقة يعنى : يظهر عليها هيكل الجسم ، وتتشكَّل على صورته ، فهذه

للرأس ، وهذه للذراع ، وهذه للرجل وهكذا ، يعنى تَخَلَّقَتْ على هيئة الإنسان .

أما غير المخلقة ، فقد عرفنا مؤخراً أنها الخلايا التى تُعَوِّضُ الجسم وتُرَقِّعُه إذا أصابه عَطَبٌ فهى بمثابة (احتياطى) لإعادة تركيب ما تلف من أنسجة الجسم وترميمها ، كما يحدث مثلاً فى حالة الجُرْح فإن تركته لطبيعة الجسم يندمل شيئاً فشيئاً ، دون أن يترك أثراً .

نرى هذا فى أولاد الفلاحين ، حين يُجرح الواحد منهم ، أو تظهر عنده بعض الدمامل ، فيتركونها لمقاومة الجسم الطبيعية ، وبعد فترة تتلاشى هذه الدمامل دون أن تترك أثراً على الإطلاق ؛ لأنهم تركوا الجسم للصيدلية الربانية .

أما إذا تدخلنا فى الجُرْح بمواد كيمياوية أو خياطة أو خلافه فلا بد أن يترك أثراً ، فترى مكانه لامعاً ؛ لأن هذه المواد أتلفت مسام الجسم ؛ لذلك نجد مثل هذه الأماكن من الجسم قد تغيرت ، ويميل الإنسان إلى حكها (وهرشها) ؛ لأن هذه المسام كانت تُخرج بعض فضلات الجسم على هيئة عرق ، فلما انسدت هذه المسام سببت هذه الظاهرة . هذا كله لأننا تدخلنا فى الطبيعة التى خلقها الله .

إذن : فمعنى ﴿ وَغَيْرِ مُخَلَقَةٍ .. ﴾ (٥) [الحج] هى الصيدلية التى تُعَوِّضُ وتُعِيدُ بناء ما تلف من جسم الإنسان .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لَنَبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّئُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴾ (٥) [الحج] أى : نُوضِّحُ لكم كل ما يتعلَّقُ بهذه المسألة ﴿ وَنُقَرِّئُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ .. ﴾ (٥) [الحج] وهى المضغَّة التى قُدِّرَ لها أن تكون جنيناً يكتمل إلى أن يولد ؛ لذلك قال : ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴾ (٥) [الحج] أو نسقطه ميتاً قبل ولادته .

فَإِنْ قُلْتَ : وما الحكمة من خلقه وتصويره ، إِنْ كَانَ قَدْ قُدِّرَ لَهُ أَنْ يَمُوتَ جَنِينًا ؟ نقول : لنعرف أن الموت أمر مُطْلَق لا رابط له ولا سن ، فالموت يكون للشيخ كما يكون للجنين في بطن أمه ، ففي أي وقت ينتهي الأجل .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا .. ﴾ [الحج] قال : ﴿ نُخْرِجُكُمْ .. ﴾ [الحج] بصيغة الجمع ولم يقل : أطفالاً إنما ﴿ طِفْلًا .. ﴾ [الحج] بصيغة المفرد ، لماذا ؟ قالوا : في اللفظ ألفاظ يستوى فيها المفرد والجمع ، فطفل هنا بمعنى أطفال ، وقد وردت أطفال في موضع آخر في قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ ^(١) .. ﴾ [النور]

وكما نقول : هذا رجل عدل ، ورجال عدل . وفي قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يتكلم عن الأصنام فيقول : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي .. ﴾ [الشعراء] ولم يقل : أعداء . وحينما تكلم عن ضيفه قال : ﴿ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي .. ﴾ [الحجر] ولم يقل : ضيوفى ، إذن : المفرد هنا يُؤدَّى معنى الجمع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ لَتَبَلَّغُوا أَشَدُّكُمْ .. ﴾ [الحج] وهكذا ، ينقلنا السياق من الطفولة إلى المرحلة النهائية من عمر الإنسان ، وسبق أن تحدثنا عن مراحل عمر الإنسان ، وأنه يمر بمرحلة الرشد : رُشد البنية حين يصبح قادراً على إنجاب مثله ، ورُشد العقل حين يصبح قادراً على التصرف السليم ، ويحسن الاختيار بين البدائل . ثم تأتي مرحلة الأشد : ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ .. ﴾ [الاحقاف] يعنى : نضج نضجاً من حوادث الحياة أيضاً .

(١) حلم العصبى يحلم حلمًا : بلغ مبلغ الرجال . [القاموس القويم ١/ ١٦٩] .

سُورَةُ الْحَجِّ

٩٧٠٩

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَلَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ .. ﴾ [الحج] وأردل العمر يعنى رديشه ، حين تظهر على الإنسان علامات الخَوَر والضعف ﴿ لَكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا .. ﴾ [الحج] لأنه ينسى ، وعندها يعرف أن صحته وقوته وسلطانه ليست ذاتية فيه ، إنما موهوبة له من الله .

وإذا بلغ الرجل أَرْدَلَ العمر يعود من جديد إلى مرحلة الطفولة تدريجياً ، فيحتاج لمن يأخذ بيده ليقوم أو ليمشى ، كما تأخذ بيد الطفل الصغير ، فإذا تكلم يتهته ويتلعثم كالطفل الذى يتعلم الكلام .. وهكذا فى جميع شئونه .

لذلك يقولون : الزواج المبكر أقرب طريق لإنجاب (والد) يعولك فى طفولة شيخوختك ، ولم يَقُلْ : ولداً ؛ لأنه سيقوم معك فيما بعد بدور الوالد ، يقولون : لحق والده يعنى سنهما متقارب .

لكن ، لماذا يُرَدُّ بعضنا إلى أَرْدَلِ العمر دون بعض ؟ الحق سبحانه جعلها نماذج حتى لا نقول : يا ليت أعمارنا تطول ؛ لأن أعمار الجميع لو طالت إلى أَرْدَلِ العمر لأصبح الأمر صعباً علينا ، فمن رحمة الله بنا أن خلق الموت .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج]

أى : كما كان خلق الإنسان من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مُضْغَةٍ مُخْلَقَةٍ وغير مُخْلَقَةٍ ، ثم أخرجه طفلاً ، وبلغ أشده ، ومنهم من مات ، ومنهم من يُرَدُّ إلى أَرْدَلِ العمر ، كذلك الحال فى الأرض : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً .. ﴾ [الحج]

هامة : ساكنة ، ومنه قولنا للولد كثير الحركة : اهد ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَاهَا عَلَىٰهَا الْمَاءَ اهْتَزَتْ ۖ ۝٥ ﴾ [الحج] أى : تحركت ذراتها بالنبات بعد سكونها .

والاهتزاز : تحرك ما كنت تظنه ثابتاً ، وليس ما كان ثابتاً فى الواقع : لان لكل كائن حركة فى ذاته ، حتى قطعة الحديد الجامدة لها حركة بين ذراتها ، لكن ليس لديك من وسائل الإدراك ما تدرك به هذه الحركة . ولو تأملت المغناطيس لأدركت هذه الحركة بين ذراته ، فحين تُدَلِّك القضيب الممغنط وتُمرِّره على قضيب آخر غير مُمغنط فى اتجاه واحد ، فإنه يكتسب منه المغناطيسية ، وتمرير المغناطيس فى اتجاه واحد معناه تعديل للذرات لتحمل شحنة واحدة سالبة أو موجبة ، فإن اختلف اتجاه الدِّلِّك فإن الذرات أيضاً تختلف .

إذن : فى الحديد - رمز الصلابة والجمود - حركة وحياة تناسبه ، وإن خُيِّلَ إليك أنه أصم جامد فى ظاهره .

لذلك نقول ﴿ هَامِدَةٌ ۖ ۝٥ ﴾ [الحج] يعنى : ساكنة فى رأى العلم ، حيث لا نبات فيها ثم ﴿ اهْتَزَتْ ۖ ۝٥ ﴾ [الحج] يعنى : زادت وربت وتحركت لإخراج النبات ، إنما هى فى الحقيقة لم تكن ساكنة مُطلقاً : لان فيها حركة ذاتية بين ذراتها .

ومعنى : ﴿ وَرَبَّتْ ۖ ۝٥ ﴾ [الحج] أى : زادت عن حجمها ، كما تزيد حبة الفول مثلاً حين تُوضَع فى الماء ، وتأخذ حظها من الرطوبة ، وكذلك فى جميع البقول ، وهذه الزيادة فى حجم الحبة هى التى تفلقها إلى فلقتين فى عملية الإنبات ، ويخرج منها زبَان يتجه إلى أعلى فيكون الساق الذى يبحث عن الهواء ، وإلى أسفل فيكون الجذر الذى يبحث عن الماء . وتظل هاتان الفلقتان مصدرَ غذاء للنبتة حتى

تقوى ، وتستطيع أن تمتص غذاءها من التربة ، فإذا أدت هاتان الفلفتان مهمتهما في تغذية النبتة تحولتا إلى ورقتين ، وهما أول ورقتين في تكوين النبتة .

كذلك ، نلاحظ في تغذية النبات أنه لا يأخذ كل غذائه من التربة ، إنما يتغذى بنسبة ربما ٩٠ بالمائة من غذائه من الهواء ، وتستطيع أن تلاحظ هذه الظاهرة إذا نظرت إلى إصيص به زرع ، فسوف تجد ما نقص من التربة كمية لا تذكر بالنسبة لحجم النبات الذي خرج منها .

وحين تتأمل جذر النبات تجد فيه آية من آيات الله ، فالجذر يمتد إلى أن يصل إلى الرطوبة أو الماء ، حتى إذا وصل إلى مصدر غذائه توقّف ، ولك أن تنظر مثلاً إلى (كوز الحلبة) فسوف تجد الجذور غير متساوية في الطول ، بحسب بُعد الحبة عن مصدر الرطوبة .

﴿ وَرَبَّتْ .. ﴾ [٥٠] [الحج] أى : زادت وانتفشت ، كما يحدث في العجين حين تضع فيه الخميرة ﴿ وَأَنْبَتَ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [٥١] [الحج]

هذه صورة حية واقعية نلاحظها جميعاً عياناً : الأرض تكون جرداء ساكنة ، لا حركة فيها ، فإذا ما نزل عليها الماء تغيرت وتحركت ذراتها وتشققت عن النبات ، ولو حتى بالمطر الصناعي ، كما كنا نرى في عرفة مثلاً ينزل عليها المطر الصناعي فيخضر الوادى ، لكن حينما ينقطع الماء يعود كما كان لعدم موالاة الماء ، ولو واليت عليها بالماء لصارت غابات وأحراشاً وبساتين كالتى نراها في أوروبا .

والمطر لا يحتاج أن تسوى له الأرض ؛ لأنه يسقى المرتفع

والمنخفض على السواء ، على خلاف الأرض التى تسقيها أنت لا بدُّ
أن تُسويها للماء حتى يصل إليها جميعاً .

فإذا أنزل الله تعالى المطر على الأرض الجدياء الجرداء تراها
تتفتح بالنبات ، فمن أين جاءت هذه البذور ؟ وكيف لم يُصبها
العطب ، وهى فى الأرض طوال هذه الفترات ؟ الأرض هى التى
تحفظها من العطب إلى أن تجد البيئة المناسبة للإنبات ، وهذا النبات
الذى يخرج من الأرض دون تدخل الإنسان يسمونه (عذى) .

أما عن نقل هذه البذور فى الصحراء وفى الوديان ، فهى تنتقل
بواسطة الريح ، أو فى روث الحيوانات .

ومعنى : ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ٥ ﴾ [الحج] الزوج : البعض يظن
الزوج يعنى الاثنين ، إنما الزوج كلمة مفردة تدل على واحد مفرد معه
مثله من جنسه ، ففى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ١٥ ﴾ [النجم]
فكل منهما زوج ، وكما نقول : زوج أحذية يعنى فردة
حذاء معها فردة أخرى مثلها ، ومثلها كلمة توأم يعنى مولود معه مثله
فكل واحد منهما يسمى (توأم) وهما معاً (توأمان) ولا نقول :
هما توأم .

وهنا مظهر من مظاهر دقة الأداء القرآنى : ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ .. ٥ ﴾ [الحج]
لأن كل المخلوقات ، سواء أكانت جماداً أو نباتاً أو
حيواناً ، لا بدُّ فيه من ذكر وأنثى ، هذه الزوجية قال الله فيها :
﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. ١٦ ﴾ [الذاريات] حتى فى الجماد الذى
نظنه جماداً لا حركة فيه ، يتكوّن من زوجين : سالب وموجب فى
الكهرباء ، وفى الذرة ، وفى المغناطيس ، فكلُّ شىء يعطى أعلى منه ،
فلا بدُّ فيه من زوجين .

لذلك ، فالحق سبحانه وتعالى حينما عالج هذه المسألة عالجها برصيد احتياطي في القرآن ، يقول سبحانه : ﴿سَبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تَبَتَّ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦) [يس] فقله سبحانه : ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦) [يس] رصيد عال لما سيأتى به العلم من اكتشافات تثبت صدق القرآن على مرّ الأيام ، وفى الماضى عرفنا الكهرباء ، وأنها سألَب وموجب فقلنا : هذه مما لا نعلم ، وفى الماضى القريب عرفنا الذرة فقلنا : هذه مما لا نعلم ، وهذا وجه من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم .

إذن : خُذْهَا قضية عامة : كل شيء يتكاثر إلى أعلى منه ، فلا بُدَّ أن فيه زوجية .

فقله تعالى : ﴿وَأَنْبَتْنَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (٥) [الحج] فالزوج من النبات مفرد معه مثله ، وهذا واضح فى لقاح الذكر والانثى ، هذا اللقاح قد يكون فى الذكر وحده ، أو فى الانثى وحدها كما فى النخل مثلاً ، وقد يكون العنصران معاً فى النبات الواحد كما فى سنبله القمح أو فى كوز الذرة .

ولو تأملت نبات الذرة لوجدت له فى أعلاه (شوشة) بها حبيبات دقيقة تحمل لقاح الذكورة ، وفى منتصف العود يخرج الكوز ، وبه شعيرات تصل كل شعرة منها إلى حبة من حبات الذرة المصطفة على الكوز ، وهذه تحمل لقاح الانوثة ، فإذا هبَّ الريح هزَّتْ أعلى العود فتساقطت لقاحات الذكورة على هذه الشعيرات فلقحتها ؛ لذلك نرى الحبة التى لا يخرج منها شعرة إلى خارج الغلاف تضمر وتموت ؛ لأنها لم تأخذ حظها من اللقاح .

ومعنى : ﴿بَهِيجٍ﴾ (٥) [الحج] من البهجة ، فالمراد : الشيء حسن المنظر والجميل الذى يجذب الانظار إليه ، وبهجة النظر إلى

النبات شائعة لا تقتصر على مَنْ يملكه بخلاف الأكل منه ، فحين تمر
ببيستان أو حديقة تتمتع بمنظرها وجمال ألوانها وتُسَرُّ برائحتها .
وفى النفس الإنسانية ملكات تتغذى على هذه الخضرة ، وعلى
هذه الألوان وتنبسط لهذا الجمال ، ولو لم تَكُنْ تملكه .

لذلك الحق - سبحانه وتعالى - ينبهنا إلى هذه المسألة فى قوله
تعالى : ﴿ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ .. (٩٩) ﴿ [الانعام] أى : أن
النظر مشاع للجميع ، ثم بعد ذلك اتركوا الخصوصيات لأصحابها ،
تمتعوا بما خلق الله ، وفى النفس ملكات أخرى غير الطعام .
واقرا أيضا قوله تعالى فى الخيل : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ
وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل] فليست الخيل لحمل الأثقال وفقط ، وإنما
فيها جمال وأبهة ، تُرضى شيئا فى نفوسكم ، وتُسَبِّح ملكة من ملكاتها .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ
وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٦)

أى : أن ما حدث فى خلق الإنسان تكويناً ، وما حدث فى إنبات الزرع
تكويناً ونماءً ، يردُّ هذا كله إلى أن الله تعالى ﴿ هُوَ الْحَقُّ ﴾ .. (٦) ﴿ [الحج]
فلماذا أتى بالحق ولم يقل الخالق ؟ قالوا : لأن الخالق قد يخلق شيئا ثم
يتخلى عنه ، أما الله - سبحانه وتعالى - فهو الخالق الحق ، ومعنى الحق
أى : الثابت الذى لا يتغير ، كذلك عطاؤه لا يتغير ، فسوف يظل سبحانه
خالقا يعطيك كل يوم ؛ لأن عطاءه سبحانه دائم لا ينقد .

(١) ينع الثمر : أدرك ونضج ، والينع : النضج ، واليانع : الناضج . [لسان العرب - مادة : ينع] .

وإذا نظرت إلى الوجود كله لوجدته دورة مكررة ، فالله عز وجل قد خلق الأرض وقدر فيها أقواتها ، فمثلاً كمية الماء التي خلقها الله في الكون هي لم تزد ولم تنقص ؛ لأن للماء دورة في الحياة ، فالماء الذي تشربه طوال حياتك لا يُنقص في كمية الماء الموجودة ؛ لأنه سيخرج منك على صورة فضلات ليعود في دورة الماء في الكون من جديد .

وهكذا في الطعام الذي نأكله ، وفي الوردة الجميلة الطرية التي نقطفها ، كل ما في الوجود له دورة يدور فيها ، وهذا معنى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١) ﴾ [فصلت]

فمعنى : ﴿ الْحَقُّ .. (٢) ﴾ [الحج] هنا الثابت الذي لا يتغير في الخلق وفي العطاء . فلا تظن أن عطاء الله لك شيء جديد ، إنما هو عطاء قديم يتكرر لك ولغيرك .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى .. (٣) ﴾ [الحج] كما قلنا في الآية السابقة : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً .. (٤) ﴾ [الحج] أى : ساكنة لا حياة فيها ، والله وحده القادر على إحيائها ؛ لذلك نجد علماء الفقه يُسمون الأرض التي نصلحها للزراعة (إحياء الموات)^(١) فالله تعالى

(١) إحياء الموات معناه : إعداد الأرض الميتة التي لم يسبق تعميرها ونهيتها وجعلها صالحة للانتفاع بها في السكنى والزرع ونحو ذلك . ويشترط لاعتبار الأرض مواتاً أن تكون بعيدة عن العمران ، حتى لا تكون مرفقاً من مرافقه ، ولا يتوقع أن تكون من مرافقه ، ويرجع إلى العرف في معرفة مدى البعد عن العمران . واتفق الفقهاء على أن الإحياء سبب للملكية لحديث رسول الله ﷺ : « من أحيا أرضاً ميتة فهي له » . واختلفوا في اشتراط إذن الحاكم في الإحياء فأكثر العلماء على عدم اشتراط إذن الحاكم . وذهب أبو حنيفة إلى اشتراط إذن الإمام وإقراره ، وفرق مالك بين الأراضى المجاورة للعمران والأراضى البعيدة عنه . ويجوز للحاكم العادل أن يقطع بعض الأفراد من الأرض الميتة والمعادن والمياه ما دامت هناك مصلحة . فإذا لم تتحقق المصلحة بأن لم يعمرها من أقطع له ولم يستثمرها فإنها تنزع منه ، [فقه السنة - الشيخ سيد سابق ٢/٢٠١ - ٢٠٤ بتصرف] .

هو القادر وحده على إحياء كل ميت ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦) [الحج]

وما دام الامر كذلك وما دُمتُم تشاهدون آية إحياء الموات في الارض الميتة فلا تنكروا البعث وإعادةكم بعد الموت . فيقول تعالى :

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ

مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (٧)

وقد سبق أن أنكروا البعث بعد الموت وقالوا : ﴿أَنذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (١٦) أو أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) [الصافات]

فيرد عليهم الحق سبحانه : نعم ، سنعيدكم بعد الموت ، والذي خلقكم من لا شيء قادر على إعادةكم من باب أولى ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ..﴾ (٢٧) [الروم] والحق سبحانه هنا يخاطبنا على قدر عقولنا ؛ لأننا نفهم أن الخلق من موجود أهون من الخلق من عدم ، أما بالنسبة للخالق - عز وجل - فليس هناك سهل وأسهل ، ولا هين وأهون .

فقوله تعالى : ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ..﴾ (٧) [الحج] كان عملية إحياء الموتى ليست منتهى قدرة الله ، إنما في قدرته تعالى كثير من الآيات والعجائب ، ومعنى : ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا ..﴾ (٧) [الحج] أى : لا شك فيها . والساعة : أى زمن القيامة وموعدها ، لكن القيامة ستكون للحساب وللفصل بين الناس ، فلا بُدَّ من بعثهم من القبور ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (٧) [الحج]

فَكُلُّ مَا تَقْدُمُ نَاشِئٌ مِنْ أَنَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ الْحَقُّ ؛ وَلَأنَّهُ سَبْحَانَهُ
الْحَقُّ ، فَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَالسَّاعَةُ آتِيَةٌ
لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ .
ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى
وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ (٨)

تكلّمنا في أول السورة عن الجدل بالعلم والموعظة الحسنة وقلنا :
العلم إما علم بدّهى أو علم استدلالى عقلى ، أو علم بالوحي من الله
سبحانه ، أما هؤلاء الذين يجادلون في الله بغير علم بدّهى ﴿ وَلَا
هُدًى .. ﴾ (٨) [الحج] يعنى : علم استدلالى عقلى ، ﴿ وَلَا كِتَابٍ
مُنِيرٍ ﴾ (٨) [الحج] يعنى : وحي من الله ، فهؤلاء أهل سفسطة وجدل
عقيم لا فائدة منه ، وعلى العاقل حين يصادف مثل هذا النوع من
الجدال أن لا يجاريه في سفسطته ؛ لأنه لن يصل معه إلى مفيد ،
إنما عليه أن ينقله إلى مجال لا يحتمل السفسطة .

ولنا في هذه المسألة مثلٌ وقُدوة بسيدنا إبراهيم - عليه السلام -
حينما جادل النمرود ، اقرأ قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ
إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ
قَالَ أَنَا أَحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا
مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ .. ﴾ (٢٥٨) [البقرة]

لقد اتبع النمرود أسلوب السفسطة حين قال ﴿ أَنَا أَحْيِى

وَأُمِيتُ .. (٢٥٨) ﴿ [البقرة] لأنه لما فعل حقيقة الموت ، ولا حقيقة الحياة ^(١) ، فاراد إبراهيم أن يلجئه إلى مجال لا سفسطة فيه ؛ لينهى هذا الموقف ويسدّ على خصمه باب اللدد والتهريج ، فقال : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة] وكانت النتيجة أن حارّ عدو الله جواباً ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة] أى : دهش وتحير .

﴿ ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ^(٢)
وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝٩﴾

﴿ ثَانِي .. (٩) ﴾ [الحج] ثنى الشيء يعنى : لواه ، وعطفه : يعنى جنبه ، والإنسان فى تكوينه العام له رأس ورقبة وكتفان ، وله جانبان وظهْر ، وهذه الأعضاء تُؤدّى دوراً فى حياته وحركته ، وتدلّ على تصرفاته ، فالذى يجادل فى الله عن غير علم ولا هدى ولا كتاب منير يثنى عنك جانبه ، ويلوى رأسه ؛ لأن الكلام لا يعجبه ؛ ليس لأن كلامك باطل ، إنما لا يعجبه لأنه أفلس وليست لديه الحجة التى يواجهك بها ، فلا يملك إلا هذه الحركة .

(١) وذلك أن النمرود قال : « إني أوتي بالرجلين قد استحقا القتل فأمر بقتل أحدهما فيقتل ، وأمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل » قاله قتادة ومحمد بن إسحاق والسدى وغير واحد . أورده ابن كثير فى تفسيره (٢١٣/١) . ثم قال ابن كثير : « والظاهر والله أعلم أنه ما أراد هذا لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ولا فى معناه ، لأنه مانع لوجود الصانع ، وإنما أراد أن يدعى لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ويوهم أنه فاعل لذلك وأنه هو الذى يحيى ويميت » .

(٢) العطف : الجانب . عطفاً الإنسان : جانباه . ويقال : ثنى عطفه : أى : أعرض وابتعد بجانبه . وقوله : ﴿ ثَانِي عِطْفِهِ .. (٩) ﴾ [الحج] . كناية عن الإعراض كبيراً وغروراً . [القاموس القويم ٢٥/٢] .

لذلك يُسَمَّى هذا الجدل «مراء» ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفْتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ (١٢) [النجم] يعنى : أتجادلون رسول الله فى أمر رآه ؟ والمراء : هو الجدل العنيف ، مأخوذ من (مَرَى ^(١) الضرع) يعنى : حَلَب ما فيه من لبن إلى آخر قطرة فيه ، وأهل الريف يقولون عن هذه العملية (قرقر البقرة) يعنى : أخذ كل لبنها ولم يَبْقَ فى ضرعها شيء .

كذلك المجادل بالباطل ، أو المجادل بلا علم ولا حجة تراه يكابر لياخذ آخر ما عند خصمه ، ولو كان عنده علم وحجة لانتهى الموقف دون لجج أو مكابرة .

والقرآن الكريم يعطينا صورة لهذا الجدل والإعراض عن الحق ، فيقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٥) [المنافقون]

والقرآن يعطينا التدرج الطبيعى للإعراض عن الحق الذى يبدأ بلى الرأس ، ثم الجانب ، ثم يعطيك دُبْرَه وعَرْض أكتافه ، هذه كلها ملاحظ للفرار من الجدل ، حين لا يقوى على الإقناع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴾ (٦) [الحج] هذه عِلَّة ثْنَى جانبه ، لأنه يريد أن يُضِلَّ مَنْ اهتدى ، فلو وقف يستمع لخصمه وما يلقىه من حجج ودلائل لانهزم ولم يتمكن من إضلال الناس ؛ لذلك يَثْنَى عِطْفَه هَرَبًا من هذا الموقف الذى لا يَقْدِر على مواجهته والتصدى له .

فما جزاء هذا الصنف ؟ يقول تعالى : ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ .. ﴾ (٦) [الحج] والخِزْي : الهوان والذُلَّة ، هذا جزاء الدنيا قبل جزاء الآخرة ،

(١) المَرَى : مَسَحَ الضرع الناقة لتدر . وثاقه مَرَى : غزيرة اللبن . [لسان العرب - مادة : مرى] .

ألم يحدث للكفار هذا الخزي يوم بدر ؟ ألم يُمسك رسول الله ﷺ بقضيب في يده قبل المعركة ويشير به : « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان » ^(١) ويسمى صنابير الكفر ورؤوس الضلال في قريش ؟ وبعد انتهاء المعركة كان الأمر كما أخبر رسول الله ﷺ ، وصُرع كل هؤلاء الصناديد في نفس الأماكن التي أشار إليها رسول الله .

ولما قُتل في هذه المعركة أبو جهل علاه سيدنا عبد الله بن مسعود ، سبحان الله ، عبد الله بن مسعود راعى الغنم يعتلى ظهر سيد قريش ، عندها قال أبو جهل - وكان فيه رمق حياة : لقد ارتقيت مُرتقى صعباً يا رُوَيْعِي الغنم ^(٢) ، يعني : ركبتني يا ابن الإيه !! فأى خزي بعد هذا ؟

وأبو سفيان بعد أن شفع له العباس رضي الله عنه عند رسول الله ﷺ ، ورأى موكب النبي يوم الفتح ، وحوله رايات الأنصار في موكب رهيب مهيب ، لم يملك نفسه ولم يستطع أن يخفى ما في صدره ، فقال للعباس رضي الله عنه : لقد أصبح مُلك ابن أخيك قوياً ، فقال له : إنها النبوة يا أبا سفيان ^(٣) يعني : المسألة ليست مُلكاً ، إنما هي النبوة المؤيدة من الله .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٩) من حديث أنس - رضي الله عنه - وأحمد في مسنده (٢١٩/٣ ، ٢٥٨) أن رسول الله ﷺ قال : « هذا مصرع فلان » ويضع يده على الأرض هاهنا وهامنا ، قال : فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ .

(٢) قال عبد الله بن مسعود : وجدته بآخر رمق لمعرفته ، فوضعت رجلي على عنقه . فقال له أبو جهل : لقد ارتقيت مُرتقى صعباً يا رُوَيْعِي الغنم . قال : ثم أحتزرت رأسه ثم جئت به رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله . هذا رأس عدو الله أبي جهل « أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٦٣٦/٢) .

(٣) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٤٠٤/٤) : « قال أبو سفيان : سبحان الله يا عباس ، من هؤلاء ؟ قال : قلت : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيماً . قال : قلت : يا أبا سفيان ، إنها النبوة . قال : فنعمة إن » .

وسيدنا أبو بكر - رضى الله عنه - حينما استأذن عليه القوم فى الدخول ، فأذنَ للسابقين إلى الإسلام من العبيد والموالى ، وترك بعض صناديد قريش على الباب ، (فورمت) أنوفهم من هذا الأمر واغتاضوا ، وكان فيهم أبو سيدنا أبى بكر فقال له : أتأذن لهؤلاء وتتركنا ؟ فقال له : إنه الإسلام الذى قدّمهم عليكم . وقد شاهد عمر هذا الموقف فقال لهم : ما لكم ورمّت^(١) أنوفكم ؟ وما بالكم إذا أُذن لهم على ربهم وتأخرتم أنتم .

فالغضب الحقيقى سيكون فى الآخرة حين يُنادى بهؤلاء إلى الجنة ، وتتأخرون أنتم فى هؤل الموقف .

واقرا قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۚ ﴾ [الواقعة]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۖ ﴾ [الحج] فهذا الخزى الذى رآوه فى الدنيا لن يُفلتهم من خزى وعذاب الآخرة ، ومعنى ﴿ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۖ ﴾ [الحج] الحريق : هو الذى يحرق غيره من شدته ، كالنار التى أوقدوها لإبراهيم - عليه السلام - وكانت تشوى الطير الذى يمرُّ بها فى السماء فيقع مشوياً^(٢) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْت يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ۖ ﴾

(١) ورم أنفه . أى : غضب . أى : امتلا وانتفخ من ذلك غضباً ، وخص الأنف بالذكر لأن موضع الأنفة والكبر . ورم فلان بأنفه ثورياً : إذا شمع بأنفه وتجبّر . [لسان العرب - مادة : ورم] .

(٢) قال ابن إسحاق : جمعوا الحطب شهراً ثم أوقدوها ، واشتعلت واشتدت حتى أن كان الطائر ليمر بجنباتها فيحترق من شدة وهجها . [ذكره القرطبي فى تفسيره (٤٤٨١/٦)] .

﴿ذَلِكَ .. (١٠)﴾ [الحج] يعنى خزى الدنيا وعذاب الحريق فى الآخرة بما قدمت ، وبما اقترفت يداك ، لا ظُلماً منا ولا اعتداء ، فانت الذى ظلمت نفسك ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ [النحل]

وهل أخذناهم دون إنذار ، ودون أن نُجرّم هذا الفعل ؟ لانتك لا تعاقب شخصاً على ذنب إلا إذا كنت قد نبّهته إليه ، وعرفته بعقوبته ، فإن عاقبته دون علمه بأن هذا ذنب وهذه جريمة فقد ظلمته ؛ لذلك فاهل القانون يقولون : لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص .

وقد جاءكم النص الذى يُبين لكم ويُجرّم هذا الفعل ، وقد أبلغتكم الرسل ، وسبق إليكم الإنذار ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الإسراء]

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ .. (١٠)﴾ [الحج] فهل الذنوب كلها تقديم اليد فقط ؟

الذنوب : إما أقوال ، وإما أفعال ، وإما عمل من أعمال القلب ، كالحقد مثلاً أو النفاق .. إلخ لكن فى الغالب ما تُزاول الذنوب بالأيدي^(١) .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠)﴾ [الحج] ظلّام : صيغة مبالغة من الظلم ، تقول : ظالم . فإن أردت المبالغة تقول : ظلّام ، كما تقول : فلان أكل وفلان أكول ، فالفعل واحد ، لكن ما ينشأ عنه مختلف ، والمبالغة فى الفعل قد تكون فى الفعل نفسه أو فى تكراره ، فمثلاً قد تاكل فى الوجبة الواحدة رغيفاً واحداً ، وقد

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤٥٤٨/٦) : « عبر باليد عن الجملة : لأن اليد التى تفعل وتبطل الجملة » .

تأكل خمسة أرغفة هذه مبالغة في الوجبة الواحدة ، فانت تأكل ثلاث وجبات ، لكن تبالغ في الوجبة الواحدة ، وقد تكون المبالغة في عدد الوجبات فتأكل في الوجبة رغيفاً واحداً ، لكن تأكل خمس وجبات بدلاً من ثلاث . فهذه مبالغة بتكرار الحدث .

وصيغة المبالغة لها معنى في الإثبات ولها معنى في النفي : إذا قُلْتَ : فلان أكل وأثبت له المبالغة فقد أثبت له أصل الفعل من باب أولى فهو أكل ، وإذا نفيت المبالغة فنفي المبالغة لا ينفي الأصل ، تقول : فلان ليس أكلوا ، فهذا لا ينفي أنه أكل .

فإذا طبقنا هذه القاعدة على قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠)﴾ [الحج] فهذا يعني أنه سبحانه وتعالى (ظالم) حاشا لله ، وهنا نقول : هناك آيات أخرى تنفي الفعل ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)﴾ [الكهف] وقوله تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦)﴾ [الزخرف]

كما أن صيغة المبالغة هنا جاءت مضافة للعبيد ، فعلى فرض المبالغة تكون مبالغة في تكرار الحدث ﴿بِظُلْمٍ لِلْعَبِيدِ (١٠)﴾ [الحج] ظلم هذا ، وظلم هذا ، وظلم هذا ، فالمظلوم عبيد ، وليس عبداً واحداً .

والظلم في حقيقته أن يأخذ القوى حق الضعيف ، ويكون الظلم على قدر قوة الظالم وقدرته ، وعلى هذا إن جاء الظلم من الله تعالى وعلى قدر قوته وقدرته فلا شك أنه سيكون ظلماً شديداً لا يتحملة أحد ، فلا نقول - إذن - ظالم بل ظلام ، وهكذا يتمشى المعنى مع صيغة المبالغة .

فالحق سبحانه ليس بظلام للعبيد ؛ لأنه بين الحلال والحرام ، وبين الجريمة ووضع لها العقوبة ، وقد بلغت الرسل من بداية الأمر فلا حجة لأحد .

ثم يقول الحق سبحانه (١) :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ
وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ
ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ١١﴾

قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ١١﴾ [الحج]
العبادة : أن تطيع الله فيما أمر فتنفذه ، وتطيعه فيما نهى فتجتنبه ،
بعض الناس يعبد الله هذه العبادة طالما هو في خير دائم وسرور
مستمر ، فإذا أصابه شرٌّ أو وقع به مكروه ينقلب على وجهه ﴿فَإِنْ
أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ١١﴾ [الحج]
والحق سبحانه يريد من عبده أن يقبل على عبادته في ثبات
إيمان ، لا تزغزعه الأحداث ، ولا تهز إيمانه فيترجع ، ربك يريدك
عبداً له في الخير وفي الشر ، في السراء وفي الضراء ، فكلاهما
فتنة واختبار ، وما آمنت بالله إلا لأنك علمت أنه إله حكيم عادل

(١) سبب النزول : روى فيها عدة روايات ، منها :

- عن ابن عباس قال : كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون فإذا رجعوا إلى
بلادهم ، فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن قالوا : إن ديننا هذا لصالح
فتمسكوا به ، وإن وجدوا عام جدوبة وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا : ما في ديننا
هذا خير ، فأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ..
١١﴾ [الحج] . أورده ابن كثير في تفسيره (٢٠٩/٢) ، والواحدى في أسباب النزول
(ص ١٧٥) .

- عن أبي سعيد الخدري قال : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده وتشاءم
بالإسلام ، فأتى النبي ﷺ فقال : أفلنى فقال : إن الإسلام لا يقال ، فقال : إني لم أصب
في ديني هذا خيراً ، أذهب بصرى ومالى وولدى ، فقال : يا يهودى إن الإسلام يسبك
الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والفضة والذهب ، قال : ونزلت : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ
يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ١١﴾ [الحج] .

قادر ، ولا بد أن تأخذ ما يجرى عليك من أحداث الحياة في ضوء هذه الصفات .

فإن أثقلتك الحياة فاعلم أن وراء هذه حكمة إن لم تكن لك فلاولادك من بعدك ، فلعلهم إن وجدوك في سعة وفي خير طمعوا وفسدوا وطغوا ، ولعل حياة الضيق وقلة الرزق وتعبك لتوفر لهم متطلبات الحياة يكون دافعاً لهم .

واقرا قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْفَىٰ ۖ (٦) أَن رَّاهُ اسْتَفْتَىٰ (٧) ﴾ [العلق] وقوله تعالى : ﴿ وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾ [الأنبياء]

لا بد أن تعرف هذه الحقائق ، وأن تؤمن بحكمة ربك في كل ما يجريه عليك ، سواء أكان نعيماً أو بؤساً ، فإن أصابك مرض أقعدك في بيتك فقل : ماذا حدث خارج البيت ، أبعدني الله عنه وعافاني منه ؟ ففعل الخير فيما تظنه شراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وقد أجرى علماء الإحصاء إحصاءات على بعض بيوتنا ، فوجدوا الإخوة في البيت الواحد ، وفي ظروف بيئية واحدة وأب واحد ، وأم واحدة ، حتى التعليم في المدارس على مستوى واحد ، ومع ذلك تجد أحد الأبناء مستقيماً ملتزماً ، وتجد الآخر على النقيض ، فلما بحثوا في سبب هذه الظاهرة وجدوا أن الولد المستقيم كانت فترة تربيته وطفولته في وقت كان والده مريضاً ويلزم بيته لمدة ست سنوات ، فأخذ هذا الولد أكبر قسط من الرعاية والتربية ، ولم يجد الفرصة للخروج من البيت أو الاختلاط برفاق السوء .

وفي نموذج آخر لأحد الأبناء المنحرفين وجدوا أن سبب انحرافه

أن والده في فترة تربيته وتنشئته كان تاجراً ، وكان كثير الأسفار ، ومع ذلك كان يُغْدِق على أسرته ، فتربى الولد في سعة من العيش ، بدون مراقبة الأب .

وفي نموذج آخر وجدوا أخوين : أحدهما متفوق ، والآخر فاشل ، ولما بحثوا أسباب ذلك رغم أنهما يعيشان ظروفًا واحدة وجدوا أن الابن المتفوق صحته ضعيفة ، فمال إلى البيت والقراءة والاطلاع ، وكان الآخر صحيحاً وسيماً ، فمال إلى حياة الترف ، وقضى معظم وقته خارج البيت . والأمثلة في هذا المجال كثيرة .

إذن : فالابتلاءات لها مغانم ، ومن ورائها حكم : لأنها ناشئة وجارية عليك بحكمة ربك وخالقك ، وليست من سَعْيِكَ ولا من عمل يدك ، وما دامت كذلك فأرض بها ، واعبد الله بإخلاص وإيمان ثابت في الخير وفي الشر .

ومعنى : ﴿ يَعْبُدُ اللَّهُ عَلَى حَرْفٍ .. ﴾ [الحج] والحرف : هو طرف الشيء ، كأن تدخل فتجد الغرفة معتلة فتجلس على طرف في آخر الجالسين ، وهذا عادة لا يكون معه تمكُّن واطمئنان ، كذلك مَنْ يعبد الله على حرف يعنى : لم يتمكَّن الإيمان من قلبه ، وسرعان ما يُخرجه الابتلاء عن الإيمان ، لأنه عبد الله عبادة غير متمكنة باليقين الذي يصدر عن المؤمن بإله حكيم فيما يُجرِّيه على عبده .

والآية لم تترك شيئاً من هواجس النفس البشرية سواء في الخير أو في الشر .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ .. ﴾ [الحج] وكذلك : ﴿ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ .. ﴾ [الحج] فأنت لا تقول : أصبتُ الخيرَ ، إنما الخير هو الذي أصابك وأتاك إلى بابك ، فأنت لا تبحث عن رزقك

بِقَدْرِ مَا يَبْخِثُ هُوَ الْعَنَكُ : لَذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ... (٣) ﴾ [الطلاق]

ويقول أهل المعرفة : رزقك أعلم بمكانك منك بمكانه ، يعنى يعرف عنوانك أما أنت فلا تعرف عنوانه ، بدليل أنك قد تطلب الرزق فى مكان فلا تُرزق منه بشئ ، وقد ترى الزرع فى الحقول زاهياً تأمل فيه المحصول الوفير ، وتبنى عليه الآمال ، فإذا بغاصفة أو آفة تاتى عليه ، فلا تُرزق منه حتى بما يسد الرمق .

ولنا عبرة ومثل فى ابن أذينة^(١) حين ضاقت به الحال فى المدينة ، فقالوا له : إن لك صديقة بهشام بن عبد الملك الخليفة الأموى فاذهب إليه ينالك من خير الخلافة ، وفعلأ سافر ابن أذينة إلى صديقه ، وضرب إليه أكباد الإبل حتى الشام ، واستأذن فأذن له ، واستقبله صاحبه ، وسأله عن حاله فقال : فى ضيق وفى شدة . وكان فى مجلس الخليفة علماء فقال له : يا عروة ألسن القائل . وكان ابن أذينة شاعراً :

لَقَدْ عَلِمْتُ مَا إِسْرَافُ مَنْ خُلِّقِيَ أَنْ الَّذِي هُوَ رِزْقِي سَوْفَ يَأْتِينِي^(٢)
وهذا أحسنُ عروة أن الخليفة كسر خاطره ، وخيب أمله فيه ، فقال له : جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين ، لقد ذكرت منى ناسياً ، ونَبَّهْتَ منى غافلاً ، ثم انصرف .

فلما خرج ابن أذينة من مجلس الخليفة ، وفكر الخليفة فى

(١) هو : عروة بن يحيى (ولقبه أذينة) بن مالك بن الحارث التميمي : شاعر غزل مقدم ، من أهل المدينة ، وهو معدود من الفقهاء والمحدثين أيضاً ، ولكن الشعر أغلب عليه . توفي نحو ١٣٠ هـ [الأعلام للزركلى ٢٢٧/٤]

(٢) ذكر هذا البيت والذي بعده تحبير الدين الزركلى فى كتابه الأعلام (٢٢٧/٤) من شعر عروة بن أذينة . وانظر : الشعر والشعراء ٢٢٥ ، فوات الوفيات ٢٤/٢ .

الموقف وأثب نفسه على تصرفه مع صاحبه الذي قصد خيِّره ، وكيف أنه رَدَّه بهذه الصورة ، فأراد أن يُصلح هذا الخطأ ، فأرسل إليه رسولا يحمل الهدايا الكثيرة ، إلا أن رسول الخليفة كلما تبع ابن أذينة في مكان وجده قد غادره إلى مكان آخر ، إلى أن وصل إلى بيته ، فطرق الباب ، وأخبره أن أمير المؤمنين قد ندم على ما كان منه ، وهذه عطايا وهدايا .

وهنا أكمل ابن أذينة بيته الأول ، فقال :

أَسْعَى لَهُ فَيُعْتِنِي تَطْلُبُهُ وَلَوْ قَعَدْتُ أَتَانِي لَا يُعْنِينِي

كذلك نلاحظ في هذه الآية : ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ۖ ۝ (١١) ﴾ [الحج] ولم يقابل الخير بالشر ، إنما سماها (فِتْنَةٌ) أى : اختبار وابتلاء ؛ لأنه قد ينجح في هذا الاختبار فلا يكون شراً في حقه .

ومعنى : ﴿ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ۖ ۝ (١١) ﴾ [الحج] يعنى : عكس الأمر ، فبعد أن كان عابداً طائعاً انقلب إلى الضدِّ فصار عاصياً ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۖ ۝ (١١) ﴾ [الحج] وخسران الإنسان لعبادته خسران كبير لا يُجْبَرُ ولا يُعْوَضُ شَيْءٌ ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۖ ۝ (١١) ﴾ [الحج] فهل هناك خُسْرَانُ مبين ، وخسران غير مبين ؟

نعم : الخسران هو الخسارة التي تُعْوَضُ ، أما الخسارة التي لا عوضَ لها فهذه هي الخسران المبين الذي يلزم الإنسان ولا ينفكُ عنه ، وهو خُسْرَانٌ لا يقتصر على الدنيا فقط فيمكن أن تُعْوَضَ أو تصبر عليه ، إنما يمتد للآخرة حيث لا عوضَ لخسارتها ولا صَبْرٌ على شدِّتها . فالخسران المبين أى : المحيط الذي يطوق صاحبه .

لذلك نقول لمن فقد عزيزاً عليه ، كالمرأة التي فقدت وحيدها مثلاً : إن كان الفقيد حبيباً وغالياً فبيعه غالياً وادخلوا به الجنة ، ذلك حين تصبرون على فقدّه وتحتسبونه عند الله ، وإن كنتم خسرتم به الدنيا فلا تخسروا به الآخرة ، فإن لطمنا الخدود وشققنا الجيوب ، واعترضنا على قدر الله فيه فقد خسرنا به الدنيا والآخرة .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن »^(١) .

والصبر عند البلاء ، والشكر عند الرضاء مرتبة من مراتب الإيمان ، ومرحلة من مراحل اليقين في نفس المؤمن ، وهي بداية وعتبة يتلوها مراحل أخرى ومراق ، حسب قوة الإيمان .

اسمع إلى هذا الحوار الذي دار بين أهل المعرفة من الزهاد ، وكيف كانوا يتبارون في الوصول إلى هذه المراقى الإيمانية ، ويتنافسون فيها ، لا عن مباهاة ومفاخرة ، إنما عن نية خالصة في الرقى الإيماني .

يسأل أحد هؤلاء المتمكنين صاحبه : كيف حال الزهاد في بلادكم ؟ فقال : إن أصابنا خير شكرنا ، وإن أصابنا شر صبرنا ، فضحك الشيخ وقال : وما في ذلك ؟ إنه حال الكلاب في بلخ . أما عندنا : فإن أصابنا خير آثرنا ، وإن أصابنا شر شكرنا .

وهذه ليست مباهاة إنما تنافس ، فكلاً الرجلين زاهد سالك لطريق الله ، يرى نفسه محسوباً على هذا الطريق ، فيحاول أن يرتقى فيه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٩٩) كتاب الزهد ، وأحمد في مسنده (٢٤/٥) ، والدارمي في سننه (٣١٨/٢) من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه .

إلى أعلى مراتبه ، فإياك أن تظن أن الغاية عند الصبر على البلاء والشكر على العطاء ، فهذه البداية وبعدها منازل أعلى ومراق أسفى لمن طلب العلاء ، وشمر عن ساعد الجد فى عبادة ربه .

انظر إلى أحد هؤلاء الزهاد يقول لصاحبه : ألا تشتاق إلى الله ؟ قال : لا ، قال متعجباً : وكيف ذلك ؟ قال : إنما يشتاق لغائب ، ومتى غاب عنى حتى اشتاق إليه ؟ وهكذا تكون درجات الإيمان وشغافية العلاقة بين العبد وربّه عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه عن هذا الذى يعبد الله على حرف :

﴿ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ﴾

ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾

معنى : ﴿ مَا لَا يَضُرُّهُ ﴾ .. (١٢) [الحج] هل الصنم الذى يعبد الكافر من دون الله يمكن أن يضره ؟ لا ، الصنم لا يضر ، إنما الذى يضره حقيقة مَنْ عانده وانصرف عن عبادته ، تضره الربوبية التى يعاندها والمجازى الذى يجازيه بعمله ، إذن : فما معنى : ﴿ يَضُرُّهُ ﴾ .. (١٢) [الحج] هنا ؟

المعنى : لا يضره إن انصرف عنه ولم يعبد ، ولا ينفعه إن عبده : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ (١٢) [الحج] نعم ضلال : لأن الإنسان يعبد ويطيع مَنْ يرجو نفعه فى أى شىء ، أو يخشى ضرره فى أى شىء .

وقد ذكرنا سابقاً قول بعض العارفين : (واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه) ، ولو قلنا هذه العقولة لأبنائنا فى الكتب الدراسية ،

واهتمُّ بها القائمون على التربية لما أغرى الأولاد بعضهم بعضاً بالفساد ، ولوقف الولد يفكر حرة وألفه مرة في توجيهات ربه ، ونصائح أبيه وأمه ، وكيف أنه سيتترك توجيهات من يحبونه ويخافون عليه ويرجون له الخير إلى إغراء صديق لا يعرف عنه وعن أخلاقه شيئاً .

لا بد أن نُطعم أبناءنا مبادئ الإسلام ، ليس عرفنا الولد منذ صغره من يحبه ومن يكرهه ، ومن هو أولى بطاعته .
وتلاحظ في الآية أن الضر سابق للنفع : « ما لا يضره وما لا ينفعه » . [الحج] لأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ؛ لأن المفسدة خروج الشيء عن الاستقامة ، تكوينه ، والنفع يزيده ويضيف إليك ، أما الضر فينقصك ، لذلك خير لك أن تظل كما أنت لا تنقص ولا تزيد ، فإنما وقفت أمام أمرين : فإحدهما يجلب خيراً ، والاخر يدفع شراً ، فلا شك أنك ستختار دفع الشر أولاً ، وتهتفل بدرء المفسدة قبل جلب المصلحة .
وخربنا ذلك مثلاً : هتبت أن إنساناً سيرمي لك « بتفاحة » ، وآخر سيرميك بحجر في نفس الوقت ، فماذا تفعل ؟ تأخذ التفاحة ، لو تنقى أذى الحجر ؟ هذا هو معنى « درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة » .

يَدْعُوا الْمَنَ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِنَفْسِ الْمَوْلَى

وَلِنَفْسِ الْعَشِيرِ ﴿١٣﴾

الآية السابقة تثبت أنه يدعو ما لا يضره وما لا ينفعه ، وهذه الآية تثبت أنه يدعو من ضره أقرب من نفعه .

صيغة أفعل التفضيل (أقرب) تدل على أن شيئين اشتركا في صفة واحدة ، إلا أن أحدهما زاد عن الآخر في هذه الصفة ، فلو قُلْتُ : فلان أحسن من فلان . فهذا يعنى أن كلاهما حَسَنٌ ، لكن زاد أحدهما عن الآخر في الحُسْنِ .

فقوله تعالى : ﴿ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ .. ﴾ (١٣) [الحج] إذن : هناك نفع وهو قريب ، لكن الضر أقرب منه ، فهذه الآية في ظاهرها تناقض الآية السابقة ، والحقيقة ليس هناك تناقض ، ولا بُدَّ أن نفهم هذه المسألة في ضوء قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٨٢) [النساء]

فالآوثان التى كانوا يعبدونها كان لها سَدَنَةٌ يتحكمون فيها وفى عابديها ، فإذا أرادوا من الآلهة شيئا قالوا للسدنة : ادعوا الآلهة لنا بكذا وكذا ، إذن : كان لهم نفوذ وسلطة زمنية ، وكانوا هم الواسطة بين الآوثان وعُبادها ، هذه الواسطة كانت تُدْرِ عليهم كثيراً من الخيرات وتعطيهم كثيراً من المنافع ، فكانوا يأخذون كل ما يُهدى للآوثان .

فالآوثان - إذن - سبب فى نفع سدنتها ، لكن هذا النفع قصاراه فى الدنيا ، ثم يتركونه بالموت ، فعمدة النفع قصيرة ، وربما أتاه الموت قبل أن يستفيد بما أخذه ، وإن جاء الموت فلا إيمان ولا عمل ولا توبة ، وهذا معنى ﴿ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ .. ﴾ (١٣) [الحج]

لذلك يقول تعالى بعدما : ﴿ لِبَشَرِ الْمَوْتَى وَلِبَشَرِ الْعَشِيرِ ﴾ (١٣) [الحج] كلمة (بشس) تُقَالُ للذم وهى بمعنى : ساء وقبح ، والموتى : الذى يليك ويقرب منك ، ويراد به النافع لك ؛ لأنك لا تقرب إلا النافع لك ، إما لأنه يعينك وقت الشدة ، ويساعدك وقت الضيق ، وينصرك إذا احتجت لنصرتة ، وهذا هو الولى .

سُورَةُ الْحَجِّ

٩٧٣٣

ولما أن تُقَرَّبَهُ مِنْكَ ؛ لانه يُسَلِّيك وَيَجَالِسُكَ وَتَانِسُ بِهِ ، لكنه
ضعيف لا يقوى على نُصْرَتِكَ ، وهذا هو العشير .
والأصنام التي يعبدونها بثست المولى ؛ لأنها لا تنصرهم وقت
الشدة ، وبثست العشير ؛ لأنها لا تُسْلِيهم ، ولا يانسون بها فى غير
الشدة .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝١٤﴾

بعد أن تكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن الكفار وأهل النار ومن
يعبدون الله على حَرْف ، كان لا بُدَّ أن يأتى بالمقابل ؛ لأن النفس
عندها استعداد للمقارنة والتأمل فى أسباب دخول النار ، وفى أسباب
دخول الجنة ، وهذا أجدى فى إيقاع الحجة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ ﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ
لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤ [الانفطار] وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا
كَثِيرًا ۝٨٢ ﴾ [التوبة]

فذكر النعمة وحدها دون أن تقابلها النعمة لا تؤتى الاثر
المطلوب ، لكن حينما تقابل النعمة بالنعمة وسلب الضر بإيجاب النفع
فإن كلاهما يظهر الآخر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ
وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۝١٨٥ ﴾ [آل عمران] فإن أمنت لا تُزَحْزَحَ عن
النار فقط - مع أن هذه فى حد ذاتها نعمة - لكن تُزَحْزَحَ عن النار
وتدخل الجنة .

والإيمان : عمل قلبي ومواجيد تطمئن بها النفس ، لكن الإيمان له مطلوب : فأنت آمنت بالله ، وأطعنا قلبك إلى أن الله هو الخالق الرزاق واجب الوجود .. إلخ ، فما مطلوب هذا الإيمان ؟

مطلوب الإيمان أن تستمع لأوامره ، لأنه حكيم ، وتثق في قدرته لأنه قادر ، وتخاف من بطشه لأنه جبار ، ولا تياس من بسطه لأنه باسط ، ولا تأمن قبضه لأنه قابض .

لقد آمنت بكل هذه القضايا ، فحين يأمر بك بأمر فعليك أن تستحضر حيثيات هذا الأمر ، وأنت واثق أن ربك عز وجل لم يأمر ولم ينهك من فراغ ، إنما من خيال صفات الكمال فيه سبحانه ، أو صفات الجلال والجبروت ، فاستحضر في كل أعمالك وفي كل ما تأتي أو تدع هذه الصفات .

لذلك ، جمعت الآية بين الإيمان والعمل الصالح : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ ۖ ﴾ [الحج] (١٢)

وفي سورة العصر : ﴿ وَالْعَصْرُ ۝ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ ٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۖ ﴾ [العصر] (٣) ليس ذلك وفقط إنما أيضاً : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر] (٤)

فالتواصى بالحق والصبر على الشدائد من الاستجابة لداعي الإيمان وثمرة من ثماره ، لأن المؤمن سيتعرض في رحلة الحياة لفتن كثيرة قد تزلزله ، وسيواجه سُخْرِيَةً واستنزاءً ، وربما تعرض لألوان العذاب .

فعليه إذن - أن يتمسك بالحق ويتواصى به مع أخيه ، وعليه أن يصبر ، وأن يتواصى بالصبر مع إخوانه ، ذلك لأن الإنسان قد

تعرض له فتورات ضَعُفًا وَخُورًا ، فعلى القوي غنى وقت الفتنة أن
يتصمَّ الضَّعِيفُ ، فَعَلَمَ أَنَّ الْبَلَاءَ لَا يَأْتِي إِلَّا بِالْغَنِيِّ ، وَهُوَ مَا لَا يَنْصَرِفُ
وَرُبَّمَا تَبَدَّلَ هَذَا الْحَالُ فِي مَوْقِفٍ آخَرَ وَأَمَامَ فِتْنَةٍ أُخْرَى ، فَمَنْ
أَوْصِيَتْهُ الْيَوْمَ بِالصَّبْرِ رَبِّمَا يَوْصِيكَ غَدًا ، وَهَكَذَا يُثْمَرُ فِي الْمَجْتَمَعِ
الْإِيمَانِي التَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ ، وَهَذَا السَّيَرُ

إِذَنْ : تَوَاصُوا : لِأَنَّكُمْ سَتَتَعَرَّضُونَ لِهَوَاتٍ لَيْسَتْ هَزَاتٍ شَامِلَةٍ
جَامِعَةٍ ، إِنَّمَا هَزَاتٌ يَتَعَرَّضُ لَهَا الْبَعْضُ دُونَ الْآخَرِ ، فَإِنْ ضَعُفَتْ
وَجَدْتُ مِنْ إِخْوَانِكَ مَنْ لَا يَصْبِرُ ، أَصَابُكَ ثُجُلٌ ، احْتَسِبْ ، وَإِيَّاكَ أَنْ
تُزَحْزَحَكَ الْفِتْنَةُ عَنِ الْحَقِّ ، أَوْ تَخْرُجَ عَنِ الصَّبْرِ ، وَهَذِهِ عُنَاصِرُ النِّجَاةِ
الَّتِي يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِينَ التَّمَسُّكُ بِهَا : إِيْمَانٌ ، وَعَمَلٌ صَالِحٌ ، وَتَوَاصٍ
بِالْحَقِّ ، وَتَوَاصٍ بِالصَّبْرِ .

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. ﴾ (١٤) [الحج]
الْجَنَّاتُ : هِيَ الْحَدَائِقُ وَالْبُسَاتِينُ الْمَلِيئَةُ بِأَنْوَاعِ الْمَتَعِ : الزَّرْعِ ،
وَالْخَضِرَةِ ، وَالنُّضَارَةِ ، وَالزَّهْوَرِ ، وَالرَّائِحَةِ الطَّيِّبَةِ ، وَهَذِهِ كُلُّهَا بَنْتُ
الْمَاءِ ؛ لِذَلِكَ قَالَ : ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. ﴾ (١٤) [الحج] وَمَعْنَى :
﴿ مِنْ تَحْتِهَا .. ﴾ (١٤) [الحج] أَنَّ الْمَاءَ ذَاتِي فِيهَا ، لَا يَأْتِيهَا مِنْ مَكَانٍ
آخَرَ ، بَلْ يَنْقَطِعُ عَنْهَا ، كَمَا جَاءَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : ﴿ تَجْرِي تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ .. ﴾ (١٠٠)

ثُمَّ يَقُولُ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (١٤) [الحج] لِأَنَّهُ
سُبْحَانَهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَعَالِجُ أَعْمَالَهُ كَمَا يَعَالِجُ الْبَشَرُ أَعْمَالَهُمْ
﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٢) [يس]

(١) أَيْ : يَشِيبُ مِنْ شِيبَاءٍ وَيَعْدِبُ مِنْ شِيبَاءٍ ، فَلِلْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةُ بِحُكْمِ وَعْدِهِ الصِّدْقِ وَبِفَضْلِهِ ،
وَاللَّكَافِرِينَ النَّارُ بِمَا سَبَقَ مِنْ عَذَابِهِ ، [قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٤٥٥٢ / ٦)]

ولو تأملت هذه الآية لوجدت الشيء الذي يريده الله ويأمر بكونه موجوداً في الحقيقة ، بدليل أن الله تعالى يخاطبه ﴿ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٧) [يس] فهو - إذن - كائن فعلاً ، وموجود حقيقة ، والامر هنا إنما هو لإظهاره في عالم المشاهدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ ^(١) فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ
كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ۝ ١٥ ﴾

(يظنُّ) تفيد علماً غير يقيني وغير مُتأكد ، وسبق أن تكلمنا في نسبة القضايا ، فهناك حكم محكوم به ومحكوم عليه ، تقول : زيد مجتهد ، فانت تعتقد في نسبة الاجتهاد لزيد ، فإن كان اعتقادك صحيحاً فتستطيع أن تُقدِّم الدليل على صحته فتقول : بدليل أنه ينجح كل عام بتفوق .

أما إذا اعتقد هذه القضية ولم يُقدِّم عليها دليلاً كأن سمع الناس يقولون : زيد مجتهد . فقال مثلهم ، لكن لا دليل عنده على صدق

(١) ورد في هذه الآية تاويلان لها :

١ - من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب أي بحبل إلى السماء - أي : سماء بيته - ثم ليقطع . أي : ثم ليقتنع به . قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة وغيرهم .

٢ - من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه ويكابد هذا الامر ليقطعه عنه . فليقطع ذلك من أصله من حيث يأتيه فإن أصله في السماء (ثم ليقطع) أي : عن النبي الوحي الذي يأتيه من الله إن قدر . قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

قال ابن كثير في تفسيره (٢١٠/٣) : « قول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى وأبلغ في التهكم » . وانظر الدر المنثور للسيوطي (١٥/٦ ، ١٦) وقد قال الشيخ الشعراوي - رحمه الله عليه - بكلا القولين ، فكلهما صحيح محتمل والله أعلم .

هذه المقولة ، كالطفل الذي نُلْقَنه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص]
هذه قضية واقعية يعتقدها الولد ، لكن لا يستطيع أن يُقدِّم الدليل
عليها إلا عندما يكبُر ويستوى تفكيره .

فمن أين أخذ الطفل هذه القضية واعتقدها ؟ أخذها من المأمون
عليه : من أبيه أو من أستاذه ثم قلَّده . إذن : إن كانت القضية
واقعة ، لكن لا تستطيع أن تقيم الدليل عليها فهي تقليد ، فإن اعتقدت
قضية واقعة ، وأقمت الدليل عليها ، فهذا أسمى مراتب العلم ، فإن
اعتقدت قضية غير واقعية ، فهذا جهل .

فالجاهل : مَنْ يعتقد شيئاً غير واقع ، وهذا الذي يُتعب الدنيا
كلها ، ويُسْقَى مَنْ حوله ، لأن الجاهل الأعمى الذي لا يعلم شيئاً ،
وليست لديه فكرة يعتقدها صفحة بيضاء ، تستطيع أن تُقنعه بالحقيقة
ويقبلها منك ؛ لأنه خالي الذهن ولا يعارضك .

أما الجاهل صاحب الفكرة الخاطئة فيحتاج منك أولاً أن تُقنعه
بخطأ فكرته حتى يتنازل عنها ، ثم تُلقَى إليه بالفكرة الصواب .

فإن تشككت في النسبة بحيث استوت عندك نسبة الخطأ مع
نسبة الصواب ، فهذا هو الشك ، فلا تستطيع أن تجزم باجتهاد زيد ،
ولا بعدم اجتهاده ، فإن غلب الاجتهاد فهو ظن ، فإن غلب عدم
الاجتهاد فهو وهم .

إذن : نسبة القضايا إما علم تعتقده : وهو واقع وتستطيع أن
تقيم الدليل عليه ، أو تقليد : وهو ما تعتقده وهو واقع ، لكن لا تقدر
على إقامة الدليل عليه ، أو جهل : حين تعتقد شيئاً غير واقع ، أو
شك : حين لا تجزم بالشيء ويستوى عندك النفي والإثبات ، أو
ظن : حين تُرجِّح الإثبات ، أو وهم : حين تُرجِّح النفي .

فَالظَّنُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ...﴾ (١٥) [الحج] أَيْ : يَمُرُّ بِخَاطِرِهِ مَجْرَدُ مَرُورِ أَلْفِ اللَّهِ لِيَنْصُرَ مُحِمَّدًا ، أَوْ يَتَوَهَّمُ ذَلِكَ - وَلَا يَتَوَهَّمُ ذَلِكَ إِلَّا الْكَفَّارُ - لِأَنَّهُمْ بِأَمَلُونِ ذَلِكَ فِي مَعْرِكَةِ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ - مَنْ ظَنَّ هَذَا الظَّنَّ فَعَلَيْهِ أَنْ يَنْتَهِيَ عَنْهُ ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ بَعِيدٌ ، لَنْ يَحْدُثَ وَلَنْ يَكُونَ .

وَقَدْ ظَنَّ الْكَفَّارُ هَذَا الظَّنَّ حِينَ رَأَوْا بِوَادِرِ نَصْرِ الْإِيمَانِ وَعِلَامَاتِ فَوْزِهِ ، فَاجْتَاظُوا لِذَلِكَ ، وَلَمْ يَجِدُوا شَيْئًا يَرِيحُ خَاطِرَهُمْ إِلَّا هَذَا الظَّنَّ . لِذَلِكَ : يَرُدُّ اللَّهُ غِيظَهُمْ عَلَيْهِمْ ، فَيَقُولُ لَهُمْ : سَيُظَلُّونَ بِغِيظِكُمْ ؛ لِأَنَّ النَّصْرَ لِلْإِيمَانِ وَلِجُنُودِهِ مُسْتَمِرٌّ ، فَلَيْسَ أَمَامُكَ إِلَّا أَنْ تَجْعَلَ حَبْلًا فِي السَّمَاءِ وَتَرْبِطَ عُنُقَكَ بِهِ ، تَشْنُقَ نَفْسَكَ حَتَّى تَقَعَ ، فَإِنْ كَانَ هَذَا الْكَيْدُ لِنَفْسِكَ يُنْجِيكَ مِنَ الْغِيظِ فَافْعَلْ :

﴿فَلْيَمْدَدْ بِسَبَبِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يَذْهَبُ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ (١٥) [الحج]

لَكِنْ مَا الْغِيظُ ؟ الْغِيظُ : نَوْعٌ مِنَ الْغَضَبِ مَصْحُوبٌ وَمَشُوبٌ بِحُزْنٍ وَأَسَىٍّ وَحَسْرَةٍ حِينَ تَرَى وَاقِعًا يَحْدُثُ أَمَامَ عَيْنِكَ وَلَا يَرْضِيكَ ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَفْعَلَ شَيْئًا تَمْنَعُ بِهِ مَا لَا يَرْضِيكَ . وَهَذِهِ الْمَادَّةُ (غِيظ) مُوجُوبَةٌ فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى (١) مِنْ كِتَابِ

(١) وَرَدَتْ هَذِهِ الْمَادَّةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ :

- يَغِيظُ . الْفِعْلُ الْمَضَارِعُ . وَرَدَ ٣ مَرَاتٍ : (التَّوْبَةُ ١٢٠) . (الْحَجَّ ١٥) . (الْفَتْحُ ٢٩) .
- الْغِيظُ . الْأِسْمُ مَعْرُوفٌ بِالْمُرُودِ ١ مَرَّةً : (آلِ عِمْرَانَ ١١٩ ، ١٢٤) ، (التَّوْبَةُ ١٥) . (الْمَلِكُ ٨) .
- بِغِيظِكُمْ . الْأِسْمُ قَبْلَهُ حَرْفُ الْجَرِّ الْبَاءُ وَمُضَافٌ إِلَى ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِ لِلْجَمْعِ ، وَرَدَ مَرَّةً وَاحِدَةً : (آلِ عِمْرَانَ ١١٩) .
- بِغِيظِهِمْ . الْأِسْمُ قَبْلَهُ حَرْفُ الْجَرِّ الْبَاءُ وَمُضَافٌ إِلَى ضَمِيرِ الْعِيقَةِ لِلْجَمْعِ ، وَرَدَ مَرَّةً وَاحِدَةً : (الْأَحْزَابُ ٢٥) .
- لِنَظَائِلِهِمْ . اسْمُ الْفَاعِلِ الْجَمْعُ مُؤَكَّدٌ بِاللَّامِ وَرَدَ مَرَّةً وَاحِدَةً : (الشُّعْرَاءُ ٥٥) .
- تَغِيظًا : مَصْدَرُ الْفِعْلِ تَغِيظٌ : وَرَدَ مَرَّةً وَاحِدَةً : (الْغُفْرَانُ ١٢) .

الله ، وقد استعملت حتى للجملات التي لا تحس ، اقوا قول الله تعالى
عن النار : ﴿ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ (٨) [العنك] وقال : ﴿ إِذَا رَأَوْهُمُ
مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴾ (١٢) [الفرقان] فكان النار مغتالة
من هؤلاء ، تنأهب لهم وتنتظرهم .

والغَيْظُ يقع للمؤمن والكافر ، فحين نرى عناد الكفار وسُخريتهم
واستهزاءهم بالإيمان نغتاظ ، لكن يذهب الله غَيْظَ قلوبنا ، كما قال
سبحانه : ﴿ وَيَذْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ ﴾ (١٥) [التوبة]

أما غَيْظُ الكفار من تَصَرُّ الإيمان فسوف يَبْقَى في قلوبهم ، فربنا
- سبحانه وتعالى - يقول لهم : ثَقُوا تماماً أن الله لم يرسل رسولاً إلا
وهو ضامن أن ينصره ، فإنْ خَظَر ببالكم خلاف ذلك فلن يُرِيحكم
ويشفي غيظكم إلا أنْ تشنقوا أنفسكم ، لذلك خاطبهم الحق سبحانه
في آية أخرى فقال : ﴿ قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ ﴾ (١١٩) [آل عمران]

ومعنى : ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ﴾ (١٥) [الحج] ﴿ فليمدد ..
(١٥) [الحج] : من مد الشيء يعنى : أطاله بعد أن كان مجتمعاً ،
ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا ﴾ (١٩) [الحجر] فكما تسير تجد
أرضاً ممتدة ليس لها نهاية ، وليس لها حافة .

والسبب : الحبل ، يُخرجون به الماء من البئر ، لكن هل يستطيع
أحد أن يربط حبلاً في السماء ؟ إذن : علّق المسألة على محال ،
وكانه يقول لهم : حتى إن أردتم شنق أنفسكم فلن تستطيعوا ،
وسوف تظلون هكذا بغيظكم .

أو : يكون المعنى : ﴿ إلى السَّمَاء ﴾ (١٥) [الحج] يعنى : سماء
البيت وسقفه ، كمن يشنق نفسه في سَقَف البيت .

ويمكن أن نفهم (السبب) على أنه أى شيء يُوصِّلُك إلى السماء ،
وأى وسيلة للصعود ، فيكون المعنى : خذوا أى طريقة تُوصِّلُكم إلى
السماء لتمنعوا عن محمد أسباب النصر ؛ لأن نصر محمد يأتى من السماء
فامنعوه ، وهذه أيضاً لا يقدرُونَ عليها ، وسيظل غيظهم فى قلوبهم .

وتلاحظ أننا نتكلم عن محمد ﷺ ، مع أن الآية لم تذكر شيئاً
عنه ، وكل ما جاء فى الآية ضمير الغائب المفرد فى قوله تعالى :
﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ .. ﴾ (١٥) [الحج] والحديث مُوجَّه للكفار
المغتاضين من بؤادر النصر لركب الإيمان ، فقوله : ﴿ يَنْصُرُهُ .. ﴾ (١٥)
[الحج] ينصر مَنْ ؟ لا بدُّ أنه محمد ، لماذا ؟

قالوا : لأن الأسماء حينما تُطلَق تدلُّ على مَعَانٍ ، فعندما تقول
« سماء » نفهم المراد ، وعندما تقول « قلب » نفهم ، « نور » نعرف
المراد . والأسماء إما اسم ظاهر مثل : محمد وعلى وعمر وأرض
وسماء ، وإما ضمائر تدل على هذه الأسماء الظاهرة مثل : أنا ، أنت ،
هو ، هم . والضمير مُبْهَم لا يُعَيِّنُهُ إِلَّا التَكْلِمُ ، فأنت تقول : أنا وكذلك
غيرك يقول أنا أو نحن ، فالذى يُعَيِّنُ الضمير المتكلم به حال الخطاب ،
فَعُمْدَةُ الفهم فى الضمائر ذات المتكلم وذات المخاطب . فإن لم يَكُنْ
متكلماً ولا مخاطباً فهو غائب ، فمن أين تأتى بقرينة التعريف للغائب ؟

حين تقول : هو ، هى ، هم . مَنْ المراد بهذه الضمائر ؟ كيف
تُعَيِّنُهَا ؟ إِنَّ عَيْنَتَ المتكلم بكلامه ، والمخاطب بمخاطبته ، كيف تُعَيِّنُ
الغائب ؟ قالوا : لا بدُّ أَنْ يسبقه شيء يدل عليه ، كأن تقول : جاءنى
رجل فأكرمته ، أكرمت مَنْ ؟ أكرمت الرجل الذى تحدثت عنه ،
جاءتنى امرأة فأكرمتها ، جاء قوم فلان فأكرمتهم . إذن : فمرجع
الضمير هو الذى يدلُّ عليه .

سُورَةُ الْحَجِّ

٩٧٤١

لكن لم يسبق ذكر لرسول الله ﷺ قبل الضمير لِيُعَيِّنَهُ ويدلُّ عليه ، نعم لم يسبق ذكر لرسول الله ، لكن تأمل المعنى : الكلام هنا عن النصر بين فريق الإيمان وعلى رأسه محمد ﷺ ، وفريق الكفر وعلى رأسه هؤلاء المعاندون ، فالمقام مُتَعَيَّن أنه لا يعود الضمير إلا على رسول الله ﷺ^(١) .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ .. ﴾ (١) [القدر]

فالضمير هنا مُتَعَيَّن ، ولا ينصرف إلا إلى القرآن ، ولا يتعين الضمير إلا إذا كان الخاطر لا ينصرف إلى غيره في مقامه .

اقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (١) [الإخلاص] تلحظ أن الضمير سابق على الاسم الظاهر ، فالمرجع متأخر ، ومع ذلك لا ينصرف الضمير إلا إلى الله ، فإذا قيل : هو هكذا على انفراد لا يمكن أن ينصرف إلا إلى الله عز وجل .

كذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ .. ﴾ (٦١) [النحل] . على ظهر أي شيء ؟ الذهن لا ينصرف في هذا المقام إلا إلى الأرض .

وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ ﴾ (١٥) [الحج] الاستفهام هنا مَمَّنْ يعلم ، فهو استفهام للتقرير ، ليُقرُّوا هم بأنفسهم أن غِيْظَهم سيُظْلَمُ كما هو ، لا يشفيه شيء ، وأنهم سيموتون بغِيْظَهم ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ مَوْتُوا بِغِيْظِكُمْ .. ﴾ (١١٩) [آل عمران]

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٥٢/٦) : « الكناية في ﴿ يَنْصُرُهُ اللَّهُ .. ﴾ (١٥) [الحج] . ترجع إلى محمد ﷺ . وهو وإن لم يجر ذكره فجميع الكلام دال عليه ، لأن الإيمان هو الإيمان بالله وبمحمد ﷺ . والانقلاب عن الدين انقلاب عن الدين الذي أتى به محمد ﷺ . »

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿كَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ
وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۝١٦﴾

قوله : ﴿أَنْزَلْنَاهُ .. ١٦﴾ [الحج] أى : القرآن ؛ لأن الضمير هنا كما ذكرنا مرجعه مُتَعَيِّن ، وما دام مرجعه مُتَعَيِّنًا فلا يحتاج لذكر سابق . والإنزال يحمل معنى العلو ، فإن رأيتَ قى هذا التشريع الذى جاءك فى القرآن ما يشقُّ عليك أو يحولُ بينك وبين ما تشتهيه نفسك ، فاعلم أنه من أعلى منك ، من الله ، وليس من مُساوٍ لك ، يمكن أن تستدرك عليه أو تناقشه : لماذا هذا الأمر ؟ ولماذا هذا النهى ؟ فطالما أن الأمر يأتيك من الله فيلما يدُّ أن تسمع وتطيع ولا تناقش .

ولنا أسوة فى هذا التسليم بسيدنا أبى بكر لما قالوا له : إن صاحبك يقول : إنه أُسْرِى به الليلة من مكة إلى بيت المقدس ، ثم عُرِج به إلى السماء ، فما كان من الصديق إلا أن قال : إن كان قال فقد صدق^(١) ، هكذا دون مناقشة ، فالامر من أعلى ، من الله .

وقلنا : إنك لو عُدْتَ مريضاً فوجدتَ بجواره كثيراً من الأدوية فسألته : لماذا كل هذا الدواء ؟ قال : لقد وصفه الطبيب ، فأخذتَ تعترض على هذا الدواء ، وتذكر من تفاعلاته وأضراره وعناصره ، وأقحمت نفسك فى مسألة لا تدخلُ لك بها .

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢٩٨/١) ، وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٦٢/٣) وصححه وأقره الذهبى من حديث عائشة رضى الله عنها .

هذا قياس مع الفارق ومع الاعتراف بأخطاء الأطباء في وصف الدواء ، لكن لتوضيح المسألة والله المثل الأعلى ، وصدق القائل :
 سُبْحَانَ مَنْ يَرِثُ الطَّبِيبَ وَطِبُّهُ وَيُرى المَريضَ مَصَارِعَ الآسِينَا
 إذن : حجة كل أمر ليس أن نعلم حكمته ، إنما يكفي أن نعلم
 الأمر به :

ومعنى ﴿آيات .. (١٦)﴾ [الحج] أى : عجائب ﴿بَيِّنَات .. (١٦)﴾ [الحج] واضحات . وسبق أن ذكرنا أن كلمة الآيات تُطلق على معانٍ ثلاثة : الآيات الكونية التى تثبت قدرة الله ، وبها يستقر الإيمان فى النفوس ، ومنها الليل والنهار والشمس والقمر ، والآيات بمعنى المعجزات المصاحبة للرسول لإثبات صدق بلاغهم عن الله ، والآيات التى يتكون منها القرآن ، وتُسَمَّى « حَامِلَةُ الْأَحْكَامِ » .

فالمعنى هنا ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. (١٦)﴾ [الحج] تحمل كلمة الآيات كُلُّ هذه المعاني ، والآيات فى القرآن فيها الآيات الكونية ، وفيها المعجزة ، وهى ذاتها آيات الأحكام .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ (١٦) [الحج] وهذه من المسائل التى وقف الناس حولها طويلاً : ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .. (٩٢)﴾ [النحل] وأختالها تمسك بها من ليس لهم حظ من الهداية ، يقولون : لم يود الله لنا الهداية ، فماذا نفعل ؟ وما ذنبنا ؟

وهذه وقفة عقلية خاطئة : لأن الوقفة العقلية تقتضى أن تذكر الشئ ومقابله ، أما هؤلاء فقد نبهتوا العقل للتناقض فى واحدة وتركوا الأخرى ، فهى - إذن - وقفة تبريرية ، فالضال الذى يقول : لقد كتب الله على الضلال ، فما ذنبى ؟ لماذا لم يقل : الطائع الذى كتب الله له الهداية ، لماذا يثيبه ؟

فلماذا تركتم الخير وناقشتم في الشر ؟

والمعامل في الآيات التي تتحدث عن مشيئة الله في الإضلال والهداية يجد أنه سبحانه قد بين من شاء أن يضلّه ، وبين من شاء أن يهديه ، اقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٦٧) [المائدة] إذن : كفره سابق لعدم هدايته وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٦) [المنافقون] وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥٠) [القصص]

إنما يهدي من آمن به ، أما هؤلاء الذين اختاروا الكفر واطمانوا إليه وركنوا ، فإن الله تعالى يختم على قلوبهم ، فلا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، لأنهم أحبوه فزادهم منه كما زاد المؤمنين إيماناً : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى .. ﴾ (١٧) [محمد]

والهداية هنا بمعنى الدلالة على الخير ، وسبق أن ضربنا لها مثلاً ، والله تعالى المثل الأعلى : هب أنك تسلك طريقاً لا تعرفه ، فتوقفت عند جندي المرور وسألته عن وجهتك فدلّك عليها ، ووصف لك الطريق الموصّل إليها . لكن ، هل دلّته لك تكزّمك أن تسلك الطريق الذي وُصف لك ؟

بالطبع أنت حُرّ تسير فيه أو في غيره . فإذا ما حفظت لرجل المرور جميله وشكرته عليه ، ولمس هو فيك الخير ، فإنه يُعينك بنفسه على عقبات الطريق ، وربما ركب معك ليجتاز بك منطقة خطيرة يخاف عليك منها . هذا معنى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (١٧) [محمد]

أما لو تعاليت على هذا الرجل ، أو اتهمته بعدم المعرفة بمسالك الطرق ، فإنه يدعك وشأنك ، ويضنّ عليك بمجرد النصيحة .

وهكذا : الحق - سبحانه وتعالى - دلّ المؤمن ودلّ الكافر على الخير ، المؤمن رضى بالله وقبّل أمره ونهّيه ، وحمد الله على هذه النعمة ، فزاده إيماناً وأعانه على مشقة العبادة ، وجعل له نوراً يسير على هديه ، أما الكافر فقد تركه يتخبط في ظلمات كفره ، ويتردد في متاهات العمى والضلال .

ثم يقول للحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ^(١) وَالنَّصَارَى
وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ ١٧ ﴾

هذه فئات ست أخبر الله عنها بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ۝ (١٧) ﴾ [الحج] ومعنى الفصل بينهم أن بينهم خلافاً ومعركة ، ولو تتبعنا الآيات التي ذكرت هذه الفئات تجد أن هناك آيتين في البقرة وفي المائدة .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ (٦٢) ﴾ [البقرة]

وفي المائدة يُقدّم الصابئين على النصاري ، وفي هذا الموضع تأتي بالرفع بالواو ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا

(١) صبا يصبأ : خرج من دين إلى دين . والصابئون يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقيل : هم عباد الملائكة . وقيل : عباد الكواكب والنجوم وقيل : عباد النار . [القاموس القويم ١/ ٣٦٥] .

وَالصَّابِثُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ [المائدة]

﴿الَّذِينَ آمَنُوا.. (١٧)﴾ [الحج] أى : بمحمد ﷺ ، ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا.. (١٧)﴾ [الحج] أى : اليهود ، ثم النصارى وهما قبل الإسلام ، أما الصابثون : فهؤلاء جماعة كانوا على دين إبراهيم عليه السلام ، ثم عبدوا الكواكب فَسُمُّوا الصابئة لخروجهم عن الدين الحق . أما المجوس : فهم عبدة النار ، والذين أشركوا : هم المشركون عبدة الأصنام والأوثان .

أما التقديم والتأخير بين النصارى والصابئين ، فقالوا : لأن النصارى فرقة كبيرة معروفة ولهم نبي ، أما الصابئة فكانوا جماعة خرجوا على نبيهم وخالفوه وأثروا بعبيدة غير عقيدته ، فهم قلة ، لكن سبقوا النصارى فى الترتيب الزمنى ؛ لذلك حين يراعى السبق الزمنى يقول : ﴿الصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى.. (١٧)﴾ [الحج] ، وحين يراعى الكثرة والشهرة ، يقول : ﴿النَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ.. (٦٧)﴾ [البقرة] فكل من التقديم أو التأخير مراد لمعنى معين .

أما قوله : ﴿وَالصَّابِثُونَ.. (٦٩)﴾ [المائدة] بالرفع على خلاف القاعدة فى العطف ، حيث عطفت على منصوب ، والمعطوف تابع للمعطوف عليه فى إعرابه ، فلماذا وسط مرفوعاً بين منصوبات ؟

قالوا : لا يتم الرفع بين المنصوبات إلا بعد تمام الجملة ، فكانه قال : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى ، والصابثون كذلك ، فعطف هنا جملة تامة ، فهي مؤخره فى المعنى ، مُقدَّمة فى اللفظ ، وهكذا تشمل الآية التقديم والتأخير السابق .

لكن ، كيف ينشأ الخلاف بين الأديان ؟

ينشأ الخلاف من أن قوماً يؤمنون بالله ويؤمنون بالنبى المبلّغ عن هذا الإله ، لكنهم يختلفون على أشياء فيما بينهم ، كما نرى الخلاف مثلاً بين المعتزلة وأهل السنة ، أو الجبرية والقدرية ، فجماعة تثبت الصفات ، وآخرون ينكرونها ، جماعة يقولون : الإنسان مُجَبَّرٌ فى تصرفاته ، وآخرون يقولون : بل هو مختار .

وقد ينشأ الخلاف بين الأديان للاختلاف فى النبوات ، فأهل الديانات يؤمنون بالإله الفاعل المختار ، لكن يختلفون فى الأنبياء موسى وعيسى ومحمد مع أنهم جميعاً حق . وقد ينشأ الخلاف من الادعاء ، كالذين يدعون النبوة كهؤلاء الذين يعبدون النار ، أو يعبدون بوذا مثلاً .

فهذه ست طوائف مختلفة ذكرتهم الآية ، فما حكم هؤلاء جميعاً بعد بعثة محمد ﷺ ؟

نقول : أما المشركون الذين عبدوا الأصنام ، وكذلك الذين عبدوا النبوة المدعاة ، فهؤلاء كفار ضائعون . أما اليهود والنصارى الذين يؤمنون بالله فاعل مختار ، ويؤمنون بنبوة صادقة ، فشانهم بعد ظهور الإسلام ، أن الله تعالى أقام لنا تصفية آخر الأمر لهذه الديانات . فمن كان يهودياً قبل الإسلام ، أو من كان نصرانياً قبل الإسلام ، فإن الله أجرى لهم تسمية عقيدة من الإسلام ، فليكنوا مؤمنين بالإيمان الأول بالله تعالى فعظيهم أن يبدأوا من جديد مؤمنين مسلمين .

لذلك قال : ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) [البقرة]

فبعد ظهور الإسلام بدأت لهؤلاء جميعاً - اليهود والنصارى

والمجوس والمشركين - حياة جديدة ، وفُتِحَتْ لَهُمْ صفحة جديدة هم فيها أولاد اليوم ، حيث لزمهم جميعاً الإيمان بالله تعالى والإيمان بنبيه محمد ﷺ ، وكان الإسلام تصفية (وأوكازيون إيماني) يجب ما قبله ، وعفا الله عما سلف .

والحق - سبحانه - حينما تكلم عن الأجيال السابقة لنبوّة محمد ﷺ . قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ^(١) قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾ [آل عمران]

لذلك نبّه كل من موسى وعيسى - عليهما السلام - بوجود محمد ﷺ وبشّروا به ، بدليل قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩) ﴾ [البقرة] والمراد اليهود والنصارى .

وقد جاء محمد ﷺ رحمة للعالمين ، وجامعاً للاديان كلها في الإسلام الذي زاد عليها ما زاد مما تقتضيه أمور الحياة وتطورات العصر ، إلى أن تقوم الساعة .

جاء الإسلام تصفية لهؤلاء ، استأنفوها بإيمان ، واستأنفوها بعمل صالح ، فكان لهم أجرهم كاملاً عند ربهم لا يطعن فيهم دينهم السابق ، ولا عقائدهم الفاسدة الكافرة .

أما إن حدث خلاف حول النبوات كما تذكر الآية التي نحن بصددّها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) ﴾ [الحج] والفصل أن نعرف من المحق ومن المبطل ، وهكذا جمعت

(١) الإصر : العهد والعقد والميثاق . [لسان العرب - مادة : أصر] .

الآيات بين حالة الاتفاق وحالة الاختلاف وبيّنتُ جزاء كل منهما .

فالفصل إما فصل أماكن ، وإما فصل جزاءات ، قالوا : بالطبع
فالحكم بينهم : هذا مُحَقٌّ وهذا مُبْطَلٌ سيؤدى إلى اختلاف الأماكن
واختلاف الجزاءات .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج] لأن الله
تعالى هو الحكم الذى يفصل بين عباده ، والحكم يحتاج إما إلى بيّنة أو
شهود ، والشهود لا بُدَّ أن يكونوا عدولاً ، ولا يتحقق العدل فى الشهادة
إلا بدين يمنع الإنسان أن يميل عن الحق ، فإن كان الحكم هو الله فلا
حاجة لبيّنة ، ولا حاجة لشهود ؛ لأنه سبحانه يحيط علمه بكل شيء ،
ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .

ومن العجيب أن الحكم والفصل من الحق سبحانه يشمل كل
السلطات : التشريعية والقضائية والتنفيذية ، فحكمه سبحانه لا يُؤْجَلُ
ولا يُتَحَايَلُ عليه ، ولا تضيع فيه الحقوق كما تضيع فى سراديب
وأدراج المحاكم .

أما حكم البشر فينفصل فيه التشريع عن القضاء عن التنفيذ ، فربما
صدر الحكم وتعطل تنفيذه ، أما حكم الله فنافذ لا يُؤْجَلُ شيء .

إذن : المسألة لن تمر هكذا ، بل هى محسوبة لك أو عليك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَانُوا بُدُلَ اللَّهِ بَدَلًا كَافًّا ۚ
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ
وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ
اللَّهُ فَمَالَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ۖ (١٨) ﴾ [الحج] يعنى : ألم تعلم الآن السجود من هذه الأشياء سجود على حقيقته كما نعلمه فى السجود من أنفسنا ، ولكل جنس من أجناس الكون سجود يناسبه . وسبق أن تحدثنا عن أجناس الكون وهى أربعة : أدناها الجماد ، ثم يليه النبات ، حيث يزيد عليه خاصية النمو وخاصية الحركة ، ثم يليه الحيوان الذى يزيد خاصية الإحساس ، ثم يليه الإنسان ويزيد عليه خاصية الفكر والاختيار بين البدائل . وكل جنس من هذه الأجناس يخدم ما هو أعلى منه ، حيث تنتهى هذه الدائرة بأن كل ما فى كون الله مُسخّر لخدمة الإنسان ، وفى الخبر : « يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك ، وخلقتك من أجلى ، فلا تشتغل بما هو لك عمّن أنت له » (١) .

فكان على الإنسان أن يفكر فى هذه الميزة التى منحه ربه إياها ، ويعلم أن كل شيء فى الوجود مهما صغر فله مهمة يؤدىها ، ودور يقوم به . فأولى بك أيها الإنسان وأنت سيد هذا الكون أن يكون لك مهمة ، وأن يكون لك دور فى الحياة فلست بأقل من هذه المخلوقات التى سخرها الله لك ، ولأحررت أقل منها وأدنى .

إن كانت مهمة جميع المخلوقات أن تخدمك لأنك أعلى منها ، فانظر إلى مهنتك لمن هو أعلى منك ، فإذا جاءك نرسول من أعلى منك لينبّهك إلى هذه المهمة كان عليك أن تشكره : لأنه ينبّهك إلى ما ينبغى لك أن تشتغل به ، وإلى من يجب عليك الاتصال به دائما ؛ لذلك فالرسول لا يصح أن تنصرف عنه أبدا ، لأنه يوضح لك مسائل كثيرة هي محل للحث العفلى .

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢٣٨/٤) : « ورد فى بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعن . وكذالك يخلقك فتلا تشعب ، فاطلبني تجدني ، فبان وجدتي وجدت كل شيء . وإن لك فائدتك كل شيء . وأنا أحب إليك من كل شيء . وقد أخرج أحمد فى مسنده (٢٥٨/٢) عن ابن مبررة رفعه . قال الله : ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك ولا تفعل ثلاث صدورك شغلا ولم أسد فقرك » .

وكان على العقل البشري أن يفكر في كل هذه الأجناس التي تخدمه : تلك قدرة عليها ؟ لقد خدمتك منذ صغرك قبل أن توجه إليها أمراً ، وقبل أن توجد عندك القدرة لتأمر أو لتتناول هذه الأشياء كان عليك أن تنتبه إلى القوة الأعلى منك ومن هذه المخلوقات ، القوة التي سخرت الكون كله لخدمتك ، وهذا بحث طبيعي لا بد أن يكون في هذه الأشياء في خدمتها لله لم تنأ عنك ، ولم تتخلف يوماً عن خدمتك ، انظر إلى الشمس والقمر وغيرهما : أقالت الشمس يوماً ؟ إن هؤلاء القوم لا يستحقون المعروف ، فلن أطلع عليهم اليوم ؟ الأرض : هل ضمت في يوم على زارعها ؟ الريح : هل توقفت عن الهبوب . وكلها مخلوقات أقوى منك ، ولا قدرة لك علىها ، ولا تستطيع تسخيرها ، إنما هي في قبضة الله - عز وجل - ومُسَخَّرَةٌ لك بأمره سبحانه ، ولأنها مُسَخَّرَةٌ فلا تتخلف أبداً عن أداء مهمتها .

أما الإنسان فيأتي منه الفساد ، ويأتي منه الخروج عن الطاعة لما منحه الله من منطقة الاختيار

البعض يقول عن سجود هذه المخلوقات أنه سجود دلالة ، لا سجوداً على حقيقته ، لكن هذا القول يعارضه قول الله تعالى : ﴿ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۚ ﴾ (١٦) [النور]

فلكل مخلوق مهما صغر صلاة وتسبيح وسجود ، يتناسب وطبيعته ، إنك لو تأملت سجود الإنسان بجهته على الأرض لوجدت اختلافاً بين الناس باختلاف الأحوال ، وهم قوع واحد ، فسجود الصحيح غير سجود المريض الذي يسجد وهو على الفراش ، أو جالس على مقعد ، وربما يشير بعينه ، أو أصبعه للدلالة على السجود ، فإن لم يستطع أجرى السجود على خاطره

فإذا كان السجود يختلف بهذه الصورة في الجنس الواحد حسب حاله وقدرته وطاقته ، فلماذا نستبعد أن يكون لكل جنس سجوده الخاص به ، والذي يتناسب مع طبيعته ؟

وإذا كان هذا حال السجود في الإنسان ، فهل ننتظر مثلاً أن نرى سجود الشمس أو سجود القمر ؟! ما دام الحق - سبحانه وتعالى - قال: إنها تسجد ، فلا بد أن نؤمن بسجودها ، لكن على هيئة لا يعلمها إلا خالقها عز وجل .

بالله ، لو جلس مريض يصلى على مقعد أو على الفراش ، أتعرف وهو أمامك أنه يسجد ؟ إذن : كيف نطمع في معرفة كيفية سجود هذه المخلوقات ؟

ومن معانى السجود : الخضوع والطاعة ، فمن يستبعد أن يكون سجود هذه المخلوقات سجوداً على الحقيقة ، فليعتبر السجود هنا للخضوع والانقياد والطاعة ، كما تقول على إنسان متكبر : جاء ساجداً يعنى : خاضعاً ذليلاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَاتِلَا أَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (١١)

[فصلت]

إذن : لك أن تفهم السجود على أى هذه المعانى تحب ، فلن تخرج عن مراده سبحانه ، ومن رحمة الله أن جعل هذه المخلوقات خاضعة لإرادته ، لا تنحل عنها أبداً ولا تتخلف ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (٧٢)

[الاحزاب]

ونحن نتناقل الآن ، ونروى بعض حوارات السالكين وأهل المعرفة وأصحاب الفيوضات الذين فهموا عن الله وتذوقوا لذة قربهِ ، وكانوا يتحاورون

ويتنافسون لا للمباهاة والافتخار ، إنما للترقى في القرب من الله .

جلس اثنان من هؤلاء العارفين وفي فَمِ أحدهم نَخْمَةٌ يريد أن يبصقها ، وبدت عليه الحيرة ، وهو ينظر هنا وهناك فقال له صاحبه: أَلْقِهَا واسترح ، فقال : كيف وكلما أردتُ أن أبصقها سمعت الأرض تُسَبِّحُ فاستحييتُ أن أَلْقِيهَا على مُسَبِّحٍ ، فقال الآخر - ويبدو أنه كان في منزلة أعلى منه - وقد افعل البَصْقُ وقال : مُسَبِّحٌ في مُسَبِّحٍ .

إذن : فاهل الكشف والعارفون بالله يدركون هذا التسبيح ، ويعترفون به ، وعلى قدر ما لديك من معرفة بالله ، وما لديك من فهم وإدراك يكون تلقُّيك وتقبُّلك لمثل هذه الأمور الإيمانية .

والحق - سبحانه وتعالى - حين قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١٨) [الحج] معلوم أن مَنْ فِي السَّمَوَاتِ هم الملائكة وأسنان منهم ، لكن نحن من أهل الأرض ويشملنا حكم السجود وتدخل في مدلوله ، فلماذا قال بعدها : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴾ (١٨) [الحج] ؟

كلمة : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴾ (١٨) [الحج] تبين أن لنا قهرية وتسخيروا وسجوداً كباقي أجناس الكون ، ولنا أيضاً منطقة اختيار . فالكافر الذي يتعود التمرد على خالقه : يأمره بالإيمان فيكفر ، ويأمره بالطاعة فيعصى ، فلماذا لا يتمرد على طول الخط ؟ لماذا لا يرفض المرض إن أمره الله ؟ ولماذا لا يرفض الموت إن حلَّ به ؟

إذن : الإنسان مُؤْتَمِرٌ بأمر الله مثل الشجر والحجر والحيوان ، ومنطقة الاختيار هي التي نشأ عنها هذا الانقسام : كثير آمن ، وكثير حَقٌّ عليه العذاب .

لكن ، لماذا لم يجعل الله - سبحانه وتعالى - الخلق جميعاً
مُسَخَّرِينَ ؟

قالوا : لأن صفة التسخير وعدم الخروج عن مرادات الله تثبت لله
تعالى صفة القدرة على الكل ، إنما لا تثبت لله المحبوبة ، المحبوبة
لا تكون إلا مع الاختيار ، أن تكون حُرّاً مختاراً في أن تؤمن أو تكفر
فتختار الإيمان ، وأن تكون حُرّاً وقادراً على المعصية ، لكذلك تطيع
وخرى بذلك مثلاً - والله المثل الأعلى - - هَبْ أَنْ عِنْدَكَ عِبْدِينَ ،
ترتبط أحدهما إليك في سلسلة مثلاً ، وتتوكل الآخر حُرّاً ، فإن ناديت عليهما
أجاباك ، فإيهما يكون أطوع لك : المقهور المجبر ، أم الحر الطليق ؟

إذن : التسخير والقهر يُثبت القدرة ، والاختيار يُثبت المحبة .

والخلاف الذي حدث من الناس ، فكثير منهم آمن ، وكثير منهم
حق عليه العذاب ، من أين هذا الاختلاف يا رب ؟ مما خلقته فيك من
اختيار ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، فكان كفر الكافر
واختياره : لأن الله سَخَّرَهُ للاختيار ، فهو حتى في اختياره مُسَخَّرٌ .

أما قوله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ .. (١٨) ﴾ [الحج] يعني :
باختياراتهم ، وكان المفروض أن يقول في مقابلها : وقليل ، لكن
هؤلاء كثير ، وهؤلاء كثير أيضاً .

ومعنى : ﴿ حَقُّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [الحج] حق : يعني ثبت ،
فهذا أمر لا بُدَّ منه ، حتى لا يستوى المؤمن والكافر : ﴿ أَفَنَجْعَلُ
الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) ﴾ [القلم] إذن : لا يُدُّ أَنْ يعاقب هؤلاء ،
والحق يقتضى ذلك .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا

يَشَاءُ (١٨) [الحج] لَأَن أَحَقِّيَّةَ الْعَذَابِ مِنْ مُسَاوٍ لَكَ . قَدْ يَأْتِي مَنْ هُوَ
أَقْوَى مِنْهُ فَيَمْنَعُهُ ، أَوْ يَأْتِي شَافِعٌ يَشْفَعُ لَهُ ، وَكَانَ الْحَقُّ - سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى - يُبَيِّنُ هَؤُلَاءِ مِنَ الْفَجَاءَةِ مِنْ عَذَابِهِ ، فَلَنْ يَمْنَعَهُ أَحَدٌ .

فَمَنْ أَرَادَ اللَّهُ إِهَانَتَهُ فَلَنْ يُكْرِمَهُ أَحَدٌ . لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا بِالشَّفَاعَةِ
لَهُ ، فَالْمَعْنَى : ﴿ وَمَنْ يَهِنِ اللَّهُ .. ﴾ (١٨) [الحج] أَيْ : بِالْعَذَابِ الَّذِي حَقَّ
عَلَيْهِ وَثَبِتَ ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ .. ﴾ (١٨) [الحج] يَعْنِي : يَكْرِمُهُ وَيُخْلَصُّهُ
مِنْ هَذَا الْعَذَابِ ، كَذَلِكَ لَا يُوْجِدُ مَنْ يُعِزُّهُ ، لِأَن عِزَّتَهُ لَا تَكُونُ إِلَّا قَهْرًا
عَنِ اللَّهِ ، وَهَذَا مُحَالٌ ، أَوْ يَكُونُ بِشَافِعٍ يَشْفَعُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَلَا يَشْفَعُ
أَحَدٌ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ سُبْحَانَهُ .

لِذَلِكَ ، نَقُولُ : إِنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ يُجْبِرُ عَلَى خُلُقِهِ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ،
يَعْنِي : لَا أَحَدٌ يَقُولُ اللَّهُ : هَذَا فِي جَوَارِي : لَخَلْقِكَ ذَلِيلَ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ
تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (١٨) [الحج]

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (١) :

﴿ هَذَانِ خَصِمَانِ ائْتَصِمُوا فِي رِيبِهِمَا فَأَلْزَمَ الْكَيْدَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقَطَعَتْ

لَهُمْ رِيبَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ (١٩)

كَلِمَةُ خَصِمٍ مِنَ الْإِلْفَاطِ الَّتِي يَسْتَوِي فِيهَا الْمَقْرُوبُ وَالْمُتَبَعِي

(١) سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ : عَنْ أَبِي ذَرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ كَانَ يَقْسِمُ قَسَمًا ، إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ
﴿ هَذَانِ خَصِمَانِ ائْتَصِمُوا فِي رِيبِهِمَا .. ﴾ (١٩) [الحج] نَزَلَتْ فِي الثَّلَاثَةِ وَالثَّلَاثَةِ الَّذِينَ تَبَارَزُوا
يَوْمَ بَدْرٍ ، وَهُمْ : حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَرَعِيْدَةُ بْنُ الْعَارِثِ ، وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَعَتَبَةُ
وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ ، وَالْوَلِيدُ بْنُ عَتَبَةَ . قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي رَافٍ : أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَجْثُو فِي
الْخُصُومَةِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . أَوْرَدَهُ الْوَاحِدِيُّ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ (ص
١٧٦) ، وَالذَّرُّ الْمَثُورُ لِلْسَيُوطِيِّ (١٨/٦) وَعَزَلَهُ لِلْبَخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَغَيْرِهِمَا .

والجمع ، وكذلك المذكر والمؤنث كما فى قوله تعالى ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسْفَى إِذْ تُسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ (٢١)

[ص]

ويقول تعالى : ﴿ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ .. ﴾ (٢٢)

[ص]

والمراد بقوله : ﴿ خَصْمَانِ .. ﴾ (١٩) [الحج] قوله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴾ (١٨) [الحج] والخصومة تحتاج إلى فصل بين المتخاصمين ، والفصل يحتاج إلى شهود ، لكن إن جاء الفصل من الله تعالى فلن يحتاج إلى شهود ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ (٧٩)

[النساء]

وإن جاء عليهم بشهود من أنفسهم ، فإنما لإقامة الحجة ولتقريعهم ، يقول تعالى : ﴿ وَقَالُوا لِمَ جُلِدْتُمْ إِنَّمَا أَنْتُمْ مُنْذَرُونَ ﴾ (٢١) [فصلت]

فإن قلت : كيف تشهد الجوارح على صاحبها يوم القيامة وهى التى فعلت ؟

نقول : هناك فرق بين عمل أريده وعمل أؤديه ، وأنا أبغضه وضربنا لذلك مثلاً - والله المثل الأعلى - بالقائد الذى يأمر جنوده ، وعليهم أن يطيعوه حتى إن كانت الأوامر خاطئة ، فإن رجعوا إلى القائد الأعلى حكوا له ما كان من قائدهم : ذلك لأن القائد الأعلى جعل له ولاية عليهم ، وألزمهم طاعته والائتمار بأمره .

فالخالق - عز وجل - جعل لإرادة الإنسان ولاية على جوارحه ، فالفعل - إذن - للإرادة ، وما الجوارح إلا أداة للتنفيذ . فحينما تريد مثلاً أن تقوم ، مجرد أن تريد ذلك تجد نفسك قائماً دون أن تفكر فى حركة القيام أو العضلات التى تحركت لتؤدي هذا العمل ، مع أنها

عملية مُعقّدة تتضافر فيها الإرادة والعقل والأعصاب والأعضاء ، وأنت نفسك لا تشعر بشيء من هذا كله ، وهل فى قيامك أمرت الجوارح أن تتحرك فتحرّكت ؟

فإذا كانت جوارحك تنفعل لك وتطاولك لمجرد الإرادة ، أفلا يكون أولى من هذا أن ينفعل خلق الله لإرادة الله ؟

إذن : العمدة فى الأفعال ليست الجوارح وإنما الإرادة ، بدليل أن الله تعالى إذا أراد أن يعطل جارحة من الجوارح عطل الإرادة الأمرة ، وقطعها عن الجارحة ، فإذا هى مشلولة لا حركة فيها ، فإن أراد الإنسان تحريكها بعد ذلك فلن يستطيع ، لماذا ؟

لأنه لا يعلم الأبعاد التى تُحرّك هذه الجارحة ، ولو سألت أعلم الناس فى علم الحركة والذين صنعوا الإنسان الآلى : ما الحركة الآلية التى تتم فى جسم الإنسان كى يقوم من نومه أو من جلّسته ؟ ولن يستطيع أحد أن يصف لك ما يتم بداخل الجسم فى هذه المسألة .

أما لو نظرت مثلاً إلى الحفّار ، وهو يؤدّى حركات أشبه بحركات الجسم البشرى لوجدت صبيّاً يشغله باستخدام بعض الأزرار ، ويستطيع أن يصف لك كل حركة فيه ، وما الآلات التى تشترك فى كل حركة . فقلّ لى بالله : ما الزر الذى تضغط عليه لتحرك يدك أو ذراعك ؟ ما الزر الذى تُحرّك به عينيك ، أو لسانك ، أو قدمك ؟ إنها مجرد إرادة منك فينفعل لك ما تريد ؛ لأن الله تعالى خلقك ، وجعل لإرادتك السيطرة الكاملة على جوارحك ، فلا تستبعد أن تنفعل المخلوقات لله - عز وجل - إن أراد منها أن تفعل .

حتى العذاب فى الآخرة ليس لهذه الجوارح والأعضاء ، إنما العذاب للنفس الواعية ، بدليل أن الإنسان إذا تعرّض لألم شديد

لا يستريح منه إلا أن ينام ، فإذا استيقظ عاوده الألم ، إذن : فالنفس هي التي تالم وتتعب لا الجوارح .

والحق سبحانه هو الذي يفصل بين هذين الخصمين ، كما قال سبحانه في آية أخرى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْضِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ ۝ (١٧) ﴾ [الحج] لذلك يقول الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه (١) : أنا أول من يجثو بين يدي الله يوم القيامة للفصل ومعى عبدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب ، هؤلاء في جانب وفي الجانب المقابل : عتبة ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة .

لماذا ؟ لأن بين هؤلاء كانت أول معركة في الإسلام ، وهذه أول خصومة وقعت فيه ، ذلك لأنهم في معركة بدر أخرج رسول الله ﷺ قوماً للمبارزة ، وكانت عاداتهم في الحروب أن يخرج أقوياء القوم وأبطالهم للمبارزة بدل أن يُعذبوا القوم ويشركوا الجميع في القتال ، ويُعرضوا أرواح الناس جميعاً للخطر .

ومن ذلك ما حدث بين علي ومعاوية - رضي الله عنهما - في موقعة صفين حيث قال علي لمعاوية : ابرز إلي يا معاوية ، فإن غلبتني فالأمر لك ، وإن غلبتك فاجعل الأمر لي ، فقال عمرو بن العاص وكان في صفوف معاوية : والله ، يا معاوية لقد أنصفك الرجل ، وفي هذا حقٌ لدماء المسلمين في الجانبين .

فنظر معاوية إلى عمرو وقال : والله يا عمرو ما أردت إلا أن ابرز

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٤٤) قال : أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة ، قال قيس بن عباد : وفيهم نزلت ﴿ هَذَا خِطْمَانُ فَتَنَهُمَا إِلَى رَبِّهِمْ ۖ ۝ (١٧) ﴾ [الحج] قال : هم الذين بارزوا يوم بدر : علي وحمزة وعبدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة .

سورة الحج

٩٧٥٩

له فيقتلني ، ويكون لك الامر من بعدي ، وما دُمت قد قلت ما قلت
فلا يبارزه غيرك فاخرج إليه .

فقام عمرو لمبارزة علي ، لكن أين عمرو من شجاعة علي
وقوته ؟ وحمل علي على عمرو حملة قوية ، فلما أحس عمرو أن علياً
سيضربه ضربة تميته لجأ إلى حيلة ، واستعمل دهاءه في صرف
علي عنه ، فكشف عمرو عن عورته ، وهو يعلم تماماً أن علياً يتورع
عن النظر إلى العورة ، وفعلاً تركه علي وانصرف عنه ، ونجا عمرو
بحيلته هذه^(١) .

وقد عبّر الشاعر عن هذا الموقف فقال :

وَلَا خَيْرَ فِي رَدِّ الرَّدَى بِدَنِيَّةٍ كَمَا رَدَّهَا يَوْمًا بِسَوَاتِهِ عَمْرُو

ويقول الشريف^(٢) الرضي - وهو من آل البيت - في القصيدة
التي مطلعها :

أَرَاكَ عَصِيَّ الدُّمُوعِ شَيْمَتِكَ الصَّبْرِ أَمَا لِلْهَوَى أَمْرٌ عَلَيْكَ وَلَا نَهْيٌ

(١) ذكر ابن كثير في كتابه « البداية والنهاية » (٢٧٤/٤) أن علياً رضي الله عنه نادى :
ويحك يا معاوية ، ابرز إلي ولا تقنن العرب بيني وبينك ، فقال له عمرو بن العاص :
اغتنمه فإنه قد أثنى بقتل هؤلاء الأربعة ، فقال له معاوية : والله لقد علمت أن علياً لم يقهر
قط . وإنما أردت قتلي لتصيب الخلافة من بعدي ، اذهب إليه ، فليس مثلي يُخدع . وذكروا
أن علياً حمل على عمرو بن العاص يوماً فضربه بالرمح فآلقاه إلى الأرض فبدت سوءته
فرجع عنه ؛ فقال له أصحابه : مالك يا أمير المؤمنين رجعت عنه ؟ فقال : أتدرون ما هو ؟
قالوا : لا قال : هذا عمرو بن العاص ثلثاني بسوءته فذكرني بالرحم فرجعت عنه ، فلما
رجع عمرو إلى معاوية قال له : أحمد الله وأحمد إبتك .

(٢) هو : محمد بن الحسين أبو الحسن الرضي العلوي الحسيني ، أشهر الطالبين ، مولده
٣٥٩ هـ ووفاته (٤٠٦ هـ) في بغداد ، انتهت إليه نقابة الأشراف في حياة والده . له
« المجازات النبوية » ، « مجاز القرآن » ، « خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب »
[الاعلام للزركلي ٦ / ٩٩] .

بَلَى أَنَا مُشْتَقٌّ وَعِندِي لَوْعَةٌ وَلَكِنْ مِثْلِي لَا يُذَاعُ لَهُ سِرٌّ
وفيها يقول :

وَأَنَا أَنَسٌ لَا تَوْسُطَ بَيْنَنَا لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرِ
نعود إلى بدر ، حيث اعترض الكفار حينما أخرج لهم رسول الله
بعض رجال الانصار فقالوا : هؤلاء نكرات من الانصار ، نريد أن
تُخرج لنا أكفأنا من رجال قريش ، فأخرج لهم رسول الله ﷺ علياً
وحمزة وعبيد بن الحارث بن عبد المطلب ، وأخرجوا هم عتبة وشيبة
والوليد ، وكان ما كان من نُصرة المسلمين وهزيمة المشركين^(١) .

وهذا هو اليوم الذي قال الله فيه : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ
أَذِلَّةٌ فَأْتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١٢٣) [آل عمران]

إذن : فبدر كانت فصلاً دنيوياً بين هذين الخصمين ، ويبقى
فصل الآخرة الذي قال فيه الإمام علي : « أنا أول من يجثو بين يدي
الله يوم القيامة للفصل » .

ومعنى : ﴿ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. ﴾ (١٦) [الحج] أى : بسبب
اختلافهم في ربهم ، ففريق يؤمن بوجود إله ، وفريق يُنكره ، فريق
يُثبت له الصفات ، وفريق ينفي عنه هذه الصفات ، يعنى : انقسموا
بين إيمان وكفر .

(١) ذكر ابن هشام في « السيرة النبوية » (٢ / ٦٢٥) أن عتبة بن ربيعة خرج بين أخيه
شيبه بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة ، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة ، فخرج
إليه فتية من الانصار ثلاثة ، وهم : عوف ، ومُبْعُوث ، أبنا الحارث - وأمهما عقراء - ورجل
آخر يقال : هو عبد الله بن رواحة - فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الانصار . قالوا :
ما لنا بكم من حاجة . ثم نادى مناديتهم : يا محمد ، أخرج إلينا أكفأنا من قومنا ، فقال
رسول الله ﷺ : قُمْ يَا عبيدة بن الحارث ، وقُمْ يَا حمزة وقُمْ يَا علي ، فلما قاموا ودنوا
منهم ، قالوا : من أنتم ؟ قالوا : نعم ، أكفاء كرام ، فيارز عبيدة ، وكان أسن القوم . عتبة
ابن ربيعة ، وبارز حمزة شيبه بن ربيعة ، وبارز علي الوليد بن عتبة .

ثم يُفَصِّلُ الْقَوْلَ : ﴿ فَأَلْدَيْنَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ (١٩) [الحج]

﴿ قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ﴾ (١٩) [الحج] كان النار تفصيل على قَدْرَ جُسُومِهِمْ إِحْكَامًا لِلْعَذَابِ ، وَمِبَالِغَةً فِيهِ ، فَلَيْسَ فِيهَا اتِّسَاعٌ يُمْكِنُ أَنْ يُقَلَّلَ مِنْ شِدَّتِهَا ، وَلَيْسَتْ فَضْفَاضَةً عَلَيْهِمْ .

ثم ﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ (١٩) [الحج] والحميم : الماء الذى بلغ منتهى الحرارة ، حتى صار هو نفسه مُحْرِقًا مِنْ شِدَّةِ حَرِّهِ ، وَلَكِنْ أَنْ تَتَصَوَّرَ مَاءٌ يَغْلِيهِ رَبُّنَا عِزَّ وَجَلَّ !!

وهكذا يجمع الله عليهم ألوان العذاب : لأن الثياب يرتديها الإنسان لتستر عورته ، وتقيه الحر والبرد ، ففيها شمول لمنفعة الجسم ، يقول تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١١٢) [النحل]

فالإذاقة ليست فى اللباس ، إنما يشىء آخر ، واللباس يعطى الإحاطة والشمول ، لتعم الإذاقة كُلَّ أَطْرَافِ الْبَدَنِ ، وَتَحْكَمَ عَلَيْهِ مِبَالِغَةُ فِي الْعَذَابِ .

﴿ يَصْهَرُ بِهِمْ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴾ (٢٠)

قلنا : إن هذا الماء بلغ من الحرارة مَنَتَهَا ، فلم يغل عند درجة الحرارة التى نعرفها ، إنما يغليه ربه الذى لا يُطِيقُ عَذَابَهُ أَحَدٌ . وَأَنْتَ إِذَا صَبَبْتَ الْمَاءَ الْمَغْلَى عَلَى جَسَمِ إِنْسَانٍ فَإِنَّهُ يَشْوَى جَسَمَهُ مِنَ الْخَارِجِ ، إِنَّمَا لَا يَصِلُ إِلَى دَاخِلِهِ ، أَمَّا هَذَا الْمَاءُ حِينَ يُصَبُّ عَلَيْهِمْ

فإنه يصهر ما فى بطونهم أولاً ، ثم جلودهم بعد ذلك ، قاللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك .

﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾

المقامع : هى السياط التى تقمع بها الدابة ، وتردعها لتطاولك ، أو الإنسان حين تعاقبه ، لكنها سياط من حديد ، ففيها دلالة على الذلة والانكسار ، فضلاً عن العذاب .

ثم يبين الحق سبحانه مهمة هذه المقامع ، فيقول :

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا

وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يُصوِّر حال أهل النار وما هم فيه من العذاب ومن اليأس فى أن يُخفف عنهم ، فإذا ما حاولوا الخروج من غم العذاب جاءتهم هذه السياط فأعادتهم حيث كانوا ، والإنسان قد يتعود على نوع من العذاب فيبهون عليه الأمر ، كالمسجون مثلاً الذى يُضرب بالسياط على ظهره ، فبعد عدة ضربات يفقد الإحساس ولا يؤثر فيه ضرب بعد ذلك .

وقد أجاب المتنبي^(١) فى وصف هذا المعنى حين قال :

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى كَأَنِّي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالٍ

(١) المتنبي : هو أحمد بن الحسين أبو الطيب الكندي ، ولد (٣٠٢ هـ) بالكوفة فى محطة تسمى كندة ، نشأ بالشام ، ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية ، قال الشعر صبيهاً ، تنبأ فى بادية السماوة ، أسره أمير حمص وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه ، توفي ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً [الاعلام للزركلى ١١٥/١] .

فَكَنتُ إِذَا أَصَابْتَنِي سِهَامٌ تَكَسَّرَتْ النُّصَالُ عَلَى النُّصَالِ

لَكِنْ أَنِّي يُخَفِّفُ عَنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ : ﴿ كَلَّمَآ نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَنُهَا مِنْ جُلُودِهَا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. ﴾ (٥٦) [النساء]

فَفِي إِعَادَتِهِمْ تَيْئِيسٌ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ طَمَعُوا فِي النِّجَاةِ ، وَمَا أَشَدَّ الْيَأْسَ بَعْدَ الطَّمَعِ عَلَى النَّفْسِ : لِذَلِكَ يَقُولُونَ : لَا أَفْجِعُ مِنْ يَأْسٍ مَقْمَعٍ ، بَعْدَ أَمَلٍ مُقْمِعٍ . كَمَا يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا .. ﴾ (٢٩) [الكهف] سَاعَةً يَسْمَعُونَ الْإِغَاةَ يَاطَلُونَ وَيَسْتَبْشِرُونَ ، فَيَأْتِيهِمْ الْيَأْسُ فِي ﴿ بَمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ .. ﴾ (٢٩) [الكهف] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (٢٢) [الحج] الْحَرِيقُ : الشَّيْءُ الَّذِي يَحْرِقُ غَيْرَهُ لَشِدَّتِهِ .



وَبَعْدَ أَنْ تَحَدَّثْتُ الْآيَاتُ عَنِ الْكَافِرِينَ ، وَمَا حَاقَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ كَانَ لَا بُدَّ أَنْ تَتَحَدَّثَ عَنِ الْمَقَابِلِ ، عَنِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُجْرَى الْعَقْلُ مُقَارَنَةً بَيْنَ هَذَا وَذَلِكَ ، فَيَزِدَادُ الْمُؤْمِنُ تَشَبُّهًا بِالْإِيمَانِ وَنُفْرَةً مِنَ الْكُفْرِ ، وَكَذَلِكَ الْكَافِرُ يَنْتَبِهَ لِعَاقِبَةِ كُفْرِهِ فَيَزْهَدَ فِيهِ وَيَرْجِعَ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَهَكَذَا يَنْتَفِعُ الْجَمِيعُ بِهَذِهِ الْمَقَابِلَةِ ، وَكَانَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْطِينَا فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ وَفِي هَذِهِ الْمَقَابِلَاتِ وَسَائِلَ النِّجَاةِ وَالرَّحْمَةَ .

يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (٢٢)

يُبَيِّنُ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا أَعَدَّ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ حَيْثُ السَّكَنُ : ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. (٢٣)﴾ [الحج] وَالزَّيْنَةُ : ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا .. (٢٣)﴾ [الحج] وَاللِّبَاسُ : ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣)﴾ [الحج] فَجَمَعَ لَهُمْ نَعِيمَ السَّكَنِ وَالزَّيْنَةِ وَاللِّبَاسِ .

وَفِي الْآخِرَةِ يُنْعَمُ الرِّجَالُ بِالْحَرِيرِ وَبِالذَّهَبِ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَهَذَا قَدْ يَعْتَرِضُ النِّسَاءُ ، وَمَا النَّعِيمُ فِي شَيْءٍ تَنْفَعُنَا بِهِ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ الْحَرِيرُ وَالذَّهَبُ ؟

نَعَمْ تَقْتَمِعُنَ بِالْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ فِي الدُّنْيَا ، أَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ نَوْعٌ آخَرٌ وَمَتْعَةٌ كَامِلَةٌ لَا يُنْقِصُهَا شَيْءٌ ، فَالْحُلَى لِلْمَرْأَةِ خَالِصٌ مِنَ الْمَكْدُرَاتِ ، وَبَاقٍ مَعَهَا لَا يَأْخُذُهُ أَحَدٌ ، وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى تَغْيِيرِهِ أَوْ بَيْعِهِ ؛ لِأَنَّهُ يَتَجَدَّدُ فِي يَدِهَا كُلَّ يَوْمٍ ، فَتَرَاهُ عَلَى صَيَاغَةٍ جَدِيدَةٍ وَشَكْلٍ جَدِيدٍ غَيْرِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ ^(١) . كَمَا قُلْنَا سَابِقًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ : ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ .. (٢٥)﴾ [البقرة]

فَحَسِبُوا أَنَّ طَعَامَ الْجَنَّةِ وَفَاكِهَتَهَا كَفَاكِهَةِ الدُّنْيَا الَّتِي أَكَلُوهَا مِنْ قَبْلُ ، فَيُبَيِّنُ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنَّهَا لَيْسَتْ كَفَاكِهَةِ الدُّنْيَا ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥)﴾ [البقرة] يَعْنِي : أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً لِلصَّنْفِ الْوَاحِدِ .

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ :

﴿وَهُدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا

إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ (٢٦)﴾

(١) أورد ابن القيم (في حادي الأرواح ص ١٨٩) عن كعب الأحبار فهما أخرجه ابن أبي الدنيا : « إن لله عز وجل ملكاً منذ يوم خلق يصورح على أهل الجنة إلى أن تقوم الساعة . لو ألقوا من على أهل الجنة أخرج لذهب بضوء شعاع الشمس . فلا تسألوا بعد هذا عن على أهل الجنة » .

سُورَةُ الْحَجِّ

٩٧٦

(هُودُوا) هُداهم الله ، فالذى دلهم على وسائل دخول الجنة والتمتع فيها بالسكن والزينة واللباس كذلك يهديهم الآن في الجنة ويدلهم على كيفية شكر المنعم على هذه النعمة ، هذا معنى : ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ۖ ۞ (٢٤) ﴾ [الحج] هذا القول الطيب لخصته آيات أخرى ، ومنها قوله تعالى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ۖ ۞ (٧٤) ﴾ [الزمر]

وقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ۖ ۞ (٣٥) ﴾ [فاطر]

وقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ۖ ۞ (٣٤) ﴾ [فاطر]

فحين يدخل أهل الجنة الجنة ، ويباشرون النعيم المقيم لا يملكون إلا أن يقولوا : الحمد لله ، كما يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ وَأَخِرَ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١) ﴾ [يونس]

وقالوا^(١) : ﴿ الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ۖ ۞ (٢٤) ﴾ [الحج] هو كلمة التوحيد : لا إله إلا الله ، فهذه الكلمة هي المعشوقة التي أتت بنا إلى الجنة ، والمعنى يسع كل كلام طيب ، كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) ﴾ [إبراهيم]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ (٢٤) ﴾ [الحج] أى : هداهم الله إلى طريق الجنة ، أو إلى الجنة ذاتها ، كما قال في آية أخرى عن الكافرين :

(١) قاله ابن عباس ، قال : يريد لا إله إلا الله والحمد لله . [تفسير القرطبي ٤٥٦٢/٦] . وقال أبو العالية : قولهم الله مولانا ولا مولى لكم . أى : فى الخصومة . وقال إسماعيل بن أبي خالد : القرآن . وقال الضحاك : الإخلاص وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله . [الدر المنثور ٢٤/٦] .

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ.. (١٦٩)﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ
وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكْمِ يُظْلَمْ نُذُوقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٥)﴾

انتقلت بنا الآيات إلى موضوع جديد : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٢٥)﴾ [الحج] بصيغة الماضي ، لأن الكفر وقع منهم فعلاً ﴿وَيَصُدُّونَ .. (٢٥)﴾ [الحج] بصيغة المضارع ، والقياس أن نقول : كفروا وصدُّوا ، لكن المسألة ليست قاعدة ولا هي عملية آلية ؛ لأن الصدَّ عن سبيل الله ناشئ عن الكفر وما يزال صدُّهم مستمراً .

ومعنى ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. (٢٥)﴾ [الحج] أى : عن الجهاد ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (٢٥)﴾ [الحج] لأنهم منعوا المسلمين من دخوله ، وكان فى قبضتهم وتحت سيطرتهم ، وهذا ما حدث فعلاً فى الحديبية حينما اشتاق صحابة رسول الله إلى أداء العمرة والطواف بالبيت الذى طالمت مدة حرمانهم منه ، فلما ذهبوا منعهم كفار مكة ، وصدُّوهم عن دخوله .

﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (٢٥)﴾ [الحج] كلمة حرام يُستفاد منها أنه

(١) العاكف فيه والباد . أى : المقيم بالحرم وحوله . والباد : غير المقيم عنده من سكان البادية ، أو البلاد البعيدة عن الحرم . [القاموس القويم ٣١/٢] .

(٢) الإلحاد : العدول عن الحق . أى : من يرد فى المسجد عملاً لا يرضى الله مثبساً بميل من الحق ومثبساً بظلم . [القاموس القويم ١٩٠/٢] .

مُحَرَّمٌ أَنْ تَفْعَلَ فِيهِ خَطَا ، أَوْ تَهِينَهُ ، أَوْ تَعْتَدِي فِيهِ . وكلمة (الْحَرَامُ) وصف بها بعض المكان وبعض الزمان ، وهي خمسة أشياء : نقول : البيت الحرام وهو الكعبة ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، ثم المشعر الحرام . وهذه عبارة عن دوائر مركز الكعبة ، هذه أماكن ، ثم الخامس وهو زمن : الشهر الحرام الذي قال الله فيه : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَاتَلٍ فِيهِ .. ﴾ (٢١٧) [البقرة]

وحرمة الزمان والمكان هنا لحكمة أرادها الخالق سبحانه : لأنه رب رحيم بخلقه يريد أن يجعل لهم فرصة لستر كبرياتهم ، والخذ من غرورهم ، وكانت تنتشر بين القوم الحروب والصراعات التي كانت تُذكي نارها عادات قبلية وسعار الحرب ، حتى أن كلا الفريقين يريد أن يفنى الآخر ، وربما استمروا في الحرب وهم كأرهُون لها ، لكن يمنعهم كبرياؤهم من التراجع والانسحاب .

لذلك جعل الله سبحانه لهذه الأماكن والأزمنة حرمة لتكون ستارا لهذا الكبرياء الزائف ، ولهذه العزة البغيضة . وكل حَدَثٌ يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، فحرم الله القتال في الأشهر الحرم ، حتى إذا ما استعرت بينهم حرب جاء شهر حرام ، فأنقذ الضعيف من قبضة القوى دون أن يجرح كبريائه ، وربما هز رأسه قائلاً : لولا الشهر الحرام كنت فعلتُ بهم كذا وكذا .

فهذه - إذن - رحمة من الله بعباده ، وستار يحميهم من شرور أنفسهم ونزواتها ويحقق دماءهم .

وما أشبه كبرياء العرب في هذه المسألة بكبرياء زوجين تخاصما على مَضَضٍ ، ويريد كل منهما أن يأتي صاحبه ، لكن يمنعه كبرياؤه أن يقتازل ، فجلس الرجل في غرفته ، وأغلق الباب على نفسه ، فنظرت الزوجة ، فإذا به يرفع يديه يدعو الله أن تُصالحه زوجته ،

فذهبت وتزينت له ، ثم دفعت الباب عليه وقالت - وكان أحداً يجبرها على الدخول - (مُودِيَانِي فِين يَا أُم هَاشِم)

وكذلك ، جعل في المكان محرماً ؛ لأن الزمن الحرام الذي حرم فيه قتال أربعة أشهر : ثلاثة سرد وواحد فرد ، الفرد هو رجب ، والسرد هي : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم .

فحرم أيضاً القتال في هذه الأماكن ليعصم دماء الخلق أن تُراق بسبب تناحر القبائل بالغُل والحقد والكبرياء والغرور .

يقول تعالى في تحريم القتال في البيت الحرام : ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٩١)

[البقرة]

فلعلهم حين تأتي شهور التحريم ، أو يأتي مكانه يستريحون من الحرب ، فيدركون لذة السلام وأهمية الصلح ، فيقضون على أسباب النزاع بينهم دون حرب ، فسُعار الحرب يجزُّ حرباً ، ولذة السلام وراحة الأمن والشعور بهدوء الحياة يجزُّ مَيْلاً للتصالح وفضً مثل هذه المنازعات بالطرق السلمية .

والمعامل في هذه الأماكن التي حرمها الله يجدها على مراتب ، وكأنها دوائر مركزها بيت الله الحرام وهو الكعبة ، ثم المسجد الحرام حولها ، ثم البلد الحرام وهي مكة ، ثم المشعر الحرام الذي يأخذ جزءاً من الزمن فقط في أيام الحج .

أما الكعبة فليست كما يظن البعض أنها هذا البناء الذي نراه ، الكعبة هي المكان ، أما هذا البناء فهو المكين ، فلو نقضت هذا البناء القائم الآن فمكان البناء هو البيت ، هذا مكانه إن نزلت في أعماق الأرض أو صعدت في طبقات السماء .

إذن : فبيت الله الحرام هو هذه البقعة من الأرض حتى السماء ،
الآ ترى الناس يُصَلُّون في الأدوار العليا ، وهم أعلى من هذا البناء
بكثير ؟ إنهم يواجهون جوَّ الكعبة ، لا يواجهون الكعبة ذاتها ، لماذا ؟
لان الكعبة ممتدة في الجو إلى ما شاء الله .

ثم يلي البيت المسجد ، وهو قطعة أرض حُكِرَت على المسجدية ،
لكن هناك مسجد بالمكان حين تقيمه أنت ، وتجعل له بناء مثل هذا
البناء الذي نتحدث فيه الآن يسمى « مسجد » بالمكان ، أو مسجد
بالمكين حين يضيق علينا هذا المسجد فنخرج نصلي في الشارع فهو
في هذه الحالة مسجد ، قالوا : ولو امتد إلى صنعاء وتواصلت
الصفوف فكله مسجد .

نعود إلى ما دار بين المسلمين والمشركين يوم الحديبية ، فقد
صدَّ الكفار المسلمين عن بيت الله الحرام وهم على مَرْمَى البصر منه ،
فاغتاز المسلمون لذلك ، ورأى بعضهم أن يدخل مكة عُنْوة ورَغْماً
عنهم .

لكن كان لرسول الله ﷺ سرٌّ بينه وبين ربه عز وجل ، فنزل على
شروطهم ، وعقد معهم صلحاً هو « صلح الحديبية » الذي أثار
حفيظة الصحابة ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ، فقال لرسول الله :
يا رسول الله ، ألسنا على الحق ؟ قال ﷺ : « بلى » قال : أليسوا هم
على باطل ؟ قال : « بلى » قال : فلم نُعطِ الدنية في ديننا؟^(١)

وكان من بنود هذا الصلح : إذا أسلم كافر ودخل في صفوف

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١٤٨/٤) ، والبخاري في صحيحه (كتاب الجزية -
باب ١٨) وكذا مسلم في صحيحه (كتاب الجهاد - باب ٣٤) وفيه « أن رسول الله ﷺ
قال بعد مراجعة عمر بن الخطاب له : يا بن الخطاب ، إني رسول الله ولن يضيعني الله .
وقال له أبو بكر : يا بن الخطاب ، إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً » .

المسلمين يرده محمد ﷺ ، وإذا ذهب مسلم إليهم لا يردونه إلى المسلمين^(١) .

وكان للسيدة أم المؤمنين أم سلمة - رضوان الله عليها - موقف عظيم في هذه الشدة ، ورأى سديد ردّ آراء الرجال إلى الرشد وإلى الصواب ، وهذا مما نفخر به للمرأة في الإسلام ، ونردّه به على المتشدّقين بحقوق المرأة .

فلما عاد رسول الله ﷺ إلى فسطاطه مُغضباً فقال لام سلمة : « هلك المسلمون يا أم سلمة ، لقد أمرتهم فلم يمتثلوا » ، يعني : أمرهم بالعودة دون أداء العمرة هذا العام .

فقالت السيدة أم المؤمنين : يا رسول الله ، إنهم مكروبون ، فقد منعوا عن بيت الله وهم على مرأى منه ، لكن اذهب يا رسول الله إلى ما أمرك به ربك ، فافعل فإذا رأوك فعلتة علموا أن الأمر عزيمة - يعني لا رجعة فيه - وفعلأ أخذ رسول الله بهذه النصيحة ، فذهب فخلق ، وذبح هديه وفعل الناس مثله ، وانتهت هذه المسألة^(٢) .

لكن قبل أن يعودوا إلى المدينة شاءت إرادة الله أن يخبرهم بالحكمة في قبول رسول الله لشروط المشركين مع أنها شروط ظالمة مُحجفة :
أولاً : في هذا الصلح وهذه المعاهدة اعتراف منهم بمحمد ومكانته ومنزلته ، وأنه أصبح مساوياً لهم ، وهذا مكسب في حدّ ذاته .

ثانياً : اتفق الطرفان على وقف القتال بينهم لعدة سنوات ، وهذه

(١) كان رأى رسول الله ﷺ في هذا الشرط الذي اشترطته قريش ما قاله : « من أتاهم منا فأبعده الله ، ومن أتانا منهم فرددناه عليهم ، جعل الله له فرجاً ومخرجاً » أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١٤٧/٤) ، ومسلم في صحيحه (كتاب الجهاد - باب ٢٤) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٥٢/٧) بشرح فتح الباري - كتاب المغازي من حديث المسور بن مخرمة . والبيهقي في دلائل النبوة (١٥٠/٤) .

الفترة أعطت المسلمين فرصة كي يتفرغوا لاستقبال الوفود ونشر دين الله .

ثالثاً : كان في إمكان رسول الله ﷺ أن يدخلهم مكة رغماً عن أهلها ، وكان في مقدوره أن يقتلهم جميعاً ، لكن ماذا سيكون موقف المؤمنين من أهل مكة والذين يسترون إيمانهم ولا يعرفهم أحد ؟ إنهم وسط هؤلاء الكفار ، وسينالهم ما ينال الكفار ، ولو تميز المؤمنون من الكفار أو خرجوا في جانب لا يمكن تغاديهم .

اقرأ قوله تعالى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيكُم مِّنْهُمْ فَعَرَّ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّدْخُلِ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا^(١) لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الفتح]

ثم يقول تعالى عن المسجد الحرام : ﴿ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ .. ﴾ [الحج] أي : جميعاً ﴿ سَوَاءٌ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ .. ﴾ [الحج] [٢٥] العاكف فيه يعني : المقيم ، والباد : القادم إليه من خارج مكة ، ومعنى ﴿ سَوَاءٌ .. ﴾ [الحج] [٢٥] يعني : هذان النوعان متساويان تعاملاً .

لذلك نقول للذين يحجزون الأماكن لحسابهم في بيت الله الحرام خاصة ، وفي بيوت الله عامة : أريحوا أنفسكم ، فالمكان محجوز عند الله لمن سبق ، لا لمن وضع سجاده ، وشغل بها المكان .

وقد دعت هذه الآية : ﴿ سَوَاءٌ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ .. ﴾ [الحج] [٢٥]

(١) لو تزيّلوا : لو تفرقوا . قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فيما أخرجه عنه ابن جرير الطبري . [ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥٢٤/٧] .

البعض لأن يقول : لا يجوز تأجير البيوت في مكة ، فمن أراد أن ينزل في بيت ينزل فيه دون أجره حتى يستوى المقيم والغريب^(١) .

وهذا الرأي مردود عليه بأن البيوت مكان ومكين ، وأرض مكة كانت للجميع حين كان المكان حراً يبنى فيه من أراد ، أما بعد أن بنى بيتاً ، وسكنه أصبح مكيناً فيه ، لا يجوز لأحد دخوله إلا بإذنه وإرادته .

وقد دار حول هذه المسألة^(٢) نقاش بين الحنظلي^(٣) في مكة والإمام الشافعي^(٤) ، حيث يرى الحنظلي أنه لا يجوز تأجير البيوت في مكة ؛ لأنها حسب هذه الآية للجميع ، فرد عليه الشافعي رضي الله عنه : لو كان الأمر كذلك لما قال سبحانه في المهاجرين : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ .. ﴾ (٨)

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٥٦٤/٦) : كانت دورهم بغير أبواب حتى كثرت السرقة . فاتخذ رجل باباً فأنكر عليه عمر وقال : أتخلق باباً في وجه حجاج بيت الله ؟ قال الرجل : إنما أردت حفظ متاعهم من السرقة ، فتوكل ، فاتخذ الناس الأبواب . وروى عن مالك أن النور ليست كالمسجد ، ولاهلها الامتناع منها والاستبداد . وهذا هو العمل اليوم وقال بهذا جمهور من الأئمة .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٢١٤/٣) : هذه المسألة هي التي اختلف فيها الشافعي وإسحاق ابن راهويه بمسجد الخيف وأحمد بن حنبل حاضراً أيضاً ، وذكر احتجاج كل منهما .

(٣) هو إسحاق بن راهويه أبو يعقوب الحنظلي نزيل نيسابور وعالمها ولد عام ١٦١ هـ ، وهو أحد كبار الحفاظ ، أخذ عنه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم . اجتمع له الحديث والفقه والحفظ والصدق والزهد . [الاعلام للزركلي ٢٩٢/١] وتذكرة الحفاظ للذهبي (٤٢٣/٢) .

(٤) هو : محمد بن إمام الشافعي أبو عبد الله ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، وإليه نسبة الشافعية كافة . ولد عام ١٥٠ هـ في غزة بفلسطين ، وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين . وزار بغداد مرتين . وقصد مصر سنة ١٨٩ هـ فتولى بها وقبره معروف في القاهرة . له مصنفات أشهرها كتاب : الام ، أحكام القرآن ، [الاعلام للزركلي ٢٦/٦] .

01VVY

هذا مع أن الآية تعنى البيت فقط ، لا مكة كلها ، فما كان الخلاف ليصل إلى مكة كلها .

الإلحاد قد يكون في الحق الأعلى ، وهو الإلحاد في الله عز وجل ، أما هنا فيُراد بالإلحاد : الميل عن طريق الحق ، وقوله : ﴿بِظُلْمٍ .. (٢٥)﴾ [الحج] الظلم في شيء لا يسمو إلى درجة الكفر ، والإلحاد بظلم إن حدث في بيت الله فهو أمر عظيم : لأنك في بيت ربك (الكعبة) .

وكان يجب عليك أن تستحي من مجرد حديث النفس بمعصية ،
مجرد الإرادة هنا تُعدُّ ذنباً ؛ لأنك في مقام يجب أن تستشعر فيه
الجلال والمهابة ، فكما أعطى الله لبيته مِيزة في مضاعفة الحسنات ،
كذلك عظم أمر المعصية وأنت في رحاب بيته ، فتنبه لهذه المسألة ^(٦) .

(۱) حدیث متفق علیہ . أخرجه البخاری فی صحیحہ (۱۵۸۸) ، وکذا مسلم فی صحیحہ (۱۳۵۱) وقامہ " أن أسامة بن زید قال : یا رسول اللہ ، این تنزل ؟ فی دارک بمکة ؟ قال : وهل ترک عقیل من رباع أو دور ؟ وكان عقیل ورث أبی طالب هو وطالب ، ولم يرثه جعفر ولا علی رضی اللہ عنہما شیئاً . لأنهما كانا مسلمین ، وكان عقیل وطالب کافرین . "

(۲) قال ابن مسعود : من ہم بخطیئة فلم یعملها - فی سوی البيت - لم تکتب علیہ حتی یعملها ، ومن هم بخطیئة فی البيت لم یعتہ اللہ من الدنیا حتی یدفقه من عذاب الیم . أخرجه سعید بن منصور والطبرانی قیما أورده السیوطی فی الدر المنثور (۲۶/۶) .

حتى فى أمثال أهل الريف يقولون : (تيجى فى بيت العالم
وتسكر) يعنى : السكر يُتصور فى بيت أحد العصاة ، فى بيت
فاسق ، فى خمار ، لكن فى بيت عالم ، فهذا شئ كبير ، وجراة
عظيمة . لماذا ؟

فللمكان حرمة بحرمة صاحبه ، فإذا كان للمكان حرمة بحرمة
صاحبه ، والبيت منسوب إلى الله ، فانت تعصى ربك فى عقر داره ،
وأي جراءة أعظم من الجراءة على الله ؟

وهذه خاصية للمسجد الحرام ، فكل المساجد فى أى مكان بيوت
الله ، لكن هناك فرق بين بيت الله باختيار الله ، وبيت الله باختيار عباد
الله ؛ لذلك جعل بيت الله باختيار الله (البيت الحرام) هو القبلة التى
تتجه إليها كل بيوت الله فى الأرض .

فما عاقبة الإلحاد فى بيت الله ؟ ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ (٢٥)
[الحج] إنهم سيذوقون العذاب بأمر من الحق دائماً وأبداً ، والإذاعة أشد
الإدراكات تأثيراً ، وذلك هو العذاب المهين ، والذوق هو الإحساس
بالمطعم شراباً كان أو طعاماً ، إلا أنه تعدى كل مُحسٍّ به ، ولو
لم يكن مطعوماً أو مشروباً ، ويقول ربنا عز وجل : ﴿ ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (٤٩)
[الدخان]

أى : ذق الإهانة والمذلة ، لا مما يُطعم أو مما يُشرب ، ولكن
بالإحساس ، فالإذاعة تتعدى إلى كل البدن ، فالإنامل تذوق ، والرجل
تذوق ، والصدر يذوق ، والرقبة تذوق . وهذا اللون من إذاعة الذل
والإهانة فى الدنيا لهؤلاء مجرد نموذج بسيط لشدة عقاب الله .

وعذاب الآخرة سيكون مهولاً ، والعذاب هو إيلاام الحس . إذا
أحببت أن تديم ألمه ، فأبقى فيه آلة الإحساس بالآلم .

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْءٍ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

ما دام الكلام السابق كان حول البيت الحرام ، فمن المناسب أن يتكلم عن تاريخه وبنائه ، فقال سبحانه : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْءٍ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج] معنى بَوَّأه : أى : جعله مَبَاءةً يعنى : يذهب لعمله ومصلحته ، ثم يَبْوءُ إليه ويعود ، كالبیت للإنسان يرجع إليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ..﴾ (٦١) [البقرة]

وَإِذْ : ظرف زمان لحدث يأتى بعده الإخبار بهذا الحدث ، والمعنى خطاب لرسول الله ﷺ : اذكر يا محمد الوقت الذى قيل فيه لإبراهيم كذا وكذا . وهكذا فى كل آيات القرآن تأتى (إِذْ) فى خطاب لرسول الله ﷺ بحدث وقع فى ذلك الظرف .

لكن ، ما علاقة المَبَاءة أو المكان المَتَبَوَّأ بمسألة البيت ؟ قالوا : لأن المكان المَتَبَوَّأ بقعة من الأرض يختارها الإنسان ؛ ليرجع إليها من متاعب حياته ، ولا يختار الإنسان مثل هذا المكان إلا توفرت فيه كل مقومات الحياة .

لذلك يقول تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ..﴾ (٥٦) [يوسف]

وقال فى شان بنى إسرائيل : ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صَدَقَ ..﴾ (٩٣) [يونس] فمعنى : ﴿بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ..﴾ (٢٦) [الحج]

أى : جعلناه مباءة له ، يرجع إليه من حركة حياته بعد أن أعلمناه ،
ودلّلناه على مكانه^(١) .

وقلنا : إن المكان غير المكين ، المكان هو البقعة التي يقع فيها
ويحلُّ بها المكين ، فأرض هذا المسجد مكان ، والبناء القائم على هذه
الأرض يُسمَّى « مكين فى هذا المكان » . وعلى هذا فقد دلَّ الله
إبراهيم عليه السلام على المكان الذى سيأمره بإقامة البيت عليه .

وقد كان للعلماء كلام طويل حول هذه المسألة : فبعضهم يذهب
إلى أن إبراهيم عليه السلام هو أول مَنْ بنى البيت . ونقول لأصحاب
هذا الرأى : الحق - تبارك وتعالى - بوَّأ إبراهيم مكان البيت ، يعنى :
بيئته له ؛ كان البيت كان موجوداً ، بدليل أن الله تعالى يقول فى
القصة على لسان إبراهيم : ﴿ إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ
عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. ﴾ (٢٧)

[إبراهيم]

وفى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ
وَإِسْمَاعِيلُ .. ﴾ (١٢٧)

[البقرة]

ومعلوم أن إسماعيل قد شارك أباه وساعده فى البناء لما شَبَّ ،
وأصبح لديه القدرة على معاونة أبيه ، أمّا مسألة السكن فكانت
وإسماعيل ما يزال رضيعاً ، وقوله تعالى : ﴿ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. ﴾ (٢٧)
[إبراهيم] يدل على أن العندية موجودة قبل أن يبلغ إسماعيل أن
يساعد أباه فى بناية البيت ، إذن : هذا دليل على أن البيت كان
موجوداً قبل إبراهيم .

(١) أى : أريناه أصله لبنيته ، وكان قد درس بالطوفان وغيره . فلما جاءت مدة إبراهيم عليه
السلام أمره الله ببنيانه ، فجاه إلى موضعه وجعل يطلب أثراً ، فبعث الله ريحاً فكشفت عن
أساس آدم عليه السلام ، فرتب قواعده عليه . [تفسير القرطبي ٤٥٦٧/٦] .

وقد أوضح الحق - سبحانه وتعالى - هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (١٦)﴾ [آل عمران]

وحتى نتفق على فهم الآية نسأل : مَنْ هُم الناس ؟ الناس هم آدم وذريته إلى أن تقوم الساعة ، إذن : فآدم من الناس ، فلماذا لا يشملهم عموم الآية ، فالبيت وُضِعَ للناس ، وآدم من الناس ، فلا بد أن يكون وُضِعَ لآدم أيضاً .

إذن : يمكنك القول بأن البيت وُضِعَ حتى قبل آدم ؛ لذلك نُصَدِّقُ بالرأى الذى يقول : إن الملائكة هى التى وضعت البيت أولاً ، ثم طمس الطوفان معالم البيت ، فدلَّ الله إبراهيم بوحي منه على مكان البيت ، وأمره أن يرفعه من جديد فى هذا الوادى .

ويقال : إن الله تعالى أرسل إلى إبراهيم سبحانه دلَّته على المكان ونطقت : يا إبراهيم خذْ عَلَى قَدْرِي ، أى : البناء^(١) .

ولو تديرَت معنى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ .. (١٢٧)﴾ [البقرة] الرُّفْعُ يعنى : الارتفاع ، وهو البعد الثالث ، فكان القواعد كان لها طُول وعَرْض موجود فعلاً ، وعلى إبراهيم أن يرفعها .

لكن لماذا بوأ الله لإبراهيم مكان البيت ؟

لما أسكن إبراهيم ذريته عند البيت قال : ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ .. (٢٧)﴾ [إبراهيم] كأن المسألة من بدايتها مسألة عبادة وإقامة للصلاة ،

(١) أخرج الأديلمى عن على عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ .. (١٢٧)﴾ [البقرة] قال : « جاءت سبحانه على تربع البيت ، لها رأس تتكلم : ارتفاع البيت على تربيعى ، فرفعاه على تربيعها ، [أورده السيوطى فى الدر المنثور ١/ ٣٠٧] .

الصلاة للإله الحق والربُّ الصَّدُوقُ ؛ لذلك أمره أولاً : ﴿ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا وَطَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (٢٦) [الحج] والمراد : طَهَّرْ هذا المكان من كل ما يُشعر بالشرك ، فهذه هي البداية الصحيحة لإقامة بيت الله .

وهل كان يُعقل أن يدخل إبراهيم - عليه السلام - في الشرك ؟ بالطبع لا ، وما أبعد إبراهيم عن الشرك ، لكن حين يُرسل الله رسولا ، فإنه أول مَنْ يتلقَّى عن الله الأوامر ليُبلِّغ أمته ، فهو أول مَنْ يتلقى ، وأول مَنْ يُنفذ ليكون قدوة لقومه فيصدقوه ويتقوا به ؛ لأنه أمرهم بأمر هو ليس بنَجْوَةٍ عنه .

ألا ترى قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. ﴾ (١) [الأحزاب] وهل خرج محمد ﷺ عن تقوى الله ؟ إنما الأمر للأمة في شخص رسولها ، حتى يسهل علينا الأمر حين يأمرنا ربنا بتقواه ، ولا نرى غضاظة في هذا الأمر الذي سبقنا إليه رسول الله ؛ لأنك تلاحظ أن البعض يأنف أن تقول له : يا فلان اتق الله ، وربما اعتبرها إهانة واتهاما ، وظن أنها لا تُقال إلا لمن بدر منه ما يخالف التقوى .

وهذا فهم خاطيء للأمر بالتقوى ، فحين أقول لك : اتق الله . لا يعنى أنني أنفى عنك التقوى ، إنما أذكرك أن تبدأ حركة حياتك بتقوى الله .

إذن : قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام : ﴿ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا .. ﴾ (٢٦) [الحج] لا تعنى تصور حدوث الشرك من إبراهيم ، وقال ﴿ شَيْئًا .. ﴾ (٢٦) [الحج] ليشمل النهى كُلُّ ألوان الشرك ، أيا كانت صورته : شجر ، أو حجر ، أو وثن ، أو نجوم ، أو كواكب .

سُورَةُ الْحَجِّ

٩٧٧٩

ويؤكد هذا المعنى بقوله : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ [الحج] ٢٦ ﴿ [الحج] والقطهير
يعنى : الطهارة المعنوية بإزالة أسباب الشرك ، وإخلاص العبادة لله
وحده لا شريك له ، وطهارة جسدية مما أصابه بمرور الزمن وحدث
الطوفان ، فقد يكون به شيء من القاذورات مثلاً .

ومعنى ﴿ لِلطَّائِفِينَ ﴾ [الحج] ٢٦ ﴿ [الحج] الذين يطوفون بالبيت :
﴿ وَالْقَائِمِينَ ﴾ [الحج] ٢٦ ﴿ [الحج] المقيمين المعتكفين فيه للعبادة ﴿ وَالرُّكَّعِ
السُّجُودِ ﴾ [الحج] ٢٦ ﴿ [الحج] الذين يذهبون إليه فى أوقات الصلوات لأداء
الصلاة ، عبّر عن الصلاة بالركوع والسجود ؛ لأنهما أظهر أعمال
الصلاة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا لَا وَعَلَىٰ

كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكُم مِّنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج] ٢٧ ﴿

أمر الله نبيه إبراهيم بعد أن رفع القواعد من البيت أن يؤذن فى
الناس بالحج ، لماذا ؟ لأن البيت بيت الله ، والخلق جميعاً خلق الله ،
فلماذا تقتصر رؤية البيت على مَنْ قُدِّرَ له أن يمرَّ به ، أو يعيش إلى
جواره ؟

فأراد الحق - سبحانه وتعالى - أن يُشيع هذه الميزة بين خلقه
جميعاً ، فيذهبوا لرؤية بيت ربهم ، وإن كانت المساجد كلها بيوت

(١) الضامر : لطيف الجسم قليل اللحم . ومن عادة العرب أن يَضْمُرُوا الخيل لتكون أقوى

وأنشط وأسرع . وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ [الحج] ٢٧ ﴿ أى : حصان ضامر

متعود على السفر البعيد بنشاط وقوة . [القاموس القويم ١/ ٣٩٥] .

الله ، إلا أن هذا البيت بالذات هو بيت الله باختيار الله ؛ لذلك جعله قبلة
لبيوته التي اختارها الخلق .

إن من علامات الولاء بين الناس أن نزور قصور العظماء وعلية
القوم ، ثم يُسجل الزائر اسمه في سجل الزيارات ، ويرى في ذلك
شرفاً ورفعة ، فما بالك ببيت الله ، كيف تقتصر زيارته ورؤيته على
أهله والمجاورين له أو من قُدِّرَ لهم المرور به ؟

ومعنى ﴿أَذِّنْ ..﴾ (٢٧) [الحج] الاذان : العلم ، وأول وسائل العلم
السمع بالاذن ، ومن الأذن أخذ الاذان . أى : الإعلام . ومن هذه
المادة قوله تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ..﴾ (٧) [إبراهيم] أى : أعلم ؛
لأن الاذن وسيلة السماع الأولى ، والخطاب المبدئى الذى نتعلم به ؛
لذلك قبل أن تتكلم لا بد أن تسمع .

وحيثما أمر الله إبراهيم بالاذن لم يكن حول البيت غير إبراهيم
وولده وزوجته ، فلمن يؤذن ؟ ومن سيستمع فى صحراء واسعة
شاسعة وواد غير مسكون ؟ فناداه ربه : « يا إبراهيم عليك الاذان
وعلينا البلاغ »^(١) .

مهمتك أن ترفع صوتك بالاذن ، وعلينا إيصال هذا النداء إلى كل
الناس ، فى كل الزمان ، وفى كل المكان ، سيسمعه البشر جميعاً ،

(١) عن ابن عباس قال : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال : رب ، قد فرغت . فقال : ﴿وَإِذْ
فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ..﴾ (٢٧) [الحج] . قال : رب ، وما يبلغ صوتى ؟ قال : أذن وعلى البلاغ .
قال : رب ، كيف أقول ؟ قال : يا أيها الناس ، كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق . فسمعه
من بين السماء والأرض ، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبون ؟ . أورده
السيوطى فى الدر المنثور (٢٢/٦) وعزاه لابن أبى شيبه فى المصنف وابن جرير وابن
أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه .

وهم في عالم الذر وفي أصلاب آبائهم^(١) بقدره الله تعالى الذي قال
لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ۚ ﴾ [الأنفال]
يعنى : أد ما عليك ، واترك ما فوق قدرتك لقدره ربك . فأذن
إبراهيم في الناس بالحج ، ووصل النداء إلى البشر جميعاً ، وإلى أن
تقوم الساعة ، فمن أجاب ولبي : لبيك اللهم لبيك كُتِبَتْ له حجة ،
حتى إن من العلماء من قال^(٢) : مَنْ لَبَّى مرة كُتِبَتْ له حجة ، وَمَنْ
لَبَّى مرتين كُتِبَتْ له حجتين وهكذا ، لأن معنى لبيك : إجابة لك بعد
إجابة .

فإن قلت : إن مطالب الله وأوامره كثيرة ، فلماذا أخذ الحج بالذات
هذه المكانة ؟ نقول : أركان الإسلام تبدأ بالشهادتين : لا إله إلا الله
محمد رسول الله ، ثم الصلاة ، ثم الزكاة ، ثم الصوم ، ثم الحج ،
لو نظرت إلى هذه الأركان لوجدت أن الحج هو الركن الوحيد الذي
يجتهد المسلم في أدائه وإن لم يكن مستطيعاً له فتراه يوفر ويقتصد
حتى من قوته ، وربما حرم نفسه ليؤدي فريضة الحج ، ولا يحدث
هذا ولا يتكلفه الإنسان إلا في هذه الفريضة ، لماذا ؟

قالوا : لأن الله تعالى حكم في هذه المسألة فقال : أَذِّن - يَأْتُوكَ ،
هكذا رغماً عنهم ، ودون اختيارهم ، ألا ترى الناس ينجذبون لأداء
هذه الفريضة ، وكان قوة خارجة عنهم تجذبهم .

(١) عن ابن عباس في قوله ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ [الحج] . قال : قام إبراهيم عليه
السلام على الحجر فنادى : يا أيها الناس ، كتب عليكم الحج ، فاسمع من في أصلاب
الرجال وأرحام النساء . فأجاب من آمن ممن سبق في علم الله أن يحج إلى يوم القيامة :
لبيك اللهم لبيك . أورده السيوطي في الدر المنثور (٢٣/٦) وعزاه لابن جرير الطبري .
(٢) أخرجه الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (رقم ٥٣٠٣) عن علي بن أبي طالب ،
قال السيوطي في الدر المنثور (٢٣/٦) : « أخرجه الديلمي بسند واه عن علي رفته » .
وقال الفتني في تذكرة الموضوعات (ص ٧٢) : « الحديث من نسخة محمد بن الأشعث
التي عامة أحاديثها مناكير » .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ .. ﴾ (٢٧) [إبراهيم] ومعنى تهوى : تأتي دون اختيار من الهوى أى : السقوط ، وهو أمر لا يملكه الإنسان ، كالذى يسقط من مكان عال ، فليس له اختيار فى ألا يسقط .

وهكذا تحنُّ القلوب إلى بيت الله ، وتتحرَّق شوقاً إليه ، وكان شيئاً يجذبها لأداء هذه الفريضة ؛ لأن الله تعالى أمر بهذه الفريضة ، وحكم فيها بقوله ﴿ يَأْتُوكَ .. ﴾ (٢٧) [الحج] أما فى الأمور الأخرى فقد أمر بها وتركها لاختيار المكلف ، يطيع أو يعصى ، إذن : هذه المسألة قضية صادقة بنص القرآن .

وبعض أهل الفهم يقولون : إن الأمر فى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ .. (٢٧) [الحج] ليس لإبراهيم ، وإنما لمحمد ﷺ - الذى نزل عليه القرآن ، وخاطبه بهذه الآية ، فالمعنى ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. ﴾ (٢٦) [الحج] يعنى : اذكر يا مَنْ أُنزل عليه كتابى إذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ، اذكر هذه القضية ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ .. ﴾ (٢٧) [الحج] فكان الأمر هنا لمحمد ﷺ^(١) .

لذلك لا نشاهد هذا التنسك فى الأمم الأخرى كاليهود والنصارى ، فهم لا يحجون ولا يذهبون إلى بيت الله أبداً ، وقد ثبت أن موسى - عليه السلام - حج بيت الله^(٢) ، لكن لم يثبت أن عيسى عليه السلام

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٦ / ٤٥٦٩) : قيل : إن الخطاب لإبراهيم عليه السلام تم عند قوله ﴿ وَالرُّكُوعَ السُّجُودَ ﴾ (٢٦) [الحج] ثم خاطب الله عز وجل محمداً ﷺ فقال : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ .. ﴾ (٢٧) [الحج] أى : أعلمهم أن عليهم الحج .

(٢) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر برادى الأزرق فقال : أى واد هذا ؟ فقالوا : هذا وادى الأزرق . قال : كائى أنظر إلى موسى عليه السلام هابطاً من الثنية وله جوار إلى الله بالتلبية ، ثم أتى على ثنية مرشى ، فقال : أى ثنية هذه ؟ قالوا : ثنية مرشى : قال : كائى أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام على نافذة حمراء جعدة عليه جبة من صوف ، خطام ناقته خلبة ، وهو يكبى ، أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٦) ، وأحمد فى مسنده (٢١٥ / ١) .

حَجَّ ، بدليل أن رسول الله ﷺ قال « يوشك أن ينزل ابن مريم ،
ويأتى حاجاً ، ويزور قبري ، ويدفن هناك »^(١) .

فقال رسول الله : « ويأتى حاجاً » لأنه لم يموت ، وسوف يدرك
عهد التكليف من رسول الله حين ينزل من السماء ، وسيصلى خلف
إمام من أمة محمد صلى الله على جميع أنبياء الله ورُسُلِهِ .

ومن المسائل التي نحتجُ بها عليهم قولهم : إن الذبيح إسحق ، فلو أن
الذبيح إسحق كما يدعون لكانت مناسك الذبيح والفداء ورُمى الجمار عندكم
في الشام ، أما هذه المناسك فهي هنا في مكة ، حيث كان إسماعيل .

ثم تذكرُوا جيداً ما قاله كتابكم المقدس^(٢) في الأصحاح ٢٣ ، ٢٤

(١) أورد القرطبي في التذكرة (ص ٧٧٣) طبعة مكتبة دار التراث من حديث كثير بن عبد الله عن أبيه
عن جده قال : فزونا مع النبي ﷺ الحديث ، وفيه : « لا تقوم الساعة حتى ينزل عيسى بن مريم عبد
الله ورسوله حاجاً أو معتمراً أو ليجتمعن الله ذلك له » وقال محمد بن كعب القرظي : أن رجلاً قال :
إنني أشهد أنه لمكتوب في التوراة والإنجيل أنه يمر بالروحاء حاجاً أو معتمراً أو يجمع الله له ذلك ،
فيجعل الله حواريه أصحاب الكهف والريقيم ، فيمرون حاجاً فإنهم لم يحجوا ولم يموتوا .
أما دفن المسيح عليه السلام فقد ذكر القرطبي في التذكرة (ص ٧٦٢) عن عبد الله بن عمرو
عن رسول الله ﷺ : « يمكث خمسين سنة وأربعين سنة ويدفن معي في قبري فأقوم أنا وعيسى من
قبر واحد بين أبي بكر وعمر » ذكره الميانشي أبو حفص .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « يمكث عيسى في الأرض بعدما ينزل أربعين سنة ، ثم
يموت ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه » ذكره أبو داود الطيالسي في مسنده (حديث ٢٥٤١) .
(٢) تحقيق هذه المسألة أن إبراهيم عليه السلام كان عمره ٨٦ سنة عندما ولد له إسماعيل ، وذلك
بنص الكتاب المقدس « كان أبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام »
[التكوين ١٦ : ١٦] . أما عمره عندما ولد له إسحاق ، فكان عمره ١٠٠ سنة ، بنص الكتاب :
« وكان إبراهيم ابن مئة سنة حين ولد له إسحاق ابنه » [تكوين ٢١ : ٥] أي أن عمر إسماعيل
كان ١٤ سنة حينما ولد أخوه إسحاق ، فكيف يكون وحيداً هو إسحاق ؟
وهاجر زوجة لإبراهيم بنص التوراة : فأخذت سارا امرأة أبرام هاجر المصرية جاريتها
من بعد عشر سنين لإقامة أبرام في أرض كنعان وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له . فدخل على
هاجر فحبلت » [تكوين ١٦ : ٣ ، ٤] .

فكيف يقولون بعد هذا : « وحده بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال له يا إبراهيم .
فقال هاأنذا . فقال : خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك
ممرقة على أحد الجبال الذي أقول لك » [تكوين ٢٢ : ٢] وانظر [تكوين ٢٢ : ٩ - ١٦] .

من أن الحق - سبحانه وتعالى - أوحى إلى إبراهيم أن يصعد على جبل فاران ، ويأخذ ولده الوحيد ويذبحه ، فالوحيد إسماعيل لا إسحق ؛ لأن الله فدى إسماعيل ، ثم بشر إبراهيم بإسحق .

ومن حكمة الله - عز وجل - أن جعل فى كذب الكاذب منقذاً للحق ، وثغرات نصل منها إلى الحقيقة ؛ لذلك يقول رجال القضاء : ليست هناك جريمة كاملة أبداً ، لا بد أن يترك المجرم قرينة تدل عليه مهما احتاط لجريمته ، كان يسقط منه شيء ولو أضرار من ملابسه ، أو ورقة صغيرة بها رقم تليفون .. إلخ ، لذلك نقول : الجريمة لا تفيد ؛ لأن المجرم سيقع لا محالة فى يد من يقتص منه .

ولرجال القضاء ووكلاء النيابة مقدرة كبيرة على استخلاص الحقيقة من أفواه المجرمين أنفسهم ، فيظل القاضى يحاوره إلى أن يجد فى كلامه ثغرة أو تضارباً يصل منه إلى الحقيقة .

ذلك لأن للصدق وجهاً واحداً لا يمكن أن يتلجلج صاحبه أو يتردد ، أما الكذب فله أكثر من وجه ، والكاذب نفسه لو حاورته أكثر من مرة لوجدت تغييراً وتضارباً فى كلامه ؛ لذلك العرب يقولون : إن كنت كذوباً فكن ذكوراً . يعنى : تذكر ما قلته أولاً ، حتى لا تغيره بعد ذلك .

ومن أمثلة الكذب الذى يفضح صاحبه قول أحدهم للآخر : هل تذكر يوم كنا فى مكان كذا ليلة العيد الصغير ، وكان القمر ظهراً !! فقال : كيف ، يكون القمر مثل الظهر فى آخر الشهر ؟

وقد يلجأ القاضى إلى بعض الحيل ، ولا بد أن يستخدم ذكاءه لاستجلاء وجه الحق ، كالقاضى الذى احتكم إليه رجلان يتهم أحدهما الآخر بأنه أخذ ماله أمانة ، ثم أخذها لنفسه ودفنها فى موضع كذا

وكذا ، فلما حاور القاضى المتهم أنكر فأنصرف عنه ، وتوجه إلى صاحب الأمانة ، وقال له : اذهب إلى هذا المكان ، وابحثْ لعلك تكون قد نسيته هنا أو هناك .

أو لعل آخر أخذه منك ، فذهب صاحب المال ، وفجأة سأل القاضى المتهم : لماذا تأخر فلان طوال هذا الوقت ؟ فردَّ المتهم : لأن المكان بعيدٌ يا سيادة القاضى . فخانتته ذاكرته ، ونطق بالحق دون أن يشعر .

ثم يقول تعالى : ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا .. (٢٧)﴾ [الحج] ورجالاً هنا ليست جمعاً لرجل ، إنما جمع لراجل ، وهو الذى يسير على رجلَيْه ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ .. (٢٧)﴾ [الحج] الضامر : الفرس أو البعير المهزول من طول السفر .

وتقديم الماشين على الراكبين تأكيد للحكم الإلهى ﴿يَأْتُوكَ .. (٢٧)﴾ [الحج] فالجميع حريص على أداء الفريضة حتى إن حجَّ ماشياً . وقوله : ﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)﴾ [الحج] أى : من كل طريق واسع ﴿عَمِيقٍ (٢٧)﴾ [الحج] يعنى : بعيد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ (٢٨)﴾

كلمة ﴿مَنَافِعَ .. (٢٨)﴾ [الحج] كلمة عامة واسعة تشمل كل أنواع النفع : مادية دنيوية ، أو دينية أخروية ، ولا ينبغي أن تُضيق

ما وسَّعه الله ، فكلُّ ما يتصل بالحج من حركات الحياة يُعد من المنافع ، فاستعدادك للحج ، وتدبير نفقاته وأدواته وراحته فيها منافع لك ولغيرك حين توفر لأهلك ما يكفيهم حتى تعود .

ما يتم من حركة بيع وشراء في مناطق الحج ، كلها منافع متبادلة بين الناس ، التاجر الذي يبيع لك ، وصاحب البيت الذي يؤجره لك ، وصاحب السيارة التي تنقلك .

إذن : المنافع المادية في الحج كثيرة ومتشابكة ، متداخلة مع المنافع الدينية الأخرى ، فحين تشتري الهدى^(١) مثلاً تؤدي نُسكاً وتنتفع بالتاجر الذي باع لك ، والمربي الذي ربَّى هذا الهدى ، والجزار الذي ذبحه ، والفقير الذي أكل منه .

إذن : لا يتم الحج إلا بحركة حياة واسعة ، فيها نفع لك وللناس من حيث لا تدري ، ولك أن تنتظر في الهدايا التي يطلبها الحجاج معهم لأهلهم وذويهم ، خاصة المصريين منهم ، فتري بعضهم ينشغل بجمع هذه الأشياء قبل أن يؤدي نُسكه ويقضى معظم وقته في الأسواق ، وكأنه لن يكون حاجاً إلا إذا عاد مُحملاً بهذه الهدايا .

لذلك كان يأتي إلينا بعض هؤلاء يسألون : أنا على دَمٍ مُتَّعَةٍ^(٢)

(١) الهدى : الذبيحة تُهدى إلى الحرم في الحج [القاموس القويم ٢٠١/٢] وهو مستحب للحاج المفرد ، والمُعتمر المفرد . وأوجب على القارن والمُتَمَتِّع . وكذلك على من ترك واجباً من واجبات الحج كرمى الجمار أو طواف الوداع . وكذلك واجب على من ارتكب محظوراً من محظورات الإحرام ، غير الوطء ، كالتلطيط والحلق . [انظر تفصيل هذا وشروط الهدى في كتاب فقه السنة للشيخ سيد سابق ٥٣١/١] .

(٢) التمتع : هو الاعتِمَار في أشهر الحج ، ثم يهجر من هامة الذي اعتمر فيه ، وسمى تمتعاً للانتفاع بإداء النُسك في أشهر الحج فن عام واحد ، من غير أن يرجع إلى بلده . وصفة التمتع أن يُحرَم من الميقات بالعمرة وحدها ، ويقول عند التلبية « لبيك بعمرة » ويؤدي مناسك العمرة ، ثم يتحلل من إحرامه ويَتَمَتَّع بكل ما كان مُحَرَّماً عليه إلى أن يجيء يوم التروية ، فيحرَم من مكة بالحج . وهذا يجب عليه الهدى [فقه السنة ٤٦٥/١ ، ٤٦٦] .

وليس معى نقود ، فماذا أفعل ؟ يريد أن يصوم . صحيح : كيف سيؤدى ما عليه وقد أنفق كل ما معه ؟ فكنت أقول له : أعطنى حقيبة سفرك ، وسأبيع ما بها ، ولن أبقى لك إلا ما يكفىك من نفقات حتى تعود .

ليست هذه كلها من المنافع ؟

ومن منافع الحج أن الحاج منذ أن ينوى أداء هذه الفريضة ويعد نفسه لها إعداداً مادياً ، وإعداداً نفسياً معنوياً ، فيحاول أن يعيد حساباته من جديد ، ويصلح من نفسه ما كان فاسداً ، وينتهى عما كان يقع فيه من معصية الله ، ويصلح ما بينه وبين الناس ، إذن : يجرى عملية صقل خاصة تحوله إلى إنسان جديد يليق بهذا الموقف العظيم ، ويكون أهلاً لرؤية بيت الله والطواف به .

ومن الإعداد للحج أن يتعلم الحاج ما له وما عليه ، ويتأدب بأداب الحج فيعرف محظوراته وما يحرم عليه ، وأنه سوف يتنازل عن هئامه وملابسه التى يزهو بها ، ومكانته التى يفتخر بها بين الناس ، وكيف أن الإحرام يسوى بين الجميع .

يتعلم كيف يتأدب مع نفسه ، ومع كل أجناس الكون من حوله^(١) ، مع نفسه فلا يفكر فى معصية ، ولا تمتد يده حتى على شعرة من شعره ، أو ظفر من أظافره ولا يقرب طيباً ، ولا حتى صابونة لها رائحة .

والعجيب أن الحاج ساعة يدخل فى الإحرام يحرص كل الحرص

(١) يقصد صيد المصرم بالجم أو العمرة ، يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ .. ﴾ [المائدة] . ويقول أيضاً : ﴿ أَجَلُكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْمَيْتَةِ وَحَرَمٌ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا .. ﴾ [المائدة] .

على هذه الأحكام ، واتحدى أى إنسان ينوى الحج ويأخذ فى الإحرام به ، ثم يفكر فى معصية ؛ لأنه يُعدُّ نفسه لمرحلة جديدة يتطهر فيها من الذنوب ، فكيف يكتسب المزيد منها وقد أتى من بلاد بعيدة ليتطهر منها ؟

وفى الحج يتأدب الحاج مع الحيوان ، فلا يصيده ولا يقتله ، ومع النبات فلا يقطع شجراً . يتأدب حتى مع الجماد الذى يعتبره أدنى أجناس الكون ، فيحرص على تقبيل الحجر الأسود ، ويجتهد فى الوصول إليه ، فإن لم يستطع أشار إليه بيده .

إن الحج التزام وانضباط يفوق أى انضباط يعرفه أهل الدنيا فى حركة حياتهم ، ففى الحج ترى هذا الإنسان السيد الأعلى لكل المخلوقات كم هو منكسر خاضع مهما كانت منزلته ، وكم هى طمأنينة النفس البشرية حين تُقبَل حجراً وهى راضية خاضعة ، بل ويحزن الإنسان إذا لم يتمكن من تقبيل الحجر .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَذَكِّرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ .. ﴾ (٢٨) [الحج]

يذكروا اسم الله ؛ لأن كل أعمال الحج مصحوبة بذكر الله وتلبيته ، فَمَا مِنْ عَمَلٍ يُؤَدِّيهِ الْحَاجُّ إِلَّا وَيَقُولُ : لَبِيكَ اللَّهُمَّ لَبِيكَ . وتظل التلبية شاغله وديّنه إلى أن يرمى جمرة العقبة ، ومعنى « لَبِيكَ اللَّهُمَّ لَبِيكَ » أن مشاغل الدنيا تطلبنى ، وأنت طلبتنى لأداء فَرَضِكَ على ، فأنا أَلْبِيكَ أنت أولاً ؛ لأنك خالقى وخالق كل ما يشغلنى ويأخذنى منك .

والأيام المعلومات هي : أيام التشريق ^(١) .

ومعنى : ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ .. (٢٨)﴾ [الحج] أى : يشكرون الله على هذا الرزق الوقتى الذى ياكلون منه ويشربون ، ويبيعون ويشترون فى أوقات الحج . أو يشكرون الله على أن خلق لهم هذه الأنعام ، وإن لم يحجوا ، ففى خلق الأنعام - وهى الإبل والبقر والغنم والماعز - وتسخيرها للإنسان حكمة بالغة ، ففضلاً عن الانتفاع بلحمها والبانها وأصوافها وأوبارها اذكروا الله واشكروه أن سخرها لكم ، فلو لا تسخير الله لها لما استطعتم أن تنتفعوا بها ، فالجمل مثلاً هذا الحيوان الضخم يقوده الطفل الصغير ، ويُنيخه ويحمله فى حين لم يستطع الإنسان تسخير الثعبان مثلاً أو الذئب .

لذلك يقول تعالى : ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ .. (٧٢)﴾ [يس]

لذلك نذكر الله ونشكره على ما رزقنا من بهيمة الأنعام استمتاعاً بها أكلاً ، أو استمتاعاً بها بيعاً أو زينة ، كما قال تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرَيَّحُونَ وَحِينَ يُسْرَحُونَ (٦)﴾ [النحل]

- (١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٢١٧/٣) أربعة أقوال فى تأويل الأيام المعلومات :
- أيام العشر الأول من شهر ذى الحجة . قاله ابن عباس وأبو موسى الأشعرى ومجاهد وغيرهم وهو مذهب الشافعى والمشهور عن أحمد بن حنبل .
 - يوم النحر وثلاثة أيام بعده . وهو أيام ١٠ ، ١١ ، ١٢ من شهر ذى الحجة وهى المسماة بأيام التشريق . قاله ابن عباس وابن عمر وإليه ذهب أحمد بن حنبل فى رواية عنه .
 - يوم النحر ويومان بعده . قاله ابن عمر والسدى وهو مذهب مالك .
 - يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق . قاله زيد بن أسلم أى أيام ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ من شهر ذى الحجة .

ولولا أن الله تعالى ذلّلها لخدمتك ما استطعت أنت تذليلها والانتفاع بها ؛ لذلك من حكمة الله أن يترك بعض خلقه غير مُستأنس ، ولا يمكن لك بحال أن تستأنسه أو تُذلّكه لتظل على ذكر لهذه النعمة ؛ وتشكر الله عليها .

وسبق أن ضربنا مثلاً بالبرغوث ، وهو من أدنى هذه المخلوقات ، ولا تكاد تراه ، ومع ذلك لا تقدر عليه ، وربما أقض مضجعتك ، وأقلق نومك طوال الليل . وتلمس هذه النعمة في الجمل الذي يقوده الصبي الصغير ، إذا حرن^(١) منك فلا تستطيع أن تجعله يسير رغماً عنه ، أو صالّ فلا يقدر عليه أحد ، وقد يقتل صاحبه ويبطش بمنّ حوله .

إذن : لا قدرة لك عليه بذاتك ، إنما بتذليل الله يمكن الانتفاع به ، فتسوقه إلى تحرّره ، فيقف ساكناً مُستسلماً لك .

والماتمل في حال الحيوانات التي أحلها الله لنا يجد أمرها عجيباً ، فالحيوان الذي أحله الله لك تظل تنتفع به طوال عمره ، فإذا ما تعرّض لما يُزهق روحه ، ماذا يفعل ؟ يرفع رأسه إلى أعلى ، ويعطيك مكان ذبّحه ، وكأنه يقول لك : أنا في اللحظات الأخيرة فاجتهد في أن تنتفع بلحمي ، وأهل الريف إذا شاهدوا مثل هذه الحالة يقولون : طلب الحلال يعنى الذبح . أما الحيوان الذي لا يُذبح ولا يُحله الله فيموت مُنكّس الرأس ؛ لأنه لا فائدة منه .

هذا الحيوان الذي نتهمه بالغباء ونقول أنه بهيم .. الخ لو فكرت

(١) حُرنت الناقية : قامت فلم تبرح . [أى : رفضت السير] . لا تنقاد . إذا استُثير [طلب منها] جريها وقتت . [لسان العرب - مادة : حرن] .

فيه لَتَغْيِيرَ رَأْيِكَ ، فالحمار الذى نتخذه رَمْزًا للغباء وعدم الفهم تسوقه أمامك وتُحْمَلُهُ القاذورات وتضربه فلا يعترض عليك. ولا يخالفك ، فإن نظفته وزينته بلجام فضة ، وبردعة قطيفة تتخذه رُكُوبَةً وزينة ويسير بك ويحملُك ، وأنت على ظهره ، فإن غَضِبْتَ عليه واستخدمته فى الاحمال وفى القاذورات تحمَلُ راضياً مطيعاً..

وانظر إلى هذا الحمار الذى نتخذه مثلاً للغباء ، إذا أردتَ منه أن يقفز قناة أوسع من قدرته وإمكانياته ، فإنه يتراجع ، ومهما ضربته وقسوتَ عليه لا يُقَدِّمُ عليها أبداً ؛ لأنه يعلم مدى قفزته ، ويعلم قدرته ، ولا يُقَدِّمُ على شيء فوق ما يطيق - وبعد ذلك نقول عنه : حمار !!

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَكُلُّوا^(١) مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ﴾ [الحج]

البائس : هو الذى يبدو على سَخْنَتِهِ وشكله وزِيَّه أنه فقير محتاج ، أما الفقير فهو محتاج الباطن ، وإن كَانَ ظاهره اليُسْرَ والغنى ، وهؤلاء الفقراء لا يلتفت الناس إليهم ، وربما لا يعلمون حالهم وحاجتهم ، وقد قال الله فيهم : ﴿ يَخْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا.. (٢٧٣) ﴾ [البقرة]

والمعنى : كُلُّوا مما يُبَاحُ لكم الأكل منه ، وهى الصدقة المحضه ، أو الهدية للبيت غير المشروطة بشيء ، يعنى : لا هى دم قرآن أو

(١) قال أبو بكر الجصاص (ت ٣٧٠ هـ) فى كتابه « أحكام القرآن » ط . دار الكتب العلمية (٣٠٧/٣) : « ظاهره يقتضى إيجاب الأكل ، إلا أن السلف متفقون على أن الأكل منها ليس على الوجوب ، وقد روى عن عطاء والحسن وإبراهيم ومجاهد قالوا : « إن شاء أكل ، وإن شاء لم يأكل » .

تَمَتُّعٌ ، وَلَا هِيَ فِدْيَةٌ لِمُخَالَفَةِ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الْإِحْرَامِ ، أَوْ كَانَتْ نَذْرًا
فَهَذِهِ كُلُّهَا لَا يُؤْكَلُ مِنْهَا^(١) .

إِذَنْ : كُلُوا مِنَ الصَّدَقَةِ وَالتَّطَوُّعِ ، وَأَطْعَمُوا كَذَلِكَ الْبَائِسَ وَالْفَقِيرَ ،
وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِالْفُقَرَاءِ أَنْ جَعَلَ الْاَغْنِيَاءَ وَالْمِيَاسِيرَ هُمُ الَّذِينَ يَبْحَثُونَ
عَنِ الذَّبَائِحِ وَيَشْتَرُونَهَا وَيَذْهَبُونَ لِمَكَانِ الذَّبْحِ وَيَتَحَمَّلُونَ مَشَقَّةَ هَذَا
كُلِّهِ ، ثُمَّ يَبْحَثُونَ عَنِ الْفَقِيرِ لِيُعْطُوهُ وَهُوَ جَالِسٌ فِي مَكَانِهِ مُسْتَرِيحًا ،
يَأْتِيهِ رِزْقُهُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ سَهْلًا مُيسَّرًا .

لِذَلِكَ يَقُولُونَ : مَنْ شَرَفَ الْفَقِيرَ أَنْ جَعَلَهُ اللَّهُ رَكْنًا مِنْ أَرْكَانِ
إِسْلَامِ الْغَنِيِّ ، أَيْ : فِي فَرِيضَةِ الزَّكَاةِ ، وَلَمْ يَجْعَلِ الْغَنَى رَكْنًا مِنْ
أَرْكَانِ إِسْلَامِ الْفَقِيرِ .

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿ ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلَيُوفُوا نَذْرَهُمْ
وَلَيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾^(٢)

(١) قَالَ الْجَسَّاصُ فِي « أَحْكَامِ الْقُرْآنِ » ، (٣ / ٣٠٧) : « النَّاسُ فِي دَمِ الْقُرْآنِ وَالْمَتَمَتَّةِ عَلَى
قَوْلَيْنِ : مِنْهُمْ مَنْ لَا يَجِيزُ الْأَكْلَ مِنْهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبِيحُ الْأَكْلَ مِنْهُ وَلَا يُوْجِبُهُ ، وَقَالَ
الشَّافِعِيُّ فِي كِتَابِ الْأَمِّ (٢ / ٣٤٠) : « الْهَدْيُ هَدْيَانِ : وَاجِبٌ وَتَطَوُّعٌ ، فَكُلُّ مَا كَانَ أَصْلُهُ
وَاجِبًا عَلَى إِنْسَانٍ لَيْسَ لَهُ حَبْسُهُ ، فَلَا يَأْكُلُ مِنْهُ شَيْئًا وَذَلِكَ مِثْلُ : هَدْيِ الْفُسَادِ وَالطَّيِّبِ
وَجَزَاءِ الصَّيْدِ وَالنَّذْرِ وَالْمَتَمَتَّةِ ، وَإِنْ أَكَلَ مِنَ الْهَدْيِ الْوَاجِبِ تَصَدَّقَ بِقِيَمَةِ مَا أَكَلَ مِنْهُ ، وَكُلُّ
مَا كَانَ أَصْلُهُ تَطَوُّعًا مِثْلَ الضَّحَايَا وَالْهَدَايَا تَطَوُّعًا أَكَلَ مِنْهُ وَأَطْعَمَ وَأَهْدَى وَادْخَرَ وَتَصَدَّقَ ،
وَاحَبَّ إِلَى أَنْ لَا يَأْكُلَ وَلَا يَحْبِسَ إِلَّا ثَلَاثًا وَيَهْدِي ثَلَاثًا وَيَتَصَدَّقُ بِثَلَاثٍ » .

(٢) قَالَ الزَّجَّاجُ : لَا يَعْرِفُ أَهْلُ اللُّغَةِ الثَّقَاتُ إِلَّا مِنَ التَّفْسِيرِ . وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : لَمْ يَجِءْ فِيهِ
شَعْرٌ يَحْتَجُّ بِهِ . وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : « ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ .. (١٣) » [الْحَجَّ] . قَالَ : قَضَاءُ
هَوَاجِهِمْ مِنَ الْحَلْقِ وَالتَّنْظِيفِ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : تَفَثٌ] .

﴿لَيَقْضُوا .. (٢٩)﴾ [الحج] كلمة قضاء تُقال ، إما لقضاء الله الذي يقضيه على الإنسان مثلاً ، وهو أمر لازم محكوم به ، وإما قضاء من إنسان بين متخاصمين ، وأول شيء في مهمة القضاء أن يقطع الخصومة ، كان المعنى ﴿لَيَقْضُوا .. (٢٩)﴾ [الحج] أى : يقطعوا .

ومعنى ﴿تَفَثُّهُمْ .. (٢٩)﴾ [الحج] لما نزل القرآن بهذه الكلمة لم تكن مستعملة في لسان قريش ، ولم تكن دائرة على السنتهم ، فسألوا عنها أهل البادية ، فقالوا : التفثُ يعنى : الادران والأوساخ التى تعلقُ بالجسم ، فقالوا : والله لم نعرفها إلا ساعة نزل القرآن بها .

فالمراد - إذن - ليقطعوا تفثهم أى الادران التى لحقتهم بسبب التزامهم بأمور الإحرام ، حيث يمكث الحاج أيام الحج مُحَرَّمًا لا يتطيب ، ولا يأخذ شيئاً من شعره أو أظافره ، فإذا ما أنهى أعمال الحج وذبح هديه يجوز له أن يقطع هذا التفث ، ويزيل هذه الادران بالتحلل من الإحرام ، وفعل ما كان محظوراً عليه .

وقوله تعالى : ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الحج] إن كان قد نذر لله شيئاً فعليه الوفاء به .

﴿وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)﴾ [الحج] يعنى : طواف الإفاضة ، والطواف : أن تدور حول شيء بحيث تبدأ وتنتهى ، وتبدأ وتنتهى ، وهكذا ، وقد وصف البيت بأنه عتيق ، وكلمة عتيق استعملت فى اللغة استعمالات واسعة ، منها : القديم ، وما دام هو أول بيت وُضِعَ للناس فهو إذن قديم ، والقَدَمُ هنا صفة مدح : لأنها تعنى الشيء الثمين الذى يُحافظ عليه ويُهْتَمُّ به .

كما نرى عند بعض الناس أشياء ثمينة ونادرة يحتفظون بها

ويتوارثونها يسمونها « العاديات » مثل : التحف وغيرها ، وكلما مرَّ عليها الزمن زادت قيمتها ، وغلا ثمنها .

والعتيق : الشيء الجميل الحسن ، والعتيق : المعتوق من السيطرة والعبودية لغيره ، فما المراد بوصف البيت هنا بأنه عتيق ؟

وَصَفَّ البيت بِالْقَدَمِ يشمل كُلَّ هذه المعانى : فهو قديم ؛ لأنه أول بيت وُضِعَ للناس ، وهو غال ونفيس ونادر حيث نرى فيه ما لا نراه فى غيره من آيات ، ويكفى أن رؤيته والطواف به تغفر الذنوب ، وهو بيت الله الذى لا مثيل له .

وهو كذلك عتيق بمعنى معتوق من سيطرة الغير ؛ لأن الله حفظه من اعتداء الجبابرة ، ألا ترى قصة الفيل ، وما فعله الله بنأبرهه حين أراد هدمه ؟ حتى الفيل الذى كان يتقدم هذا الجيش أدرك أن هذا اعتداءً على بيت الله ، فترجع عن البيت ، وأخذ يتوجّه أى جهة أرادوا إلا ناحية الكعبة .

وَيُقَالُ : إن رجلاً^(١) تقدّم إلى الفيل . وقال فى أذنه : أبرك محمود - اسم الفيل - وارجع راشداً فإنك ببلد الله الحرام . وقد عبّر الشاعر^(٢) عن هذا الموقف ، فقال :

حُبَسَ الفيل بالمُغَمَّسِ حَتَّى ظَلَّ يعوى كأنه مَعْقُورٌ^(٣)

ثم ينزل الله عليهم الطير الالبابيل التى ترميهم بالحجارة حتى الموت .

(١) هو : نفيل بن حبيب الخثعمي . فيما ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٥٢ / ١) .

(٢) هو : أمية بن أبى الصلت بن أبى ربيعة الثقفى .

(٣) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١ / ٦٠) هذا البيت ضمن أبيات أخرى لأمية بن أبى الصلت .

لذلك لما ذهب عبد المطلب جدُّ الرسول ﷺ ليُكَلِّمَ أبرهة في الإبل
إلى المائة التي أخذها من إبله ، قال أبرهة : لقد كنتُ أهابك^(١) حين
رأيتُك ، لكنك سقطت من نظري لما كلَّمتني في مائة بعير أصبَّتها لك ،
وتركت البيت الذي فيه مجدُّكم وعزكم .

فماذا قاله عبد المطلب ؟ قال : أما الإبل فإنها لى ، أما البيت فله
رَبُّ يَحْمِيهِ .

البعض يتهم عبد المطلب لمقالته هذه بالسلبية ، وليست هذه
سلبية من كبير قريش ، إنما ثقةٌ منه في حماية الله لبيته ؛ لذلك رَدَّه
إلى أقوى منه ، وكأنه قال : إن كنتُ أحميه أنا ، فسأحميه بقوتي
وقدرتي وحيلتي ، لكننى أريد أن أُرعبه بقدرة الله وقوته ، وما سلَّمتُ
البيت إلَّا وأنا واثق أن ربَّ البيت سيحميه ، وهذه تُزلزل العدو
وتُربكه .

وما أشبه موقف عبد المطلب بموقف موسى عليه السلام ، لما
قال له قومه : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ (٦١) [الشعراء] فقال فى يقين وثقة :
﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٦٢) [الشعراء]

إذن : لم يَكُنْ عبد المطلب سلبيًّا كما يتهمه البعض ، بل كان إيجابياً
من النوع الراقى ، فلو كان إيجابياً بالمعنى الذى تريدون لأعطته هذه
الإيجابية منعةً بقوته هو ، إنما تصرفه وما تعتبرونه سلبية أعطاه منعةً
بقدرة الله وقُوته سبحانه ؛ لذلك تدخلت فوراً جنود السماء .

(١) ويذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٤٩/١) أن « عبد المطلب كان أوسع الناس
وأجملهم وأعظمهم ، فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن
تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه ،
وأجلسه معه عليه إلى جنبه » .

لكن ، لماذا الطواف والدوران حول الكعبة ؟

قالوا : لأن المسلم وهو غائب عن الكعبة يُصَلِّي لجهتها ، كل حسب موقعه منها ، فتجد المسلمين في كل أنحاء العالم يتجهون نحوها ، كل من ناحية ، هذا من الشمال ، وهذا من الجنوب ، وهذا من الشرق ، وهذا من الغرب ، يعنى بكل الجهات الأصلية والفرعية .

فإذا ما ذهبنا إلى الكعبة ذاتها ، وتشرفت برؤيتها ، فهل تستقبلها من نفس المكان الذى كنت تتجه إليه فى صلاتك وغيرك وغيرك ؟ إذن : فكل اتجاهات الكعبة سواء لك ولغيرك ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ .. ﴾ (١١٥) [البقرة] فليس هناك مكان أولى من مكان ؛ لذلك نطوف حول البيت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمْ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ . وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآنْعَامُ إِلَّا مَا يَتَلَبَّسَ عَلَيْكُمْ فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ^(١) وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ (٣٠)

﴿ ذَلِكَ .. ﴾ (٣٠) [الحج] إشارة إلى الكلام السابق بأنه أمر واضح ، لكن استمع إلى أمر جديد سياقياً ، فهنا استئناف كلام على كلام سابق ، فبعد الكلام عن البيت وما يتعلّق به من مناسك الحج يستأنف السياق :

(١) الأوثان : جمع وثن ، وهو التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة ونحوها وكانت العرب تنصبها وتعبدوها ، والنصارى تنصب الصليب وتعبدونه وتمثله فهو كالتمثال أيضاً . وقال عدى ابن حاتم : أتيت النبى ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب فقال : « ألق هذا الوثن عنك » أى : الصليب وأصله من وثن الشيء أى : أقام فى مقامه . [تفسير القرطبي ٤٥٨٥/٦] .

سُورَةُ الْحَجِّ

٩٧٩٧

﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ .. (٣٠)﴾ [الحج] فالحق - سبحانه - يريد لعبده أن يلتزم بأوامره بفعل الأمر واجتناب النهي ، فكل أمر لله يحرم عليك أن تتركه ، وكل نهى يحرم عليك أن تأتيه ، فهذه هي حرمة الله التي ينبغي عليك تعظيمها بطاعة الأمر واجتناب النهي .

وحيث تُعْظَمْ هذه الحرمات لا تُعْظَمها لذاتها ، فليس هناك شيء له حرمة في ذاته ، إنما تُعْظَمها لأنها حرمة الله وأوامره ؛ لذلك قد يجعل الالتزام بها مُتَغَيِّرًا ، وقد يطرأ عليك ما يبدو متناقضاً في الظاهر .

فالموضوء مثلاً ، البعض يرى فيه نظافة للبدن ، فإذا انقطع الماء وعُدم وجوده حلَّ محله التيمم بالتراب الطاهر الذي تُغَيَّرُ به أعضاء التيمم ، إذن : ليس في الأمر نظافة ، إنما هو الالتزام والانقياد واستحضار أنك مُقْبِلٌ على أمر غير عادي يجب عليك أن تتطهر له بالموضوء ، فإن أمرتك بالتيمم فعليك الالتزام دون البحث في أسباب الأمر وعلته .

وهكذا يكون الأدب مع الأوامر وتعظيمها ؛ لأنها من الله ، ولم لا ونحن نرى مثل هذا الالتزام أو رياضة التأديب في الالتزام في تعاملاتنا الطبيعية الحياتية ، فمثلاً الجندي حين يُجَنَّدُ يتعلم أول ما يتعلم الانضباط قبل أن يُمسك سلاحاً أو يتدرب عليه ، يتعلم أن كلمة « ثابت » معناها عدم الحركة مهما كانت الظروف فلو لدغته عقرب لا يتحرك .

ويدخل المدرب على الجنود في صالة الطعام فيقول : ثابت فينفذ الجميع .. الملعقة التي في الطبق تظل في الطبق ، والملعقة التي في

فم الجندي تظل في فمه ، فلا ترى في الصالة الواسعة حركة واحدة . وهذا الانضباط الحركي السلوكي مقدمة للانضباط في الأمور العسكرية الهامة والخطيرة بعد ذلك .

إذن : فربك - عز وجل - أولى بهذا الانضباط ؛ لأن العبادة ما هي إلا انضباط عابد لأوامر معبود وطاعة مطلقة لا تقبل المناقشة ؛ لأنك لا تؤديها لذاتها وإنما انقياداً لأمر الله ، ففي الطواف تُقْبَلُ الحجر الأسود ، وفي رمي الجمار ترمى حجراً ، وهذا حجر وذاك حجر ، هذا ندوسه وهذا نُقْبَلُهُ فَحَجَرٌ يُقْبَلُ وَحَجَرٌ يُقْنَبِلُ ؛ لأن المسألة مسألة طاعة والتزام ، هذا كله من تعظيم حرمان الله .

لذلك الإمام علي - رضي الله عنه - يلفتنا إلى هذه المسألة فيقول في التيمم : لو أن الأمر كما نرى لكان مسح باطن القدم أولى من ظاهرها^(١) ؛ لأن الأوساخ تعلق بباطن القدم أولاً .

وقد ذكرنا في الآيات السابقة أن الحرمات خمس : البيت الحرام ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، والمشعر الحرام ، والشهر الحرام ، وحرمات الله هي الأشياء المحرمة التي يجب ألا تفعلها .

ثم يُبَيِّنُ الحق سبحانه جزاء هذا الالتزام : ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ .. ﴾ (٣٠) [الحج] الخيرية هنا ليست في ظاهر الأمر وعند الناس أو في ذاته ، إنما الخيرية للعبد عند الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ .. ﴾ (٣١) [الحج] قد تقول : كيف وهي حلال من البداية وفي الأصل ،

(١) روى أبو داود في سننه (١٦٢) عن علي بن أبي طالب أنه قال : لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه ، وفي رواية أخرى (١٦٤) : لو كان الدين بالرأى لكان باطن القدمين أحق بالمسح من ظاهرهما .

قالوا : لأنه لما حُرِّمَ الصيد قد يظن البعض أنه حرام دائماً فلا ينتفعون بها ، فبيَّن سبحانه أنها حلال إلا ما ذُكر تحريمه ، ونصَّ القرآن عليه في قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ ^(١) وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ .. ﴾ (٣) [المائدة]

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ .. ﴾ (١٢١) [الأنعام]

ومعنى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ .. ﴾ (٣٠) [الحج] الرجس : النجاسة الغليظة المتغلغلة في ذات الشيء . يعنى : ليست سطحية فيه يمكن إزالتها ، وإنما هي في نفس الشيء لا يمكن أن تفصلها عنه .

﴿ وَاجْتَنِبُوا .. ﴾ (٣٠) [الحج] لا تدل على الامتناع فقط ، إنما على مجرد الاقتراب من دواعي هذه المعصية ؛ لأنك حين تقترب من دواعي المعصية وأسبابها لا بُدَّ أن تداعبك وتشغل خاطرك ، ومنَّ حام حول الشيء يوشك أن يقع فيه ، لذلك لم يقل الحق - سبحانه وتعالى - امتنعوا إنما قال : اجتنبوا ، ونعجب من بعض الذين أسرفوا على أنفسهم ويقولون : إن الأمر في اجتنبوا لا يعنى تحريم الخمر ، فلم يقل : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الخمر .

نقول : اجتنبوا أبلغ في النهي والتحريم وأوسع من حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ ، لو قال الحق - تبارك وتعالى - حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الخمر ، فهذا يعنى أنك لا تشربها ، ولكن لك أن تشهد مجلسها وتعصرها وتحملها

(١) المنخنقة : البهيمة التي التفت حول عنقها فخنقها فماتت . والموقوذة : هي الحيوان الذي وقذ (ضُرب) بعضاً أو جرح حتى مات قبل أن يُذَكَّى ذكاة شرعية . والمتردية : هي التي ماتت بسبب سقوطها في حفرة . والنطيحة : ما ماتت بسبب النطح . [القاموس القويم] .

وتتبعها ، أما اجتنبوا فتعنى : احذروا مجرد الاقتراب منها على أى وجه من هذه الوجوه .

لذلك ، تجد الاداء القرآنى للمطلوبات المنهجية فى الأوامر والنواهى من الله يُفَرِّق بين حدود ما أحل الله وحدود ما حرم ، ففى الأوامر يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا .. ﴾ (٢٢٩) [البقرة]

وفى النواهى يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا .. ﴾ (١٨٧) [البقرة]

ففى الأوامر وما أحل الله لك قف عند ما أحل ، ولا تتعداه إلى غيره ، أمّا المحرمات فلا تقترب منها مجرد اقتراب ، فلما أراد الله نهي آدم وحواء عن الأكل من الشجرة قال لهما : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. ﴾ (٣٥) [البقرة]

وبعد أن أمر الحق سبحانه باجتنباب الرجس فى عبادة الأصنام قال : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ (٣٠) [الحج] فقرن عبادة الأوثان بقول الزور ، كأنهما فى الإثم سواء ؛ لذلك النبى ﷺ سلم يوماً من صلاة الصبح ، ثم وقف وقال : « ألا وإن شهادة الزور جعلها الله بعد الأوثان »^(١) .

لماذا ؟ لأن فى شهادة الزور جماع لكل حيثيات الظلم ، فساعة يقول : ليس للكون إله ، فهذه شهادة زور ، وقائلها شاهد زور ، ساعة يقول : الإله له شريك فهذه شهادة زور ، وقائلها شاهد زور ، كذلك حين يظلم أو يُغَيَّر فى الحقيقة ، أو يذم الآخرين ، كلها داخلة تحت شهادة الزور .

(١) عن خريم بن فاتك الأسدى قال : « صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح ، فلما انصرف قائماً قال : عدلت شهادة الزور الإشراف بالله (ثلاثاً) ، ثم تلا هذه الآية ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ (٣٠) [الحج] ، أخرجه أحمد فى مسنده (٢٢١/٤) . والترمذى فى سننه (٢٣٠٠) ، وأبو داود فى سننه (٣٥٩٩) .

سورة الحج

٩٨.١

ولما عدد النبي ﷺ الكبائر ، قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : الإشراف بالله وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس - فقال : ألا وقول الزور ألا وقول الزور ، قال الراوى : فما زال يكررها حتى قلنا (ليته سكت) أو حتى ظننا أنه لا يسكت^(١) .
ويقولون فى شاهد الزور : يا شاهد الزور أنت شر منظور ، ضللت القضاة ، وحلفت كاذباً بالله .

ومن العجيب فى شاهد الزور أنه أول ما يسقط من نظر الناس يسقط من نظر مَنْ شهد لصالحه ، فرغم أنه شهد لصالحك ، ورفع رأسك على خصمك لكن داست قدمك على كرامته وحقرته ، ولو تعرض للشهادة فى قضية أخرى فانت أول مَنْ تفضحه بأنه شهد زوراً لصالحك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا
خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ
فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (٣١)

اكتفت الآية بذكر صفتين فقط من صفات كثيرة على وجه الإجمال ، وهما حنفاء لله ، غير مشركين به . وحنفاء : جمع حنيف ،

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٧٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨٧) من حديث أبى بكر . قال ابن دقيق العيد : « اهتمامه ﷺ بشهادة الزور يحتمل أن يكون لأنها أسهل وقوعاً على الناس ، والتهاون بها أكثر ، ومفسدتها أيسر وقوعاً : لأن الشرك ينبو عنه المسلم ، والعقوق ينبو عنه الطبع ، وأما قول الزور فإن الحوامل عليه كثيرة فحسن الاهتمام بها ، وليس ذلك لعظمها بالنسبة إلى ما ذكر معها » .

مأخوذة من حنف الرجل يعنى : تقوُّسها وعدم استقامتها ، فيقال : فيه حَنَفٌ أى : ميلٌ عن الاستقامة ، وليس الوصف هنا بأنهم مُعْجُونَ ، إنما المراد أن الاعوجاج عن الاعوجاج استقامة .

لذلك وُصف إبراهيم - عليه السلام - بأنه ﴿ كَانَ حَنِيفًا ۖ ﴾ (٢٧) [آل عمران] يعنى : مائلاً عن عبادة الأصنام .

وقلنا : إن السماء لا تتدخل برسالة جديدة إلا حين يعمُّ الفسادُ القومَ ، ويستشرى بينهم الضلال ، وتنعدم أسباب الهداية ، حيث لا واعظ للإنسان لا من نفسه وضميره ، ولا من دينه ، ولا من مجتمعه وبيئته : ذلك لأن فى النفس البشرية مناعةٌ للحق طبيعية ، لكن تطمسها الشهوات ، فإذا عُدِمَ هذا الواعظ وهذه المناعة فى المجتمع تدخلتُ السماء بنبي جديد ، ورسالة جديدة ، وإنذار جديد : لأن الفساد عمُّ الجميع ، ولم يعد أحد يعظ الآخر ويهديه .

وهذا المعنى الذى قال الله فيه : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٧٩) [المائدة]

ومن هنا شهد الله لامة محمد ﷺ أنها خير أمة أخرجت للناس : لأن المناعة للحق فيها قائمة ، ولها واعظ من نفسها يأمر بالخير ، ويأخذ على يد المنحرف حتى يستقيم ؛ لذلك قال فيها النبى ﷺ : « الخير فى وفى أمتى إلى يوم القيامة »^(١) .

والمعنى : الخير فى حصر وفى أمتى نثراً ، فرسول الله ﷺ جمع خصال الخير كله ، وخصه الله بالكمال ، لكن من يطبق الكمال

(١) أورده السيوطى فى « الدرر المنتشرة فى الأحاديث المشتهرة » (حديث ٢٢٠) وقال : « قال الحافظ ابن حجر : لا أعرفه » وقال ابن حجر المكي فى الفتاوى الحديثية : « لم يرد بهذا اللفظ ، وإنما يدل على معناه الخبر المشهور : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق » نقله العجلونى فى كشف الخفاء (٤٧٦/١) .

سُورَةُ الْحَجِّ

٩٨٠٣

المحمدي من أمته ؟ لذلك نثر الله خصال الخير في جميع أمة محمد ،
فأخذ كل واحد منهم صفة من صفاته ، فكماله ﷺ منثور في أمته :
هذا كريم ، وهذا شجاع ، وهذا حلیم .. إلخ .

ولما كان لامة محمد هذا الدور كان هو خاتم الانبياء ؛ لأن أمته
ستؤدي رسالته من بعده ، فلا حاجة - إذن - لتدخل السماء برسالة
جديدة إلى أن تقوم الساعة .

إذن نقول : الرسل لا تأتي إلا عند الاعوجاج ، يأتون هم ليُقوموا
هذا الاعوجاج ، ويميلون عنه إلى الاستقامة ، هذا معنى الحنيف أو
﴿ حَنَفَاءَ لِلَّهِ .. ﴾ (٣١) [الحج]

وهذه الصفة هي مقياس الاستقامة على أوامر الله لا على أوامر
البشر ، فنحن لا نضع لأنفسنا أسباب الكمال ثم نقول : ينبغي أن يكون
كذا وكذا ، لا إنما الذي يضع أسباب الكمال للمخلوق هو الخالق .

والحق - سبحانه وتعالى - ليس مراده من الفعل أن يفعل لذاته
ولمجرد الفعل ، إنما مراده من الفعل أن يفعل لأنه أمر به ، وقد
أوضحنا هذه المسألة بالكافر الذي يفعل الخير وينفع الناس
والمجتمع ، لكن ليس من منطلق الدين وأمر الله ، إنما من منطلق
الإنسانية والمكانة الاجتماعية والمهابة والمنزلة بين الناس ، ومثل هذا
لا يجحفه الله حقّه ، ولا يبخسه ثواب عمله ، يعطيه لكن في الدنيا
عملاً بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ
أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (٣٠) [الكهف]

لكن لا حظ لهؤلاء في ثواب الآخرة ؛ لأنهم عملوا للمجتمع
وللناس والمنزلة ، وقد أخذوا المقابل في الدنيا شهرة وصيتاً ذائعاً ،
ومكانة وتخليداً .

وفى الحديث القدسى يقول الحق سبحانه لهم : « لقد فعلت ليقلال وقد قيل » ^(١) وانتهت المسألة .

والحق - تبارك وتعالى - ضرب لنا عدة أمثلة لهؤلاء ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٣٩) [النور]

فعمل الكافر كالسرّاب يتراءى له من بعيد ، يظن من ورائه الخير ، وهو ليس كذلك ، حتى إذا ما عاين الأمر لم يجد شيئاً ، وفُوجيء بوجود إله عادل لم يكن فى باله يوم عمل ما عمل .

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ .. ﴾ (١٨) [إبراهيم]

وقال : ﴿ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ^(٢) عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٦٤) [البقرة]

وهل ينبت المطر شيئاً إذا نزل على الحجر الصّلد الأملس ؟ هكذا

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرّفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل » ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي فى النار ، أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) وأحمد فى مسنده (٢٢٢/٢) والنسائى فى سننه (٢٢/٦ ، ٢٤) وذكر مثلين آخرين : رجل تعلم العلم وعلمه . ورجل وسع الله عليه . وقد شرحه فضيلة الشيخ الشعراوى تفصيلاً فى « الأحاديث القدسية ١/١٣٥ - ١٥١ » .

(٢) الصفوان : الحجر الأملس الذى لا يصلح للزّرع . ومثله الصلد . والوايل : المطر الغزير . [القاموس القويم] .

عمل الكافر ، فمن أراد ثواب الآخرة فليحقق معنى ﴿ حَقَّاءَ لِلَّهِ .. ﴾ [الحج] ويعمل من منطلق أن الله أمر .

إذن : العمل لا يُفعل ؛ لأنه حسن في ذاته ، إنما لأن الله أمرك به ، بدليل أن الشارع سيأمرك بأمور لا تجد فيها حسناً ، ومع ذلك عليك أن تلتزم بها لتحقيق الانضباط الذي أراده منك الشارع الحكيم ، وبعد ذلك سينكشف لك وجه الحُسْن في هذا العمل ، وتعلم الحكمة منه .

خذ مثلاً موقف الإسلام من اليتيم ، وقد حث رسول الله ﷺ على رعايته وإكرامه وكفالته حتى أنه قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة ، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى »^(١) فكافل اليتيم قرين لرسول الله في الجنة .

ففي هذا الموقف حكم كثيرة ، قد لا يعلمها كثير من الناس ؛ لأن اليتيم فقد أباه وهو صغير ، ونظر فلم يجد له أباً ، في حين يتمتع رفاقه بأحضان آبائهم ، فإذا لم يجد هذا الصغير حناناً من كل الناس كأنهم آباؤه لتربى عنده شعور بالسُّخْط على الله والاعتراض على القدر الذي حرمه دون غيره من حنان الأب ورعايته .

لذلك يريد الإسلام أن ينشأ اليتيم نشأة سوية في المجتمع ، لا يسخط على الله ، ولا يسخط على الناس ؛ لأنهم جميعاً عاملوه كأنه ولد لهم .

وهناك ملحظ آخر : حين ترى مكانة اليتيم ، وكيف يرعاه المجتمع وينهض به يطمئن قلبك إن فاجأك الموت وأولادك صغار ،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٣٠٤ ، ٦٠٠٥) ، وأبو داود في سننه (٥١٥٠) من حديث سهل بن سعد الساعدي .

هذه مناعات يجعلها الإسلام في المجتمع : مناعة في نفس اليتيم ، ومناعة فيمن يرعاه ويكفله .

وكفالة اليتيم وإكرامه لا بُدُّ أن تتم في إطار ﴿ حَفَاءَ لِلَّهِ .. ﴾ (٣١) [الحج] فيكون عملك لله خالصاً ، دون نظر إلى شيء آخر من متاع الدنيا ، كالذي يسعى للوصاية على اليتيم لينتفع بماله ، أو أن له مطمعاً في أمه .. إلخ فهذا عمله كالذي قلنا : (كسراب بقيعة) أو كرماد اشتدت به الريح أو كحجر أملس صلد لا ينبت شيئاً .

فإن حاول الإنسان إخلاص النية لله في مثل هذا العمل فإنه لا يأمن أن يخالطه شيء ، كما جاء في الحديث الشريف : « اللهم إني أستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطني فيه ما ليس لك »^(١) .

الصفة الثانية التي وصف الله بها عباده المؤمنين : ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ .. ﴾ (٣١) [الحج] فالشرك أمر عظيم : لأن الحق - تبارك وتعالى - كما قال في الحديث القدسي - أغنى الشركاء عن الشرك ، فكيف تلجأ إلى غير الله والله موجود ؟

لذلك يقول سبحانه في الحديث القدسي : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري ، تركته وشركه »^(٢) .

ويعطينا الحق سبحانه بعدها صورة توضيحية لعاقبة الشرك : ﴿ وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (٣١) [الحج]

(١) ذكره ابن رجب الحنبلي في كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله أنه كان يقول : اللهم إني أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسي ثم لم أفك به ، وأستغفرك مما زعمت أني أردت به وجهك فخالط قلبي منه ما قد علمت .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٨٥) وابن ماجه في سننه (٤٢٠٢) واللفظ لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

خرُّ : يعنى سقط من السماء لا يُمْسكه شيء ، ومنه قوله تعالى :
﴿ فَخَرُّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ .. ﴾ (٢٦) [النحل]

وفى الإنسان جمادية : لأن قانون الجاذبية يتحكم فيه ، فإن
صعد إلى أعلى لا بد أن يعود إلى الأرض بفعل هذه الجاذبية ،
لا يملك أن يُمْسك نفسه مُعلقاً فى الهواء ، فهذا أمر لا يملكه وخارج
استطاعته ، وفى الإنسان نباتية تتمثل فى النمو ، وفيه حيوانية تتمثل
فى الغرائز ، وفيه إنسانية تتمثل فى العقل والتفكير والاختيار بين
البدائل ، وبهذه كُرم عن سائر الأجناس .

وتلاحظ أن (خرُّ) ترتبط بارتفاع بعيد ﴿ خَرُّ مِنَ السَّمَاءِ .. ﴾ (٢٦)
[الحج] بحيث لا تستطيع قوة أن تحميه ، أو تمنعه لا بذاته ولا بغيره ،
وقبل أن يصل إلى الأرض تتخطفه الطير ، فإن لم تتخطفه تهوى به
الريح فى مكان بعيد وتلاعب به ، فهو هالك هالك لا محالة ،
ولو كانت واحدة من هذه الثلاث لكانت كافية .

وعلى العاقل أن يتأمل مغزى هذا التصوير القرآنى فيحذر هذا
المصير ، فهذه حال مَنْ أشرك بالله ، فإن أخذت الصورة على أنها
تشبيه حالة بحالة ، فهذا هو الصورة أمامك واضحة ، وإن أردت
تفسيراً آخر يوضح أجزاءها : فالسمااء هى الإسلام ، والطير هى
الشهوات ، والريح هى ربح الشيطان ، يتلاعب به هنا وهناك . فأى
ضياح بعد هذا ؟ ومن ذا الذى ينقذه من هذا المصير ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمْ شَعِيرًا لِلَّهِ فَإِنَّهَا
مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (٢٢)

﴿ذَلِكَ .. (٣٢)﴾ [الحج] كما قلنا في السابقة : إشارة إلى الكلام السابق الذي أصبح واضحاً معروفاً ، ونستأنف بعدها كلاماً جديداً تنبّه له .

﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ .. (٣٢)﴾ [الحج] الشعائر : جمع شعيرة ، وهي المعالم التي جعلها الله لعباده لينالوا ثوابه بتعظيمها ، فالإحرام شعيرة ، والتكبير شعيرة ، والطواف شعيرة ، والسعي شعيرة ، ورمي الجمار شعيرة .. إلخ . وهذه أمور عظمها الله ، وأمرنا بتعظيمها^(١) .

وتعظيم الشيء أبلغ وأشمل من فعله ، أو أدائه ، أو عمله ، عظم الشعائر يعني : أدائها بحبٍ وعشقٍ وإخلاص ، وجاء بها على الوجه الأكمل ، وربما زاد على ما طُلب منه .

ومثالنا في ذلك : خليل الله إبراهيم ، عندما أمره الله أن يرفع قواعد البيت : كان يكفيه أن يبني على قدر ما تطوله يده ، وبذلك يكون قد أدى ما أمر به ، لكنه عشق هذا التكليف وأحبّه فاحتال للامر ووضع حجراً على حجر ليقف عليه ، ويرفع البناء بقدر ما ارتفع إليه .

فمحنة أمر الله مَرَقَى من مراقى الإيمان ، يجب أن نسمو إليه ، حتى في العمل الدنيوي : هَبْ أَنْكَ نُقِلْتَ إِلَى دِيْوَانٍ جَدِيدٍ ، ووصل إلى علمك أن مدير هذا الديوان رجل جادٌ وصعب ، ويُحاسب على كل صغيرة وكبيرة ، فيمنع التأخير أو التسيّب أثناء الدوام الرسمي ، فإذا

(١) هناك قول آخر في تفسير هذه الآية ، فالمقصود بشعائر الله هنا : البُدن والهدى الذي يُهدى إلى الكعبة . وتعظيم شعائر الله هنا معناه : استعظام البدن واستحسانها واستحسانها . [راجع الآثار التي أوردها السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالماثور (٤٦/٦) عن ابن عباس ومجاهد] .

بك تلتزم بهذه التعليمات حرفياً ، بل وتزيد عليها ليس حباً في العمل ، ولكن حتى لا تُسئَلُ أمام هذا المدير في يوم من الأيام .

إذن : الهدف أن نؤدي التكليف بحُبٍّ وعشق يُوصلنا إلى حب الله عز وجل ؛ لذلك نجد من أهل المعرفة مَنْ يقول : رَبُّ مَعْصِيَةٍ أَوْرَثَتْ ذُلًّا وَانْكَسَارًا خَيْرٌ مِنْ طَاعَةِ أَوْرَثَتْ عِزًّا وَاسْتِكْبَارًا^(١) .

فالمهم أن نصل إلى الله ، أن نخضع لله ، أن نذلَّ لعزته وجلاله ، والمعصية التي تُوصلُك إلى هذه الغاية خير من الطاعة التي تُسلمك للغرور والاستكبار .

هذه المحبة للتكليف ، وهذا العشق عبَّرَ عنه رسول الله ﷺ حينما قال : « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ »^(٢) لذلك نَعَى القرآن على أولئك الذين ﴿ إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٤٢) ﴿ [النساء]

وابنته فاطمة^(٣) - رضى الله عنها - كانت تجلو الدرهم وتلمعه ، فلما سألها رسول الله عما تفعل ، قالت : لأننى نويتُ أنْ أتصدَّقَ به ، وأعلم أنه يقع فى يد الله قبل أن يقع فى يد الفقير . هذا هو التعظيم لشعائر الله والقيام بها عن رغبة وحب .

وفى عصور الإسلام الأولى كان الناس يتفاضلون بأسبقهم إلى

(١) من حكم ابن عطاء الله السكندرى ، ذكره هبند المال كحيل فى كتابه « أبو العينين السوقى » ص ٧٦ - دار الشعب القاهرة .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٢٨/٣ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) والنسائى فى سننه (٦١/٧) والحاكم فى مستدركه (١٦٠/٢) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ، وتام الحديث « حُبُّ إِلَى مِنَ الدُّنْيَا : النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ » .

(٣) هى : فاطمة بنت رسول الله محمد بن عبد الله ، أمها خديجة بنت خويلد ، ولدت ١٨ ق هـ ، تزوجها أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى الثامنة عشرة من عمرها ، وولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب ، عاشت بعد أبيها ستة أشهر . توفيت ١١ هـ عن ٢٩ عاماً ، الاعلام للزركلى (١٣٢/٥) .

صلاة الجماعة حين يسمع النداء ، وبآخريهم خروجاً من المسجد بعد أداء الصلاة ، ولك أن تقيس حال هؤلاء بحالنا اليوم . هؤلاء قوم عظموا شعائر الله فلم يُقدّموا عليها شيئاً .

وقد بلغ حُبُّ التكاليف وتعظيم شعائر الله بأحد العارفين إلى أن قال : لقد أصبحت أخشى ألا يثيبني الله على طاعته ، فسألوه : ولماذا ؟ قال : لائنئى أصبحت أشتهيها يعنى : أصبحت شهوة عندي ، فكيف يُثاب - يعنى - على شهوة ؟

لذلك أهل العزم وأهل المعرفة عن الله إذا ورد الأمر من الله وثبت أخذوه على الرُّحْب والسَّعة دون جدال ولا مناقشة ، وكيف يناقشون أمر الله وهم يُعظمونه ؟ ومن هنا نقول للذين يناقشون في أمور فعلها رسول الله ﷺ مثل تعدد زوجاته مثلاً ويعترضون ، بل ومنهم من يتهم رسول الله ﷺ بما لا يليق .

نقول لهم : ما دُمْتُمْ آمنتم بأنه رسول الله ، فكيف تضعون له موازين الكمال من عند أنفسكم . وتقولون : كان ينبغي أن يفعل كذا ، ولا يفعل كذا ؟ وهل عندكم من الكمال ما تقيسون به فعل رسول الله ؟ المفروض أن الكمال منه ﷺ ومن ناحيته ، لا من ناحيتكم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (٤٢) [الحج] ليست من تقوى الجوارح ، بل تقوى قلب لا تقوى قالب ، فالقلب هو محل نظر الله إليك ، ومحل قياس تعظيمك لشعائر الله .

و سبق أن ذكرنا أن الله تعالى لا يريد أن يُخضع قلوبنا ، إنما يريد أن يُخضع قلوبنا ، ولو أراد سبحانه أن تخضع القلوب لخضعت له رغبة ، كما جاء في قوله تعالى :

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣) **إِنْ نَشَأْ نُنزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ** (٤) ﴿

وانت تستطيع أن تُرغم مَنْ هو أضعف منك على أي شيء يكرهه ، إن شئت سجد لك ، لكن لا تملك أن تجعل في قلبه حباً أو احتراماً لك ، لماذا ؟ لأنك تجبر القالب ، أمّا القلب فلا سلطة لك عليه بحال .

ثم يقول الحق سبحانه :

لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا

إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾

يعنى : ما دامت هذه المسائل من شعائر الله ومن تقوى القلوب فاعملوها وعظموها : لأن لكم فيها منافع عرفتھا أو لم تعرفھا ، وربما تعرف بعضها ولا تعرف الباقي : لانه مستور عنك ولو أنك لا تعلم قيمة الجزاء على هذه الشعائر ، فقيمة الجزاء على العمل بحسب أنفاس الإخلاص فى هذا العمل .

ومعنى ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ .. (٣٢) ﴿[الحج] ما دام الحق - سبحانه وتعالى - ذَلِيلُ الْآيَةِ بقوله ﴿ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (٣٣) ﴿[الحج] إذن : فالمراد هنا شعيرة الذَّبْحِ ، ولا يخفى ما فيها من منافع حيث ننتفع بصوفها ووبرها ولبنها ولحمها ، ونتخذها زينة وركوبة .

كل هذا ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ﴾ [الحج] يعني : زمن معلوم ، وهو حين تقول وتنتوي : هذه هدية للحرم ، ساعة تعقد هذه النية

فليس لك الانتفاع بشيء منها ، لا أنت ولا غيرك ^(١) ؛ لذلك يُمَيِّزُونَهَا
بعلامة حتى إن ضلت من صاحبها يعرفون أنها مُهْدَاة لبيت الله ، فلا
يأخذها أحد ^(٢) .

وما دامت هذه منافع إلى أجل مسمى ، فلا بُدَّ أنها المنافع
الدنيوية ، أما المنافع الآخروية فسوف تجدها فيما بعد في الآخرة .
ثم يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج] أى :
يعد هذا الأجل المسمى ينتهى بها المطاف عند الحرم حيث تُذْبَح
هناك .

وقد كان للعلماء ^(٣) كلامٌ حول هذه الآية : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ
الْعَتِيقِ ﴾ [الحج] حيث قالوا : محل الذُّبْحِ فى مِنًى ، وليس فى
مكة ، والآية تقول : محلها البيت العتيق .

(١) قال ابن عباس : ما لم يُسَمَّ بدناً ، وقال مجاهد : المنافع الركوب واللين والولد فإذا سميت
بدناً أو هدياً ذهب ذلك كله . وكذا قال عطاء والضحاك وقتادة وغيرهم . وقال آخرون : بل
له أن ينتفع بها وإن كانت هدياً إذا احتاج إلى ذلك كما ثبت فى الصحيحين عن أنس أن
رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال : اركبها . قال : إنها بدنة . قال : ه اركبها
ويحك . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٢٢٠ / ٣] .

(٢) وهو قوله تعالى : ﴿ يَنْأَىهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا
الْقُلَابِدَ .. ﴾ [المائدة] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢ / ٤) : . يعنى : لا تتركوا
الإهداء إلى البيت الحرام فإن فيه تعظيم شعائر الله ، ولا تتركوا تقليدها فى أعناقها لتتميز
به عما عداها من الأنعام ، وليعلم أنها هدى إلى الكعبة فيجتنبها من يريد بها سوء ، وتبعث
من يراها على الإتيان بمثلها .

(٣) هناك قولان فى تفسير هذه الآية ، فى عَوْد الضمير فى (مَحِلُّهَا) :
- البُئْنَ والهُدًى ، أى : إلى يوم النحر تنحصر بمنى . [عن عطاء] . وإذا دخلت الحرم فقد
بلغت محلها [عكرمة] . وهذا ما أخذ به فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله .
- شعائر ومناسك الحج . أى : أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمى الجمار
والسعى ينتهى إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق . قاله القرطبى فى تفسيره
(٤٥٨٨ / ٦) .

سُورَةُ الْحَجِّ

٩٨١٣

نقول : الأصل كما جاء في الآية أن الذبح في مكة وفي الحرم ، إلا أنهم لما استقذروا الذبح في الحرم بسبب ما يُخلفه من قاذورات ودماء وخلافه نتيجة هذه العملية ، فرؤى أن يجعلوا الذبح بعيداً عن الحرم حتى يظل نظيفاً ، وهذا لا يمنع الأصل ، وهو أن يكون الذبح في الحرم ، كما جاء في آية أخرى : ﴿ هَذَا بِأَلْبَاحِ الْكُفَّةِ ۖ ۝ (٩٥) ﴾ [المائدة] وفي الحديث الشريف : « مكة كلها منحر »^(١) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ آلَاتِنَا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ (٢٤) ﴾

المنسك : هو العبادة ، كما جاء في قول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ قُلْ إِن صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ (١٦٢) ﴾ [الأنعام]

ومعنى ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ۖ ۝ (٢٤) ﴾ [الحج] لأن الشعائر والمناسك والعبادات ليس من الضروري أن تتفق عند جميع الأمم ، بل لكل أمة ما يناسبها ، ويناسب ظروفها الزمنية والبيئية .

لذلك ، فإن الرسل لا تأتي لتغيير القواعد والاسس التي يقوم عليها

(١) عن جابر بن عبد الله أنه قال : نحر رسول الله ﷺ فخلق وجلس للناس ، فما سئل عن شيء إلا قال : لا حرج لا حرج ، حتى جاءه رجل فقال : خلقت قبل أن أنحر . قال : لا حرج . ثم جاء آخر فقال : يا رسول الله خلقت قبل أن أرمي قال : لا حرج قال رسول الله ﷺ : « عرفة كلها موقف ، والمزدلفة كلها موقف . ومنى كلها منحر ، وكل فجاء مكة طريق ومنحر » أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٦/٢) والدارمي في سننه (٥٧/٢) .

الدين ؛ لأن هذه القواعد وهذه الأسس ثابتة في كل رسالات السماء ،
لا تتبدل ولا تتغير بتغير الرسل .

يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا
فِيهِ .. ﴾ (١٣) [الشورى]

هذا في الأصول العقديّة الثابتة ، أما في الفرعيات فنرى ما يصلح
المجتمع ، وما يناسبه من طاعات وعبادات .

ثم يبيّن الحق سبحانه الحكمة من هذه المناسك : ﴿ لِيَذْكُرُوا اسْمَ
اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ .. ﴾ (٣٤) [الحج] أى : يذكروا الله فى
كل شيء ، ويشكروه على كل نعمة ينالونها من بهيمة الانعام .

لذلك نذكر الله عند الذبح نقول : بسم الله ، الله أكبر ، لماذا ؟ لأن
الذبح إزهاق روح خلقها الله ، وما كان لك أن تزهاقها بإرادتك ، فمعنى
« بسم الله والله أكبر » هنا أننى لا أزهاق روحها من عندى ، بل لأن
الله أمرنى وأباحها لى ، فالله أكبر فى هذا الموقف من إرادتك ، ومن
عواطفك .

ونرى البعض يأنف من مسألة الذّبح هذه ، يقول : كيف تذبحون
هذا الحيوان أو هذه الدجاجة ؟ يدعى الرحمة والشفقة على هذه
الحيوانات ، لكنه ليس أرحم بها من خالقها ، وما ذبحناها إلا لأن الله
أحلّها ، وما أكلناها إلا بسم الله ، بدليل أن ما حرمه الله علينا لا نقرب
منه أبداً .

وهل أنا أكرم القطة عن الأرنب ، فأذبح الأرنب وأترك القطة ؟
وهل أحترم الكلب عن الخروف ؟ أبداً ، المسألة مسألة تشريع وأمر
ثبت عن الله ، فعلى أن أعظمه وأطيعه .

سُورَةُ الْحَجِّ

٩٨١٥

وقوله تعالى : ﴿ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ .. ﴾ (٣٤) [الحج]
الرزق يعنى : أنه تعالى أوجدها لك ، وملكك إياها ، وذللها لك
فاستأنستها وسخرها لك فانتفعت بها ، ولولا تسخيرها ما انقادت لك
بقوتك وقدرتك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَالْهَيْكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ .. ﴾ (٣٤) [الحج] يعنى :
إن اختلفت الشرائع من أمة لأمة فإياك أن تظن أن هذا من إله ، وهذا
من إله آخر ، إنما هو إله واحد يشرع لكل أمة ما يناسبها وما
يصلحها ؛ لأن التشريعات السماوية تاتى علاجاً لأفات اجتماعية .

والأصل الأصيل هو إيمان بإله واحد فاعل قادر مختار ، يُبلِّغ عنه
رسول بمعجزة تُبين صدقه فى التبليغ عن الله . هذا أصل كل الديانات
السماوية ، كذلك قواعد الدين وأساسياته واحدة مُتفق عليها ، فالسرقة
والزنا وشهادة الزور .. إلخ كلها مُحَرَّمة فى كل الأديان .

لكن ، هناك أمور تناسب أمة ، ولا تناسب أخرى ، والمشرع
للجميع إله واحد ، الناس جميعاً من لَدُنْ آدم وإلى أن تقوم الساعة
عياله ، وهم عنده سواء ، لذلك يختار لكل ما يُصلحه .

ألا ترى رب الأسرة كيف يُنظِّم حياة أولاده - والله المثل الأعلى -
فيقول : هذا يفعل كذا ، وهذا يفعل كذا ، وإذا جاء الطعام قال : هذا يأكل
كذا وكذا لأنه مريض مثلاً ، لا يناسبه طعام الآخرين ، ويأمر الأم أن تُعدَّ
لهذا المريض ما يناسبه من الطعام . ذلك لأنه راعٍ للجميع مسئول عن
الجميع ، وعليه أن يراعى مصلحة كل واحد منهم على حدة^(١) .

(١) وذلك مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ : « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . فالأمير الذى
على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته ، وهو مسئول عنهم ، والمرأة
راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم ، والعبد راع على مال سيده ، وهو مسئول عنه ،
ألا فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٢٩) ، والبيهقى فى
صحيحه (٨٩٢ ، ٢٤٠٩) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

إذن : اختلاف التشريعات فى هذه المسائل الجزئية بين الأمم لا يعنى تعدد الآلهة كلاً وحاشا لله ، بل هو إله واحد ، يعطى عباده كلاً على حسب حاجته ، كى يتوازن المجتمع ويستقيم حاله .

نذكر أنه كان عند طبيب الوحدة الصحية دورقان ، فى كل منهما مزيج معين ، وكان يعطى كل المرضى مع اختلاف أمراضهم من هذين النوعين فقط ؛ لذلك كانت عديمة الجدوى ، أما الآن فالطبيب الماهر لا بد أن يُجرى على مريضه الفحوص والتحليل اللازمة ليوقف على مرضه بالتحديد ، ثم يصف العلاج المناسب لهذه الحالة بمقادير دقيقة تُبرىء المرض ولا تضر المريض من ناحية أخرى .. كذلك الأمر فى اختلاف الشرائع السماوية بين الأمم .

وما دام أن إلهكم إله واحد ، وما دُمتم عنده سواء ، وليس منكم مَنْ هو ابنُ الله ، ولا بينه وبين الله قرابة . إذن : ﴿ فَلَهُ أَسْلِمُوا .. ﴾ [الحج] يعنى : أَسْلِمُوا كل أموركم لله ، فإن أمر فعظموا أمره ، وخذوه على الرُحْب والسَّعة ، فإن ترك مجالاً لاختيارك فاصنع ما تشاء . ولا تنسَ أن الله تعالى أعطاك فرصة للترقى الإيمانى ، وللترقى الإحسانى ، وفتح لك مجال الإحسان إن أردت .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ [الحج] المخبت : فى المعنى العام : يعنى الإنسان الخاشع الخاضع المتواضع لكل أوامر الله ، والمعنى الدقيق للمخبت : هو الذى إذا ظلم لا ينتصر لنفسه ، عملاً بقول الله تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى] هكذا بلام التوكيد .

أما فى وصية لقمان لولده : ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [لقمان] بدون توكيد ، لماذا ؟

قالوا : لأن لقمان يوصي ولده بالصبر على ما أصابه ،
والمصائب قسمان : مصيبة تصيب الإنسان ، وله فيها غريم هو الذي
أوقع به المصيبة ، وهذه يصاحبها غضب وسعار للانتقام ، ومصيبة
تصيب الإنسان وليس له غريم كالمرض مثلاً ، فإن كان له غريم
فالصبر أشد ، لذلك احتاج إلى التوكيد ، على خلاف المصيبة التي
ليس أمامك فيها غريم ، فهي من الله فالصبر عليها أهون من الأولى .

ومع ذلك جعل الحق - سبحانه وتعالى - للنفس البشرية منافذ
تُنَفَّس من خلالها عن نفسها ، حتى لا يختمر بداخلها الغضب ،
فيتحول إلى حقد وضيغينة ، قد تؤدي إلى أكثر مما وقع بك ؛ لذلك
أباح لك الرد لكن حبيبك في مَرَأَى أُخْرَى ، هي أجدي لك ، فقال تبارك
وتعالى : ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾
[آل عمران] ﴿١٣٤﴾

وهذه مراحل ثلاث ، تختار منها بحسب فهمك عن الله وقربك
منه :

الأولى : ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ ..﴾ [آل عمران] يعني : تكظم
غيظك في نفسك ، دون أن تترجم هذا الغيظ إلى عمل نزوعي فتنتقم ،
فالغيظ - إذن - مسألة وجدانية في القلب ، وموجود في مواجيد
نفسه ، وهذه مرحلة .

الثانية : ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ..﴾ [آل عمران] يعني :
لا ينتقم ، ولا حتى يجعل للغيظ مكاناً في نفسه ، فيُصَفِّئُها من
مشاعر الحنق والغيظ راضياً .

الثالثة : ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران] وهي أعلى
المراتب ، وهي ألا تكتفى بالعفو ، بل وتحسن إلى مَنْ أساء إليك ،

والبعض يقول : هذا ضد طباع البشر ، نعم هي ضد طباع البشر العاديين ، لكن الذين يعرفون الجزاء ، ويعرفون أنهم بذلك سيكونون في حضانة ربهم يهون عليهم هذا العمل ، بل ويحبون الإحسان إلى مَنْ أساء .

لذلك : فالحسن البصرى - رضوان الله عليه - لما بلغه أنَّ شخصاً نال منه في أحد المجالس - وكان الوقت بواكير الرُّطَب - أرسل خادمه إليه بطبق من الرطب ، وقال له : بلغنى أنك أهديت إلى حسناتك بالأمس^(١) .

ومعلوم أن الحسنات أغلى وأثمن بكثير من طبق الرُّطَب . ومن هنا يقولون : ما أعجب من الذى يُسِيء إلى مَنْ أساء إليه ، لأنه أعطاه حسناته ، وهى خلاصة عمله ، فكيف يُسِيء إليه ؟!

وكان الحق سبحانه يريد أن يُحدث توازناً فى المجتمع ، ويقضى على دواعى الحقد وأسباب الضغائن فى النفس البشرية ، فحين تُحَسِّن إلى مَنْ يُسِيء إليك فإنك تجتث جذور الكُره والحقد من نفسه ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣٤) [فصلت] فقد أخرجتْ خَصْمَكَ من قلوب الخصومة ، إلى قالب الولاية والمحبة .

فالمخبت المتواضع لله ، أما غير المخبت فتراه متكبراً (يتفرعن) على مَنْ حوله ، ويرى نفسه أعظم من الجميع ، ولو أنه استحضِر

(١) ذكره أبو حامد الغزالي (١٥٤/٢) أن رجلاً قال للحسن : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق ، وقال : قد بلغنى أنك أهديت إلى من حسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها فاعذرني فإننى لا أقدر أن أكافئك على التمام .

جلال ربه لخشع له ، وتواضع وانكسر لخلقهِ ، فالتكبر دليل غفلة عن عظمة الله ، كأنه لم يشهد خالقه .

إذن : تستطيع أن تقول أن الإخبات على نوعين : إخبات لله بالخضوع والخشوع والتعظيم لأوامره ، وإخبات لخلق الله ، بحيث لا ينتصر لظلمه ولا يظلم ، إنما يتسامح ويعفو ؛ لأنه يعلم جيداً أنه إذا ظلم من مخلوق تعصب له الخالق .

ولك أن تنظر إلى أولادك إذا ظلم أحدهم الآخر فإلى من تنحاز ، ومع من تتعاطف ؟ لا شك أنك ستميل إلى المظلوم ، وتحنو عليه ، وتريد أن تُعوضه عما لحقه من الظلم ، حتى إن الظالم ليندم على ظلمه ؛ لأنه مَيِّز أخاه المظلوم عليه ، وربما تمنى أن يكون هو المظلوم لا الظالم .

كذلك حال المخبت يرى أن الخلق جميعاً عيال الله ، وأن أحبهم إليه أرفعهم بعياله ؛ لذلك يعفو عمن ظلمه ، ويترك أمره لله رب الجميع ، كما أن المظلوم إذا ردَّ الظلم فإنه يرده بقوته ومقدرته هو ، إنما إن ترك الردَّ لله جاء الردُّ على مقدار قوته سبحانه .

مُحَظ آخر ينبغي أن يتنبه له المظلوم قبل أن يُفكر في الانتقام ، وهو : مَنْ يدريك لعلك ظلمتَ أنت أيضاً دون أن تدري ، لعل للناس عندك مظالم لا تشعر بها ، وليست في حُسبانك ، فالمسألة - إذن - لك وعليك .

لذلك يقول الحق سبحانه في الحديث القدسي : « يا ابن آدم دعوتَ على مَنْ ظلمك » .

وهذا مباح لك بقوله تعالى : ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ

إِلَّا مَنْ ظَلَمَ .. ﴿١٤٨﴾ [النساء] يعنى : أعطيناك فرصة أن تدعو على من ظلمك .

ثم يقول سبحانه : « ودعا عليك مَنْ ظلمته ، فإن شئت أجبتنا وأجبتنا عليك ، وإن شئت أخرتكما للأخرة فيسعكما عفوى »^(١) .

فالمخبت يستحضر هذا كله ، ويركن إلى العفو والتسامح ؛ لياخذ ربه عز وجل فى صفه ؛ لذلك يقولون : لو علم الظالم ما أعدّه الله للمظلوم من الكرامة لضمن عليه بالظلم .

فحين ترى المظلوم يعفو عنك ويتسامح معك ، فلا تظن أنك أخضعتك لك ، إنما هو خضع لله الذى سيرفعه عليك ، ويعلّى رأسه عليك فى يوم من الأيام .

لذلك من أنماط السلوك السوى إذا تشاجر اثنان يقول أحد العقلاء : لكما أب نرد عليه ، أو لكما كبير نرجع إليه فى هذه الخصومة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ
وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٣٥)

يُبين لنا الحق سبحانه بعض صفات المخبتين ، فهم ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٣٥) [الحج] (وَجِلَتْ) : يعنى خافت ، واضطربت ، وارتعدت لذكر الله تعظيماً له ، ومهابة منه .

(١) ذكره أبو حامد الغزالي (١٨٣/٣) من قول يزيد بن ميسرة : إن ظلمت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول : إن آخر يدعو عليك بآثك ظلمته ، فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك ، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوى .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨) [الرعد]

فمرة يقول ﴿وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ ..﴾ (٣٥) [الحج] ومرة ﴿تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨) [الرعد] ، لماذا ؟ لأن ذكر الله إن جاء بعد المخالفة لا بُدُّ للنفس أن تخاف وتوجل وتضطرب هيبة لله عز وجل ، أما إن جاء ذكر الله بعد المصيبة أو الشدة فإن النفس تطمئن به ، وتأنس لما فيها من رصيد إيماني ترجع إليه عند الشدة وتركن إليه عند الضيق والبلاء ، فإن تعرضت لمصيبة وعزت أسباب دفعها عليك تقول : أنا لى رب فتلجأ إليه ، كما كان من موسى - عليه السلام - حين قال : ﴿إِنْ مَعِيَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ (٦٢) [الشعراء]

﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ..﴾ (٣٥) [الحج] ومعنى أصاب : يعنى جاء بأمر سىء فى عُرْفِكَ أنت ، فتعده مصيبة ؛ لأننا نُقدِّر المصيبة حسب سطحية العمل الإيذاثي ، إنما لو أخذت مع المصيبة فى حسابك الأجر عليها لهانت عليك وما اعتبرتها كذلك ؛ لذلك فى الحديث الشريف يقول ﷺ : « المصاب من حرم الثواب » .

هذا هو المصاب حقاً الذى لا تُجبر مصيبتته ، أما أن تُصاب بشىء فتصبر عليه حتى تنال الأجر فليس فى هذا مصيبة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَالْمُقِيمِ الصَّلَاةِ ..﴾ (٣٥) [الحج] لأن الصلاة هى الولاء الدائم للعبد المسلم ، والفرض الذى لا يسقط عنه بحال من الأحوال ، فالشهادتان يكفى أن تقولها فى العمر مرة ، والزكاة إن كان عندك نصيب فهى مرة واحدة فى العام كله ، والصيام كذلك ، شهر فى العام ، والحج إن كنت مستطيعاً فهو مرة واحدة فى

العمر ، وإن لم تكن مستطيعاً فليس عليك حج .

إذن : الصلاة هي الولاء المستمر للحق سبحانه على مدار اليوم كله ، وربك هو الذي يدعوك إليها ، ثم لك أن تُحدد أنت موعد ومكان هذا اللقاء في حضرته تعالى ؛ لأنه سبحانه مستعد للقاءك في أي وقت .

وتصور أن رئيس الجمهورية أو الملك مثلاً يدعوك ويحثم عليك أن يراك في اليوم خمس مرات لتكون في حضرته ، والحق سبحانه حين يدعو عباده للقاءه ، لا يدعوهم مرة واحدة إنما خمس مرات في اليوم واللييلة ؛ لأنه سبحانه لا يتكلف في هذه العملية تكرار لقاءات ، فهو سبحانه يلقي الجميع في وقت واحد .

ولما سئل الإمام علي - رضي الله عنه - : كيف يحاسب الله كل هؤلاء الناس في وقت واحد ؟ قال : كما أنه يرزقهم جميعاً في وقت واحد .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٣٥) [الحج] لا ينفقون من جيبوبهم ، إنما من عطاء الله ورزقه . ومن العجيب أن الله تعالى يعطيك ويهبك ويُغدق عليك تفضلاً منه سبحانه ، فإذا أرادك تُعين محتاجاً قال لك : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. ﴾ (١١) [الحديد]

وكان الله تعالى يقول لنا : أنا لا أعود في هبتي ولا في عطائي ، فأقول : أعط ما أخذته لفلان ، بل إن أعطيت الفقير من مالك فهو أيضاً لك مُدْخِر لا يضيع ، فرزقك الذي وهبك الله إياه ملكك ، ولا نغيبك في شيء منه أبداً ، فربك يحترم ملكيتك ، ويحترم جزاء عملك وجدك واجتهادك .

نقول - والله المثل الأعلى - : كالرجل الذي يحتاج مبلغاً كبيراً لأحد الأبناء فيأخذ من الباقيين ما معهم وما أذخروه من مصروفاتهم على وعد أن يعوّضهم بدلاً منها فيما بعد .

لذلك يقول بعدها : ﴿فِيضَاعِفْهُ لَهُ .. (١١)﴾ [الحديد] فيعاملك ربك بالزيادة ؛ لذلك يقول البعض : إن الله تعالى حرّم علينا الربا وهو يعاملنا به ، نعم يعاملك ربك بالربا ويقول لك : أترك لي أنا هذا التعامل ؛ لأنني حين أزيدك لا أنقص الآخرين ، ولا أنقص مما عندي ، ولا أرهق ضعيفاً ولا محتاجاً ولا أستغل حاجته .

والصدقة في الإسلام تأمينٌ لصاحبها ضد الفقر إن احتاج ، فأخوف ما يخافه المرء الحاجة عند الكبر ، وعدم القدرة على الكسب ، وعند الإعاقة عن العمل ، يخاف أن ينفد ماله ، ويحتاج إلى الناس حال كبره .

وعندها يقول له ربه : اطمئن ، فكما أعطيت حال يُسرك سيعطيك غيرك حال عوزك وحاجتك .

إذن : أخذ منك ليعطيك ، وليؤمن لك مستقبل حياتك الذي تخاف منه .

الصدقة في الإسلام صندوق لتكافل المجتمع ، كصندوق التأمين في شركات التأمين ، فإذا ما ضاقت بك أسباب الرزق وشكوت الكبر والعجز نقول لك : لا تحزن فأنت في مجتمع مؤمن متكافل ، وكما طلبنا منك أن تعطي وأنت واجد طلبنا من غيرك أن يعطيك وأنت معذور .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعِيرٍ
اللَّهُ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ
جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ ۚ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا
لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣٦)

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى في النفقة مما رزقكم الله تكلم في النفقة في البدن ، والبدن : جمع بدنة ، وهي الجمل أو الناقة ، أو ما يساويهما من البقر ، وسماها بدنة إشارة إلى ضرورة أن تكون بدينة سمينة وافرة ، ولا بد أن تراعى فيها هذه الصفة عند اختيارك للهدى الذي ستقدمه الله ، واحذر أن تكون من أولئك الذين يجعلون لله ما يكرهون ، إنما كن من الذين قال الله لهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ .. ﴾ (٢٦٧) [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ ۖ ﴾ [الحج] أى : اذكروا الله بالشكر على أن وهبها وذللها لكم ، واذكروا اسم الله عليها حين ذبحها .

(١) ورد في هذه الكلمة عدة قراءات منها :

- صَوَافٍ : أى : قياماً على ثلاث قوائم معقولة يدها اليسرى . عن ابن عباس ومجاهد وعلى بن أبى طلحة ، وهي قراءة الجمهور .
- صَوَافٍ : جمع صافنة ، وهي التي قد رفعت إحدى يديها بالعقل لثلاث ثغرات عن ابن مسعود وابن عباس وابن عمر .
- صَوَافٍ : أى : خوالص لله عز وجل ، لا يشركون به في التسمية على تحريم أحد . عن الحسن والأعرج ومجاهد وزيد بن أسلم وأبى موسى الأشعري .

- صَوَافٍ : وهي بمعنى التي قبلها . عن الحسن البصري . [تفسير القرطبي ٤/٤٩٢]

- (٢) قال ابن كثير : القانع في الأصل السائل . وقال الحسن البصري فيمن رواه عنه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد : القانع الذي يقنع إليك بما في يديك . والمعتز الذي يتصدى إليك لتطعمه . ولقظ ابن أبى شيبة : والمعتز الذي يعتريك ، يريك نفسه ولا يسألك . [الدر المنثور للسيوطي ٦/٥٥] .

ومعنى ﴿صَوَافُ .. (٣٦)﴾ [الحج] يعنى : واقفة قائمة على أرجلها ، لا ضعف فيها ولا هزال ، مصفوفة وكأنها فى معرض أمامك . وهذه صفات البدن الجيدة التى تناسب هذه الشعيرة وتليق أن تقدم هدياً لبيت الله .

ومعنى : ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا .. (٣٦)﴾ [الحج] وجب الشيء وجباً يعنى : سقط سقوطاً قوياً على الأرض ، ومعلوم أن البدنة لا تدبح وهى ملقاة على الأرض مثل باقى الأنعام ، وإنما تنحدر وهى واقفة ، فإذا ما نُحِرت وقعت على الأرض وارتدت بقوة من بدانتها .

﴿فَكُلُّوا مِنْهَا .. (٣٦)﴾ [الحج] وقلنا : إن الأكل لا يكون إلا من الهدى المحض والتطوع الخالص الذى لا يرتبط بشيء من مسائل الحج ، فلا يكون هدى تمتع أو قرآن ، ولا يكون جبراً لمخالفة ، ولا يكون نذراً .. إلخ .

وعلة الأمر بالأكل من الهدى : لأنهم كانوا يتنافسون أن يأكلوا من المذبوح للفقراء ، وكان فى الأمر بالأكل منها إشارة لوجوب اختيارها مما لا تعافه النفس .

ومعنى : ﴿الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ .. (٣٦)﴾ [الحج] القانع : الفقير الذى يتعفف أن يسأل الناس ، والمعتَر : الفقير الذى يتعرض للسؤال .

ثم يقول سبحانه : ﴿كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦)﴾ [الحج] يعنى : سَخَرْنَاهَا لَكُمْ ، ولو فى غير هذا الموقف ، لقد سَخَرْنَاهَا لَكُمْ مِنْذُ وَجَدَ الْإِنْسَانُ ؛ لذلك عليكم أن تشكروا الله على أن أوجدها وملأكم إياها ، وتشكروه على أن سَخَرْنَاهَا وَنَلَّلْنَاهَا لَكُمْ ، وتشكروه على أن هداكم لقيام بهذا المنسك ، وأداء هذه الشعيرة وعمل هذا الخير الذى سيعود عليكم بالنفع فى الدنيا وفى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ
مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِشُكْرِكُمْ وَآلِلَهُ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمْ
وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٧)

ذلك لانهم كانوا قبل الإسلام حين يذبحون للأوثان يُلَطِّخُونَ
الصنم بدماء الذبيحة^(١) ، كانوا يقولون له : لقد ذبحنا لك ، وما هي
دماء الذبيحة ، وفي هذا العمل منهم دليل على غيبتهم وحُفُوقِ
تصرفهم ، فهم يرون أنهم إذا لم يُلَطِّخُوهُ بالدم ما عرف أنهم ذبحوا
من أجله .

وهنا ينبه الحق - سبحانه وتعالى - إلى هذه المسألة : ﴿لَنْ يَنَالَ
اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا ..﴾ (٣٧) [الحج] يعنى : لا يأخذ منها شيئاً ،
وهو سبحانه قادر أن يعطى الفقير الذى أمر أن تعطيه ، ويجعله
مثلك تماماً غير محتاج .

إنما أراد سبحانه من تباين الناس فى مسألة الفقر والغنى أن
يُحَدِّثَ تَوَازُناً فى المجتمع ، فالمجتمع ليس آلة ميكانيكية تسير على
وتيرة واحدة ، إنما هي حياة بشر لا بد أن تقوم على الحاجة وعلى
التكامل ، فلا بد من هذه التفاوتات بين الناس ، ثم تتدخل الشرائع
السمائية فتأخذ من القوى وتعطى الضعيف ، وتأخذ من الغنى وتعطى

(١) قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يُخْرِجُونَ البَيْتَ بدماء البُئِن ، فأراد المسلمون أن
يفعلوا ذلك ، فنزلت الآية . [تفسير القرطبي ٤/٤٥٩٦] وذكره السيوطى فى الدر
المنثور (٥٦/٦) من قول ابن عباس أيضاً وعزله لابن المنذر وابن مردويه .

الفقير... وساعتها ، نقضى على مشاعر الحقد والصد والبغضاء والأثرة .

فحين يعطى القوى الضعيف من قوته لا يحسده عليها ، ويتمنى له دوامها ؛ لأن خيرها يعود عليه ، وحين يعطى الغنى مما أفاض الله عليه للفقير يؤلف قلبه ، ويجتث منه الثقل والحسد ، ويدعو له بدوام النعمة .

لَا بد من هذا التفاوت ليستحقق قينا قول الرسول ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص ، يشد بعضه بعضاً »^(١) .

لذلك ، ترى صاحب النعمة الذى ينثر منها على غيره ، إن أصابته فى ماله مصيبة يحزن له الآخرون ويتألمون بآلمه ؛ لأن نعمته تفيض عليهم ، وخيره ينالهم . وأهل الريف إلى عهد قريب كان الواحد منهم يربى البقرة أو الجاموسة ؛ ليحلب لبنها ، وكان لا ينسى الجيران وأهل الحاجة ، فكانوا يدعون الله له أن يبارك له فى ماله ، وإن أصابته ضرأ فى ماله حزنوا من أجله .

إذن : حين تفيض من نعمة الله عليك على من حرم منها تدفع عن نفسك الكثير من الحقد والحسد ، فإن لم تفعل فلا أقل من إخفاء هذا الخير عن أعين المحتاجين حتى لا تثير حفاظهم ، وربما لو رآك الرجل العاقل يردعه إيمانه فلا تمتد عيناه إلى ما فى يمينك ، إنما حين يراك الأطفال الصغار تحمل ما حرموا منه ، أو رأوا ولدك يأكل وهم محرومون هنا تكون المشكلة وقوله تعالى :

﴿ وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ... ﴾ (٢٧) [الحج]

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٤٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه

(٢٥٨٥) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

واتقاء الله هو اتباع منهجه ، فيطاع الله باتباع المنهج فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، وطريق الطاعة يوجد في اتباع المنهج بـ « افعل » و « لا تفعل » ، ويذكر فلا ينسى ؛ لأن العبد قد يطيع الله وينفذ منهج الله ، ولكن النعم التي خلقها الله قد تشغل العبد عن الله ، والمنهج يدعوك أن تتذكر في كل نعمة من أنعم بها ، وإياك أن تنسيك النعمة المنعم .

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٧) [الحج]

تلاحظ هنا مسألة المتشابهات في القرآن الكريم ، ففي الآية السابقة ذيلها الحق سبحانه بقوله : ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٦) [الحج]

هذه المتشابهات يقف عندها العلماء الذين يبحثون في القرآن ويقلبون في آياته ؛ لذلك يجمعون مثل هذه الآيات المتشابهة التي تتحدث في موضوع واحد ويرتبونها في الذهن ؛ لذلك لا يؤمنون على الحفظ ، ومن هنا قالوا : ينبغي لمن أراد حفظ القرآن أن يدع مسألة العلم جانباً أثناء حفظه ، حتى إذا نسي كلمة وقف مكانه لا يتزحزح إلى أن يعرفها ، أما العالم فربما وضع مرادفها مكانها ، واستقام له المعنى .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ لُتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ .. ﴾ (٣٧) [الحج] يعني : تذكرونه وتشكرونه على ما وفقكم إليه من هذه الطاعات ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٧) [الحج] بشر يعني : أخبر بشيء سار قبل مجيء زمنه ، ليستعد له المبشر ويفرح به ، كذلك الإنذار : أن تخبر بشيء سيء قبل حلوله أيضاً ؛ ليستعد له المنذر ، ويجد الفرصة التي

يتلافى فيها خطاه ، ويُجَنَّبُ نفسه ما يُنذَرُ به ، ويُقْبَلُ على ما يُنَجِّيه .

و ﴿ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٧) [الحج] : جمع مُحْسِنٍ ، والإحسان : أعلى مراتب الإيمان ، وهو أَنْ تُكْزِمَ نفسك بشيءٍ من طاعة الله التي فرضها عليك فوق ما فرض ، فربُّكَ عز وجل فرض عليك خمس صلوات في اليوم والليلة ، وفي إمكانك أَنْ تزيد من هذه الصلوات ما تشاء ، لكن من جنس ما فرض الله عليك ، لا تخترع أنت عبادة من عندك ، كذلك الأمر في الصوم ، وفي الزكاة ، وفي الحج ، وفي سائر الطاعات التي ألزمك الله بها ، فإن فعلت هذا فقد دخلت في مقام الإحسان .

وفي الإحسان أمران : مُحْسِنٌ به وهو العبادة أو الطاعة التي تُكْزِمُ نفسك بها فوق ما فرض الله عليك ، ودافعٌ عليه ، وهو أَنْ تؤدي العمل كأن الله يرقبك ، كما جاء في حديث جبريل : « والإحسان أَنْ تعبدَ الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(١) .

فمراقبتك لله ومراعيتك لنظره تعالى إليك ، يدفعك إلى هذا الإحسان ، ألا ترى العامل الذي تباشره وتشرف عليه ، وكيف يُنهي العمل في مواعده ؟ وكيف يُجيده ؟ على خلاف لو تركته وانصرف عنه .

فإن لم تصل إلى هذه المرتبة التي كأنك ترى الله فيها ، فلا أقل من أَنْ تتذكر نظره هو إليك ، ومراقبته سبحانه لحركاتك وسكناتك .

لذلك ، في سورة الذاريات : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (١٥) أَخَذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ (١٦) [الذاريات]

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم في صحيحه (٨) كتاب الإيمان من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ثُمَّ يُفَسِّرُ سَبَبَ هَذَا الْإِحْسَانِ : ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) [الذاريات]

وَمَنْ يُلْزِمُكَ بِهَذِهِ التَّكَالِيفِ ؟ لَكَ أَنْ تَصَلِيَ الْعِشَاءَ ثُمَّ تَنَامَ إِلَى الْفَجْرِ ، كَذَلِكَ لَمْ يُلْزِمُكَ بِالِاسْتِغْفَارِ وَقْتُ السَّحَرِ ، وَلَمْ يُلْزِمُكَ بِصَدَقَةِ التَّطَوُّعِ . إِنْ : هَذِهِ طَاعَاتٌ فَوْقَ مَا فَرَضَ اللَّهُ وَصَلَتْ بِأَصْحَابِهَا إِلَى مَقَامِ الْإِحْسَانِ ، وَأَعْلَى مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ ، فَلْيُشْمَرْ لَهَا مَنْ أَرَادَ .

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ

خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (٢٨)

صَدَّرَ الْآيَةَ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ..﴾ (٢٨) [الحج] يُشْعِرُنَا أَنَّ هُنَاكَ مَعْرَكَةً ، وَالْمَعْرَكَةُ الَّتِي يُدْفِعُ اللَّهُ فِيهَا لِأَبَدٍ أَنَّهَا بَيْنَ حَقِّ أَنْزَلِهِ ، وَبَاطِلِ يُوَاجِهِهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ قَبْلَ ذَلِكَ أَنْ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿هَٰذَا نِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ..﴾ (١٩) [الحج]

وَمَا دَامَ أَنَّ هُنَاكَ خُصُومَةً فَلَا بُدَّ أَنْ تَنْشَأَ عَنْهَا مَعَارِكٌ ، هَذِهِ الْمَعَارِكُ قَدْ تَأْخُذُ صُورَةَ الْأَلْفَافِ وَالْمَجَادِلَةِ ، وَقَدْ تَأْخُذُ صُورَةَ الْعَنْفِ وَالْقُوَّةِ وَالشَّرَاسَةِ وَالِالْتِحَامِ الْمُبَاشِرِ بِأَدْوَاتِ الْحَرْبِ .

وَمَعْرَكَةُ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ مُعَارِضِيهِ مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ لَمْ تَقِفْ عِنْدَ حَدِّ الْمَعْرَكَةِ الْكَلَامِيَّةِ فَحَسِبَ ، فَقَدْ قَالُوا عَنْهُ : صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ : سَاحِرٌ ، وَكَاهِنٌ ، وَمَجْنُونٌ ، وَشَاعِرٌ ، وَمُفْتَنٌ .. إلخ ثُمَّ تَطَوَّرَ الْأَمْرُ إِلَى إِيْذَاءِ أَصْحَابِهِ وَتَعْذِيبِهِمْ ، فَكَانُوا يَأْتُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَشْدُوحِينَ

ومجروحين فيقول لهم ﷺ : « لم أؤمر بقتال ، اصبروا اصبروا ، صبراً صبراً .. » .

إلى أن زاد اعتداء الكفار وطفح الكيل منهم أذن الله لرسوله بالقتال ، فقال : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٢٩) ﴾ [الحج]

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٢٨) ﴾ [الحج] صيغة يدافع : مبالغة من يدفع ، معنى يدفع يعنى : شيئاً واحداً ، أو مرة واحدة ، وتنتهى المسألة ، أما يدافع فتدل على مقابلة الفعل بمثله ، فالله يدفعهم وهم يقابلون أيضاً بالمدافعة ، فيحدث تدافع وتفاعل من الجانبين ، وهذا لا يكون إلا فى معركة .

والمعركة تعنى : منتصر ومنهزم ، لذلك الحق - تبارك وتعالى - يطمئن المؤمنين أنه سيدخل المعركة فى صفوفهم ، وسيدافع عنهم .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٢٨) ﴾ [الحج] أمر طبيعى ؛ لأن الحق سبحانه ما كان ليُرسل رسولا ، ويتركه لأهل الباطل يتغلبون عليه ، وإلا فما جدوى الرسالة إذن ؛ لذلك يطمئن الله تعالى رسوله ويُبشّره ، فيقول :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الأنعام]

وقال : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ .. (٤٠) ﴾ [الحج]

وقال : ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) ﴾ [محمد]

فهذه كلها آيات تطمئن المؤمنين وتُبشّرهم ، وقد جليت على

مراحل لحكمة أرادها الحق سبحانه ، فمنعهم عن القتال في البداية لحكمة ، ثم جعل القتال فيما بينهم ، وقبل أن يأذن لهم في قتال أعدائهم لحكمة : هي أن يئلوا المؤمنين ويمحصهم ليخرج من صفوفهم أهل الخور والجبن ، وضعيفي الإيمان الذين يعبدون الله على حرف ، ولا يبقى بعد ذلك إلا قوى الإيمان ثابتة العقيدة ، الذي يحمل راية هذا الدين وينساح بها في بقاع الأرض ؛ لأنها دعوة عالمية لكل زمان ولكل مكان إلى أن تقوم الساعة ، ولما كانت هذه الدعوة بهذه المنزلة كان لا بد لها من رجال أقوياء يحملونها ، وإلا لو استطاع الأعداء القضاء عليها فلن تقوم لدين الله قائمة .

إذن : كان لا بد أن يُصفى الحق سبحانه أهل الإيمان كما يُصفى الصائغ الذهب ، ويُخرج خبثه حين يضعه في النار ، كذلك كانت الفتن والابتلاءات لتصفية أهل الإيمان وتمييزهم ، لكن بالقتال في صف واحد .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج] فكان الحق - سبحانه وتعالى - أصبح طرفاً في المعركة ، والخوَّان : صيغة مبالغة من خائن ، وهو كثير الخيانة وكذلك كفور : صيغة مبالغة من كافر .

ومعنى الخيانة يقتضى أن هناك أمانة خانها . نعم ، هناك الأمانة الأولى ، وهى أمانة التكليف التى قال الله فيها : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ..﴾ [الأحزاب] فلقد خان هذه الأمانة بعد أن رضى أن يكون أهلاً لها .

وهناك أمانة قبل هذه ، وهي العهد الذي أخذه الله على عباده ،
 وهم في مرحلة الذَّرِّ^(١) : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
 وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ^(٢) شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً
 مِنْ بَعْدِهِمْ .. ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف]

فإن قالوا : نعم هذه أمانة ، لكنها بعيدة ، ومن منا يذكرها الآن ؟
 نقول : ألم تُقرُّوا بأن الله خلقكم ، وأوجدكم من عدم .. وأمدكم
 من عدم ؟ كما قال سبحانه : ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ..
 ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف] كما أقرُّوا بخلق السماوات والأرض وما فيها من
 خيرات لله عز وجل ، فكان وفاء هذا الإقرار أن يؤمنوا ، لكنهم مع
 هذا كله كفروا ، أليست هذه خيانة للأمانة عاصروها جميعاً وعاشوها
 وأسهموا فيها ؟

والكفور : مَنْ كَفَرَ نَعَمَ الله وَجَحَدَهَا .
 وما دام هناك الخوآن والكفور فلا بُدَّ للسماء أن تُؤيِّد رسولها ،
 وأن تنصره في هذه المعركة أولاً ، بأن تأذن له في القتال ، ثم تأمره
 بأخذ العُدَّة والأسباب المؤدية للنصر ، فإن عزَّت المسائل عليكم ، فإنا
 معكم أُوَيْدُكُمْ بجنود من عندي .

(١) الذَّرُّ في اللغة : صفار النمل ، واحداً ذَرَّةً . وذَرَّ الله الخلق في الأرض : نشرهم .
 والذرية : فعلية منه ، وهي منسوبة إلى الذر الذي هو النمل الصفار . [لسان العرب -
 مادة : ذرر] .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٢٦١/٢) : « وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم
 عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وفي بعضها الاستشهاد
 عليهم بأن الله ربهم .. وقد قال قائلون من السلف والخلف أن المراد بهذا الإشهاد إنما هو
 فطرهم على التوحيد » .

وقد حدث هذا في بدء الدعوة ، فأيد الله نبيه بجنود من عنده ^(١) ، بل أيده حتى بالكافر المعاند : ألم يكن دليل ^(٢) رسول الله في الهجرة كافرًا ؟ ألم ينصره الله بالحمام وبالعنكبوت وهو في الغار ؟ ألم ينصره بالأرض التي ساخت تحت أقدام فرس « سُرَاقَة » ^(٣) الذي خرج في طلبه ؟

هذه جنود لم نرها ، ولم يؤيد بها رسول الله ﷺ إلا بعد أن استنفد أسبابه ، ولو أراد سبحانه لَطَوَّعَ لرسوله هؤلاء المعاندين ، فما رفع أحد منهم رأسه بعناد لمحمد ، إنما الحق - تبارك وتعالى - يريد أن يعطيه طواعية ويخضع له القوم ، ألم يقل سبحانه وتعالى : ﴿ إِن نُّشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ ^(٤) [الشعراء]

وقلنا : إن الله تعالى يريد أن يخضع قلوب عباده لا قوالبهم ، فلو أخضعهم الله بآية كونية طبيعية كالريح أو الصاعقة أو الخسف ، أو غيره من الآيات التي أخذت أمثالهم من السابقين لقالوا : إنها آفات طبيعية جاءتنا ، لكن جعل الله بين الفريقين هذه المواجهة ، ثم يسر لحزبه وجنوده أسباب النصر .

(١) قال تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْسِلِينَ ﴾ ^(١) وما جعله الله إلا بشرى وقطعتن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله .. ^(٢) [الأنفال] . وفي آيات أخرى يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفَكَّرُونَ ﴾ ^(٣) إذ تقول للمؤمنين ألن يكفئكم أن يمددكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ^(٤) بلى إن تصبروا وتيقنوا وباتواكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ^(٥) ﴿ [آل عمران] .

(٢) هو عبد الله بن أرقط ، وهو رجل من بني النخل بن بكر ، وكانت أمه امرأة من بني سهم ابن عمرو ، وكان مشركاً يدلها على الطريق ، فدفعها إليه راحتيهما ، فكانتا عنده يرعاها لميعادهما . [سيرة ابن هشام ٢/٤٨٥] .

(٣) هو : سراقه بن مالك بن جعشم المنلجي الكناني ، صحابي ، له شعر ، كان ينزل قديداً ، كان في الجاهلية قاتلاً (قصاصاً للأثر) أخرجه أبو سفيان ليقتاف أثر الرسول ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبي بكر . أسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨ هـ . توفي ٢٤ هـ . [الاعلام للزركلي ٣/٨٠] .

قال سبحانه : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَبْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١٤)
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٣٩)

ودفاع الحق سبحانه عن الحق يأخذ صوراً متعددة ، فأول هذا الدفاع : أن أذن لهم في أن يقاتلوا . ثانياً : أمرهم بإعداد القوة للقتال : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ .. ﴾ (١٤) [الأنفال]
والمراد أن يأخذوا بكل أسباب النصر على عدوهم ، وأن يستنفدوا كل ما لديهم من وسائل ، فإن استنفدتم وسائلكم ، أتدخل أنا بجنود من عندي لا ترونها ، فليس معنى أن الله يدافع عن الذين آمنوا أن تدخل السماء لحمايتهم وهم جالسون في بيوتهم ، لا إنما يأخذون بأسباب القوة ويسعون ويبادرون هم أولاً إلى أسباب النصر .

ومعنى ﴿ أَذِنَ .. ﴾ (٣٩) [الحج] أنهم كانوا ينتظرون الأمر بالقتال ، ويستشرفون للنصر على الأعداء ، لكن لم يؤذن لهم في ذلك ، فلما أراد الله لهم أن يقاتلوا أذن لهم فيه ، فقال تعالى : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٣٩) [الحج]

وعلة القتال أنهم ظلموا ، لذلك أمرهم ربهم - تبارك وتعالى - أن يقاتلوا ، لكن لا يعتدوا ، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١٩٠) وأقتلهم حيث تقتلهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم .. (١٩١) [البقرة]

إذن : أمرهم أولاً بالصبر ، وفي المرحلة الأولى بأن يقاتلوا لردّ العدوان ، وللدفاع عن أنفسهم دون أن يعتقدوا ، وفي المرحلة الثانية سيقول لهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٢٣) [التوبة]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَعْوِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٣٩) [الحج] بأسباب يُمكنهم منها ، أو بغير أسباب فتاتيههم قوة خفية لا يرونها ، وقد رأوا نماذج من ذلك فعلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَلَدَتْ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصُلُوتٌ وَمَسْجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

فلو أنهم أُخرجوا بحق كان فعلوا شيئاً يستدعى إخراجهم من ديارهم ، كان خدشوا الحياء ، أو هددوا الأمن ، أو أجزموا ، أو خرجوا على قوانين قبائلهم لكان إخراجهم بحق .

إنما الواقع أنهم ما فعلوا شيئاً ، وليس لهم ذنب ﴿ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا

(١) البيعة : كنيسة النصارى ، والجمع بيع . قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه عبد بن حميد وابن جرير . وقال أيضاً : الصوامع : التي تكون فيها الرهبان ، والبيع : مساجد اليهود . وصلوات : كنائس النصارى ، والمساجد : مساجد المسلمين . [الدر المنثور للسيوطي ٥٩/٦] .

رَبَّنَا اللَّهُ .. ﴿٤٠﴾ [الحج] هذه العقولة اعتبرها القوم ذنباً وجريمة تستحق أن يخرجوهم بها من ديارهم .

كما قال سبحانه في أهل الاخدود : ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (٨) [البروج]

وفي آية أخرى : ﴿هَلْ تَقْمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ ..﴾ (٥٩) [المائدة]
وفي قصة لوط عليه السلام : ﴿قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ (٥٦) [النمل]

إذن : أخرجوهم ، لا لانهم أهل نجاسة ومعصية ، إنما لانهم أناس يتطهرون ، فالطهارة والعفة جريمتهم التي يُخْرَجُونَ من أجلها !! كما تقول : لا عيب في فلان إلا أنه كريم ، أو تقول : لا كرامة في فلان إلا أنه لص . فهذه - إذن - صفة لا تمدح ، وتلك صفة لا تدم .

لقد قلب هؤلاء الموازين ، وخالفوا الطبيعة السوية بهذه الأحكام الفاسدة التي تدل على فساد الطبع ، وإى فساد بعد أن قلبوا المعايير ، فكرهوا ما يجب أن يُحِب ، وأحبوا ما يجب أن يكره ؟ ولا أدل على فساد طبائعهم من عبادتهم لحجر ، وتركهم عبادة خالق السماوات والأرض .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ..﴾ (٤٠) [الحج]

وفي آية أخرى يُبَيِّن الحق سبحانه نتيجة انعدام هذا التدافع : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ..﴾ (٢٥١) [البقرة]
والفساد إن حدث بين الناس في حركة الحياة فيمكن أن يُعَوَّض ويُتدارك ، أما إن تعدى الفساد إلى مقومات اليقين الإيماني في الأرض

فكره الناس ما يربطهم بالسماء ، وهدموا أماكن العبادة ، فهذه الطامة والفساد الذى لا صلاح بعده ، فكان الآيتين تصوران نوعاً من الإيغال فى الفساد ، والاتضاع فى الجرائم .

وتفسد الأرض حين ينعدم هذا التدافع ، كيف ؟ هب أن ظالماً مستبداً فى بلد ما يستعبد الناس ويمتنص خيراتهم بل ودماءهم دون أن يردّه أحد ، لا شك أن هذا سيحدث فى المجتمع تهاوناً وفوضى ، ولن يجتهد أحد فوق طاقته ، ولمن سيعمل وخيره لغيره ؟ وهذا بداية الفساد فى الأرض .

فإن قلنا : هذا فساد بين الناس فى حركة حياتهم يمكن أن يصلح فيما بعد ، فما بالك إن امتد الفساد إلى أماكن الطاعات والعبادات ، وقطع بين الناس الرباط الذى يربطهم بالسماء ؟

إن كان الفساد الأول قابلاً للإصلاح ، ففساد الدين لا يصلح ، لأنك خربت الموازين التى كانت تنظم حركة الحياة ، فأصبح المجتمع بلا ميزان وبلا ضوابط يرجع إليها .

ونلاحظ فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ .. ﴾ [الحج] جاءت قضية عامة لكل الناس ، فلم يخص طائفة دون أخرى ، فلم يقل مثلاً : لولا دفع الله الكافرين بالمؤمنين ، إنما قال مطلق الناس ؛ لأنها قضية عامة يستوى فيها الجميع فى كل المجتمعات .

كذلك جاءت كلمة (بعض) عامة ؛ لتدل على أن كلا الطرفين صالح أن يكون مدفوعاً مرة ، ومدفوعاً عنه أخرى ، فهم لبعض بالمرصاد : من أفسد يتصدى له الآخر ليوقفه عند حده ، فليس المراد أن طائفة تدفع طائفة على طول الخط .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. ﴾ (٣٧) [الزخرف] دون أن يُحدِّد أيهما مرفوع ، وأيها مرفوع عليه ؛ لأن كلا منهما مرفوع في شيء ، ومرفوع عليه في شيء آخر ؛ ذلك لأن العباد كلهم عيال الله ، لا يُحابي منهم أحداً على أحد .

انظر الآن إلى قوة روسيا في الشرق وقوة أمريكا في الغرب ، إنهما مثال لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ .. ﴾ (٤٠) [الحج] فكلُّ منهما تقف للأخرى بالمرصاد ، ترقبها وترصد تحركاتها وتقدمها العسكري ، وكان الله تعالى جعلهما لحماية سلامة الآخرين أن تقف كلُّ منهما موقف الحذر والخوف من الأخرى .

وهذا الخوف والترقب والإعداد هو الذي يمنع اندلاع الحرب بينهما ، فما بالك لو قامت بينهما حرب أسفرت عن منتصر ومهزوم ؟ لا بدُّ أن المنتصر سيعيثُ في الأرض فساداً ويستبد بالآخرين ، ويستشري ظلُّمه لعدم وجود من يُردعه .

ومن رَحمة الله بالمؤمنين أن يكيد الظالمين بالظالمين بكل ألوانهم وفنونهم ، ويؤدب الظالم بمن هو أشد منه ظلماً ؛ ليظلَّ أهل الخير بعيدين عن هذه المعركة ، لا يدخلون طرفاً فيها ؛ لأن الأخيار لا يصمدون أمام هذه العمليات ، لأنهم قوم رفاق القلوب ، لا تناسبهم هذه القسوة وهذه الغلظة في الانتقام .

اقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَكِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١٢٩) [الأنعام]

وهكذا يُوفِّر الله أهل الخير ، ويحقن دماءهم ، ويريح أوليائه من مثل هذه الصراعات الباطلة .

لذلك لما دخل النبي ﷺ مكة دخول المنتصر ، بعد أن أخرجه

قومه منها ، وبعد أن فعلوا به وبأصحابه الأفاعيل ، كيف دخلها وهو القائد المنتصر الذي تمكّن من رقاب أعدائه ؟

دخل رسول الله ﷺ مكة مطأطئ الرأس ، حتى لتكاد رأسه تلمس قربوس^(١) السرج الذي يجلس عليه ، تواضعاً منه ﷺ ، ومع ذلك قال أبو سفيان لما رأى رسول الله في هذا الموقف ، قال للعباس : لقد أصبح مُلكُ ابن أخيك عظيماً^(٢) .

وبعد أن تمكّن رسول الله من كفار مكة ، وكان باستطاعته القضاء عليهم جميعهم ، قال : « يا معشر قريش ، ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء »^(٣)

فأي رحمة هذه ؟ وأي لين هذا الذي جعله الله في قلوب المؤمنين ؟ وهل مثل هذا الدين يُعارض ويُنصرف عنه ؟

إذن : يُسلط الحق - تبارك وتعالى - الأشرار بعضهم على بعض ، وهذه آية نراها في الظالمين في كل زمان ومكان ، ويجلس الأخيار يرقبون مثل هذه الصراعات التي يهلك الله فيها الظالمين بالظالمين .

(١) القربوس : جنو السرج . وجنو كل شيء : اعوجاجه . فجنو الرجل والسرج : كل عود معوج من عيدانه . [لسان العرب - مادتا : قريس ، حنا] . وقد ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (٤٠٥/٤) « أن رسول الله ﷺ كان يضع رأسه تواضعاً لله . حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عثونه (طرف لحيته) ليكاد يمسّ واسطة الرجل » .
(٢) قال أبو سفيان حين مرّت أمامه جيوش المسلمين يوم فتح مكة : ما لأحد بهؤلاء قبيل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلكُ ابن أخيك الغداة عظيماً . قال العباس : يا أبا سفيان إنها النبوة . قال : فنعم إذن .

(٣) قال ابن إسحاق : حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام في خطابه على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر وعيده ، وهزم الأحزاب وحده ، إلى أن قال : ما ترون أني فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء » [السيرة النبوية لابن هشام ٤١٢/٤] .

ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿ أَهْدَيْتَ صَوَامِعَ وَبِيعَ .. ﴾ (٤٠) [الحج]
صوامع جمع صومعة ، وهي مكان خاص للعبادة عند النصارى ،
وعندهم متعبد عام يدخله الجميع هو الكنائس ، أما الصومعة فهي
مكان خاص لينفرد فيه صاحبه وينقطع للعبادة ، ولا تكون الصومعة
في حضر ، إنما تكون في الجبال والأودية ، بعيداً عن العمران لينقطع
فيها الراهب عن حركة حياة الناس ، وهي التي يسمونها الأديرة
وتوجد في الأماكن البعيدة .

وقد حرم الإسلام الرهبانية بهذا المعنى ، لأنها رهبانية ما شرعها
الله ، كما قال سبحانه : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ^(١) ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ
رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا .. ﴾ (٢٧) [الحديد]

ومعنى : ﴿ وَبِيعَ .. ﴾ (٤٠) [الحج] البيع هي الكنائس .
فالحق - سبحانه وتعالى - ما نعى عليهم الانقطاع للعبادة ، لكن
نعى عليهم انقطاعهم عن حركة الحياة ، وأسباب العيش ؛ لذلك قال :
﴿ فَمَا رَعَوْهَا ^(٢) حَقَّ رِعَايَتِهَا .. ﴾ (٢٧) [الحديد]

وقد أباح الإسلام أيضاً الترهّب والانقطاع للعبادة ، لكن شريطة
أن تكون في جلوة يعنى : بين الناس ، لا تعتزل حركة الحياة ، إنما
تعبد الله في كل حركة من حركات حياتك ، وتجعل الله تعالى دائماً
في بالك ونُصَب عَيْنِكَ في كُلِّ مَا تَأْتِي ، وفي كل ما تدع ، إذن :

(١) الترهّب : التعبد ، كانوا يترهبون بالتخلي من أشغال الدنيا ، وترك ملاذها والزهد فيها ، والعزلة
عن أهلها وتعهّد مشاقها ، حتى إن منهم من كان يخصى نفسه ويضع السلسلة في عنقه وغير
ذلك من أنواع التعذيب ، والراهب : هو المتعبد في الصومعة . [لسان العرب - مادة : رهب] .
(٢) أى : فما قاموا بما التزموه حق القيام وهذا ذم لهم من وجهين : أحدهما : الابتداء في دين الله
ما لم يأمر به الله . والثاني : في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز
وجل . قاله ابن كثير في تفسيره (٢١٥ / ٤) .

هناك فرق بين مَنْ يعبد الله في خَلْقِهِ ، وَمَنْ يعبد الله في جَلْوَتِهِ .
لذلك سيدنا عمر - رضى الله عنه - قال عن الرجل الذى لازم
المسجد للعبادة وعرف أن أخاه يتكفل به وينفق عليه ، قال : أخوه
أعبد منه . كيف ؟

قالوا : لأنك تستطيع أن تجعل من كل حركة لك فى الحياة
عبادة ، حين تُخلص النية فيها لله عز وجل . ولك أن تقارن بين مؤمن
وكافر ، كلاهما يعمل ويجتهد ليَقُوتَ نفسه وأهل بيته ، ويحيا الحياة
الكريمة ، وهذا هدف الجميع من العمل ، لكن لو أن المؤمن اقتصر
فى عمله على هذا الهدف لاحتوى مع الكافر تماما .

إنما للمؤمن فوق هذا مقاصد أخرى تكمن فى نيته وضميره ، المؤمن
يفعل على قَدْر طاقته ، لا على قَدْر حاجته ، ثم يأخذ ما يحتاج إليه وينفق
من الباقي ويتصدق على مَنْ لا يقدر على الحركة الحياتية .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ
هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ
لِلزُّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) ﴾ [المؤمنون] هل يعنى : مُؤَدُّون فقط ؟ لا ، بل إن
المؤمن يتحرك ويعمل ويسعى ، وفى نيته مَنْ لا يقدر على السعى
والعمل ، فكانه يُقبل على العمل ويجتهد فيه ، وفى نيته أن يعمل
شيئا لله بما يفيض عن حاجته من ناتج عمله وهذا ما يُمَيِّز المؤمن فى
حركة الحياة عن الكافر .

وأذكر مرة أننا جئنا من الريف فى الشتاء فى الثلاثينيات لزيارة
سيدنا الشيخ الحافظ التيجانى ، وكان مريضاً - رحمه الله ورضى الله
عنه - وكان يسكن فى حارة ، وفضلنا أن نأخذ (تاكسى) يوصلنا
بدل أن نمشى فى وحل الشتاء ، وعند مدخل الحارة رفض سائق

(التاكسي) الدخول وقال : إن أجرة التوصيل لا تكفي لغسيل السيارة وتنظيفها من هذا الوحل ، وبعد إلحاح وافق وأوصلنا إلى حيث نريد ، فأعطيناه ضِعْف أجرته ، لكنني قبل أن أنصرف قلتُ له : أنت لماذا تعمل على هذا (التاكسي) ولماذا تتعب ؟ قال : من أجل مصالحي ومصالح أولادي ، فقلت له : وما يُضيرك إن زِدْتَ على ذلك وجعلتُ في نيتكم أن تُيسَّر بعملك هذا على الناس ؟ فاهتمَّ الرجل ولبسته الكلمة فقال : والله لا أردُّ راكباً أبداً .

ومعنى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ (٤) [المؤمنون] لم يقل مؤدون : لأن ﴿فَاعِلُونَ﴾ (٤) [المؤمنون] تعنى : أن نيتهم في الفعل أن يفعلوا على قدر طاقتهم ويجتهدوا لتوفير شيء بعد نفقاتهم يتصدقون منه .

إذن : حُرِّم الإسلام الرهبانية التي تحرم المجتمع من مشاركة الإنسان فقال ﷺ : « لا رهبانية في الإسلام »^(١) لأنه اعتبر كل حركة مقصود منها صالح المجتمع كله حركة إيمانية عبادية ، ومن هنا كان العمل عبادة .

وقد وضع العلماء شروطاً لمن أراد الانقطاع للعبادة : أولها : ألا يأخذ نفقته من أحد ، بمعنى أن يعمل أولاً ليُوَفَّر احتياجاته طوال فترة انقطاعه ، وصدق (إقبال) حين قال :

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء (٣١٥٤) : « قال ابن حجر : لم أره بهذا اللفظ ، لكن في حديث سعد بن أبي وقاص عند البيهقي : « إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة » . وقد أخرج أحمد في مسنده (٢٢٦/٦) من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « إن الرهبانية لم تكتب علينا » .

لَيْسَ زُهْدًا تَصِوْفٌ مِنْ تَقَى فَرَّ مِنْ غَمْرَةِ الْحَيَاةِ بِدِينِ
 إِنَّمَا يُعَرَفُ التَّصَوُّفُ فِي الْـ سُوقِ بِمَالٍ وَمَطْمَعٍ وَفُتُونِ
 ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿وَصَلَّوْا... (٤٠)﴾ [الحج] وهذه لليهود يُسْمُونَ
 مكاناً للتعب : صَلَوَاتًا . لكن ، لعاناً لم يرتبها القرآن ترتيباً زمنياً ،
 فيقول : لهدمت صلوات و صوامع وبيع ؟ قالوا : لأن القرآن يُورِّخُ
 للقريب منه فالأبعد .

﴿وَمَسَاجِدُ... (٤٠)﴾ [الحج] وهذه للمسلمين ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ
 كَثِيرًا... (٤٠)﴾ [الحج]

وما دام الحق سبحانه ذكر المساجد بعد الفعل ﴿لَهْدِمَتْ... (٤٠)﴾ [الحج] فهذا دليل على أنه لا بُدَّ أن يكون للمسلمين مكان يُحَكَّرُ
 للعبادة ، وإنْ جُعِلَتْ الأرض كلها لهم مسجداً وطهوراً ، ومعنى ذلك
 أن تصلى في أي بقعة من الأرض ، وإنْ عُدِمَ الماء تنظف بترابها ،
 وبذلك تكون الأرض مَحَلًّا للعبادة وَمَحَلًّا لحركة الحياة والعمل
 والسَّعْيِ ، فيمكنك أن تباشر عملك في مصنعك مثلاً وتُصَلِّيَ فيه ،
 لكن الحق سبحانه يريد منا أن نُخَصِّصَ بعض أرضه ليكون بيتاً له
 تنقطع منه حركة الحياة كلها ، ويُوَقَّفَ فقط لأمور العبادة .

لذلك قال ﷺ : « مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا وَلَوْ كَمِثْخَصِ قِطَاةٍ ^(١) بَنَى
 اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ » ^(٢)

(١) القِطَاة : طائر ، سُمِّيَ بذلك لِثِقَلِ مَشْيِهِ . [لسان العرب - مادة : قِطَا] ومفخص القِطَاة :
 حيث تُفَرِّخُ فيه من الأرض . والأفحوص : مَبْيِضُ القِطَاةِ لأنها تفحص الموضع ثم تبيض
 فيه ، وكذلك هو للدجاجة [لسان العرب - مادة : فحوص] .
 (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤١/١) عن ابن عباس ، وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء
 (٢١٧/٤) من حديث أبي ذر ، وكذا (٢٤/٥) من حديث أبي بكر الصديق .

فقله تعالى : ﴿لَهْدَمْتُ .. وَمَسَاجِدُ ..﴾ [الحج] تدل على مكان خاص للعبادة وإلا لو اعتُبرت الأرض كلها مسجداً ، فماذا تهدم ؟

وعليه ، فكل مكان تُزاول فيه أمورٌ غير العبادة لا يُعتبر مسجداً ، كما أماكن الصلاة التي يتخذونها تحت العمارات السكنية ، هذه ليست مساجد ، والصلاة فيها كالصلاة في الشارع وفي البيت ؛ لأن المسجد (مكان) وما يُبنى عليه (مكين) .

والمسجدية تعنى : المكان من الأرض إلى السماء ، بدليل أننا في بيت الله الحرام نصلى فوق سطح المسجد ، ونتجه لجو الكعبة ، لا للكعبة ذاتها ، لماذا ؟ لأن جو الكعبة إلى السماء كعبة ، وكذلك لو كنا في مخابىء أو في مناجم تحت الأرض ؛ لأن ما تحت الكعبة من الأرض كعبة . وكذلك في المسعى إذا ضاق الدور الأول يسعى الناس في الثاني وفي السطح ، لأن جو المسعى مسعى .

إذن : المسجد ما حُكر للعبادة ، وخصّص للمسجدية من أرضه إلى سمائه ، وهذا لا يُمارس فيه عمل دنيوى ولا تُعقد فيه صفقة .. إلخ .

أما أن نجعل المسجد تحت عمارة سكنية ، وفوق المسجد مباشرة يباشر الناس حياتهم ومعيشتهم بما فيها من هرج ولهو ، حلال وحرام ، وطهارة ونجاسة ، ومعاشرة زوجية .. إلخ فهذا كله يتناقى مع المسجدية التي جعلها الله حُكراً للعبادة من الأرض إلى السماء . فلنُسَمِّ هذه الأماكن : مُصَلًى . ولا نقول : مسجد .

ثم يصف الحق سبحانه المساجد بقوله : ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمَ اللَّهِ كَثِيراً ..﴾ [الحج] لأن ذكراً الله في المساجد دائم لا ينقطع ، ونحن لا نتحدث عن مسجد ، ولا عن مساجد قُطِر من الأقطار ، إنما المراد

مساجد الدنيا كلها من أقصى الشرق لأقصى الغرب ، ومن الشمال للجنوب .

ولو نظرت إلى أوقات الصلوات لرأيت أنها مرتبطة بحركة الفلك وبالشمس في الشروق ، وفي الزوال ، وفي الغروب ، وباعتبار فارق التوقيت في كل بلاد الله تجد أن ذكر الله دائم لا ينقطع أبداً في ليل أو نهار ، فأنت تؤذن للصلاة ، وغيرك يقيم ، وغيركما يصلي ، أنت تصلي الظهر ، وغيرك يصلي الصبح أو العصر ، بل أنت في الركعة الأولى من الصبح ، وغيرك في الركعة الثانية ، أنت تركع وغيرك يسجد .

إذن : هي منظومة عبادية دائمة في كل وقت ، ودائرة في كل مكان من الأرض ، فلا ينفك الكون ذاكراً لله . اليس هذا ذكراً كثيراً ؟ ليست كلمة (الله أكبر) دائرة على السنة الخلق لا تنتهي أبداً ؟

ثم لما كان دفع الله الناس بعضهم ببعض ينتج عنه معركة تُسفر عن منتصر ومنهزم ، قال سبحانه : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ .. ﴾ [الحج] فإن كان التدافع بين الكفار فإنه لا ينتهي ، وإن كان بين حق لله وباطل حكم الله بأنه باطل لا بد أن تنتهي بنصرة الحق ، وغالباً لا تطول هذه المعركة ؛ لأن الحق دائماً في حضانة الله ، إنما تطول المعارك بين باطل وباطل ، فليس أحدهما أولى بنصرة الله من الآخر ، فيظل كل منهما يطحن في الآخر ، وإن لم تكن حرباً ساخنة كانت حرباً باردة ، لماذا ؟ لأنه لا يوجد قوى لا هوى له يستطيع أن يفصل فيها ، وطالما تدخل الهوى تستمر المعركة .

يبقى في القسمة العقلية المعركة بين حق وحق ، وهذه لا وجود لها ؛ لأن الحق واحد في الوجود ، فلا يمكن أن يحدث تصادم أبداً بين أهل الحق .

والحق - تبارك وتعالى - في نُصْرته لأوليائه يستطيع أن ينصرهم دون حرب ، ويُهْلِك أعداءهم ، لكن الحق سبحانه يريد أن يأخذوا هم بأسباب النصر ؛ لذلك يُعَلِّمهم أصول هذه المسألة ، فيقول سبحانه :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ ^(١) فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُو بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ .. (٤) ﴾ [محمد]

ومعنى ﴿ أَثْخَنْتُمُوهُمْ .. (٤) ﴾ [محمد] يعنى : جعلتُمُوهم لا يقدرُونَ على الحركة ﴿ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ .. (٤) ﴾ [محمد] لا تُجْهِزُوا عليهم ، ولا تقتلُوهم ، إنما شُدُّوا قيودهم واستأسروهم ، وهذه من رحمة الإسلام وآدابه فى الحروب ، فليس الهدف القتل وإزهاق الأرواح ثم ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً .. (٤) ﴾ [محمد] مَنًّا إِنْ كَانَ هناك تبادل للأسرى . فأنت تمنُّ وهو يمنُّ . والفداء أن يفدى نفسه .

وكانت هذه المسألة حجة لنا حينما نتحدث عن الرقِّ فى الإسلام ، ونرد على هؤلاء الذين يصلُّو لهم اتهام الإسلام ، ويستخدمون فى ذلك السفسطة والمراوغة اللغوية لإقناع الناس بأن الإسلام ساهم فى نَشْرِ الرقِّ والعبودية .

ونقول : لقد جاء الإسلام والرق موجود ومنتشر لم يُشرعه الإسلام ، ولم يُوجِدهُ بداية ، حيث كانت أسباب الرق كثيرة ، وأسباب

(١) أَثْخَنْتَهُ الْجِرَاحُ : أَعْجَزَتْهُ عَنِ الْحَرَكَةِ أَوْ عَنِ الْقِتَالِ . [القاموس القويم ١٠٦/١] وقال أبو العباس : معناه غلبتهم وكثر فيهم الجراح . [لسان العرب - مادة : ثخن] .

الاستعباد متعددة : فَمَنْ تَحْمَلُ دَيْنًا وَعَجَزَ عَنْ سَدَادِهِ يُسْتَعْبَدُ لِمُصَاحِبِ الدِّينِ ، وَمَنْ عَمِلَ ذَنْبًا وَخَافَ مِنْ عِقَابِهِ أَخَذَهُ عَبْدًا ، وَمَنْ اخْتَطَفَهُ الْإِشْرَارُ فِي الطَّرِيقِ جَعَلُوهُ عَبْدًا .. إلخ .

فلما جاء الإسلام عمل على سَدِّ مَنَابِعِ الرِّقِّ هذه ، وجعل الرِّقَّ مقصوراً على الحرب المشروعة . ثم فتح عدة مصارف شرعية للتخلُّص من الرِّقِّ القائم ، حيث لم يَكُنْ موجوداً من أبواب العتق إلا إرادة السيد في أن يعتق عبده ، فأضاف الإسلام إلى هذا الباب أبواباً أخرى ، فجعل العتق كفارة لبعض الذنوب ، وكفارة لليمين ، وكفارة للظَّهَارِ^(١) ، وحثَّ على الصدقة في سبيل العتق ، ومساعدة المكاتب الذي يريد العتق ويسعى إليه .. إلخ .

فإذا لم تعتق عبدك ، فلا أقل من أن تطعمه من طعامك ، وتلبسه من ملبسك ، ولا تُحْمِلْهُ مَا لَا يَطِيقُ ، وَإِنْ حَمَلْتَهُ فَأَعْنِهِ ، وكما يقول النبي ﷺ « إِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ »^(٢) .

ونلاحظ على الذين يعيبون على الإسلام مسألة الرِّقِّ في الحروب أنهم يقارنون بين الرِّقِّ والحرية ، لكن المقارنة هنا ليست كذلك ،

(١) ظاهر من امراته ، قال لها أنها عليه كظهر أمه أو أخته أو غيرها من المحرمات فيحرمها ولا يطلقها . وكان العرب يفعلون ذلك إيذاءً لهن وإضراراً فلما اشتكت الزوجة التي ظاهرها زوجها للنبي ﷺ نزلت الآيات تنظم الظهار ، فإما طلاق أو كفارة كبرى إذا رغب في العودة إلى زوجته عقوبة له على الظهار ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَاهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَقَدْ نَبِّهْتُمْ لَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مُكَرَّراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ۝ ٤٦ ﴾ [المجادلة] الكفارة الكبرى إما : تحرير رقبة - صيام شهرين متتابعين - إطعام ستين مسكيناً .

(٢) عن أبي ذر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « إِنْ إِخْوَانُكُمْ خَرَلَكُمْ ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيَطْعَمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ ، وَلْيَلْبَسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ ، وَلَا تَكْفُرُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ ، فَإِنْ كَفَفْتُمُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَأَعِينُوهُمْ » أخرجه البخاري في صحيحه (٢٥٤٥) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٦٦١) كتاب الإيمان .

المقارنة هنا بين الرق والقتل ؛ لأنه لا يُسْتَرَقُ إِلَّا مَنْ قَدَرَ الْمُسْتَرَقُّ عَلَيْهِ وَتَمَكَّنَ مِنْهُ فِي الْمَعْرَكَةِ ، وَكَانَ بِاسْتِطَاعَتِهِ قَتْلَهُ ، لَكِنْ رَحِمَهُ اللَّهُ بِعِبَادِهِ مَنْعَتْ قَتْلَهُ ، وَأَبَاحَتْ أَخْذَهُ رَقِيْقًا ، فَالْبِنْفَعِيَّةُ لِلْمُقَاتِلِ الْمُنْتَصِرِ يُقَابِلُهَا حَقُّنُ دَمِ الْآخِرِ ، ثُمَّ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْجَرْبِ نَحْنُ عَلَى عَتَقِهِ ، وَنَفْتَحُ لَهُ أَبْوَابَ الْحَرِيَّةِ .

إِذَنْ : لَا تَقَارَنُ بَيْنَ عَبِيدٍ وَحُرٍّ ، إِنَّمَا قَارَنَ بَيْنَ الْعَبُودِيَّةِ وَالْقَتْلِ : أَيُّهُمَا أَقْلُ ضَرَرًا ؟

لِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرُّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَيَذْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٥ ﴾ [التوبة]

هَذِهِ نَتَائِجُ سِتِّ لِلْأَمْرِ ﴿ قَاتِلُوهُمْ ۖ .. ۝١٤ ﴾ [التوبة] وَجَوَابُ الْأَمْرِ مَجْزُومٌ بِالسَّكُونِ كَمَا فِي (يُعَذِّبُهُمْ) وَمَجْزُومٌ بِحَذْفِ حَرْفِ الْعِلَّةِ كَمَا فِي (وَيُخْزِهِمْ) ، وَالْخِزْيُ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُغْتَرِبِينَ بِقُوَّتِهِمْ ، وَلَدِيهِمْ جَبْرُوتٌ مُفْتَعَلٌ ، يَظُنُّونَ أَلَّا يَقْدِرُ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ ، وَكَذَلِكَ فِي : يَنْصَرُّكُمْ ، وَيُشْفِ ، وَيَذْهَبُ .

ثُمَّ قَطَعَ السِّيَاقُ الْحُكْمَ السَّابِقَ ، وَاسْتَأْنَفَ كَلَامًا جَدِيدًا ، وَإِنْ كَانَ مُعْطُوفًا عَلَى مَا قَبْلَهُ فِي اللَّفْظِ ، وَهَذَا مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الدَّقَّةِ فِي الْإِدَاءِ الْقُرْآنِيِّ ، وَمُحَاطَظَةُ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى بِالْكَفَارِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ۖ .. ۝١٥ ﴾ [التوبة] هَكَذَا بِالرَّفْعِ ، لَا بِالْجَزْمِ فَقَطَعَ الْفِعْلُ (يَتُوبُ) عَمَّا قَبْلَهُ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَشَأْ أَنْ يَشْرِكَ بَيْنَهُمْ حَتَّى فِي جَوَابِ الْأَمْرِ .

وَحَتَّى عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّهُمْ هُزِمُوا ، وَكُسِرَتْ شُوكَتُهُمْ ، وَضَاعَتْ

هيبتهم ، لعلمهم يفيقون لانفسهم ، ويعودون للحق ، وهذه من رحمة الله بالكافرين في معاركهم مع الإيمان .

لكن ، لماذا يتوب الله على الكفار ويرحمهم وهم أعداء دينه وأعداء نبيه ؟ قالوا : لأنه سبحانه وتعالى ربهم وخالقهم ، وهم عباده وعباده ، وهو أرحم بهم ، ومرادات الله في الخلق أن يكونوا جميعاً طائعين .

لذلك ، يقول سبحانه في الحديث القدسي : « قالت السماء : يا رب ائذن لي أن أسقط كسفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شريك ، وقالت الأرض : يا رب ائذن لي أن أخسف بابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شريك ، وقالت الجبال : يا رب ائذن لي أن أسقط على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شريك ، وقالت البحار : يا رب ائذن لي أن أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شريك » .

فالكون كله ناقم على الكافرين ، متمرّد على العصاة ، مغتاض منهم ، فماذا قال الحق - تبارك وتعالى - لهم ؟ قال سبحانه : « دعوني وخلقى ، لو خلقتهم لرحمتهم ، فإن تابوا إلى ، فأنا حبيبيهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طيبيهم » .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَيَنْصَرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ .. ﴾ (١٠) [الحج] وما دام أن النصر من عند الله فإياكم أن تبحثوا في القوة أو تقيسوا قوتكم بقوة عدوكم ، فلربك عز وجل جنود لا يعلمها إلا هو ، ووسائل النصر وأنت في حضرة الله كثيرة تأتيك من حيث لا تحسب وباهون الأسباب ، أقلها أن الله يُريكم أعداءكم قليلاً ويكثر المؤمنين في أعين الكافرين لئلا يفقدوا في عضدكم ويُرهبهم ويضعزع معنوياتهم ، وقد يحدث العكس ، فيرى الكفار المؤمنين قليلاً فيجترئون عليهم ، ويتقدمون ، ثم تفاجئهم الحقيقة .

إِنَّ : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ ۞ ﴾ [المدثر] (٢١) فلا تُعَوِّلْ فقط على قوتك وتحسب مدى تكافؤك مع عدوك ، دَعُكَ من هذه الحسابات ، وما عليك إلا أَنْ تستنفذ وسائلك وأسبابك ، ثم تدع المجال لأسباب السماء .

وأقبلُ جنود ربك أَنْ يُلقَى الرعب في قلوب أعدائك ، وهذه وحدها كافية ، ويُرَوَّى أنهم في إحدى المعارك الإسلامية تغيرت رائحة أفواه المسلمين ، وأحسُّوا فيها بالمرارة لطول فترة القتال ، فأخرجوا السواك يُنظِّفُون أسنانهم ، وَيُطَيِّبُون أفواههم ، عندها قال الكفار : إنهم يَسْنُون أسنانهم ليأكلونا ، وقذف الله في قلوبهم الرعب من حيث لا يدرون .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ ﴾ [الحج] عزيز : يعنى لا يُغلب ، وما دام أن الله تعالى ينصر مَنْ نصره فلا بُدَّ أَنْ تنتهى المعركة بالنصر مهما خارت القوى ومهما ضعفت ، ألم يكن المسلمون في مكة ضغفاء مضطهدين ، لا يستطيع واحد منهم أن يرفع رأسه بين الكفار ؟

ولما نزل قول الله تعالى وهم على هذه الحال : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝ ﴾ [القمر] تعجب عمر^(١) بفراسته وعبقريته : أى جمع هذا الذى سيُهْزَم ونحن غير قادرين حتى على حماية أنفسنا ؟ فلما رأى يوم بدر قال : صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝ ﴾ [القمر] فما دام أن الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ فلا بُدَّ أَنْ ينصركم ، وهذه مسألة

(١) أورد ابن كثير في تفسيره وعزاه لابن أبي حاتم (٢٦٦/٤) عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ : « لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝ ﴾ [القمر] . قال عمر : أى جمع هذا ؟ أى أى جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يشب في الدرع وهو يقول : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » ، فعرفت تأويلها يومئذ .

محكوم بها ألا : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۖ ﴾ (٤١) [المجادلة]

فإذا ما تمت لكم الغلبة ، فاعلموا أن لكم دوراً ، ألا وهو :

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا
الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ
وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (٤١)

معنى : ﴿ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ۖ ﴾ (٤١) [الحج] جعلنا لهم سلطاناً وقوة وغلبة ، فلا يجترئ أحد عليهم أو يزعجهم ، وعليهم أن يعلموا أن الله ما مكَّنهم ونصرهم لذاتهم ، وإنما ليقوموا بمهمة الإصلاح وينقوا الخلافة الإنسانية في الأرض من كل ما يَضَعِف صلاحها أو يفسده .

لذلك ، سيدنا سليمان عليه السلام كان يركب بساط الريح يحمله حيث أراد ، فداخله شيء من الزهو ، فمال به البساط وأوشك أن يُلْقِيه ، ثم سمع من البساط مَنْ يَقُولُ له : أَمَرْنَا أَنْ نَطِيعَكَ مَا أَمَرْنَا .

والممكن في الأرض الذي أعطاه الله اليأس والقوة والسلطان ، يستطيع أن يفرض على مجتمعه ما يشاء ، حتى إنْ مَكَّن في الأرض بباطل يستطيع أن يفرض باطله ويخضع الناس له ، ولو إلى حين .

فماذا يُنَاطُ بالمؤمن إنْ مَكَّن في الأرض ؟

يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ ۖ ﴾ (٤١)

[الحج] ليكونوا دائماً على ذكر وولاء من ربهم الذي وهبهم هذا

التمكين ؛ ذلك لأنهم يترددون عليه سبحانه خمس مرات في اليوم واللييلة .

﴿وَأَتُوا الزُّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (٤١) [الحج] فهذه أسس الصلاح في المجتمع والميزان الذي يسعد به الجميع .

﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٤١) [الحج] يعنى : النهاية إلينا ، وآخر المطاف عندنا ، فمن التزم هذه التوجيهات وأدى دوره المئووط في مجتمعه ، فيها ونعمت ، ومن ألقاها وراء ظهره فعاقبته معروفة .

ثم يُسَلَّى الحق سبحانه رسوله ﷺ حتى لا يهتم بما يفعله قومه من كفر وعناد ومجابهة للدعوة :

﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ (٤٢)

﴿يَكْذِبُوكَ ..﴾ (٤٢) [الحج] يعنى : فى دعوتك فىواجهونك ، ويقفون فى سبيل دعوتك ليبطلوها ، فاعلم أنك لست فى ذلك بدعاً من الرسل ، فقد كُذِّبَ كثير من الرسل قبلك ، وعليك ألا تلاحظ مسألة التكذيب منفصلة عن عاقبته ، نعم : كذب القوم لكن كيف كانت العاقبة ؟ أتركناهم أم أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ؟

فلا تحزن ، فسوف يحل بهم ما حلّ بسابقيهم من المكذبين والمعاندين .

وقلنا : إن الرسول يتحمل من مشقة الرسالة وعناء الدعوة على قدر رسالته ، فكلُّ رسل الله قبل بعث محمد كان الرسول يُرْسَلُ إلى قومه خاصة ، وفى مدة محدودة ، وزمان محدود ، ومع ذلك تعبوا

كثيراً في سبيل دعوتهم ، فما بالك برسول بُعث إلى الناس كافة في كل زمان وفي كل مكان ، لا شك أنه سيتحمل من التعب والعناء أضعاف ما تحمله إخوانه من الرسل السابقين .

وكان الحق - تبارك وتعالى - يُعد رسوله ﷺ ويوطئه على تحمل المشاق من بداية الطريق حتى لا تفت في عضده حين يواجهها عند مباشرة أمر الدعوة ، يقول له : ليست السيادة أمراً سهلاً ، إنما دونها متاعب وأهوال ومصاعب فاستعد ، كما تنبه ولدك : انتبه ، فالامتحانات ستأتي هذا العام صعبة ، فالوزارة تريد تقليل عدد المتقدمين للجامعة ، فاجتهد حتى تحصل على مجموع مرتفع ، وحين يسمع الولد هذا التنبيه يجمع تماسكه ، ويجمع تركيزه ، فلا يهتز حين يواجه الامتحانات .

ثم يذكر الحق - تبارك وتعالى - نماذج للمكذبين للرسل : ﴿ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴾ (٤٢) [الحج]

ثم يقول تعالى :

﴿ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾

نلاحظ هنا أن الحق سبحانه ذكر المكذبين ، إلا في قصة موسى فذكر المكذب ، فلم يقل : وقوم موسى بل قال : وكذب موسى ، لماذا ؟ قالوا : لأن مهمته كانت أصعب حيث تعرض في دعوته لمن ادعى الألوهية ذاتها .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ .. ﴾ (٤٤) [الحج] أمليت : أمهلت حتى ظنوه إمهالاً ، وهو إمهال بأن يعد الله لهم ، ويطيّل

فى مدتهم ، لا إكراماً لهم ، ولكن لياخذهم بعد هذا أخذ عزيز مقتدر ،
وفى آية أخرى يوضح لنا هذه البرقية المختصرة ، فيقول سبحانه :
﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ
لِيَزِدَّادُوا إِنَّمَا .. (١٧٨) ﴾ [ال عمران]

وفى هذا المعنى يقول أيضاً : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ
إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ
كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة]

إذن : لا تغتر بما فى أيديهم ؛ لأنه فتنة ، حتى إذا أخذهم الله كانت
حسرتهم أكبر ، فمن عدم هذه النعم لا يتعلق قلبه بها ، ولا يالَم لفقدها .

وقد حدث شيء من هذا فى أيام سعد زغلول ، وكان أحد
معارضيه يشتمه ويتناول عليه ، لكن فوجيء الجميع بأنه يُؤليه
منصباً مرموقاً فى القاهرة ، فتعجب الناس وسألوه فى ذلك فقال :
نعم ، وضعته فى هذا المنصب ليعرف العلو والمنزلة حتى يتحسّر
عليها حين تُسلب منه ، وتكون أنكى له . يعنى : يرفعه إلى أعلى حتى
يهوى على رقبته ، لأنه ما فائدة أن توقعه من على الحصيرة مثلاً ؟ !!

ثم يقول تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) ﴾ [الحج] الحق سبحانه
يلقى الخبر فى صورة استفهام لتقول أنت ما حدث وتشهد به .
والمراد : أعاقبناهم بما يستحقون ؟

والنكير : هو الإنكار على شخص بتغيير حاله من نعمة إلى نقمة ،
كالذى يُكرمك ويؤاسيك ويبشّ فى وجهك ويُغدق عليك ، ثم يقطع عنك
هذا كله ، فتقول : لماذا تنكّر لى فلان ؟ يعنى : قطع عني نعمته .

وكان الحق - تبارك وتعالى - يريد أن ينتزع منّا الإقرار بقدرته
تعالى على عقاب أعدائه ومُكذّبي رسله ، وهذا المعنى جاء أيضاً فى

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ تُؤْتِبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين] يعنى : هل جوزى الكفار بما عملوا ؟ وهل استطعنا أن نعاقبهم بما يستحقون من العذاب ؟

﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) ﴾ [الحج] أى : إنكارى لموقفهم من عدم أداء حقوق النعمة فبدلها الله عليهم نعمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا
خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِئُ مَعْظَمُهَا وَقَصْرٌ مَشِيدٌ (٤٥) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ .. (٤٥) ﴾ [الحج] (كَأَيِّنْ) أداة تدل على الكثرة مثل : كم الخبرية حين تقول : كم أحسنتُ إليك . تعنى مرات عديدة تفوق الحصر ، فهى تدل على المبالغة فى العدد والكمية ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ .. (١٤٦) ﴾ [آل عمران] والقرية^(١) : اسم للمكان ، وحين يهلك الله القرية لا يهلك المكان ، إنما يهلك المكين فيه ، فالمراد بالقرية أهلها ، كما ورد فى قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ^(٢) الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف] أى : اسأل أهل القرية .

(١) القرية : البلدة الكبيرة تكون أقل من المدينة ، أو هى كل مكان اتصلت به الابنية . [القاموس القويم ١١٥/٢] .

(٢) قال قتادة : المراد بالقرية هنا مصر . نقله ابن كثير فى تفسيره (٤٨٧/٢) والقرطبي فى تفسيره (٣٥٨٠/٥) وقالوا : وقيل قرية من قراها نزلوا بها وامتاروا منها . لفظ القرطبي .

ويحتمل أن يكون المعنى : اسأل القرية تُجِبْكَ ، لأنك لو سألت أهل القرية فلربما يكذبون ، أمّا القرية فتسجل الأحداث وتُخْبِرُ بها كما حدثت .

وقد يتعدى الهلاك إلى القرية ذاتها ، فيغير معالمها بدليل قوله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا .. ﴾ (٥٢) [النمل]

ومعنى : ﴿ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ .. ﴾ (٤٥) [الحج] أى : بسبب ظلمها ، ولا يُغَيِّرُ الله ما يقوم حتى يُغَيِّرُوا ما بأنفسهم ، وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١١٢) [النحل]

فهلاك القرى لا بُدُّ أن يكون له سبب ، فلما وقع عليها الهلاك أصبحت ﴿ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا .. ﴾ (٤٥) [الحج] الشئ الخاوى يعنى : الذى سقط وتهدم على غيره ، وقوله : ﴿ عَلَى عُرُوشِهَا .. ﴾ (٤٥) [الحج] يدل على عَظَمَ ما حلَّ بها من هلاك ، حيث سقط السقف أولاً ، ثم انهارت عليه الجدران ، أو : أن الله تعالى قلبها رأساً على عقب ، وجعل عاليها سافلها .

وقوله سبحانه : ﴿ وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ .. ﴾ (٤٥) [الحج] البئر : هو الفجوة العميقة فى الأرض ، بحيث تصل إلى مستوى الماء الجوفى ، ومنه يُخْرِجون الماء للشُّرْبِ وللزراعة .. إلخ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ .. ﴾ (٢٢) [القصص] أى : البئر الذى يشربون منه .

والبئر حين تكون عاملة ومُستفاداً منها تلاحظ حولها مظاهر

حياة ، حيث ينتشر الناس حولها ، وينمو النبات على بقايا المياه المستخرجة منها ، ويحوم حولها الطير ليرتوى منها ، أما البئر المعطلة غير المستعملة فتجدها خربة ليس بها علامات حياة ، وربما تسفو^(١) عليها الرياح ، وتطمسها فتعطل وتُهجر ، فالمراد معطلة عن أداء مهمتها ، ومهمة البئر السقيا .

﴿ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (٤٥) ﴾ [الحج] القصر : اسم للمأوى الفخم : لأن المأوى قد يكون خيمة ، أو فسطاطاً ، أو عريشة ، أو بيتاً ، أو عمارة ، وعندما يرتقى الإنسان في المأوى فيبني لنفسه شيئاً خاصاً به ، لكن لا بدُّ له أن يخرج لقضاء لوازم الحياة من طعام وخلافه ، أما القصر فيعني مكان السكن الذي يتوفر لك بداخله كل ما تحتاج إليه ، بحيث لا تحتاج إلى الخروج منه ، يعنى : بداخله كل مقومات الحياة . ومنه : سميت الحور مقصورات في قوله تعالى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) ﴾ [الرحمن] يعنى : لا تتعداها ولا تخرج منها .

و ﴿ مَشِيدٍ (٤٥) ﴾ [الحج] من الشيد ، وهو الجير الذي يستعمل كمونة في بناء الحجر يعنى : مادة للصق الحجارة ، وجعلها على مستوى واحد ، وقديماً كان البناء بالطوب اللبن ، والمونة من الطين ، أما في القصور والمسكن الفخمة الراقية فالبناء بالحجر ، والمشيد أيضاً العالى المرتفع ، ومنه قولهم : أشاد به يعنى : رفعه وأعلى من مكانته ، والارتفاع من ميزات القصور ، ومعلوم أن مقاسات الغرف في العمارات مثلاً غيرها في القصور ، هذه ضيقة منخفضة ، وهذه واسعة عالية .

(١) سفت الريح التراب : ثَرَّتْهُ ، وقيل : حملته . والسافياء : الريح التي تحمل تراباً كثيراً على وجه الأرض تهجمه على الناس . [لسان العرب - مادة : سفا] .

وفى قوله تعالى ﴿ وَقَصَّرْ مُشِيدٍ (٤٥) ﴾ [الحج] دليل على أن هؤلاء المهلكين كانوا من أصحاب الغنى والنعيم ، ومن سكان القصور ومن عليّة القوم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ
ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى
الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾

السَّيْرُ : قَطَعَ مسافات من مكان إلى آخر ، ويسمونه السياحة ،
والحق سبحانه يدعو عباده إلى السياحة في أنحاء الأرض ؛ لأن
للسياحة فائدتين :

فإما أن تكون سياحة استثمارية لاستنباط الرزق إن كنت في
مكان يضيق بك العيش فيه ، كهؤلاء الذين يسافرون للبلاد الأخرى
للعمل وطلب الرزق .

وإما أن تكون سياحة لأخذ العبرة والتأمل في مخلوقات الله في
ملكه الواسع ليستدل بخلق الله وآياته على قدرته تعالى .

والسياحة في البلاد المختلفة تتيح لك فرصة ملاحظة الاختلافات
من بيئة لأخرى ، فهذه حارة وهذه باردة ، وهذه صحراء جرداء وهذه
خضراء لا يوجد بها حبة رمل ، لذلك يخاطبنا ربنا تبارك وتعالى :
﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١) ﴾ [الأنعام]

فالعطف فى الآية بـ (ثُمَّ) يدل على أن للسياحة مهمة أخرى ،
هى الاستثمار وطلب الرزق ، ففي الآية إشارة إلى الجمع بين هاتين
المهمتين ، فحين تذهب للعمل إياك أن تغفل عن آيات الله فى المكان
الذى سافرت إليه ، وخذُ منه عبرة كونية تفيدك فى دينك .

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَانظُرُوا ۝٦٩ ﴾ [النمل]

العطف هنا بالفاء التى تفيد الترتيب ، يعنى : سيروا فى الأرض
لتنظروا آيات الله ، فهى خاصة بسياحة الاعتبار والتأمل ، لا سياحة
الاستثمار وطلب الرزق .

لذلك يقولون فى الأمثال : (اللى يعيش ياما يشوف ، واللى
يمشى يشوف أكثر) فكما تعددت الأماكن تعددت الآيات والعجائب
الدالة على قدرة الله ، وقد ترى منظرًا لا يؤثر فىك ، وترى منظرًا آخر
يهزك ويحرك عواطفك ، وتأملاتك فى الكون .

وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ۝٤٦ ﴾ [الحج] تعنى وتؤكد أنهم ساروا
فعلًا ، كما تقول : أفلم أكرمك ؟ ولا تقول هذا إلا إذا أكرمته فعلًا ،
وقد حدث أنهم ساروا فعلًا فى البلاد أثناء رحلة الشتاء والصيف ،
وكانوا يمرون على ديار القوم المهلكين ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ
لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ۝١٣٧ ﴾ [الصافات]

يعنى : أنتم أهل سَيْر وترحال وأهل نظر فى مصير مَنْ قبلكم ،
فكيف يقبل منكم الانصراف عن آيات الله ؟

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُنْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ
بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۝٤٦ ﴾

[الحج] فما داموا قد ساروا وترحلوا في البلاد ، فكيف لا يعقلون آيات الله ؟ وكيف لا تُحرَّك قلوبهم ؟

ولنا وقفة عند قوله تعالى : ﴿ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا .. ﴾ [الحج] وهل يعقل الإنسان بقلبه ؟ معلوم أن العقل في المخ ، والقلب في الصدر .

نعم ، للإنسان وسائل إدراك هي الحواس التي تلتقط المحسَّات يُسمونها تأدياً مع العلم : الحواس الخمس الظاهرة ؛ لأن العلم أثبت للإنسان في وظائف الأعضاء حواساً أخرى غير ظاهرة ، فحين تُمسك بشيئين مختلفين يمكنك أن تُميِّز أيهما أثقل من الآخر ، فبأي حاسة من الحواس الخمس المعروفة توصلت إلى هذه النتيجة ؟

إِنْ قُلْتَ بالعين فدعها على الأرض وانظر إليها ، وَإِنْ قُلْتَ باللمس فلك أَنْ تلمسها دون أَنْ ترفعها من مكانها ، إذن : فأنت لا تدرك الثقل بهذه الحواس ، إنما بشيء آخر وبآلة إدراك أخرى هي حاسة العَضَلِ الذي يُميِّز لك الخفيف من الثقيل .

وحين تذهب لشراء قطعة من القماش تفرك القماش بلطف بين أناملك ، فتستطيع أَنْ تُميِّز الثخين من الرقيق ، مع أن الفارق بينهما لا يكاد يُذكر ، فبأي حاسة أدركته ؟ إنها حاسة البَين . كذلك هناك حاسة البُعْد وغيرها من الحواس التي يكتشفها العلم الحديث في الإنسان .

فلما يدرك الإنسان هذه الأشياء بوسائل الإدراك يتدخل العقل ليغربل هذه المدركات ، ويختار من البدائل ما يناسبه ، فإن كان سيختار ثوباً يقول : هذا أنعم وأرق من هذا ، وإن كان سيختار رائحة يقول : هذه ألطف من هذه ، إن كان في الصيف اختار

الخفيف ، وإن كان في الشتاء اختار السميك .

وبعد أن يختار العقل ويوازن بين البدائل يحكم بقضية تستقر في الذهن وتقتنع بها ، ولا تحتاج لإدراك بعد ذلك ، ولا لاختيار بين البدائل ، وعندها تنفذ ما استقر في نفسك ، وارتحت إليه بقلبك .

إذن : إدراك بالحواس وتمييز بالعقل ووقوف عند مبدأ بالقلب ، وما دام استقر المبدأ في قلبك فقد أصبح دستوراً لحياتك ، وكل جوارحك تخدم هذا المبدأ الذي انتهيت إليه ، واستقر في قلبك ووجدانك .

لكن ، لماذا القلب بالذات ؟ قالوا : لأن القلب هو الذي يقوم بعملية ضخ سائل الحياة ، وهو الدم في جميع أجزاء الجسم وجوارحه ، وهذه الجوارح هي أداة تنفيذ ما استقر في الوجدان ؛ لذلك قالوا : الإيمان محلّه القلب ، كيف ؟ قالوا : لأنك غربلت المسائل وصفّيت القضايا إلى أن استقرت العقيدة والإيمان في قلبك ، والإيمان أو العقيدة هي ما انعقد في القلب واستقر فيه ، ومن القلب تمتد العقيدة إلى جميع الأعضاء والحواس التي تقوم بالعمل بمقتضى هذا الإيمان ، وما دُمّت قد انتهيت إلى مبدأ وعقيدة ، فإياك أن تخالفه إلى غيره ، وإلا فيكون قلبك لم يفهم ولم يفقه .

وكلمة ﴿يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ (٤٦) [الحج] تدل على أن للعقل مهام أخرى غير أنه يختار ويفاضل بين البدائل ، فالعقل من مهامه أن يعقل صاحبه عن الخطأ ، ويعقله أن يشرّد في المتاهات ، والبعض يظن أن معنى عقل يعنى حرية الفكر وأن يشطح المرء بعقله في الأفكار كيف يشاء ، لا ، العقل من عقّال الناقة الذي يمنعها ، ويحجزها أن تشرّد منك .

ثم يقول سبحانه : ﴿أَوْ آذَانَ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج] كيف ولهؤلاء القوم آذان تسمع ؟ نعم ، لهم آذان تسمع ، لكن سماع لا فائدة منه ، فكان الحاسة غير موجودة ، وإلا ما فائدة شيء سمعته لكن لم تستفد به ولم تُوظفه في حركة حياتك ، إنه سماع كعدمه ، بل إن عدمه أفضل منه : لأن سماعك يقيم عليك الحجة .

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج] فعلى الأبصار شيء هيئ ، إذا ما قيسَ بعمى القلوب^(١) : لأن الإنسان إذا فقد رؤية البصر يمكنه أن يسمع ، وأن يعمل عقله ، وأن يهتدى ، وما لا يراه بعينه يمكن أن يخبره به غيره ، ويصفه له وصفاً دقيقاً وكأنه يراه ، لكن ما العمل إذا عميت القلوب ، والانظار مبصرة ؟

وإذا كان لعمى الأبصار بديل وعوض ، فما البديل إذا عمى القلب ؟ الأعمى يحاول أن يتحسس طريقه ، فإن عجز قال لك : خذ بيدي ، أما أعمى القلب فماذا يفعل ؟

لذلك ، نقول لمن يغفل عن الشيء الواضح والمبدأ المستقر : أعمى قلب . يعنى : طمس على قلبه فلا يعى شيئاً .

وقوله : ﴿الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج] معلوم أن القلوب في الصدور ، فلماذا جاء التعبير هكذا ؟ قالوا : ليؤكد لك على أن المراد القلب الحقيقي ، حتى لا تظن أنه القلب التفكيرى العقلى ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [آل عمران]

(١) قال قتادة : البصر النافذ جعل بلغة ومنفعة ، والبصر النافع فى القلب . وقال مجاهد : لكل عين أربعة أعين ، يعنى لكل إنسان أربعة أعين : عينان فى رأسه لدنياه ، وعينان فى قلبه لأخروته ، فإن عميت عيناه وأبصرت عيناه قلبه فلم يضره عماء شيئاً ، وإن أبصرت عيناه رأسه وعميت عيناه قلبه فلم ينفعه نظره شيئاً . [تفسير القرطبي ٤٦٠٨/٦]

ومعلوم أن القول من الافواه ، لكنه أراد أن يؤكد على القول والكلام ؛ لأن القول قد يكون بالإشارة والدلالة ، فالقول بالكلام هو أبلغ أنواع القول وأكده ؛ لذلك قال الشاعر :

جَرَّاحَاتُ السُّنَّانِ لَهَا التُّنَامُ وَلَا يُلْتَامُ مَا جَرَّحَ اللِّسَانُ

ويقولون : احفظ لسانك الذى بين فكّيك ، وهل اللسان إلا بين الفكّين ؟ لكن أراد التوكيد على القول والكلام خاصة ، لا على طرق التفاهم والتعبير الأخرى .

ثم يقول الحق سبحانه ^(١) :

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٤٧)

ألم يقولوا فى استعجال العذاب : ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٢) [الأنفال] وقالوا : ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧٠) [الأعراف]

ولا يستعجل الإنسان العذاب إلا إذا كان غير مؤمن به ، المؤمن بالعذاب - حقيقة - يخاف منه ، ويريد أن يبطئ عنه أو أن ينجو منه . والمعنى : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ..﴾ (٤٧) [الحج] أنهم يظنون أنه إن توعدهم الله بالعذاب فإنه سيقع لتوّه . لذلك ، الحق سبحانه

(١) سبب نزول الآية : قال القرطبي فى تفسيره (١٦٠٩/٦) : « نزلت فى النضر بن الحارث ، وهو قوله : ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧٠) [الأعراف] . وقيل : نزلت فى أبى جهل بن مشام ، وهو قوله ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٢) [الأنفال] .

سُورَةُ الْحَجِّ

٩٨٦٥

يُصَحِّحُ لَهُمْ هَذَا الْفَهْمَ ، فَيَقُولُ : ﴿ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (٤٧) [الحج] فلا تتعجلوا توعدهم به ، فهو واقع بكم لا محالة ؛ لأنه وَعْدٌ مِنْ اللَّهِ ، والله لا يُخْلِفُ وَعْدَهُ ، لكن اعلّموا أن اليوم عند الله ليس كيومكم ، اليوم عندهم أربع وعشرون ساعة ، أما عند الله فهو كالف سنة من حسابكم أنتم للأيام .

واليوم زمن يتسع لبعض الأحداث ، ولا يسع أكثر مما قُدِّرَ أن يُفْعَلَ فيه من الأحداث ، أما اليوم عند الله - عَزَّ وَجَلَّ - فيسع أحداثًا كثيرة تملأ من الزمن ألف سنة من أيامكم ؛ ذلك لأنكم تزاوون الأعمال وتعالجونها ، أما الخالق سبحانه فإنه لا يزاو الأفعال بعلاج ، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له : كُنْ فَيَكُونُ ، ففعلك يحتاج إلى وقت ، أما فعل ربك فبِكَلِمَةٍ كُنْ . وقد شاء الحق سبحانه أن يعيش هؤلاء في عذاب التفكير في هذا الوعيد طول عمرهم ، فيُعَذِّبُونَ به قبل حدوثه .

إذن : لا تظن أن العذاب الذي توعدهم به سيحدث اليوم أو غدًا ، لا ؛ لأن حساب الوقت مختلف .

ألم تقرأ قول الله تعالى لنبيه موسى - عليه السلام - لما دعا على قومه : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ ^(١) وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (٨٨) [يونس]

قال له ربه : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا .. ﴾ (٨٩) [يونس]

ويقول المفسرون ^(٢) : حدثت هذه الإجابة لموسى بعد أربعين سنة من دعوته عليهم .

(١) قال الضحاك : صارت دنائيرهم ودرامهم ونحاسهم وحديدهم حجارة منقوشة . [الدر المنثور للسيوطي ٢٨٤/٤] وعزاه لابن أبي حاتم وأبى الشيخ .

(٢) قاله مجاهد فيما أخرجه عنه الحكيم الترمذي . وقال ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن المنذر : يزعمون أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة . أوردهما السيوطي في (الدر المنثور : ٢٨٥/٤)

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة]

وتزيد هذه المدة فى قوله سبحانه : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج] لماذا ؟ لأن الزمن عندكم فى هذه الحالة مُعْطَلٌ ، فأنتم من هَوْل ما ترونَ تستطيلون القصير ، ويمر عليكم الوقت ثقيلاً ؛ لذلك تتمنون الانصراف ولو إلى النار .

كما أن صاحب النعيم يستقصر الطويل ، ويمر عليه الوقت كأنه لمح البصر ، ومن ذلك ما تلاحظه من قِصَرِ الوقت مع الأحبة وطوله مع الأعداء ومن لا يهواه قلبك ، ولهذه المسألة شواهد كثيرة فى شعرنا العربى ، منها قول أحدهم :

حَادِثَاتُ السُّرُورِ تُوزَنُ وَزْنًا وَالْبَلَايَا تُكَالُ بِالْقَفْزَانِ^(١)

وقول الآخر :

لَمْ يَطُلْ لَيْلَى وَلَكِنْ لَمْ أَنْمَ وَنَفَى عَنِّي الْكَرَى طَيْفٌ أَلَمَ^(٢)

ويقول ابن زيدون :

إِنْ يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلَى فَلَكُمْ بَتْ أَشْكَو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَكُمْ

(١) القفزان : جمع قفيز وهو من المكايل ، وهو من الأرض قدر مائة وأربع وأربعين ذراعاً . [لسان العرب - مادة : قفز] .

(٢) هذا البيت لبشار بن بُرْدٍ . ذكره أبو على القالى فى الامالى (١/١٣٢) والكرى : النوم والنعاس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُمَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ
ثُمَّ أَخَذْتُمَا إِلَى الْمَصِيرِ﴾ (٤٨)

﴿وَكَايْنٍ (٤٨)﴾ [الحج] قلنا : تدل على الكثرة يعنى : كثير من القرى ، ﴿أَمَلَيْتُمَا (٤٨)﴾ [الحج] : أمهلتُ ، لكن طول الإمهال لا يعنى الإهمال : لأن الله تعالى يُملئ للكافر ويُمهله لاجل ، فإذا جاء الأجل والعقاب أخذه .

﴿ثُمَّ أَخَذْتُمَا (٤٨)﴾ [الحج] وأخذُ الشيء يتناسب مع قوة الآخذ وقدرته وعنف الانتقام بحسب المنتقم ، فإذا كان الآخذ هو الله عز وجل ، فكيف سيكون أخذه ؟

فى آية أخرى يوضح ذلك فيقول : ﴿أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ (٤٢)﴾ [القمر] لا يُغَالِب ، ولا يمتنع منه أحد ، وكلمة الآخذ فيها معنى الشدة والعنف والقهر .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَالِى الْمَصِيرِ (٤٨)﴾ [الحج] يعنى : المرجع والمآب ، فلن يستطيعوا أن يفلتوا .

إذن : الإملاء : تأخير العذاب إلى أجل معين ، كما قال سبحانه : ﴿فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رَوْيَدًا (١٧)﴾ [الطارق]

هذا الأجل قد يكون لمدة ، ثم يقع بهم العذاب ، كما حدث فى الأمم السابقة التى أهلكها الله بالخسف أو بالغرق .. الخ ، أما فى أمة محمد ﷺ ، فيكون الإملاء بأحداث سطحية فى الدنيا ، كالذى حلّ بالكفار من الخزي والهوان والهزيمة وانكسار شوكتهم ، أما العذاب الحقيقى فينتظرهم فى الآخرة .

لذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - لنبيه ﷺ : لا تستبطيء عذابهم والانتقام منهم في الدنيا ، فما لم تره فيهم من العذاب في الدنيا ستراه في الآخرة : ﴿ فَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَاِلَيْنَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٧٧)

[غافر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَكَايْهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا كُرْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٤٩)

والإنذار نوع من الرحمة ، لأنك تخبر بشر قبل أوانه ، ليحذره المنذر ، ويحاول أن يُنجي نفسه منه ، ويبتعد عن أسبابه ، فحين أذكرك بالله ، وأنه يأخذ أعداءه أخذ عزيز مقتدر ، فعليك أن تربأ بنفسك عن هذه النهاية ، وأن تنجو من دواعي الهلاك .

ومعنى ﴿ مُبِينٌ ﴾ (٤٩) [الحج] محيط ، لا يترك صغيرة ولا كبيرة.

﴿ قَالِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٥٠)

وطالما آمنوا وعملوا الصالحات فقد انتفعوا بالإنذار ، وأثمرت فيهم ، فآمنوا بالله إلهاً فاعلاً مختاراً له صفات الكمال المطلق ، ثم عملوا على مقتضى أوامره ؛ لذلك يكون لهم مغفرة إن كانت أَلَمَتْ نفوسهم بشيء من المعاصي ، ويكون لهم رزق كريم . والكريم هو البذل ، كأن الرزق نفسه وصل إليهم بكرم وزيادة ، كما أن الكريم هو الذي تظل يده مبسوطة دائماً بالعطاء ، على حد قول الشاعر :

وَإِنِّي أَمْرٌ لَا تَسْتَقِرُّ دَرَاهِمِي عَلَى الْكَفِّ إِلَّا عَابِرَاتٌ سَبِيلِ

فالرزق نفسه كريم ؛ لأنه ممدود لا ينقطع ، كما لو أخذت كوب ماء من ماء جارٍ ، فإنه يحلُّ محلُّ غيره على الفور ، وهكذا .

﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ

أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ ٥١

السعى : عمل يذهب إلى غاية ، فإن كان قطع مسافة نقول : سِرْنَا من كذا إلى كذا ، وإن كان في قضية علمية فكرية ، فيعنى : أن الحدث يعمل من شيء بداية إلى شيء غاية .

وَالسَّعَى لَا يُحْمَدُ عَلَىٰ إِطْلَاقِهِ ، وَلَا يُذَمُّ عَلَىٰ إِطْلَاقِهِ ، فإن كان في خير فهو محمود ممدوح ، كالسعى الذي قال الله فيه : ﴿ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء] ١٩ ، وإن كان في شرٍّ فهو قبيح مذموم ، كالسعى الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ [البقرة] ٢٠٤ ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴾ [البقرة] ٢٠٥ .

أما السعاية فعادة تأخذ جانب الشر . وتعنى : الوشاية والسعى بين الناس بالنميمة ، تقول : فلان سَعَاءٌ بين الخلق يعنى : بالشر ينقله بين الناس بقصد الأذى ، وهؤلاء إن علموا الخير أخفوه ، وإن علموا الشر أذاعوه ، وإن لم يعلموا كذبوا .

لذلك ، نقول عمَّا ينتج من هذه السعاية من الشر بين الناس : هذا آفة الأخذ ، يعنى : الذى سمع الشرَّ ونقله وسعى به ، وكان عليه أن يحبسَه وَيُخْفِيَه ، حتى لا تنتشر هذه الرذيلة بين الخلق .

وقد وشى واش بهمام بن عبد الله السلولى إلى زياد بن أبيه ، وكان زياد جباراً فقال للواشى : أجمع بينك وبينه ؟ فلم يجد الواشى بُدّاً من أن يقول : نعم ، فكيف ينكر ما قال ؟ ولعله قال فى نفسه : لعل الله يقضى أمراً يُخرجنى من هذه (الورطة) قبل هذه المواجهة ؟ ثم أرسل زياد إلى ابن همام فأتى به ، وقد جعل زياد الواشى فى مجلسه خلف ستار ، وأدخل همام ، فقال له : يا همام بلغنى أنك هجوتنى ، فقال : كلا ، أصلحك الله ما فعلتُ ، ولا أنت لذلك بأهل ، فكشف زياد الستار وقال : هذا الرجل أخبرنى أنك هجوتنى ، فنظر ابن همام ، فإذا هو صديق له يجالسه ، فقال له :

أَنْتَ أَمْرٌ إِمَّا ائْتَمَنْتَكَ خَالِيًا فَخُنْتَ وَإِمَّا قُلْتَ قَوْلًا بِلاَ عِلْمٍ
فَأَبُتَ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِى كَانَ بَيْنَنَا بِمَنْزِلَةِ بَيْنِ الْخِيَانَةِ وَالْإِثْمِ^(١)

يعنى : أنت مذموم فى كل الأحوال ؛ لأنك إما خُنْتَ أمانة المجلس والحديث ولم تحفظ سرّاً فضفضتُ لك به ، وإمّا اختلقتَ هذا القول كذباً وبلا علم .

وعندها خلع زياد على همام الخلع^(٢) ، لكنه لم يعاقب الواشى ، وفى هذا إشارة إلى ارتياحهم لمن ينقل إليهم ، وأن آذانهم قد أخذت على ذلك وتعودت عليه .

(١) أورد الغزالي هذه الأبيات فى « إحياء علوم الدين » ، (١٥٧/٣) ، ولكنه ذكر قصة غير هذه فى مناسبتها ، قال : « سعى رجل بزياد الأعجم إلى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما للموافقة فاقبل زياد على الرجل وقال .. » وذكر الأبيات .

(٢) الخلعة من الثياب : ما خلعت غطرحته على آخر أو لم تطرحه . كل ثوب تخلعه عنك خلعة . [لسان العرب - مادة : خلع]

ومعنى ﴿فِي آيَاتِنَا (٥١)﴾ [الحج] والآيات إما كونية ، كالشمس والقمر ، وإما معجزات ، وإما آيات الأحكام ، وسَعَوْا فيها يعنى : قالوا فيها قَوْلًا باطلاً غير الحق ، كما يسعى الواشى بالباطل بين الناس ، فهؤلاء إن نظروا فى آيات الكون قالوا : من صنع الطبيعة . وإن شاهدوا معجزة على يد نبيٍّ قالوا : سحر وأساطير الأولين ، وإن سمعوا آيات الأحكام تُتلى قالوا : شعر . وهم بذلك كله يريدون أن يُفسدوا على أهل الإيمان إيمانهم ، ويصدُّوا عن سبيل الله .

ومعنى ﴿مُعَاجِزِينَ (٥١)﴾ [الحج] جمع لاسم الفاعل معاجز مثل : مقاتل ، وهى من عَاجَزَ غير عجز عن كذا يعنى : لم يقدر عليه ، عَاجَزَ فلانٌ فلاناً يعنى باراه أيهما يعجز قبل الآخر ، فعاجزه مثل باراه ليثبت أنه الأفضل ، ومثل : سابقه ونافسه .

إذن : فالمعاجزة مفاعلة ومشاركة ، وكلمة نافسه الأصل فيها من النفس الذى نأخذه فى الشهييق ، ونُخْرِجُه فى الزفير ، والذى به يتأكسد الدم ، وتستمر حركة الإنسان ، فإن امتنع التنفس يموت ؛ لأن الإنسان يصبر على الطعام ويصبر على الماء ، لكنه لا يصبر على الهواء ولو لنفس واحد .

وقد حدثت هذه المعاجزة أو المنافسة بين سيدنا عمر وسيدنا العباس رضى الله عنهما : قال عمر للعباس : أتُنافسنى فى الماء ، يعنى : نغطس تحت الماء وننظر أيهما يُعْجِز الآخر ، ويتحمل عملية توقُّف النفس ، ومثل هذه المنافسة قد يحتال عليها الإنسان إن كتم نفسه وهو فى جَوِّ الهواء ، أما إن نزل تحت الماء حيث ينعدم الهواء ، فكيف سيحتال على هذه المسألة ؟ وتحت الماء لا يكون إلا الهواء الذاتى الذى اختزنه كل منهما فى رثته ، ومثل هذه المنافسة توضح أيهما أفسح

صَدْرًا مِنْ الْآخِرِ ، وَأَيُّهُمَا أَكْثَرُ تَحْمَلًا تَحْتَ الْمَاءِ . هَذِهِ هِيَ الْمَعْجَزَةُ .

فَمَعْنَى ﴿سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ.. (٥١)﴾ [الحج] أَيْ : يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ أَنْ يُعْجِزُونَا ، فَحِينَ نَأْتِي إِلَيْهِمْ بِكَلَامٍ بَلِيغٍ مُعْجِزٍ يَخْتَلِقُونَ كَلَامًا فَارِغًا لِيُعْجِزُونَا بِهِ ، فَأَتَى يَكُونُ لَهُمْ ذَلِكَ ؟ وَأَتَى لَهُمْ أَنْ يَطْعَنُوا بِكَلَامِهِمْ عَلَى كَلَامِ اللَّهِ ؟

ثُمَّ يُبَيِّنُ جِزَاءَ هَذَا الْفِعْلِ وَهَذِهِ الْمَكَابِرَةُ : ﴿أَوَلَسْنَاكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)﴾ [الحج] فَهَذَا حُكْمُ اللَّهِ فِيهِمْ قَضِيَّةٌ وَاضِحَةٌ مِنْ أَقْصَرِ الطَّرِيقِ ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يُعْجِزُ اللَّهَ ؟
ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ ^(١) :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى
أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ
ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾

(١) سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ : أورد الواحدي في أسباب النزول (ص ١٧٨) عن سعيد بن جبيرة قال : قرأ رسول الله ﷺ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (٥١) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٥٢)﴾ [النجم] فآلقى الشيطان على لسانه : تلك الغرائيق العلى وشفاعتهن ترجى . ففرح بذلك المشركون وقالوا : قد ذكر آلِهتنا ، فجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وقال : اعرض على كلام الله ، فلما عرض عليه فقال : أما هذا فلم آتك به ، هذا من الشيطان ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ.. (٥٢)﴾ [الحج] .

قال ابن كثير في تفسيره (٢/٢٢٩) : « قد ذكر كثير من المفسرين هنا قصة الغرائيق ، ولكنها من طرق كلها مرسله ولم أرها مسنده من وجه صحيح والله أعلم » .

وقال القرطبي في تفسيره (٦/٤٦١٢) : « الأحاديث المروية في نزول هذه الآية ، ليس منها شيء يصح » ، وقال القاضي عياض في كتاب « الشفا بتعريف حق المصطفى » : « هذا حديث لم يخرج به أحد من أهل الصحة . ولا رواه يسند سليم متصل ثقة ، وإنما أولع به وبمثلته المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب . المتلفون من الصحف كل صحيح وسقيم » .

أثارت هذه الآية جدلاً طويلاً بين العلماء ، ودخل فيه كثير من الحشَوِّ والإسرائيليات ، خاصة حول معنى ﴿تَمَنَّى﴾ (٥٢) [الحج] وهي ترد في اللغة بمعنيين ، وما دام اللفظ يحتمل معنيين فليس أحدهما أولى من الآخر إلا بمدى استعماله وشيوعه بين جمهور العربية ، ويأتى التمنى في اللغة بمعنى القراءة ، كما ورد في قول حسان بن ثابت في رثاء عثمان بن عفان رضى الله عنهما :

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ وَآخِرَهَا وَأَفَاهُ حَتَمَ الْمَقَادِرِ^(١)

يعنى : قَتَلَ عثمان وهو يقرأ القرآن ، وهذا المعنى غريب فى حَمَلِ القرآن عليه لعدم شيوعه^(٢) .

وتأتى تمنى بمعنى : أحب أن يكون الشيء ، وهذا هو القول المشهور فى لغة العرب . أما بمعنى قرأ فهو غير شائع ، ويُردّ هذا القول ، وينقضه نَقْضاً أولياً مبدئياً قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ...﴾ (٥٢) [الحج]

ومعلوم أن الرسول ينزل عليه كتاب يمكن أن يقرأه ، أما النبى فلا ينزل عليه كتاب ، بل يعمل بشرع مَنْ سبّقه من الرسل . إذن : فما دام الرسول والنبى مشتركين فى إلقاء الشيطان ، فلا بُدَّ أن تكون الأمنية هنا بمعنى : أحب أن يكون الشيء ، لا بمعنى قرأ ، فأى شيء سيقراً النبى وليس معه كتاب ؟

والذين فهموا التمنى فى قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ (٥٢) [الحج] أنه

(١) ذكره ابن منظور فى لسان العرب - مادة : منى ، بلفظ :

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ وَآخِرَهُ لَأَقَى حَتَمَ الْمَقَادِرِ

(٢) قال أبو منصور : والتلاوة تسمى أمنية لأن تالّى القرآن إذا مرّ بآية رحمة تمنّاها ، وإذا مرّ بآية عذاب تمنّى أن يؤفّاه . [لسان العرب - مادة منى] .

بمعنى : قرأ ، سواء أكانوا من العلماء المتعمقين أو السطحيين ، قالوا : المعنى إذا قرأ رسول الله القرآن تدخل الشيطان فى القراءة ، حتى يدخل فيها ما ليس منها .

وذكروا دليلاً على ذلك فى قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) ﴾ [النجم] ثم أضافوا : والغرائيق^(١) العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى . وكان الشيطان أدخل فى القرآن هذا الكلام ، ثم نسخه الله بعد ذلك ، وأحكم الله آياته .

لكن هذا القول يُشكك فى قضية القرآن ، وكيف نقول به بعد أن قال تعالى فى القرآن : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) ﴾ [الشعراء]

وقال : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ^(٢) (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) ﴾ [الحاقة]

إذن : الحق سبحانه وتعالى حفظ قرآنه وكلامه من أمثال هذا العبث ، وكيف تدخل فى القرآن هذه الكفريات ؟ وكيف تستقيم عبارتهم : والغرائيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى مع قول الله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) ﴾ [النجم] كيف ينسجم هذا وذاك ؟

(١) الغرائيق : الأصنام ، وهى فى الأصل : الذكور من طير الماء . وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله عز وجل وتشفع لهم إليه ، فشبهت بالطيور التى تعلق وترتفع فى السماء . [لسان العرب - مادة غرنق] .

(٢) الوتين : عرق فى القلب إذا قُطع مات صاحبه ، وهو الشريان الرئيسى الهام الذى يغذى الجسم بالدم النقى الخارج من القلب . [القاموس القويم ٣١٩/٢] .

فهذا الفهم فى تفسير الآية لا يستقيم ، ولا يمكن للشيطان أن يدخل فى القرآن ما ليس منه ، لكن يحتمل تدخل الشيطان على وجه آخر : فحين يقرأ رسول الله القرآن ، وفيه هداية للناس ، وفيه مواظ وأحكام ومعجزات ، أنتتظر من عدو الله أن يخلى الجو للناس حتى يسمعو هذا الكلام دون أن يشوش عليهم ، ويبلبل أفكارهم ، ويحول بينهم وبين سماعه ؟

فإذا تمتى الرسول يعنى : قرأ ألقى الشيطان فى أمنيته ، وسلط أتباعه من البشر يقولون فى القرآن : سحر وشعر وأفك وأساطير الأولين . فدور الشيطان - إذن - لا أن يدخل فى كلام الله ما ليس منه ، فهذا أمر لا يقدر عليه ولا يمكنه الله من كتابه أبداً ، إنما يمكن أن يلقى فى طريق القرآن وفهمه والتأثر به العقبات والعراقيل التى تصد الناس عن فهمه والتأثر به ، وتفسد القرآن فى نظر من يريد أن يؤمن به .

لكن ، هل محاولة تشويه القرآن هذه وصد الناس عنه جاءت بنتيجة ، وصرفت الناس فعلاً عن كتاب الله ؟

لقد خيب الله سعيه ، ولم تقف محاولاته عقبة فى سبيل الإيمان بالقرآن والتأثر به ؛ لأن القرآن وجد قلوباً وأذاناً استمعت وتأملت فآمنت وانهارت لجلاله وعظمته وخضعت لأسلوبه وبلاغته ، فآمنوا به واحداً بعد الآخر .

ثم يقول تعالى : ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج] (٥٢) يعنى : ألغى وأبطل ما ألقاه الشيطان من الأباطيل والعقبات التى أراد بها أن يصد الناس عن القرآن ، وأوضح أنها منه سبحانه ، وأنه كلام الله المعجز وأحكم الله آياته ، وأوضح أنها منه سبحانه ، وأنه كلام الله المعجز

الذى لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

هذا على قول من اعتبر أن ﴿ تَمْنَى ﴾ (٥٢) [الحج] بمعنى : قرا .

أما على معنى أنها الشيء المحبوب الذى نتمناه ، فنقول : الرسول الذى أرسله الله تعالى بمنهج الحق إلى الخلق ، فإن كان قادراً على تطبيق المنهج فى نفسه فإن أمنيته أن يُصدق وأن يُطاع فيما جاء به ، أمنيته أن يسود منهجه ويُسيطر ويسوس به حركة الحياة فى الناس .

والنبي أو الرسول هو أولى الناس بقومه ، وهو أحرصهم على نفعهم وهدايتهم ، والقرآن خير يحب للناس أن يأخذوا به عملاً بقوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »^(١) .

لكن ، هل يترك الشيطان لرسول الله أن تتحقق أمنيته فى قومه أم يضع فى طريقه العقبات ، ويحرك ضده النفوس ، فيتمرد عليه قومه حيث يذكّرهم الشيطان بما كان لهم من سيادة ومكانة سيفقدونها بالإسلام ؟

وهكذا يلتقى الشيطان فى أمنيّة الرسول ﴿ إِلَّا إِذَا تَمْنَى الْغَى الشَّيْطَانُ ﴾ فى أمنيته ﴿ (٥٢) ﴾ [الحج] وما كان الشيطان ليدع القرآن ينفذ إلى قلوب الناس أو حتى آذانهم ، أليس هو صاحب فكرة : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ ﴾ (٧٦) ؟

[فصلت]

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال : لأخيه - ما يحب لنفسه » .

إن الشيطان لو لم يُلْقِ العِزاقيل في سبيل سماع القرآن ويُسكِّك فيه لآمن به كل مَنْ سمعه ؛ لأن للقرآن حلاوة لا تُقاوم ، وأثراً ينفذ إلى القلوب مباشرة .

ومع ذلك لم يَفْتِ ما ألقى الشيطان في عَضُدِ القرآن ، ولا في عَضُدِ الدعوة ، فأخذت تزداد يوماً بعد يوم ، ويزداد عدد المؤمنين بالقرآن المصدقين به ، المهم أن نتنبه : كيف نستقبل القرآن ، وكيف نلتقاه ، لا بد أن نستقبله استقبالَ الخالي من هوى ، فالذى يفسد الأحكام أن تُستقبل وتدخل على هوى سابق .

وسبق أن قلنا : إن الحيز الواحد لا يسع شيئين في وقت واحد ، لا بُدَّ أن تُخرج أحدهما لتُدخل الآخر ، فعليك - إذن - أن تُخلى عقلك وفكرك تماماً ، ثم تستقبل كلام الله ، وابحث فيه كما شئت ، فسوف تنتهي إلى الإيمان به شريطة أن تُصَفِّي له قلبك ، فلا تُبقِ في ذهنك ما يُعَكِّرُ صفو الفطرة التي خلقها الله فيك ، عندها سيأخذ القرآن طريقه إلى قلبك ، فإذا أُشرب قلبك حُبُّ القرآن ، فلا يزعجه بعد ذلك شيء .

ولنا في إسلام سيدنا عمر مثلاً وعظَةً ، فلما سمع القرآن من أخته لأول مرة ، وقد أغلق قلبه على كفره لم يتأثر به ، وضربها حتى أدْمى وجهها ، وعندها رَقِيَ قلبه ، وتحركت عاطفته نحو أخته ، وكان عاطفة الحب زحزحت عاطفة العداوة ، وكشفت عن صفاء طَبْعِهِ ، فلما سمع القرآن بعدها آمن به على الفور^(١) .

(١) قصة إسلام عمر بن الخطاب ذكرها ابن هشام في السيرة النبوية (٣٤٤/١) وفيها أنه قال : « لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختته : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله . فاصنع ما بدا لك ، فلما رأى عمر ما باخته من الدم ندم على ما صنع فارغوى » .

كذلك ، إن أردت أن تناقش قضية الإيمان أو الكفر ، وأن تختار بينهما ؛ لانهما لا يجتمعان أبداً ، ولا بد أن تختار ، فحين تناقش هذه القضية وأنت مُصرٌّ على الكفر فلن تصل إلى الإيمان ؛ لأن الله يطبع على القلب المُصرّ فلا يخرج منه الكفر ، ولا يدخله الإيمان ، إنما أخرج الكفر أولاً وتحرّر من أسرهِ ، ثم ناقش المسائل كما تحب .

كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ شِئْنِي وَفِرَادَىٰ ثَمِّ ثَفَكُورُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ۖ ۝٤٦﴾ [سبا]

أما أن تناقش قضية ، وفي ذهنك فكرة مُسبقة ، فانت كهؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۖ ۝١٦﴾ [محمد] يعنى : ما الجديد الذى جاء به ؟ وما المعجزة فى هذا الكلام ؟ فيأتى الرد : ﴿ أَوَلَمْ نَكُ الْذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ ۝١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ ۝١٧﴾ [محمد]

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه عن القرآن :

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۖ ۝٤٤﴾ [فصلت]

فالقرآن واحد ، لكن المستقبل مختلف ، وقد ذكرنا أنك حين تريد أن تبرد كوب الشاي الساخن فإنك تنفخ فيه ، وكذلك إن أردت أن تُدفئ يدك فى برد الشتاء فإنك أيضاً تنفخ فيها ، كيف - إذن - والفاعل واحد ؟ نعم ، الفاعل واحد ، لكن المستقبل للفعل مختلف .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُّسُولٍ وَلَا نَبِئٍ ۖ ۝٥٢﴾ [الحج]

(من) هنا للدلالة على العموم وشمول كل الأنبياء والرسل السابقين ، فكل نبي أو رسول يتمنى يعنى : يودّ ويحب ويرغب أن ينتشر دينه ويُطبّق منهجه ، ويؤمن به جميع قومه ، لكن هيهات أن يتركه الشيطان وما أحبّ ، بل لا بدّ أن يقف له بطريق دعوته ليصدّ الناس عنه ويصرفهم عن دعوته ومنهجه ، لكن فى النهاية ينصر الله رسّله وأنبياءه ، وينسخ عقبات الشيطان التى ألقاها فى طريق الدعوة ، ثم يُحكّم الله آياته ، ويؤكدّها ويظهرها ، فتصير مُحْكَمَةً لا ينكرها أحد .

وساعةً تسمع كلمة ﴿ أَلْقَى (٥٢) ﴾ [الحجّ] فاعلم أن بعدها عقبات وشروراً ، كما يقول تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ (٦٤) [المائدة]

ومما قاله أصحاب الرأى الاول فى تفسير ﴿ تَمَنَّى (٥٢) ﴾ [الحجّ] وأنها بمعنى قرأ : يقولون : إن الله تعالى يُنزل على رسوله ﷺ أشياء تُثبت بشريته ، ثم يمحو الله آثار هذه البشرية ليبين أن الله صنعه على عينه ، حتى إن همت بشريته بشيء يعصمه الله منها .

لذلك يقول ﷺ : « يَرُدُّ عَلَى فَاقُول : أنا لست كاحدكم ، ويؤخذ منى فاقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

إذن : فالرسول بشر إلا أنه يوحى إليه ما يعصمه من زلات البشر .

ومن بشريته ﷺ أنه تعرّض للسحر ، وهذه واقعة لا تُنكر ، وقد ورد فيها أحاديث صحيحة ، وقد كاد الكفار لرسول الله بكل أنواع الكيد : استهزاءً ، وسباباً ، واضطهاداً ، وإهانة ، ثم تأمروا عليه بليل ليقتلوه ، وبيّتوا له ، فلم يفلحوا قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ

كَفَرُوا لِيُخَيِّبُواكَ ^(١) أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ
الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ [الأنفال]

وكاد الله لرسوله وأخرجه من بينهم سالماً ، وهكذا فضح الله
تبييتهم وخيِّب سعيهم ، وفشلت محاولاتهم الجهرية والسرية فلجئوا
إلى السحرة ليفعلوا برسول الله ما عجزوا هم عنه ، وعملوا لرسول
الله سحراً في مُشْطٍ ومُشَاطَةٍ من شعره ﷺ وطلع نخلة ذكر
ففضحهم الله ، وأخبر رسوله بذلك فأرسل الإمام علياً فأتى به من
بئر ذروان ^(٢) .

وكان الحق سبحانه يريد أن يُبين لنا بشرية الرسول ، وأنه
يجرى عليه ما يجري على البشر ، لكن ربه لا يترك بشريته وحدها ،
وإنما يعصمه بقيوميته .

وهذا المعنى هو ما قصده أصحاب الرأي الأول : أن الرسول
يطراً عليه ما يطراً على البشر العادي ، لكن تتدخل السماء لتعصمه .
ونحن نختار الرأي الآخر الذي يقول أن تعنى بمعنى ودٍّ وأحب .
ثم تختتم الآية بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج]
عليم بكيد الشيطان ، وتدبيره ، حكيم في علاج هذا الكيد .

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾

(١) أى : ليحبسوك ويقتلك فى مكانك بمكة تحت سيطرتهم . وقيل : ليقيدوك . [القاموس
القيوم ١٠٥/١] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢١٨٩) من حديث
عائشة رضى الله عنها .

ولسائل أن يقول : إذا كان الله تعالى ينسخ ما يلقي الشيطان ، فلماذا كان الإلقاء بداية ؟

جعل الله الإلقاء فتنة ليختبر الناس ، وليُمَيِّزَ مَنْ يَنْهَضُ بِأَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ ، فَهِيَ مَسْئُولِيَّةٌ لَا يَقُومُ بِهَا إِلَّا مَنْ يَنْفِذُ مِنَ الْفِتَنِ ، وَيَنْجُو مِنْ إِغْرَاءَاتِ الشَّيْطَانِ ، وَيَتَخَطَّى عَقَبَاتِهِ وَعِرَاقِيلَهُ ؛ لِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (١١٠) [آل عمران]

وما تبوأتم هذه المنزلة إلا لأنكم أهل لحمل هذه الأمانة ، تمرُّ بكم الفتن فتهازون بها ولا تززعكم ؛ لِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مُرْسٌ ﴾ (٥٣) [الحج] أَيْ : نِفَاقٌ ، فَإِنَّ تَعَرُّضَ لِفِتْنَةِ انْقِلَابٍ عَلَى وَجْهِهِ . يَقُولُ كَمَا يَقُولُونَ : سِحْرٌ وَكَذِبٌ وَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

وكذلك فتنة ﴿ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٥٤) [الحج] وهم الذين فقدوا لين القلب ، فلم ينظروا إلى الجميل عليهم في الكون خَلْقًا وَإِجَادًا وَإِمَادًا ، وَلَمْ يَعْتَرَفُوا بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَسْتَبْشِرُوا بِهِ وَيَأْتُوا إِلَيْهِ .

ونحن نلاحظ الولد الصغير يأنس بأمه وأبيه ، ويركن إليهما ؛ لِأَنَّهُ ذَاقَ حَنَانَهُمَا ، وَتَرَبَّى فِي رِعَايَتِهِمَا ، فَإِنَّ رَبَّهُ مِثْلًا الْمَرْبِيَةِ حَتَّى فِي وَجُودِ أُمِّهِ فَإِنَّهُ يَمِيلُ إِلَيْهَا ، وَيَأْلَفُ حَضْنَهَا ، وَلَا يَلْتَفِتُ لِأُمِّهِ ، لِمَاذَا ؟ لِأَنَّهُ نَظَرَ إِلَى الْجَمِيلِ ، مِنْ أَيْنَ أَتَاهُ ، وَمَنْ صَاحِبَ الْفَضْلِ عَلَيْهِ فَرَّقَ لَهُ قَلْبَهُ ، بِصَرْفِ النَّظَرِ مَنْ هُوَ صَاحِبُ الْجَمِيلِ .

فهؤلاء طرأوا على كَوْنِ اللَّهِ ، لَا حَوْلَ لَهُمْ وَلَا قُوَّةَ ، فَاسْتَقْبَلَهُمْ بِكُلِّ أَلْوَانِ الْخَيْرِ ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ قَاسِيَةً مُتَحَجِّرَةً لَا تَعْتَرِفُ بِجَمِيلِ .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٣) [الحج]
 فهم ظالمون أولاً لأنفسهم حين نظروا إلى منفعة عاجلة قليلة ، وتركوا
 منفعة كبيرة دائمة . والشِّقَاق : الخلاف ، ومنه قولنا : هذا في شِقْ ،
 وهذا في شِقْ ، يعنى : غير ملتزمين ، وليتبه شِقَاق هَيْن يكون له
 اجتماع والتئام ، ليتبه كشِقَاق الدنيا بين الناس على عَرَضٍ من أعراض
 الحياة ، إنما هم في شِقَاقٍ بعيد . يعنى : أثره دائم ، وأثره فظيع .
 إذن : العلة الأولى لما يلقى الشيطان أن يكون فتنة . أما العلة
 الثانية ففي قوله تعالى :

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
 فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٤)

قوله تعالى : ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ (٥٤) [الحج]
 يعنى : يتأكدوا تأكيداً واضحاً أن هذا هو الحق ، مهما شوش عليه
 المشوشون ، ومهما قالوا عنه : إنه سحر ، أو كذب ، أو أساطير الأولين ؛
 لأن الله سيُبطل هذا كله ، وسيقف أهل العلم والنظر على صدق القرآن بما
 لديهم من حقائق ومقدمات واستدلالات يعرفون بها أنه الحق .

وما دام هو الحق الذى لم تزعزعه هذه الرياح الكاذبة فلا بد أن
 يؤمنوا به ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ (٥٤) [الحج] ثم يتبع هذا الإيمان عملٌ وتطبيق
 ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ﴾ (٥٤) [الحج] يعنى : تخضع وتخضع وتلتين وتستكين .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ
 مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٤) [الحج]

سُورَةُ الْحَجِّ

﴿ ٩٨٨٣ ﴾

فمسألة كيد الشيطان وإلقائه لم تنته بموت الرسول ، بل هو قاعد لأمته من بعده ؛ فالشيطان يقعد لامة محمد كلها ، ولكل مَنْ حمل عنه الدعوة .

يقول تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ (١١٢) [الأنعام]

يعنى : دعهم جانباً فإله لهم بالمرصاد ، فلماذا - إذن - فعلوه ؟ وما الحكمة ؟

يقول تعالى : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴾ (١٤١) [آل عمران]
وقال : ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ (١١٣) [الأنعام]
فمهمة الشيطان أن يستغل ضعف الإيمان ، ومن يعبدون الله على حرف من أصحاب الاحتجاجات التبيرية الذين يريدون أن يبرروا لأنفسهم الانغماس فى الشهوة والسير فى طريق الشيطان ، وهؤلاء يحلو لهم الطعن فى الدين ، ويتمنون أن يكون الدين والقيامة والرب أوهاماً لا حقيقة لها ، لأنهم يخافون أن تكون حقيقة ، وأن يتورطوا بأعمالهم السيئة ونهايتهم المؤلمة ، فهم - إذن - يستبعدون القيامة ويقولون : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (١٦) [الصافات]

لماذا ؟ لأنه يريد أن يبرر سلوكه ، إنه يريد أن يخرج نفسه من ورطة ، لا مخرج منها ، وهؤلاء يتبعون كل ناعق ، ويجرون وراء كل شبهة فى دين الله يتلقفونها ويرددونها ، ومرادهم أن يهدموا الدين من أساسه .

نسمع من هؤلاء المسرفين على أنفسهم مثلاً مَنْ يعترض على

تحريم الميتة وأكل الذبيحة ، وهذا دليل على خميرة الشرك والكفر في نفوسهم ، ولهم حجج واهية لا تنطلي إلا على أمثالهم من الكفرة والمنافقين ، وهذه مسألة واضحة ، فالموت غير القتل ، غير الذبح .

الموت : أن تخرج الروح أولاً دون نقض بنية الجسم ، وبعد خروج الروح ينقض بناء الجسد ، أما القتل فيكون بنقض البنية أولاً ، ويترتب على نقض البنية خروج الروح ، كان يُضرب الإنسان أو الحيوان على رأسه مثلاً ، فيموت بعد أن اختل مخه وتهشم ، فلم يعد صالحاً لبقاء الروح فيه .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ۖ ﴾ (١١٤) [آل عمران] إذن : فالموت غير القتل .

وقد مثلنا لذلك بضوء الكهرباء الذي نراه ، والذي يسرى في الأسلاك ، ويظهر أثره في هذه اللمبات ، نحن لا نعرف حتى الآن كنه هذه الكهرباء وماهية هذا الضوء ، إنما نراه وننعم به ، فإذا ما كُسرت هذه اللمبة ينطفئ النور ؛ لأنها لم تعد صالحة لاستقبال هذا النور ، رغم أنه موجود في الأسلاك ، إذن : لا يظهر نور الكهرباء إلا في بنية سليمة لهذا الشكل الزجاجي المفرغ من الهواء .

كذلك الروح لا تسكن الجسم ، ولا تبقى فيه إلا إذا كانت له مواصفات معينة ، فإن اختلّت هذه المواصفات خرجت الروح من الجسد .

أما الذبح فهو أيضاً إزهاق روح ، لكن بأمر الله خالقها وبرخصة منه سبحانه ، كأن يُقتل إنسان في قصاص ، أو في قتال مشروع ، أو نذبح الحيوان الذي أحله الله لنا وأمرنا بذبحه ، ولولا أمر الله بذبحه ما ذبحناه ، ولولا أن الله أحله ما أكلناه ، بدليل أننا لا نأكل ما لم يحل لنا من الحيوانات الأخرى .

والذين يجادلون في عملية الذَّبْحِ الشرعية ، ويُزهقون أرواح
الحيوان بالخنق مثلاً غفلوا عن الحكمة من الذبح : الذبح إراقة للدم ،
وفى الدم مواد ضارة بالإنسان يجب أن يتخلص منها بتصفية دم
ذبيحته ؛ لأن بها كمية من الدم الفاسد الذي لم يمرّ على الكلية لتنقيته .

فالمسلم حريص على أن يحمل منهج رسول الله ﷺ ، وحريص
على أن يسود هذا المنهج حركة الحياة ، لكن لن يدعَ الشيطان يُحقِّق
هذه الأمنية ، كما لم يدع رسول الله ﷺ من قبل ، فكَيْدُهُ وَالْقَاوِهُ لم ينتهِ
بموت الرسول ، وإنما هو باقٍ ، وإلى أن تقوم الساعة .
لذلك يقول تعالى في الآية بعدها :

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ
السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾

قوله : ﴿فِي مِرْيَةٍ (٥٥)﴾ [الحج] يعنى : فى شك من هذا ، لذلك
قلنا : إن أتباع رسول الله ﷺ مكلفون من الله بأن يكونوا امتداداً
لرسالته : ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ
شَهِيداً..﴾ [البقرة] (١٤٣) شهداء أنكم بلّغتم كما كان الرسول شهيداً
عليكم ، فكلُّ مَنْ كَانَ مبعوث من الله ، وكما شهد رسول الله عليه أنه
أبلغه ، كذلك هو يشهد أنه بلّغ من بعد رسول الله ؛ لذلك جاءت هذه
الآية للأمريين ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على
الناس .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما حملنا هذه الرسالة قال :
ما دُمتم امتداداً لرسالة الرسول ، فلا بُدَّ أن تتعرّضوا لما تعرّض له

الرسول من استهزاء وإيذاء وإلقاء فى أمنياتكم ، فإن صمدتم فإن الله تعالى ينسخ ما يلقى الشيطان ، وينصر فى النهاية أوليائه ، وسيظل الإسلام إلى أن تقوم الساعة ، وسيظل هناك أناس يُعَادُونَ الدين ويُشْكُونَ فيه ، وسيظل الملحدون الذين يُشْكُونَ الناس فى وجود الله يخرجون علينا من حين إلى آخر بما يتناقض ودين الله كقولهم : إن هذا الكون خلق بالطبيعة ، وترى وتسمع هذا الكلام فى كتاباتهم ومقالاتهم .

ولم يَسْلَمْ العلم التجريبي من خرافاتهم هذه ، فإن رأوا الحيوان منسجماً مع بيئته قالوا : لقد أمدته الطبيعة بلون مناسب وتكوين مناسب لبيئته .

وفي النبات حينما يقفون عند آية من آياته مثلاً : ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ۚ ﴾ [الرعد] يقولون : إن النبات يتغذى بعملية الانتخاب ، يعنى النبات هو الذى ينتخب ويختار غذاءه ، ففى التربة الواحدة وبالماء الواحد ينمو النبات الحلو والمر والحمضى والحريف ، فبدل أن يعترفوا لله تعالى بالفضل والقدرة يقولون : الطبيعة وعملية الانتخاب .

وقد تحدثنا مع بعض هؤلاء فى فرنسا ، وحاولنا الرد عليهم وإبطال حججهم ، وأبسطها أن عملية الانتخاب تحتاج إلى إرادة واعية تُمَيِّز بين الأشياء المنتخبة ، فهل عند النبات إرادة تُمكنه من اختيار الحلو أو الحامض ؟ وهل يُميز بين المرّ والحريف ؟

إنهم يحاولون إقناع الناس بدور الطبيعة ليعبدوا عن الأذهان قدرة الله فيقولون : إن النبات يتغذى بخاصية الانابيب الشعرية يعنى : أنابيب ضيقة جداً تشبه الشعرة فسميت بها ، ونحن نعرف أن الشعرة

عبارة عن أنبوبة مجوفة . وحين تضع هذه الأنبوبة الضيقة في الماء ، فإن الماء يرتفع فيها إلى مستوى أعلى ؛ لأن ضغط الهواء داخل هذه الأنبوبة لضيقها أقل من الضغط خارجها لذا يرتفع فيها الماء ، أما إن كانت هذه الأنبوبة واسعة فإن الضغط بداخلها سيساوى الضغط خارجها ، ولن يرتفع فيها الماء .

فَقُلْنَا لَهُمْ : لو أحضرنا حوضاً به سوائل مختلفة ، مُذاب بعضها في بعض ، ثم وضعنا به الأنابيب الشُّعْرِيَّةَ ، هل سنجد في كل أنبوبة سائلاً معيناً دون غيره من السوائل ، أم سنجد بها السائل المخلوط بكل عناصره ؟

لو قمتَ بهذه التجربة فستجد السائل يرتفع نعم في الأنابيب بهذه الخاصية ، لكنها لا تُمَيِّزُ بين عنصر وآخر ، فالسائل واحد في كل الأنابيب ، وما أبعد هذا عن نمو النبات وتغذيته .

وَصَدَقَ اللهُ حِينَ قَالَ : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) ﴾ [الاعلى]

إذن : ما أبعدَ هذه التفسيرات عن الواقع ! وما أجهلَ القائلين بها والمروجين لها ! خاصة في عصر ارتقى فيه العلم ، وتقدّم البحث ، وتنوّعت وسائله في عصر استنارت فيه العقول ، واكتُشِفَت أسرار الكون الدالة على قدرة خالقه عز وجل ، ومع ذلك لا يزال هناك مبطلون .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً .. (٥٥) ﴾ [الحج]

فهم - إذن - موجودون في أمة محمد إلى أن تقوم الساعة ،

وستواجههم نحن كما واجههم رسول الله ، وسيظل الشيطان يلقي في نفوس هؤلاء ، ويوسوس لهم ، ويوحى إلى أوليائه من الإنس والجن ، ويضع العقبات والعراقيل ليصد الناس عن دين الله . هذا نموذج من إلقاء الشيطان في مسألة القمة ، وهي الإيمان بالله .

كما يلقي الشيطان في مسألة الرسول ، فنجد منهم من يهاجم شخصية رسول الله ﷺ ، وكيف وهو الأمي البدوي يقود أمة ويتهمونه ويخوضون في حقه ، وفي مسألة تعدد زوجاته ﷺ .. الخ مما يمثل عقبة في سبيل الإيمان به ﷺ .

ونعجب لهجوم هؤلاء على رسول الله طالما هم كافرون به ، إن هذا الهجوم يحمل في طياته إيمانا بأنه رسول الله ، وإلا لما استكثروا عليه ولما انتقدوه ، فلو كان شخصاً عادياً ما تعرض لهذه الانتقادات.

لذلك لا تناقش مثل هؤلاء في مسألة الرسول ، إنما في مسألة القمة ، ووجود الإله ، ثم الرسول المبلّغ عن هذا الإله ، أما أن تخوض معهم في قضية الرسول بدايةً فلن تصل معهم إلى حل ؛ لأنهم يضعون مقاييس الكمال من عندهم ، ثم يقيسون عليها سلوكيات رسول الله ، وهذا وضع مقلوب ، فالكمال نأخذه من الرسول ومن فعله ، لا نضع له نحن مقاييس الكمال .

ثم يشككون بعد ذلك في الأحكام ، فيعترضون مثلاً على الطلاق في الإسلام ، وكيف نفرق بين زوجين ؟ وهذا أمر عجيب منهم ، فكيف نجبر زوجين كارهين على معاشرة لا ينفونها ، وكأنهما مقترنان في سلسلة من حديد ؟ كيف وأنت لا تستطيع أن تربط صديقاً بصديق لا يريده ، وهو لا يراه إلا مرة واحدة في اليوم مثلاً ؟ فهل تستطيع أن تربط زوجين في مكان واحد ، وهما مامونان على بعض في حال الكراهية ؟

سُورَةُ الْحَجِّ

٩٨٨٩

وَيُخَيِّبُ اللَّهُ سَعْيَهُمْ ، وَيُظْهِرُ بطلان هذه الأفكار ، وتُكْجِثُهُمْ أحداث الحياة ومشاكلها إلى تشريع الطلاق ، حيث لا بديلَ عنه لحلٍّ مثل هذه المشاكل .

وقد ناقش هؤلاء كثيراً في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [التوبة]

وفي قوله : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [الصف] ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف]

يقولون : ومع ذلك لم يتم الدين ، ولا يزال الجُمهرة العالمية في الدنيا غيرَ مؤمنين بالإسلام ، يريدون أن يُشَكِّكُوا في كتاب الله . وهذا القول منهم ناشئ عن عدم فهم الآية ، ولمعنى ﴿ لِيُظْهِرَهُ ﴾ [التوبة] فهي لا تعنى أن ينتصر الإسلام على كل ما عداه انتصاراً يمحو المخالفين له .

إنما يُظْهِرُهُ يعنى : يكتب له الغلبة بصدق حُجَّجِهِ وقضاياه على كُرْهِ من الكافرين والمشركين ، فهم - إذن - موجودون ، لكن يظهر عليهم ، ويعلو دين الإسلام ، ويضطرون هم للأخذ بقوانينه وتشريعاته حلاً لمشاكلهم ، وكونهم يتخذون منه حلاً لمشاكلهم وهم كافرون به أبلغ في الردِّ عليهم لو آمنوا به ، فلو آمنوا بالإسلام ما كان ليظهر عليهم ويعلوهم .

فما كنتم تُشَكِّكون فيه وتقولون إنه ما كان يصدر من إله ولا من رسول ، فما هي الأيام قد عضتكم بأحداثها وتجاربها وألجأتكم إلى هذا الحكم الذى تعارضونه ، وما أنتم تُشرِّعون بتشريع الإسلام وأنتم كافرون به ، وهذا دليل ظهوره عليكم .

ومعنى ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ۝٥٥﴾ [الحج] يعنى : فجأة ، وقد تكلم العلماء فى معنى الساعة : أهى يوم القيامة ، أم يوم يموت الإنسان ؟ الساعة تشمل المعنيين معاً ، على اعتبار أن مَنْ مات فقد قامت قيامته حيث انقطع عمله ، وموت الإنسان يأتى فجأة ، كما أن القيامة تاتى فجأة ، فهما - إذن - يستويان .

لكن ، إن كانت الساعة بغتة تفجؤهم بأحوالها ، فما العلامات الصَّغْرَى ؟ وما العلامات الكبرى ؟ أليست مقدمات تاذن بحلول الساعة ، وحينئذ لا تُعَدُّ بغتة ؟ قالوا : علامات الشيء ليست هى إذن وجوده ، العلامة تعنى : قُرْب موعده فانتبهوا واستعدُّوا ، أمّا وقت حدوثه فلا يعلمه أحد ، ولا بُدَّ أَنْ يأتى بغتة رغم هذه المقدمات .

ثم يقول تعالى : ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾ [الحج] البعض^(١) اعتبر : ﴿عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾ [الحج] يعنى القيامة ، وبالتالي فالساعة تعنى الموت ، وآخرون^(٢) يقولون : ﴿عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾ [الحج] المراد يوم بدر الذى فصل الله فيه بين الحق والباطل .

وهذا اجتهاد يُشْكِرُونَ عليه ، لكن لما نتأمل الآية : ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ۝٥٥﴾ [الحج] يعنى : المرية مستمرة ، لكن بدرجة انتهت ، المرية ستظل إلى أن تقوم الساعة^(٣) .

ولا مانع أن تكون الساعة بمعنى القيامة ، واليوم العقيم أيضاً هو

(١) قاله الضحاك . ومجاهد . قالوا : يوم القيامة لا ليلة له . [نقله القرطبي فى تفسيره ٤٦١٩/٦ ، والسيوطى فى الدر المنثور ٧٠/٦] .

(٢) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة . [نقله القرطبي فى تفسيره ٤٦١٩/٦] .

(٣) قال ابن كثير فى تفسيره (٢٢١/٣) : « هذا القول هو الصحيح ، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا ، لكن هذا هو المراد ، ولهذا قال : ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۝٥٦﴾ [الحج] » .

سُورَةُ الْحَجِّ

٩٨٩١

يوم القيامة ، فيكون المدلول واحداً ، لأن هناك فرقاً بين زمن الحدث والحدث نفسه ، فالساعة هي زمن يوجد فيه الحدث وهو العذاب ، فالساعة أولاً ثم يأتي العذاب ، مع أن مجرد قيام الساعة في حد ذاته عذاب .

ومعنى ﴿عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] العقيم : الذي لا يلد ، رجل كان أو امرأة ، فلا يأتي بشيء بعده ، ومنه قوله تعالى عن سارة امرأة إبراهيم عليه السلام : ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩)﴾ [الذاريات] وكذلك يوم القيامة يوم عقيم ، حيث لا يوم بعده أبداً ، فهي نهاية المطاف على حد قول أحدهم : حَبَّتْهُمْ بِهِ الدُّنْيَا وَادْرَكَهَا الْعُقْمُ .

أو ﴿عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] بمعنى : أنها لا تأتي بخير ، بل بشر ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّمِيمِ (٤٢)﴾ [الذاريات]

ذلك لأن الريح حين تهب ينتظر منها الخير ، إما بسحابة ممطرة ، أو تحريك لقاح الذكورة بالأنوثة ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ (٢٧)﴾ [الحجر] أما هذه فلا خير فيها ، ولا طائل منها ، وليتها تقف عند عدم النفع ، ولكن تتعداه إلى جلب الضرر ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّمِيمِ (٤٢)﴾ [الذاريات] فهي تدمر كل شيء تمر عليه .

وكما جاء في قوله سبحانه : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرٌ نَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدْمِرُ كُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ (٢٥)﴾ [الاحقاف]

فالمعنى : إذن - ﴿عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] لا خير فيها ولا نفع ، بل فيها الشر والعذاب ، أو عقيم يعنى : لا يأتي يوم بعده ؛ لأنكم تركتم

دنيا الاغيار ، وتقلب الأحوال حال بعد حال ، فالدنيا تتقلب من فقر إلى غنى ، ومن صحة إلى مرض ، ومن صغر إلى كبر ، ومن أمن إلى خوف ، وتتحول من صيف إلى شتاء ، ومن حر إلى برد ، ومن ليل إلى نهار .. وهكذا .

أما في الآخرة فقد انتقلتم من عالم الاغيار الذي يعيش بالاسباب إلى عالم آخر يعيش مع المسبب سبحانه ، وإلى يوم آخر لا يوم بعده ، كأنه عقم أن يكون له عقب من بعده أو مثيل له ، كما لو حضرت حفلاً مثلاً قد استكمل ألوان الكمال والنعم ، فنقول : هذا حدث لا يتكرر يعنى : عقيم لا يأتى بعده مثله .

وإذا كنت في الدنيا تعيش بالاسباب التي خلقها الله لك ، فانت في الآخرة ستجلس مستريحاً تتمتع بالمسبب عز وجل ، ويكفى أن يخطر الشئ ببالك ، فتراه بين يديك ؛ ولأن القيامة لا اغيار فيها ولا تقلب ، فسيظل الجميع كل على حاله في سن واحدة ، لا يشيب ولا يهرم ، ولا يمرض ولا يموت .

الآ ترى إلى قوله تعالى في نساء الجنة : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا (٣٧) أَثَرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ﴾ [الواقعة]

والكاره لزوجته في الدنيا لأنها كانت تتبعه نقول له : لا تقس زوجة الدنيا بزوجة الآخرة ؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ (٥٧) ﴾ [النساء]

أى : مطهرة من كل ما كنت تكرهه فيها في الدنيا شكلاً وطبعاً وخلقاً ، فانت الآن في الآخرة التي لا يعكر نعيمها كدر .

(١) العُرب : جمع عروب ، وهى المرأة المتحبيبة إلى زوجها ، والاثراب : جمع ثرب ، وهو المساوى فى السن . [القاموس القويم ٩٩/١] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِّلّٰهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ٥٦ ﴾

ولقائل أن يقول : ليس الملك لله يومئذ ، وفي كل يوم ؟ نعم ، الملك لله في الدنيا وفي الآخرة ، لكن في الدنيا خلق الله خلقاً وملئهم ملوكاً من باطن ملكه تعالى ، لكنه ملك لا يدوم ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلِ اللّٰهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٦ ﴾ [آل عمران]

إذن : ففي الدنيا ملوك ملئهم الله أمراً من الأمور ، ففيها ملك للغير ، أما في الآخرة فالملك لله تعالى وحده : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلّٰهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ١٦ ﴾ [غافر]

وفي القيامة ﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِّلّٰهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ٥٦ ﴾ [الحج] فقد ردّ الملك كله إلى صاحبه ، وردّت الأسباب إلى مسببها .

ومعنى ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ٥٦ ﴾ [الحج] أن هناك خصومة بين طرفين ، أحدهما على حق ، والآخر على باطل ، والفصل في خصومات الدنيا يحتاج إلى شهود ، وإلى بيّنة ، وإلى يمين فيقولون في المحاكم : البيّنة على المدعى واليمين على من أنكر ، هذا في خصومات الدنيا ، أما خصومات الآخرة فقاضيها الحق - سبحانه وتعالى - الذي يعلم السرّ وأخفى ، فلا يحتاج إلى بيّنة ولا شهود ولا سلطة تُنفذ ما حكم به .

محكمة الآخرة لا تحتاج فيها إلى مُحامٍ ، ولا تستطيع فيها أن تُدَّلسَ على القاضى ، أو تُوجَّرَ شاهد زور ، لا تستطيع فى محكمة الآخرة أن تستخدم سلطتك الزمنية فتنتقض الحكم ، أو تُسقطه ؛ لأن الملك يومئذ لله وحده ، والحكم يومئذ لله وحده . هو سبحانه القاضى والشاهد والمنفذ ، الذى لا يستدرك على حكمه أحد .

وما دام هناك حكومة ، فلا بدَّ أن تسفر عن محكوم له ومحكوم عليه ، ويوضحهما قوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (٥٦) [الحج]

وهؤلاء هم الفائزون الذين جاء الحكم فى صالحهم .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (٥٧)

وهؤلاء هم الجبابرة وأصحاب السيادة فى دنيا الكفر والعناد ، والذين حكم الله عليهم بالعذاب الذى يُهينهم بعد عزَّتْهم وسلطانهم فى الدنيا ، وتلحظ أن العذاب يُوصَفُ مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه عظيم ، ومرة بأنه مُهين .

فالعذاب الأليم الذى يُؤلم صاحبه ، لكنه قد يكون لفترة ثم ينتهى ، أما العذاب العظيم فهو الدائم ، والمهين هو الذى يُذله ويدوس كرامته التى طالما اعتز بها . وأنت تجد الناس يختلفون فى تقبُّل ألوان العذاب : فمنهم مَنْ لا يؤثر فيه الضرب الموعج ولا يحركه ، لكن

سُورَةُ الْحَجِّ

٩٨٩٥

تؤلمه كلمة تجرح عزته وكرامته . لذلك جاء العذاب هكذا ألواناً :
ليستوعب كل صنوف الملكات النفسية ، ويواجه كُلاً نفس بما
يؤلمها .

• • •

ثم تكلم الحق سبحانه عن أمر كان لا بُدَّ أن نعرفه ، فالمسلمون
الأوائل في مكة أُخْرِجُوا من ديارهم وأبنائهم وأموالهم لأنهم قالوا :
ربنا الله ، ولا شك أن للوطن وللأهل والبيئة التي نشأ فيها المرء أثراً
في ملكات نفسه ، لا يمكن أن يُمَحَى بحال ، فإن غاب عنه اشتاق إليه
وتمنى العودة ، وكما يقول الشاعر :

بَلَدِي وَإِنْ جَارَتْ عَلَيَّ عَزِيزَةٌ أَهْلِي وَإِنْ ضُنُّوا عَلَيَّ كِرَامٌ

لذلك ، فطالب العالم عندما يترك بلده إلى القاهرة يقولون : لا بُدَّ
له أن يرجع ، ولو أن تعضه الأحداث والشدائد ، فيعود ليطلب من
أهله العون والمساعدة ، أو حتى يعود إليها في نهاية المطاف ليدفنوه
في تراب بلده .

وقالوا : إن سيدنا سليمان - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -
لما تفقد الطير ﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ (٢٠)
لَأُعَذِّبَنَّهُ^(١) عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢١) ﴿ [النمل]
ذلك لأنه نبي ، فالمسألة ليست جبروتاً وتعذيباً ، دون أن يسمع منه .
وقالوا : إن الطير سأل سليمان : كيف يعذب الهدد ؟ قال : أضعه

(١) قال ابن عباس : يعنى نتف ريشه . وقال عبد الله بن شداد : نتف ريشه وتشميسه . وكذا
قال غير واحد من السلف : إنه نتف ريشه وتركه ملقى يأكله الذر والنمل . [تفسير ابن

فى غير بنى جنسه ، وفى غير المكان الذى يآلفه ، يعنى : فى غير موطنه .

يقول تعالى :

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ
مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ
لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ ٥٨

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿وَالَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (٤١) [الحج] هؤلاء تحملوا الكثير ، وتعبوا فى سبيل عقيدتهم ، فلا بد أن يُعَوِّضَهُمُ اللَّهُ عَنْ هَذِهِ التَّضَحِّيَّاتِ ، لذلك يقول هنا : ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ (٥٨) [الحج] وأوضحنا أن الموت غير القتل : الموت أن تخرج الروح دون نقض للبنية ، أما القتل فهو نقض للبنية يترتب عليه خروج الروح .

﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ..﴾ (٥٨) [الحج] تعويضاً لهم عما فاتوه فى بلدهم من أهل ومال ، كما يُعَوِّضُ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ الْمَظْلُومَ فَيُعْطِيهِ أَكْثَرَ مِمَّا أَخَذَ مِنْهُ ؛ لذلك يقول سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ..﴾ (١٠٠) [النساء]

سورة الحج

٩٨٩٧

لأن مَنْ قُتِلَ فَقَدْ فَازَ بِالشَّهَادَةِ وَنَالَ إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ ، أَمَا مَنْ مَاتَ فَقَدْ حُرِمَ هَذَا الشَّرَفَ ؛ لِذَلِكَ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَمَا بِالْكَ بِأَجْرٍ مُؤَدِّيهِ رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ ؟ وَكَمَا لَوْ أَنَّ رَجُلًا مُتَّعِبًا يَسِيرُ لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ وَلَا يَجِدُ حَتَّى مَنْ يَقْرُضُهُ ، وَفَجْأَةً سَقَطَتْ رِجْلُهُ فِي حَفْرَةٍ فَتَكَدَّرَ وَقَالَ : حَتَّى هَذِهِ ؟ ! لَكِنْ سَرَعَانَ مَا وَجَدَ قَدَمَهُ قَدْ أَثَارَتْ شَيْئًا فِي التُّرَابِ لَهُ بَرِيقٌ ، فَإِذَا هُوَ ذَهَبٌ كَثِيرٌ وَقَعَ عَلَيْهِ بِنَفْسِهِ .

وَيُرْوَى أَنَّ فَضَالََةَ^(١) حَضَرَهُمْ وَهُمْ يَدْفِنُونَ شَهِيدًا ، وَآخِرَ مَا مَاتَ غَيْرَ شَهِيدٍ ، فَرَأَوْهُ تَرَكَ قَبْرَ الشَّهِيدِ وَذَهَبَ إِلَى قَبْرِ غَيْرِ الشَّهِيدِ ، فَلَمَّا سَأَلُوهُ : كَيْفَ يَتْرَكَ قَبْرَ الشَّهِيدِ إِلَى غَيْرِ الشَّهِيدِ ؟ قَالَ : وَاللَّهِ مَا أَبَالِي فِي أَىِّ حَفْرَةٍ مِنْهُمَا بُعِثْتُ^(٢) مَا دَامَ قَدْ وَقَعَ أَجْرِي عَلَى اللَّهِ ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (١٠٠) ﴾ [النساء]

ثُمَّ يَقُولُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) ﴾ [الحج] حِينَ يَصِفُ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ ذَاتَهُ بِصِفَةٍ ، ثُمَّ تَأْتِي بِصِيفَةِ الْجَمْعِ ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَدْخَلَ مَعَهُ الْخَلْقَ فِي هَذِهِ الصِّفَةِ ، كَمَا سَبَقَ أَنْ تَكَلَّمْنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

فَقَدْ أَثْبَتَ لِلْخَلْقِ صِفَةَ الْخَلْقِ ، وَأَشْرَكَهُمْ مَعَهُ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الصِّفَةِ ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَبْخُسُ عِبَادَهُ شَيْئًا ، وَلَا يَحْرِمُهُمْ ثَمَرَةَ مَجْهُودِهِمْ ، فَكُلُّ مَنْ أَوْجَدَ شَيْئًا فَقَدْ خَلَقَهُ ، حَتَّى فِي الْكَذِبِ قَالَ ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًَا .. (١٧) ﴾ [العنكبوت]

(١) هُوَ : فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ الْأَنْصَارِيُّ الْأَوْسِيُّ ، أَبُو مُحَمَّدٍ ، هَمَامِيُّ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ شَهِدَ أَحَدًا وَمَا بَعْدَهَا ، وَشَهِدَ فَتْحَ الشَّامِ وَمِصْرَ ، وَسَكَنَ الشَّامَ ، وَلَى الْقَزْوِ وَالْبَحْرَ بِمِصْرَ ، ثُمَّ وَلَاهُ مَعَاوِيَةُ قِضَاءَ دِمَشْقَ وَتَوَقَّى فِيهَا عَامَ (٥٢ هـ) [الاعلام للزركلي ١٤٦/٥] .
(٢) ذَكَرَهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٤٦٢٠/٦) وَعَزَاهُ لِابْنِ الْعِبَارِكِ أَنَّهُ ذَكَرَ عَنْ فَضَالَاتِ بْنِ عُبَيْدٍ .

لأن الخلق إيجاد من عدم ، فأنت حين تصنع مثلاً كوب الماء من الزجاج أوجدت ما لم يكن موجوداً ، وإن كنت قد استخدمت المواد المخلوقة لله تعالى ، وأعملت فيها عقلك حتى توصلت إلى إنشاء شيء جديد لم يكن موجوداً ، فأنت بهذا المعنى خالق حسن ، لكن خلق ربك أحسن ، فأنت تخلق من موجود ، وربك يخلق من عدم ، وما أوجدته أنت يظل على حالته ويجمد على خلقك له ، ولا يتكرر بالتناسل ، ولا ينمو ، وليست فيه حياة ، أما خلق ربك سبحانه فكما تعلم .

كذلك يقول سبحانه هنا : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٥٨) [الحج] فأنبت لخلقه أيضاً صفة الرزق ، من حيث هم سبب فيه ؛ لأن الرزق هو كل ما ينتفع به حتى الحرام يُعدُّ رزقاً ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. ﴾ (١٧٢) [البقرة]

نقول : فالعبد سبب في الرزق ؛ لأن الله تعالى هو خالق الرزق أولاً ، ثم أعطاك إياه تنتفع به وتعمل فيه ، وتعطي منه للغير ، فالرزق منك مناول عن الرازق الأول سبحانه ، فأنت بهذا المعنى رازق وإن كرهوا أن يُسمى الإنسان رازقاً ، رغم قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٥٨) [الحج] لماذا ؟ قالوا : حتى لا يفهم أن الرزق من الناس .

لذلك نسمع كثيراً من العمال البسطاء ، أو موظفاً صغيراً ، أو بواب عمارة مثلاً حين يفصله صاحب العمل ، يقول له : يا سيدي الأرزاق بيد الله . كيف وقد كنت تأخذ راتبك من يده ومن ماله ؟ قالوا : لأنه نظر إلى المناول الأول للرزق ، ولم ينظر إلى المناول الثاني .

أما الرزق الحسن الذى أعدّه الله للذين هاجروا فى سبيله ،
فيوضحه سبحانه فى قوله :

﴿لِيَدْخُلْنَهُمْ مُدْخِلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ
اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾

لأن الرزق قد يكون حسناً لكنه لا يُرضى صاحبه ، أما رزق الله
لهؤلاء فقد بلغ رضاهم ، والرضا : هو اقتناع النفس بشيء تجد فيه
متعة ، بحيث لا تستشرف إلى أعلى منه ، ولا تبغى أكثر من ذلك .
لذلك بعد أن ينعم أهل الجنة بنعيمها ، ممّا لا عين رأت ، ولا أذن
سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، بعدها يتجلّى الحق - سبحانه -
عليهم فيقول لعباده المؤمنين : يا عبادى أرضيتم ؟ فيقولون : وكيف
لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من العالمين ؟ قال : ألا
أعطيكم أفضل من هذا ؟ قالوا : وهل شيء أفضل مما نحن فيه ؟
قال : نعم ، أحلّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً^(١) .

ومن ذلك قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرْضَى﴾ (٥)

[الضحى]

وقوله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) أَرْجِمِ إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً
مَرْضِيَّةً (٢٨)

[الفجر]

يبالغ فى الرضا ، حيث يتعداك الرضا إلى أن تكون عيشتك
نفسها راضية ، وكأنها تعشقك هى ، وترضى بك .

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٥١٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٢٩)
كتاب الجنة وصفة نعيمها - من حديث أبى سعيد الخدرى .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (٥٩) [الحج]

عليم : بما يستحقه كل إنسان عند الحساب من النعيم ، ثم يزيد مَنْ يشاء من فضله ، فليس حساب ربك في الآخرة كحسابكم في الدنيا ، إنما حسابه تعالى بالفضل لا بالعدل .

وحليم : يحلم على العبد إن أساء ، ويتجاوز للصالحين عن الهفوات ، فإن خالط عملك الصالح سوء ، وإن خالفت منهج الله في غفلة أو هفوة ، فلا تجعل هذا يعكر صفو علاقتك بربك أو يُنقص عليك طمأنينة حياتك ؛ لأن ربك حلیم سيتجاوز عن مثل هذا على حد قولهم (حبيبك يبلغ لك الزلط)

لذلك لما وَشَى أحد المؤمنين^(١) للكفار في فتح مكة ، وهم عمر أن يقتله فنهاه رسول الله ﷺ وقال : « لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : افعالوا ما شئتم فقد غفرت لكم »^(٢)

ويكفي أنهم خرجوا بأنفسهم واقتحموا معركة غير متكافئة في العدد والعدة ، ألا نذكر لهم هذا الموقف ؟ ألم يقل الحق سبحانه : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ..﴾ (١١٤) [مرد] وَمَنْ ابْتَلَى بِشَيْءٍ يَضْعَفْ أَمَامَهُ ، فليكن قوياً فيما يقدر عليه ، وإن غلبك الشيطان في باب من أبواب الشر فشمر له أنت في أبواب الخير ، فإن هذا يُعوّض ذاك .

(١) هو حاطب بن أبى بلتعة ، وقصته أنه كاتب أهل مكة بتجهيز رسول الله ﷺ لفتح مكة ، فقال عمر : دعني أضرب عنقه فقال إنه شهيد بداراً واعتذر حاطب بأنه لم يكن له في مكة عشيرة تدفع عن أهله فقبل عذره . قال الموزياني في « معجم الشعراء » : كان أحد فرسان قریش في الجاهلية وشعرائها . قال الميائني : مات حاطب في سنة ثلاثين في خلافة عثمان وله ٦٥ سنة . [الإصابة لابن حجر ١/ ٣١٤] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٨٩٠) ، وكذا مسلم في صحيحه (٣٤٩٤) من حديث علي بن أبى طالب رضي الله عنه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ

لِيَنْصُرْنَاهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ يعنى هذا الأمر الذى تحدثنا فيه قد استقر ، وإليك هذا الكلام الجديد ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرْنَاهُ اللَّهُ .. ﴾ (٦٠)

[الحج]

الحق - سبحانه وتعالى - خلق الإنسان وجعل فيه ملكات مختلفة ليؤدى خلافته فى الأرض بحركات متوازنة ، فخلق لنا عواطف وجعل لها مهمة ، هذه العواطف لا يحكمها قانون . وخلق لنا أيضاً غرائز ولها مهمة ، لكن محكومة بقانون تعلية الغرائز عند الخلق ، فإياك أن تتعدى بغريزتك إلى غير المهمة التى خلقها الله لها .

فمثلاً ، غريزة حب الطعام جعلها الله فيك لاستبقاء الحياة ، فلا تجعلها غرضاً أصيلاً لذاتها ، فتأكل لمجرد أن تلتذ بالاكل ؛ لأنها لذة وقتية تعقبها آلام ومتاعب طويلة . وهذه الغريزة جعلها الله فى النفس البشرية منضبطة تماماً كما تضبط المنبه مثلاً ، فحين تجوع تجد نفسك تأقت للطعام وطلبته ، وإن عطشت مالت نفسك نحو الماء ، وكان بداخلك جرساً ينبهك إلى ما تحتاجه بنيتك من مقومات استبقائها .

حب الاستطلاع غريزة جعلها الله فيك لتنظر بها وتستطلع ما فى الكون من أسرار دالة على قدرة الله وعظمته ، فلا تتعدى هذا الغرض ، ولا تحرك هذه الغريزة إلى التجسس على الخلق والوقوف على أسرارهم .

التناسل غريزة جعلها الله لحفظ النوع ، فلا ينبغي أن تتعدى
ما جعلت له إلى ما حرم الله .

الغضب غريزة وانفعال قسرى لا تختاره بعقلك تغضب أو
لا تغضب ، إنما إن تعرضت لأسبابه فلا تملك إلا أن تغضب ، ومع
ذلك جعل له حدوداً وقّنه له وأمر فيه بضبط النفس وعدم النزوع .

الحب والكراهة غريزة وعاطفة لا تخضع لقانون ، ولا يحكمها
العقل ، فلك أن تحب وأن تكره ، لكن إياك أن تتعدى هذه العاطفة إلى
عمل عقلى ونزوع تعتدى به أو تظلم .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا^(١)نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا
تَعْدِلُوا .. (٨) ﴾ [المائدة]

لأن هذه المسألة لا يحكمها قانون ، وليس بيدك الحب أو الكره :
لذلك لما قابل سيدنا عمر قاتل أخيه قال له عمر : أدر وجهك عنى
فإنى لا أحبك . وكان الرجل عاقلاً فقال لسيدنا عمر : أو عدم حبك
لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ قال عمر : لا ، فقال الرجل : إنما يبكى
على الحب النساء . يعنى أحب أو اكره كما شئت ، لكن لا تتعدى
ولا تحرمنى حقاً من حقوقى .

فهل وقفنا بالفرائض عند حدودها وأهدافها ؟ لو تأملت مثلاً الغريزة
الجنسية التى يصفها البعض بملء فيه يقول : غريزة بهيمية ..
سبحان الله ألا تستحى أن تظلم البهائم لمجرد أنها لا تتكلم ، وهى
أفهم لهذه الغريزة منك ، ألا تراها بمجرد أن يخصب الذكر أنثاه

(١) شناه وشنته شناناً : أبغضه وكرهه . والشانء : المبغض . [القاموس القويم ٢٥٧/١]
وجرمه : حمله على فعل شر أو ننب أو جرم . أى : لا يحملنكم بغض قوم على عدم
العدل ، أى : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم . [القاموس القويم ١٢١/١] .

لا يقربها أبداً ، وهى لا تمكّنه من نفسها إذا ما حملت ، فى حين أنك تبالغ فى هذه الغريزة ، وتنطلق فيها انطلاقاً يُخرجها عن هدفها والحكمة منها ؟ على مثل هذا أن يخزى أن يقول مثل هذه المقولة ، والأى يظلم البهائم ، فمن الناس من هم أدنى من البهائم بكثير .

وما يقال عن غريزة الجنس فى الحيوان يقال كذلك فى الطعام والشراب .

إذن : الخالق سبحانه خلق الغرائز فىك ، ولم يكتبها ، وجعل لها منافذ شرعية لتؤدى مهمتها فى حياتك ؛ لذلك أحاطها بسيّاج من التكليف يُنظّمها ويحكمها حتى لا تشرد بك ، فقال مثلاً فى غريزة الطعام والشراب : ﴿ يَنْبِئِ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا .. ﴾ (٣١)

وقال فى غريزة حب الاستطلاع : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا .. ﴾ (١٧) [الحجرات] وهكذا فى كل غرائذك تجد لها حدوداً يجب عليك ألا تتعدها .

لذلك قلنا فى صفات الإيمان وفى صفات الكفر أن الله تعالى يصف المؤمنين بأنهم ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. ﴾ (٢٩) [الفتح] لأنهم يضعون كل غريزة فى موضعها فالشدة مع الأعداء ، والرحمة مع إخوانهم المؤمنين ، ويقف عند هذه الحدود لا يقلب مقاييسها ، ويلتزم بقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ .. ﴾ (٥٤)

وكان الخالق عز وجل يُسوينا تسوية إيمانية ، فالمؤمن لم يُخلق عزيزاً ولا ذليلاً ، إنما الموقف هو الذى يضعه فى مكانه المناسب ، فهو عزيز شامخ مع الكفار ، وذليل مُنكسر متواضع مع المؤمنين .

ويتفرع عن هذه المسألة مسألة ردّ العقوبة إذا اعتدى عليك : ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوْقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ .. (٦٠)﴾ [الحج] الحق - سبحانه وتعالى - هو خالق النفس البشرية ، وهو أعلم بنوازعها وخلجاتها ؛ لذلك أباح لك إن اعتدى عليك أن تردّ الاعتداء بمثله ، حتى لا يختمر الغضب في نفسك ، وقد ينتج عنه ما هو أشد وأبلغ في ردّ العقوبة ، يبيح لك الرد بالمثل لتنتهي المسألة عند هذا الحد ولا تتفاقم ، فمن ضربك ضربة فلك أن تُنفّس عن نفسك وتضربه مثلاً ، لك ذلك ، لكن تذكر المثلية هنا ، لا بد أن تكون تامة ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿وَأَنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ .. (١٢٦)﴾ [النحل]

وهل تستطيع أن تضبط هذه المثلية فتردّ الضربة بمثلها ؟ وهل قوتك كقوته ، وحدة انفعالك في الرد كحدة انفعاله ؟ ولو حدث وزدت في ردك نتيجة غضب ، ماذا تفعل ؟ أسمح له أن يردّ عليك هذه الزيادة ؟ أم تكون أنت ظالماً معتدياً ؟

إذن : ماذا يلجئك لمثل هذه المتاهة ، ولك في التسامح سعة ، وفي قول الله بعدها : ﴿وَلَنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾ [النحل] مخرج من هذا الضيق ؟

وسبق أن حكينا قصة المرابي اليهودي الذي قال لطالب الدين : إن تأخرت في السداد أشتط عليك أن آخذ رطلاً من لحمك . وجاء وقت السداد ولم يؤف المدين ، فرفعه الدائن إلى القاضي وأخبره بما اشتراطه عليه ، فقال القاضي : نعم من حقا أن تأخذ رطلاً من لحمه لكن بضربة واحدة بالسكين تأخذ رطلاً ، إن زاد أو نقص أخذناه منك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ

النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (٦١)

﴿ ذَٰلِكَ .. (٦١) ﴾ [الحج] يعنى ما قلته لك سابقاً له دليل ، فما هو ؟ أن الله يأخذ من القوى ويعطى للضعيف ، ويأخذ من الطويل ويعطى للقصير ، فالمسألة ليست ثابتة (أو ميكانيكا) وإنما خلقها الله بقدر . والليل والنهار هما طرفا الأحداث التى تفعلونها ، والحق سبحانه ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .. (٦١) ﴾ [الحج]

يولج الليل يعنى : يدخل الليل على النهار ، فيأخذ منه جزءاً جزءاً فيطوّل الليل ويُقصّر النهار ، ثم يدخل النهار على الليل فيأخذ منه جزءاً جزءاً ، فيطوّل النهار ويُقصّر الليل ؛ لذلك نراهما لا يتساويان ، فمرة يطول الليل فى الشتاء مثلاً ، ويقصر النهار ، ومرة يطول النهار فى الصيف ، ويقصر الليل . فزيادة أحدهما ونقص الآخر أمر مستمر ، وأغيار متداولة بينهما .

وإذا كانت الأغيار فى ظرف الأحداث ، فلا بد أن تتغير الأحداث نفسها بالتالى ، فعندما يتسع الظرف يتسع كذلك الخير فيه ، فمثلاً عندنا فى المكاييل : الكيلة والقدح والوَيْبَة وعندنا الأردب ، وكل منها يسع من المحتوى على قدر سعته . وهكذا كما نزيد أو ننقص فى ظرف الأحداث نزيد وننقص فى الأحداث نفسها .

ثم تُذِيل الآية بقوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (٦١) [الحج] سميعٌ لما يقال ، بصيرٌ بما يفعل ، فالقول يقابله الفعل ، وكلاهما عمل ، والبعض يظن أن العمل شئ والقول شئ آخر ، لا ؛ لأن

لأنك ابن أغيار دائم التقلب في الأحوال ، وربك وحده هو الثابت الذي لا يتغير .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ .. (٦٢)﴾
[الحج] كل مَا تدعيه أو تعبد به من دون الله هو الباطل ، يعنى الذى يَبْطُلُ ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)﴾
[الإسراء] يعنى : يزول ولا يثبت أبداً ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢)﴾
[الحج] العلى يعنى : كل خلقه دونه . وكبير يعنى : كل خلقه صغير .

ومن أسمائه تعالى ﴿الْكَبِيرُ (٦٢)﴾ [الحج] ولا نقول أكبر إلا فى الأذان ، وفى افتتاح الصلاة ، والبعض يظن أن أكبر أبلغ فى الوصف من كبير ، لكن هذا غير صحيح ؛ لأن أكبر ما دونه كبير ، إنما كبير مقابله صغير ، فهو سبحانه الكبير ؛ لأن ما دونه وما عداه صغير .

أما حين يناديك ويستدعيك لأداء فريضة الله يقول : الله أكبر ؛ لأن حركة الحياة وضروريات العيش عند الله أمر كبير وأمر هام لا يغفل ، لكن إن كانت حركة الحياة والسعى فيها أمراً كبيراً فالله أكبر ، فربك يُخرجك للصلاة من عمل ، ويدعوك بعدها إلى العمل : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠)﴾ [الجمعة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿الْقُرْآنُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ

مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣)﴾

﴿أَلَمْ تَرَ .. (٦٣)﴾ [الحج] إن كانت للأمر الحسى الذى تراه العين ،

مُخْضَرَّةٌ .. ﴿٦٢﴾ [الحج] يعنى : تصير بعد وقت قصير خضراء زاهية . دون أن يذكر شيئاً عن تدخل الإنسان فى هذه العملية ، فالإنسان لم يحرث ولم يبذر ولم يرو ، إنما المسألة كلها بقدرة الله ، لكن من أين أتت البذور التى كوَّنتُ هذا النبات ؟ ومن بذرها ووزعها ؟ البذور كانت موجودة فى التربة حيةً كامنة لم يُصِبْها شيء ، وإن مرَّ عليها الزمن ؛ لأن الله تعالى يحفظها إلى أن تجد الماء وتتوفر لها عوامل الإنبات فتنبت ؛ لذلك تُسمى هذا النبات (العذى) ؛ لأنه خرج بقدرة الله لا دخل لأحد فيه .

وتولَّتْ الرياح نقل هذه البذور من مكان لآخر ، كما قال تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ .. ﴿٦٣﴾ [الحجر] ولو سلسلت هذه البذرة ستجدها من شجرة إلى شجرة حتى تصل إلى شجرة أم ، خلقها الخالق سبحانه لا شجرة قبلها ولا بذرة . لذلك يُروى أن يوسف النجار وكان يرعى السيدة مريم عليها السلام ويشرف عليها ، ويقال كان خطيبها - لما رآها حاملاً وليس لها زوج سألها بأدب : يا مريم ، أتوجد شجرة بلا بذرة ؟ قالت : نعم الشجرة التى أنبتت أول بذرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ .. ﴿٦٤﴾ [الحج] اللطف هو دقة التناول للأشياء ، فمثلاً حين تريد أن تدخل خيطاً فى إبرة ، تجد الخيط لا ينفذ من ثقبها لأول مرة ، فتحاول أن تُرَقِّق من طرف الخيط وتبرمه حتى يدق فينفذ من الثقب ، فالخيط بعد أن كان غليظاً أصبح لطيفاً دقيقاً .

ويقولون : الشيء كلما لُطِّف عُنْفٌ ، فى حين يظن البعض أن الشيء الكبير هو القوى ، لكن هذا غير صحيح ، فكلما كان الشيء

لطيفاً دقيقاً كان خطره أعظم ، ألا ترى الميكروب كيف يصيب الإنسان وكيف لا نشعر به ولا نجد له ألماً ؟ ذلك لأنه دقيق لطيف ، وكذلك له مدخل لطيف لا تشعر به ؛ لأنه من الصَّغَر بحيث لا تراه بالعين المجردة .

والبعوضة كم هي هيئة صغيرة ؛ لذلك تؤلمك لدغتها بخرطومها الدقيق الذى لا تكاد تراه ، وكلما دقَّ الشيء احتاج إلى احتياط أكثر لتحمل نفسك من خطره ، فمثلاً إن أردتَ بناء بيت فى الخلاء أو منطقة نائية ، فإنك ستضطر أن تضع حديداً على الشبائيك يحميك من الحيوانات المفترسة كالذئاب مثلاً ، ثم تضع شبكة من السلك لتحملك من الفئران ، فإن أردتَ أن تحمى نفسك من الذباب والبعوض احتجت إلى سلك أدق ، وهكذا كلما صَغُر الشيء ولطف احتاج إلى احتياط أكثر .

فاللطيف هو الذى يدخل فى الأشياء بلطف ؛ لذلك يقولون : فلان لطيف المدخل يعنى : يدخل لكل إنسان بما يناسبه ، ويعرف لكل إنسان نقطة ضعف يدخل إليه منها ، كان معه (طفاشة) للرجال ؛ يستطيع أن يفتح بها أى شخصية .

لكن ، ما علاقة قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحج] بعد قوله : ﴿ فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً .. ﴾ [الحج] ؟ قالوا : لأن عملية الإنبات تقوم على مَسَامٍ وشعيرات دقيقة تخرج من البذرة بعد الإنبات ، وتمتص الغذاء من التربة ، هذه الشعيرات الجذرية تحتاج إلى لُطْف ، وامتصاص الغذاء المناسب لكل نوع يحتاج إلى خبرة ، كما

قال تعالى : ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ۖ ۝٤٤ ﴾ [الرعد]

فالارض تصبح مُخْضَرَّةً من لُطْفِ الحق سبحانه ، ومن خبرته في مداخل الاشياء ، لذلك قال بعدها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝٦٣ ﴾ [الحج]
ولدقة الشعيرات الجذرية نحرص ألا تعلق المياه الجوفية في التربة ؛ لأنها تفسد هذه الشعيرات فتتعتن وتموت فيصفر النبات ويموت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَهُهُ
لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝٦٤ ﴾

فما في السموات وما في الارض ملك لله تعالى ، ومع ذلك لا ينتفع منها الحق سبحانه بشيء ، إنما خلقها لمنفعة خلقه ، وهو سبحانه غنى عنها وغنى عنهم ، وبصفات الكمال فيه سبحانه خلق ما في السماوات وما في الارض ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝٦٤ ﴾ [الحج]

وصفات الكمال في الله تعالى موجودة قبل أن يخلق الخلق ، وبصفات الكمال خلق ، وملكيته تعالى للسماوات والارض ، ولما فيهما ملكية للظرف وللمظروف ، ونحن لا نملك السماوات ، ولا نملك الارض ، إنما نملك ما فيهما من خيرات ومنافع مما ملكنا الله له ، فهو الغنى سبحانه ، المالك لكل شيء ، وما ملكنا إلا من باطن ملكه .
والحميد : يعنى المحمود ، فهو غنى محمود ؛ لأن غناه لا يعود

وقوله تعالى : ﴿وَالْفُلُكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ..﴾ (٦٥) [الحج]
 الفلُّك : السفن ، تُطلق على المفرد وعلى الجمع ، تجرى فى البحر
 بأمره تعالى ، فتسير السفن بالريح حيث أمرها الله ، كما قال
 سبحانه : ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ ..﴾ (١٦٤) [البقرة] وهذه لا يملكها ولا
 يقدر عليها إلا الله ، وقال فى آية أخرى : ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ
 رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ..﴾ (٣٢) [الشورى]

وتأمل دقّة الاداء القرآنى من الله الذى يعلم ما كان ، ويعلم ما
 يكون ، ويعلم ما سيكون ، فلقاتل الآن أن يقول : لم نعد فى حاجة
 إلى الريح تُسير السفن ، أو توجهها ؛ لأنها أصبحت تسير الآن بالآلات
 ومحركات ، نعم السفن الآن تسير بالمحركات ، لكن للريح معنى
 أوسع من ذلك ، فالريح ليست هذه القوة الذاتية التى تدفع السفن
 على صفحة الماء ، إنما الريح تعنى القوة فى ذاتها ، أيا كانت ريحا
 أم بخارا أم كهرباء أم ذرة .. إلخ .

بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ..﴾ (٤٦)
 [الانفال] يعنى : تذهب قوتكم أيا كانت هذه القوة حتى الصياد الذى
 يركب البحر بقارب صغير يُسيّره بالمجاديف بقوة يده وعضلاته هى
 أيضا قوة ، لا تخرج عن هذا المعنى .

وهكذا يظل معنى الآية صالحا لكل زمان ولكل مكان ، وإلى أن
 تقوم الساعة .

والريح إن أفردت دلّت على حدوث شرّ وضرر ، كما فى قوله
 تعالى : ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (٤١) [الذاريات]

وقوله : ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ..﴾ (٤٦) [الانفال]

سورة الحج

وقوله : ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٤) [الاحقاف]

وَأَن جَاءَتْ بِصِيفَةِ الْجَمْعِ دَلَّتْ عَلَى الْخَيْرِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ ۚ ۞ (٢٢) ﴾ [الحجر]

وسبق أن تحدثنا عن مهمة الريح في تماسك الأشياء وقيامها بذاتها ، فالجبل الأشم الذي تراه ثابتاً راسخاً إنما ثبتَ بآثر الريح عليه ، وإحاطته به من كل جانب ، بحيث لو فُرِّغَ الهواء من أحد جوانب الجبل لانهار ، وهذه هي الفكرة التي قامت عليها القنبلة ، فالهواء هو الذي يقيم المباني والعمارات ويثبتها ؛ لأنه يحيطها من كل جانب ، فيحدث لها هذا التوازن ، فإنْ فُرِّغَ من أحد الجوانب ينهار المبنى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ..
 (٦٥) ﴾ [الحج] فالسمااء مرفوعة فوقنا بلا عمد ، لا يمسكها فوقنا إلا
 الله بقدرته وقيوميته أنْ تَقَعَ على الأرض إلا بإذنه تعالى ، كما قال
 في آية أخرى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا
 إِنْ أُمْسِكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. (٤١) ﴾ [فاطر]

﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٦٥) [الحج] فمن صفاته تعالى الرأفة والرحمة ، والفهم السطحي لهاتين الصفتين يرى أنهما واحد ، لكن هما صفتان مختلفتان ، فالرأفة تزيل الآلام ، والرحمة تزيد الإنعام ، والقاعدة أن درء المفسدة مُقَدِّمٌ دائماً على جلب المصلحة ، فربك يراف بك فيزيل عنك أسباب الألم قبل أن يجلب لك نفعاً برحمته .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بمثل : قلنا هَبْ أَنْ واحداً يرميك بحجر ، وآخر يرمى لك تفاحة ، فأيهما يشغلك أولاً ؟ لا شك ستشغل

بالحجر ، كيف تقى نفسك من ضرره ثم تحاول أن تنال هذه التفاحة ؟

لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴾ (٦٦) [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾
 إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

الحق - تبارك وتعالى - يُذَكِّرنا ببعض نعمه وبيعض العمليات التي لو تتبعناها لوقفنا بمقتضاها على نعم الله علينا ، ولم ننسها أبداً .

أولها : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ .. ﴾ (٦٦) [الحج] والإحياء : أن يعطى المحيى ما يحييه قوة يؤدي بها المهمة المخلوق لها . والإحياء الأول في آدم - عليه السلام - حين خلقه ربه وسواه ونفخ فيه من روحه ، ثم أوجدنا نحن من ذريته .

﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ .. ﴾ (٦٦) [الحج] وكما أن الخلق آية من آيات الله ، فكذلك الموت آية من آيات الله ، نراها ونلمسها ، وما دُمْتَ تُصَدِّقُ بآية الخلق وآية الموت ، وتراهما ، ولا تشك فيهما ، فحين نقول لك إن بعد هذا حياة أخرى فصدق ؛ لأن صاحب هذه الآيات واحد ، والمقدمات التي تحكم أنت بصدقها يجب أن تؤدي إلى نتيجة تحكم أيضاً بصدقها ، وما هي المقدمات بين يديك صادقة .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ .. ﴾ (٦٦) [الحج] والإحياء

يُطْلَقُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، مِنْهَا الْحَيَاةُ الْمَادِيَّةُ الَّتِي تَتِمَثَّلُ فِي الْحَرَكَةِ وَالْأَكْلَ وَالشَّرْبَ ، وَمِنْهَا الْحَيَاةُ فِي الْآخِرَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ عَنْهَا : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦٤) [العنكبوت]

وهذه هي الحياة الحقيقية ؛ لأن حياة الدنيا تعترئها الأغيار ، ويتقلب فيها الإنسان بين القوة والضعف ، والصحة والمرض ، والغنى والفقر ، والصغر والكبر ، وبعد ذلك يعترئها الزوال ، أما حياة الآخرة التي وصفها الله بأنها الحيوان يعني : مبالغة في الحياة ، فهي حياة لا أغيار فيها ولا زوال لها .

إذن : لديك حياتان : حياة لبنية المادة وبها تتحرك وتُحس وتعيش ، وحياة أخرى باقية لا زوال لها .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴾ (٧٤) [الأنفال] كيف - إذن - ونحن أحياء ؟ قالوا : لما يحييكم ليست حياة الدنيا المادية التي تعترئها الأغيار ، إنما يحييكم الحياة الحقيقية في الآخرة ، الحياة الباقية التي لا تزول ، التي قال الله عنها : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦٤) [العنكبوت] يعني : العلم الحقيقي الذي يهدي صاحبه .

فإن كانت الحياة المادية الدنيوية بنفخ الروح في الإنسان ، فبِمَ تكون الحياة الثانية ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴾ (٧٤) [الأنفال]

قالوا : هذه الحياة تكون بروح أيضاً ، لكن غير الروح الأولى ، إنها بروح القرآن الذي قال الله فيه : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. ﴾ (٥٢) [الشورى] وسمى الملك الذي ينزل به روحاً : ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ (١٩٣)

فالروح الثانية التى تُحييك الحياة الحقيقية الخالدة هى منهج الله فى كتابه الكريم ، إن اتبعته نلتَ هذه الحياة الباقية الخالدة وتمتعتَ فيها بما لا عَيْنُ رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، وهى لا مقطوعة ولا ممنوعة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ (٦٦) [الحج] كفور : صيغة مبالغة من كافر ، والكفور الذى لم يعرف للمنعم حقَّ النعمة ، مع أنه لو تبينَّها لما انفكَّ أبداً عن شكر المنعم سبحانه .

والإنسان يمرُّ بمراحل مختلفة بين الحياة والموت ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (١١) [غافر] ، فمتى سيقولون هذا الكلام ؟

قالوا : هذا يوم القيامة ، وقد أحياهم الله من موت العدم ، فأحياهم فى الدنيا ثم أماتهم ، ثم أحياهم فى الآخرة ، فهناك موت قبل إيجاد ، وموت بعد إيجاد ، ثم يأتى البعث فى القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ .. ﴾ (٦٦) [الحج] قضية قالها الخالق - عز وجل - ولم يدعها أحد لنفسه مع كثرة الكفار والملاحدة والافاقين فى كل زمان ومكان ، لم نسمع من ادعى مسألة الخلق ، وهذه قضية يجب أن نقف عندها وأن نبحث : لماذا لم يظهر من يدعى ذلك ؟ وإذا لم يدع الخلق أحدٌ ، ولم يدع الإحياء أحد ، فمن - إذن - صاحب الخلق والإحياء والإماتة ؟

إذا كان الناس يهتمون ويؤرخون لآئٍ مخترع اختراع آلة مثلاً ، فيقولون : مخترع الكهرباء فلان وعاش فى بلدة كذا ، وكان من أمره كذا وكذا ، وتعلم فى كذا ، وحصل على كذا .. الخ فكيف بمن خلقكم

شُكْرُهُ الْحَقُّ



وأحياكم من عدم ؟ خاصة وهذه المسألة لم يقبجج بادعائها أحد
فثبتت القضية له سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

(١)
﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزَعُ عَنْكَ
فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [٢٧]

الحق - سبحانه وتعالى - خلق آدم عليه السلام خليفة له في
الأرض ، وأجرى له تدريباً على مهمته بالامر الإلهي والنهي الإلهي ،
وأخبره بعبادة الشيطان له ولذريته ، وحذّره أن يتبع خطواته ، وقد
انتهت هذه التجربة بنزول آدم من الجنة إلى الأرض ليباشر مهمته
كخليفة لله في أرضه على أن يظلّ على ذكر من تجربته مع الشيطان .
وقد سخر الله له كل شيء في الوجود يخدمه ويعمل من أجله .

ثم أنزل الله عليه منهجاً ، يعمل به لتستقيم حركة حياته وحياة
ذريته ، وذكره بالمنهج التدريبي السابق الذي كلفه به في الجنة ،
وما حدث له لما خالف منهج ربه ، حيث ظهرت عورته : ﴿ وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ .. ﴾ [٢٢] [الأعراف]

كذلك إن خالفت هذا المنهج الإلهي في الدنيا ستظهر عوراتكم .
لذلك إذا رايت أي عورة في المجتمع في أي ناحية : في الاجتماع ،
في الاقتصاد ، في التربية ، فاعلم أن حكماً من أحكام الله قد عطل ،
فظهرت سواة من سوءات المجتمع ؛ لأن منهج الله هو قانون الصيانة

(١) المنسك : الموضع الذي تذبح فيه النسك . والمنسك : شرعة النسك وهو الذبح .
والمناسك : المتعبدات . [لسان العرب - مادة : نسك] .

الذى يحميك وينظم حياتك لتؤدي مهمتك فى الحياة .
كما لو دخلت بيتك فوجدت آلة من آلات البيت لا تؤدي مهمتها ،
فتعلم أن بها عطلاً فتذهب بها إلى المهندس المختص بصيانتها ، كذلك
إن تعطل فى حياتكم شئ عن أداء مهمته فردوه إلى صاحب صيانتته
إلى الله وإلى الرسول ، وهذا منطق جازم يعترف به الجميع المؤمن
والكافر أن ترد الصنعة إلى صانعها ، وإلى العالم بقانون صيانتها ،
وأنت لم يدع أحد أنه خلقتك ، فحين يحدث فيك خلل ، فعليك أن تذهب
إلى ربك وخالقك .

لذلك كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة^(١) ، ومعنى « حزبه
أمر » يعنى : شئ فوق طاقته وأسبابه ، يهرع إلى الصلاة ليعرض نفسه
على ربه عز وجل ، فإن وجدت في نفسك خللاً فى أى ناحية ، فما عليك إلا
أن تتوضأ ، وتقف بين يدي ربك ليصلح ما تعطل فيك .

وإن كان المهندس يصلح لك الآلة بشئ مادي ، ولو قطعة
صغيرة من السلك ، فإن ربك عز وجل غيب ، وعلاجه ايضاً غيب
يأتيك من حيث لا تدري .

ومنهج الله الذى وضعه لصيانة خلقه فيه أصول وفيه فروع ،
الأصول : أن تؤمن بالإله الواحد الفاعل للمختار ، وهذه قاعدة ما
اختلف عليها أى من رسالات السماء أبداً ، كما يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ
لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ .. ﴾ (١٣) [الشورى]

فهذه أصول لا يختلف عليها دين من الأديان ، لكن لما كان الناس
منثوريين فى شتى بقاع الأرض ، تعيش كل جماعة منهم منعزلة عن

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده [٢٨٨/٥] ، وأبو داود فى سننه (١٢١٩) عن حذيفة بن
اليمان رضى الله عنه .

الأخرى لبعد المسافات وانعدام وسائل الاتصال والالتقاء التي تراها اليوم ؛ والتي جعلت العالم كله قرية واحدة ، ما يحدث في أقصى الشرق تراه وتسمع به في أقصى الغرب ، وفي نفس الوقت . لما عاش الناس هذه العزلة لا يدري أحد بأحد لدرجة أنهم كانوا منذ مائتي عام يكتشفون قارات جديدة .

وقد نشأ عن هذه العزلة أن تعددت الداءات بتعدد الجماعات ، فكان الرسول أو النبي يأتي ليعالج الداءات في جماعة بعينها يبعث إلى قومه خاصة ، فهذا ليعالج مسألة الكيل والميزان ، وهذا ليعالج طغيان المال ، وهذا ليعالج انحراف الطباع وشذوذها ، وهذا ليعالج التعصب القبلي .

أما رسالة محمد ﷺ ، فجاءت في بداية التقاء الجماعات هنا وهناك ، فكانت رسالته ﷺ عامة للناس كافة ، وتجذ أصول الرسالات عند موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام أصولاً واحدة ، أما الفروع فتختلف باختلاف البيئات .

لكن ، لما كان في علمه تعالى أن هذه العزلة ستنتهي ، وأن هذه البيئات ستجتمع وتلتقي على أمر واحد وستتحد فيها الداءات ؛ لذلك أرسل الرسول الخاتم لهم جميعاً على امتداد الزمان والمكان .

وفي هذه الآية : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۚ ﴾ (٦٧) [الحج] أي : أن الحق سبحانه جعل لكل أمة من الأمم التي بعث فيها الرسل مناسك تناسب أفضية زمانهم ؛ لأنهم كانوا في عزلة بعضهم عن بعض ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ ﴾ (١٨) [المائدة]

فالشرائع تختلف في الفروع المناسبة للزمان والمكان والبيئة ،

أما الأخلاق والعقائد فهي واحدة ، فالله عز وجل إله واحد في كل ديانات السماء ، والكذب مُحَرَّم في كل ديانات السماء لم يأت نبي من الأنبياء ليبيح لقومه الكذب .

والمنسك : المنهج التعبدى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٦٢) [الأنعام]

﴿ هُمْ نَامِكُوهُ .. ﴾ (٦٧) [الحج] يعنى : فاعلوه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَلَا يَنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ .. ﴾ (٦٧) [الحج] . كان يقولوا : أنت رسول ونحن أيضاً نتبع رسولا ، له منهج وله شريعة ، نعم : لكن هذه شريعة خاتمة جاءت مهيمنة على كل الشرائع قبلها ، ومناسبة لمستجدات الأمور .

لذلك يُطمئن الحق - تبارك وتعالى - رسوله ﷺ بعدها : ﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٦٧) [الحج] يعنى : اطمئن ، فانت على الحق وادع إلى ربك ؛ لأنك على هدى مستقيم سيصل إليهم إن لم يكن إيمانا فسيكون إصلاحا وتقينا بشريا تلجئهم إليه أحداث الحياة ومشاكلها ، فلن يجدوا أفضل من شرع الله يحكمون به ، وإن لم يؤمنوا .

وكان الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : لا تنازعهم ولا ينازعونك ، وخذ ما أمرك الله به : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٩٤) [الحج] الذين يجادلونك وينازعونك فى الرسالة ، وسوف تحدث لهم أقضية بقدر ما يحدثون من الفجور ويلجئون إلى شرعك وقانونك ليحلوا به مشاكلهم .

والهدى وُصِفَ بأنه مستقيم ، لأنه هدى من الله صنعه لك ، هدى

ثم يقول الحق سبحانه : (سورة الحج : ٧٠) *أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ* (٧٠)

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

هذه قضية حكم بها الحق سبحانه لنفسه ، ولم يدعها أحد ، فلا يعلم ما في السماء والأرض إلا الله ، وهذه الآية جاءت بعد الحكم في المنازعة فربما اعترض أحد وقال : ما دام الأمر من الله أحكاماً تنظم حركة الحياة وقد جاء كل رسول بها ، فما ضرورة أن يجيء رسول الله ﷺ للناس كافة .

وقلنا : إن الدين نوعان : نوع لا يختلف باختلاف الرسل والأمم والعصور ، وهذا في القضايا العامة الشاملة التي لا تتغير ، وهي العقائد والأصول والأخلاق ، ونوع آخر يختلف باختلاف العصور والأمم ، فيأتي الحكم مناسباً لكل عصر ، ولكل أمة .

وما دام الحق سبحانه هو الذي سيحكم بين الطرفين قال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (٧٠) [الحج] أعلم كل شيء كائن في الوجود ظاهراً وباطناً ، فأننا نحكم عن علم وعن خبرة .

﴿ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ .. ﴾ (٧٠) [الحج] والعلم شيء ، والكتاب شيء آخر ، فما دام الله تعالى يعلم كل شيء ، وما دام سبحانه لا يضل ولا ينسى ، فما ضرورة الكتاب ؟

قالوا^(١) : الكتاب يعني به اللوح المحفوظ الذي يحوى كل شيء .

(١) قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن أبي حاتم وابن مردويه . أورده السيوطي في الدر المنثور (٧٤/٦) .

وفى آية أخرى قال : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۝ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ (١٥) ﴾ [ميس]

حتى القرآن نفسه فى ذلك الكتاب : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مُّجِيدٌ ۝ (٢١) فِي لَوْحٍ مُّحْفُوظٍ ۝ (٢٢) ﴾ [البروج]

وقال تعالى : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝ (٣٩) ﴾ [الزمد] ويقول تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ (٥٩) ﴾ [الانعام]

فضرورة الكتاب ليدلّ الملائكة المطلعين على أن الأشياء التى تحدث مستقبلاً كتبها الله أولاً ، فمجيئها فى المستقبل على وفق ما كتبه دليل علمه سبحانه بها ، فالذى كتب الشئ قبل أن يكون ، ثم جاء الشئ موافقاً لما كتب أكبر دليل على علمه وإحاطته .

إذن : مجيء الكتاب لا ليساعدنا على شئ ، إنما ليكون حُجَّةً عليك ، فيقال لك : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝ (١٤) ﴾ [الإسراء] ها هو تاريخك ، وها هى قصتك ، ليس كلاماً من عندنا ، وإنما فعلك والحجة عليك .

وعلم الله تعالى فى قوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. ۝ (٧٠) ﴾ [الحج] يحمل الوعد والوعيد فى وقت واحد ، وهذا من عجائب الأداء القرآنى ، أن يعطى الشئ ونقيضه ، كيف ؟ هب أن عندك ولدین اعتدى أحدهما على الآخر فى غيبتك ، فلما عدت أسرعاً بالشكوى ، كل من صاحبه ، فقلت لهما : ليهكتا لا أسمع لكما صوتاً ، وقد عرفت ما حدث وسأرتب لكل منكما ما يناسبه وما يستحقه على وفق

ما علمت ، لا شكَّ عندهما أن المظلوم سيفرج ويستبشر ، وأن الظالم سيخاف ويتغير لونه .

إذن : فعلم الله بكل شيء في السماء والأرض وإخاطته سبحانه بما يجرى بين خلقه وعُد للمحق ، ووعد للمبطل .

ثم يقول الحق سبحانه :

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾

كان العبادة - وهي : طاعة أمر واجتناب نهى - يجب أن تكون صادرة من أعلى منا جميعاً ، فليس لأحد منا أن يُشرع للآخر ، فيأمره أو ينهاه : لأن الأمر من المساوى لك لا مرجح له ، وله أن يقول لك : لماذا أنت تأمر وأنا أطيع ؟ أما إن جاء الأمر من أعلى منك فأنت تطيع بلا اعتراض ، ومعك الحجة أن الأمر من أعلى ، تقول : أبى أمرنى بكذا وكذا ، أو ربى أمرنى بكذا وكذا ، أو نهانى عن كذا وكذا .

إذن : كل دليل على حكم الفعل أو الترك لا بُدَّ أن يكون مصدره من الحق سبحانه وتعالى ، فهو الأعلى منى ومنك ، وإذا انصغت لأمره ونهيه فلا حرج على ولا ضرر : لأننى بما انصغت لمساو إنما انصعت لله الذى أنا وأنت عبيد له ، ولا غضاضة فى أن نتبع حكمه .

لذلك فى حكم أهل الريف يقولون : (اللى الشرع يقطع صباعه ميخُرش دم) لماذا ؟ لأنك ما قطعته أنت إنما قطعه الله ، فليس فى الأمر تسلط أو جبروت من أحد ، وليس فيه مذلة ولا استكانة لأحد .

ومعنى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ..﴾ (٧١) [الحج] يعنى : يعبدون غيره تعالى ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا ..﴾ (٧١) [الحج] السلطان : إما سلطان قَهْر ، أو سلطان حجة ، سلطان القهر أن يقهرك ويجبرك على ما لم تُرد فعله ، أما سلطان الحجة فيقنعك ويثبت لك بالحجة أن تفعل باختيارك ، وهذه الآلهة التى يعبدونها من دون الله ليس لها سلطان ، لا قَهْر ولا حُجَّة .

لذلك : فى جدل إبليس يوم القيامة للذين اتبعوه يقول لهم : ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ..﴾ (٢٢) [إبراهيم] يعنى : كنتم على إشارة فاستجبتم لى ، وليس لى عليكم سلطان ، لا قوة أقهركم بها على المعصية ، ولا حجة أقنعكم بها .

ثم يقول تعالى : ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ..﴾ (٧١) [الحج] يعنى : علم الاجتهاد الذى يستنبط الاحكام من الحكم المُجمل الذى يُنزله الحق تبارك وتعالى ، وهذه هى حجة العلم التى قال الله تعالى عنها : ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ..﴾ (٨٢) [النساء] يعنى : أهل العلم .

إذن : العبادة لا بُدَّ أن تكون بسلطان من الله نصاً قاطعاً وصريحاً لا يحتمل الجدل ، وإما أن تكون باجتهاد أولى العلم .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٧١) [الحج] لم يقل سبحانه : لن ينتصر الظالمون ، ولم ينب عندهم النصر : لأن هذه مسألة مُسلمة إنما لا يفزع لنصرتهم أحد ، فلن ينتصروا ولن ينصرهم أحد ، ولا يفزع أحد لينصر أحداً إلا إذا كان المنصور ضعيفاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا بُتِلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي
وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ
بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّشُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ
ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمُصِيرِينَ ﴾ (٧٢)

تصور هذه الآية حال الكفار عند سماعهم لكتاب الله وآياته من رسول الله أو صحابته ، فلماذا سمعوها ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ .. ﴾ (٧٢) [الحج] أى : الكراهية تراها وتقرؤها في وجوههم عبوساً وتقطياً وغضباً وانفعالاً ، ينكر ما يسمعون ، ويكاد أن يتحول الانفعال إلى نزوع غضبي يفتك بمن يقرأ القرآن لما بداخلهم من شر وكراهية لما يتلى عليهم .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا .. ﴾ (٧٢) [الحج] والسَّطُو : الفتك والبطش ؛ لأن العمل الوجداني الذي يشغل نفوسهم يظهر أولاً على وجوههم انفعالاً ينبىء بشيء يريدون إيقاعه بالمؤمنين ، ثم يتحول الوجدان إلى نزوع حركى هو الفتك والبطش .

(قُلْ) فى الرد عليهم : ماذا يُغضبكم حتى تسطوا علينا وتكروهوا ما نتلو عليكم من كتاب الله . والغيظ والكراهية عند سماعهم القرآن دليل على عدم قدرتهم على الرد بالحجة ، وعدم قدرتهم أيضاً على الإيمان ؛ لذلك يتقلبون بين غيظ وكراهية .

لذلك يخاطبهم بقوله : ﴿ قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِّنْ ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴾ (٧٢) [الحج] يعنى : مالى أراكم مفتاظين من آيات الله
كارهين لها الآن ، والأمر ما يزال هيناً ؟ أمجرد سماع الآيات يفعل
بكم هذا كله ؟ فما بالكم حينما تباشرون النار فى الآخرة ، الغيظ
الذى تظنونهُ شرّاً فتسخطون علينا بسببهِ أمر بسيط ، وهناك أشد منه
ينتظركم ﴿ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴾ (٧٢) [الحج]

وما أشبه هذا بموقف الصديق أبى بكر حينما أوقف صناديد
قريش بالباب ، وقدم عليهم المستضعفين من المؤمنين ، فغضبوا لذلك
وورمتم أنوفهم ، فقال لهم : أورمتم أنوفكم أن قدمتهم عليكم الآن ،
فكيف بكم حين يقدمهم الله عليكم فى دخول الجنة ؟

وكلمة ﴿ وَعَدَهَا .. ﴾ (٧٢) [الحج] الوعد دائماً يكون بالخير ، أما
هنا فاستعملت على سبيل الاستهزاء بهم والتقليل من شأنهم . كما
قال فى آية أخرى : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢٤) [الانشقاق] فساعة
أن يسمع البشرى يستشرف للخير ، فيفاجئه العذاب ، فيكون
أنكى له .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَسْتَفِشُوا يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَأَlmُهْلِ
يَشْوِى الْوُجُوهَ .. ﴾ (٢٩) [الكهف] لأن انقباض النفس ويأسها بعد بؤادر
الانسياط أشد من العذاب ذاته .

وقوله : ﴿ وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ ﴾ (٧٢) [الحج] أى : ساءت نهايتكم
ومرجعكم .

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مِثْلٍ فَأَسْتَمِعُوا لَهُ ذِكَّ الَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ
وَأِنْ يَسْأَلْنَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ
الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٣﴾﴾

قُلْنَا : الضرب إيقاع شيء على شيء بقوة ، ومنه نقول : ضربنا
الدينار يعني : بعد أن كان قطعة من الذهب أو الفضة مثلاً أصبح
عملة معروفة متداولة .

والمثل : تشبيه شيء غير معلوم بشيء آخر معلوم وعجيب وبديع
يَعْلَقُ فِي الذَّهْنِ ، كما نصف لك إنساناً لم تَرَهُ بِإِنْسَانٍ تَعْرِفُهُ . نقول :
هو مثل فلان . وهكذا كل التشبيهات : شيء تريد أن تعلمه للمخاطب
وهو لا يعلمه .

ومنه قوله تعالى : ﴿مِثْلَهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا
حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظِلْمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة]
وقوله تعالى : ﴿فَمِثْلَهُ كَمِثْلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ
يَلْهَثْ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الاعراف]

وقوله تعالى : ﴿مِثْلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمِثْلِ
الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت]

إذن : الامثال : إعلام بشيء معلوم ليصل العلم فيه إلى شيء

مجهول ، وكلمة (مثل) استقلت بأن يكون المثل بديعاً في النسخ ،
بليغاً موجزاً ، بحيث تتناقله الألسنة بسرعة في كلمات معدودة .
فلو وجدت مثلاً تلميذاً مُهملاً تكاسل طوال العام ، ولم يذاكر ،
فلما حضر الامتحان راح يجتهد في المذاكرة ، فتقول له : (قبل
الزما تملأ الكناثن) يعنى : قبل أن تصطاد بالسهام يجب أن تُعدّها
أولاً وتملأ بها كنانتك ، فهذا مثل يُضرب للاستعداد للأمر قبل
حلوه .

ومن أمثلة أهل الريف يقولون : (أعط العيش لخبازه ولو ياكل
نصفه) ويُضرب لمن يجعل الصنعة عند غير صانعها والمتخصص
فيها .
ويقولون فيمن يُقصر في الأمر المنوط به : (باب النجار
مخلع) .

وحين ترسل مَنْ يقضى لك حاجة فيفلح فيها ويأتى بالنتيجة
المرجوة يقول لك : (أبدى المخض عن الزبد) والمخض عملية خض
اللبن في القرية لفصل الزبد عن اللبن .

وهكذا ، المثل قول موجز بليغ قيل في مناسبتة ، ثم استعمله
الناس لخفته وجماله وبلاغته في المواقف المشابهة ، والمثل يظل على
حاله الأول لا يغير ، ويجب الالتزام بنصّه مع المفرد والمثنى
والجمع ، ومع المذكر والمؤنث ، فمثلاً إن أرسلت رسولا يقضى
لك حاجة ، فعندما يعود تقول له : (ما وراءك يا عصام) هكذا
بالكسر في خطاب المؤنث مع أنه رجل ، لماذا ؟ لأن المثل قيل أول

ما قيل لمؤنث ، فظل على هذه الصيغة من التانيث حتى ولو كان المخاطب مذكراً .

وقصة هذا المثل أن الحارث ملك كندة أراد أن يتزوج أم إياس ، وبعث من خطبها له ، وكان اسمها عصام ، فلما ذهبت إليها قالت لها أمها : إن فلانة جاءت تخطبك لفلان ، فلا تخفى عنها شيئاً ، ودعيها تشمك إن أردت ، وناطقها فيما استنطقك به ، فلما دخلت على الفتاة وأرادت أن ترى جسمها خلعت ثوبها ، وكشفت عن جسمها ، فقالت المرأة : (ترك الخداع من كشف القناع) فسارت مثلاً ، ثم عادت إلى الحارث فاستقبلها متعجلاً ردّها فقال : (ما وراءك يا عصام) يعنى : ما الخبر ؟ فظل المثل هكذا للمؤنث ، وإن خوطب به المذكر .

والحق - تبارك وتعالى - يضرب لكم هذا المثل ويقول : خذوه فى بالكم ، وانتبهوا له ، وافتحوا له آذانكم جيداً واعقلوه ؛ لأنه سينفعكم فى علاقتكم برسول الله وبالمؤمنين .

والخطاب هنا موجه للناس كافة ، لم يخص أحداً دون أحد : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ .. ﴾ [الحج] قلم يقل يا أيها المؤمنون ؛ لأن هذا المثل موجه إلى الكفار ، فالمؤمنون ليسوا فى حاجة إليه ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ .. ﴾ [الحج] يعنى : انصتوا وتفهموا مراده ومرماه ، لتسيروا فى حركتكم على وفق ما جاء فيه ، وعلى وفق ما فهمتم من مغزاه .

فما هو هذا المثل ؟
﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ .. ﴾

﴿ ٧٣ ﴾ [الحج]

سُورَةُ الْحَجِّ

٩٩٣٣

أى : الذين تعبدونهم وتتجهون إليهم من دون الله ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا ..﴾ (٧٢) [الحج] وهو أصغر المخلوقات ﴿وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ..﴾ (٧٣) [الحج] يعنى : تضافرت جهودهم ، واجتمع أمرهم جميعاً لا واحداً واحداً ، وهذا ترقى فى التحدى ، حيث زاد فى قوة المعاند .

كما ترقى القرآن فى تحدى العرب ، فتحداهم أولاً بأن يأتوا بمثل القرآن ، ولأن القرآن كثير تحداهم بعشر سور فما استطاعوا ، فتحداهم بسورة واحدة فلم يستطيعوا .

ثم يترقى فى التحدى فيقول : اجمعوا كل فصاحتكم وبلغاتكم ، بل والجن أيضاً يساعدونكم ولن تستطيعوا : ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ..﴾ (٨٨) [الإسراء]

وقوله تعالى : ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا ..﴾ (٧٢) [الحج] جاءت بنفي المستقبل فلم يقل مثلاً : لم يخلقوا ، فالنفي هنا للتأييد ، فهم ما استطاعوا فى الماضى ، ولن يستطيعوا أيضاً فيما بعد حتى لا يظن أحد أنهم ربما تمكنوا من ذلك فى مستقبل الأيام ، ونفى الفعل هكذا على وجه التأييد : لأنك قد تترك الفعل مع قدرتك عليه ، إنما حين تتحدى به تفعل لترد على هذا التحدى ، فأوضح لهم الحق سبحانه أنهم لم يستطيعوا قبل التحدى ، ولن يستطيعوا بعد التحدى .

ثم يقول تعالى : ﴿وَإِنْ يَسْتَبْهِمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ..﴾ (٧٢) [الحج] فقد تقول : إن عملية الخلق هذه عملية صعبة لا يتحدى بها ، لذلك تحداهم بما هو أسهل من الخلق ﴿وَإِنْ يَسْتَبْهِمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ..﴾ (٧٢) [الحج] وهل يستطيع أحد أن يعيد ما أخذه الذباب من طعامه على جناحيه أو أرجله أو خرطومه ؟

وكانوا يذبحون القرابين عند الأصنام ، ويضعون أمامها الطعام

ليباركوه ، فكانت الدماء تسيل عندها وتتناثر عليها ، فيحطّ عليها الذباب ، ويأخذ من هذه الدماء على أرجله النحيبة هذه أو على أجنحته أو على خرطوميه ، فتحدّاهم أن يعيدوا من الذباب ما أخذه ، وهذه مسألة أسهل من مسألة الخلق .

ولك أن تُجرب أنت هذه العملية ، إذا وقع ذباب على العسل الذي أمامك ، فلا بدّ أن يأخذ منه شيئاً ولو كان ضئيلاً لا يدرك ولا يؤزن ولا تكاد تراه ، لكن أتستطيع أن تمسك الذبابة وتردّ ما أخذت منك ؟

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾ (٧٢) [الحج] يعنى : كلاهما ضعيف ، فالذباب فى ذاته ضعيف وهم كذلك ضعفاء ، بدليل أنهم لن يقدرُوا على هذه المسألة ، لكن هناك ضعيف يدعى القوة ، وضعيف قوته فى أنه مُقرّ بضعفه ، فالذباب وإن كان ضعيفاً إلا أن الله تعالى قال فيه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. ﴾ (البقرة) (٢٦) يعنى : ما فوقها فى الصّغر ، ليس المراد ما فوقها فى الكبر كالعصفور مثلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ

اللَّهُ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٧٦)

يعنى : هؤلاء الكفار الذين عبدوا من دون الله آلهة لا تستطيع أن تخلق ذباباً ، ولا تستطيع حتى أن تردّ من الذباب ما أخذه ، هؤلاء ما عرفوا الله قدره ، ولو عرفوا قدر الله ما عبدوا غيره .
والقدر : يعنى مقدار الشيء ، وقلنا : إن مقادير الأشياء تختلف

حسب ما يريده من معرفة المقادير ، فالطول مثلاً له مقياس يُقاس به مقدار الطول ، لكن هذا المقياس يختلف باختلاف المقياس ، فإن أردت أن تقيس المسافة بين القاهرة والاسكندرية مثلاً لا تستخدم الملى أو السنتيمتر ولا حتى المتر ، إنما تستخدم الكيلومتر ، فإن أردت شراء قطعة من القماش تقول متر ، أما إن أردت صورة شخصية تقول سنتيمتر .

إذن : لكل شيء مقدار يُقدَّر به ، ومعيار يُقاس به ، فإن أردت المسافة تقيس الطول ، فإن أردت المساحة تقيس الطول في العرض ، فإن أردت الحجم تقيس الطول في العرض في الارتفاع ، الطول بالمتر والمساحة بالمتر المربع ، والحجم بالمتر المكعب . كذلك في الوزن تُقدِّره بالكيلو أو الرطل أو الجرام .. إلخ .

وقدر تأتي بمعنى : ضيق ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ۖ ۝ (١٦) ﴾ [الفجر]

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَلْيَنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۖ ۝ (٧) ﴾ [الطلاق]

والمقدار كما يكون في الماديات يكون أيضاً في المعنويات ، فمثلاً تعبر عن الزيادة المادية تقول : فلان كبر يعنى شبَّ وزاد ، أما في المعنويات فيقول الحق سبحانه : كَبُرَ ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۖ ۝ (٥) ﴾ [الكهف] يعنى : عظمت .

والحق - تبارك وتعالى - ليس مادة ؛ لأنه سبحانه فوق المادة ، فمعنى المقدار في حقه تعالى عظُمته في صفات الكمال فيه ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۖ ۝ (٧٤) ﴾ [الحج] ما عظَّموه حقَّ التعظيم الذي ينبغي له ،

وما عرفوا قَدْرَهُ ، ولو عرفوا ما عبدوا غيره ، ولا عبدوا أحداً معه من هذه الآلهة التي لا تخلق ذباباً ، ولا حتى تسترد ما أخذته منهم الذباب ، فكيف يُسَوِّون هؤلاء بـالله ويقارونهم به عز وجل ؟ إنهم لو عرفوا الله تعالى قَدْرَهُ لاستحيوا من ذلك كله .

ثم تُذِيل الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٧٤) [الحج] فما مناسبة هاتين الصفتين للسياق الذي نحن بصددده ؟

قالوا : لأن الحق - سبحانه وتعالى - تكلم في المثل السابق عَمَّنْ انصرفوا عن عبادته سبحانه إلى عبادة الأصنام وقال : ﴿ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾ (٧٣) [الحج] فقال في مقابل هذا الضعف إن الله لقويٌّ ، قوة عن العابد : لأنه ليس في حاجة إلى عبادته ، وقوة عن المعبود لأنه لو شاء حطمه ، وما دُمتم انصرفتم عن الله وعبدتم غيره ، فهذا فيه مُضَارَّةٌ ، وكان هناك معركة ، فإن كان كذلك فالله عزيز لا يغالب .

والآية : ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ .. ﴾ (٧٤) [الحج] وردت في عدة مواضع في كتاب الله ، منها : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ .. ﴾ (٩١) [الأنعام] فلم يعرفوا الله تعالى قَدْرَهُ لأنهم اتهموه ، وله سبحانه كمال العدل ، فكيف يكلف عباده بعبادته ، ولا يبلغهم برسول ؟ وهو سبحانه القائل : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (١٥)

[الإسراء]

فحين يقولون : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ .. ﴾ (٩١) [الأنعام] كأنهم يصفون الحق سبحانه بأنه يُعَذِّبُ الناس دون أن يبلغهم بشيء . ويرد عليهم في هذه المسألة : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى .. ﴾ (٩١)

[الأنعام]

وفي موضع آخر : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۖ﴾ (٦٧) ﴿الزمو﴾

ونقول : قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَقَدَرَهُ قَدْرَهُ ، كَانَ الْأُمُور تَخْتَلِفُ فِي تَقْدِيرِ الْأَشْيَاءِ ، فَمِثْلًا تَنْظُرُ إِلَى حَجْرَةٍ فَتَقُولُ : هَذِهِ تَقْرِيبًا $\epsilon \times 5$ هَذَا تَقْدِيرٌ إجمالِيٌّ تَقْرِيبِيٌّ ، إِنَّمَا إِنِ اخَذْتَ الْمَقْيَاسَ وَقَدَّرْتَ تَقْدِيرًا حَقِيقِيًّا ، فَقَدْ تَزِيدُ أَوْ تَنْقُصُ ، فَالْأَوَّلُ نَقُولُ : قَدَّرْتُ الْحَجْرَةَ قَدْرَهَا ، وَالْآخِرُ نَقُولُ : قَدَّرْتُ الْحَجْرَةَ حَقَّ قَدْرَهَا .

وعلیه فإنک إن أردت أن تُقدِّر الله تعالی، حقَّ قدره فإنک تقدِّره
على قدر استیعاب العقل البشري، إنما قدره تعالی حقيقة فلا تحیط
به؛ لأن کماله تعالی لا یقنهی ولا تُدرک إدراکاً تکلیفاً.

ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه عن علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين . ولما نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ .. ﴾ [آل عمران] قال بعض الصحابة ^(١) : ومن يقدر على ذلك ، إنها مسألة صعبة أن نتقى الله التقوى الكاملة التي يستحقها عز وجل ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. ﴾ [التغابن] ونزلت : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .. ﴾ [البقرة]

(١) عن سعيد بن جبير وهو من كبار التابعين قال : لما نزلت هذه الآية اشتد على اللقوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم ، وتقرحت جباههم ، فيأنزل الله تخفيفاً على المسلمين ﴿ فأتقوا الله ما استطعتم ﴾ [التغابن] . فنسخت الآية الأولى . [أخرجه ابن أبي حاتم] . وابن عباس في قوله ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ [١٠٦] [آل عمران] قالوا : لم تنسخ ولكن ﴿ حق تقاته ﴾ [١٠٧] [آل عمران] أن يجاهدوا في الله حق جهاده ولا يلقضهم في الله لومة لائم ، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم . [أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه] . أوردهما السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٢٨٣ .

وكان النبي ﷺ إذا أثنى على الله تعالى يقول : « سبحانك ، لا نحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »^(١) .

لماذا ؟ لأنه لا يملك أحد مهما أوتي من بلاغة الأسلوب أن يُثني على الله الثناء المناسب الذي يليق به سبحانه ، ومن رحمة الله تعالى بعباده أن تحمل عنهم هذه المسألة فأثنى الحق سبحانه على نفسه ، وعلمنا كيف نثني عليه سبحانه ، فإذا ما تحدث البليغ وأثنى على الله بفنون القول والثناء ، فإن العيب الذي لا يجيد الكلام يطمئن حيث يُثني على ربه بما علمه من الثناء ، وما وضعه من صيغ يقولها الفيلسوف ، ويقولها راعي الشاة .

ولولا أن الله تعالى علمنا صيغة الحمد في سورة الفاتحة فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) [الفاتحة] ما تعلقنا هذه الصيغة ، فتعليم الله لعباده صيغة الحمد في ذاتها نعمة تستحق الحمد ، والحمد يستحق الحمد ، وهكذا في سلسلة لا تنتهي ، ليظل الحق - تبارك وتعالى - محموداً دائماً ، ويظل العبد حامداً دائماً .

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن مسألة الألوهية وما ينبغى لها من صفات الكمال المطلق ، وحذر أن تُدخل عليها ما ليس منها وما لا يستحقها ، وهذه قمة العقائد ، وبعد أن نؤمن بالإلهيات بهذا الصفاء ونخلص إيماننا من كل ما يشوبه لا بد من البلاغ عن هذه القوة الإلهية التي آمنّا بها ، والبلاغ يكون بإرسال الرسل .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٨/٦ ، ١٢٠) وكذا مسلم في صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفرائض فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

تكونى عابدة تقية متبيلة منقطعة فى محرابك الله ، أما الاصطفاء الآخر
فاصطفاء على نساء العالمين جميعاً ، بأن تكونى أما لمولود بلا أب ،
فمُتعلق الاصطفاء - إذن - مختلف .

وتنقسم الملائكة فى مصيابة الاصطفاء إلى ملائكة مُصطفاة ،
وملائكة مُصطفى منها . وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ جَاعِلُ الْمَلَائِكَةِ
رُسُلًا ۖ ﴾ [فاطر] يعنى : كلهم لهم رسالة مع عوالم أخرى غيرنا .

أما فى الآية التى معنا ، فالكلام عن الملائكة الذين لهم صلة
بالإنسان أمثال جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، والحفظة
الكاتبين والمكلفين بحفظ الإنسان ، فالله تعالى يصطفى هؤلاء ، أما
الباقيون منهم فالله مصطفاهم لعبادته فهم مُهيَّمون ، لا يدرون عن هذا
الخلق شيئاً ، وهم الملائكة العالون الذين قال الله عنهم فى الحديث
عن إبليس : ﴿ اسْتَكْبَرَتْ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ۚ ﴾ [ص] يعنى : الذين
لم يشملهم الأمر بالهيجود ، لأن لهم مهمة أخرى .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۚ ﴾ [الحج] السمع يتعلق
بالأصوات ، والبصر يتعلق بالأفعال ، وهما كما قلنا عُقدة الحواس
كلها ، والحق سبحانه فى قوله : ﴿ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۚ ﴾ [الحج] يبين لنا
أن رسله سيؤاخذون بأقوال تؤذيههم واستهزاء ، وسيُقَابِلُون بأفعال
تعرقل مسيرة دعوتهم ، فليكن هذا معلوماً حتى لا يفت فى عضدهم ،
وأنا معهم سميع لما يُقال ، بصير بما يفعل ، فهم تحت سمعى
وبصرى وكلاءتى .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۚ ﴾

وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (٧٦) [الحج] ما أمامهم ، ويعلم أيضاً ما خلفهم ، فليعمل الإنسان ما يشاء ، فعلم الله محيط به .

﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ (٧٦) [الحج] فالمرجع في النهاية إليه سبحانه ، فالحق - تبارك وتعالى - لم يخلق خلقه ليتركهم هملاً ، إنما خلقهم لحكمة ، وجعل لهم نهاية يُجَازَى فيها كُلُّ بعمله ، فمن تعب ونصب في سبيل دعوة الله وتحمل المشاق في مساندة رسل الله فله جزاؤه ، ومن جابهم وعانداهم سواء بالأقوال السَّابَّة الشَّاتمة المستهزئة ، أو بالأفعال التي تعوق دعوتهم ، فله أيضاً ما يستحق من العقاب .

وبعد أن حَدَّثَنَا ربنا عز وجل عن الإلهيات وعن الرسل التي تُبَلِّغ عنه سبحانه ، يُحَدِّثُنَا عن المنهج الذي سيأتون به لينظم حركة حياتنا ، هذا المنهج موجز في أفعال كذا ، ولا تفعل كذا ، وهو لا يشمل في أوامره ونواهيه كل حركات الحياة . فالأوامر والنواهي محصورة في عدة أمور ، والباقي مباح : لأن الله تعالى وضع الأوامر والنواهي في الأصول التي تعصم حركة الحياة من الأهواء والنزوات ، وترك الباقي لاختيارك تفعله على أي وجه تريد .

لذلك نرى العلماء يجتهدون ويختلفون في مثل هذه الأمور التي تركها الله لنا ، ولو أراد سبحانه أنزل فيها حكماً محكماً ، لا يختلف عليه أحد . ولك أن تقول : ولماذا ترك الحق سبحانه هذه الأمور تتضارب فيها الأقوال ، وتختلف فيها الآراء ، وتحدث فيها نزاعات بين الناس ؟

قالوا : هذا مراد الله : لأن الله تعالى خلق الإنسان مُسَخَّرًا في أشياء ، ومختاراً في أشياء أخرى ، فللناس أن يتركوا المجتهد يجتهد

ما وسعه الاجتهاد ، ثم يحكمون على ما وصل إليه أنه حق ، وآخر يجتهد ويقررون أنه باطل ؛ لأن الله لو أراد على لون واحد لقاله ، إنما تركه محتملاً للآراء .

إذن : أراد سبحانه أن تكون هذه الآراء لأن الإنسان كما هو محكوم بقهر في كثير من الكونيات وله اختيار في بعض الأمور ، كذلك الحال في التكليف ، فهو مقهور في الأصول التي لو حاد عنها يفسد العالم ، ومختار في أمور أخرى يصح فعلها ويصح تركها . يقول تعالى في هذا المنهج :

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ﴿١٣٦﴾

النداء في ضرب المثل السابق^(١) كان للناس كافة ؛ لأنه يريد أن يكف عباد الأصنام إلى هذا المثل ، ويسمعهم إياه ، أما هنا فالكلام عن منهج ودستور موجه ، خاصة إلى الذين آمنوا ، لأنه لا يكلف بالحكم إلا من آمن به ، أما من كفر فليس أهلاً لحمل هذه الأمانة ؛ لذلك تركه ولم ينظم له حركة حياته . وكما قلنا في رجل المرور أنه يساعد من استعان به ووثق فيه ، فيدله ويرشده ، أما من شك في كلامه وقتل من شأنه يتركه يضل في مفترق الطرق .

فإذا ناداك ربك بما يكلفك به ، فاعلم أن الجهة مُنفكة ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا آمِنُوا ﴾ . ﴿١٣٦﴾ [النساء]

وقد اعترض على أسلوب القرآن في هذه الآية بعض الذين

(١) يقصد قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِثْلُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ . [الحج]

ياخذون الآيات على ظاهرها ، يقولون : كيف يخاطبهم ببيائها الذين آمنوا ثم يقول : آمنوا ، كيف وهم يؤمنون بالفعل ؟

قالوا : المراد يا أيها الذين آمنوا قبل سماع الحكم الجديد ظلُّوا على إيمانكم في الحكم الجديد ، واستمروا على إيمانكم ؛ لذلك إذا طلبت شيئاً ممن هو موصوف به فاعلم أن المراد الدوام عليه .

كما أن هناك فرقاً بين الإيمان بالحكم وبين تنفيذ الحكم ، فقد تؤمن بالحكم أنه من الله ولا تشك فيه ولا تعترض عليه ، لكنك لا تنفذه وتعصاه ، فمثلاً في الحج يقول تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ .. (٩٧) ﴾ [آل عمران] الذي لله تعالى على عباده أن يحجوا البيت ﴿ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا (٩٧) ﴾ [آل عمران] وهذا شرط ضروري ، فلا تكليف بلا استطاعة ، ثم يقول : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ (٩٧) ﴾ [آل عمران]

فهل يعنى هذا أن من لم يحج فهو كافر ؟

قالوا : لا ، لأن المراد : لله على الناس حكم يعتقده المؤمن ، بأن لله على الناس حج البيت ، فمن اعتقد هذا الاعتقاد فهو مؤمن ، أما كونه ينفذه أو لا ينفذه هذه مسألة أخرى .

ثم يبدأ أول ما يبدأ في التكليف بمسألة الصلاة : ﴿ ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ .. (٧٧) ﴾ [الحج] لقد جاء الرسل من عند الله بتكاليف كثيرة ، لكن خص هنا الصلاة لأنها التكليف الذي يتكرر كل يوم خمس مرات ، أما بقية التكاليف فهي موسمية : فالصوم شهر في العام كله ، والحج مرة في العمر كله لمن استطاع ، والزكاة عند خروج المحصول لمن يملك النصاب أو عند حلول الحول .

إذن : تختلف فريضة الصلاة عن باقي الفرائض ؛ لذلك خصها

رسول الله ﷺ في قوله : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » ^(١) .

ويقول : « الصلاة عماد الدين » ^(٢) .

وخصَّها الحق - تبارك وتعالى - بظرف تشريعي خاص ، حيث فُرِضَت الصلاة بالمباشرة ، وفُرِضَت باقى الفرائض بالوحي .

وضربنا لذلك مثلاً - والله المثل الاعلى - قلنا : إن رئيس العمل يمكن أن يرسل لك ورقة يقول : افعل كذا وكذا ، فإن كان أمراً هاماً اتصل بك تليفونياً ، وأخبرك بما يريد لأهميته ، فإن كان الأمر أهم من ذلك وجاء من جهة أعلى يقول لك : تعال عندي لأمر هام ، ويكلفك به مباشرة ، وكذلك على حسب الأهمية يوجد ظرف التشريع .

فالصلاة لم تأت بالوحي كباقي الفرائض ، إنما جاءت مباشرة من الموحى سبحانه وتعالى ؛ لأنها ستكون صلة بين العبد وربّه ، فشاء أن يُنَزَّهَهَا حتى من هذه الواسطة ، ثم ميَّزَهَا على غيرها من التكاليف ، فجعلها الفريضة التي لا تسقط عن المسلم بحال أبداً . فقد تكون فقيراً فلا تلزمك الزكاة ، وغير مستطيع فلا يلزمك حج ، ومريض أو مسافر فلا يلزمك صوم .

أما الصلاة فلا يُسْقِطُهَا عَنْكَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ، فَإِنْ كُنْتَ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى الْقِيَامِ فَلكَ أَنْ تُصَلِّيَ قَاعِداً أَوْ مُضْطَجِعاً أَوْ رَاقِداً ، تَشِيرُ

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٢١) ، والنسائى فى سننه (٢٣١/١) من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه . قال الترمذى : حديث حسن صحيح غريب .

(٢) قال الحافظ العراقى فى تخريجه للإحياء (٢٤٧/١) : « رواه البيهقى فى الشعب بسند ضعّفه من حديث عمر » وقال الملا على القارى فى « الاسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) قال ابن الصلاح فى مشكل الوسيط : إنه غير معروف . وقال النووى فى التنقيح : إنه منكر باطل ، لكن رواه الديلمى عن على كما ذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (ج ٢٧٩) .

بطرفك لركوعك وسجودك ، ولو حتى تجرى أفعال الصلاة على قلبك ، المهم أن تظل ذاكراً لربك متصلاً به ، لا يمر عليك وقت إلا وهو سبحانه في بالك .

وقلنا : إن ذكر الله في الأذان والإقامة والصلاة ذكر دائم في كل الوقت لا ينقطع أبداً ، فحين تَصَلِّي أنت الصبح مثلاً غيرك يصلي الظهر ، وحين تركع غيرك يسجد ، وحين تقول : بسم الله الرحمن الرحيم . غيرك يقول : الحمد لله رب العالمين .. الخ .

فهى عبادة متداخلة دائمة لا تنقطع أبداً : لذلك يقول أحد أهل المعرفة مخاطباً الزمن : يا زمن فيك كل الزمن . يعنى : فى كل جزئية من الزمن الزمن كله ، كأنه قال : يا ظُهر ، وفيك العصر ، وفيك المغرب ، وفيك العشاء . وهكذا العالم كله يدور بعبادة الله لا تنتهى .

وذكر من الصلاة الركوع والسجود : لأنهما أظهر أعمال الصلاة ، لكن الركوع والسجود حركات يؤديها المؤمن المخلص ، ويؤديها المنافق ، وقد كان المنافقون أسبق الناس إلى الصفوف الأولى : لذلك أراد الحق سبحانه أن يُمَيِّز هذا من هذا ، فقال : ﴿وَأَعْبُدُوا رَبَّكُمْ.. (٧٧)﴾ [الحج]

فليست العبرة فى حركات الركوع والسجود ، إنما العبرة فى التوجّه بها إلى الله ، وإخلاص النية فيها لله ، وإلا أصبحت الصلاة مجرد حركات لا تعدو أن تكون تمارين رياضية كما يحلو للبعض أن يقول : الصلاة فيها تمارين رياضية تُحرِّك كل أجزاء الجسم ، نعم هى كما تقولون رياضة ، لكنها ليست عبادة ، العبادة أن تؤديها لأن الله تعالى أمرك بها .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧)﴾ [الحج]

والخير كلمة عامة تشمل كل أوامر التكليف ، لكن جاءت مع الصلاة على سبيل الإجمال ، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فالخير - إذن - كلمة جامعة لكل ما تؤديه وظائف المناهج من خير المجتمع ؛ لأن المنهج ما جاء إلا لينظم حركة الحياة تنظيمًا يتعاون ويتساند لا يتعاند ، فإن جاء الأمر على هذه الصورة سعد المجتمع بأسره .

ولا تنس أن المنهج حين يضيق عليك ويُقيد حركتك يفعل ذلك لصالحك أنت ، وأنت المستفيد من تقييد الحركة ؛ لأن ربك قيد حركتك وضيق عليك حتى لا تلحق الشر بالآخرين ، وفي الوقت نفسه ضيق على الآخرين جميعاً أن يتحركوا بالشر ناحيتك ، وأنت واحد وهم كثير ، فمن أجل تقييد حركتك قيد لك حركة الناس جميعاً ، فمن الكاسب في هذه المسألة .

الشرع قال لك : لا تسرق وأنت واحد وقال للناس جميعاً : لا تسرقوا منه ، وقال لك : غُضْ بصرك عن محارم الغير وأنت واحد . وقال لكل غير : غُضُّوا أبصاركم عن محارم فلان ، فكل تكليف من الله للخلق يعود عليك .

فالمعنى : ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ (٧٧)﴾ [الحج] أى : الذى لا يأتى منه فساد أبداً ، وما دامت الحركات صادرة عن مراد لهوى واحد فإنها تتساند وتتعاون ، فإن كان لك هوى ولغيرك هوى تصادمت الأهواء وتعاندت ، والخير : كل ما تامل به التكليف المنهجية الشرعية من الحق تبارك وتعالى .

ثم يقول سبحانه : ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ (٧٧)﴾ [الحج] لكن ، أين سيكون هذا الفلاح : فى الدنيا أم فى الآخرة ؟

الفلاح يكون فى الدنيا لمن قام بشرع الله والتزم منهجه وفعل

الخير ، فالفلاح ثمرة طبيعية لمنهج الله في أى مجتمع يتحرك. أفرادُه في اتجاه الخير لهم وللغير ، مجتمع يعمل بقول رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ^(١) وعندها لن ترى في المجتمع تزاحماً ولا تنافراً ولا ظلماً ولا رشوة .. الخ هذا الفلاح في الدنيا ، ثم يأتي زيادة على فلاح الدنيا فلاح الآخرة .

إذن : لا تظنوا التكاليف الشرعية عبئاً عليكم ؛ لأنها في صالحكم في الدنيا ، وبها فلاح دنياكم ، ثم يكون ثوابها في الآخرة محض الفضل من الله .

وقد تبهنا النبي ﷺ إلى هذه المسألة فقال : « لا يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته » ^(٢) ذلك لأن الإنسان يفعل الخير في الدنيا لصالحه وصالح دنياه التي يعيشها ، ثم ينال الثواب عليها في الآخرة من فضل الله كما قال تعالى : ﴿ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (١٧٣) [النساء]

وقوله تعالى : ﴿ لَكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ (٧٧) [الحج] نعرف أن لعل أداة للترجي ، وهو درجات بعضها أرجى من بعض ، فمثلاً حين تقول : لعل فلاناً يعطيك ، فبانت ترجو غيرك ولا تضمن عطاءه ، فإن قلت : لعلى أعطيك . فالرجاء - إذن - في يدك ، فهذه أرجى من سابققتها ، لكن ما زلنا أنا وأنت متساويين ، وربما أعطيك أولاً ، إنما حين تقول : لعل الله يعطيك فقد رجوت الله ، فهذه أرجى من سابققتها ، فإذا قال الله تعالى بذاته : لعلى أعطيك فهذا أقوى درجات الرجاء وأكدها ؛ لأن الوعد من الله والرجاء فيه سبحانه لا يخيب .

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى في صحيحه (١٢) ، ومسلم في صحيحه (٤٥) . كتاب الإيمان عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى في صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٨١٦) عن أبي هريرة رضى الله عنه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَعَكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ۝٧٨﴾

معنى ﴿حَقَّ جِهَادِهِ (٧٨)﴾ [الحج] كالذى قلناه فى ﴿مَا قَاتِلُوا اللَّهَ حَقَّ قَاتِلِهِ (٧٤)﴾ [الحج] لأن الجهاد أيضاً يحتاج إلى إخلاص ، وأن تجعل الله فى بالك ، فربما خرجت لمجرد أن تدفع اللوم عن نفسك وحملت السلاح فعلاً ودخلت المعركة ، لكن ما فى بالك أنها لله وما فى بالك إعلاء كلمة الله ، كالذى يقاتل لشجرة وليرى الناس مكانته ، أو يقاتل طمعاً فى الغنائم ، أو لأنه مغتاظ من العدو وبينه وبينه ثأر ، ويريد أن ينتقم منه ، هذه وغيرها أمور تُخرج القتال عن هدفه وتُفرغه من محتواه .

لذلك لما سئل سيدنا رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ »^(١) وهذا هو حق الجهاد ، وأنت فيه حكم على نفسك ، لأن ميزان ذلك فى يدك .

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٢) . ومسلم فى صحيحه (١٩٠٤) عن أبى موسى الأشعرى . .

وقد تسأل : ولماذا الجهاد ؟ قالوا : لأنك إذا انتفعت بالمنهج تطبيقاً له بعد التحقيق الذى أتى به الرسل تنفع نفسك ، لكن ربك - عز وجل - يريد أن يُشيع النفع لمن معك أيضاً ، وهذا لا يتأتى إلا بالجهاد بالنفس أو المال أو أى شئ محبوب ، وإلا فكيف ستزجج الصفقة التى قال الله تعالى عنها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ۖ ﴾ (١١١) [التوبة]

وكما أن الجنود في ساحة القتال مهمة ، كذلك لمن قعد ولم يخرج مهمة : الجندي حين يقتحم الأهوال والمخاطر ويُعرض نفسه للموت ، فهذا يعنى أنه ما دخل المعركة وما عرض نفسه للقتل إلا وهو واثق تمام الثقة ، أن ما يذهب إليه بالقتل خير مما يناله بالجبن ، وهذا يشجع الآخرين ويحثهم على القتال .

لذلك ، فى غزوة بدر لما سمع الصحابى كلام رسول الله ﷺ عن أجر الشهيد وكان فى فمه تمر يمصها ، فقال : يا رسول الله ، اليس بينى وبين الجنة إلا أن أقتل فى سبيل الله ؟ قال : نعم ، فألقى التمرة من فيه وخرج لتوّه إلى الجهاد^(١) لأنه واثق تمام الثقة أن ما سيذهب إليه بالشهادة خير مما ترك .

أما الذين بَقَوْا ولم يخرجوا ، فمهمتهم أن يحملوا المنهج ، وأن يحققوه ، وإلا لو خرج الجميع إلى القتال واستشهدوا جميعاً ، فمن يحمل منهج الله وينشره ؟

(١) عن جابر بن عبد الله قال : قال رجل : أين أنا يا رسول الله إن قُتِلْتُ ؟ قال : في الجنة .
فألقى تمرات كُنْ في يده . ثم قاتل حتى قُتِلَ . وفي حديث سويد : قال رجل للنبي ﷺ
يوم أحد . أخرجني البخاري في صحيحه (٤٠٤٦) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٨٩٩) كتاب
الإمارة . قال ابن حجر في الفتح (٣٥٤/٧) : « لم أقف على اسم الرجل ، وزعم ابن
بشكوال أنه عمير بن الحمام وسبقه إلى ذلك الخطيب واحتج بما أخرجه مسلم من حديث
أنس . قلت : لكن وقع التصريح في حديث أنس أن ذلك كان يوم بدر » .

وجاءت كلمة الجهاد عامة لتشمل كل أنواع الجهاد ، فإذا ما أثمر الجهاد ثمرته وتغلبنّا على الكفر فلم يَعُدْ هناك كفر ، أو ظلّوا طريق دعوتنا وتركونا ، وأصبوا أن يعيشوا في بلادنا أهل ذمة ، فلا داعي - إذن - للقتال ، ويتحول الجهاد إلى ميدان آخر هو جهاد النفس .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ۖ ﴾ (٧٨) [الحج] يعني : اختاركم واصطفاكم لتكونوا خير أمة أخرجت للناس ، وثن هذا الاجتباء أن نكون أهلاً له ، وعلى مستوى مسؤوليته ، وأن نحقق ما أراد الله منا .

كما ننصح جماعة من أهل الدعوة الذين حملوا رايتهما ، نقول لهم : لقد اختاركم الله ، فكونوا أهلاً لهذا الاختيار ، واجعلوا كلامه تعالى في محله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۖ ﴾ (٧٨) [الحج] يعني : ما اجتباكم ليُعنتكم ، أو ليُضيق عليكم ، أو ليُعسر عليكم الأمور ، إنما جعل الأمر كله يسر ، وشرعه على قدر الاستطاعة ، ورخص لكم ما يُخفف عنكم ، ويذهب عنكم الحرج والضيق ، فمن لم يستطع القيام صلى قاعداً ، ومن كان مريضاً أفطر ، والفقير لا زكاة عليه ولا حج .. الخ .

كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبَكُمْ ۖ ﴾ (٢٢٠) [البقرة] لكنه سبحانه ما أعنتكم ولا ضيق عليكم ، وما كلفكم إلا ما تستطيعون القيام به .

وقوله تعالى : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۖ ﴾ (٧٨) [الحج] كلمة (ملة) جاءت هكذا بالنصب ، لأنها مفعول به لفعل تقديره : (الزموا) ملة أبيكم إبراهيم : لأنكم دعوته حين قال : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ ﴾ (١٢٨) [البقرة]

سُورَةُ الْحَجِّ

١٩٥١

ومن دعوة إبراهيم عليه السلام : ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ..
 (البقرة) ﴿١٢٩﴾ [البقرة] لذلك كان النبي ﷺ يقول : « أنا دعوة أبى إبراهيم ،
 وبُشْرَى عيسى » ^(١) .

يعنى : من ذريته وذرية ولده إسماعيل ﴿وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا .. (١٢٨)﴾
 [البقرة] أعطنا التكليف ، وكأنه مُتَشَوِّقٌ إلى تكاليف الله ، وهل يشق
 الإنسان للتكليف إن كان فيه ضيق أو مشقة ؟

وكذلك كان صحابة النبي ﷺ يعشقون تكاليف الإسلام ،
 ويسألون عنها رسول الله رغم قوله لهم : « ذرونى ما تركتكم » ^(٢) إلا
 أنهم كانوا يسألون عن أمور الدين ليبينوا حياتهم الجديدة ، لا على
 ما كانت الجاهلية تفعله ، بل على ما أمر به الإسلام .

ولنا ملاحظ فى قوله تعالى : ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ .. (٧٨)﴾ [الحج]
 فالخطاب هنا لأمة الدعوة ، ولأمة الإجابة ، وهل أمة الإسلام كلها من
 ذرية إبراهيم حتى يقول ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ .. (٧٨)﴾ [الحج] ؟

نقول : الإسلام انقياد عَقْدِيٌّ للجميع ، وفى أمة الإسلام مَنْ
 ليس من ذرية إبراهيم ، لكن إبراهيم عليه السلام أبٌ لرسول الله
 محمد ﷺ ، والرسول أب لكل مَنْ آمَن به : لأن أبوة الرسول أبوة
 عمل واتباع ، كما جاء فى قول الله تعالى فى قصة نوح عن ابنه :
 ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .. (٤٦)﴾ [هود]

(١) قال أبو أمامة : قلت يا نبي الله ما كان أول بدء أمرك ؟ قال : دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى
 عيسى ، ورأت أمى أنه يخرج منهما نور أضاءت منها قصور الشام . أخرجه أحمد فى
 مسنده (٢٦٢/٥) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٤٧/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : « ذرونى
 ما تركتكم . فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . ما نهيتكم
 عنه فانتهاوا ، وما أمركم فانتهاوا منه ما استطعتم » .

ولما كان النبي ﷺ أباً لكل من آمن به سَمَّى الله زوجاته أمهات للمؤمنين ، فقال سبحانه : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ (٦) [الاحزاب]

وما دامت الأزواج أمهات ، فالزوج أب ، وبناءً على هذه الصلة يكون إبراهيم عليه السلام أباً لامة الإسلام ، وإن كان فيهم من ليس من سلالته .

ونجد البعض معنٍ يحبون الاعتراض على كلام الله يقولون في مسألة أبوة الرسول لامته : لكن القرآن قال غير ذلك ، قال في قصة زيد بن حارثة : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ (٤٠) [الاحزاب] فنفي أن يكون محمد أباً لأحد ، وفي هذا ما يناقض كلامكم .

نقول : لو فهمتم عن الله ما اعتراضتم على كلامه ، فالله يقول : ما كان محمد أباً لأحدكم ، بل هو أب للجميع ، فالمنفى أن يكون رسول الله أباً لواحد ، لا أن يكون أباً لجميع أمته . وقال بعدها : ﴿ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ (٤٠) [الاحزاب] وما دام رسول الله ، فهو أب لكل .

ثم يقول تعالى عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ (٧٨) [الحج] يعني : إبراهيم عليه السلام سماكم المسلمين ، فكان هذه مسألة واضحة وأمر معروف أنكم مسلمون منذ إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (٧٨) [الحج]

وفي موضع آخر يحدث تقديم وتأخير ، فيقول سبحانه : ﴿ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (١٤٣) [البقرة]

سُورَةُ الْحَجِّ

١٩٥٣

لماذا ؟ قالوا : لأن رسول الله بلغ رسالة الله ، وأشهد الله على ذلك حين قال : « اللهم قد بلغت ، اللهم فاشهد » ^(١) أشهد أني بلغت ، وهو ﷺ يريد من أمته أن يكون كل شخص فيها حاملاً لهذه الرسالة ، مُبْلِغاً لها حتى يسمع كلام الرسول مَنْ لم يحضره ولم يَرَهُ ، وهكذا يكون الرسول شهيداً على مَنْ آمن به ، وَمَنْ آمن شهيداً على مَنْ بُلِّغَهُ .

لذلك من شرف أمة محمد أولاً أنه لا يأتي بعده رسول ؛ لأنهم مأمونون على منهج الله ، وكان الخير لا ينطفىء فيهم أبداً . وقلنا : إن الرسل لا يأتون إلا بعد أن يعمُ الفساد ، ويفقد الناس المناعة الطبيعية التي تحجزهم عن الشر ، وكذلك يفقدها المجتمع كله فلا ينهى أحد أحداً عن شر ؛ عندها يتدخل الحق سبحانه برسول ومعجزة جديدة ليُصلح ما فسد .

فختام الرسالات بمحمد ﷺ شهادة أن الخير لا ينقطع من أمته أبداً ، ومهما انحرف الناس سيبقى جماعة على الجادة يحملون المنهج ويتمسكون به ويكونون قدوة لغيرهم . لذلك حدّد رسول الله هذه المسألة فقال : « الخير في حصر ، وفي امتي نثر » فالخير كله والكمال كله في شخص رسول الله ، ومنثور في أمته .

ثم يعود السياق إلى الأمر بالصلاة : ﴿ فَأَقِمُْوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ ﴾ (٧٨) [الحج] لأنها الفريضة الملازمة للمؤمن ، وفيها إعلاء الولاء المكرر في اليوم خمس مرات ، وبها يستمر ذكر الله على مدى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٧٣٩) في خطبة الوداع من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا » .

الزمن كله لا ينقطع أبداً في لحظة من لحظات الزمن حين تنظر إلى العالم كله ، وتضم بعضه إلى بعض .

والمعامل في الزمن بالنسبة للحق - تبارك وتعالى - يجده دائماً لا ينقطع ، فالיום مثلاً عندنا أربع وعشرون ساعة ، واليوم عند الله ألف سنة مما تعدون ، واليوم في القيامة خمسون ألف سنة ، وهناك يوم اسمه يوم الآن أي : اللحظة التي نحن فيها ، وهو يوم الله الذي قال عنه : ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن] لذلك يقول : ما شغل ربك الآن وقد صحَّ أن القلم قد جفَّ ؟ قال : « أمور يسبديها ولا يبتديها ، يرفع أقواماً ، ويضع آخرين »^(١) .

فيوم الآن يوم عام ، لا هو يوم مصر ، ولا يوم سوريا ، ولا يوم اليابان إذن : في كل لحظة يبدأ الله يوم وينتهي يوم ، فيومه تعالى مستمر لا ينقطع .

ونقرأ في الحديث النبوي الشريف : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل »^(٢) .
نهار مَنْ ؟ وليل مَنْ ؟ فالنهار والليل في الزمن دائم لا ينقطع ، وفي كل لحظة من لحظات الزمن ينتهي يوم ويبدأ يوم ، وينتهي ليل ويبدأ ليل . إذن : فالله تعالى يده مبسوطة دائماً لا يقبضها أبداً ، كما

(١) عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن] قال : « من شأنه أن يغير ذنباً ، ويغير كعباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين » . أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٢٩/١) وابن ماجه في سننه (٢٠٢) ، وأبو نعيم في الحلية (٢٥٢/٥) وأبو الشيخ في العظمة (ح ١٥٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٥/٤ ، ٤٠٤) ومسلم في صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

قال سبحانه : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (٦٤) [المائدة]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ ﴾ (٧٨) [الحج] الجثوا إليه في الشدائد ، وهذا يعنى أنكم ستواجهون وتضطهدون ، فما من حامل منهج لله إلا اضطهد ، فلا يؤثر فيكم هذا ولا يفت في عضدكم ، واجعلوا الله ملجاكم ومعتصمكم في كل شدة تداهمكم ، كما قال سبحانه : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ (٤٣) [هود]

واعتصامكم بالله أمر لا تاتون إليه بأنفسكم إنما ﴿ هُوَ مَوْلَاكُمْ ﴾ (٧٨) [الحج] يعنى : المتولى لشأنكم ، وما دام هو سبحانه مولاكم ﴿ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (٧٨) [الحج]

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

سورة المؤمنون^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾

لما قال الحق - تبارك وتعالى - فى الآية قبل السابقة من سورة الحج ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ [الحج] ولعلّ تفيد الرجاء ، أراد سبحانه أن يؤكد هنا على فلاح المؤمنين فقال : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون] وأن الرجاء من الله واقع ومؤكد ، لذلك جاء بأداة التحقيق ﴿قَدْ﴾ التى تفيد تحقق وقوع الفعل ، وهكذا تنسجم بداية سورة (المؤمنون) مع نهاية سورة (الحج) .

وقوله تعالى هناك ﴿تَفْلِحُونَ﴾ [الحج] وهنا ﴿أَفْلَحَ﴾ [المؤمنون] مادة (ف ل ح) مأخوذة من فلاحه الأرض ، والفلاح هو الشق ؛ لذلك قالوا : إن الحديد بالحديد يفلح ، وشق الأرض : إهانتها وإثارتها بالحرث ، وهذه العملية هى أساس الزرع ، ومن هنا سُمى الزرع حرثاً فى قوله سبحانه : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ

(١) سورة المؤمنون ، هى السورة رقم (٢٣) فى ترتيب المصحف الشريف . عدد آياتها ١١٨ آية . وهى سورة مكية كلها فى قول الجميع . قاله القرطبي فى تفسيره (٤٦٣٥/٦) . وهى السورة رقم ٧٣ فى ترتيب النزول . نزلت بعد سورة الانبياء وقبل سورة السجدة . قاله ابن الضريس فى فضائل القرآن فيما نقله عنه السيوطى فى « الإتيان » (٢٧/١) .

الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴿٢٠٥﴾ [البقرة]

ومعنى أفلح : فاز باقصى ما تتطلع إليه النفس من خير .

والارض حين تحرثها تكون خالية ليس فيها شيء يهلك ، إذن : المراد بالحرث هنا الزرع الناتج عن عملية الحرث ، والتي لا بد منها كح تتم عملية الزراعة ؛ لانك بالحرث تثير التربة ليتخللها الهواء ، فيزيد من خصوبتها وصلاحها لاستقبال البذرة ، وسبق أن تحدثنا عن عملية الإنبات ، وكيف تتم ، وأن النبات يتغذى على فُلقتي البذرة إلى أن يصبح له جذر قوى يستطيع أن يمتص من التربة ، فإن الفُقت البذرة في أرض صماء غير مثارة فإن الجذر يجد صعوبة في اختراق التربة والامتصاص منها .

فالحق - تبارك وتعالى - يعطينا صورة من واقعنا المشاهد ، ويستعير من فلاحه الأرض ليعبر عن فلاح المؤمن وفوزه بالنعيم المقيم في الآخرة ، فالفلاح يحرق أرضه ويسقيها ويرعاها فتعطيه الحبة بسبعمئة حبة ، وهكذا سيكون الجزاء في الآخرة : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة]

فإذا كانت الأرض المخلوقة لله عز وجل تعطى كل هذا العطاء ، فما بالك بعطاء مباشر من خالقك وخالق الأرض التي تعطيك ؟ وكما أن الفلاح إذا تعب واجتهد زاد محصوله ، كذلك المؤمن كلما تعب في العبادة واجتهد زاد ثوابه وتضاعف جزاؤه في الآخرة .

﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾^(١)

كان أول ظاهرة الفلاح في الصلاة ، وما يزال الحديث عنها موصولاً بما قاله ربنا في الآيات السابقة : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ (٧٧) [الحج] وقال بعدها : ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ .. ﴾ (٧٨) [الحج]

وهنا جعل أول وصف للمؤمنين الذين أفلحوا ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ (٧٧) [المؤمنون] فلم يقل مثلاً : مؤدون ؛ لأن أمر أداء الصلاة في حق المؤمنين مفروغ منه ، العبرة هنا بالهيئة والكيفية ، العبرة بالخشوع والخضوع وسكينة القلب وطمأنينته واستحضار الله الذي تقف بين يديه .

كما تقول لولدك : اجلس أمام المعلم باهتمام ، واستمع إليه بإنصات ، فأنت لا توصيه بالذهاب إلى المدرسة أو حضور الدرس ، فهذا أمر مفروغ منه ؛ لذلك تهتم بجوهر الموضوع والحالة التي ينبغي أن يكون عليها .

والخشوع أن يكون القلب مطمئناً ساكناً في مهمته هذه ، فلا ينشغل بشيء آخر غير الصلاة ؛ لأن الله ما جعل لرجل من قلبين في جوفه ، وما دام في حضرة ربه عز وجل فلا ينبغي أن ينشغل بسواه ، حتى إن بعض العارفين لمعنى الخشوع يقول : إن الذي

(١) سبب نزول الآية : أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد ابن سيرين قال : « كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة ويلتفتون يمنة وشمالاً ، فأنزل الله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢ ﴾ [المؤمنون] فقالوا برؤوسهم ، فلم يرفعوا أبصارهم بعد ذلك في الصلاة ، ولم يلتفتوا يمنة ولا شمالاً » [أورده السيوطي في الدر المنثور ٨٣/٦] .

يتعمد معرفة مَنْ على يمينه أو مَنْ على يساره في الصف تبطل صلاته^(١) .

ولما دخل سيدنا عمر - رضى الله عنه - على رجل يصلى ويعبث بلحيته ، فضربه على يده وقال : لو خشع قلبك لخشعت جوارحك^(٢) . ذلك لأن الجوارح تستمد طاقتها من القلب ومن الدم الذى يضخه فيها ، فلو شغل القلب عن الجوارح ما تحركت .

لذلك لما سأل أحد الفقهاء صوفياً : ما حكم مَنْ سها في صلاته ؟ قال : حكمه عندنا أم عندكم ؟ قال : ألنا عند ولكم عند ؟ قال : نعم ، عند الفقهاء مَنْ يسهو في الصلاة يجبره سجود السهو ، أما عندنا فمَنْ يسهو في الصلاة نقتله . يعنى مسألة كبيرة .

ثم ألا يستحق منك ربك وخالقك أن تتفرغ له سبحانه على الأقل وقت صلاتك ، وهى خمس دقائق فى كل وقت من الاوقات الخمسة ، وقد تركك باقى الوقت تفعل ما تشاء ؟ أتستكثر على ربك أن تُفرِّغ له قلبك ، وأن تستحضره سبحانه ، وهذه العملية فى صالحك أنت قبل كل شيء ، فى صالحك أن تكون فى جلوة مع ربك تستمد منه سبحانه الطاقة والمعونة ، وتتعرض لنفحاته وإشراقاته وتقتبس من أنواره وأسراره ؟

ومن حرص أهل التقوى على سلامة الصلاة وتمامها قال أحدهم

(١) قاله معاذ بن جبل رضى الله عنه فيما ذكره عنه أبو محمد عبد الحق الإشبيلي فى « الصلاة والتهجد » (ص ١٩٢) .

(٢) ذكر أبو محمد عبد الحق هذا الأثر فى كتاب « الصلاة والتهجد » (ص ١٩٨) بتحقيقى - طبعة دار الوفاء المنصورة ، ولكن عزاء للخسن البصرى . وذكر له أيضاً أن الحسن نظر يوماً إلى رجل يعبث بالحصباء فى الصلاة وهو يقول : اللهم زوجنى من الصور العين ، فقال له : بشىء الخاطب أنت ، تخطب العور العين وأنت تعبث بالحصباء .

لصاحبه الذي يحرص على أن يؤم الناس : لماذا تحرص على الإمامة وأنت تعرف أن طالب الولاية لا يؤلى ؟ قال : نعم أحرص عليها لأخرج من الخلاف بين الشافعي الذي قال بقراءة الفاتحة خلف الإمام ، وأبي حنيفة الذي قال بأن قراءة الإمام قراءة للمأموم ، فأحرص على الإمامة حتى أقرأ أنا ، ولا أنشغل بهذا الخلاف .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (٢)

اللغو : الكلام الذي لا فائدة منه ، ويُطلق أيضاً على كل فعل لا جدوى منه ، وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (٧٢) [الفرقان] لا يشغلون به ولا يابهون له ، وحكى القرآن عن الكفار عند سماعهم القرآن قولهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ... ﴾ (٢٦) [فصلت]

لذلك جعل الحق - تبارك وتعالى - من نعيم الجنة : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿ (٢٦) [الواقعة] كان من المعاييب في الدنيا ومن مصائبها أن نسمع فيها لغواً كثيراً لا فائدة منه ، وفي آية أخرى يقول عن خمر الآخرة التي لا تُذهب العقل ، ولا تجعل صاحبها يهذى بلغو الكلام : ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ (٢٣) [الطور]

و ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ (٣) [المؤمنون] الإعراض في الأصل تجنب الشيء ، وهو صورة لحركة إباء النفس لشيء ما . وأهل المعرفة يضعون للغو مقياساً ، فيقولون : كل عمل لا تنال عليه ثواباً من الله فهو لغو .

لذلك احرص دائماً أن تكون حركتك كلها لله حتى تُثَابَ عليها ، كصاحبنا الذي دخل عليه رجل وقصده في قضاء أمر من الأمور وهو لا يملك هذا الأمر ، لكن أراد أن يستغل فرصة الخير هذه ، وأن يكون

له ثواب حتى في حركة الامتناع عنه ، فرفع يده : اللهم إنه عبد قصد عبداً وأنا أخذ بيده وأقصد رباً ، فاجعل تصويب خطئه في قصدي تصويماً لقصدك . يعنى : أنا وإن كنت لا أقدر على قضائها إلا أننى أدخل بها على الله من هذه الناحية .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾

الزكاة أولاً تطلق على معنى التطهير ، كما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ (١٠٣) [التوبة] لأن الغفلة قد تصيب الإنسان حال جمع المال ، فيخالط ماله ما فيه شبهة مثلاً ، فيحتاج إلى تطهير ، وتطهير المال يكون بالصدقة منه .

والزكاة بمعنى النماء ، فبعد أن تُطهر المال تُنميه وتزيده ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ (٩) [الشمس] يعنى : نَمَى ملكة الخير فيها ، ورقأها وصعدما بأن ينظر إلى العمل إن كان سينقص منك فى الظاهر ، إلا أنه سيجلب لك الخير فيما بعد ، فترتقى بذلك ملكات الخير فى نفسك .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن الربا ، وهو الزيادة جمع المتناقضات فى آية واحدة ، فالربا يزيد المال ويأخذ المرابى المائة مائة وعشراً ، فى حين تنقص الزكاة من المال فى الظاهر ، فالمائة بعد الزكاة تصبح سبعة وتسعين ونصفاً ، ثم تاتى الآية لتضع أمامك المعيار الحقيقى : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ ﴾ (٢٧٦) [البقرة] ، فالربا الذى تظنه زيادة هو مَحْقٌ ، والذى تظنه نقصاً هو بركة وزيادة ونماء .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لَيْرَبُّوْ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوْ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم] ٣٩ : الذين يضاعف الله لهم ويزيدهم .

وكما أمرنا ربنا - تبارك وتعالى - بالخشوع فى الصلاة أمرنا كذلك فى الزكاة ، فلم يقل : مؤدون . ولكن ﴿ فَاعْلَوْنَ ﴾ [المؤمنون] وهذه من تربية مقامات العبادة فى الإنسان ، فانت حين تصلى ينبغى أن تخشع وتخضع فى صلاتك لله ، وكذلك حين تُركى تُرقى ملكة الخير فى نفسك ، فحين تعمل وتسعى لا تعمل على قَدْر حاجتك ، وإنما على قَدْر طاقتك ، فتأخذ من ثمرة سَعْيِكَ حاجتك ، وفى نيتك أن تُخرج من الباقي زكاة مالك وصدقتك ، فالزكاة - إذن - فى بالك وفى نيتك بداية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾

الفروج : جمع فَرْج ، والمقصود سَوَاءً كُلُّ من الرجل والمرأة ، وقد أمر الله تعالى بحفظها على المهمة التى خلقت من أجلها ، ومهمة هذه الأعضاء إما إخراج عادم الجسم من بول أو غائط ، أو العملية الجنسية وهدفها حفظ النسل ، وعلى الإنسان أن يحفظ فرجه على ما أحله الله له فى قوله تعالى :

﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ

فَأَيُّهُمْ غَيْرُ مُلَوِّمِينَ ﴾

أى : يحفظون فروجهم إلا على أزواجهم : لأن الله أحلها ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ [المؤمنون] وملك اليمين حلال لم يَعدْ له موضع ،

ولم يُعَد له وجود الآن ، وقد حرم هذا القانون البشرى الدولى ، فلم يعد هناك إماء كما كان قبل الإسلام ، فهذا حكم مُعطّل لم يُعَد له مدلول ، وفرق بين أن يُعطّل الحكم لعدم وجود موضوعه وبين أن يُلغى الحكم ، فملك اليمين حكم لم يُلغ ، الحكم قائم إنما لا يوجد له موضوع .

ولتوضيح هذه المسألة : هَبْ أنك فى مجتمع كله أغنياء ، ليس فيهم فقير ولا مستحق للزكاة عندها تقول : حكم الزكاة مُعطّل ، فهى كفريضة موجودة ، لكن ليس لها موضوع .

وبعض السطحيين يقولون : لقد ألغى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سهام المؤلفة قلوبهم^(١) ، والحقيقة أنه ما ألغى ولا يملك أن يُلغى حكماً من أحكام الله ، إنما لم يجد أحداً من المؤلفة قلوبهم ليعطيه ، فالحكم قائم لكن ليس له موضوع ، بدليل أن حكم تأليف القلوب قائم ومعمول به حتى الآن فى بلاد المسلمين ، وكثيراً ما نحاول تأليف قلوب بعض الكُتّاب وبعض الجماعات لنعطفها نحو الإسلام ، خاصة وغيرنا يبذلون قصارى جهودهم فى ذلك . إذن : فسهم المؤلفة قلوبهم ما زال موجوداً ويعمل به .

كما نسمع مَنْ يقول : إن عمر - رضى الله عنه - عطّل حدّ السرقة فى عام الرمادة ، وهذا ادعاء مخالف للحقيقة : لأنه ما عطّل

(١) روى عبد الرحمن بن محمد المحاربى عن حجاج بن دينار عن ابن سيرين عن عبيدة قال : « جاء عبيدة بن حصن والأقرع بن حابس إلى أبى بكر فقالا : يا خليفة رسول الله ، إن عندنا أرضاً سبخة ليس فيها كلا ولا منفعة فإن رأيت أن تعطيتناها ! فاقطعها إياهما وكتب لهما عليها كتاباً وأشهد ، وليس فى القوم عمر ، فانطلقا إلى عمر ليشهد لهما ، فلما سمع عمر ما فى الكتاب تناوله من أيديهما ثم ثقل فيه فمعه ، فتذمرا وقالوا مقالة سيئة ، فقال : إن رسول الله ﷺ كان يتالفكم والإسلام يومئذ قليل ، وإن الله قد أغنى الإسلام ، اذهبا فاجهدا جهدكما لا يرعى الله عليكما إن رعيتهما » . [أورده أبو بكر الجصاص فى أحكام القرآن ١٦٠/٣] .

هذا الحد إنما عطل نصاً وأحيا نصاً ؛ لأن القاعدة الشرعية تقول :
ادراوا الحدود بالشبهات . وما دام قد سرق ليسد جوعته فلم يصل
إلى نصاب السرقة ، فالسرقة تكون بعد قدر يكفى الضرورة .

ولقائل أن يقول : إذا دارت حرب بين المؤمنين والكافرين وأسروا
منا وأسرونا منهم ، ألا يوجد حينئذ ملك اليمين ؟ نقول : نعم يوجد
ملك اليمين ، لكن ستواجهك قوانين دولية ألزمت نفسك بها وارتضيتها
تقول بمنع الرقّ عليك الالتزام بها ، لكن إن وجد الرقّ فملك اليمين
قائم وموجود . وهذه المسألة يأخذونها سبة في الإسلام ، وكيف أنه
يبيح للسيد كذا وكذا من ملك يمينه .

وهذا المأخذ ناشئ عن عدم فهم هؤلاء للحكمة من ملك اليمين ،
وأن كرامة المملوكة ارتفعت بهذه الإباحة ، فالمملوكة أخذت في حرب
أو خلافه ، وكان في إمكان من يأخذها أن يقتلها ، لكن الحق سبحانه
حمى دمها ، ونمى في النفس مسألة النفعية ، فأباح لمن يأسرها أن
ينتفع بها وأحلها له أيضاً .

ولك أن تتصور هذه الأمة أو الأسيرة في بيت سيدها ومعه زوجة
أو أكثر وهي تشاهد هذه العلاقات الزوجية في المجتمع من حولها ،
إن من حكمة الله أن أباح لسيدها معاشرتها ؛ لأنها لن ترى لربة
البيت بعد ذلك مزية عليها ؛ لأنهما أصبحا سواء ، فإذا ما حملت من
سيدها فقد أصبحت حرة بولدها ، وكان الحق سبحانه يُسير الأمور
تجاه العتق والحرية . ألا تراه بعد هذا يفتح باب العتق ويُعدّد
أسبابه ، فجعله أحد مصارف الزكاة وباباً من أبواب الصدقة وكفارة
لبعض التجاوزات التي يرتكبها الإنسان .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المؤمنون] يعنى :
لا نمدحهم ولا نذمهم ، وكان المسألة هذه في أضيق نطاق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَنْ أَبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ (٧)

﴿ ابْتَغَىٰ ﴾ : طلب ، ﴿ وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ : غير ما ذكرناه من الأزواج وملك اليمين .

وسبق أن ذكرنا أن كلمة ﴿ وَرَاءَ ﴾ استعملت في القرآن لمعان عدة ، فهي هنا بمعنى غير الأزواج وملك اليمين . ومن ذلك أيضاً قوله سبحانه : ﴿ .. وَأَحِلُّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ (٢٤) [النساء] يعني : حرمت عليكم كذا وكذا ، وأحللت لكم غير ما ذكر .

وتستعمل وراء بمعنى بعد : لأن الغيرية قد تتحد في الزمن ، فيوجد الاثنان في وقت واحد ، أما البعدية فزمنها مختلف ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُ ﴾^(١) فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب (٧١) [هود] يعني : من بعده : لأن الزمن مختلف .

وتأتي وراء بمعنى : خلف ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (١٨٧) [آل عمران] يعني : جعلوه خلف ظهورهم .

وتأتي وراء أيضاً بمعنى أمام ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (٧٩) [الكهف] ومعلوم أن الملك كان أمامهم ينتظر كل سفينة تمر به فيأخذها غصباً .

(١) روى الأزمهرى عن الفراء في تفسير هذه الآية : « إنما ضحكت سروراً بالآمن لأنها خافت كما خاف إبراهيم » وقال الفراء : وهو ما يحتمله الكلام والله أعلم . وأما قولهم فضحكت : حاضت . فلم أسمع من ثقة ، أورده ابن منظور في لسان العرب - مادة : ضحك .

وقوله تعالى : ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ۖ﴾ [إبراهيم] وجهنم أمامه ، وستأتى فيما بعد ، ولم تَعْض فتكون خلفه .

ومعنى : ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون] أى : المعتدون المتجاوزون لما شرع لهم ، وربنا - تبارك وتعالى - حينما يُحذِّرنا من التعدى يُفَرِّق بين التعدى فى الاوامر ، والتعدى فى النواهى ، فإن كان فى الاوامر يقول : ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة]

وإن كان فى النواهى يقول : ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة] ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾

﴿رَاعُونَ﴾ : يعنى يحافظون عليها ويراعونها بالتنفيذ ، والامانة : كل ما استؤمنت عليه ، وأول شيء استؤمنت عليه عهد الإيمان بالله الذى أخذه الله عليك ، وما دُمْتَ قد آمنت بالإله فعليك أن تُنفِذَ أوامره . إذن : هناك أمانة للحق وأمانة للخلق ، أمانة الحق التى قال الله تعالى عنها :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الاحزاب] فما دُمْتَ قد قبلت تحمِلُ الامانة ، فعليك الالباء .

أما العهد : فكل ما يتعهد به الإنسان فى غير معصية ويلزمه الوفاء بما عاهد به : لأنك حين تعاهد إنساناً على شيء فقد ربطت حركته وقيدتها فى دائرة إنفاذ هذا العهد ، فحين تقول لى : سأقابلك غداً فى المكان الفلانى فى الوقت الفلانى لعمل كذا وكذا ، فإننى

سأرتب حركة حياتي بناءً على هذا الوعد ، فإذا أخلفت وعدك فقد أطلقت نفسك في زمنك وتصرفت حسب راحتك ، وقيدت حركتي أنا في زمني وضيّعت مصالحى ، وأربكت حركة يومى ؛ لذلك شدّد الإسلام على مسألة خُلف الوعد .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ٩

فى الآيات السابقة تحدّث عن الصلاة من حيث هيئة الخشوع والخضوع فيها ، وهنا يذكر الصلاة من حيث أدائها والحفاظ عليها ؛ لأنّ الحفاظ يعنى أن تأخذ كل وقت من أوقات الصلاة بميلاده وميلاد الأوقات بالأذان ، لكن البعض يقولون : إن الوقت مُمتدّ ، فالظهر مثلاً مُمتدّ من أذان الظهر إلى قبل أذان العصر ، وهكذا فى باقى الصلوات .

نقول : نعم هذا صحيح والوقت مُمتدّ ، لكن مَنْ يضمن لك الحياة إلى آخر الوقت ؟ مَنْ يضمن لك أن تصلى العشاء مثلاً قبل أذان الفجر ؟ نعم ، تظل غير آثم إلى آخر لحظة إذا تمكنت من الصلاة وصلّيت ، لكن هل تضمن هذا ؟ كالذى يستطيع أن يحج ، إلا أنه أخرّ الحج إلى آخر أيامه ، فإن حج فلا شيء عليه ، لكنه لا يضمن البقاء إلى أن يحج ؛ لذلك يجب المبادرة بالحج عند أول استطاعة حتى لا تأثم إن فاتك وأنت قادر .

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ١٠

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤٦٤١/٦) : « أى : يرثون منازل أهل النار من الجنة . وفى الخبر عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : « إن الله تعالى جعل لكل إنسان مسكناً فى الجنة ومسكناً فى النار ، فأما المؤمنون فيأخذون منازلهم ويرثون منازل الكفار ويجعل الكفار فى منازلهم فى النار » خرجه ابن ماجه بمعناه . »

﴿أُولَئِكَ (١٠)﴾ [المؤمنون] يعنى : أصحاب الصفات المتقدمة ، وهم ستة أصناف : الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، والذين هم لآماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون . هؤلاء هم الوارثون ، والإرث : أخذ حق من غير عقد أو هبة ؛ لأن أخذ مال الغير لا بد أن يكون إما ببيع وعقد ، وإما هبة من صاحب المال . لذلك سألوا الوارث : أهذا حقك ؟ قال : نعم ، قالوا : فما صكك عليه ؟ يعنى : أين العقد الذى أخذته به ؟ قال : عقدى وصكى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ (١١)﴾ [النساء] فهو عقد أوثق وأعلى من تعاقد البشر .

وما دام عقدى من الحق - تبارك وتعالى - فلا تقل : إن الميراث مأخوذ بغير عقد ؛ لأنه قائم على أوثق العقود ، وهو العقد من الله . وكثيراً ما يخرج الناس فى مسألة الميراث عما شرع الله حباً فى المال واستثثاراً به ، أو بخلاً على من جعل له الشرع نصيباً ، فمن كان عنده البنون والبنات يعطى البنين ويحرم البنات ، ومن كان عنده بنات يكتب لهن ما يملك حتى يحرم إخوته وأعمامهم من حقهم فى ماله ، وهذا كثيراً ما يحدث فى المجتمع .

ويجب عليك أن تتنبه لمسألة الميراث وتحترم شرع الله فيه وتقسم الله للمال ، فقد وهبك الله المال وتركك تتصرف فيه طوال حياتك ، وليس لك أن تتصرف فيه أيضاً بعد موتك ، عليك أن تدع المال لصاحبه وواهبه يتصرف فيه ؛ لذلك قال الله تعالى عن الإرث : ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ (١١)﴾ [النساء] يعنى : ليست من أحد آخر ، وما دامت فريضة من الله فعليك أن تمتثل لها وتنفذها ، وحين تتأبى عليها فإنك تتأبى على الله وترفض قسمته .

والمعامل في مسألة الإرث يجد الخير كل الخير فيما شرعه الله ، ومن كان يحب البنين فليعط البنات حتى لا يفسد علاقة أولاده من بعده ، ويأتى إلينا بعض الرجال الذين أخذوا كل مال أبيهم وحرّموا منه البنات ، يقولون : نريد أن نُصحح هذا الخطأ ونعيد القسمة على ما شرع الله .

ونجد عند بعض الناس إشراقات إيمانية ، فإن رفض بعض الإخوة إعادة التقسيم على شرع الله يقول : أنا أتحمل ميراث أخواتي من مالى الخاص ، ومثل هؤلاء يفتح الله عليهم ويبارك لهم فيما بقى ؛ لأنهم جعلوا اعتمادهم على الله فيزيدهم من فضله ويربى لهم القليل حتى يصير كثيراً ، أما من اعتمد على ما فى يده فإن الله يكله إليه .

ونعجب من الذى يجعل ماله للبنات ليحرم منه إخوته ، نقول له : أنت لست عادلاً فى هذا التصرف ، يجب أن تعاملهم بالمثل ، فلو تركت بناتك فقراء لا مال لهن ، فمن يعولهن ويرعاهن من بعدك ؟ يعولهن الأعمام . إذن : لتكن معاملة بالمثل .

والحق - تبارك وتعالى - حين يورث هذه الأصناف يورثهم بفضله وكرمه ، وقد بين النبي ﷺ ذلك بقوله : « لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته »^(١) .

أما قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣٢) [النحل] فهذا خاص بمجرد دخول الجنة ، أما الزيادة فهى من فضل الله ﴿ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (١٧٣) [النساء]

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ومن أسمائه تعالى (الوارث) وقال : ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٨٩)
[الأنبياء] فماذا يرث الحق سبحانه وتعالى منا ؟

لقد خلق الله الخلق ، وأعطى للناس أسباب ملكيته ، ووُزِعَ هذه الملكية بين عبادِه : هذا يملك كذا ، وهذا يملك كذا من فضل الله تعالى . فإذا كان يوم القيامة عاد الملك كله إلى صاحبه ، وكان الحق سبحانه وتعالى هو الوارث الوحيد يوم يقول : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (٩٦) [غافر]

والله خير الوارثين ؛ لأن الوارث يأخذ ما ورثه لينتفع هو به ، لكن الحق سبحانه يرث ما تركه للغير ليعود خَيْرُهُ عليهم ويزيدهم ، ويعطيهم أضعافاً مضاعفة ، وإذا كان يعطيهم في الدنيا بأسباب فإنه في الآخرة يرث هذه الأسباب ، ويعطيهم من فضله بلا أسباب ، حيث تعيش في الجنة مستريحاً لا تعب ولا نصب ولا سَعْي ، وما يخطر ببالك تجده بين يديك دون أن تُحْرِكَ ساكناً .

إذن : البشر يرثون لياخذوا ، أما الحق سبحانه فيرث ليعطي ؛ لذلك فهو خير الوارثين .

فأيُّ شيء يرثه المؤمنون الذين توفرت فيهم هذه الصفات ؟
يجيب الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١١)

إذن : الحق سبحانه ورثهم في الفانية ليعطيهم الفردوس الخالد في الآخرة ، والفردوس أعلى الجنة ، فورث الحق لينفع عباده ويُصْعِدَ النفع لهم ، ففي الدنيا كنا ننتفع بالأسباب ، وفي الآخرة ننتفع بغير أسباب ، الحق ورث ليعطي ، لا مثل ما أخذ إنما فوق ما أخذ ؛ لأننا

ناخذ فى الميراث ما يفنى ، والله تعالى يعطينا فى ميراثه ما يبقى .

لكن ممَّن يرثون الفردوس ؟

قالوا : الحق - تبارك وتعالى - عندما خلق الخلق ، وجعل فيهم الاختيار بين الإيمان والكفر ، وبين الطاعة والمعصية رتبَّ على ذلك أموراً ، فجعل الجنة على فرض أن الخلق كلهم مؤمنون ، بحيث لو دخلوا الجنة جميعاً ما كانت هناك أزمة أماكن ولا زحام ، وكذلك جعل النار على فرض أن الخلق كلهم كافرون ، فلو كفر الناس جميعاً لكان لكل منهم مكانه فى النار .

وعليه فحين يدخل أهل الجنة الجنة يتركون أماكنهم فى النار ، وحين يدخل أهل النار النار يتركون أماكنهم فى الجنة ، فيرث أهل النار الأماكن الشاغرة فيها ، ويرث أهل الجنة الأماكن الشاغرة فيها .

والفردوس أعلى مكان فى الجنة ، لذلك كان النبى ﷺ يقول : « إذا سألت الله فاسأله الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة »^(١) ذلك : لأن الفردوس جنة على أعلى ربوة فى الجنة . يعنى : فى مكان مُميَّز منها ، والعلو فى مسألة المسكن والجنان أمر محبوب فى الدنيا ، الناس يُحبون السُّكنى فى الأماكن العالية ، حيث نقاء الهواء ونقاء الماء ، ألا تراهم يزرعون فى المرتفعات ، وإن كانت الأرض مستوية يجعلون فيها مصارف منخفضة تمتصُّ الماء الزائد الذى يفسد الزرع ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ كَمْثَلِ جَنَّةٍ بَرْبَوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ (٢٦٥) [البقرة]

كذلك الأرض المرتفعة لا تُسقى بالماء الغمر ، إنما تُسقى من ماء

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٣٣٥ ، ٣٣٩) ، والبخارى فى صحيحه (٧٤٢٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

السماء الذى يغسل الأوراق قبل أن يروى الجذور ، فيكون النبات على أفضل ما يكون ؛ لذلك يقول عنها رب العزة : ﴿ فَأَتَتْ أُكُلَهَا ضَعْفَيْنِ ﴾ (٢٦٤) [البقرة]

ومعلوم أن الأوراق هى رثة النبات ، وعليها تقوم عملية التمثيل الضوئى التى يصنع منها النبات غذاءه ، فإذا ما سُدَّتْ مسام الأوراق وتراكم عليها الغبار فإن ذلك يُقلِّل من قدرة النبات على التنفس ، مثل الإنسان حينما يُصاب بشيء فى رثته تزعجه وتُقلِّل من كفاءته .

وفى الفردوس ميزة أخرى هى أن الحق سبحانه وتعالى هو الذى غرس شجرها بيده ، كما كَسَّمْ أَدَمَ عليه السلام فخلقه بيده تعالى ، فقال : ﴿ يٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي ۖ ﴾ (٧٥) [ص]

ويُروى أن الحق - تبارك وتعالى - لما خلق الفردوس ، وغرس أشجارها بيده قال للفردوس ^(١) : تكلمى ، فلما تكلمت الفردوس قالت : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٦) [المؤمنون]

ثم يقول تعالى : ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١١) [المؤمنون] لأن نعيم الجنة باقٍ ودائم لا ينقطع ، وقم عرفنا أن نعيم الدنيا موقوت مهما أوتى الإنسان منه ، فإنه منقطع زائل ، إما أن يتركك بالفقر والحاجة ، وإما أن تتركه أنت بالموت ، لذلك يقول تعالى فى نعيم الآخرة : ﴿ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ (٣٣) [الواقعة]

وهكذا نلاحظ على استهلال هذه السورة أن الحق سبحانه بدأ بالكلام عن الفلاح فى الآخرة كأنه قدَّم ثمرة الإيمان أولاً ، ووضع

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/٢٩٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال ﷺ : « خلق الله الجنة عدن ، وغرس أشجارها بيده فقال لها : تكلمى ، فقالت : قد أفلح المؤمنون » . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال الذهبى فى تلخيصه : بل ضعيف .

الجزء بداية بين يديك كأنه سبحانه يقول لك : هذا جزء من آمن بي
واتبع منهجي . كما جاء في قوله تعالى في استهلال سورة (الرحمن) :
﴿الرَّحْمَنُ ۝ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ (٤)﴾
[الرحمن] كيف وقد خلق الله الإنسان أولاً ، ثم علّمه القرآن ؟

قالوا : لأن الذي يصنع صنعة يضع لها قانونها ، ويحدد لها
مهمتها أولاً قبل أن يشرع في صناعتها ، فمثلاً - والله المثل الأعلى -
الذي يصنع الثلاجة ، قبل أن يصنعها حدد عملها ومهمتها وقانون
صيانتها والغاية منها .

والقرآن هو منهج الإنسان ، وقانون صيانتها في حركة الحياة ؛
لذلك خلق الله المنهج ووضع قانون الصيانة قبل أن يخلق الإنسان .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝ (١٢)﴾

سبق أن تكلمنا عن خلق الإنسان ، وعرفنا أن الخالق - عز
وجل - خلق الإنسان الأول ، وهو آدم عليه السلام من طين ، ومن
أبعاضه خلق زوجه ، ثم بالتزاوج جاء عامة البشر كما قال تعالى :
﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۝ (١)﴾
[النساء]

ومسألة خلق السماء والأرض والناس مسألة احتفظ الله بها ، ولم
يطلع عليها أحد ، كما قال سبحانه : ﴿مَا أَشْهَدُتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا ۝ (٥١)﴾ [الكهف]

فلا تُصنَع إلى هؤلاء المضلين في كل زمان ومكان ، الذين يدعون
العلم والمعرفة ، ونسمعهم يقولون : إن العالم كان كتلة واحدة تدور
بسرعة فانفصل عنها أجزاء كوَّنت الأرض .. الخ وعن الإنسان

يقولون : كان أصله قدراً ، إلى آخر هذه الخرافات التي لا أساس لها من الصحة .

لذلك أعطانا الله تعالى المناعة الإيمانية التي تحمينا أن ننساق خلف هذه النظريات ، فأخبرنا سبحانه خبر هؤلاء وحذرنا منهم ؛ لأنهم ما شهدوا شيئاً من الخلق ، ولم يتخذهم الله أعواناً فيقولون مثل هذا الكلام . إذن : هذا أمر استأثر الله بعلمه ، فلا تأخذوا علمه إلا مما أخبركم الله به .

وكلمة الإنسان اسم جنس تطلق على المفرد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث ، فكل واحد منا إنسان ، بدليل أن الله تعالى استثنى من المفرد اللفظ جمعاً في قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا... (٣) ﴾ [العصر] فاستثنى من المفرد الجماعة .

ومعنى ﴿ خَلَقْنَا (١٢) ﴾ [المؤمنون] أوجدنا من عدم ، وسبق أن قلنا : إن الله تعالى أثبت للبشر صفة الخلق أيضاً مع الفارق بين خلق الله من عدم وخلق البشر من موجود ، وخلق الله فيه حركة وحياة فينمو ويتكاثر ، أما ما يخلق البشر فيجمد على حاله لا يتغير ؛ لذلك وصف الحق سبحانه ذاته فقال :

﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

أما قول القرآن حكاية عن عيسى عليه السلام : ﴿ أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ... (٤٩) ﴾ [آل عمران] فهذه من خاصياته عليه السلام ، والإيجاد فيها بأمر من الله يُجرىه على يد نبيه .

فالمعنى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ... (١٢) ﴾ [المؤمنون] أى : الإنسان الأول ، وهو آدم عليه السلام ﴿ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ﴾ [المؤمنون] والسلالة : خلاصة الشيء تُسَلُّ منه كما يُسَلُّ السيف من غمده أى :

الجواب الذى يوضع فيه ، فالسيف هو الاداة الفتاكة الفاعلة ، أما الغمد فهو مجرد حافظ وحامل لهذا الشيء الهام .

فالسلالة - إذن - هى أجود ما فى الشيء ، وقد خلق الله الإنسان الاول من أجود عناصر الطين وأنواعه ، وهى زبد الطين ، فلو أخذت قبضة من الطين وضغطت عليها بين أصابعك يتفككت منها الزبد ، وهو أجود ما فى الطين ويبقى فى قبضتك بقايا رمال وأشياء خشنة .

ولما أحب سيدنا حسان بن ثابت أن يهجو قريشاً لمعاداتهم لرسول الله ﷺ قال : إذن لى يا رسول الله أن أهجوهم من على المنبر فقال ﷺ : « أتجهوهم وأنا منهم ؟ » فقال حسان : أسلك منهم كما تسلك الشعرة من العجين^(١) .

وتطلق السلالة على الشيء الجيد فيقولون : فلان من سلالة كذا ، وفلان سليل المجد . يعنى : فى مقام المدح ، حتى فى الخيل يحتفظون لها بسلالات معروفة أصيلة ويسجلون لها شهادات ميلاد تثبت أصالة سلالتها ، ومن هنا جاءت شهرة الخيل العربية الأصيلة .

وقد أثبت العلم الحديث صدق هذه الآية ، فبالتحليل المعمل التجريبي أثبتوا أن العناصر المكونة للإنسان هى نفسها عناصر الطين ، وهى ستة عشر عنصراً ، تبدأ بالأكسوجين ، وتنتهى بالمنجنيز ، والمراد هنا التربة الطينية الخصبة الصالحة للزراعة : لأن الأرض عامة بها عناصر كثيرة قالوا : مائة وثلاثة عشر عنصراً .

ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَكِينٍ ﴿١٢﴾

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٣١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٤٨٩) عن شيخهما عثمان بن أبى شيبة بسنده إلى عائشة رضى الله عنها .

يعنى : بعد أن جعلناه بشراً مُستوياً فيه روح جعلناه يتكاثر من نفسه ، وكما خلقناه من خلاصة الطين فى الإنسان الأول خلقه فى النسل من خلاصة الماء وأصفى شئ فيه ، وهى النطفة : لأن الإنسان يأكل ويشرب ويتنفس ، والدم يمتص خلاصة الغذاء ، والباقي يخرج على هيئة فضلات ، ثم يُصفى الدم ويرشح فى الرئة وفى الكلى ، ومن خلاصة الدم تكون طاقة الإنسان وتكون النطفة التى يخلق منها الإنسان . إذن : فهو حتى فى النطفة من سلالة مُنتقة .

والنطفة التى هى أساس خلق الإنسان تعيش فى وسط مناسب هو السائل المنوى ، لذلك قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُعْنَى (٢٧) ﴾ [القيامة] ثم جعلنا هذه النطفة ﴿ فى قرارٍ مكينٍ (١٢) ﴾ [المؤمنون] قرار : يعنى مُستقر تستقر فيه النطفة ، والقرار المكين هو الرحم خلقه الله على هذه الهيئة ، فحصنه بعظام الحوض ، وجعله مُعداً لاستقبال هذه النطفة والحفاظ عليها .

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾

يقول العلماء : بعد أربعين يوماً تتحول هذه النطفة إلى علقة ، وسميت كذلك لأنها تعلق بجدار الرحم ، والعلماء يسمونها الزيجوت ، وهى عبارة عن بويضة مُخصبة ، وتبدأ فى أخذ غذائها منه .

ومن عجائب قدرة الله في تكوين الإنسان أن المرأة إذا لم تحمل ينزل عليها دم الحيض ، فإذا ما حملت لا ترى الحيض أبداً ، لماذا ؟ لأن هذا الدم ينزل حين لم تكن له مهمة ولا تستفيد به الأم ، أما وقد حدث الحمل فإنه يتحول بقدرة الله إلى غذاء لهذا الجنين الجديد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ۖ (١٤) ﴾ [المؤمنون] وهي قطعة صغيرة من اللحم على قدر ما يُمضَغ ، وسبق أن قلنا : إن المضغة تنقسم بعد ذلك إلى مُخَلَّقة وغير مُخَلَّقة ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ ۖ (٥) ﴾ [الحج] هذا على وجه التفصيل ، أما في الآية التي معنا فيُحَدِّثُنَا عن أطوار الخلق عامة ، حتى لا نظن أن القرآن فيه تكرار كما يدعى البعض .

المضغة المخلقة هي التي يتكوّن منها جوارح الإنسان وأعضاؤه ، وغير المخلقة تظل كما قلنا : احتياطياً لصيانة ما يتلف من الجسم ، كما يحدث مثلاً في الجروح وما شابه ذلك من عطب يصيب الإنسان ، فتقوم غير المخلقة بدورها الاحتياطي .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۖ (١٤) ﴾ [المؤمنون] لأنه كان في كل هذه الأطوار : النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة ، ثم العظام واللحم ما يزال تابعاً لأمه متصلاً بها ويتغذى منها ، فلما شاء الله له أن يُولَدَ انفصل عن أمه ليباشر حياته بذاته ؛ ولذلك نجد لحظة انفصال الجنين عن أمه في

عملية الولادة مسألة صعبة ؛ لأنه سيستقبل حياة ذاتية تستلزم أن تعمل أجهزته لأول مرة ، وأول هذه الأجهزة جهاز التنفس .

ومن رحمة الله بالجنين أن ينزل برأسه أولاً ليستطيع التنفس ، ثم يخرج باقى جسمه بعد ذلك ، فإن حدث العكس ونزل برجليه فربما يموت ؛ لأنه انفصل عن تبعيته لأمه ، وليس له قدرة على التنفس ليحتفظ بحياته الذاتية الجديدة ؛ لذلك فى هذه الحالة يلجأ الطبيب إلى إجراء عملية قيصرية لإنقاذ الجنين من هذا الوضع ، وقبل أن يخنق .

ولما كانت مسألة خلق الإنسان فيها كثير من العبر والآيات ودلائل القدرة طوال هذه المراحل التى يتقلب فيها الإنسان ، ناسب أن تختتم الآية بقوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون] لأنك حين تقف وتتأمل قدرة الله فى خلق الإنسان لا تملك إلا أن تقول : سبحان الله ، تبارك الله الخالق .

لذلك يروى أن رسول الله ﷺ حينما قرأ هذه الآية سبق عمر فقال (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال ﷺ للكاتب : اكتبها فقد نزلت^(١) ، لأنها انفعال طبيعى لقدرة الله ، وعجيب صنّعه ، وبديع خلقه ، وهذا نوع من التجاوب بين السليقة العربية واللسان العربى وبين أسلوب القرآن الذى جاء بلسان القوم .

(١) أثر عمر : أخرجه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن صالح أبى الخليل أن رسول الله ﷺ قال : « والذى نفسى بيده » إنها ختمت بالذى تكلمت يا عمر » [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٩٢/٦] .

ويقال : إن سيدنا معاذ بن جبل نطق بها أيضاً^(١) ، وكذلك نطق بها رجل آخر هو عبد الله بن سعد بن أبي السرح^(٢) ، مع اختلاف في نتيجة هذا النطق : لما نطق بها عمر ومعاذ رضي الله عنهما كان استحساناً وتعجباً ينتهي إلى الله ، ويُقَرُّ له سبحانه بالقدرة وبديع الصنع .

أما ابن أبي السرح فقد قالها كذلك تعجباً ، لكن لما وافق قوله قول القرآن أعجب بنفسه ، وادعى أنه يُوحى إليه كما يُوحى إلى محمد ، ولم لا وهو يقول كما يقول القرآن ، ومع ذلك هو ما يزال مؤدباً يدعى مجرد أنه يُوحى إليه ، لكن زاد تعاليه وجَرَّه غروره إلى أن قال : سأُنزل مثلاً أنزل الله ، فليس ضرورياً وجود الله في هذه المسألة ، فارتدَّ والعياذ بالله بسببها ، وفيه نزل قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ... ﴾ (٩٣) [الأنعام]

وظل ابن أبي السرح إلى فتح مكة حيث شفع فيه عثمان رضي الله عنه عند رسول الله ﷺ ، فلما رأى رسول الله ﷺ عثمان عليه سكت ، ولم يقل فيه شيئاً ، وعندها أخذه عثمان رضي الله عنه

(١) أثر معاذ بن جبل : أخرجه ابن راهويه وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال : أُملي على رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ (٩٦) [المؤمنون] إلى قوله ﴿ خَلَقْنَا آخَرَ... ﴾ (٩٦) [المؤمنون] فقال معاذ بن جبل : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فضحك رسول الله ﷺ ، فقال له معاذ : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : إنها ختمت ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (٩٦) [المؤمنون] .

(٢) هو : عبد الله بن سعد أبي سرح القرشي العامري ، من بني عامر بن لؤي فاتح أفريقية ، أسلم قبل فتح مكة ، كان من كتّاب الوحي ، وكان على ميمنة عمرو بن العاص حين افتتح مصر ووليها بعده لمدة ١٢ عاماً ، دانت له أفريقية كلها وهزم الروم في معركة ذات الصواري ، عام ٢٤ هـ . توفي عام ٢٧ هـ . [الأعلام للزركلي ٨٩/٤] .

وانصرف ، فقال النبي ﷺ لصحابته : « أما كان فيكم من يُجهز عليه ؟ » فقالوا : يا رسول الله لو أومات لنا برأسك ؟ يعنى : أشرت إلينا بهذا ، انظر هنا إلى متطق النبوة ، قال ﷺ : « لا ينبغي أن يكون لنبي خائفة الأعين »^(١) يعنى : هذا تصرّف لا يليق بالانبياء ، فلو فعلتموها من أنفسكم كان لا بأس .

ثم بعد ذلك حل بركة عثمان على ابن أبى السرح فيؤمن ويحسن إسلامه ، ثم يولى مصر ، ويقود الفتوحات فى إفريقيا ، ويتقلب على الضجة التى أثاروها فى بلاد النوبة ، وكان الله تعالى كان يدخره لهذا الأمر الهام .

وبعد هذه العجائب التى رأيناها فى مراحل خلق الإنسان وخروجه إلى الحياة والإقرار لله تعالى بأنه أحسن الخالقين ، يذكّرنا سبحانه بأن هذه الحياة لن تدوم ، فيقول تبارك وتعالى :

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَعِتُونَ ﴿١٥﴾

ولك أن تسأل : كيف يحدثنا الحق - تبارك وتعالى - عن مراحل الخلق ، ثم يحدثنا مباشرة عن مراحل الموت والبعث ؟
نقول : جعلهما الله تعالى معاً لتستقبل الحياة وفى الذهن وفى الذاكرة ما ينقض هذه الحياة ، حتى لا تتعالى ولا تغفل عن هذه النهاية ولتكن على بالك ، فترتب حركة حياتك على هذا الأساس .

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢٦٨٣) . والنسائى فى سننه (١٠٦/٧) من حديث سعد بن أبى وقاص ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رأى كسفت يدي عن بيعته فيقتله ؟ » فقالوا : ما ندري يا رسول الله ما على نفسك ، ألا أومات إلينا بعينك . قال : « إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائفة الأعين » .

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① ﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ② ﴾ [الملك] كأنه سبحانه ينمى إلينا أنفسنا قبل أن يخلق فينا الحياة ، وقدم الموت على الحياة حتى تستقبل الحياة وتستقبل قبلها الموت الذى ينقضها فلا تغتر بالحياة ، وتعمل لما بعد الموت .

وقد خاطب الحق - سبحانه وتعالى - نبيه ﷺ بقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ③ ﴾ [الزمر] البعض يظن أن مَيِّتٌ بالتشديد يعنى مَنْ مات بالفعل ، وهذا غير صحيح ، فالمَيِّتٌ بتشديد الياء هو ما يؤول أمره إلى الموت ، وإن كان ما يزال على قيد الحياة ، فكلنا بهذا المعنى مَيِّتُونَ ، أمّا الذى مات بالفعل فهو مَيِّتٌ بسكون الياء ، ومنه قول الشاعر^(١) :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَحَ بِمَيِّتٍ إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ^(٢)

ومعنى : ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ④ ﴾ [المؤمنون] يعنى : بعد أطوار الخلق التى تقدمت من خلق الإنسان الاول من الطين إلى أن قال سبحانه : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ⑤ ﴾ [المؤمنون]

والماتل فى هذه الآية وهى تُحدثنا عن الموت الذى لا ينكره أحد ولا يشك فيه أحد ، ومع ذلك أكدها الحق - تبارك وتعالى - بادأتين من أدوات التوكيد : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ⑥ ﴾ [المؤمنون] فأكدّها بـ"ثُمَّ" وباللام ، ومعلوم أننا لا نلجأ إلى التوكيد إلا حين يواجهنا منكر ، فيأتى التاكيد على قدر ما يواجهك من إنكار ، أما خالى الذهن فلا يحتاج إلى توكيد .

(١) هو : عدى بن الرعلاء الغساني . شاعر جاهلى ، اشتهر بنسبته إلى أمه ، وضاع اسم أبيه . [الأعلام للزركلى ٢٢٠/٤] .

(٢) ذكره ابن منظور فى لسان العرب - مادة : موت .

تقول مثلاً لخالى الذهن الذى لا يشك فى كلامك : يجتهد محمد ، فإن شك تؤكد له بالجملة الاسمية التى تفيد ثبوت واستقرار الصفة : محمد مجتهد ، وتزيد من تأكيد الكلام على قدر الإنكار ، فنقول : إن محمداً مجتهد ، أو إن محمداً لمجتهد ، أو والله إن محمداً لمجتهد . هذه درجات للتأكيد على حسب حال من تخاطبه .

إذن : أكد الكلام عن الموت الذى لا يشك فيه أحد ، فقال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَعْمُتُونَ ﴾ [المؤمنون] ومع ذلك لما تكلم عن البعث وهو محل الشك والإنكار قال سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ ١٦

ولم يقل : لتبعثون كما قال ﴿ لَمَعْمُتُونَ ﴾ [المؤمنون] فكيف يؤكد ما فيه تصديق وتسليم ، ولا يؤكد ما فيه إنكار ؟

قالوا : نعم : لأن المتكلم هو الله تعالى ، الذى يرى غفلتكم عن الموت رغم وضوحه ، فلما غفلتم عنه كنتم كالمكذّبين به المنكرين له ، لذلك أكد عليه ، لذلك يقال : « ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت » فالكل يعلم الموت ويعاينه ، لكن يبعده عن نفسه ، ولا يتصوره فى حقه .

أما البعث والقيامة فأدلتها واضحة لا يصح لأحد أن ينكرها ؛ لذلك جاءت دون تأكيد : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون] فأدلة البعث أوضح من أن يقف العقل فيها أو ينكرها ؛ لذلك ساطلقها إطلاقاً دون مبالغة فى التوكيد ، أما من يتشكك فيه أو ينكره ، فهذا نؤكد له الكلام ، فانظر إلى بصر الحق - سبحانه وتعالى - بعقليات خلقه وبنفوسهم وملكاتهم .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا

عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

نلاحظ أن للعدد سبعة مواقف في هذه السورة وأسراراً يجب أن نتأملها ، ففي استهلال السورة ذكر سبحانه سبعة أصناف : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون]

وفي مراحل خلق الإنسان نجده مرّ بسبعة أطوار : سلاله من طين ، ثم نطفه ، ثم علقه ، ثم مضغه ، ثم عظاماً ، ثم لحماً ، ثم إنشأناه خلقاً آخر .

وهنا يقول : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴿١٧﴾﴾ [المؤمنون]

وفي موضع آخر قال : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق]

فهذه سبعة للغاية ، وسبعة للمعيا له ، وهو الإنسان ، وسبعة للسموات والأرض المخلوقة للإنسان .

وطرائق : جمع طريقة أى : مطروقة للملائكة ، والشىء المطروق ما له حجم يتسع بالطريق ، كما تطرق قطعة من الحديد مثلاً ، فانظر إلى السماء واتساعها . وقل : سبحانه من طرقها .

وتلاحظ أن الحق سبحانه لم يذكر هنا الأرض ، لماذا ؟ قبالوا : لأن الأرض نقف عليها ثابتين لا نخاف من شىء ، إنما الخوف من السماء أن تتدك فوقنا ؛ لذلك يقول سبحانه بعدما : ﴿وَمَا كُنَّا عَنْ

الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ [المؤمنون] فلن نغفل عن السَّعَاءِ مِنْ فَوْقِكُمْ ،
وسوف نُمسِكُهَا بِأَيْدِينَا ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ وَالْعَالَمِينَ لَأُمْسِكُنَّهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ
بَعْدِهِ..﴾ ﴿٤١﴾ ﴿١٨﴾

ثم يعطينا الحق - تبارك وتعالى - الدليل الحسى على هذه الآية ،
وكيف أن الله تعالى رفع السماء فوقنا بلا عمد ، ومثال ذلك الطير
يُمْسِكُهَا اللهُ فِي السَّمَاءِ : ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا
يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ ﴿١٩﴾

نظم أن الطير يطير في السماء بحركة الجناحين التي تدفع الهواء
وتقاوم الجاذبية فلا يسقط ، كما تسبح الخدج يرفع بذراعيه السماء
ليسبح ، فإذا ما قبض الطائر بجناحيه ومع ذلك يظل مُعلقاً في السماء
لا يسقط فيمن يُمْسِكُهَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ ؟ هذه صورة تشاهدونها
لا يشك فيها أحد ، فإذا قلت لكم أني أُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى
الْأَرْضِ فَصَدِّقُوا وَأَطِيعُوا واستدلوا على الغيب بالمشاهد

وكان الحق سبحانه في قوله : ﴿وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ ﴿١٧﴾
[المؤمنون] يقول : أطمعوا إلى السماء من فوقكم ، فقد جعلت لها
التأمينات اللازمة التي تؤمن المؤمنين تحت الصلابة ، أطمعوا لأنها
بأيدينا وفي رعايتنا

لكن ما المراءى بقوله : ﴿عَنِ الْخَلْقِ﴾ ﴿١٧﴾ [المؤمنون] أهو الإنسان
أم خلق السموات والأرض ؟ المراءى عن خلق السموات ، فبيننا
على توقيات ونظم حميتكم وتضمن سلامتكم

والغفلة : ترك شيء لأنه غاب عن البال ، وهذه مسألة لا تكون
أبداً في حق الله - عز وجل - لأنه لا تأخذه سنة ولا نوم

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ
وَلِنَأْكُلَ مِنْ ثَمَرِهِ إِذْ يَقْدِرُونَ ۝﴾

يقول تعالى عن الماء : ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ۝﴾
[المؤمنون] فهل الماء مقرر السماء ؟ لا ، الماء مقرر الأرض ، كما جاء
في قول الله تعالى : ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ كَفُورُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ
وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ وجعل فيها رواسي من فوقها
وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ۝﴾ [فصلت]

لما استدعى الخالق - عز وجل - الإنسان إلى هذا الوجود جعل له
في الأرض مقومات استبقاء حياته من الهواء والقوت والماء ، والإنسان
كما قلنا يستطيع أن يصبر على الطعام ، وصبره أقل على الماء ، لكن
لا صبر له على الهواء ؛ لذلك شاءت قدرة الله ألا يملكه لأحد ؛ لأنه مقوم
الحياة الأول ، فالغلاف الجوي والهواء المحيط بالأرض تابع لها وجزء
منها داخل تحت قوله : ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا أَقْوَاتَهَا ۝﴾ [فصلت] بدليل أنهم
حينما يخرجون عن نطاق الأرض يمتنع الهواء .

ومن حكمة الخالق - عز وجل - وقدرته أن جعل الماء على
الأرض مالحة ؛ لأن الملح أساس في صلاح الأشياء التي يطرأ عليها
الفساد ، فالماء العذب عرضة للتغيير والعطن ، وبالمالح نصلح
ما نخشى تغييره فنضعه على الطعام ليحفظه ونستخدمه في دباغة
الجلود .. الخ

لذلك قال الشاعر :

يَا رِجَالَ الدِّينِ يَا مِلْحَ الْبَلَدِ مَنْ يُصْلِحِ الْمِلْحَ إِذَا الْمِلْحُ فَسَدَ

إذن : أصل الماء في الأرض ، لكن ينزل من السماء بعد عملية
البخار التي تُصفيه فينزل عذباً صالحاً للشرب وللري ، وقلنا : إن
الخالق سبحانه جعل رقعة الماء على الأرض أكبر من رقعة اليابسة
حتى تتسع رقعة البخار ، ويتكون المطر الذي يكفي حاجة أهل
الأرض .

ومن رحمة الله بنا أن ينزل الماء من السماء ﴿بِقَدْرِ (١٨)﴾
[المؤمنون] يعني : بحساب وعلى قدر الحاجة ، فلو نزل هكذا مرة
واحدة لأصبح طوفاناً مُدمراً ، كما حدث لقوم نوح ولأهل مارب .
وفي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا
نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١)﴾ [الحجر]

ثم يقول سبحانه : ﴿فَأَسْكِنَاهُ فِي الْأَرْضِ (١٨)﴾ [المؤمنون] لأننا
ناخذ حاجتنا من ماء المطر ، والباقي يتسرب في باطن الأرض ، كما
قال سبحانه : ﴿فَسَلَكُهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ (٢١)﴾ [الزمر] ومن عجيب قدرة
الله في المياه الجوفية أنها تسير في مسارب مختلفة ، بحيث لا يختلط
الماء العذب بالماء المالح مع ما يتميز به الماء من خاصية
الاستطراق ، والعاملون في مجال حفر الآبار يجدون من ذلك عجائب ،
فقد يجدون الماء العذب بجوار المالح ، بل وفي وسط البحر لأنها
ليست مستطربة ، إنما تسير في شعيرات ينفصل بعضها عن بعض .

والمياه الجوفية مخزون طبيعي من الماء نُخرجه عند الحاجة ،
ويُسعفنا إذا نضب الماء العذب الموجود على السطح ﴿فَأَسْكِنَاهُ فِي
الْأَرْضِ (١٨)﴾ [المؤمنون] ليكون احتياطياً لحين الحاجة إليه ، فإذا جفَّ
المطر تستطيعون أن تستنبطوه .

ثم يذكّرنا الحق سبحانه بقدرته على سكب هذه النعمة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهَ لِقَادِرُونَ﴾ (١٥) [المؤمنون] يعنى : سيروا فى هذه النعمة متبرين لا يعرضها للزوال ، وقال فى موضع آخر : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنِ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمِنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ (٣٥) [الماء]

وحين تعدّ نعم الله التى امتنّ علينا بها بداية من نعمة المياه : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ (١٨) [المؤمنون] تجدها أيضاً سبعة : ويجدو أن لهذا العدد أسراراً فى هذه السورة ، فقد ذكر من أوصاف المؤمنين سبعة ، ومن مراحل خلق الإنسان سبعة ، ومن السموات والأرض سبعة ، وهنا يذكر من نعمه علينا سبعة : لذلك كان للعلماء وقفات عند هذا العدد بالذات .

وأذكر ونحن فى المملكة السعودية وكنت أستاذاً فى كلية الشريعة ومعنى بعض الأساتذة . ورئيس بعثتنا الشيخ زكى غيث - رحمه الله وغفر الله له - ورئيس بعثة المعارف الأستاذ صلاح بك الباقراء . وكان دائماً ما يجلس معنا شيخ علماء المملكة فى هذا الوقت السيد إسحق عزوز ، وكان يجعنا كل ليلة الفندق الذى نقيم فيه ، وكنا نتدارس بعض قضايا العلم .

وقد أثار الشيخ إبراهيم عطية قضية هذه العدة فى القرآن الكريم ، وكان يقرأ فى تفسير القرطبي فوجد فيه : قال عمر بن الخطاب لابن عباس : يا ابن عباس أتعرف متى ليلة القدر ؟ فقال ابن عباس : أغلب الظن أنها ليلة السابيع والعشرين ، فلما سمعنا هذا الكلام قلنا : هذه سبعة ، وهذه سابع وعشرون ، فلما اختلفنا اقترح علينا الشيخ محمد أبو على - أطل الله عمره - أن نذهب لنصلى فى الحرم بدل أن نصلى فى الفندق عملاً بسنة رسول الله ﷺ ، وقد كان كلما حزبه أمر يقوم

إلى الصلاة ، وقلنا : ربما يفتح الله علينا في هذه المسألة .

وبعد أن صلينا جالساً ، ناقش هذه المسألة ، فإذا برجل لا نعرفه على سمة المجاذيب غير مهتم بنفسه ، يجلس بجوارنا ويُنصت لما نقول ، ثم شاركنا الكلام وقال : ألم يقل رسول الله ﷺ : « التمسوها في العشر الأواخر من رمضان » ^(١) ؟ إذن : فدعكم من العشرين يوماً ، واحسبوا في العشر الأواخر ، ثم نظرنا فلم نجده ، كأن وحدة الزمن التي توجد بها ليلة القدر هي هذه العشر ، وكأنها بهذا المعنى ليلة السابع ، وهذه أيضاً من أسرار هذا العدد ﴿ وَلَوْ كُنَّ كُلُّ ذِي عِلْمٍ غَلِيمٌ ﴾ (٧٦)

أطال الله في عمر من بقي من هؤلاء ، وغفر الله لمن ذهب . ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ كُنَّ كُلُّ ذِي حُلُمٍ عَالِمٌ ﴾ (٧٧)

﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْتَبْنَا لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهَ كَثِيرَةً ﴾ (١٩)

﴿ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهَ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ (٢٠)

الجنة : المكان العلى ، بالأشجار العالية والمزروعات التي تستر من يسير فيها ، أو تستره عن الخارج ، فلا يحتاج في متطلبات حياته إلى غيرها ، فهي من الكمال بحيث تكفيه ، فلا يخرج عنها . واختار هذه الأنواع ﴿ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهَ كَثِيرَةٌ ﴾ (١٩) [المؤمنون] لما لها من منزلة عند العرب ، وقال ﴿ فَوَاكِهَ كَثِيرَةٌ ﴾ (٢٠) [المؤمنون] لأنه لم يحصر جميع الأنواع .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠٢١) من حديث ابن عباس ، وأخرجه مسلم في صحيحه (٢١٦٦) كتاب الضياع عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : أريت ليلة القدر ، ثم أيقظني بعض أملي فنسيتها فالتمسوها في العشر الغواير .

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ
بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْأَكْلِينَ﴾ (٢٠)

الطور : جبل منسوب إلى سيناء ، وسيناء مكان حسن : لأن الله بارك فيها ، والطور كلُّم الله عليه موسى ، فهو مكان مبارك ، كما بارك الله أرض بيت المقدس فقال : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ (١) [الإسراء]

ومعنى ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ (٢٠) [المؤمنون] الدهن هو الدَّسَمُ ، والمراد هنا شجرة الزيتون التي يستخرجون منها الزيت المعروف ﴿وَصِبْغٍ لِلْأَكْلِينَ﴾ (٢٠) [المؤمنون] يعنى : يتخذونه إداماً يغمسون فيه الخبز ويأكلونه ، وهو من أشهى الاكلات والدَّهْمَا عند مَنْ يزرعون الزيتون فى سيناء وفى بلاد الشام ، وقد ذُقْنَا هذه الاكلة الشهيرة فى لبنان ، عندما ذهبنا إليها فى موسم حصاد الزيتون .

﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُفَكَّرُمْ مَعَا فِي بَطُونِهَا وَلَكُرْفِيهَا
مَنْفَعٌ كَثِيرٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٦)

الانعام : يُراد بها الإبل والبقر ، والحق بالبقر الجاموس ، ولم يُذكر لأنه لم يكن موجوداً بالبيئة العربية ، والغنم وتشمل الضأن والماعز ، وفى سورة الانعام يقول تعالى : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ...﴾ (١٤٣) [الانعام]

ويقال فيها : أنعام ونعم (بفتح النون والعين) .

والعبرة : شئ تعتبرون به وتستدلون به على قدرة الله وبديع صنعه فى خلق الانعام .

لكن ، ما العبرة فى خلق هذه الانعام ؟ الحق - سبحانه وتعالى -
تكلم عن خلق الإنسان ، وأنه تعالى خلقه من صفوة وخلصة وسلالة
من الطين ومن النطفة ، وهكذا فى جميع أطوار خلقه . وفى الانعام ترى
شيئاً من هذا الاصطفاء والاختيار ، فالانعام تاكل من هنا وهناك وتجمع
شتى الانواع من المأكولات ، ومن هذا الخليط يخرج الفَرْث ، وهو مُنتن
لا تطيق رائحته ويتكون دم الحيوان ، ومن بين الفَرْث والدم يُصْفَى لك
الخالق - عز وجل - لبناً خالصاً ، وهذه سلالة أيضاً وتصفية .

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ
بَيْنِ فَرْثٍ ^(١) وَدَمٍ لَبْنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل]

ونلاحظ أن الآية التى معنا تقول : ﴿ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ [٢١]
[المؤمنون] وفى آية النحل : ﴿ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ [٦٦] [النحل] ذلك
لأننا نأخذ اللبن من إناث الانعام ليس من كل الانعام ، فالمعنى ﴿ مِمَّا
فِي بُطُونِهَا ﴾ [٢١] [المؤمنون] أى : الإناث منها و ﴿ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ [٦٦]
[النحل] أى : بطون البعض ؛ ولذا عاد الضمير مذكراً .

وقوله : ﴿ نُسْقِيكُمْ ﴾ [٢١] [المؤمنون] من سقى ، وفى موضع آخر
﴿ فَأَسْقِيكُمْوه ﴾ [٢٢] [الحجر] من الفعل أسقى . البعض يقول إنهما
مترادفان ، وهما ليسا كذلك لأن لكل منهما معنى ، فسقى يعنى : أعطاه
الشراب ، أما أسقى فيعنى جهز له ما يشربه لحين يحب أن يشرب ^(٢) .

(١) الفَرْث : ما فى الكرش من طعام مهضوم متغير كرية الرائحة . [القاموس القويم
٧٤/٢] .

(٢) قال الفراء : العرب تقول لكل ما كان من بطون الأنعام ومن السحابة أو نهر يجري لقوم
أسقى ، فإذا سقاك ماء لشفتك قالوا سقاك ولم يقولوا أسقاك ، كما قال تعالى : ﴿ وَسَقَاهُمْ
رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [٢١] [الإنسان] ، وربما قالوا لما فى بطون الأنعام ولعلاء السحابة سقى
واسقى . [لسان العرب - مادة : سقى] .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن شراب الجنة ، فقال : ﴿ وَحَلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ (٢٤) [الإنسان]

ولما تكلم عن ماء الخضر قال سبحانه : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الرِّيحَ لَوَافِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَتَيْنَا الْكُمُودَ وَمَا أَكْتُمُ لَهُ بَخَارًا زَمِينًا ﴾ (٢٦) [الحجر] يعني : جعله في مستودع لحين الحاجة إليه .

كما قلنا في (مرضع) بالكسر ، و (مرضع) بالفتح ، فمرضع بالكسر للتي ترضع بالفعل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرُوءُهَا تَدَحَّلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ (٢٧) [الحج]

أما مرضع بالفتح ، فهي الصالحة للرضاعة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٢٨) [المؤمنون] نلاحظ أن آية النحل ركزت على مسألة تصفية اللبن من بين قُرْبٍ وِدَمٍ ، أما هنا فقد ركزت على منافع أخرى للأنعام ، فكل آية تأخذ جانباً من الموضوع ، وتتناوله من زاوية خاصة ، نوضح ذلك لمن يقولون بالتكرار في القرآن الكريم ، فالآيات في الموضوع الواحد ليست تكراراً ، إنما هو تأسيس بـلِقَطَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، كل لقطة تؤدي في مكانها موقعاً من العظة والعبرة ، بحيث إذا جمعت كل هذه المكررات الظاهرة تعطيك الصورة الكاملة للشئ .

والمنافع في الأنعام كثيرة : منها تأخذ الصوف والوبر ، وكانوا يصنعون منه الملابس والفرش والخيام ، قبل أن تُعرف الملابس والمنسوجات الحديثة ، ومن ملابس الصوف سُميت الصوفية لمن يلبسون الثياب الخشنة ، وهم الآن يصنعون من الصوف ملابس ناعمة كالحرير يرتديها المترفون .

ومن منافع الأنعام أيضاً الجلود والعظام وغيرها ، يقول تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ مَسْكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ^(١) وَيَوْمَ اقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارُهَا أَثَاثًا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ^(٨) ۝

﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ^(٢١) ۝ [المؤمنون] أى : لحماً ، وذكر اللحم فى آخر هذه المنافع ؛ لأنه آخر ما يمكن الانتفاع به من الحيوان ، وسبق أن ذكرنا أن الحيوان الذى أحله الله لنا إذا تعرض لما يزهق روحه ، فإنه يرفع لك رقبته ، ويكشف لك عن موضع ذبحه كأنه يقول لك : أسرع واستفد منى قبل أن أموت .

وقى لقطة أخرى لمنافع الأنعام يقول سبحانه : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْبِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ^(٧) ۝ [النحل] إذن : كل آية تحدثت عن الأنعام تعطينا فائدة لتظل مربوطاً بالقرآن كله .

﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ^(٢٢) ۝

﴿ وَعَلَيْهَا ^(٢٢) ۝ [المؤمنون] أى : على الدواب تُحْمَلُونَ ، فتركب الدواب ، ونحمل عليها متاعنا ، لكن لما كانت الأرض ثلاثة أرباعها ماء ، فإن الحق - سبحانه وتعالى - ما تركنا فى البحر ، إنما حملنا فيه أيضاً ﴿ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ^(٢٢) ۝ [المؤمنون] فكما أعددت لكم المطايا على اليابسة الضيقة أعددت لكم كذلك ما تركبونه فى هذه المساحة الواسعة من الماء .

ولما كان الكلام هنا عن الفلك فقد فاسد ذلك الحديث عمن له صلة بالفلك ، وهو نوح عليه السلام :

(١) الظن : الانتقال من مكان إلى مكان أى سافر . [القاموس القويم ١/ ٤١٥] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْبُدُوا اللَّهَ ۖ
 مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِهِ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٢٣)

بعد أن حدثنا القرآن الكريم عن خلق الإنسان وخلق الحيوان ،
 وحدثنا عن بعض نعمه التي امتن بها علينا تدرج بنا إلى صناعة
 الفلك : لأنه قد يسأل سائل : وكيف تكون هذه الفلك أي : تخلق
 كالإنسان والحيوان بالتوالد ، أم تنبت كالزراع ؟ فأوضح الخالق
 سبحانه أنها وجدت بالوحي في قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ
 الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ (٢٧)

ومعنى ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٢٧) [المؤمنون] أنها صنعة دقيقة ، لم يترك فيها
 الحق سبحانه نبيّه يفعل ما يشاء ، إنما تابعه ولاحظه ووجهه إلى
 كيفية صناعتها والمواد المستخدمة فيها ، كما قال سبحانه :
 ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوَّاحِ وَدُسْرٍ ﴾ (١٣) [القمر] وهي الحبال ، كانوا
 يربطون بها ألواح الخشب ، ويضمعون بعضها إلى بعض ، أو
 المسامير تُشدُّ بها الألواح بعضها إلى بعض .

لكن ، مهما أحكمت ألواح الخشب بعضها إلى بعض ، فلا بد أن
 يخل بينها مسام يتسرب منها الماء ، فكيف نتفادى ذلك في صناعة
 الفلك خاصة في مراحلها البدائية ؟ يقولون : لا بد لصانع الفلك أن
 يجفف الخشب جيداً قبل تصنيعه فإذا ما نزل الخشب الملة يتشرب
 منه ، فيزيد حجمه فيسدّ هذه المسام تماماً ، ولا يتسرب منها الماء .

ومن عجائب القوآن ومعجزاته في مسألة الفلك قوله تعالى :

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ (٢٤) [الرحمن] يعني :
 كالجبال العظيمة . وهذه الفلك لم تكن موجودة وقت نزول القرآن إنما

أخبر الله بها ، مما يدل على أنه تعالى الذى امتن علينا بهذه النعمة ، علم ما يمكن أن يتوصل إليه الإنسان من تطور فى صناعة الفلك ، وأنها ستكون عالية شاهقة كالجبال .

وطالما أن الكلام معنا عن الفلك ، فطبيعى ومن المناسب أن نذكر نوحاً عليه السلام ؛ لأنه أول من اهتدى بالوحي إليه إلى صناعة الفلك ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ۖ (٢٣) ﴾ [المؤمنون] لما تكلم الحق سبحانه عما فى الانعام من نعم وفوائد ، لكنها تقول كلها - بل والدنيا معها - إلى زوال . أراد سبحانه أن يعطينا طرفاً من الحياة الباقية والنعيم الدائم الذى لا يزول فنذكر منهج الله الذى أرسل به نوح ، وهو واحد من أولى العزم من الرسل .

والإرسال : هو أن يكلف مرسل مرسلاً إلى مرسل إليه ، فالمكلف هو الحق سبحانه ، والمكلف بالرسالة نوح عليه السلام ، والمرسل إليهم هم قومه ، والله لا يرسل إلى قوم إلا إذا كانوا يهتمونه ، وكيف لا وهم عباده وخلقته ، وقد جعلهم خلفاء له فى الأرض ؟

والذى خلق خلقاً ، أو صنع صنعة لا بد أن يضع لها قانون صيانتها ، لتؤدى مهمتها فى الحياة ، وتقوم بدورها على الوجه الأكمل ، كما مثّلنا لذلك - والله تعالى المثل الأعلى - بصانع الثلاجة أو التليفيزيون حين يضع معه كتالوجاً يحوى تعليمات التشغيل وطريقة الصيانة وكيفية إصلاح الأعطال .

فالذى خلق الإنسان وجعله خليفة له فى الأرض أولى بهذا القانون وأولى بصيانة خلقه ؛ لذلك يقول سبحانه فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتك من أجلى ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له » ، يعنى : ما دام كل شيء

من أجلك يعمل لك ويؤدي مهمته ، فعليك أيضاً أن تؤدي مهمتك التي خلقتك من أجلها .

لذلك وضع لك ربك قانون صيانتك بفعل كذا ولا تفعل كذا ، فعليك أن تلتزم الأمر فتؤديه فهو سرُّ الجمال في الكون ، وسرُّ السعادة والتوافق في حركة الحياة ، وعليك أن تجتنب النهى فلا تقربه ؛ لأنه سيؤدي إلى قُبْح ، وسيكشف عورة من عورات المجتمع ، أما الأمور التي سكنت عنها فأنت حرٌّ فيها تفعل أو لا تفعل ؛ لأن ذلك لا يأتي بقبيح في المجتمع ، وهذه المسائل تُسمى المباحات ، وقد تركها الله لحريتك واختيارك .

والحق - تبارك وتعالى - لما استدعى الإنسان إلى هذا الكون خلق له مقومات حياته من مقومات استبقاء الحياة من طعام وشراب وهواء واستبقاء النوع بالتناسل ، وقد شمل قانون الصيانة كل هذه المقومات ، فنظّمها وحدد ما يحل وما يحرم . فقال : كُلْ هذه ولا تأكل هذه ، واشرب هذا ولا تشرب ذاك ، ولو شاهدنا المخترعين في مسائل المادة نجد الصانع يحدد مقومات صنعته ، فمثلاً هذا الجهاز يعمل على ١١٠ فولت ، وهذا يعمل على ٢٢٠ فولت ، وهذه الآلة تعمل بالبنزين ، وهذه بالسولار ، فلو غيّرت في هذه المقومات تفسد الآلة ولا تؤدي مهمتها .

كذلك - والله المثل الأعلى - عليك أن تلتزم بقانون ومنهج خالقك عز وجل ، ولا تحدّ عنه ، وإلا فسد جالك وعجزت عن أداء مهمتك في الحياة . فإن أردنا أن نستقيم لنا الخلافة التي خلقنا الله لها وهي خلافة مصلحة لا مفسدة ، فعلينا بقانون الصيانة الذي وضعه لنا خالقنا عز وجل .

لذلك ، إن رأيت في المجتمع عورة ظاهرة في أى ناحية من نواحي الحياة فاعلم أنها نتيجة طبيعية للخروج عن منهج الله ، وتعطيل حكم من أحكامه ، فمثلاً حين ترى الفقراء والجوعى والمحاييج فاعلم أن في الأمر تعطيلاً لحكم من أحكام الله ، فهم إما كسالى لا يحاولون السعى في مناكب الأرض ، وإما غير قادرين حرمهم القادرون واستأثروا بالثروة دونهم .

البعض يقول : إذا كان الحق سبحانه قد حرم علينا بعض الأشياء ، فلماذا خلقها ؟ ويمثلون لذلك بالخنزير مثلاً وبالخمير . وخطأ هؤلاء أنهم يظنون أن كل شيء خلق ليؤكل ، وهذا غير صحيح ؛ لأن الله تعالى خلق هذه الأشياء لمهمة تؤديها في الحياة ، وليس بالضرورة أن تؤكل ، فالخنزير خلقه الله لينظف البيئة من القاذورات ، لذلك لا تراه يأكل غيرها .

أما الخمير فلم تُخلق خمراً ، إنما هي ثمرة العنب الحلوة التي تؤكل طازجة ، أخذها الإنسان وتدخل في هذه الطبيعة وأفسدها بتخميره ، فصار الحلال بذلك محرماً .

نعود إلى قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۖ ﴾ (٢٣)

[المؤمنون] القوم : هم الرجال ، خاصة من المجتمع ، وليس الرجال والنساء ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ۚ ﴾ [المحجرات] فالنساء في مقابل القوم أي : الرجال .

ومن ذلك قول الشاعر^(١) :

وَمَا أَدْرِى وَسَوْفَ أَخَالُ أَدْرِى أَقَوْمَ آلِ حِصْنٍ^(٢) أَمْ نِسَاءُ

لكن هل أرسل نوح عليه السلام إلى الرجال دون النساء ؟ أرسل نوح إلى الجميع ، لكن ذكر القوم لأنهم هم الذين سيحملون معه أمر الدعوة ويسيحون بها ، ويبلغونها لمن لهم ولاية عليهم من النساء ، والرجال منوط بهم القيام بمهام الأمور في عمارة الكون وصلاحه .

والإضافة في ﴿قَوْمِهِ.. (٢٣)﴾ [المؤمنون] بمعنى اللام يعنى : قوم له ؛ لأن الإضافة تأتي بمعنى من مثل : أردب قمح يعنى من قمح ، وبمعنى فى مثل : مكر الليل يعنى فى الليل ، وبمعنى اللام مثل : قلم زيد يعنى لزيد .

فالمعنى هنا : قوم له ؛ لأنه منهم ومأمون عليهم ومعروف لهم سيرته الأولى ، فإذا قال لهم لا يتهمونه ، إذن : فمن رحمة الله بالخلق أن يرسل إليهم واحداً منهم ، كما قال سبحانه : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] ففى هذا إيناس وإلف للقوم على خلاف ما إن كان الرسول ملكاً مثلاً ، فإن القوم يستوحشونه ولا يأنسون إليه .

لذلك ، فالنبي ﷺ كان يُسمى بين قومه وقبل بعثته بالصادق الأمين ؛ لأنه معروف لهم ماضيه وسيرته ومقومات حياته تُشجع على

(١) هو : زهير بن أبى سلمى ، حكيم الشعراء فى الجاهلية ، كان أبوه وخاله وأخته سلمى وابناه كعب وبجير وأخته الخنساء شعراء ، ولد فى بلاد « مزينة » بنواحى المدينة . من أشهر شعره معلقته . توفى عام ١٢ ق. هـ . [الأعلام للزركلى ٥٢/٢] .

(٢) يريد : حصن بن حذيفة الفزارى . قاله ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : حصن] .

أَنْ يُصَدِّقُوهُ فِيمَا جَاءَ بِهِ ، وَكَيْفَ يَصَدِّقُونَهُ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا ،
وَلَا يُصَدِّقُونَهُ فِي الْبَلَاغِ عَنْ اللَّهِ ؟

إِذَنْ : ﴿إِلَى قَوْمِهِ (٢٢)﴾ [المؤمنون] أَنَّنَا لَمْ نَأْتِ لَكُمْ بِرَسُولٍ مِنْ
جَنْسٍ آخَرَ ، وَلَا مِنْ قَبِيلَةٍ أُخْرَى ، بَلْ مِنْكُمْ ، وَتَعْرِفُونَ مَاضِيَهُ
وَتَارِيخَهُ ، فَتَأْنِسُونَ بِمَا يَجِيءُ بِهِ ، وَلَا تَقْفُونَ مِنْهُ مَوْقِفَ الْعَدَاءِ .

أَوْ يَكُونُ الْمَعْنَى : إِلَى قَوْمٍ مِنْهُ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ قَوْمًا قَوَّامِينَ
عَلَى شَتَّى إِصْلَاحِ الْحَيَاةِ ، إِلَّا إِذَا اسْتَمَعُوا مِنْهُجَهُ ، فَهَمُّ مِنْهُ ؛ لِأَنَّهُمْ
سَيَاخِذُونَ مِنْهُ مِنْهُجِ اللَّهِ .

ثُمَّ يَقُولُ سُبْحَانَهُ : ﴿فَقَالَ يٰ قَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ
غَيْرُهُ.. (٢٢)﴾ [المؤمنون] (يَا قَوْمِ) اسْتِمَالَةٌ وَتَحْنِينٌ لَهُمْ ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا
لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ.. (٢٢)﴾ [المؤمنون] وَالْعِبَادَةُ طَاعَةٌ عَابِدٍ لِأَمْرِ مَعْبُودٍ ،
وَالْعِبَادَةُ تَقْتَضِي تَكْلِيفًا بِأَمْرٍ وَنَهْيٍ . فَالْأَلُوْهِيَّةُ تَكْلِيفٌ وَعِبَادَةٌ ، أَمَّا
الرَّبُّوبِيَّةُ فَعَطَاءٌ وَتَرْبِيَّةٌ ؛ لِذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
(٢٤)﴾ [هود] أَيْ : رَبُّكُمْ جَمِيعًا : رَبُّ الْمُؤْمِنِ ، وَرَبُّ الْكَافِرِ ، رَبُّ
الطَّائِعِ ، وَرَبُّ الْعَاصِي .

وَكَمَا قُلْنَا : الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْأَرْضُ وَالْمَطَرُ .. الْخَ كُلُّهَا تَخْدُمُ
الْجَمِيعَ ، لَا فَرْقَ بَيْنَ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ عَطَاءُ الرَّبُّوبِيَّةِ ، وَإِنْ
سَأَلْتَ الْكَافِرَ الْجَاهِدَ : مَنْ خَلَقَكَ ؟ مَنْ رَزَقَكَ ؟ فَهَلْ يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ
يَقُولَ : اللَّهُ ، إِذَنْ : فَلْيُخْزِ هَؤُلَاءِ عَلَى أَعْرَاضِهِمْ ، وَلْيَعْلَمُوا أَنَّهُ تَعَالَى
وَحْدَهُ الْمُسْتَحَقُّ لِلطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ . فَمَقْتَضِيَّاتُ الرَّبُّوبِيَّةِ وَالْإِيمَانِ بِهَا
تَقْتَضِي أَنْ نُوْثِنَ بِالْأَلُوْهِيَّةِ .

كَمَا أَنَّ الطِّفْلَ الصَّغِيرَ يَنْشَأُ بَيْنَ أَبِيهِ وَأُمِّهِ وَيَشَبُّ ، فَلَا يَجِدُ
غَيْرَهُمَا يَخْدُمُهُ وَيَقْضِي حَاجَتَهُ وَيُوفِّرُ مَطْلِبَاتِهِ ، بَلْ وَيَزِيلُ عَنْهُ الْأَذَى

ويسهر على راحته . كل ذلك بروح سعيدة ونفس راضية مطمئنة .
ربما يجوعان لتشبع ، ويعريان لتكسى ، ويحرمان نفسيهما ليوفزا لك
الحياة الكريمة ، فإذا ما كبر الصغير وبلغ الحلم ومبلغ الرجال نجده
يعقهما ، ويخرج عن طاعتهما ، ويأخذ من أحضانها أصدقاء السوء ،
ويؤيّنون له التمرد على أبيه وأمه .

ونقول لمثل هذا العاق : اخُزْ على عرْضك واسْتَحْ ، فليس هكذا
يكون رد الجميل ، وأين كمان هؤلاء الأصدقاء يوم أن كنت صغيراً
تحتاج إلى من يعولك ويميط عنك الأذى ، ويسهر على راحتك ؟ قد
كان ينبغي عليك ألا تسمع إلا لمن أحسن إليك .

وهذا مثال لتوحيد الألوهية وتوحيد الربوبية - والله المقل الأعلى -
فكيف تأخذ من ربك عطاء الربوبية ، ثم تتنمر عليه سبحانه في
الألوهية ، فتعصى أمره وتكفر بنعمه ؟ كان من الواجب عليك الوفاء
للنعمة .

ولا بد أن تعلم أن ربك - عز وجل - مأمون عليك في التكليف
بالأمر والنهي ، لأنك عبده وصنعتة ، وأنت حين تُؤدّي ما عليك تجاه
الألوهية لا ينتفع الله سبحانه من ذلك بشيء . إنما تعود منفعتها
عليك ، وهكذا إذا رددت أمور الطاعة والعبادة والتكاليف لوجدتها
تعود في النهاية أيضاً إلى عطاء الربوبية ؛ لأنها تعود عليك أنت
بالنفع .

فنحن نأخذ الأوامر والنواهي على أنها تكاليف وأعباء يقتضيها
الإيمان بالألوهية ، نقول : نعم هي تكاليف من الله لكن لصالحك ، فلو
أنصفت لوجدت الألوهية من الربوبية ، فحين يُحرّم مثلاً عليك شرب
الخمير ويحرمك من فساد العقل ، هل ينتفع سبحانه من ذلك بشيء ؟



لذلك يقول تعالى عن هؤلاء ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (٢٥) ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (٢٦) [الزخرف]

ويقول ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (٢٧) [الزخرف]

فما دام هو سبحانه خالقكم ورازقكم وخالق السموات والأرض ،
فلماذا تعصونه ؟ وهل نقص عصيانتكم من ملكه شيئاً ؟ وهل زاد في
ملكه شيء بطاعة من أطاع ؟ هل زاد في ملك الله بطاعة الطائعين
أرض أو سماء ، أو شمس أو قمر ؟

إن الحق سبحانه قبل أن يخلقكم خلق لكم بصفات الكمال فيه كل

مقومات حياتكم واستدعائكم إلى كون مُعَدٍّ لاستقبالكم ولמעيشتكم .

إذن : فربك - عز وجل - لا تنفعه طاعة ، ولا تضربه معصية .

لذلك يقول في الحديث القدسي : يا عبادي لو أن أولكم

وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم

ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم

كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ،

ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا في

صعيد واحد وسألني كل واحد مسألته فأعطيتهم له ما نقص ذلك

مما عندي إلا كمغرز إبرة أحدكم إلى أغمسه في البحر ، وذلك لئني

جواد واجد ماجد عطائي كلام ، وعذابي كلام ، إنما أمري لشيء إذا

أردته أن أقول له : كن فيكون ^(١) .

إذن : حين تطيعني فالخير لك ؛ لأنك ضمنت بهذه الطاعة حياة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة ، والترمذي في سننه (٢٤٩٥) من طريق آخر عن أبي ذر رضي الله عنه ، واللفظ للترمذي ، وقال : هذا حديث حسن صحيح

أخرى خالدة باقية بعد هذه الحياة الفانية التى مهما أترفت فيها فهى إلى زوال ، فإما أنْ تفوت نعيمها بالموت ، وإما أنْ يفوتك بالحاجة والفقر ، أما فى الآخرة فالنعيم دائم باقٍ لا يفوتك ولا تفوته ؛ لأنها نعمة لا مقطوعة ولا ممنوعة .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت] فكان عطاء الألوهية ربوبية متعددة إلى زمن آخر غير زمن الدنيا ، فلا تظن أن طاعتك ستفيدنى فى شيء ، أو أن معصيتك ستضيرنى بشيء ، ومن هنا قال تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل]

وقوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [المؤمنون] أى : معبود غيره ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون] هذا استفهام يحمل معنى التهديد والتوبيخ ، لكن كيف يُوبَّخهم وهو لم يزل فى مرحلة الأمر بعبادة الله ، ولم يسمع منهم بعد بوادر الطاعة أو العصيان ؟ قالوا : يبدو أنه رأى منهم إعراضاً فأمروهم بتقوى الله .

والتقوى معناها أن تجعل بينك وبين ربك وقاية تقيك صفات جبروته وقهره وتحملك من أسباب بطشه وانتقامه ، فليست مطيقاً لهذه الصفات . والوقاية التى تجعلها بينك وبين هذه الصفات هى أن تنفذ منهج الله بطاعة الأوامر واجتناب النواهي .

ومن عجيب تركيبات التقوى فى القرآن الكريم أن يقول سبحانه : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [البقرة] ويقول : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ [البقرة] قالوا : نعم اتق الله ، واتق النار ؛ لأنك تتقى الله من متعلقات صفات قهره وغضبه ومنها النار ، فحين تتقى الله بالمنهج فقد اتقيت النار أيضاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا
إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ
مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢٤)

الملا : من الملء يعنى : الشيء الذى يملأ الشيء ، فالملا يعنى
الذين يملأون العيون بشرفهم ومكانتهم وعظمتهم وأبهتهم ، ومن ذلك
قولهم : فلان ملء العين ، أو ملء السمع والبصر ، ويقولون للرجل
إذا بلغ فى الحُسْن مبلغاً : فلان قَيَّدَ العيون يعنى : حين تراه
لا تصرف بصرك إلى غيره من شدة حسنه كأنه قَيَّدَ بصرك نحوه .
أما فى المقابل فيقولون : فلان تتقحمه العين ولا تراه وكأنه غير
موجود .

إذن : الملا : هم الذين يملؤون صدور المجالس أبهة وفخامة
ووجاهة وسيادة ، لكن ، لماذا هؤلاء بالذات هم الذين تعصبوا ضده
وواجهوه ؟

قالوا : لأن منهج الله ما جاء إلا لإصلاح ما فسد فى الكون وما
استشرى فيه من شر ، فالحق - تبارك وتعالى - يُنزل منهجاً على
لسان رسول أول ، ويطلب من قومه أن يُبْلَغُوا منهج رسولهم من
بعده ، لكن تاتى الغفلة على هذا المنهج فيخرج الناس عنه ويأتى
خروجهم عن منهج ربهم على عدة صور :

فمنهم مَنْ يخرج عن منهج ربه ويصنع الذنب ، إلا أنه يعاود
نفسه ويراجعها ويلومها وسرعان ما يتوب ويندم ، فزاجره من نفسه

وواعظه من داخله ، وهؤلاء الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً .
ومنهم من يخرج على منهج ربه خروجه لا رجعة له ولا زاجر ،
وهذا نسميه بلغتنا (فباقد) يعنى : لم يعد له زاجر من شرع ولا
من ضمير . ويبقى بعد ذلك زاجر المجتمع حين يرى مثل هؤلاء
الخارجين عن منهج الحق عليه أن يتصدى لهم ، ويقاطعهم ولا يودهم
ولا يحترمهم ، وإلا لو ظل المنحرف ومرتكب القبائح على حاله من
اجترام الناس وتقديرهم ، ولو ظل على مكانته فى المجتمع لتمادى
فى غيّه وأسرف على نفسه وعلى مجتمعه فيستشرى بذلك الشر فى
المجتمع ، ويعم الفساد وتشيع الفوضى .
ألا ترى الشروع الحكيم حين جعل الدية فى القتل على المناقلة
يعنى : عاطفة للقاتل ، لا على القاتل وحده ؟ لماذا ؟ لكى يأخذوا على
يد ولدهم إن انحرف أو بدت عنده بوادر الاعتداء ؛ لأنهم جميعاً
سيحملون هذه التبعة .
ونقول : خص الملا بالذات ؛ لأنهم هم المتفكرون بالشر والفساد
فى المجتمع ، ومن مصلحتهم أن يستمر هذا الوضع لتبقى لهم
سلطتهم الزمنية ومكانتهم ؛ لذلك هم أول من يقابلون الرسائل
بالجود والنكران . ألم يقل الحق سبحانه عنهم فى آية أخرى : ﴿ مَا
نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلًا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ
يَنْفَكُوا عَنْكَ ﴾ (٢٧) [هود]
فهؤلاء الذين يُسموهم أرادل هم المستضعفون والفقراء
والمطحونون والمهمومون بأمور الخلق والدين والقيم ، فما إن تسمع
أذانهم عن مسألة إلا تلهموا عليها وارتعوا فى أحضانها لأنها جاءت
لتنقذهم ؛ لذلك يكونون أول من يؤمن . وإن جاء المنهج لإنصاف

هؤلاء ، فقد جاء أيضاً ليخرج من أصحاب السلطان والقهر والجبروت سلطانهم وتعالينهم . فلا بد أن يواجهوه ويغاثوهم .

ومعنى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ۚ ﴾ [المؤمنون] كفروا : يعنى جحدوا وجود الله ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ [المؤمنون] فأول شيء صدقهم عن الرسول كونه بشراً ، إذن : فماذا كنتم تنتظرون ؟ وقد شرح هذا المعنى فى قوله تعالى ﴿ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء]

ولا بد فى الرسول أن يكون من جنس المرسل إليهم : ليصح أن يكون لهم أسوة ، فيقلدوه ويهتدوا به ، وإلا لو جاء الرسول ملكاً فكيف تتحقق فيه القدوة ؟ وكيف تطيعونه وأنتم تعلمون أنه ملك لا يأكل ولا يشرب ولا يتناسل ، وليست لديه شهوة ، ولا مقومات المعصية ؟

ولنفرض أن الله نزل عليكم ملكاً ، فكيف ستشاهدونه وتتلقون عنه ؟ لا بد - إذن - أن يأتكم فى صورة رجل لتتمكنوا من مشاهدته والتلقى عنه ، وهكذا نعود فى نقاش هذه المسألة إلى أنه رجل : لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴾ [الأنعام] وتظل الشبهة باقية .

إذن : من الحق أن نقول بأن يكون الرسول ملكاً .
أما قولهم : ﴿ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ [المؤمنون] نعم ، هو بشر ، لكن ليس كمثلكم ، فأنتم كاذبون فى هذه العتلية ، لأنه بشر اصطفاه الله بالوحي : لذلك يقول رسول الله ﷺ : « يُؤْخَذُ مِنِّي فَأَقُولُ : مَا أَنَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، وَأَعْطَىٰ مِنْ اللَّهِ فَأَقُولُ : أَنَا لَسْتُ كَأَحَدِكُمْ » .

ويقول تعالى لرسول الله ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۖ ﴾ [فصلت] ومن هنا كانت الأفضلية في أنه بشر يُوحى إليه ، وما بشريته إلا للإنسان والإلف .

ثم يتابع الحق سبحانه مقالة هؤلاء الكافرين من قوم نوح : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ ۖ ﴾ [المؤمنون] (٢٤) يعني ينسب نفسه إلى الفضل والشرف والسيادة ليكون متبوعاً وهم تابعون ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ [المؤمنون] (٢٤) يعني : لو شاء أن يرسل رسولا ﴿ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ [المؤمنون] (٢٤) أى : رسلاً ، وقد ردَّ الله تعالى عليهم هذا القول ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۖ ﴾ [الإسراء]

ثم يقولون : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون] المراد بهذا : يعني أن يأتي من يقول اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، لأن آبائنا الأولين كانوا يعبدون الأصنام ، ولم يأت من يقول لنا هذا الكلام مثل نوح .

وهذا دليل على أنهم مُقلِّدون للآباء ، ليس لديهم تفكير واستقلال في الرأي ينظرون به إلى الأشياء نظرة الحق والعدالة ، وفي موضع آخر قال تعالى عنهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف]

ولو تأملنا حال المجتمعات ، ومنها مجتمعنا الذي نعيش فيه لوضح لنا كذب هؤلاء في ادعائهم التقليد للآباء ، كيف ؟ تأمل حال

(١) قال ابن عباس : أى على دين ، وفى رده على سؤالات نافع بن الأزرق قال : على ملة غير الملة التى تدعونا إليها . [أوردهما السيوطى فى الدر المنثور ٣٧٢/٧ ، وعزا الاول لابن جرير الطبرى ، والثانى للطستى] .

الاجيال المختلفة تجد كل جيل له رايه وتطلعاته ورغباته التي ربما اختلف فيها الابن عن ابيه ، فالابناء الآن لهم راي مستقل ، فالولد يختار مثلاً الكلية التي يرغبها ، الملابس التي يحبها ، وإن خالفت راي ابيه ، بل ويصل الامر إلى اتهام الآباء بالجمود والتخلف إن لزم الامر ، وهذا موجود في كل الاجيال .

إذن : لماذا لم تقولوا في مثل هذه الامور : إنا وجدنا آباءنا على أمة ؟ لماذا كانت لكم ذاتية ورأي مستقل في أمور الدنيا دون أمور الدين ؟ إنكم تتخذون الذاتية فيما يلبى رغباتكم وشهواتكم وانحرافاتكم ، وتتخذون التقليد فيما يقلل تكليفكم ؛ لأن التكليف سيقيّد هذه الرغبات والشهوات ويقضى على هذه الانحرافات ؛ لذلك يتمرد هؤلاء على منهج الله .

لذلك ، نعجب لما نراه ونسمعه من حال أبنائنا اليوم ، وكيف أقلت الزمام من الآباء والأمهات ، فالشباب يسير على هواه في أمور انحرافية ، فإن وجهه أبوه أعرض عنه واتهمه بأنه من جيل قديم وقد ذهب زمانه بلا رجعة ، وقد تعدى الامر من الاولاد إلى البنات ، فصرن أيضاً يتمردن على هذه القيم ولا يهتمن بها .

فقولهم : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون] وقولهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف] هم كاذبون أيضاً في هذه المقولة ؛ لأنهم لو صدّقوا لقلّدوهم في كل شيء فيما لهم وما عليهم في أمور الدنيا وفي أمور الدين والقيم والأخلاق .

لذلك الحق - تبارك وتعالى - يعالج هذه القضية في مواضع عدة من كتابه الكريم ، وبأساليب مختلفة ، منها قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴾ [البقرة]

لأن هذا يريد منهم من عطفقة التكليف ، وإن كانت العبادة طاعة عابد
المعبود ، ففي أمره وشيئهم ، فما أسهل عبادة الأصنام ، لأنها ألهة كسلا
يدعون ، لكن ليس لها منهج ، وليكن معها تكاليف ، فبأنى شيء أمرك
بالصنم ، ومن إلى شيء هناك ؟ وماذا أعد من الجزاء لمن أطاعه ؟
وماذا أعد من عقاب لمن عصاه ؟ إذن : معبود بلا منهج وبلا
تكاليف ، وهذا دليل كذبهم في عبادة الأصنام ، وغيروا من آلهتهم .

الم يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ وَنُقَلِّي ﴾ [البقرة] فهذا
حُتْق وسُفْه وجَهْل ، لأن الكلام منطوقاً لا يستقيم ، كيف تقولون
نعبدهم ، وليس لهم منهج ، وليس لهم تكاليف ، والعبادة طاعة عابد
المعبود ، فماذا : شئنا أن نعبد الله ، وماذا : شئنا أن نعبد الله ، وماذا : شئنا أن نعبد الله ؟

إذن : ما هو إلا خواء وإفلاس عقدي ؛ لذلك يرد الحق - تبارك
وتعالى - عليهم فيقول سبحانه : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا
يَعْقُدُونَ ﴾ [البقرة] .

وفي موضع آخر يقول - سبحانه وتعالى - عنهم : ﴿ قَالُوا حَسْبُنَا
مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاؤُنَا ﴾ [التأفة] وهذه أبلغ من سابقها ، لأنهم
يُصعدون كفرهم ويضرون عليه ، فيقولون : ﴿ بَلْ نَجْعَلُ مَا آلَيْنَا عَلَيْهِ
آبَاءُنَا ﴾ [البقرة] ، فكلبنا يربطون أنفسهم فيعتدون إلى الحق ،
لويقالفون الآباء .

لكن هذا : ﴿ حَسْبُنَا ﴾ [التأفة] يعني : كافيتنا ، ولن نغيره
ولن نحيد عنه ؛ لذلك يأتي تدويل كل شيء بما يناسبها ، ففي الأولى
قال تعالى : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً ﴾ [البقرة] ،
وفي الأخرى قال : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً ﴾ [البقرة] .

فذكر العقل في الأولى : لأن الإنسان ياتمر فيه بنفسه ، وذكر في الأخرى العلم : لأن الإنسان في العلم ياتمر بعقله ، وعقل العلم أيضاً ، فالعلم - إن - أوسع من العقل ، لذلك ذكره مع قولهم ﴿ حَسْبُنَا ۖ ﴾ [المائدة] الدالة على المبالغة والإصرار على الكفر .

كما نلاحظ عليهم في قولهم : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا ۖ ﴾ [المؤمنون] أن الغفلة قد استحكمت فيهم : لأن نوحاً عليه السلام يعتبر الجد الخامس بعد آدم عليه السلام ، فبينهما فترة طويلة ، فكيف ما سمعوا طوال هذه الفترة برسول أو نبي ، يقول : اعبدوا الله ما لكم من إله

غيره ؟

﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا يُضَاهِيهِمْ فَتَكُونُ كَوْنَيْنِ ۖ ﴾ [الأنبياء] ١٧

﴿ إِنَّ هُوَ ۖ ﴾ [المؤمنون] ٢٥ يعنى : ما هو و ﴿ جِنَّة ۖ ﴾ : يعنى جنون ، وهو ستر العقل الذى يسيطر على حركة الإنسان فى الحياة فيسير حسب تقنيناتها (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، أما المجنون فيعمل ما يخطر له دون أن يعرض الأعمال على العقل أو التفكير ؛ لذلك من عدالة الله فى خلقه أننا لا نؤاخذ المجنون على تصرفاته حين يعتدى على أحد منا بالسب أو الضرب مثلاً ، ولا نطلب إلا أن نبتسم له ، وندعو الله أن يعافينا مما ابتلاه به .

فإن كان هذا حال المجنون فى حركة حياته ، فهل يكون ذو الخلق الذى يسير وفق قوانين الحياة ومحكوماً بنظم وقيم خلقية ، هل يكون مجنوناً ؟ ومن العجيب أن تهمة الجنون هذه سائرة على لسان

المكذِّبين للرسول في كل زمان ومكان ، وقد اتَّهم بها رسول الله ﷺ ، فردَّ الله عليهم ونفى عن رسوله هذه الصفة في قوله : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴿ [القلم]

فكيف يكون ذو الخلق مجنوناً ؟ ولو كان ﷺ مجنوناً ، فلماذا استأمنوه على ودائعهم ونفائسهم ، واطمانوا إليه ، وسمَّوه الصادق الأمين ؟ إنهم ما فعلوا ذلك إلا لأنهم يعلمون خلقه ، وأنه محكوم بقيم من الحق والخير لا تتزعزع .

وما دام الأمر لا يعدو أن يكون رجلاً به جنة ﴿ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (٢٥) [المؤمنون] أى : انتظروا واتركوه وشأنه ، فربما عاد إلى صوابه ، وترك هذه المسألة من تلقاء نفسه حين يرانا منصرفين عنه غير مهتمين به ، أو دَعَّوه فإن كان على حق ونصره الله وأظهر أمره عندها نتبعه ، وإن كانت الأخرى فيها نحن مُعرضون عنه من بداية الأمر .

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴾ (٢٦)

بعد أن كذَّبه قومه دعا الله أن ينصره ﴿ بِمَا كَذَّبُونَ ﴾ (٢٦) [المؤمنون] يعنى : انصرنى بسبب تكذيبهم ، واجعل تكذيبهم لا مدلول له فينتصر عليهم رغم تكذيبهم ، أو : يا رب عوِّضنى بتكذيبهم نصراً ، يعنى : أبْدِلْنى من كذبهم نصراً ، كما تقول : اشتريت كذا بكذا ، فاخذت هذا بدل هذا .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحَيْنَا إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ^(١) فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ
كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ
مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

استجاب الله تعالى دعاء نبيه نوح - عليه السلام - في النصرة على قومه ، فأمره بأن يصنع الفلك . والفلك هي السفينة ، وتطلق على المفرد والجمع ، قال تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴾ (١١٩) [الشعراء] وقال : ﴿ وَتَرَى الْفُلَّكَ فِيهِ مَوَاحِرَ تُبْتَغَوْنَ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١٢) [فاطر] فدلّت مرة على المفرد ، ومرة على الجمع .

وقوله تعالى : ﴿ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا.. ﴾ (٢٧) [المؤمنون] دليل على أن نوحاً - عليه السلام - لم يكن نجاراً كما يقول البعض ، فلو كان نجاراً لهداه عقله إلى صناعتها ، إنما هو صنعها بوحى من الله وتوجيهاته ورعايته ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَتُصْنَعَنَّ عَلَى عَيْنِي ﴾ (٣٩) [طه] فالمعنى : اصنع الفلك ، وسوف أوفقك إلى صناعتها ، وأهديك إلى ما يجب أن يكون ، وأصحح لك إن أخطأت في وضع شيء في غير موضعه ، إذن : أَمَرْتُ وَأَعْنَيْتُ وتابعت . والوحى : هو خطاب الله لرسوله بخفاء .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ (٢٧) [المؤمنون]

(١) التنور : مكان تقجر الماء ، والكانون الذي يُغَيِزُ فيه . وقوله تعالى : ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ (٢٧) [المؤمنون] أى : تفجرت الأرض بماء كثير أو تفجرت بماء يشبه فوران النار في التنور . [القاموس القويم ١٠٢/١] .

وهنا لم يتعرض السياق للفترة التي صنع فيها نوح السفينة ،
والتي جاءت في قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلَّكُ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ
قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (٣٨)
[مرد] ذلك لأنهم لا يعلمون شيئاً عن سبب صناعتها .

وفي موضع آخر يُعلمنا - سبحانه وتعالى - عن كيفية صنعها
فيقول : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ (١٣) [القدر] وقلنا : إن
الدُّسُرَ : الحبال التي تُضمُّ بها ألواح الخشب بعضها إلى بعض شريطة
أن تكون جافة ، وتُضمُّ إلى بعضها بحكمة حتى إذا ما نزل السماء
وتشربت منه يزداد حجمها فتتسُدُّ المسام بين الألواح ، كما نراهم مثلاً
يصنعون براميل الزيت من شرائح الخشب .

وقد صنع أحدهم سفينة من البردي بهذه الطريقة ، وسافر بها
إلى أمريكا واستخدم فيها الحبال بدلاً من المسامير .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ (٢٧) [المؤمنون] يعني : بإنجاء
المؤمنين بك ، وإهلاك الكافرين ﴿ وَقَارَ التَّنُورِ ﴾ (٢٧) [المؤمنون] والقنور :
هو الفرن الذي يخبزون فيه الخبز ، ويقال : إنه كان موروثاً لنوح من
آدم ، يفور بالماء يعني : يخرج منه الماء ، وهو في الأصل محل
للتار ، فيخرج منه الماء وكأنه يقلب . لكن هل كل الماء سيخرج من
التنور ؟ الماء سيخرج من كل أنحاء الأرض وسيغزل من السماء ،
وقوران التنور هو إيدان بمباشرة هذه العملية وبداية لها .

إذا حدث هذا ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ (٢٧) [المؤمنون]
يعني : احمل وأدخل فيها زوجين ذكراً وأنثى من كل نوع من
المخلوقات ، كما في قوله تعالى : ﴿ مَا سَلَكُكُمْ فِي سَفَرِ ﴾ (١٢) [المدثر]
يعني : أدخلكم ، وقال سبحانه : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ (٢٢)

[القصص] يعنى : أدخلها ، وقال سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ
الْمُجْرِمِينَ ﴾ (١٢) [الحجر]

ومن مادة (سلك) أخذنا فى أعرافنا اللغوية . نقول : سلك
الماسورة أو العين يعنى : أدخل فيها ما يزيل سدتها .

والتنوين فى ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ (٢٧) [المؤمنون] يعنى : من
كل - شئ^(١) نريد حفظ نوعه واستمراره : لان الطوفان سيغرق كل
شئ ، والحق - تبارك وتعالى - يريد أن يحفظ لعباده المؤمنين
مَقُومَات حياتهم وما يخدمهم من الحيوانات والانعام وجميع أنواع
المخلوقات الاخرى من كل ما يلد أو يبيض .

ومعنى ﴿ زَوْجَيْنِ ﴾ (٢٧) [المؤمنون] ليس كما يظن البعض أن زوج
يعنى : اثنين ، إنما الزوج يعنى فرد ومعه مثله ، ومنه قوله تعالى :
﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أُمُّ الْأُنْثَيَيْنِ
أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٤٣) وَمِنَ
الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴾ (١٤٤) [الانعام]

فسمى كل فرد من هذه الثمانية زوجاً : لان معه مثله .
هذا فى جميع المخلوقات ، أما فى البشر فلم يقل زوجين ، إنما
قال ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ (٢٧) [المؤمنون] أيأ كان نوعهم وعددهم ، لكن الاهلية
هنا أهلية نسب ، أم أهلية إيمانية ؟

الاهلية هنا يُراد بها أهلية الإيمان والاتباع ، بدليل أن الله تعالى

(١) قال الحسن البصرى : لم يحمل نوح فى السفينة إلا ما يلد ويبيض ، فأما البق والذباب
والدود فلم يحمل شيئاً منها ، وإنما خرج من الطين . قاله القرطبي فى تفسيره
[٤٦٥٢/٦]

شرح هذه اللقطة فى آية أخرى ، فقال على لسان نوح عليه السلام : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. (٤٥) ﴾ [هود]

فقال له ربه : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ (٤٦) ﴾ [هود]
فبنوة الانبياء بنوة عمل واتباع ، فإن جاءت من صلبه فاهلاً وسهلاً ، وإن جاءت من الغير فاهلاً وسهلاً . لذلك النبى ﷺ يقول عن سلمان الفارسى : « سلمان منا آل البيت »^(١) فقد تعدى أن يكون مسلماً إلى أن صار واحداً من آل البيت .

وكذلك أدخل فيها أهلك من النسب بدليل أنه استثنى منهم : ﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ (٢٧) ﴾ [المؤمنون] وكان له امرأتان ، واحدة كفرت به وخانته هى وولدها كنعان ، والتى ذكرت فى قول الله تعالى فى سورة التحريم : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا .. (١٠) ﴾ [التحريم]

وكنعان^(٢) هو الذى قال : سأوى إلى جبل يعصمنى من الماء وهذه اللقطة لم تذكر هنا ؛ لأن أحداث هذه القصة جاءت مفرقة فى عدة مواضع ، بحيث لو جمعت تعطى الصورة العامة للقصة ، فإن قلت : فلماذا لم تأت مرة واحدة كما فى قصة يوسف عليه السلام ؟

نقول : جاءت قصة يوسف كاملة فى موضع واحد ليعطينا بها الحق - سبحانه وتعالى - نموذجاً للقصة الكاملة المحبوبة التى تدل على قدرته تعالى على الإتيان بالقصة مرة واحدة لمن أراد ذلك ، فإن

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٥٩٨/٣) من حديث عمرو بن عوف المزنى . قال الذهبى والمجلونى فى كشف الخفاء (٥٥٨/١) : سنده ضعيف .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٤٤٦/٢) « قوله ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ .. (٤٧) ﴾ [هود] هذا هو الابن الرابع واسمه يام » .

أردتها كاملة فنحن قادرون على ذلك ، وما هي قصة يوسف ، إنما الهدف من القصص في القرآن هو تثبيت فؤاد النبي ﷺ كما قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ (٣٢) [الفرقان] ؛ لأنه ﷺ سيقابل مواقف تكذيب وعداء وعناد من قومه ، وسيتعرض لازمات شديدة ويحتاج إلى ما يُسَلِّيه وَيُثَبِّتُهُ أمام هذه الأحداث .

لذلك جاءت لقطات القصص القرآني متفرقة في عدة مواضع لتسلية رسول الله ، والتخفيف عنه كلما تعرض لموقف من هذه المواقف ، وبجمع هذه اللقطات المتفرقة تتكون لديك القصة الكاملة المستوية .

وقد أدخل نوح معه زوجته الأخرى المؤمنة وأولاده : سام وحام ويافت وزوجاتهم ، فهؤلاء ستة ونوح وزوجه فهم ثمانية ، ومعهم اثنان وسبعون من المؤمنين وأصول الإيمان الباقي مع نوح عليه السلام .

ولما كان الحكم بفرق مَنْ كفر من أهله أمراً لا استثناف فيه ، قال تعالى بعدها : ﴿ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ (٣٧) [هود] لكن ظلموا مَنْ ؟ ظلموا أنفسهم حين كفروا بالله ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٣) [لقمان]

صحيح أنت حين كفرت أخذت حق الله في أنه واحد أحد موجود ، وإله لا معبود غيره ، وأعطيته لغيره ، لكن هذا الظلم لم يضر الله تعالى في شيء إنما أضرب بك وظلمت به نفسك ، ومنتهى الحُـمُق والسفه أن يظلم الإنسان نفسه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢٨)

﴿ اسْتَوَيْتَ (٢٨) ﴾ [المؤمنون] يعنى : استعليت وركبت أنت ومن معك على الفلك واطمان قلبك إلى نجاة المؤمنين معك ﴿ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ (٢٨) ﴾ [المؤمنون] فلا بد للمؤمن أن يستقبل نعم الله عليه بالحمد ، وبالأ تفضيه النعمة جلال المنعم ، فساعة أن يستتب لك الأمر على الفلك وتطمئن بادر بحمد الله .

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٦) [يونس]

وكان الحق - تبارك وتعالى - يعطينا حصانة ، ويجعل لنا أسوة بذاته سبحانه ، حتى إذا ما تعرضنا لنكران الجميل ممن أحسننا إليه لا نغضب ؛ لأن الناس ينكرون الجميل حتى مع الله عز وجل .

لذلك لما قال موسى - عليه السلام - : يا رب أسألك ألا يقال فى ما ليس فى . يعنى : لا يتهمنى الناس ظلماً ، فرد عليه ربه عز وجل : « يا موسى ، كيف ولم أصنع ذلك لنفسى » .

إذن : فهذه مسألة لا يطمع فيها أحد ، ولو أن كل فاعل للجميل يضمن به على الناس لأنهم ينكرونه لفسد الحال ، وتوقفت المصالح بين الخلق ، وضن أهل الخير بخيرهم ؛ لذلك وضع لنا ربنا - عز وجل - الأسوة بنفسه سبحانه .

والإنسان إن كان حسيساً لا يقف عند إنكار الجميل ، إنما يتعدى ذلك فيكره من أحسن إليه ويحقد عليه ، ذلك لأن الإنسان مجبول على حب النفس والتعالى والغطرسة ، فإذا ما رأى من أحسن إليه كرهه ؛ لأنه يدك فيه كبرياء نفسه ، ويحد من تعاليه .

ومن هنا قالوا : « اتق شر من أحسنت إليه » لماذا ؟ لأنه يخزى ساعة يراك ، وهو يريد أن يتعالى ، ووجودك يكسر عنده هذا التعالي . إذن : وطن نفسك على أن الجميل قد يُنكر حتى لو كان فاعله رب العزة سبحانه ، فلا يحزنك أن يُنكر جميلك أنت .

وعن ذلك قال الشاعر^(١) :

يَسِيرُ ذَوُو الْحَاجَاتِ خُلْفَكَ خُضْعًا فَإِنْ أَدْرَكُوهَا خَلْفُوكَ وَهَرُوكُوا
وَأَفْضَلُهُمْ مَنْ إِنْ ذُكِّرْتَ بِسَاءِ تَوَقَّفَ لَا يَنْفَى وَقَدْ يَتَقَوْلُ
فَلَا تَدْعِ الْمَعْرُوفَ مَهْمَا تَنْكَرُوا فَإِنْ ثَوَابَ اللَّهِ أَرَبَى وَأَجَزَلُ

فالمعنى : إذا استتويت أنت ومن معك ، واستتب لك الأمر على الفلك ، فإياك أن تغتر أو تنأى بجانبك فتنسى حمد الله على هذه النعمة ؛ لذلك أمرنا حين نركب أى مركب أن نقول : « بسم الله مجريها ومرساها » لأنك ما أجريتها بمهارتك وقوتك ، إنما باسم الله الذى ألهم ، وباسم الله الذى أعان ، وباسم الله الذى تابعنى ، ورعانى بعينه ، وما دُمْتَ تذكر المنعم عند النعمة وتعترف لصاحب الفضل بفضلها يحفظها لك .

أما أن تذكرها على صاحبها ، وتنسبها لنفسك ، كالذى قال :
﴿ إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي .. ﴾ (٧٨) [القصر] فيقول : ما دام الأمر كذلك ، فحافظ أنت عليه .

(١) من قول الشيخ رحمه الله .

حتى فى ركوب الدابة يُعلمنا ﷺ أن نقول : « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون » ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٨) ﴿[المؤمنون] وذكر النجاة لأن درء المفسدة مُقدِّم على جلب المنفعة .

ثم يُعلمه ربه دعاء آخر يدعو به حين تستقر به السفينة على الجُودى ، وعندما ينزل منها ليباشر حياته الجديدة على الأرض :

﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (٢٩)

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿قِيلَ يَنْحُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ..﴾ (٤٨) ﴿[مود] لأنك ستنزل منها وليست هى مكان معيشتك .

وكذلك دعا النبى ﷺ فقال كما حكى القرآن : ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ..﴾ (٨٠) ﴿[الإسراء]

فلا بد أن تذكر فى النعمة المنعم بها ، لذلك فالذين يُصابون فى نعم الله عليهم بأعين الحاسدين ، ثِقَ تمام الثقة أنهم حين رأوا نعمة الله عليهم لم يذكروا المنعم بها ، ولو أن الإنسان حين يرى نعمة من نعم الله عليه فى ماله أو ولده فيقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ووضع النعمة فى حماية المنعم لضمن دوام نعمته وسلامتها من أعين الحاسدين ؛ لأنه وضعها تحت قانون الصيانة الإلهية .

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١٣٤٢) كتاب الحج من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا استقوى على بعبيره خارجاً إلى سفر كبر ثلاثاً ، ثم قال « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون » وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (١٤٤/٢ ، ١٥٠) .

ومعنى : ﴿ مُنْزَلًا مُّبَارَكًا .. ﴾ (٢٩) [المؤمنون] الشيء المبارك : الذى يعطى فوق ما يتصور من حجمه ، كان يعيش شخص براتب بسيط عيشة كريمة ويربى أولاده أفضل تربية ، فيتساءل الناس : من أين له ذلك ؟ ونقول : إنها البركة التى تحلّ فى القليل فيصلير كثيراً ، صحيح أن الوارد قليل لكن يُكثِّره قلة المنصرف منه .

وقد مثلنا لذلك بواحد يرتزق من الحلال ، فييسر الله أمره ، ويقضى مصالحه بأيسر تكلفة ، فإذا مرض ولده مثلاً يشفيه الله بقرص أسبرين وكوب من الشاي ، ولا يفزع لمرضه ؛ لأنه مطمئن القلب ، راضى النفس ، واثق فى معونة الله . أما الذى يتكسب من الحرام ويأكل الرشوة .. الخ إن مرض ولده يُهرع به إلى الأطباء ويتوقع فى ولده أخطر الأمراض ، فإن ارتشى بعشرة صرف عليها مائة .

وسبق أن قلنا : إن هذه البركة هى رزق السُّلْب الذى لا يزيد من دخلك ، إنما يُقَلِّل من مصروفاتك .

وكلمة ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ (٢٩) [المؤمنون] أم أنه سبحانه المُنْزِل الوحيد ؟ الله خير المنزلين يعنى : أباح أن يقال للعبد أيضاً مُنْزِل حين يُنْزِل شخصاً فى مكان مريح ، كان يُسكنه مثلاً فى شقة مريحة ، أو يستقبله ضيفاً عليه .. الخ . وإن كنت مُنْزَلًا بهذا المعنى ، فالله عز وجل هو خير المنزلين ؛ لأنه سبحانه حين يُنْزِلك ينزل على قدره تعالى ، وعلى قدر كرمه وعطائه .

إذن : الحق - تبارك وتعالى - لم يَضِنَّ عليه خلقه أن يصفهم بما وصف به نفسه ، فلم يَضِنَّ عليك أن يصفك بالخلق فقال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (١٤) [المؤمنون] فأثبت لك صفة الخلق ، لأنك توجد

معدوماً مع أنك تُوجده من موجود الله ، كأن تصنع من الرمل والنفار
كوباً من الزجاج مثلاً ، لكن ما توجده يظل جامداً على حالته لا ينمو
ولا يتناسل ، وليست فيه حياة ، ومع ذلك سماك ربك خالقاً ، وكذلك قال :
﴿ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ [الأنبياء] وقال : ﴿ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران]

وكما أن الله عز وجل لم يضمن عليك بهذه الصفات ، فلا تضمن
عليه سبحانه بأنه خير المنزلين ، وخير الوارثين ، وخير الماكرين ،
وأحسن الخالقين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ [٣٠]

﴿ فِي ذَلِكَ .. ﴾ [المؤمنون] يعنى : فيما تقدم ﴿ آيَاتٍ .. ﴾ [٣٠]
[المؤمنون] عبر وعظات وعجائب ، لو فكر فيها المرء بعقل محايد
لانتهى إلى الخير ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ [المؤمنون] فلا تظن أن
الابتلاء مقصور على الظلمة والكافرين الذين أخذهم الله وأهلكهم ، فقد
يقع الابتلاء بمن لا يستحق الابتلاء ، وحين يبتلى الله أهل الخير
والصلاح فما ذلك إلا ليزداد أجرهم وترفع مكانتهم ويمحص إيمانهم .

ومن ذلك الابتلاءات التى وقعت بالمسلمين الأوائل ، فإنها لم تكن
كراهية لهم أو انتقاماً منهم ، إنما كانت تصفية لمعدنهم وإظهاراً
لإيمانهم الراسخ الذى لا يتزعزع : لأنهم سيحملون دعوة الله إلى أن
تقوم الساعة ، فلا بُدَّ من تمحيصهم وتصفيتهم .

كما قال سبحانه : ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا
يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت] لا ، لا بُدَّ من الابتلاء الذى يُمَيِّزُ الصادقين ممن

يعبد الله على حَرْفٍ ، لا بُدَّ أن يتساقط هؤلاء من موكب الدعوة ، ولا يبقى إلا المؤمنون الراسخون على إيمانهم الذين لا تزعزعهم الأحداث .

إذن : المعنى ﴿وَأَن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ (٣٠) [المؤمنون] يعنى : أهل الإيمان الذين لا يستحقون العذاب ؛ لأننا نحب أن نرفع درجاتهم ونُمنحهم إيمانهم ليكونوا أهلاً لدعوة الله ؛ لذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - فى الحديث القدسى :

« وعزتى وجلالى ، لا أخرج عبدي من الدنيا وقد أردتُ به الخير حتى أوفيه ما عمله من السيئات ، من مرض فى جسمه وخسارة فى ماله ، وفقد فى ولده ، فإذا بقيتُ عليه سيئة ثقلتُ عليه سكرات الموت حتى يأتينى كيوم ولدته أمه .. وعزتى وجلالى ، لا أخرج عبدي من الدنيا وقد أردتُ به الشر حتى أوفيه ما عمله من الحسنات ، صحة فى جسمه ، وبركة فى ماله وولده ، فإذا بقيتُ له حسنة خففتُ عليه سكرات الموت حتى يأتينى وليست له حسنة » .

إذن : فالابتلاء كما يكون انتقاماً من الكفرة والظلمة يكون كذلك تربيةً للنفع ، وتمحيصاً للإيمان ، وإرادةً للثواب .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (٣١)

أى : من بعد قوم نوح عليه السلام ، وقلنا : إن القرن : الزمن الذى يجمع أناساً متقاربين فى مسائل الحياة ، وانتهى العلماء إلى أن

القرن مائة عام ، أو إلى ملك مهما طال ، أو رسالة مهما طالت ، كلها تسمى قَرْنًا^(١) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٣٢)

جاء بعد قوم نوح عليه السلام قوم عاد ، وقد أرسل الله إليهم سيدنا هوداً عليه السلام ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ ۞ (٦٥) [الاعراف] وقد دعاهم بنفس دعوة نوح : ﴿ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۚ ۞ (٣٢) [المؤمنون] وقال لهم أيضاً : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٣٢) [المؤمنون]

إذن : هو منهج مُوحَّد عند جميع الرسالات ، كما قال سبحانه : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ ۞ (١٣) [الشورى]

فدين الله واحد ، نزل به جميع الرسل والأنبياء ، فإن قلت : فما بال قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ ۞ (٤٨) [المائدة]

نقول : نعم ، لأن العقائد والاصول هي الثابتة التي لا تتغير :

(١) قال الأزهري : القرن أمل كل مدة كان فيها نبي أو كان فيها طبقة من أهل العلم . قلت : السنون أو كثر ، والدليل على هذا قول النبي ﷺ : « خيركم قرني - يعني أصحابي - ثم الذين يلونهم - يعني التابعين - ثم الذين يلونهم - يعني الذين أخذوا عن التابعين » . وقال القرطبي في تفسير الآية (٤٦٥٤/٦) : « هم قوم عاد . والرسول هود : لأنه ما كانت أمة أنشئت في إثر قوم نوح إلا عاد » .

اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أمّا المنهج والشرعية الخاصة بالفروع فهي محلّ التفسير بين الرسل : لأنها أمور تتعلق بحركة الحياة ، والحق - تبارك وتعالى - يعطى لكل بيئة على لسان رسولها ما يناسبها وما يعالج أمراضها وداءاتها .

والشريعة : هي القانون الذى يحكم حركة حياتك ، أمّا الدين فهو الأمر الثابت والموحد من قبل الله - عز وجل - والذى لا يملك أحد أن يُغير فيه حرفاً واحداً .

لذلك ، كانت آفة الأمم أن يجعلوا أنفسهم فرقاً مختلفة وأحزاباً متباينة ، وهؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْياً لَأَسْتَمِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. ﴾ (١٥٩) [الأنعام]

وتأمل : ﴿ فَرَّقُوا دِينَهُمْ .. ﴾ (١٥٩) [الأنعام] ولم يقل : فرقوا شريعتهم ولا منهجهم ، ذلك لأن الدين واحد عند الله ، أمّا المناهج والشرائع فهي مجال الاختلاف على حسب ما فى الأمة من داءات ، فهؤلاء كانوا يعبدون الأوثان ، وهؤلاء كانوا يُطْفَفُونَ الكيل والميزان ، وهؤلاء كانوا يجحدون نعم الله .. الخ .

وسبق أن أوضحنا أن اختلاف الداءات فى هذه الأمم ناتج عن العزلة التى كانت تبعدهم ، فلا يدرك هذا بهذا ، وهم فى زمن واحد . أمّا فى رسالة الإسلام - هذه الرسالة العامة الخاتمة - فقد جاءت على موعد من التقاء الأمم وتواصل الحضارات ، فما يحدث فى أقصى الشمال يعرفه مَنْ فى أقصى الجنوب ؛ لذلك توحدت الداءات ، فجاء رسول واحد خاتم بتشريع صالح لجميع الزمان ولجميع المكان ، وإلى قيام الساعة .

وَأَمَّا الْمُسْلِمِينَ فِي التَّعَصُّبِ الْأَعْمَى الَّذِي يُنْزِلُ الْأُمُورَ الاجْتِهَادِيَّةَ
الَّتِي تَرَكَ اللَّهُ لِعِبَادِهِ فِيهَا حُرِيَّةً وَاخْتِيَاراً مَنْزِلَةً الْأَصُولِ وَالْعَقَائِدِ الَّتِي
لَا اجْتِهَادَ فِيهَا ، فَيَتَسَرَّعُونَ فِي الْحُكْمِ عَلَى النَّاسِ وَاتِّهَامِهِمْ بِالْكَفْرِ
لِمَجْرَدِ الْاِخْتِلَافِ فِي وَجْهَاتِ النَّظَرِ الاجْتِهَادِيَّةِ .

نَقُولُ : مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِنَا أَنْ جَعَلَ الْأَصُولَ وَاحِدَةً لَا خِلَافَ
عَلَيْهَا ، أَمَّا الْفُرُوعُ وَالْأُمُورُ الاجْتِهَادِيَّةُ الَّتِي تَتَأْتَى بِالْفَهْمِ مِنَ الْمُجْتَهِدِ
فَقَدْ تَرَكَهَا اللَّهُ لِأَصْحَابِ الْفَهْمِ ، وَيَنْبَغِي أَنْ يُحْتَرَمَ كُلُّ مَنْ رَأَى فِيهَا رَأْيَ
الْآخِرِ ، بِدَلِيلِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ
مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَبْطُونَهُ مِنْهُمْ ۖ ﴾ (٨٣) [النساء]

وَالَا لَوْ أَرَادَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ لَمَّا جَعَلَ لَنَا اجْتِهَاداً فِي شَيْءٍ ،
وَلَجَاءَتْ كُلُّ مَسْأَلَةٍ الدِّينِ قَهْرِيَّةً ، لَا رَأْيَ فِيهَا لِأَحَدٍ وَلَا اجْتِهَادَ ، أَمَّا
الْحَقُّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فَقَدْ شَاءَتْ حُكْمَتُهُ أَنْ يَجْمَعَنَا جَمْعاً قَهْرِيّاً
عَلَى الْأُمُورِ الَّتِي إِنْ لَمْ نَجْمَعْ عَلَيْهَا تَفْسُدُ ، أَمَّا الْأُمُورُ الَّتِي تَصْلُحُ
عَلَى أَى وَجْهِ فَتَرَكَهَا لِاجْتِهَادِ خَلْقِهِ .

فَعَلَيْنَا - إِذَنْ - أَنْ نَحْتَرِمَ رَأْيَ الْآخَرِينَ ، وَالْأَنْتَجَرُ عَلَيْهِمْ بَلْ
لنَحْتَرِمَ مَا اخْتَارَهُ اللَّهُ لَنَا مِنْ حُرِيَّةِ الْفِكْرِ وَالْاجْتِهَادِ .

وَأَسْوَتْنَا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ سِيرَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَسَلَفِ هَذِهِ
الْأُمَّةِ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ ، فَلَمَّا هَبَّتْ الرِّيحُ عَلَى مَعْسَكِ الْكُفَّارِ
فَاقْتَلَعَتْ خِيَامَهُمْ وَشَتَّتَتْ شَمْلَهُمْ وَفَرَّوْا مِنَ الْمَيْدَانِ أَنْصَرَفَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ ، لَكِنْ سَرَعَانَ مَا أَمَرَهُ رَبُّهُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ
لِتَأْدِيبِهِمْ ، وَأَخْبَرَهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَنَّ الْمَلَائِكَةَ مَا زَالَتْ عَلَى حَالِ
اسْتِعْدَادِهَا ، وَلَمْ يَضَعُوا عَنْهُمْ أَدَاةَ الْحَرْبِ ، فَجَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصَّحَابَةَ

وقال لهم : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَصْلِيْنَ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قَرِيظَةَ »^(١) .

وفعلًا ، سار الصحابة نحو بني قريظة فيما بين العصر والمغرب ، فمعهم مَنْ خاف أَنْ يدركه المغرب قبل أَنْ يصلي العصر ، فصلى في الطريق ومنهم مَنْ التزم بأمر رسول الله ﷺ بِالْأَنْ يَصْلِيَ إِلَّا فِي بَنِي قَرِيظَةَ ، حتى وإن أدركه المغرب ، حدث هذا الخلاف إذن بين صحابة رسول الله وفي وجوده ، لكنه خلاف فرعى ، لَمْ يَرْفَعُوهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ وَافِقَ هَؤُلَاءِ ، وَوَافِقَ هَؤُلَاءِ ، وَلَمْ يَنْكَرْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَا اجْتَهَدَ .

إذن : في المسائل الاجتهادية ينبغي أَنْ نحترم رأى الآخرين ؛ لذلك فالعلماء - رضى الله عنهم - وأصحاب الفكر المتزن يقولون : رأى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب . فليت المسلمون يتخلصون من هذه الآفة التى فرقتهم ، وأضعفت شوكتهم بين الأمم . ليتهم يذكرون دائماً قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْبًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. ﴾ (١٥٩) [الانعام]

ولما تكلم الحق - تبارك وتعالى - عن مسألة الوضوء ، قال سبحانه :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ .. ﴾ (٦) [المائدة]

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى في صحيحه (٤١١٩) وكذلك مسلم في صحيحه - كتاب الجهاد والسير (ج ٦٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَادَى فِيهِمْ يَوْمَ انْتَصَرَفَ عَنْهُمْ الْأَحْزَابُ : « الْآ يَصْلِيْنَ أَحَدُ الظُّهْرِ إِلَّا فِي بَنِي قَرِيظَةَ » وفى لفظ « العصر » .

نلاحظ أنه تعالى عند الوجه قال ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ..﴾ (٦)
 [المائدة] دون أن يحدد للوجه حدوداً ، لماذا ؟ لأن الوجه لا خلاف عليه
 بين الناس ، لكن في الأيدي قال : ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ..﴾ (٦)
 [المائدة] فحدد اليد إلى المرفق ؛ لأنها محل خلاف ، فمن الناس مَنْ
 يقول : الأيدي إلى الكتف . ومنهم مَنْ يقول : إلى المرفق . ومنهم مَنْ
 يقول : هي كف اليد .

لذلك حددها ربنا - عز وجل - ليُخرجنا من دائرة الخلاف في غسل
 هذا العضو ، ولو تركها - سبحانه وتعالى - دون هذا التحديد لكان
 الأمر فيها مباحاً : يغسل كل واحد يده كما يرى ، كذلك في الرأس قال
 سبحانه : ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ..﴾ (٦) [المائدة] وتركها لاحتمالات
 الباء التي يراها البعض للإصاق ، أو للتعدية ، أو للتبعيض .

إذن : حين ترى مخالفاً لك في مثل هذه الأمور لا تنتهمه ؛ لأن
 النص أجاز له هذا الاختلاف ، وأعطاه كما أعطاك حق الاجتهاد .

ثم قال الحق سبحانه :

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ
 وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بَيَّا كُلَّ مِمَّا
 تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُونَ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ (٣٣)

تكلما عن معنى ﴿الْمَلَأُ ..﴾ (٣٣) [المؤمنون] وهم عَيْنُ الأعيان
 وأصحاب السلطة والنفوذ في القوم ، والذين يضايقهم المنهج
 الإيمانى ، ويقضى على مكانتهم ، ويقف في وجه طغيانهم وسيطرتهم
 واستضعافهم للخلق .

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴾ (٣٣) ﴿ [المؤمنين] تماماً كما حدث مع سابقهم من قوم نوح ﴿ وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴾ (٣٣) ﴿ [المؤمنين] مادة : ترف مثل فرح ، نقول : ترف الرجل يترف إذا تنعم ، فإذا زِدَتْ عليها الهمزة (أترف) نقول : أترفته النعمة ، أترفه الله ، يعنى : كانت النعمة سبب طغيان ، ووسع الله عليه فى النعمة ليتسع فى الطغيان .

وفى هذا المعنى ورد قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ .. ﴾ (٤٤) ﴿ [الأنعام] يعنى من منهج الحق ﴿ فَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ (٤٤) ﴿ [الأنعام]

ذلك ، ليكون الأخذ أقوى وأعنف وأبلغ فى الإيلام والحسرة ، وسبق أن ذكرنا تشبيهاً أضحك الحاضرين كثيراً ، والله تعالى - المثل الأعلى - ، قلنا : إن الله تعالى إذا أراد أن يوقع معانداً لا يوقعه من فوق الحصيرة ، إنما يوقعه من فوق كرسى عال ومكانة رفيعة ، ليكون (الهدر) أقوى وأشد .

فإن أخذ الإنسان العادى الذى لا يملك ما يتحسر عليه من مال أو جاه أو منصب ، فالامر هين ، أما حين يُرْقِيهِ وَيُعَلِيْ مَنْزِلَتَهُ وَيُتْرِفِهِ فى النعيم ، ثم يأخذه على هذه الحال فلا شك أنه أخذ عزيز مقتدر ، وهذا أشد وأنكى .

إذن : أترفناهم يعنى : وسعنا عليهم وأمددناهم بالنعمة المختلفة ليزدادوا فى كفرهم وطغيانهم ، على حدِّ قوله تعالى : ﴿ فَذَرَهُمْ فِي

(١) أبلس : حزن ويشس وتحير وسكت غماً ومماً أو سكت لانقطاع حجة . [القاموس القويم

غَمَرْتَهُمْ^(١) حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَهْجَسُونَ أَنَّمَا نُضِيذُهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَيْنٍ ﴿٥٥﴾
نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴿[المؤمنون]

إن الله تعالى يمدُّ لهؤلاء في وسائل الغنى والانحراف ليزدادوا منها ، ويتعمقوا في آثامها لتتعمق نحن في عذابهم والانتقام منهم .

ثم يحكى القرآن عنهم هذه المقولة التى سارت على ألسنتهم جميعاً فى كل الرسالات : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿[المؤمنون]

وكان هذه الكلمة أصبحت لازمة من لوازم المكذبين للرسل المعاندين لهنهج الله ، ثم يؤكدون على بشرية الرسول فيقولون : ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿[المؤمنون]

لرسول الله ﷺ : ﴿ مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ .. ﴾ ﴿٧﴾ ﴿[الفرقان]

سبحان الله ، كأنهم يتكلمون بلسان واحد مع اختلاف الأمم وتباعد الأزمان ، لكن كما يقولون : الكفر ملة واحدة .

﴿ وَلَئِن أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾ ﴿٣٤﴾

خاسرون إن أطعتم بشراً مثلكم ، لكنه بشر ليس مثلكم ، إنه بشر يوحي إليه ، فانا لا أتبع فيه بشريته ، إنما أتبع ما ينزل عليه من الوحي .

﴿ أَيْدِيكُمْ أَنتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا
وَعِظْمًا أَنتُمْ تَخْرَجُونَ ﴾ ﴿٣٥﴾

(١) أى : فى غيهم وضلالهم . قاله ابن كثير فى تفسيره (٢٤٧/٢) قال القرطبى فى تفسيره (٤٦٤/٦) : « الغمرة فى اللغة ما يغمرك ويغلك ، وأصله الستر . والغمر : الماء الكثير لانه يغطى الأرض . والمراد هنا : الحيرة والغفلة والضلالة » .

إنهم ينكرون البعث بعد الموت الذي يعدهم به نبيهم ، لكن ما الإشكال في مسألة البعث ؟ أليست الإعادة أهونَ من البدء ؟ وإذا كان الخالق - عز وجل - قد خلقكم من لا شيء فلأن يُعيدكم من الرفات أهون ، وإن كانت كلمة أهون لا تليق في حق الله تعالى ؛ لأنه سبحانه لا يفعل أموره عن علاج ومزاولة ، إنما عن كلمة « كُنْ » لكن الحديث في هذه المسألة يأتي بما تعارفت عليه العقول ، وبما يُقَرَّب القضية إلى الأذهان .

﴿ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ (٣٦)

﴿ هَيَّاتَ .. ﴾ (٣٦) [المؤمنون] اسم فعل بمعنى بَعْدَ ، يعني بَعْدَ هذا الأمر ، وهو أن نرجع بعد الموت ، وبعد أن صِرْنَا عِظَامًا وَرُفَاتًا . والكلمة في اللغة إما اسم أو فعل أو حرف : الاسم ما دُلَّ على معنى مستقل بالفهم غير مرتبط بزمن ، فحين نقول : سماء نفهم أنها كل ما علاك فإظلك . والفعل كلمة تدل أيضاً على معنى مستقل بالفهم لكنه مرتبط بزمن ، فحين نقول : أكل نفهم المقصود منها ، وهي متعلقة بالزمن الماضي ، أما الحرف فكلمة تدل على معنى غير مستقل بذاته ، فالحرف (على) يدل على معنى الاستعلاء ، لكن استعلاء أى شيء ؟

فالمعنى - إذن - لا يستقل بذاته ، إنما يحتاج إلى ما يوضحه ، كذلك (فى) تدل على الظرفية ، لكن لا تُحدد بذاتها هذه الظرفية ، كذلك من للابتداء وإلى للغاية ، ولكل من الاسم والفعل والحرف علامات خاصة يُعرف بها .

وغير هذه الثلاثة قسم رابع جاء مخالفاً لهذه القاعدة ؛ لذلك

يسمونه الخالفة وهو اسم الفعل مثل (هيهات) أى بُعد ، فهو اسم يدل على معنى الفعل دون أن يقبل علامات الفعل ، ومثله شتان بمعنى تفرق ، أف بمعنى أتضجر .. الخ .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى عنهم أنهم قالوا :

﴿ إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا

وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (٣٧)

لقد استبعد هؤلاء أمر البعث : لأنهم لا يعتقدون فى حياة غير حياتهم الدنيا ، فالامر عندهم محصور فيها ﴿ إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا .. ﴾ [المؤمنون] (٣٧) : حرف نفي يعنى . ما هي ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ مَا هُنَّ أَمْهَاتُهُمْ إِنَّمَا هُنَّ أَمْهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ .. ﴾ (٤) [المجادلة] يعنى : ما أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم .

وقوله : ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا .. ﴾ (٣٧) [المؤمنون] قد يظن البعض أنهم بهذا القول يؤمنون بالبعث ، لأنهم قالوا : (نموت ونحيا) فكيف يُنكرونه ؟ والمراد : نموت نحن ، ويحيى من خلف بعدنا من أولادنا ، بدليل قولهم بعدها : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (٣٧) [المؤمنون]

﴿ إِن هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا

وَمَا نَحْنُ لِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣٨)

يعنى : الرجل الذى أخبركم بمسألة البعث ﴿ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا .. ﴾ (٣٨) [المؤمنون] وعجيب منهم هذا القول ، فهم يعرفون الله ويعترفون ﴿ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ .. ﴾ (٣٨) [المؤمنون] فكيف يكون إلها دون أن يُبلغكم رسالة على لسان رسوله ؟ وإلا ، فكيف ستعرفون منهج الله ؟ قالوا : بالعقل ، لكن العقل فى هذه المسألة لا يصح .

وسبق أن سألنا لذلك - والله المثل الأعلى : هب أننا نجلس في حجرة مغلقة ودق جرس الباب ، لا شك أننا سنتفق جميعاً على أن طارقاً بالباب ، وهذا يسمى « تعقل » ، لكننا سنختلف في التصور : أهو رجل ؟ أم امرأة ؟ أم طفل ، أهو بشير أم نذير ؟ الخ .

إنن : نتفق حين نقف عند التعقل ، لكن كيف نعرف من بالباب ؟ نجعله هو يخبر عن نفسه حين نقول : من الطارق ؟ يقول : أنا فلان ، وجئت لكذا وكذا . فمن الذي يبلغ عن التعقل ؟ صاحبه .

وكذلك عقلك يؤمن بأن الكون له خالق واجد تدل عليه آيات الكون ، فأنت لو نظرت إلى لمبة الكهرباء هذه التي تنير غرفة واحدة ، وتأملت لوجدت وراءها مصانع وعدداً وآلات وعمالاً ومهندسين ومخترعين ، ومع ذلك لها قدرة محدودة ، ولها عمر افتراضي وربما كسرت لأي سبب وطفئت .

أفلا تنظر كذلك إلى الشمس وتتأمل ما فيها من آيات وعجائب ، وكيف أنها تنير نصف الكرة الأرضية في وقت واحد دون أن تتعطل ودون أن تحتاج إلى صيانة أو قطعة غيار ، ومع ذلك لم يدعها أحد لنفسه ، أفلا يدل ذلك على أن وراء هذا الخلق العظيم خالقاً أعظم ؟

إذا كنا نؤرخ لمكتشف الكهرباء ومخترع المصباح الكهربائي ، ونذكر ماذا صنع ؟ وكيف توصل إلى ما توصل إليه ، أليس يجدر بنا أن نبحث في خالق هذا الكون العجيب ؟

إنك لو حاولت أن تنظر إلى قرص الشمس أثناء النهار ، فإن نظرك يكل ولا تستطيع ، وإذا اشتدت حرارتها لا يطيقها أحد ، مع أن بينك وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية ، كل ثانية فيها ثلاثمائة ألف كيلومتر ، فأى طاقة هذه التي تنبعث من الشمس ؟

ومن عجائبها أيضاً أنك تشعر بحرارتها على الأرض المنبسطة فإذا ما ارتفعت فوق جبل مثلاً أو منطقة عالية تقلّ درجة الحرارة مع أنك تقترب من الشمس ، على خلاف ما لو أوقدت ناراً مثلاً فتجد أن حرارتها تنخفض كلما ابتعدت عنها ، أما الشمس فكما اقتربت منها قلتُ درجة الحرارة ، فمن يقدر على هذه الظاهرة ؟

فإذا جاء مَنْ يخبرني أنه خالق هذه الشمس أقول له : إذن هي لك ، إلى أن يأتي منازع يدّعيها لنفسه ، ولم يات منازع يدّعيها إلى الآن .

وقولهم : ﴿ افْتَرَى .. ﴾ (٣٨) [المؤمنون] مبالغة منهم في حقّ رسولهم ؛ لأن الافتراء : تعمّد الكذب ، والكذب كما قلنا : أن يأتي الكلام مخالفاً للواقع ، وقد يأتي الكلام مخالفاً للواقع لكن حسب علم صاحبه ، فهو في ذاته صادق .

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُون ﴾ (٣٩)

سبحان الله ، كأن تاريخ الرسالات يعيد نفسه مع المكذّبين ، وكأنه (أكلشييه) ثابت على السنة الرسل : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، فيتهمونه ويكذبونه ويقولون : ما أنت إلا بشر مثلنا ، فتأتي النهاية واحدة : ربّ انصرني بما كذبون ، يعني : أبدلني بتكذيبهم نصراً .

هذه قولة هود - عليه السلام - حين كذّبه قومه ، وقولة نوح ، وقولة كل نبي كذّبه القوم ؛ لأن الرسول حين يكذب من المرسل إليهم لا يفرّج إلا إلى مَنْ أرسله ؛ لأن مَنْ أرسله وعده بالنصرة والتأييد : ﴿ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (١٧٣) [الصافات]

وقال : ﴿وَلْيَصْرُنَّ اللَّهُ مِنْ يَبْصُرُهُ ..﴾ (٤٠) [الحج]

وقال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ [الصافات]

فالمعنى : انصرنى لأنك أرسلتني ، وقد كذبني القوم بعد أن استنفدت في دعوتهم كل أسبابي ، ولم يعد لي بهم طاقة ، ولم يعد لي إلا معونتك . والإنسان حين يستنفد كل الأسباب التي منحه الله إياها دون أن يصل إلى غايته فقد أصبح مضطراً داخلاً في قوله سبحانه : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ..﴾ (٦٢) [النمل]

إذن : لا تلجأ إلى الله إلا بعد أن تؤدي ما عليك أولاً ، وتفرغ كل ما في طاقتك في سبيل غايتك ، لكن لا تقعد عن الأسباب وتقول : يا رب فالأرض أمامك والفساس في يدك ومعك عافية وقدرة ، فاعمل واستنفد أسبابك أولاً حتى تكون في جانب المضطر الذي يجيب الله دعاه .

لذلك نسمع كثيراً مَنْ يقول : دعوتُ الله ولم يستجب لي ، ونقول له : أنت لم تدعُ بدعاء المضطر ، أنت تدعو بدعاء مَنْ في يده الأسباب ولكنه تكاسل عنها ؛ لذلك لا يُستجاب لك .

وهذه نراها حتى مع البشر ، والله تعالى البمثل الأعلى : هَبْ أَنْكْ صَاحِبَ مَالٍ وَتِجَارَةٍ وَجَاءَتْكَ بِضَاعَةٌ مِنَ الْجَمْرِكَ مِثْلًا ، وَجَلَسْتَ تَرَاقِبَ الْعَمَالِ وَهُمْ يُدْخِلُونَهَا الْمَخَازِنَ ، فَلَيْسَ مِنْ مِهَامِكَ الْحَمْلُ وَالتَّخْزِينُ فَهَذِهِ مِهْمَةُ الْعَمَالِ ، لَكِنْ هَبْ أَنْكْ وَجَدْتَ عَامِلًا ثَقُلَ عَلَيْهِ حِمْلُهُ وَكَادَ الصَّنَدُوقُ أَنْ يَوْقِعَهُ عَلَى الْأَرْضِ ، مَاذَا يَكُونُ مَوْقِفُكَ ؟ لَا شَكَّ أَنْكَ سَتَفْزَعُ إِلَيْهِ وَتَأْخُذُ بِيَدِهِ وَتُسَاعِدُهُ ؛ لِأَنَّهُ فَعَلَ كُلَّ مَا فِي وَسْعِهِ ، وَاسْتَفْرَغَ كُلَّ أَسْبَابِهِ وَقَوَاهُ ، فَلَمْ تَضُنْ أَنْتَ عَلَيْهِ بِالْعَوْنِ .

كذلك ربك - عز وجل - يريد منك أن تؤدي ما عليك ولا تدعه
لشيء قد جعل لك فيه أسباباً ؛ لأن الأسباب يد الله الممدودة لخلقها ،
فلا ترد يد الله بالأسباب لتطلب الذات بلا أسباب .

لذلك جاء قول الرسل الذين كذبوا : ﴿ رَبِّ انصُرْنِي .. ﴾ (٣٩)
[المؤمنون] ليس وأنا قاعد متخاذل متهاون ، ولكن ﴿ بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ (٣٩)
[المؤمنون] يعنى : فعلت كل ما فى وسعى ، ولم يعد لى بهم طاقة .
فتأتى الإجابة على وجه السرعة :

﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ (٤٠)

﴿ عَمَّا قَلِيلٍ .. ﴾ (٤٠) [المؤمنون] يعنى : بعد قليل ، فـ (عن) هنا
بمعنى بعد ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ (١٩)
[الانشقاق] يعنى : بعد طبق .

أما ﴿ مَا .. ﴾ (٤٠) [المؤمنون] هنا فقد دلت على الظرف الزمنى ؛
لأن المراد بعد قليل من الزمن .

﴿ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ (٤٠) [المؤمنون] حين يقع بهم ما كانوا به
يكذبون ، ويحلّ عليهم العذاب يندمون ، لأنهم لن يستطيعوا تدارك ما
فاتهم ، فليس أمامهم إذن إلا الندم ، وهذه المسألة دلت على أن
الفطرة الإنسانية حين لا تختلط عليها الأهواء تنتهى فى ذاتها إلى
الحق ، وإن أخرجها الغضب إلى الباطل ، فإنها تعود إلى توازنها وإلى
الجادة حين تهدأ ثورة الغضب .

والحق - تبارك وتعالى - يعطينا أدلة وإشارات حول هذه القضية
فى قصة ولدى آدم عليه السلام فيقول : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ
بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ

إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ [المائدة]

إلى أن قال سبحانه : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ .. ﴾ (٣٠) [المائدة] فجاء القتل أثراً من آثار الغضب ، والمفروض أنه بعد أن قتله شفى نفسه ، وينبغي له أن يُسرَّ لأنه حقق ما يريد ، لكن ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ (٣١) [المائدة]

أى : بعد أن هدأت ثورة الغضب بداخله ندم على ما فعل ، لماذا ؟ لأن هذه طبيعة النفس البشرية التى لا يُطغىها ولا يُخرجها عن توازنها إلا الهوى ، فإن خرج الهوى عادت إلى الاستقامة وإلى الحق ، وكان الله تعالى خلق فى الإنسان مقاييس يجب ألا تُفسدها الأهواء ولا يُخرجها الغضب عن حد الاعتدال ، لذلك يقولون : آفة الرأى الهوى .

لقد استيقظ قابيل ، لكن بعد أن رأى عاقبة السوء التى وصل إليها بتسرعه ، لكن الذكى يستيقظ قبل رد الفعل .

لكن ، لماذا اختار لهم وقت الصباح بالذات : ﴿ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ (٤٠) [المؤمنون] المتتبع لما حاق بالأمم المكذبة من العذاب والانتقام يجد أنه غالباً ما يكون فى الصباح ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿ (١٧٧) [الصافات]

وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَبَحُوا بِكُرَّةِ عَذَابٍ مُّسْتَقَرٍّ ﴾ (٣٨) [القمر]

وقال سبحانه : ﴿ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ ﴾ (٢١) [القلم]

ذلك ، لأن الصباح يعقب فترة النوم والخمول الحركى ، فيقومون من نومهم فيفاجئهم العذاب ، ويأخذهم على حين غفلة وعدم استعداد للمواجهة ، على خلاف إن جاءهم العذاب أثناء النهار وهم مستعدون . وندمهم على أنهم كذبوا أمراً ما كان ينبغي أن يكذب وقد جرَّ

عليهم الويلات ، والندم على خير فات من طبيعة النفس البشرية التي عادة ما تغلبها الشهوة ويغريها الحمق برد الحق ، ويمنعها الكبر من الانصياع للرسول خاصة وهو بشر مثلهم ، ويريد في ظنهم أن يستعلى عليهم ، لكن حين يواجهون عاقبة هذا التكذيب ونتيجة هذا الحمق يندمون ، ولات ساعة مندم .

إذن : فشهوة النفس تجعل الإنسان يقف موقفاً ، إذا ما جُوزى عليه بالشدة يندم أنه لم يُنفذ ولم يطع ، يندم على غطرسته في موقف كان ينبغي عليه أن يتنازل عن كبريائه ؛ لذلك يقولون : من الشجاعة أن تجبن ساعة .

ويحسن ذلك إذا كنت أمام عدو لا تقدر على مجابته ، ونذكر للرئيس الراحل السادات مثل هذا الموقف حين قال : لا أستطيع أن أحارب أمريكا ، فالبعض فهم هذا القول على أنه ضعف وجبن ، وهو ليس كذلك ، إنما هو شجاعة من الرجل ، شجاعة من نوع راق ؛ لأن من الشجاعة أيضاً أن تشجع على نفسك ، وهذه شجاعة أعلى من الشجاعة على عدوك ، وتصور لو دخل السادات مثل هذه الحرب فهزم كيف سيكون ندمه على شجاعة متهورة لا تحسب العواقب . وقد رأينا عاقبة الجراءة على دخول حرب غير متكافئة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُرَاءَ
فَبَعَثْنَا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

ما دام أن الحق - تبارك وتعالى - توعدهم وحدد لهم موعداً ،

فلا بُدَّ أن يقع بهم هذا الوعيد في الوقت ذاته ، وإلا لو مرَّ دون أن يصيبهم ما يندمون لأجله لانهدم المبدأ من أساسه ، ما دام أن الله تعالى قالها وسجَّلها على نفسه سبحانه في قرآن يحفظه هو .

﴿عَمَّا قَلِيلٍ لُّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ٤٠﴾ [المؤمنون] فلا بُدَّ أن ينزل بهم العذاب في الصباح .

لذلك ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ ٤١﴾ [المؤمنون] لا بالظلم والعدوان ، وفي موضع آخر قال سبحانه عنهم : ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ٤٦﴾ [الحاقة] والمعنيان يلتقيان ، لأن الريح الصرصر لها صوت مزمر كانه الصيحة والصراخ .

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُفَاءً ٤١﴾ [المؤمنون] الغفاء : ما يحمله السيل من قش وأوراق وبقايا النبات ، فتكون طبقة طافية على وجه الماء تذهب بها الريح في إحدى الجوانب ، والغفاء هو الزبد الذي قال الحق سبحانه وتعالى عنه : ﴿فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ١٧﴾ [الرعد]

وفي الحديث الشريف قال ﷺ لأصحابه : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها - يعني : يدعو بعضهم بعضاً لمحاربتكم كأنكم غنيمة يريدون اقتسامها - فقالوا : أمن قلة نحن يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غفاء كغفاء السيل »^(١) يعني : شيئاً هيناً لا قيمة له يذهب سريعاً .

وقوله تعالى : ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٤١﴾ [المؤمنون] أى : بُعْدًا لهم عن رحمتنا ونعيمنا الذي كُنَّا نُمْنِيهِمْ به ونَعِدُهُمْ به لو آمنوا .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٨/٥) ، وأبو داود في سننه (٤٢٩٧) من حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ .

وليس البُعد عن العذاب ؛ لأن البُعد مسافة زمنية أو مكانية ، نقول : هذا بعيد ، أى : زمنه أو مكانه ، المراد هنا البُعد عن النعيم الذى كان ينتظرهم إن آمنوا .

والظلم : كما قلنا أخذ حق الغير ، والشرك هو الظلم الاعظم ؛ لأنه ظلم فى مسألة القمة ، والبعض من السطحيين يظن أن الشرك ظلم عظيم ؛ لأنك ظلمت الله سبحانه وتعالى ، لأنك أنكرت وجوده وهو موجود ، وأشركت معه غيره وهو واحد لا شريك له ، نعم أنت ظلمت ، لكن ما ظلمت الله ؛ لأنه سبحانه لا يظلمه أحد ، وإن كان الظلم - كما نقول - أخذ حق الغير ، فحق الله محفوظ وثابت له سبحانه قبل أن يوجد من يعترف له بهذا الحق ، حق الله ثابت مهما علا الباطل وتبجح أهل الضلال .

لذلك يقول عز وجل : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى .. ﴾ (٤٠) [التوبة] وفى المقابل : ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا .. ﴾ (٤٠) [التوبة] ولم يقل قياساً على الأولى : وكلمة الله العليا ؛ لأن معنى ذلك أن كلمة الله لم تكن عليا فى يوم ما ؛ لذلك جاءت كلمة الله مرفوعة على صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبوت ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا .. ﴾ (٤٠) [التوبة] أى : دائماً ومهما عكست كلمة الكافرين . لماذا ؟

قالوا : لأن علو كلمة الكافرين فى ذاته علو لكلمة الله ، فإذا علا الكفر واستشرى شره وفساده يعرض الناس ويوقظ غفلتهم وينبهمهم إلى خسة الكفر ودنائه وما جرّه عليهم من ظلم وفساد فينكروه ويعودوا إلى جادة الطريق ، وإلى الحق الثابت لله عز وجل .

إنن : فكلمة الله هى العليا مهما كانت الجولة لكلمة الذين كفروا ، وكما يقولون : والضحد يظهر حسنه الضد . والله عز وجل لا يسلم

الحق ، ولكن يتركه ليلبوا غيرة الناس عليه ، فإن لم يغاروا عليه غار هو عليه .

وما داموا ما ظلموا الله ، ولا يستطيعون ذلك ، فما ظلموا إلا أنفسهم ، وإن عقل ظلمك لغيرك وأخذك لحقه فلا يُعقل ظلمك لنفسك ؛ لأنه أبشع أنواع الظلم وأبلغها .

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ ٤٢

قبل عدة آيات قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ (٣١) [المؤمنون] فجاءت قرناً بصيغة المفرد ؛ لأن الحديث مقصور على عاد قوم هود ، أما هنا فقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا .. ﴾ (٤٢) [المؤمنون] لأن الكلام سيأتي عن أمم ورسالات مختلفة ومتعددة ، فجاءت (قرونًا) بصيغة الجمع ، قرونًا متتابعة أو متعاصرة ، كما تعاصر إبراهيم ولوط ، وكما تعاصر موسى وشعيب عليهم جميعاً وعلى نبينا الصلاة والسلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴾ ٤٣

تأملوا هذه الآية جيداً وارعوها انتباهكم ، فلكل أمة أجل تنتهي عنده تعاماً ، مثل أجل الأفراد الذي لا يتقدم ولا يتأخر ، فقرن بعد قرن ، وأمة بعد أمة ، تمرُّ بأطوار شتى كأطوار حياة الإنسان ، ثم تنتهي إلى زوال ويعقبها غيرها .

فلكل أمة رسول يحمل إليها دعوة الله ومنهجه ويجاهد في سبيل نشرها إلى أن ينصره الله وتنتشر دعوته ويتمسك الناس بها ، ثم

تصيبهم غفلة وفتور عن منهج الله ، فينصرفون عنه ويختلفون ويتفرقون ، فيكون ذلك إيذاناً بزوالها ثم يخلفها غيرها ؟

كذلك فى مسألة الحضارات التى تندثر ليحلّ محلّها حضارات أخرى أقوى ، نسمع عن حضارة قديمة فى مصر وفى الصين وفى اليمن ، نسمع عن الحضارة الرومانية والفينيقية .. الخ حضارات تتوالى وتأخذ حظها من الرقى والرفاهية ، وتورث أصحابها رخاوة وطراوة ، وتبدلهم بالجد والقوة ليناً وضعفاً ، فيغفلوا عن أسباب رقيهم وتقدمهم ، فتتهدم حضارتهم ويحلّ محلّها أقوى منها وأصلب .

وهذا مثال ونموذج فى حضارة بلغت أوج عظمتها : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) ﴾ [الفجر]

والى الآن ، ونحن نرى آثار الحضارة الفرعونية ، وكيف أنها تجذب انتباه أصحاب الحضارات الحديثة وتنال إعجابهم ، فيأتون إليها من كل أنحاء العالم ، مع أن حضارة عاد كانت أعظم منها ؛ لأن الله تعالى قال فى حقها : ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) ﴾ [الفجر]

ومع ذلك لا نرى لهم أثراً يدل على عظم حضارتهم ، ولم يكن لهذه الحضارة مناعة لتحمى نفسها ، أو تحتفظ لها بشيء ، فانهارت وبادت ولم يبقَ منها حتى أثر .

كذلك أتباع الرسل يمرون بمثل هذه الدورة ، فبعد قوة الإيمان تصيبهم الغفلة ويتسرب إليهم الضعف وسوء الحال ، إلى أن يرسل الحق سبحانه رسلاً جديداً .

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ﴾ [المؤمنون]

المعنى فى الجملة الاولى واضح ، فأي أمة لا يمكن أن تسبق

أجلها الذي حدده الله لها ، ولا يمكن أن تنتهى أو تقوِّض قبل أن يحلُّ هذا الأجل .

لكن ما المراد بقوله سبحانه : ﴿ وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ (٤٣) [المؤمنون] كيف يتأتى ذلك ؟ فهنا : لا تسبق أجلها يعنى أجلها أن تقوِّض بعد عشرين سنة ، فلا يمكن أن تُقوِّض قبل خمس عشرة ، أما كونها تستأخر بعد أن بلغت العشرين إلى عشرة ، فكيف يتم ذلك ؟

نقول : لا تستأخر يعنى : من حيث الحكم هى لا تسبق الأجل وهى محكوم عليها بأنها لا تستأخر ؛ لأن الاستئثار بعد بلوغ الأجل مستحيل ، كما لو قلنا : شخص بلغ سنَّ العشرين لا يقدر أن يموت فى العاشرة . فالمعنى : الأصل فيه أنه لا يستأخر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَأُ كُلَّ مَلْجَأٍ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ
فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبِعَدْنَا
لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤٤)

﴿ تَتْرَأُ .. ﴾ (٤٤) [المؤمنون] يعنى : متوالين يتبع بعضهم بعضاً ؛ لذلك ظلَّها البعض فعلاً وهى ليست بفعل ، بدليل أنها جاءت فى قراءة أخرى^(١) (تترأ) بالتثنية والفعل لا يُنُون ، إذن : هى اسم ، والالف فيها للتانيث مثل حُبْلَى .

أضف إلى ذلك أن التاء الاولى تاتى فى اللغة بدلاً من الواو ، كما جاء فى الحديث الشريف من نصيحة النبى ﷺ : « احفظ الله

(١) هى قراءة ابن كثير وأبى عمرو بالتثنية على أنه مصدر أدخل فيه التثنية على فتح الراء . [تفسير القرطبي ٤/٦٠٩]

يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك - أو وجاهك ^(١) . يعنى : مواجهك .
فإذا أبدلت التاء الأولى فى (تتراً) واوا تقول (وتراً) يعنى :
متتابعين فرداً فرداً ، والوتر هو الفرد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ كُلُّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ .. ﴾ (٤٤)
[المؤمنون] فهذه طبيعة ولازمة من لوازم المرسل إليهم ، وما من
رسول أرسل إلى قوم إلا كذبوه ، ثم يلجأ إلى ربه : ﴿ قَالَ رَبِّ
انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ (٣٩)
[المؤمنون]

ولو لم يكذب الرسول ما كان هناك ضرورة لإرساله إليهم ، وما
جاء الرسول إلا بعد أن استشرى الباطل ، وعمّ الطغيان ، فطبعى أن
يكذب من هؤلاء المنتفعين بالشر المستفيدين من الباطل والذين
يدافعون عنه بكل قواهم ، وكان تكذيبهم للرسول دليل على صواب
مجىء الرسل ، وإلا لما كان هناك ضرورة لرسالات جديدة .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا .. ﴾ (٤٤) [المؤمنون] يعنى :
يمضى واحد ويأتى غيره من الرسل ، أو نهلك المكذبين ثم يأتى
بعدهم آخرون ، فيكذبون فنهلكهم أيضاً .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ .. ﴾ (٤٤) [المؤمنون] أحاديث : إما جمعاً لحديث
كما نقول : أحاديث رسول الله ﷺ أو جمع : أصدوثة . وهى المقولة
التي يتشدد بها الجميع ، وتلوّكها كل اللسان ، ومن ذلك قول
الإنسان إذا كثّر كلام الناس حوله : (جعلونى حدوتة) يعنى على
سبيل التوبيخ والتفريع لهم .

فقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ .. ﴾ (٤٤) [المؤمنون] كأنه لم يبقَ منهم

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٩٢/١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٧) ، والترمذى فى سننه (٢٥١٦) .
وقال : « حديث حسن صحيح » من حديث عبد الله بن عباس .

أثر إلا أن نتكلم عنهم ، ونذكرهم كتاريخ يُحكى ، وفي موضع آخر قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ﴾ (١٩) [سبا] ثم يقول تعالى عنهم كما قال عن سابقهم : ﴿ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤٤) [المؤمنون] يعنى : بُعداً لهم عن رحمة الله ، وبُعداً لهم عن نعيم الله الذى كان ينتظرهم ، ولو أنهم آمنوا لنالوه .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ
بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ (٤٥)

تكررت قصة موسى - عليه السلام - كثيراً ومعه أخوه هارون ، كما قال : ﴿ اشْدُدْ بِهِ أَزْرَى ﴾ (٤١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِى ﴾ (٣٢) [طه] والبعض يظن أن موسى جاء برسالة واحدة ، لكنه جاء برسالتين : رسالة خاصة إلى فرعون ملخصها : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنَى إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ .. ﴾ (٤٧) [طه] وجاء له بمعجزات تثبت صدق رسالته من الله ، ولم يكن جدال موسى لفرعون فى مسألة الإيمان جزءاً من هذه الرسالة ، إنما جاء هكذا عرضاً فى المناقشة التى دارت بينهما .
والرسالة الأخرى هى رسالته إلى بنى إسرائيل متمثلة فى التوراة .

وقوله : ﴿ بِآيَاتِنَا .. ﴾ (٤٥) [المؤمنون] قلنا : إن الآيات جمع آية ، وهى الشئ العجيب الملفت للنظر الفائق على نظرائه وأقرانه ، والذى يكرم ويفتخر به . والآيات إما كونية دالة على قدرة الله فى الخلق كالشمس والقمر .. إلخ كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ .. ﴾ (٣٧) [فصلت]

ومهمة هذه الآيات الكونية أن تلفت نظر المخلوق إلى بديع صنع الخالق وضرورة الإيمان به ، فمنها نعلم أن وراء الكون البديع خالقاً وقوة تمدّه وتديره ، فمن يمدُّ هذه الشمس بهذه القوة الهائلة ؟ إن التيار الكهربائي إذا انقطع تُطفأ هذه اللمبة ، فمن خلق الشمس من عدم ، وأمدّها بالطاقة من عدم ؟

إذن : وراء هذا الكون قوة ما هي ؟ وماذا تطلب منا ؟ وهذه مهمة الرسول أن يُبلغنا ، ويُجيب لنا عن هذه الأسئلة .

وتُطلق الآية أيضاً على المعجزة التي تثبت صدق الرسول في البلاغ عن الله .

وتُطلق الآية على آيات القرآن الحاملة للأحكام والحاوية لمنهج الله إلى خلقه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَسُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (٤٥) [المؤمنون] فعطف ﴿ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (٤٥) [المؤمنون] على ﴿ بَيِّنَاتٌ ﴾ (٤٥) [المؤمنون] وهذا من عطف الصفة على الموصوف لمزيد اختصاص : لأن الآيات هي السلطان ، فالسلطان : الحجة . والحجة على الوجود الأعلى آيات الكون ، والحجة على صدق الرسول المعجزات ، والحجة على الأحكام الآيات الحاملة لها .

وسمّي معجزة موسى عليه السلام (العصا) سلطاناً مبيناً أي : محيطاً : لأنها معجزة متكررة رأينا لها عدة حالات : فهذه العصا الجافة مرة تنقلب إلى حية تلقف الحيات ، ومرة يضرب بها البحر فينقلب ، ومرة يضرب بها الحجر فيتفجر منه الماء ، وفوق ذلك قال عنها : ﴿ وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى ﴾ (١٨) [طه]

ومن معاني السلطان : القَهْر على عمل شيء أو الإقناع بالحجة لعمل هذا الشيء ، لذلك كانت حجة إبليس الوحيدة يوم القيامة أن يقول لاتباعه : ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .. ﴾ (٢٢) [إبراهيم] يعنى : كنتم رهن الإشارة ، إنما أنا لا سلطان لى عليكم ، لا سلطان قهر ، ولا سلطان حجة .

لذلك قال فى النهاية : ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ .. ﴾ (٢٢) [إبراهيم] والإنسان يصرخ إذا فزع أمر لا حيلة له به ، فيصرخ استنفاراً لمعين يُعينه ، فمن أسرع إليه وأعانه يقال : أصرخه . يعنى : أزال سبب صراخه .

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ (٤٦)

﴿فِرْعَوْنَ .. ﴾ (٤٦) [المؤمنون] لقب لكل من كان يحكم مصر ، مثل كِسْرَى فى الفرس ، وقيصر فى الروم ، وتكلمنا عن معنى (الملأ) وهى من الامتلاء ، والمراد القوم الذين يملؤون العيون مهابةً ومنزلةً ، وهم أشرف القوم وصدور المجالس ، ومنه قولهم : فلان قيّد النواظر يعنى : من ينظر إليه لا ينصرف عنه إلى غيره .

وقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾ (٤٦) [المؤمنون] والاستكبار غير التعالى ، فالمستكبر يعلم الحكم ويعترف به ، لكن يأبى أن يطيعه ، ويأنف أن يصنع ما أمر به ، أما العالى فهو الذى يظن أنه لم يدخل فى الأمر من البداية .

ومن هنا جاء قوله تعالى لإبليس لما أبى السجود لآدم : ﴿ اسْتَكَبَرْتَ ءَأَمَّ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ (٧٥) [ص]

والعالون هم الملائكة المهيمون في الله ، والذين لا يدرون شيئاً
عن آدم وذريته .

﴿ فَقَالُوا اتُّؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾

﴿ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ (٤٧)

اعترضوا أيضاً هنا على بشرية موسى وهارون كما حدث من
الامم السابقة ، إنهم يريدون الرسول ملكاً ، كما جاء في موضع
آخر : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ
بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (٩٤)

[الإسراء]

ومن الغباء أن يطلبوا ملكاً رسولاً ، فلو جاءهم الرسول ملكاً ،
فكيف سيكون أسوة للبشر ؟ وكيف سيروثه ويتلقون عنه ؟ إذن :
لا بد أن يأتيهم في صورة بشر : لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ
مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴾ (٩)

[الأنعام]

وستظل الشبهة قائمة ، فما الذي يجعلك تُصدق أنه ملك ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ (٤٧) [المؤمنون] يعنى : كيف
نؤمن لموسى وهارون وقومهما - أى : بنى إسرائيل - خدم لنا ،
يأترون بأمرنا ، بل ونذلهم ونذبح أولادهم ، ونستحيى نساءهم ،
ونسومهم سوء العذاب ؟

وسمى ذلك عبادة ، لأن من يخضع لإنسان ، ويطيع أمره كأنه
عبده .

﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾ (٤٨)

أى : بالفرق ، وهذه قصة مشهورة معروفة ، وجعلها الله مثلاً
وعبرة .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٤٩)

﴿الْكِتَابَ .. (٤٩)﴾ [المؤمنون] أى : التوراة ، وفيه منهج الهداية
﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩)﴾ [المؤمنون] أى : ياخذون الطريق الموصِّل لل غاية
الشريفة المفيدة من أقصر طريق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قُرَارٍ مَعِينٍ﴾ (٥٠)

بعد أن أعطانا هذه اللقطة الموجزة من قصة موسى وهارون
انتقل إلى المسيح ابن مريم ، والقرآن فى حديثه عن عيسى عليه
السلام مرة يقول : ابن مريم ومرة يقول : عيسى بن مريم . وتسمية
عيسى عليه السلام بأمه هى التى جعلتُ سيدتنا وسيدة نساء العالمين
مريم ساعة تُبشِّرُ بـغلام تستنكر ذلك ، وتقول : كيف ولم يمسنى
بشر ؟ ولم يخطر ببالها أنها يمكن أن تتزوج وتنجب ، لماذا ؟ لأن الله

(١) الربوة : ما ارتفع من الارض . قال ابن كثير فى تفسيره (٢٤٦/٣) : « اختلف

المفسرون فى مكان هذه الربوة من أى أرض هى ؟

- بمصر . قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، ليس الربى إلا بمصر . قال ابن كثير :
وهو بعيد جداً .

- دمشق . قاله سعيد بن المسيب . وقال ابن عباس : أنهار دمشق .

- الرملة من فلسطين . قاله أبو هريرة .

- بيت المقدس . قاله الضحاك وقتادة .

قال ابن كثير : « هذا والله أعلم هو الأظهر : لأنه المذكور فى الآية الأخرى ، والقرآن يفسر
بعضه بعضاً ، وهذا أولى ما يُفسر به ثم الأحاديث الصحيحة ثم الآثار » .

سمّاه ابن مريم ، وما دام سماه بأمه ، إذن : فلن يكون له أب .
وليس أصعب على الفتاة من أن تجد نفسها حاملاً ولم يمسسها
رجل ؛ لأن عرض الفتاة أغلى وأعزّ ما تملك ، لذلك مهّد الحق - تبارك
وتعالى - لهذه المسألة ، وأعدّ مريم لاستقبالها ، وأعطاهما المناعة
اللازمة لمواجهة هذا الامر العجيب ، كما نفعل الآن في التطعيم ضد
الامراض ، وإعطاء المناعة التي تمنع المرض .

فلما دخل زكريا - عليه السلام - على مريم فوجد عندها رزقاً لم
يأت به ، وهو كفيلها والمسئول عنها ، سألها : ﴿أَتْنِي لَكَ هَذَا قَالَتِ
هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .. (٣٧)﴾ [آل عمران] وكان هذا الردّ من مريم عن فهم
تام لقضية الرزق ، ولم يكن كلام دراويش ، بدليل أنها قالت بعدها :
﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران]

وفى هذا الموقف درس لكل أب ولكل وليّ أمر ورب أسرة أن
يسأل أهل بيته عن كل شيء يراه في بيته ولم يأت هو به ، حتى
لا يدع لأولاده فرصة أن تمتد أيديهم إلى ما ليس لهم .

لقد انتفع زكريا - عليه السلام - بهذا القول وانتبه إلى هذه
الحقيقة ، نعم زكريا يعلم أن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، لكن
ذلك العلم كان معلومة في حاشية الشعور ، فلما سمعها من مريم
خرجت إلى بؤرة شعوره ، وعند ذلك دعا الله أن يرزقه الولد وقد بلغ
من الكبر عتياً ، وامراته عاقر .

وكذلك انتفعت بها مريم حين أحسّت بالحمل دون أن يمسسها
بشر فاطمأنت ؛ لأن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ .. (٥٠)﴾ [المؤمنون] فأخبر

سبحانه عن المثنى بالمفرد ﴿آيَةٌ .. ٥٠﴾ [المؤمنون] لأنهما مشتركان فيها : مريم آية لأنها أنجبت من غير زوج ، وعيسى آية لأنه ولد من غير أب ، فالآية إذن لا تكون في أحدهما دون الآخر ، وهما فيها سواء .

لذلك يراعى النص القرآنى هذه المساواة فيُقدّم عيسى فى آية : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. ٥٠﴾ [المؤمنون] ويقدم مريم فى آية أخرى : ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ٩١﴾ [الانبيا] هذه العدالة فى النص لأنهما سواء فى الخبرية لا يتميز أحدهما على الآخر .

والآية هى الأمر العجيب الذى يُثبت لنا طلاقة قدرة الخالق فى الخلق ، وحتى لا يظن البعض أن مسألة الخلق مسألة (ميكانيكية) من أب وأم ، لذلك كان وجه العجب فى خلق عيسى أن يخرج عن هذه القاعدة ليجعله الله دليلاً على قدرته تعالى ، فإن أراد أن يخلق خلق من العدم ، أو من أب فقط ، أو من أم فقط ، وحتى فى اكتمال العنصرين يوجد الأب والأم ، لكن لا يوجد الإنجاب ، إذن : المسألة إرادة لله عز وجل ، وطلاقة لقدرة إلهية لا حدود لها .

يقول سبحانه : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ١٩﴾ أو يزوجهم ذكراً وإناثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا .. ٥٠﴾ [الشورى]

والآن نلاحظ أن البعض يحاول منع الإنجاب بشتى الوسائل ، لكن إن قُدِّرَ له مولود جاء رغم أنف الجميع ، ورغم إحكام وسائل منع الحمل التى تفننوا فيها .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَوْتَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ٥٠﴾ [المؤمنون] من الطبيعى بعد أن حملت مريم بهذه الطريقة أن تُضطهد

من قومها وتطارد ، بل وتستحي هي من الناس وتتحاشى أن يراها أحد ، ألا ترى قوله تعالى عن ابنة شعيب : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ .. ﴾ (٢٥) [القصص] على استحياء ، لأنها ذهبت لاستدعاء فتى غريب عنها ، فما بالك بمريم حين يراها القوم حاملاً وليس لها زوج ؟ إنها مسألة أصعب ما تكون على المرأة .

لذلك لما سئل الإمام محمد عبده وهو في باريس : بأي وجه قابلت عائشة قومها بعد حادثة الإفك ؟ فآلهمه الله الجواب وهداه إلى الصواب ، فقال : بالوجه الذي قابلت به مريم قومها وقد جاءت تحفل ولدها ؛ ذلك لأنهم أرادوا أن يأخذوها سُبَّةً ومطعنًا في جبين الإسلام .

ولما كانت مريم بهذه الصفة تولاهما الله ودافع عنها ، فهذا يوسف النجار وكان خطيب مريم حين يرى مسألة حملها ، وهو أغير الناس عليها بدل أن يتشكك فيها ويتهمها يتحول قلبه عليها بالعطف ، كما قال تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. ﴾ (٢٤) [الأنفال]

فإذا به يخدمها ويحنو عليها ؛ لأن الله أنزل المسألة على قلبه منزل الرضا ، وكل ما قاله في مجادلة مريم وفي الاستفسار عما حدث بطريقة مهذبة : يا مريم أرايت شجرة بدون بذرة ؟ فضحكت مريم وقد فهمت ما يريد وقالت : نعم الشجرة التي أنبتت أول بذرة^(١) إنه كلام أهل الإيمان والفهم عن الله .

لذلك آواها الله وولدها ﴿ وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (٥٠)

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (١١٦/٢) وفيه أن مريم عليها السلام ردت عليه فقالت : « أما قولك هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر ، وهل يكون ولد من غير أب فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم ، فصديقها وسلم لها حالها .

[المؤمنون] وساعةً تسمع كلمة الإيواء تفهم أن شخصاً اضطر إلى مكان يلجأ إليه ويأوى إليه ، وكذلك كانت مريم مضطرة تحتاج إلى مكان يحتويها وهي مضطهدة من قومها . ولا بد في مكان الإيواء هذا أن تتوفر فيه مقومات الحياة ، خاصة لمثل مريم التي تستعد لاستقبال وليدها ، ومقومات الحياة : هواء وماء وطعام .

فانظر كيف أعد الحق - سبحانه وتعالى - لمريم مكان الإيواء : ﴿وَأَوْنَيْنَاهَا إِلَى رَبْوَةٍ .. (٥٠)﴾ [المؤمنون] وهي المكان العالى عن الأرض المنخفض عن الجبل ، فهو معتدل الجو ؛ لأنه بين الحرارة فى الأرض المستوية والبرودة فى أعلى الجبل .

﴿ذَاتِ قُرَارٍ .. (٥٠)﴾ [المؤمنون] يعنى : توفرت لها أسباب الاستقرار من ماء وطعام ، فالماء يأتيها من أعلى الجبال ويمر عليها ماءً معيناً ، يعنى : تراه بعينك ، والطعام يأتيها من ثمار النخلة التى نزلت بجوارها .

ومعلوم أن الربوة هى أنسب الأماكن حيث يمر عليها الماء من أعلى ، ولا يتبقى فيها مياه جوفية تضر بمزروعاتها ؛ لأنها تتصرف فى الأرض المنخفضة عنها .

لذلك ضرب لنا الحق - تبارك وتعالى - المثل للأرض الخصبة التى تؤتي المحصول الوافر ، فقال : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ .. (٦٥)﴾ [البقرة]

إذن : اختار الله تعالى لمريم القرار الذى تتوفر فيه مقومات الحياة على أعلى مستوى بحيث لا تحتاج أن تنتقل منه إلى غيره .

وبعد ذلك يتكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن قضية عامة بعد أن تكلم عن القرار ومقومات الحياة ، وهى الطعام والشراب والهواء ،

فمناسب ذلك أن يتكلم سبحانه عن المطعم :

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا

إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

لكن ، كيف يخاطب الحق - تبارك وتعالى - الرسل جميعاً في وقت واحد ؟ نقول : لأن القرآن الكريم هو كلام الله القديم ، لم يأت خاصاً بمحمد ﷺ ، وإن نزل عليه فهو إذن خطاب لكل رسول جاء .

وبعد أن أمرهم الحق سبحانه بالأكل من الطيب أمرهم بالعمل الصالح : ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا .. ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون] ثم يقول سبحانه : ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون] كان الحق سبحانه يقول : اسمعوا كلامي فيما أمركم به ، فأنا عليم وخبير بكل ما يصلحكم ؛ لأنني الخالق الذي أعلم كيف تستقيم بنيةكم للحركة الصالحة للخير ، ولا تستقيم بنيةكم للحركة الصالحة للخير إلا إذا أخذتم المطعم من الحلال الطيب .

وكما قلنا : إن صانع الآلة يضع لها الوقود المناسب لتشغيلها ، ولألا تعطلت عن أداء مهمتها .

فلكى تؤدي الصالح في حركة حياتك عليك أن تبدأ بالمطعم الطيب الذي يبني ذراتك من الحلال ، فيحدث انسجماً بين هذه الذرات ، وتعمل معاً متعاونة غير متعاندة ، وإن انسجمت ذراتك وتوافقت أعانتك على الصالح .

فإن دخل الحرام إلى طعامك وتلوّث به ذراتك تنافرت وتعاندت ، كما لو وضعت للآلة وقوداً غير ما جعل لها ، فافهموا هذه القضية ؛ لأنني أنا الخالق فأمنوا لي كما تؤمنون بقدرة الصانع حين يصنع لكم صناعة ، ويضع لكم قانون صيانتها .

إذن : أمر الحق سبحانه أولاً رسله بالأكل من الطيبات ؛ لأن

العمل الصالح يحتاج إلى جهاز سليم متوافق من داخله ؛ لذلك في سيرة النبي ﷺ أن أم عبد الله أخت شداد بن أوس ، أرسلت إلى النبي في يوم صامه وهو حارٌ شيناً من اللبن يفطر عليه ، وهو ﷺ يعلم أنها فقيرة لا تملك شيئاً فأرسل إليها : من أين لك هذا اللبن ؟ فأرسلت إليه : من شاة عندي ، فبعث إليها : ومن أين لك بالشاة ؟ قالت : اشتريتها بعمال دبّرتّه . فشرب رسول الله من اللبن^(١) .

وإن كنا نحن لا نتحرى في مطعمنا كل هذا التحرى ، لكن هذا رسول الله الذي يُنفذ منهج الله كما جاءه ، وعلى أكمل وجه . وفي الحديث الشريف : « أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (٥١) [المؤمنون] وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. ﴾ (١٧٢) [البقرة] ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذّى بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك ؟^(٢) .

نعم ، كيف يُستجاب له وهو يدعو الله بجهاز إرسال فاسد مُشوَّش دَنَسه وخالطه الحرام ؟

وفي حديث سيدنا سعد رضي الله عنه لما قال لرسول الله : يا رسول الله ادْعُ الله لي أن أكون مُستجاب الدعوة ، فقال ﷺ :

(١) عن أم عبد الله أخت شداد بن أوس أنها بعثت إلى رسول الله ﷺ بقدر لبن عند فطره وهو صائم وذلك في طول النهار وشدة الحر فرد إليها رسولها : أنى لك هذا اللبن ؟ قالت : من شاة لي . قال : فرد إليها رسولها : أنى كانت لك هذه الشاة ؟ قالت : اشتريتها من مالى فأخذه منها ، فلما كان من الغد أتته فقالت أم عبد الله : يا رسول الله بعثت لك باللبن مريثة لك من طول النهار وشدة الحر فرددت الرسول فيه فقال لها : بذلك أمرت الرسول ألا تاكل إلا طيباً ولا تعمل إلا صالحاً . أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩١/١٠) وقال : « رواه الطبراني وفيه أبو بكر بن أبي مريم وهو ضعيف » .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠١٥) ، وأحمد في مسنده (٣٢٨/٢) . والترمذي في سننه (٢٩٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

« يا سعد أطلب مطعمك تكن مستجاب الدعوة »^(١) .
ثم يُذِيلُ الحق سبحانه هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾^(٥١) [المؤمنون] يعنى : أعلم ما يصلحكم ، وما يجلب لكم الخير .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ هَدَيْنَا مُمَاطِكُمْ أَتَمَّةً وَجَدَنَّاهُمْ وَآنَارِيَهُمْ فَآفَاقُونَ ﴾

بعد أن تكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن المعركة بين الإيمان والكفر أراد هنا أن يتكلم عن معركة أخرى لا تقل خطورة عن الأولى ، وهى معركة الفرقة والاختلاف بين صفوف المؤمنين ، ليحذرننا من الخلافات التى تشق عصانا ، وتفت فى عضد الأمة وتضعفها أمام أعدائها ، ونسمعهم الآن يقولون عنا بعدما وصلنا إليه من شيع وأحزاب - ليتفقوا أولاً فيما بينهم ، ثم يبشروا بالإسلام .

الأمة : الجماعة يجمعهم زمن واحد أو دين واحد ، وتطلق على الفرد الواحد حين تجتمع فيه خصال الخير التى لا تجتمع إلا فى أمة ، لذلك سمي الله تعالى نبيه إبراهيم أمة فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(١٢٠) [النحل]

أما قوله سبحانه : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. ﴾^(٤٨) [المائدة] فكيف نقول : إنها أمة واحدة ؟

قالوا : لأن الدين يتكون من أصول وعقائد ، وهذه واحدة لا تختلف باختلاف الأديان ، وأخلاق وفروع . وهذه تختلف من دين لآخر باختلاف البيئة ؛ لأنها تأتى بما يناسب حركة الحياة فى كل عصر .

(١) عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ : ﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا .. ﴾^(١٢٥) [البقرة] فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال رسول الله ﷺ : يا سعد أطلب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن العبد يقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه العمل أربعين يوماً وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٩١/١٠) وقال : « رواه الطبرانى فى الصغير وفيه من لم أعرفهم » .

يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. ﴾ (١٣) [الشورى]

إذن : فالأمة واحدة يعنى فى عقائدها وإن اختلفت فى الشريعة والمنهج ، والأحكام الجزئية التى تتعرض لأقضية الحياة . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَأَحِلُّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ .. ﴾ (٥٠) [آل عمران] وكانوا فى الأم السابفة إذا وقعت نجاسة على ثوب يقطعون الموضع الذى وقعت عليه ، فلما جاء الإسلام خفف عن الناس هذا العنت ، وشرع لهم أن يغسلوه فيطهر .

وما دام أن أمتكم أمة واحدة ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (٥٢) [المؤمنون] يعنى : اتقوا الله فى هذه الأمة الواحدة وأبقوا على وحدتها ، واحذروا ما يفرقها من خلافاة حول فروع إن اختلف البعض عليها اتهموا الآخرين بالكفر ؛ لأنهم يريدون أن ينهبوا من الدين الجامع سلطة زمنية لانفسهم .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. ﴾ (١٥٩) [الانعام]

فالامور التى أحكمها الله باللفظ الصريح المحكم أصول لا خلاف عليها ولا اجتهاد فيها ، وأما الأمور التى تركها سبحانه للاجتهاد فيجب أن نحترم فيها اجتهد الآخرين ، وإلا لو أراد الحق سبحانه لجعل الأمر كله محكما لا مجال فيه لراى أو اجتهد .

ومعنى ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ .. ﴾ (٥٢) [المؤمنون] أن من عطاء ربوبيتى أن جعلت لكم أمورا محكمة وعقائد ثابتة ؛ لأن الاختلاف فيها يفسد

المجتمع ، وتركت لكم أموراً أخرى تأتون بها أو تتركونها ، كُلُّ حسب اجتهاده ؛ لأن الاختلاف فيها لا يترتب عليه فساد فى المجتمع ، وسبق أن مثلنا لهذه الأمور .

وقوله : ﴿ فَاتَّقُوا ﴾ (٥٢) [المؤمنون] يعنى : بطاعة الأمر ، فما أحكمته فأحكموه ، وما جعلت لكم فيه اجتهاداً فاقبلوا فيه اجتهاد الآخرين .

لكن ، هل سمعنا قول الله وأطعنا ؟ يقول سبحانه :

﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٥٣)

﴿ زُبُرًا .. ﴾ (٥٣) [المؤمنون] يعنى : قطعاً متفرقة ، ومنه ﴿ أَتَوْنِي زُبُرًا الْحَدِيدِ .. ﴾ (٩٦) [الكهف]

﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٥٣) [المؤمنون] يعنى : كل جماعة تتعصب لرأيها وتفرح به ، وكأنها على الحق وغيرها على الباطل ، يريدون أن تكون لهم سلطة زمنية بين الناس ، ويصورون لهم أنهم أتوا بما لم يأت به أحد قبلهم ، وتنبهوا إلى ما غفل عنه الآخرون .

﴿ بِمَا لَدَيْهِمْ .. ﴾ (٥٣) [المؤمنون] بالرأى الذى يريدونه ، لا بالحكم الذى يرتضيه الحق سبحانه وتعالى .

من ذلك قولهم : إن الصلاة فى مسجد به قبر أو ضريح باطلة ، وأن ذلك شرك فى العبادة .. إلخ ولو أن الأمر كما يقولون فليهدموا القبر فى المدينة .

إن على هؤلاء الذين يثيرون مثل هذه الخلافات أن يتفهموا الأمور

على وجهها الصحيح ، حتى لا نكون من الذين قال الله عنهم : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٥٣) [المؤمنون]

وما أفسد استقبال الأديان السابقة على الإسلام إلا مثل هذه الخلافات ، وإلا فكل دين سبق الإسلام وخصوصاً الموسوية والعيسوية قد بشرت بمحمد ﷺ ، وكانوا وهم أهل كتاب ورسالة وعلى صلة بالسماء - يجادلون أهل الكفر من عبدة الأصنام يقولون : لقد أطل زمان نبي يظهر فيكم نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم^(١) .

ومع ذلك : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. ﴾ (٨٩) [البقرة] لماذا ؟ لأنهم يريدون أن يحتفظوا بسلطتهم الزمنية .

كيف لا ينكرون رسول الله ﷺ ، وقد كان أحدهم^(٢) يستعد لتنصيب نفسه ملكاً على المدينة يوم أن دخلها رسول الله ، فأفسد عليه ما أراد ؟

﴿ فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَاتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (٥٤)

﴿ فَذَرَهُمْ .. ﴾ (٥٤) [المؤمنون] يعنى : دَعَهُمْ ، والعرب لم تستعمل الماضى من هذين الفعلين ، فورد فيهما يدع ويذر . وقد ورد هذا الفعل أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النُّعْمَةِ .. ﴾ (١١) [المزمل]

(١) عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهرًا فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أطل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١٢٤/١) نقلًا عن ابن إسحاق .

(٢) هو عبد الله بن أبى بن سلول . رأس المنافقين فى المدينة ، أبو الحباب من خزاعة ، وسلول جدته لأبيه ، كان سيد الخزرج فى آخر جاهليتهم وكان كلما حلت بالمسلمين نازلة شمت بهم . وكلما سمع بسيرة نشرها . توفى عام ٩ هجرية . [الأعلام للزركلى ٦٥/٤]

وفى قوله تعالى : ﴿ فَلَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ .. (١٤) ﴾ [القلم]

والمعنى : ذرهم لى أنا أتولى عقابهم ، وأفعل بهم ما أشاء ، أو :
ذرهم يفعلون ما يشاءون ليستحقوا العقاب ، وينزل بهم العذاب .

والغمرة : جملة الماء التى تغطى قامة الرجل وتمنع عنه التنفس ،
فلا يبقى له من أمل فى الحياة إلا بمقدار ما فى رثته من الهواء ؛
لذلك يحرص الإنسان على أن يُمرن نفسه على أن تتسع رثته لأكبر
قدر من الهواء .

ومن ذلك أخذت كلمة المنافسة ، وأصلها أن يغطس اثنان تحت
الماء ليختبر كل منهما الآخر : أيهما يبقى فترة أطول تحت الماء
ودون تنفس .

ويقول تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) ﴾ [المطففين]
وتستطيع أن تجرى مع نفسك هذه المنافسة ، بأن تأخذ نفساً عميقاً
ثم تعد : واحد ، اثنان وسوف ترى مقدار ما فى رثتك من الهواء .

فالمعنى : ذرهم فى غيائهم وغفلتهم فلن يطول بهم الوقت : لأنهم
كمن غمره الماء ، وسرعان ما تنكم أنفاسه ويفارق الحياة ؛ لذلك
قال تعالى بعدها : ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) ﴾ [المؤمنون] والحين مدة من
الزمن قد تطول ، كما فى قوله تعالى : ﴿ تَوَتَّىٰ أَكْثَلُهَا كُلُّ حِينٍ رِأْذُنَ
رَبِّهَا .. (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

وقد تقصر كما فى قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْهُنَّ اللَّيْلَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ
تُصْبِحُونَ (١٧) ﴾ [الروم] وكان الله تعالى عبّر بالغمرة ليدل على أن
حينهم لن يطول .

ثم ينتقل السياق ليعالج قضية قد تشغل حتى كثيراً من المؤمنين :

﴿ اَيْحَسِبُونَ اَنْمَّا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ۝٥٥ ﴾ ﴿ نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٦ ﴾

هذه قضية شغلت كثيراً من المؤمنين حين يرون الكافرين بالله مُرفَّهين مُنعمين ، في يدهم المال والنفوذ ، في حين أن المؤمنين فقراء ، وربما تشكك البعض واهتز إيمانه لهذه المتناقضات .

ونقول لهؤلاء : لم تكن هذه صورة المؤمنين في الماضي ، إنهم سادوا الدنيا بعلومهم وثقافتهم وازدهرت حضارتهم على مدى ألف سنة من الزمان ، فلما تخلوا عن دينهم وقيمهم حل بهم ما هم فيه الآن .

لقد تقدم علينا الآخرون ؛ لأنهم أخذوا بأسباب الدنيا ، وينبغي علينا نحن المسلمين أن نأخذ أيضاً بهذه الأسباب ؛ لأنها من عطاء الربوبية الذي لا يُحرم منه لا مؤمن ولا كافر ، فَمَنْ أَحْسَنَهُ نَالَ ثَمَرَتَهُ وَأَخَذَ خَيْرَهُ .

قال سبحانه : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ [الشورى]
 والأسباب يد الله الممدودة لخلقها ، فَمَنْ رَدَّ يَدَ اللَّهِ إِلَيْهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَشْقَى فِي رَحَلَةِ الْحَيَاةِ .

وقد يكون تنعم هؤلاء مجرد ترف يجرهم إلى الطغيان ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام]

لذلك فالحق - تبارك وتعالى - يعالج هنا هذه المسألة :

﴿ اَيْحَسِبُونَ اَنْهُمْ يُنْصِرُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴾ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ..
 ﴿ (٥٦) [المؤمنون] اَيُظَنُّونَ اَنْ هَذَا خَيْرٌ لَهُمْ ؟ لَا ، بَلْ هُوَ اِمْهَالٌ
 وَاسْتِدْرَاجٌ لِيُزِدَادُوا طُغْيَانًا .

وفي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ اَمْوَالُهُمْ وَاَوْلَادُهُمْ
 اِنَّمَا يُرِيدُ اللّٰهُ اَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا .. ﴾ (٨٥) [التوبة]

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ .. ﴾ (٥٦) [المؤمنون] (بل) : تفيد
 الإضراب عما قبلها وإثبات ما بعدها ، إضراب عن مسألة تنعم هؤلاء ؛
 لأنها نعمة موقوتة وزائلة ، وهي في الحقيقة عليهم نقمة ، لكنهم
 لا يشعرون ، لا يشعرون أن هذه النعمة لا تعنى محبتهم ورضانا
 عنهم ، ولا يشعرون بالمكيدة وبالفتح الذي يُدبر لهم .

وسبق أن أوضحنا أن الله تعالى حين يريد الانتقام من عدوه يُمدّه
 أولاً ، وَيُوسِّعُ عَلَيْهِ وَيُعْطِي مَكَانَتَهُ ، حتى إذا أخذه كان أخذه مؤلماً
 وشديداً .

وقوله تعالى : ﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ .. ﴾ (٥٦) [المؤمنون]
 المسارعة ترد في كتاب الله على معانٍ : مرة يتعدى الفعل إلى ،
 مثل : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. ﴾ (١٣٣) [آل عمران] ومرة يتعدى
 بفي ، مثل : ﴿ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. ﴾ (٦١) [المؤمنون] فما الفرق بين
 المعنيين ؟

سارع إلى كذا : إذا كنت خارجاً عنه ، وتريد أن تخطو إليه خطىً
 عاجلة ، لكن إن كنت في الخير أصلاً وتريد أن ترتقي فيه تقول :
 سارع في الخير . فالأولى يخاطب بها مَنْ لم يدخل في حيز
 الخير ، والآخرى لمن كان مطروفاً في الخير ، ويريد الارتقاء .

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (٥٧)

الخشية : هي أشد الخوف ، والإنسان قد يخاف من شيء ، لكن يبقى عنده أمل فى النجاة ، ويتوقع من الأسباب ما ينقذه ويؤمن خوفه ، لكن حين تخاف من الله فهو خوف لا منفذ للأمل فيه ، ولا تهب فيه هبة تُشعرك بلطف .

ومعنى ﴿مُشْفِقُونَ﴾ (٥٧) [المؤمنون] الإشفاق أيضاً الخوف ، وهو خوف يُمدح ولا يُذم ؛ لأنه خوف يحمل صاحبه ويحُكِّه على تجنب أسباب الخشية بالعمل الصالح ، إنه إشفاق من الذنب الذى يستوجب العقوبة ، كالتميذ الذى يذاكر ويجتهد خوفاً من الرسوب ، وهكذا حال المؤمن يخاف هذا الخوف المثمر الممدوح الذى يجعله يأخذ بأسباب النجاة ، وهذا دليل الإيمان .

أما الإشفاق بعد فوات الأوان ، والذى حكاه القرآن عن المجرمين : ﴿وَرُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمَجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا ..﴾ (٤٩) [الكهف] فهذا إشفاق لا فائدة منه ؛ لأنه جاء بعد ضياع الفرصة وانتهاء وقت العمل ، فقد قامت القيامة ونُشرت الكتب ولا أمل فى النجاة إذن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٨)

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩)

نلاحظ فى هذه الآيات أن الحق سبحانه حدثنا عن الإشفاق والخشية ، ثم عن الإيمان بآيات الله ، ثم فى النهاية عن مسألة الشرك . وقد تسأل : لماذا لم يبدأ بالتحذير من الشرك ؟

نقول : لأن الشرك المراد هنا الشرك الخفى الذى يقع فيه حتى المؤمن ، والذى قال الله فيه : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف] فلا تظن أن الشرك فقط أن تجعل لله شريكا ، أو أن تسجد لصنم ، فمن الشرك شرك خفى دقيق يتسرب إلى القلب ويخالط العمل مهما كان صاحبه مؤمناً .

لذلك ، فالنبي ﷺ يُعلمنا الأدب فى هذه المسألة ، فيقول فى دعائه : « اللهم إني أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك »^(١) .

فالإنسان يشرع فى العمل ويخلص فيه النية لله ، ومع ذلك يتسرب إليه شئ من الرياء وتزيين الشيطان ؛ لذلك وصف النبي ﷺ الشرك الخفى بأنه أخفى من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء^(٢) .

كما أن الشرك الأكبر لا يتصور ممن هذه الصفات المتقدمة صفاته .

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف بن عبد الله أنه كان يقول : « اللهم إني أستغفرك مما تبت إليك منه ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ثم لم أف لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمت » .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٤٠٣/٤) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل فقال له من شاء الله أن يقول : وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلم » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ
أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (٦٠)

﴿يُؤْتُونَ . (٦٠)﴾ [المؤمنون] يعنى المال ، وقال بعدها : ﴿مَا آتَوْا .. (٦٠)﴾ [المؤمنون] حتى لا يجعل لها حداً ، لا العُشْر ولا نصف العُشْر ، يريد سبحانه أن يفسح لأريحية العطاء وسخاء النفس ، لذلك جاءت ﴿مَا آتَوْا .. (٦٠)﴾ [المؤمنون] هكذا مُبْهَمة حتى لا نظن أنها الزكاة ، ونعرف أن الله تعالى يفتح المجال للإحسانية والتفضل ، وهذا هو مقام الإحسان الذى قال الله تعالى عنه : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ (١٦) [الذاريات]

والمحسن : الذى يلزم نفسه من الطاعات فوق ما ألزمه الله ، لكن من جنس ما فرض الله عليه ، فإن كان الفرض فى الصوم شهر رمضان يصوم المحسن رمضان ويزيد عليه ؛ لذلك تجد الدقة فى الأداء القرآنى ، حيث يقول بعدها : ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) [الذاريات]

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ .. (٦٠)﴾ [المؤمنون] قالت عائشة : أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون فى الخيرات ، أخرجه أحمد فى مسنده (١٥٩/٦) ، ٢٠٥) ، والترمذى فى سننه (٣١٧٥) ، وابن ماجه فى سننه (٤١٩٨) ، واللفظ للترمذى .

وهذه أمور فوق ما فرض الله عليهم ، ولم يطلب منك أن تقوم الليل لا تنام ، لكن صَلِّ العشاء ونَمْ حتى الفجر ، وهذه المسألة واضحة في قوله تعالى بعدما : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (١٩) [الذاريات] ولم يقل (معلوم) لأن الآية لا تتكلم عن الحق المعلوم وهو الزكاة ، إنما عن الصدقة والتطوع فوق ما فرض الله .

والإيهام في ﴿ مَا .. ﴾ (٢٠) [المؤمنون] جاء أيضاً في قول الله تعالى : ﴿ فَغَشَّيْهِمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا غَشَّيَهُمْ ﴾ (٧٨) [طه] ولم يحدد مقدار الماء الذي غشَّيهم ، وترك المسألة مبهمه ليكون المعنى أبلغ ، ولتذهب الظنون في هَوْلِها كل مذهب .

لكن : ما داموا قد أعطوا ومدُّوا أيديهم للآخرين بالعطاء ، فلماذا يقول تعالى : ﴿ وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ .. ﴾ (٦٠) [المؤمنون]

نقول : لأن العبرة ليست بمجرد العمل ، إنما العبرة بقبول العمل ، والعمل لا يُقبل إلا إذا كان خالصاً لوجه الله لا يخالطه رياء ولا سمعة ، فهم إذن يعملون ويتجرَّون الإخلاص وأسباب القبول ويتصدَّق أحدهم بالصدقة ، بحيث لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ومع ذلك يخاف عدم القبول ، وهذه أيضاً من علامات الإيمان .

وكان ربك عز وجل يَغَارُ عليك أنْ تعمل عملاً لا تأخذ عليه أجراً ؛ لأنك إن رأيت الناس في شيء من العمل تركك الله وإياهم تأخذ منهم الجزاء ، فهذا إذن جَهْدٌ مُهْدَرٌ لا فائدة منه ، وهذه المسألة لا يرضاها لك ربك .

وفي الحديث القدسي : « الإخلاص سِرٌّ من أسرارى أودعته

قلب مَنْ أَحَبَبْتَ مِنْ عِبَادِي ، لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكْتُبُهُ ، وَلَا شَيْطَانٌ فَيُفْسِدُهُ ،^(١) .

والوجل : انفعال قسري واضطراب يطرأ على العضو من خوف أو خشية ، والخوف شيء يخيفك أنت ، أما الخشية فهي أعلى من الخوف ، وهي أن تخاف ممن يوقع بك أذى أشد مما أنت فيه .

ومن أهل التفسير مَنْ يرى أن الآية ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ ۖ ﴾ [المؤمنون ٦٠] جاءت في الرجل الذي يسرق ، والذي يزنّي ، والذي يشرب الخمر ، لكن قلبه وَجَلٌ من لقاء الله وخشيته ، فما يزال فيه بقية من بقايا الإيمان والحياء من الله تعالى . وقالوا : إن عائشة رضى الله عنها فهمت هذا من الآية^(٢) .

لكن هذا الفهم لا يستقيم مع قوله تعالى ﴿ يُؤْتُونَ ۖ ﴾ [٦٠] . [المؤمنون] أى : يؤتون غيرهم ، فهناك إذن مُؤْتٍ ومُؤْتَى له ، ولو أراد السرقة والزنى وشرب الخمر لقال : يَأْتُونَ .

فالمراد : يؤتون غيرهم ما عليهم من الحق ، سواء أكانت هذه الحقوق لله تعالى كالزكاة والكفارات والنذور والحدود ، أو كانت متعلقة بالعباد كالودائع والأمانات والعدالة فى الحكم بينهم .. الخ فيؤدى المؤمن ما عليه من هذه الحقوق ، وقلبه وَجِلٌ أَلَّا يصاحب الإخلاص عمله فلا يقبل .

(١) ذكره الغزالي فى « إحياء علوم الدين » (٣٧٦/٤) قال العراقي فى تخریجه : « رويناه فى جزء من مسلسلات القزويني مسلسلاً يقول كل واحد من رواة : سألت فلاناً عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمى عن عبد الواحد بن زيد عن حذيفة عن النبى ﷺ عن جبريل عن الله تعالى ، وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيري فى الرسالة من حديث على بن أبى طالب بسند ضعيف » .

(٢) سبق ذكر حديث عائشة وفهمها للآية صفحة ١٠٠٦٥ .

ثم يقول تعالى : ﴿ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ (٦٠) [المؤمنون] فالمؤمن يؤدي ما عليه ، ومع ذلك تراه خائفاً وجلالاً ؛ لأنه يثق في الرجوع إلى الله والوقوف بين يديه سبحانه ، وهو ربه الذي يُجازيه على قدر إخلاصه ، ويخاف أيضاً أن يفتضح أمره إن خالط عمله شيء من الرياء ؛ لأن ربه غيور لا يرضى معه شريكاً في العمل ، وهو سبحانه يعلم كل شيء ويحاسب على ذرات الخير وعلى ذرات الشر .

وهناك أعمال في ظاهرها أنها من الدين ، لكن في طيها شيء من الرياء ، وإن لم يدرك الإنسان به ، ومن ذلك قولهم : أفعل هذا لله ثم لك ، أو : توكلت على الله وعليك .. الخ ، فهذه العبارات وأمثالها تحمل في طياتها معاني الشرك التي ينبغي أن ننزه الله عنها ، فلا نعطف على الله تعالى أحداً حتى لا نشركه مع الله ، ولو عن غير قصد .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ (١٠٦) [يوسف] ويوم القيامة يطمئن أهل الإخلاص إلى الجزاء ، ويُفاجأ أهل الشرك والرياء بوجود الله تعالى ، ولم يكن عليّ بالهم حين عملوا : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُورْقًا حِسَابَهُ .. ﴾ (٣٩) [النور] إذن : ما دُمنا سنفاجأ بوجود الحق ، ولا شيء غير الحق ، فليكن عملنا للحق ، ولا شيء لغير الحق .

﴿ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ (٦١)

﴿ أُولَٰئِكَ .. ﴾ (٦١) [المؤمنون] أى : أصحاب الصفات المتقدمة ﴿ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. ﴾ (٦١) [المؤمنون] وفرق بين أسرع وسارع : أسرع يُسرِع يعنى : بذاته ، إنما سارع يسارع أى : يرى غيره

يسرع ، فيحاول أن يتفوق عليه ، ففيه مبالغة وحافز على المنافسة .
وسبق أن أوضحنا الفرق بين سارع إلى وسارع في ، فمعنى ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. ﴾ (٦١) [المؤمنون] أنهم كانوا في حيز الخيرات ومظروفين فيه ، لكن يحاولون الارتقاء والازدياد من الخيرات للوصول إلى مرتبة أعلى .

وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ (٦١) [المؤمنون] هل المسارعة هي علة أنهم سبقوا إلى الخيرات ، أم أن سبقهم إلى الخيرات علة المسارعة ؟

في اللغة يقولون : سبب ومُسبب ، وشرط وجزاء ، وعلة ومعلول . فحين تقول : إن تذكر تنجح ، فالمذاكرة سبب في النجاح ، لكن هل سبقت المذاكرة النجاح ؟ لا ، بل وجد النجاح أولاً في بالك ، واستحضرت مميزاته وكيف ستكون منزلتك في المجتمع وبين الناس ، وبذلك وجد عندك دافع وخاطر ، ثم أردت أن تحققه واقعاً ، فذاكرت للوصول إلى هذا الهدف .

إذن : فكل شرط وجواب : الجواب سبب في الشرط ، والشرط سبب في الجواب ، الجواب سبب في الشرط دافعاً له ، والشرط سبب في الجواب واقعاً وتنفيذاً ، فالنجاح وجد دافعاً على المذاكرة ، والمذاكرة جاءت واقعاً ليتحقق النجاح .

وكذلك في ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ (٦١) [المؤمنون] فالمعنى : القصد أن يسبق فسارع ، سارع في الواقع ليسبق بالفعل ، لكن السبق قبل المسارعة : لأن الذهن متهيئ له أولاً وحقائقه واضحة .

إذن : الشرط والجزاء ، والسبب والمسبب ، والعلة والمعلول تدور بين دافع هو الجواب ، وواقع هو الشرط .

ومعنى : ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون] يعنى : هم أهل لهذا العمل وقادرون عليه ، كما لو طلبتُ منك شيئاً فتقول لى : هذا شيء صعب فأقول لك : وأنت لها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا نَكْفِ تَقَسَّامًا إِلَّا أَوْسَعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن المسارعة والمنافسة بين أنها على قَدْرِ الوُسْعِ والطاقة ، وأنه سبحانه ما كلفك إلا بعد علمه بقدرتك ، وأنت تسع هذا التكليف ، فإياك أن تنظر إلى الحكم فتقول : أنا أسعه أو لا أسعه ، لكن انظر إلى التكليف : ما دام ربك قد كلفك فاعلم أنه فى وَسْعِكَ ، وحين يعلم منك ربك عدم القدرة يُخَفِّفُ عنك التكليف دون أن تطلب أنت ذلك . والامثلة على تخفيف التكاليف واضحة فى الصلاة والصوم والحج .. إلخ .

والآن نسمع مَنْ يقول : لم تُعَدِّ الطاقة فى هذا العصر تسع هذه التكاليف ، فالزمن تغيّر ، والأعمال والمسئوليات كثرت ، إلى غير ذلك من هذه الأقوال التى يريد أصحابها التنصّل من شرع الله . ونقول : ما دام التكليف باقياً فالوُسْعُ باقٍ ، والحق - سبحانه وتعالى - أعلم بوسْعِ خلقه وطاقاتهم .

إذن : أنا أنظر أولاً إلى التكليف ، ثم أحكم على الوُسْعِ من التكليف ، ولا أحكم على التكليف من الوُسْعِ .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٦٢) [المؤمنون] المراد هنا كتاب أعمالنا^(١) الذى سَجَّلَ فيه كل شىء قدمته الأيدي ، لكن : ما الحكمة من تسجيل الأعمال ؟ وهل يُكذَّبُ العباد ربهم عز وجل فيما سَجَّلَ عليهم ؟

قالوا : الحكمة من تسجيل الأعمال أن تكون حجة على صاحبها ، وليعلم أن الله ما ظلمه شيئاً ؛ لذلك سيقول له ربه : ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ .. ﴾ (٦٤) [الإسراء] يعنى : بنفسك حتى تُقام عليك الحجة ، ولا يكون عندك اعتراض .

ثم قال بعدها : ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٦٢) [المؤمنون] لأن الظلم لا يتصور من الحق - سبحانه وتعالى - فالظلم نتيجة الحاجة ، وأنت تظلم غيرك حين تريد أن تنتفع بأثر الغير فى الخير زيادة عما عندك ، فالظلم إذن نتيجة الحاجة ، والحق سبحانه هو المعطى ، وهو الغنى الذى لا حاجة له إلى أحد ، فلماذا يظلم ؟

كذلك قد يظلم الضعيف لياخذ ما فى يد غيره ليسد حاجته أو شهوته ، ولو كان قوياً لكفى نفسه بمجهوده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلُ

مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ ﴾ (٦٣)

(١) ذكر القرطبي فى تفسيره (٤٦٦٧/٦) أقوالاً أخرى فى المراد بالكتاب فى الآية فقال : « وقيل : عنى اللوح المحفوظ ، وقد أثبت فيه كل شىء » ، فهم لا يجوزون ذلك . وقيل : الإشارة بقوله ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ .. ﴾ (٦٢) [المؤمنون] القرآن ، فإله أعلم . وكل محتمل ، والأول أظهر ، يقصد أنه كتاب إحصاء أعمال العباد ، وهو ما ذهب إليه فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله تعالى .

﴿بَلْ .. (٦٣)﴾ [المؤمنون] حرف يدل على الإضراب عن الكلام السابق ، وإثبات الحكم للكلام بعدها . والغمرة كما قلنا : هي جملة الماء الذي يعلو قامة الإنسان حتى يمنع عنه التنفس ويحرمه الهواء ، وهو أول مقوم من مقومات الحياة .

فالإنسان يصبر على الطعام شهراً ، ويصبر على الماء من ثلاثة أيام لعشرة ، إنما لا يصبر على النفس إلا بمقدار ما يحتويه الصدر من الهواء ، فإن كان كانت رثك سليمة تتسع لأكبر كمية من الهواء ، وتستطيع أن تتحمل عدم التنفس لفترة أطول ، أما إن كانت الرئة مغلقة ، فإنها لا تتسع لكمية كبيرة ، وسرعان ما ينتهي الهواء ويموت الإنسان .

ومن التنفس جاءت المنافسة ، كما في قوله تعالى : ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾ [المطففين] ثم استعملت لكل عمل تنافس فيه غيرك ؛ لأن الهواء هو العنصر الأساسي في الحياة .

لذلك الخالق - عز وجل - حينما خلق هذه البنية الإنسانية جعل لها نظاماً فريداً في وقودها وغذائها على خلاف صنعة البشر ، فلو منعت البنزين مثلاً عن السيارة توقفت ، أما صنعة الخالق - عز وجل - فالجسم يأخذ حاجته من الطعام والماء ، ثم يختزن الباقي لوقت الحاجة ، وقد علم الحق سبحانه شهوتك وحبك للطعام والشراب ، وأخذك منهما فوق حاجتك ، فإن غاب عنك الطعام تغذى جسمك من هذا المخزن الرباني .

لذلك نرى البعض حين يتأخر عنه الطعام يقول : نفسي انصدت عن الأكل ، والحقيقة أنه أكل فعلاً ، وتغذى من مخزون الطعام والشراب في جسمه .

ومن حكمة الله أن الطعام الفائض يُخْتزن في صورة واحدة هي الشحم ، الذى يتحول تلقائياً إلى أى عنصر آخر يحتاجه الجسم ، فإذا انتهى الشحم تغذى الجسم على اللحم والعضلات ، ثم على العظام ، وهى آخر مخزن للقوت فى جسم الإنسان ؛ لذلك جاء فى قصة زكريا عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْئاً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) ﴾ [مريم]

أما الهواء فليس له مخزن إلا بقدر ما تتسع له الرئة ، فإذا نفذ منها الهواء بشهيق وزفير فلا حيلة فيه ، ومن رحمة الله بعباده ألا يُمْلِك الهواء لأحد ، فقد يملك الطعام وربما يملك الماء ، أما الهواء الذى يحتاجه فى كل نفس ، فقد جعله الله مُلْكاً للجميع ، حتى لا يمنعه أحد عن أحد ؛ لأنك لا تستطيع أن تحتال له كما تحتال للطعام وللشراب ، ولو غضب عليك مالك الهواء لمت قبل أن يرضى عنك .

ونلاحظ هنا أن الغمرة لا تحتويهم هم ، إنما تحتوى القلوب : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ .. (٦٣) ﴾ [المؤمنون] وهذه بلوى أعظم ؛ لأن القلب محل لحصيلة المدركات التى يأخذها العقل ، ويُميز بينها ويختار منها ويرجع ، ثم تتحول هذه المدركات إلى عقائد تستقر فى القلب وعلى هديها تسير فى حركة الحياة .

لذلك إن كان القلب نفسه فى الغمرة فالمصيبة أشدّ والبلاء أعظم ؛ لأنه مُستودع العقائد والمبادئ التى تُنير لك الطريق .

والقلب هو محل نظر الله إلى عباده ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا .. (١٧٩) ﴾ [الاعراف]

وقال سبحانه : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ .. (٧) ﴾ [البقرة] لأنهم أحبوا

الكفر واطمانوا إليه ، ولأنه سبحانه ربٌ متولٌّ ربوبية الخلق ، يعطيهم ما أرادوا حتى إن كان كفراً ؛ لذلك ختم على قلوبهم حتى لا يدخلها إيمان ولا يخرج منها كفر ؛ لأنهم عشقوا الكفر وأحبوه .

لذلك نقول لأهل المصائب الذين يُصابون في غَالٍ أو عزيز فيحزنون عليه ، ويبالغون بإقامة المآتم والسرادات ، ويطعمون ذكري الخُميس والأربعين وغيرها ، وربما كان الابن عاقاً لوالديه في حياتهما ، فإذا مات أبوه أو أمه أقام المآتم وشغل الناس ، وهو كما قال الشاعر :

لَا أَعْرِفُكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَغْدِبُنِي وَفِي حَيَاتِي مَا بَلَّغْتَنِي زَادًا
أو الأم التي فقدت وحيدها مثلاً ، فتعيش حزينه مُكْدرة ، وكأنها عشقت الحزن وأحبته ، نحذر هؤلاء وننصح كل حزين أن يُفلق باب الحزن بمسامير الرضا والتسليم ، فالحزن إن رأى بابه مُوارباً دخل وظلَّ معك ولازمك .

وسبق أن وضعنا أن الحق سبحانه لا يرفع بلاءً عن عبده حتى يرضى به ، ولنا القدوة في هذه المسألة بأبينا إبراهيم - عليه السلام - حين ابتلاه ربه بذبح ولده في رؤيا رآها ، واعتبرها هو تكليفاً ، ورضى بقدر الله وسلم لأمره ، ثم أخبر ولده ووحیده بهذه الرؤيا حتى لا يحرمه هذا الأجر ولا يأخذه على غرة ، فيتغير قلبه عليه :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ^(١) لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾

[الصفحات]

(١) تله : ألقاه على وجهه على الأرض . [القاموس القويم ١/ ١٠١] .

فبعد أن رضى إبراهيم وولده بقضاء الله رفع عنهما البلاء ، وجاءهما الفداء من الله لإسماعيل ، بل وزاده بأن بشره بولد آخر هو إسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، أجيال متعاقبة جاءت فضلاً من الله وجزاءً على الرضا بقضائه وقدره ، وما أحسن ما قال الشاعر^(١) فى هذا الموقف :

سَلَّمَ لِرَبِّكَ حُكْمَهُ فَلَحْكَمَهُ يَقْضِيهِ حَتَّى تَسْتَرِيحَ وَتَقْنَمَا
وَإِذْكَرُ خَلِيلَ اللَّهِ فِي ذَبْحِ ابْنِهِ إِذْ قَالَ خَالِقُهُ فَلَمَّا أَسْلَمَا

إذن : إذا كانت القلوب نفسها فى غمرة ، فقد خرب جهاز العقائد والمبادئ ، وينشأ عن خرابه خراب حركة الحياة وانحراف السلوك . وقد أخذ القلب هذه الأهمية : لأنه معمل الدم ، ومصدر سائل الحياة ، فإن فسد لا بد أن ينضج على باقى الجوارح ، فتفسد هى الأخرى ، ولو كان القلب صالحاً فلا بد أن ينضج صلاحه على الجوارح كلها فتصلح ، كما جاء فى الحديث الشريف :

« ألا إن فى الجسد مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ »^(٢)

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ (٦٣) [المؤمنون] يعنى الأمر لا يتوقف بهم عند مسألة العقائد ، إنما لهم أعمال أخرى كثيرة سيقعون فيها ، فالحق سبحانه لا يذكر لهم إلا قمم المخالفات ونماذج منها ، إنما فى علمه تعالى وفى لوحه المحفوظ أنهم سيفعلون كذا ويفعلون كذا ، وإن كانوا هم أنفسهم لا يعلمون أن ذلك سيحدث منهم لكن ربهم - عز وجل - يعلم بطلاقة القدرة ما كان وما سيكون .

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) . وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩)

من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

ومن عجائب قدرة الله أنه سبحانه يحكم على عبده الكافر أنه سيعمل كذا وكذا ، ومع ذلك لم يعاند أحد الكفار ، فيقول : إن الله حكم على بكذا ، ولكنى لن أفعل فيكون حكم الله عليه غير صحيح ؛ لأن الحق سبحانه لا يتحكم فيما يجريه علينا فحسب ، وإنما فى اختيار العبد ومراده ، مع أن العبد حرٌّ فى أن يفعل أو لا يفعل .

وهذه القضية واضحة فى قوله تعالى عن أبى لهب : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ ﴾ [المسد] فقلوه : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ۚ ۞ ﴾ [المسد] تفيد المستقبل ، فقد حكم الحق سبحانه عليه أنه سيكون فى النار ، وكان أبو لهب فى أمة ومَجْمَع من القوم الكافرين ، ومنهم مَنْ آمن فمن يضمن أن يسمع أبو لهب هذا الحكم ومع ذلك لا يؤمن ويموت كافراً ؟

ثم ألم يَكُنْ بإمكان هذا (المفل) أن يقف على ملا ويقول : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ويدخل فى الإسلام ، فيكون الحكم فيه غير صحيح ؟ لكن هذا كلام الله وحكمه القديم لا يُرد ولا يخالفه أحد مهما كان أمره فى يده وهو قادر على الاختيار ، هذا من طلاقة قدرة الله فى فعله وعلى خلقه فى أفعالهم .

فالمعنى : ﴿ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ [المؤمنون] حكم لا يُرد ولا يُكذَّب ، حتى وإن أخبر به صاحبه ؛ لأن علم الله تعالى مستوعب لما كان ولما سيكون ، وكان الحق سبحانه يقول : إن طلاقة القدرة ليست فيما أفعله فحسب ، إنما فيما يفعله غيرى ممَّنْ أعطيتُه حرية الاختيار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ حَقَّ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخِرُّونَ ﴾ (٦٤)

يعنى : بعد أن أشركوا بالله وكفروا به ، وبعد أن أصبحت قلوبهم فى غمرة وعمى إذا مسَّهم شيء من العذاب يجارون ويصرخون ، ومن ذا الذى يطبق لفحة أو رائحة من عذاب الله ؟

ومعنى ﴿ أَخَذْنَا .. ﴾ (٦٤) [المؤمنون] كلمة الأخذ لها مجال واسع فى كتاب الله ، والأخذ : هو الاستيلاء بعنف على شيء هو لا يحب أن تستولى عليه ، والأخذ يُوحى بالعنف والشدة ، بحيث لا يستطيع المأخوذ الإفلات مهما حاول .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ ﴾ (٤٧) [القمر] يعنى : أخذاً شديداً يتملص منه فلا يستطيع الفكك .

وقوله : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ .. ﴾ (٦٧) [هود]

ويقول : ﴿ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١٠٢) [هود]

ومعنى : ﴿ مُتْرَفِيهِمْ .. ﴾ (٦٤) [المؤمنون] من الترف وهو التنعيم ؛ لأن الحياة تقوم على ضروريات تستبقى الحياة وكماليات تُسعدُها وتُرَفِّهها وتُثريها ، فالمترف من عنده من النعيم فوق الضروريات ، يقال : ترف الرجل يترف من باب فرح يفرح ، وأترفته النعمة إذا أطفته ، وأترفه الله يعنى : وسَّعَ عليه النعمة وزاده منها . وعلى قدر الإتراف يكون الأخذ أبلغ والألم أشد .

وسبق أن ذكرنا قول الله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ .. ﴾ (٤٤) [الانعام] يعنى : من منهج الله ، لم نُضيق عليهم إنما : ﴿ فَتَحْنَا

عَلَيْهِمْ اَبْوَابُ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ اِذَا فَرَّحُوا بِمَا اَوْتُوا اخَذْنَاهُمْ بِغْتَةٍ فَاِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعْ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِيْنَ ظَلَمُوا .. ﴿٤٥﴾ [الانعام]

فهنا تكون النكاية اشدَّ ، والحسرة اعظم .

والكلام هنا عن كفار قريش ، فكيف اخذهم الله وهم فى ترف من العيش ، حيث تصبُّ عندهم كل خيرات الجزيرة حتى عاشوا عيشة الترف والتنعيم ؟

اخذهم الله حال ترفهم بالقَحْطِ والسنين ؛ لذلك لما رآهم النبى ﷺ اُتُرفوا بالنعمة وطفؤا بها قال : « اللهم اشدّد وطأتك على مُضِر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف »^(١)

واستجاب الله تعالى دعاء نبيه ، فأصابهم الجذب والقَحْطُ حتى أكلوا الجيف و (العِلْهُز)^(٢) وهو شعر الذبيحة أو وبرها المخلوط بدمها بعد أن جَفَّ وتجمد تحت حرارة الشمس ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ اِذَا اخَذْنَا مَتْرَفِهِمْ بِالْعَذَابِ .. ﴾ ﴿٦٤﴾ [المؤمنون]
وقوله تعالى : ﴿ اِذَا هُمْ يَجَارُونَ ﴾ ﴿٦٤﴾ [المؤمنون]

يصرخون ويضجّون ، فهذا أبو سفيان بعد أن أكلوا الجيف والفضلات يقول للنبي ﷺ : يا محمد ألسنت رحمة للعالمين ؟ إذن :

(١) عن أبى هريرة أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول : « اللهم اشدّد وطأتك على مُضِر . اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف » أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) وأحمد فى مسنده (٤٧٠ / ٢ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) .

(٢) العِلْهُز : دم يابس يُدَقُّ به أوبار الإبل فى المجاعات ويؤكّل . قال ابن شميل :

وإن قرى قحطان قرّف وعلّهُز فاقبح بهذا ويح نفسك من فعل

[لسان العرب - مادة : علّهُز] .

فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يُفَرِّجَ عَنَّا ، فدعا رسول الله ﷺ ربه حتى فرج عنهم ^(١) .

أو : يراد بالعذاب هنا ما حدث لهم يوم بدر ، حيث أذلهم الله ، فقتل منهم مَنْ قُتِلَ ، وأسر مَنْ أُسِرَ ، وانهارت سيادتهم وضاعت هيبتهم ، وقد كانوا يُعَذِّبُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَيَقْتُلُونَهُمْ ، ويقيمونهم في حرِّ الشمس ويضعون الأحجار الكبيرة فوق بطونهم ، حتى أنزل الله تعالى في هذه الحالة القاسية التي يعانيتها المؤمنون : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ٤٥ ﴾ [القمر] فيستقبلون الآية بتعجب : حتى يقول عمر : أيُّ جمع هذا الذي سيُهْزَمُ ، فليس هناك أيُّ بادرة لنصر المؤمنين ، فلما جاء يوم بدر ورأى المؤمنون ما حاق بالكافرين قال عمر نفسه : صدق الله ، سيُهْزَمُ الجمع وقد هُزِمَ .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ٤٦ ﴾ [المؤمنون] يجأرون : يصرخ بصوت عالٍ ، والإنسان لا يصرخ إلا إذا كان في محنة لا تقدر أسبابه على دفعها ، فيصرخ طلباً لمن ينجده ، ويرفع صوته ليُسمع كل مَنْ حوله ، كما يقولون (يجعر) .

والجؤار مثل الخوار يعنى : يصيحون مثل العجول بعد ما كانوا رجالاً وسادة وطفاة ، فلماذا لم تظلوا سادة ؟ لماذا تصرخون الآن ؟ وكان المنتظر منهم في وقت الشدة أن يتماسكوا ، وأن يتجلدوا حتى لا يشمت بهم العبيد والفقراء الذين آمنوا ، كما يقول الشاعر ^(٢) :

(١) عن ابن عباس أنه قال : جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز - يعنى الوبر والدم - فأنزل الله ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَمَّا اسْتَكْبَرُوا رَبَّهُمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ٧٥ ﴾ [المؤمنون] ذكره ابن كثير في تفسيره (٢٥١/٣) وعزاه لابن أبي حاتم .

(٢) الشاعر هو : أبو ذؤيب ، خويلد بن خالد الهذلي (توفي ٢٧ هـ) .

وتجلدني للشامتين أريهمو أننى لريب الدهر لا اتضعض^(١)
 لكن ، هيهات فقد حاق بهم العذاب ، ولن يخدعوا أنفسهم الآن ،
 فليس أمامهم إلا الصراخ يطلبون به المغيث والمنجى من المهالك .
 ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا تَحْشُرُوا الْيَوْمَ أَنْكُمْ مِّنَّا لَا تُنْصَرُونَ ﴾ (٦٥)

يرد عليهم الحق سبحانه : ﴿ لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ .. ﴾ (٦٥) [المؤمنون]
 لأن من يجار ينادى من ينصره وأنتم لن تنصروا ﴿ إِنَّكُمْ مِّنَّا لَا
 تُنْصَرُونَ ﴾ (٦٥) [المؤمنون] لا تنصرون من جهتنا : لأننى أنصر
 أوليائى ، وأنصر رسلى ، وأنصر من ينصرنى ، فاقطعوا الظن فى
 نصرى لكم : لأننى أنا الذى أنزلت بكم ما جعلكم تجارون بسببه ،
 فكيف أزيله عنكم ؟

وفى موضع آخر يتكلم الحق سبحانه عن أهل الكفر الذين
 تمالئوا عليه ، وشجع بعضهم بعضاً على التجرد على القرآن وعلى
 النبى ﷺ ، ويصفقون لمن يخوض فى حقهما : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا
 وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ (٢١) وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ
 الْجَحِيمِ (٢٣) وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مُسْتَوْلُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ
 الْيَوْمَ مُسْتَلِمُونَ (٢٦) [الصافات]

(١) التضعض : الخضوع والتذلل . وفى الحديث : ما تضعض امرؤ لآخر يريد به عرض
 الدنيا إلا ذهب ثلثا دينه يعنى : خضع وذل . والتجلد : إظهار الجلد وهو التصبر والشدة .
 [لسان العرب - مادتا : ضمع ، جلد]

(٢) قال النعمان بن بشير : يعنى بأزواجهم أشباههم وأمثالهم . وقال عمر بن الخطاب : يجيء
 أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع
 أصحاب الخمر . [تفسير ابن كثير ٤/٤]

إذن : لا تجاروا لانكم لن تُنصروا مِنَّا ، وكيف ننصركم بجواركم هذا ، وقد انصرفتم عن آياتي ؟

﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ

أَعْقَابِكُمْ تَنْكُصُونَ ﴾ (٦٦)

كيف تستغيثون بالله وتجارون إليه وانتم تلقى عليكم آياته تشرح لكم وتثبت لكم وجود الله بالآيات الكونية ، وتثبت لكم صدق الرسول بالمعجزات ، وتحمل لكم منهج الله في الآيات حاملة الأحكام ، ولكنكم عميتم عن ذلك كله .

ومعنى ﴿ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكُصُونَ ﴾ (٦٦) [المؤمنون] العقب : مؤخرة القدم ، فبدل أن يمشى إلى الامام كما خلقه الله وجعل له كشافات يُبصر بها الطريق ، ويهتدى إلى موضع قدميه ، إذا به يمشى للخلف على عَقْبِهِ ، وكانهم أخذوا أَخْذاً غَيْرَ عندهم دولا ب السير ، لماذا ؟ لانهم عَمُوا عن أسباب الهداية ، فصاروا يتخبطون في متاهات الحياة على غير هدى ، كَمَنْ يسير بظهره لا يعرف مواقع قدميه ، وهكذا فعلوا هم بأنفسهم .

وهذا التراجع يسمونه في قيادة السيارات (مارشادير) ، ويحتاج فيه الإنسان لمن يُوجِّهه ويرشد حركته يمينا أو شمالا ؛ لانه لا يرى .
فالمعنى : لا تَلُمُ إلا نفسك حيث حرمتها من أسباب الهداية ، فبعد أن جاءتك وأصبحت بين يديك أغضت عنها عينيك .

وفي موضع آخر قال سبحانه عن الشيطان : ﴿ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ .. ﴾ (٤٨) [الأنفال]

﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ (٦٧)

مادة : كبر تأتي بكسر الباء للدلالة على العمر تقول : كبر فلان .
يعنى : كان صغيراً ثم كبر ، ويضم الباء للشيء المعنوى وللقيم ،
كما فى قوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ... ﴾ (٥) [الكهف]
يعنى : عظمت .

ومعنى الاستكبار أفتعال الكبر وطلبه ، مثل : استقهم يعنى : طلب
الفهم ، فى حين هو ليس كبيراً فى ذاته ، فهو محتاج إلى غيره .
فالكبير فى ذاته مَنْ تكون عنده وتتوفر له فى ذاته مقومات الحياة
وضرورياتها وترفها ، لا يستمدها من أحد .

لكن الإنسان ضروريات حياته ، وأسباب ترفه موهوبة له من
غيره ، فلا يصح له أن يتكبر ، فمن أراد أن يتكبر فليتكبر بشيء
ذاتى فيه من صحة أو مال أو سلطان ... الخ ، وهذه كلها أمور
موهوبة لك ، فالصحيح قد يصبح سقيماً ، والغنى قد يصبح فقيراً .

لذلك ، فالكبرياء لله تعالى وحده ؛ لأنه الواهب للغير ، والمتفضل
على الخلق بما يمكن أن يتكبروا به ، ومن صفات جلاله وكماله
سبحانه (المتكبر) ؛ لأنه سبحانه رب الخلق أجمعين ، ومن مصلحة
الخلق أن يكون المتكبر هو الله وحده ، حتى لا يرفع أحد رأسه على
خلقه ويتكبر عليهم .

وهكذا يحمى الحق سبحانه خلقه من خلقه ، فإن تكبر عليك
ربك ، وأجرى عليك قدراً ؛ لأنك فعلت شيئاً وأنت واحد ، فاعلم أنه
يتكبر على الآخرين جميعاً وهم كثيرون ، إن فعلوا بك هذا الشيء ،
إذن : فصفة الكبرياء لله عز وجل فى صالحك .

ومثلنا لذلك ، والله المثل الأعلى : من مصلحة الأسرة ألا يكون لها إلا
كبير واحد يرجع إليه ، ومن أقوال العامة (اللى ملوش كبير يشتري له
كبير) لأنه الميزان الذى تستقيم به الأمور ويُسِير دفة الحياة .

وقلنا : إن من أسمائه تعالى (الكبير) ولا نقول : الأكبر مع أنها صيغة مبالغة ، لماذا ؟ لأن أكبر صيغة مبالغة عندنا نحن البشر ، نقول : هذا كبير وذاك أكبر ، وهذا قوى وذاك أقوى ، ولا يقال هذا فى صفته تعالى لأنك لو قلّت : الله أكبر لكان المعنى أنك شركت معه غيره ، فهو سبحانه أكبر وغيره كبير ، لذلك لا تُقال : الله أكبر إلا فى النداء للصلاة .

إذن : المستكبر : الذى يطلب مؤهلات كبر وليس لذاتيته شيء من هذه المؤهلات ، والإنسان لا ينبغي له أن يتكبر إلا إذا ملك ذاتيات كبره ، والمخلوق لا يملك شيئاً من ذلك .

ومعنى ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ ۖ ﴾ (٦٧) [المؤمنون] الهاء فى (به) ضمير مبهم ، يُعرف بمرجعه ، كما نقول : جاءنى رجل فأكرمته ، فالذى أزال إبهام الهاء مرجعه إلى رجل . وفى الآية لم يتقدم اسم يعود عليه الضمير ، لكن الكلام هنا عن الرسول الذى أرسل إليهم ، والقرآن الذى أنزل عليهم معجزة ومنهاجاً ، إذن : لا يعود الضمير إلا إلى واحد منهما .

أو : أن الضمير فى (به) يعود إلى بيت الله الحرام ، وقد كان سبباً لمكانة قريش ومنزلتهم بين العرب ، وأعطاهم وضْعاً من السيادة والشرف ، فكانوا يسIRON فى رحلات التجارة إلى اليمن وإلى الشام دون أن يتعرض لهم أحد ، فى وقت انتشر فيه بين القبائل السلب والنهب والغارة وقطع الطريق .

وما كانت هذه المنزلة لتكون لهم لولا بيت الله الحرام الذى يحجّه العرب كل عام ، وخدمته وسدائنه فى أيدي قريش ؛ لذلك استكبروا به على الأمة كلها ، ليس هذا فقط ، إنما تجرأوا أيضاً على البيت .

ويقول تعالى بعدها : ﴿ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ (٦٧) [المؤمنون] السامر : الجماعة يسمرون ليلاً ، وكانوا يجتمعون حول بيت الله ليلاً يتحدثون في حق النبي ﷺ ، يشتمونه ويخوضون في حقه ، وفي حق القرآن الذي نزل عليه ^(١) .

وليتهم يسمرون عند البيت بالخير إنما بهجر ، والهجر هو فحش الكلام في محمد ﷺ وفي القرآن .

فأمر هؤلاء عجيب : كيف يفعلون هذا وهم في رحاب بيت الله الذي جعل لهم السيادة والمنزلة ؟ كيف يخوضون في رسول الله الذي جاء ليظهر هذا البيت من الأصنام ورجسها ؟ إنه سوء أدب مع الله ، ومع رسوله ، ومع القرآن ، يصدق فيه قول الشاعر :

أَعْلَمُهُ الرَّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي
وَكَمْ عَلِمْتُهُ نَظْمَ الْقَوَافِي فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةَ هَجَانِي

لقد استكبر هؤلاء على الأمة كلها بالبيت ، ومع ذلك ما حفظوا حرمة ، وجعلوه مكاناً للسمّ والهجر والسفّه والطيش ، ولكل ما لا يليق به ، فالقرآن عندهم أساطير الأولين ، ومحمد عندهم ساحر وكاهن وشاعر ومجنون .. وهكذا .

والحق - سبحانه وتعالى - يُنبِّهكم إلى أن ضروريات حياتكم هبةً منه سبحانه وتفضل ، فحينما جاءكم أبرهة ليهدم هذا البيت العتيق ، وينقل هذه العظمة وهذه القداسة إلى الحبشة ، ولم يكن لكم طاقة لردّه ولا قدرة على حماية البيت ، فلو هدمه لضاعت هيبتكم

(١) قاله عبد الله بن عباس وغيره ، فيما نقله عنه القرطبي في تفسيره (٤٦٧١/٦) .

وسيادتكم بين القبائل ، ولتجراوا عليكم كما تجراوا على غيركم ، لكن حمى الله بيته ، ودافع عن حرماته ، حتى إن الفيل نفسه وعى هذا الدرس ، ووقف مكانه لا يتحرك نحو البيت خاصة ، ويوجهونه فى أى ناحية أخرى فيسير .

وَيُرَوَّى أَنَّ أَحَدَهُمْ^(١) قَالَ لِلْفِيلِ يَخَاطِبُهُ : اَبْرَكَ مُحَمَّدٌ وَارْجِعْ رَاشِدًا - يَعْنِي : اَنْفِدْ بِجُلْدِكَ ؛ لِأَنَّكَ فِي بِلَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، وَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ^(٢) :

حُبِسَ الْفِيلُ بِالْمَغْمَسِ حَتَّى صَارَ يَحْبُو كَأَنَّهُ مَعْقُورٌ^(٣)

وهكذا ردهم الله مقهورين مدحورين ، وحفظ لكم البيت ، وأبقى لكم السيادة .

لذلك لاحظ الانتقال من سورة الفيل إلى سورة قريش ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۚ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل] يعنى : مثل التبن والفتات الذى تذروه الرياح .

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان بمكة . أخرجه البيهقى فى (دلائل النبوة) ، ١/ ١٢٥ . قال محققه : الخير فى سيرة ابن هشام (٥٩/١) يستطعمان ، الناس . ونقله الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (١٧٤/٢) .

(٢) هو : أمية بن أبى الصلت بن أبى ربيعة .

(٣) المغمس : موضع قريب من مكة . والمعقور : المنحور ، أى كأنهم قطعوا إحدى قوائمه ثم نحروه ، وهو للإبل . [انظر : لسان العرب - مادة : عقر]

ثم يقول في أول قريش : ﴿لَا يَلْفَ قَرِيشَ ۚ﴾ [قريش] يعني ما حلّ بأصحاب الفيل ، فاللام في (لا يلف) لام التعليل ، يعني : حلّ ما حلّ بأصحاب الفيل لتألف قريش ما اعتادته من رحلة الشتاء والصيف ﴿إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۚ﴾ [قريش] وما دام أن الله تعالى قد حماكم وحمى لكم البيت ، وحفظ لكم السيادة كان ينبغي عليكم أن تعبدوه وحده لا شريك له ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ﴾ [قريش] الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۚ ﴿٤﴾

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ
ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ۚ﴾

في هذه الآية والآيات بعدها يريد - سبحانه وتعالى - أن يوبّخهم بعدة أمور واحد بعد الآخر .

أولها : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ۚ﴾ [المؤمنون] فالاستفهام هنا للتوبيخ وللتقريع : ماذا جرى لهؤلاء ؟ أفلم يعقلوا القول الذي جاءهم في القرآن ، وهم أمة الفصاحة والبلاغة والبيان ، وأمة القول بكل فنونه حتى أقاموا له المواسم والمعارض وعلّقوه على الجدار ؟

لذلك لا يُعقل ألا تفهموا القرآن ، وقد جاءكم بأسلوب على مستوى أعلى من البلاغة والفصاحة ، لا بُدَّ أنكم فهمتموه ووعيتُم ما فيه ، بدليل قولكم : ﴿لَوْ لَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف]

وهكذا الكذاب يسرقه طبعه ، وينمّ منطقته عما في ضميره ،

فاعترضكم ليس على القرآن إنما على محمد ؛ لأنه فقير من أوسط القوم ، فالمسألة - إذن - منازعة سيادة وسلطة زمنية ، لكن ألم يدرك هؤلاء أن محمداً ﷺ ما جاء ليسلبهم سلطتهم ، أو يعلو هو عليهم ، إنما جاء ليحكمهم بمنهج الله ، ويتحمل هو الأذى والتعب والمشقة في سبيل راحتهم وسعادتهم ؟

لقد جاء النبي ﷺ ليأخذ الحكم ويحمل منهج الله تكليفاً لا تشريفاً ، بدليل أنه عاش في مستوى أقل منكم ، فلا ترى رسول الله إلا أقلهم طعاماً وأقلهم شرباً ، أقلهم لباساً وأثاثاً ، حتى أقاربه كانوا فقراء ، ومع ذلك حرّم عليهم الزكاة التي أباحها لعامة المسلمين الفقراء ، كذلك يرث الناس وهم لا يرثون .

وبعد ذلك كله تقولون : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١) [الزخرف] يبدو أنكم ألفتم العبودية للعظماء وللجبابرة ، ألفتم العبودية لغير الله ، وعزّ عليكم أن يحرركم الله من هذه العبودية على يد رجل منكسر فقير منكم ، جاء ليصلحكم ، ويخرجكم من العبودية للمخلوق إلى العبودية للخالق عز وجل .

ألم يقل أحد رؤوس الكفر عن القرآن : « والله إن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعلَى عليه »^(١) .

إذن : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ..﴾ (٦٨) [المؤمنون] توبيخ ، لأنهم فهموا القرآن ، لكن حسدوا محمداً ﷺ أن ينزل عليه ، وأن ينال دونهم هذه

(١) هذا القول قاله الوليد بن المغيرة . نقله ابن هشام في السيرة النبوية (٢٧٠ / ١) وذلك أن أشراف قريش اجتمعوا ليروا رأياً واحداً في أمر محمد ﷺ ، رفض الوليد كل ما قاله القوم عن محمد إلى أن قال قوله هذه ثم قال : « ما أنتم بقاطئين من هذا شيئاً إلا عُرِف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سحر يُفرّق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته » .

المكانة ، كما قال سبحانه : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ .. ﴾ (٥٤) [النساء]

الأمر الثاني : ﴿ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٦٨) [المؤمنون] يعنى : جاءهم أمر غريب لا عهد لهم به ، وهو أن يأتى رسول من عند الله ، وهذه المسألة معروفة لهم ، فمنهم إبراهيم عليه السلام ، ومنهم إسماعيل وهم مؤمنون بهما ، إذن : ليست مسألة عجيبة ، بل يعرفونها جيداً ، لكن ما منعهم فى الأولى منعهم فى هذه ، إنه الحسد لرسول الله ﷺ : لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴾ (٨٧) [الزخرف]

الأمر الثالث : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ (٦٩)

يعنى : أنزل عليهم رسول من السماء لا يعرفون سيرته وخلقه ونسبه ومسلكه قبل أن يُبعث ؟ إنهم يعرفونه جيداً ، وقبل بعثته سمّوه « الصادق الأمين » وارتضوا حكومته بينهم فى مسألة الحجر الأسود ، وكانوا يأتمنونه على ودائعهم ونفائس أموالهم ، ولم يجربوا عليه كذباً أو خيانة أو سقطة من سقطات الجاهلية .

وقد شرحت هذه المسألة فى قول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ .. ﴾ (١٢٨) [التوبة] يعنى : من جنسكم ، ومن نوعكم ، ومن قبيلتكم ، ليس غريباً عنكم وهو معروف لكم : سلوكه وسيرته وخلقه ، وإذا لم تُجربوا عليه الكذب مع الخلق ، أنتصرون منه أن يكذب على الخالق ؟

وهل رسول الله فى أول بعثته لمّا أخبر الناس أنه رسول الله جاء

القرآن ليحمل الناس على الإيمان به ؟ لا ، إنما جاء ليتحدى مَنْ لم يؤمن ، أما مَنْ آمن بداية ، بمجرد أن قال محمد : أنا رسول الله قال : صدقت ، وحيثية التصديق ما جُرِبَ عليه في الماضي ، وما عُلِمَ من صدقه ، وأنه لم يكذب أبداً ؛ لذلك كان المقياس عند الصحابة أن يقول رسول الله ، فإن قال فالمسألة منتهية لأنه صادق لا يشك أحد منهم في صدقه .

لذلك النبي ﷺ لما قال أبو بكر في مسألة الإسراء والمعراج : إن كان قال فقد صدق^(١) ، يحملها رسول الله تقديرًا لأبي بكر ويقول : « كنت أنا وأبو بكر في الجاهلية كفرسى رهان » يعني : في الخلق الطيب والسلوك السوء « فسبقتُه للنبوّة فاتبعني ، ولو سبقني هو لاتبعته » .

ولما نزل جبريل - عليه السلام - على سيدنا رسول الله ﷺ في أول الوحي فاجهده ، فذهب إلى السيدة خديجة - رضى الله عنها - وحكى لها ما حدث له كأنه يستفهم منها عما حدث ولم يخبرها أنه رسول من عند الله ، ومع ذلك أخذته إلى ورقة بن نوفل ، وكان على علم بالكتب السابقة ، فلما سمع ورقة بن نوفل ما حدث قال : إنه الناموس الذي كان ينزل على موسى وليتني أكون حياً إذ يُخرجك قومك ، فقال ﷺ : « أومُخرجي هم ؟ » قال : « ما جاء أحد بمثل

(١) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (٢٩٨/١) باختصار « أن رسول الله ﷺ لما أصبح بعد مولده من بيت المقدس شدا على قريش فاخبرهم الخبر فانكروا عليه ذلك وقصدوا أبا بكر وعرضوا عليه هذا الامر في إنكار فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه . فقللوا : بلى ما هو ذاك في المسجد يحدث به الناس . فقال أبو بكر : والله لئن كان قالا لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك . فوالله إنه ليخبرني أن الخير ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه » .

ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا ^(١) .
ومع ذلك يظل رسول الله ﷺ خائفًا قلقًا أن يكون هذا شيئًا من
الشیطان ، فتطمئنه السيدة خديجة ، فهذا لا يعقل مع رسول الله ،
لذلك تقول له : « إنك لتصل الرحم ، وتكسب المعدوم ، وتحمل
الكل ^(٢) » ، وتعين على نواثب ^(٣) الدهر ، والله لن يخذلك الله أبدًا ^(٤) .

ومن هنا اعتبروا السيدة خديجة أول مجتهدة في الإسلام ؛ لأنها
اجتهدت واستنبطت من مقدمات رسول الله قبل البعثة دليلًا على
صداقه بعد البعثة ؛ لذلك كانت أول من سُميت بأم المؤمنين ، حتى
قال بعض العارفين : خديجة أم المؤمنين بما فيهم رسول الله ﷺ ؛
لأنه في هذه السن كان في حاجة إلى أم أكثر من حاجته إلى عروس
صغيرة تدله ، وقد قامت خديجة - رضى الله عنها - فعلاً بدور الأم
لرسول الله فاحتضنته ، وطمأنته ووقفت إلى جواره في أشد الأوقات
وأخرجها .

كما نلاحظ في الآية : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ .. ﴾ (٦٩) [المؤمنون]
فأضاف الرسول إليهم يعنى : رسول لهم ، أما في الإضافة إلى الله
تعالى : رسول الله ، فالمعنى رسول منه ، وهكذا يختلف المعنى
 باختلاف الإضافة .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٠) كتاب الإيمان ، والبخارى في صحيحه (٣) من
حديث عائشة رضى الله عنها .

(٢) الكل : هو من لا يستقل بامرء قال تعالى : ﴿ وَهُوَ كُلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ .. ﴾ (٧٧) [النحل] والكل
هو العاجز الثقيل لا خير فيه [القاموس القويم ١٦٩/٢] باختصار .

(٣) النواثب : جمع ناثبة ، وهى ما ينوب الإنسان أى : ينزل به من العلمات والحوادث .
والناثبة : المصيبة من مصائب الدهر تنزل بالإنسان [لسان العرب - مادة : نوب] .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٠) كتاب الإيمان ، والبخارى في صحيحه (٣) من حديث
عائشة رضى الله عنها .

﴿أَمْرٌ يَقُولُونَ بِهِ جَنَّةٌ أَمْ جَنَّةٌ لَّهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (٧٠)

والمسألة الرابعة فى توبيخ الله لهم : ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جَنَّةٌ ..﴾ (٧٠) [المؤمنون] يعنى : جنون ، والجنون أن تتعطل الآلة العقلية التى تزن الحركات على وفق النفع والضرر ، فتفعل الخير النافع ، وتترك الشر الضار . ولنتنظر : أى خصلة من خصال الجنون فى محمد ﷺ .

ودَعَاكَ من قضية الدين والإله إنما خُذْ خُلُقَهُ ، والخُلُقُ أمر يتفق عليه الجميع ويحمدونه ، حتى وإن كانوا ضد صفته ، فالكذاب يحب الصادق ، ويعترف أن الصدق شرف وكرامة ، والبخيل يحب الكريم ، والغضوب يحب الحلیم ، ألا ترى الكاذب يزاول كذبه على الناس ، لكن لا يحب مَنْ يكذب عليه ؟

ألا ترى شاهد الزور ينقذ غيره بشهادته ، ومع ذلك يسقط من نظره ويحتقره ، حتى إن أهل الحكمة ليقولون : إن شاهد الزور ترتفع رأسك على الخصم بشهادته ، وتدوس قدمك على كرامته ، وَمَنْ جعلك موضعاً للنقيصة فقد سقطت من نظره ، وإنْ أَعْنَتَهُ على أمره .

إذن : فالأخلاق مقاييسها واحدة ، فقيسوا محمداً بأخلاقه ، لا بالدين والرسالة التى جاء بها ، انظروا إلى خُلُقِهِ فيكم ، ولن يستطيع واحد منكم أن يتهمه فى خُلُقِهِ بشيء ، وما دام لا يُتَّهَم فى خُلُقِهِ فلا يُتَّهَم كذلك فى عقله ؛ لأن العقل هو ميزان الخُلُقِ وأساسه .

لذلك يقول ربه - عز وجل - فى حَقِّهِ :

﴿وَإِنَّ لَكَ

لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ^(١) (٢) وَأَنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴿[الْقلم] فخلِّقك العظيم أكبر دليل على أنك لست مجنوناً .

إذن : محمد برىء من هذه التهمة ، والمسألة كلها كما قال تعالى : ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ .. (٧٠)﴾ [المؤمنون] فهذا عيبه فى نظرهم : لأن الحق يغيظ أهل الباطل المنتفعين منه ، والبعض يرى الحق فى الخير الذى يأتیه ، فإن كان فى شىء لا ينتفع منه فهو شرّاً ؛ لذلك إن أردت أن تحكم على خصلة فاحكم عليها وهى عليك ، لا وهى لك ، فمثلاً أن تكره الكاذب سواء كذب لك أو كذب عليك ، إذن : فخذُ المسائل على أنها لك وعليك .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما قيّد حركتك فى النظر إلى محارم الآخرين ، لا تتبرم ولا تقل : منعى متعة النظر .. الخ ، لكن انظر إلى أنه قيّد عينيك وأنت واحد ، وقيّد عيون الآخرين عن محارمك وهم كثيرون .

ويقول تعالى بعدها : ﴿وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠)﴾ [المؤمنون] وطبيعى أن يكره أهل الباطل الذين استشرى ظلمهم وطفغانهم ، يكرهون الحق الذى جاء ليعدل الميزان ، ويقوم المعوج فى حركة الحياة ، وكراهية أهل الباطل لرسول الله كان ينبغى أن تكون معيار تصديق له لا تكذيب به ، ينبغى أن نقول : طالما أن أهل الباطل يكرهون هذا فلا بدّ أنه على الحق وإلا ما كرهوه .

(١) غير مَمْنُون ، أى : غير مقطوع أى دائم . ويحتمل أنه غير مُكْتَرٍ بِالْمَنْ والتقريع والفخر به ، ولا يتعارض المعنيان . [القاموس القويم ٢٤٠/٢] .

﴿ وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ
وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ
ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾

إذن : فالمسائل لا تسير على هوى المخلوق ، إنما على مرادات الخالق ؛ لأن الخالق سبحانه هو صانع هذا الكون ، وكلُّ صانع يَفَارُ على صنّعه ، وهذا مُشَاهِدٌ حتى في صنعة البشر ، ولك أن تتصور ماذا يحدث لو أفسدت على صانع ما صنعه .

وعدالة الأشياء أن تسير على وفق مرادات الصانع ، لا هوى المصنوع ؛ لأن الأهواء تملكها الأغيار ، فالإنسان لو سار في حركة حياته على وفق هواه لأخذ ما ليس له ، ولَقَبِلَ الرشوة ، ومال إلى الفسق والانحراف ؛ لأنه في الظاهر يرى أنه منتفع بهذا ولا ينظر إلى العقوبة والمحصلة النهائية ، لقد نظر إلى متعة زائلة موقوتة ، ونسى تبعه ثقيلة لن يقدر عليها فيما بعد .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ .. ﴿٧١﴾ [المؤمنين] ولك أن تقول : نعم ، اتباع الأهواء يُفسد الأرض ، ويُفسد حركة الحياة فيها ، لكن كيف يُفسد السماء ؟ وهل لأحد قدرة عليها ؟

ونقول : ألم يكن من أمنيات هؤلاء : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ (٩١) أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ..

إذن : من أهوائهم أن تتهدم السماء ، ولو حتى على رؤوسهم ،
وأي فساد بعد هذا ، وهكذا لو اتبعت أهواءهم لفسدت السموات
والأرض ، ليس هذا فقط بل ﴿ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ (٧١) [المؤمنون] حيث
سيتعدى فسادهم ليشمل كل ما في الوجود .

لذلك يقيد النبي ﷺ هذه الأهواء في قوله : « لا يؤمن أحدكم
حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »^(١) لأنه ﷺ : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ
(٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (٤) [النجم]

وقد توقف بعض المستشرقين مُعْتَرِضاً على هذه الآية : ﴿ وَمَا
يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ (٣) [النجم] يقولون : يعنى كلامه كله صحيح ،
فلماذا يُعَدَّلُ له ربه بعض الأحكام ؟ ومعنى ذلك أن الحكم المعدل
حين نطق به كان ينطق عن هوى .

ولو فهم هؤلاء معنى الهوى ما كان منهم هذا الاعتراض ، فالهوى
أن تعرف الحق ، لكن هواك يصرفك عنه ، ورسول الله ﷺ لم يكن
يعرف في هذه المسائل حكماً وانصرف عنه ، إنما نطق وحكم على
مقتضى ما فهم في أمر لم ينزل فيه من الله شيء ، ثم نزل الحكم
من الله ليعدل اجتهاد رسوله .

إذن : لم يكن لرسول الله ﷺ هوى ينطق بمقتضاه ، وفي تعديل الحق
سبحانه لرسوله ، وتبليغ الرسول لأمته بهذا التعديل أكبر دليل على
صِدْقِهِ ﷺ وأمانته في البلاغ عن ربه ، وإلا فلم يكن أحد ليعلم هذا
التعديل ، لو أخفاه رسول الله تعصياً لنفسه ، أو لدفع الخطأ عنه .

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو ،
وأورده ابن رجب الحنبلي في « جامع العلوم والحكم » (ص ٤٦٠) وضعفه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿يَأْيُهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ .. (١)﴾ [التحریم] ويقول سبحانه : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ .. (٤٢)﴾ [التوبة]

وكان بوسع رسول الله أن يكتف هذه الآيات التي تعاتبه وتُعَدُّ مأخذاً عليه ، لكنه ﷺ كان أميناً يقول ما له وما عليه ، لذلك يقول عنه ربه : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ^(١) (٤٦)﴾ [الحاقة]

ثم يقول تعالى : ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١)﴾ [المؤمنون] و (بل) تفيد الإضراب عن الكلام السابق ، وإثبات كلام جديد بعدها ، والذكر هنا يعنى : الشرف والصِّيت والمكانة العالية ، كما جاء فى قوله تعالى عن القرآن : ﴿وَأِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. (٤٤)﴾ [الزخرف]

وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠)﴾ [الأنبياء] فكان يجب عليهم أن يحتضنوا هذا القرآن ، ويرفعوه فوق رؤوسهم ، ففيه مجدهم وشرفهم وعِزَّتْهم ، والعرب بدون القرآن لا ذِكرَ لهم ، فقد كانوا أمة أمية تعيش على الترحال والتنقل ، ولا تستقر إلا على منابع الماء ومواضع الكلا ، كانوا بدواً تنتشر فيما بينهم الحروب والغارات وقطع الطريق ، كان الواحد منهم يسرق ليكرم ضيفه بما سرق .

وهذه من الأمور العجيبة فى عادات العرب فى الجاهلية ، فلم يكن

(١) الوتين : عِرْق فى القلب إذا قطع مات صاحبه ، وهو الشريان الرئيسى الهام الذى يغذى الجسم بالدم النقى الخارج من القلب ، والمعنى : أى امتناه عاجلاً وأهلكناه سريعاً إذا خالف أمرنا أى مخالفة . [القاموس القويم ٢ / ٢١٩] .

لديهم منهج يحكم حياتهم ، عجيب أن ترى حب الفارة والاعتداء مع الشهامة والكرم فى طبيعة واحدة ، فهو يفعل ما يعنُّ له ، وما يخطر بباله ، فالمسألة ليست محكومة عندهم بقانون ، حتى قال فيهم الشاعر :

لا تمدحَنُ ابنَ عبادٍ^(١) وإنْ هطلَتْ كَفَّاهُ بالجُودِ حتَّى أشبهَ الدِّيمَا^(٢)
فإنَّها خطراتٌ من وسَاوِسِهِ يُعطى ويمنعُ لا بُخلًا ولا كرمًا

ومن أشهر قصائد الشعر العربى فى الكرم هذه القصيدة التى تأصل فيها هذا الخلق حتى عند الأطفال ، وحتى أن الأب يهيمُ بذبح ولده للضيف ، لأنه لم يجد ما يذبحه لِقَرَاهُ^(٣) .

ويقول فيها الشاعر :

وطَاوٍ ثَلَاثًا عَاصِبِ الْبَطْنِ مُرْمِلٍ ببيداءٍ لم يَعْرِف بها ساكنٌ رَسْمًا^(٤)
أخى جَفْوَةً فيه من الأنسِ وَحْشَةً يرى البؤسَ فيها من شراسته نُعْمَى
رَأَى شَبَحًا وَسَطَ الظَّلَامِ فَرَاغَهُ فَمَا رَأَى ضَيْفًا تَشْمُرُ واهْتِمَا^(٥)
وَقَالَ هَيَّا رَبَاهُ ضَيْفٌ وَلَا قَرَى !! بِحَقِّكَ لَا تَحْرِمُهُ تَالِيلَةَ اللَّحْمَا

(١) هو : إسماعيل بن عباد أبو القاسم الطالقاني ، وزير غلب عليه الادب ، استوزره مؤيد الدولة ثم أخوه فخر الدولة ، ولقب بالساحب لصحبته مؤيد الدولة من صباه . ولد فى الطالقان (من أعمال قزوين) (عام ٣٢٦هـ) وإليها نسبته ، توفى بالرى (طهران) عام (٣٨٥ هـ) ونقل إلى أصبهان فدفن فيها . [الأعلام للزركلى ١ / ٣١٦] .

(٢) الديمة : المطر الذى ليس فيه رعد ولا برق . وهو المطر الدائم . ويقال : دامت السماء قديم : مطرت ديمة . [لسان العرب - مادة : ديم] .

(٣) القرى : طعام الأضياف .

(٤) الطاوى : الجائع . مُرْمِل : قد اختلط طعامه بالرمل . الرسم : الأثر .

(٥) راعه : أخافه وأقرعه .

وأفرد في شعب عَجُوزًا إزاءَهَا ثلاثَةَ أشْباحٍ تَخَالَهُمُوا بِهِمَا
حُفَاءَ عُرَاءَ مَا اغْتَدُوا خُبْزَ مَلَّةٍ وَلَا عَرَفُوا لِلْبُرِّ مَذَّ خَلَقُوا طَعْمًا^(١)
فَقَالَ ابْنُهُ لَمَّا رَأَاهُ بِحَيْرَةٍ أَيَا أَبَتِ ادْبَحْنِي وَيَسِّرْ لَهُمْ طَعْمًا
وَلَا تَعْتَذِرْ بِالْعُدْمِ عَلَى الَّذِي طَرَا يَظُنُّ لَنَا مَالًا فَيُوسِعُنَا ذِمًّا
فَرَوَى قَلِيلًا ثُمَّ أَحْجَمَ بُرْهَةً وَإِنْ هُوَ لَمْ يَذْبَحْ فَتَاهُ فَقَدَ هُمَا
فَبَيْنَا هُمَا عَنَّتْ عَلَى الْبُعْدِ عَانَةً قَدْ انْتَضَمَتْ مِنْ خَلْفِ مَسْحَلِهَا نَظْمًا^(٢)
عَطَاشًا تَرِيدُ الْعَاءَ فَانْسَابَ نَحْوَهَا عَلَى أَنَّهُ مِنْهَا إِلَى دَمِهَا أَظْلَمَا
فَأَمَلَهَا حَتَّى تَرَوْتَ عَطَاشُهَا وَأَرْسَلَ فِيهَا مِنْ كَنَانَتِهِ سَهْمَا
فَخَرَّتْ نَحُوصٌ ذَاتَ جَحْشٍ قَدْ اكْتَنَزَتْ لَحْمًا وَقَدْ طُبِقَتْ شَحْمًا^(٣)
فَيَا بَشْرَهُ إِذْ جَرَّهَا نَحْوَ قَوْمِهِ وَيَا بَشْرَهُمْ لَمَّا رَأَوْا كَلَمَهَا يَدْمَى^(٤)
وَبَاتَ أَبُوهُمْ مِنْ بَشَاشَتِهِ أَيَا لَضَيْفِهِمُوا وَالْأَمَ مِنْ بَشْرَهَا أُمَّا
لَقَدْ تَأَصَّلَتْ خَصْلَةُ الْكَرَمِ فِي الْعَرَبِيِّ ، حَتَّى فِي الْأَطْفَالِ الصَّغَارِ ،
فَهُوَ وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا لَكِنْ لَا يَحِبُّ أَنْ يُعْرِفَ عَنْهُ الْفَقْرُ ، يَحِبُّ أَنْ يَظْهَرَ
فِي صُورَةِ الْغَنَى الْكَرِيمِ الْمَعْطَاءِ ، وَإِنْ نَاقَضَ ذَلِكَ صِفَاتٍ أُخْرَى
ذَمِيمَةً فِيهِ .

والشاهد أنهم جماعة تناقضت خصالهم ، وقد عاشوا في أُمِّية
تامة فلم يعالجوا حضارة ، وهذه حُسِبَتْ لَهُمْ بَعْدَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ

(١) خبز ملة : هو الخبز يوضع في الرماد الحار الذي يُحمى ليدفن فيه الخبز لينضج .

(٢) عَنَّتْ : ظهرت . عَانَةٌ : العنود من الدواب : من حَمَّرَ الوحش . الْمَسْحَلُ : قائد القطيع .

(٣) نَحُوصٌ : سميئة معتللة . طُبِقَتْ شَحْمًا : امتلأت شحمًا ولحمًا .

(٤) الْكَلَمُ : الجرح . يَدْمَى : ينزف دماء . [راجع لسان العرب] .

وبعثة النبي ﷺ من بينهم ، فكيف لمثل هؤلاء أن يأتوا بهذه المعانى والاساليب العالية التى تحكم العالم كله ؟ ولو كانوا أهل علم وحضارة لقالوا عنهم وعن الإسلام : إنه قفزة حضارية .

ولو كان رسول الله ﷺ قارئاً لقالوا : قرأ لفلان وفلان ، كما حكى عنهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۖ ۝ (١٠٣) ﴾ [النحل]

إذن : فذكر العرب وشرفهم ومجدهم وكرامتهم فى القرآن ، ومع ذلك لم يعملوا حتى لمصلحتهم ، ولم يهتموا بهذا القرآن ، إنما عرضوا عنه ﴿ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ۝ (٧١) ﴾ [المؤمنون]

أى : عن القرآن ، وهذا دليل أنهم كانوا مغفلين ، لا يعرفون حتى مصلحتهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْسَأَلْتَهُمْ خَرْجاً فَخَرَجَ رِبْكَ خَيْرٌ ۖ

وَهُوَ خَيْرُ الرِّزْقِ ۖ ۝ (٧٢) ﴾

(الخَرْجُ) : ما يخرج منك طواعية ، أما الخراج فهو ما يخرج منك رغماً عنك ، والزيادة فى المبنى تدل على الزيادة فى المعنى ، فالخراج أبلغ من الخرج . والمراد بقوله تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَجَ رِبْكَ خَيْرٌ ۖ ۝ (٧٢) ﴾ [المؤمنون] إن كنت تريد خَرْجاً فلا تأخذه من أيديهم ، إنما خُذْهُ من ربك ، فما عندهم ليس خَرْجاً بل خراج ﴿ فَخَرَجَ رِبْكَ خَيْرٌ ۖ ۝ (٧٢) ﴾ [المؤمنون]

فلا تأخذ الرزق إلا من يد الخير والبركة : لأن الحق سبحانه لا

يَمُنُّ عَلَى خَلْقِهِ بِرِزْقِ يَرْزُقُهُمْ بِهِ ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ قَدْ اسْتَدْعَاهُمْ إِلَى الْحَيَاةِ ؛ لِذَلِكَ تَكْفُلُ سَبْحَانَهُ بِأَرْزَاقِهِمْ ، كَمَا لَوْ دَعَوْتَ صَدِيقًا إِلَى طَعَامٍ فَإِنَّكَ تُعِدُّ لَهُ مَا يَكْفِي عَشْرَةَ ، فَمَا بِأَنَّكَ حِينَئِذَا يُعِدُّ لَكَ رَبُّكَ عِزًّا وَجَلَّ ؟

ثُمَّ يُذِيلُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٧٢) [المؤمنون] وهذه أحدى إشكالات إشكال عند البعض ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ جَعَلَ لَخَلْقِهِ شِرَاكَةً فِي صِفَةِ الرِّزْقِ ، فَغَيْرُهُ سَبْحَانَهُ يَرْزُقُ أَيْضًا ، لَكِنْ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ؛ لِأَنَّهُ يَرْزُقُ الْخَلْقَ بِأَصُولِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَرْزُقُونَ مِنْهَا غَيْرَهُمْ ، فَإِنْ كُنْتَ تَرْزُقُ غَيْرَكَ مِثْلًا طَعَامًا فَهُوَ سَبْحَانَهُ أَصْلُ هَذَا الطَّعَامِ وَمَصْدَرُهُ .

هُوَ سَبْحَانَهُ خَالِقُ التُّرْبَةِ ، وَخَالِقُ الْمَاءِ ، وَخَالِقُ الْهَوَاءِ ، وَخَالِقُ الْبَذَرَةِ ، وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ أَعْمَلْتَ عَقْلَكَ ، وَاسْتَخْدَمْتَ الطَّاقَاتِ الَّتِي مَنَحَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا ، فَأَخْرَجْتَ هَذَا الطَّعَامَ ، فَلَوْ أَنَّكَ جِئْتَ لِأَهْلِكَ بِحَاجِيَّاتِ الْمَطْبَخِ وَلَوَازِمِ الْمَعِيشَةِ طَوَالَ الشَّهْرِ مِنْ دَقِيقٍ وَسَمْنٍ وَأَرْزٍ وَسُكَّرٍ .. إلخ وَقَامَتْ زَوْجَتُكَ بِإِعْدَادِ الطَّعَامِ أَتَقُولُ : إِنَّ الزَّوْجَةَ هِيَ الَّتِي جَاءَتْ بِالطَّعَامِ ؟

لِذَلِكَ يَقُولُ الْعُلَمَاءُ وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ : نَزَّهُوا أَلْسِنَتَكُمْ عَنْ قَوْلِ : فَلَانَ رَازِقٌ ، وَدَعُّوْهُمَا لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ لِأَنَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ خَالِقُ الرِّزْقِ ، وَوَاجِدُ أَصُولِهِ ، وَمَا أَنْتَ إِلَّا مُنَاوِلٌ لِلْغَيْرِ .

وَتَلَحَّظُ أَنَّهُ تَعَالَى أَضَافَ الْخَرَاجَ إِلَى الرِّبَوِيَّةِ الَّتِي تَفِيدُ الرِّعَايَةَ وَالْعَنَايَةَ وَالتَّرْبِيَةَ ، فَمَا دَامَ الْخَرَاجُ خَرَاجَ رَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ ، فَهُوَ خَرَاجٌ كَثِيرٌ وَعَطَاءٌ لَا يَنْفَدُ .

الصراط المستقيم : الطريق المعتدل الذي لا عوج فيه ولا أمثاً^(١) ، فكيف إذن يتأبون عليك ويقفون في طريقك وأنت تدعوهم إلى الصراط المستقيم ؟ وإن انتفع بالصراط المعوج واحد فسوف ينتفع بالصراط المستقيم الملايين .

ومن ذلك ما سبق أن أوضحناه من أنه يجب عليك أن تنظر إلى ما أعطاه لك التشريع قبل أن تنظر إلى ما أخذه منك ، فالشرع حين يأخذ منك وأنت غنى يعطيك وأنت فقير ، ويأمرك برعاية اليتيم ليرعى أولادك من بعدك إن تركتهم وهم صغار .

فالشرع - إذن - يؤمن حياتك ويجعلك تستقبل مقادير الله بالرضا ؛ لأنك في مجتمع إيماني لن يتخلى عنك إن افتقرت ، ولن يترك أولادك إن تيمموا ، فالمجتمع الإيماني إن مات فيه الأب كان الجميع لليتيم آباء . أما إن ضاع اليتيم في مجتمع الإيمان فإن ذلك يفتح الباب للسخط على قدر الله ، ويغري ضعاف الإيمان أن يقولوا : ما الحكمة في أن يأخذ أباهم ويتركهم عائلة لا يتكفل بهم أحد ؟

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾

﴿عَنِ الصِّرَاطِ لَنُنَكِبُونَ﴾

﴿الصِّرَاطِ .. (٧٤)﴾ [المؤمنون] هو الطريق المستقيم الذي يؤدي إلى الغاية بأقل مجهود ، وفي أقل وقت ويوصلك إلى أفضل غاية . والطريق يأخذ حظه من العناية والاهتمام بقدر الغاية الموصّل إليها ،

(١) الامت : الاختلاف في المكان ارتفاعاً وانخفاضاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿لَا تَرَىٰ لَهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه] أي : لا ترى في الأرض يوم القيامة التواء ولا انحرافاً يميناً ولا شمالاً ولا ترى فيها اختلافاً في الارتفاع والانخفاض أي أنها مستوية تماماً رأسياً وانقياً . [القاموس القويم ٣٠/١] .

فَالطَّرِيقَ مِنَ الْقَاهِرَةِ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ غَيْرِ الطَّرِيقِ بَيْنَ الْقَرْيَةِ وَالنُّجُوعِ .
وَمَعْنَى : ﴿لَنَّاكِبُونَ (٧٤)﴾ [المؤمنون] يعنى : منحرفون عن
الطريق ، ولهم حظٌّ فى الاعوجاج وعدم الاستقامة ؛ لذلك يقول لك مَنْ
يريد الصدق (تعال دوغرى) يعنى : من الطريق المستقيم الذى لا
اعوجاج فيه ولا مراوغة .

لكن ، ما الذى جعلهم يتنكبون الطريق المستقيم الذى يُنظَّم لهم
حركة الحياة ، ويجعلها تتساند لا تتعاند ، ويعود مجهود الفرد على
الباقين ؟ لماذا يحرمون أنفسهم من مزايا هذا الطريق ؟

قالوا : لانهم مكذبون بالآخرة ، ولو لم يكونوا مكذابين بالآخرة
لآمَنوا واتبَعوا منهج الله ؛ لانهم سيثولون إلى الله أيلولة ، تعطى
المحسن جزاءه وتعطى المسىء جزاءه . فالذى أفسد هؤلاء أنهم
اتبَعوا أهواءهم ، وظنوا أن الدنيا هى الغاية وهى نهاية المطاف ،
وغفلوا عن الآخرة ، وأنها دار النعيم الحقيقى الذى لا يفوتك
ولا تفوته .

كما قال عنها الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ
الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ [الأنكبوت] يعنى : الحياة الحقيقية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا

فِي طَغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥)﴾

يعنى : لو حدث هذا لعادوا إلى ما كانوا عليه ، كما قال سبحانه
فى موضع آخر : ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا
فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسَّهُ .. (١٢)﴾ [يونس]

وليتَّه اكتفى عند هذا الحدِّ ، إنما يتعدَّى هذا ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا .. ﴾ (٨) [الزمر] يقول كما قال قارون : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي .. ﴾ (٧٨) [القصص] يعنى : هذا بمجهودى وتعبنى ، وقد كلمت فلاناً ، وفعلت كذا وكذا .

لذلك كان طبيعياً أن يقول له ربه : ما دُمْتَ قد أُوتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدَكَ ، فاحفظه بعلم عندك قال تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ .. ﴾ (٨١) [القصص]

فأين الآن علمك ؟ وأى علم هذا الذى لا يستطيع أن يحتفظ بما أتى به ؟ ومعلوم أن استنباط الشيء أصعب من حفظه وصيانته .

ومعنى ﴿ لَلْجُورَا .. ﴾ (٧٥) [المؤمنون] تمادوا ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ .. ﴾ (٧٥) [المؤمنون] والطغيان : مجاوزة الحدِّ ؛ لأن الله تعالى جعل لكل شيء فى الوجود حداً مرسوماً لا ينقص ولا يزيد ، فإن اتبعت هذا الحدِّ الذى رسمه الله لك استقيمت واستقامت حركة حياتك بلا منازع ، ولو طغى الشيء أفسد حركة الحياة ، حتى لو كان الماء الذى جعل الله منه كل شيء حياً ، لو طغى يُفْرَق ويُدْمَر بعد أن كان سر الحياة حال اعتداله . ومنه قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ^(١) ﴾ (١١) [الحاقة]

ويقال لمن جاوز الحدِّ : طاغية بتاء التانيث الدالة على المبالغة ، فإن تجاوز هذه أيضاً نقول : طاغوت .

ثم تأتى نتيجة التماذى فى الطغيان ﴿ يَغْمَهُونَ ﴾ (٧٥) [المؤمنون] يعنى : يتحيرون ويغْمُونَ عن الرُّشْد والصواب ، فلا يُمَيِّزُونَ بين خير وشر .

(١) الجارية : السفينة . جرت السفينة جرياً : سارت [لسان العرب - مادة : جرا] .

ثم يقول الحق سبحانه (١) :

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ
وَمَا يَنْضَرُّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾

استكان فلان لا تقال إلا لمن كان متحركاً حركة شريرة ، ثم هذا وسكن ، نقول : فلان (انكَنَ) أو استكان وأصلها (كَوْن) فالمعنى : طلب وجوداً جديداً غير الوجود الذى كان عليه ، أو حالاً غير الحال الذى كان عليه أولاً ، فقبل أن يستكين ويخضع كان لا بدّ مُتَمَرِّداً على ربه .

والوجود نوعان : وجود أولى مطلق ، ووجود ثان بعد الوجود الأولى ، كما نقول مثلاً : ولد زيد يعنى وجد زيد وجوداً أولياً ، إنما على أى هيئة وجد ؟ جميلاً ، قبيحاً .. هذه تحتاج إلى وجود آخر ، تقول : كان زيد هكذا فعل وفاعل لا يحتاج إلى إخبار آخر لأنها للوجود الاول ، لكن حين نقول : كان زيد مجتهداً ، فهذا هو الوجود الثانى وهو الاجتهاد ، وهو وجود ناتج عن الوجود الاول .

فكان الاولى هي كان التامة التى وردت فى قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ﴾ (البقرة) [٢٨٠] أى : وجد ذو عُسْرَةٍ ،

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : نزلت فى قصة ثمامة بن أثال لما أسرته السرية وأسلم وخلى رسول الله ﷺ سبيله ، حال بين مكة وبين الميرة وقال : والله لا يأتىكم من الإمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ ، وأخذ الله قريشاً بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعلهز . قيل : وما العلهز ؟ قال : كانوا يأخذون الصوف والوبر ، فيبلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه . فقال له أبو سفيان : أنشدك الله والرحم اليس تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين ؟ قال : بلى . قال : فوالله ما أراك إلا قتلت الأبناء بالسيف ، وقتلت الأبناء بالجوع ، فنزل قوله ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوعُ فِي ظُهُبِهِمْ يَقْمَهُونَ﴾ (المؤمنون) أورده القرطبي فى تفسيره (٤٦٧٧/٦) والواحدى فى أسباب النزول (ص ١٧٩) .

ولا تحتاج في هذه الحالة إلى خبر .

ونقول : تمنى فلان على الله أن يوجد له ولد ، فكان محمد ،
يعنى : وجد . أما كان الناقصة فتحتاج إلى خبر ؛ لأن (كان) فعل
يدل على زمان الماضى ، والفعل لا بد أن يدل على زمن وحدث ؛
لذلك لا بد لها من الخبر الذى يعطى الحدث تقول : كان زيد مجتهداً ،
فجاء الخبر ليكمل الفعل الناقص ، فكانك قلت : زيد مجتهد .

ومعنى ﴿ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ .. ﴾ (٧٦) [المؤمنون] أن خضوعهم
واستكانتهم لم تكن لأنفسهم ولا للناس ، إنما استكانة لله بأخذ أوامره
بمنتهى الخضوع وبمنتهى الطاعة ، لكنهم ما فعلوا وما استكانوا ، لا
فى حال الرحمة وكشف الضر ، ولا فى حال الأخذ والعذاب ، وكان
عليهم أن يعلموا أن الله غير حاله معهم ، ومقتضى ذلك أن يغيروا هم
أيضاً حالهم مع الله ، فيستكينوا لربهم ويخضعوا لأوامره .

﴿ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (٧٦) [المؤمنون] الضراعة : هى الدعاء والذلة
والخضوع لمن أخذ بيدك فى شىء ، كما جاء فى قوله تعالى :
﴿ قُلُوا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسَا تَضَرَّعُوا .. ﴾ (٤٣) [الانعام] يعنى : لجئوا إلى الله
وتوجهوا إليه بالدعاء والاستغاثة .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ

إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ (٧٧)

لقد فشلت معهم كل المحاولات ، فما أجدت معهم الرحمة
واستمروا على غلوائهم ، وما أجدى معهم العذاب وما استكانوا بعد أن
أخذهم الله به ، إذن : لم يبق لهم حجة ولا أمل فى النجاة ، ففتح الله

عليهم ﴿بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ...﴾ (٧٧) [المؤمنون] يعنى : أصابتهُم محنة كأنهم من وراء باب مُغْلَقٍ تفاجئهم ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبَسِّسُونَ﴾ (٧٧) [المؤمنون] آيسون من النجاة مُحْتَسِرُونَ على ما فاتهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ
وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨)

الحق - سبحانه وتعالى - يقول : خلقتُ عبادى من عدم ، وأمددتهم بأقوات الحياة ومقوماتها من عدم ، ثم جعلتُ لهم منهجاً ينظم حركة حياتهم ويصُون بنيتهم ، لأن صاحب الصنعة أعلم بصنعتة ، وأعلم بما يصلحها ، ويعرف غايتها التى خلقها من أجلها ، فالذى صنع الثلاجة مثلاً هل صنعها أولاً ثم قال لنا : انظروا فى أى شىء تفيدكم هذه الآلة ؟ لا ، إنما قبل أن يصنعها حدّد مهمتها ، والغاية منها ، وكذلك خلق الله ، والله المثل الأعلى .

والذى خلق وحدّد الغاية أعلم بقانون الصيانة الذى يحمى صنعتة من الفساد ، ويجعلها تؤدى مهمتها على أكمل وجه ، فإن خالفت قانون الصيانة الذى وضعه لك ربك تفسد حياتك وتتعلّل عن أداء مهمتك التى خلقت لها ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) [الذاريات]

لذلك أمركم إن اختلفتم فى شىء أن تردوه إلى الله وإلى الرسول ، كما ترد الآلة إلى صانعها العالم بطبيعتها وبمواطن الخلل فيها ، ونستنبط من هذه المسألة : إذا رأيتَ خللاً فى الكون أو فساداً

فى ناحية من نواحيه ، وإذا رأيت عورة من العورات قد ظهرت فاعلم
أن حُكْمًا لله قد عطل .

فمثلاً إن رأيت فقيراً جائعاً عارياً فإما أنه قادر على العمل لكنه
قعد عن السعى وخالف قوله تعالى : ﴿ فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ
رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [١٥] [الملك] أو : أن القادرين العاملين حرموه حقّه
الذى جعله الله له فى أموالهم ، وخالفوا قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ
حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [١٦] [الذاريات]

لذلك ، فالحق - سبحانه وتعالى - يُجرى على عباده من المقادير
ما يحفظ لهم توازن الحياة ويسدُّ حاجة المحتاجين ، كما نرى مثلاً
أحد الأثرياء يترك بلده ، وينتقل إلى بلد آخر يضع فيها أمواله
وثرواته ، وليس هناك سبب لهذه النقلة إلا أنها خاطر سلطه الله عليه
ليحفظ به توزيع المال فى المجتمع ، ولو حسبتها لوجدت أن هذا
المكان زادت فيه حصيلة الزكاة عن حاجة المحتاجين ، فانتقل إلى بلد
آخر قلّت فيه الاموال عن حاجة الفقراء والمحتاجين .

وبعد ذلك لم يترك ربك ، بل عرض لك الآيات التى تلفتك إليه ،
وتُحَنِّتُكَ إلى التعرف عليه ، وهى إما آيات كونية عجيبة تدل على قدرة
الله تعالى ، أو معجزات تثبت صدق الأنبياء فى البلاغ عن الله : لأن
الله تعالى لا يخاطب عباده كل واحد بمفرده ، إنما يرسل رسولا
ليُبلِّغهم ثم يؤيده بالمعجزة الدالة على صدقه فى البلاغ .

فحين تنتظر فى آيات الكون وتستدل بها على وجود خالق قادر
لكنك لا تعرف من هو هذا الخالق يأتى الرسول ليقول لك : إنه الله ،
وقد ضربنا لذلك مثلاً - والله المثل الأعلى : هَبْ أَنْ أَحَدًا دَقَّ الباب
ونحن جلوس بالداخل فما الذى يحدث ؟ نتفق نحن جميعاً على أن

طارقاً بالباب . لكن مَنْ هو ؟ لا أحد يعلم .
فالاتفاق هنا فى التعقُّل ، وأن هناك قوةٌ خلف الباب تدقّه ، لكن مَنْ هو ؟ وماذا يريد ؟ لا بُدَّ لمعرفة هذه المسائل من بلاغ عن هذه القوة ، وإياك أن تقول بالظن : هذا فلان وأنا أقول هذا فلان ، إنما علينا أن ننتظر البلاغ منه لنعرف مَنْ هو ، وما عليك إلا أن تقول : مَنْ بالباب وسوف يخبرك هو عن نفسه ، وعن سبب مجيئه ، وماذا يريد . ثم بعد ذلك تاتى الآيات التى تحمل منهج الله ، وتخبرك أنه يريد منك كذا وكذا .

الشاهد : أن هذه الآيات كلها تحتاج إلى وسائل لإدراكها ، تحتاج إلى سمع وبصر لفراها ونسمعها ، ثم تحتاج إلى عقل لنفكر فيها وتأملها ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ ۝ (٧٨) ﴾ [المؤمنون]

السمع والبصر من الحواس التى سماها العلماء احتياطاً الحواس الخمس الظاهرة أى : أن هناك حواسٌ أخرى لم يكتشفوها ، وفعلاً اكتشفها العلم بعد ذلك كحاسة العضل التى تميز بها الثقل ، وحاسة البين التى تميز بها الغليظ من الرقيق فى الثياب مثلاً ، فهذه الأشياء لا تستطيع التعرف عليها بالحواس الخمس المعروفة .

وعُمدة الحواس : السمع والبصر ؛ لأنه إذا جاءنى رسول يُبَلِّغُنِي عن الله لا بُدَّ أن أسمع منه ، فإن كنتَ مؤمناً بإله فقد اكتفيت بحاسة السمع ، وإن كنتَ غير مؤمن تحتاج إلى بصر لتبصر به آياته الدالة على وجوده وقدرته ، وتستدل بالصنعة على الصانع ، وبالخلقة على الخالق ، وتتقف على ما فى كَوْنِ الله من الدقة والإحكام والهندسة والإبداع .

وهذه مهمة العقل بعد أن تحولت المسموعات والمرثيات إلى قضايا ومبادئ عقلية تحكم حياتك ، كما لو رأيت النار بعينك ثم لمستها بيدك فأحرقتك فتكونت لديك قضية عقلية مؤداها أن النار لها خاصية الإحراق فلا تلمسها بعد ذلك ، وهذه تراها حتى في الطفل الصغير حينما يعجبه قرن الشطة مثلاً فيقضمه فيشعر بحرارته وألمه .

فإذا رآه بعد ذلك يقول (أوف) ، فهذه اللفظة بالنسبة للطفل قضية عقلية تكونت لديه نتيجة تجربة استقرت في فؤاده ، وأخذها مبدأ يسير عليه في كل حياته ، وهكذا من المحسّات ومن تجارب الحياة تتكون لديك قضايا عقلية تستفيد بها فيما بعد .

إذن : من وسائل الإدراك تتكون المبادئ والقضايا التي يأخذها العقل ، ويفاضل بينها حتى ينتهي إلى قضية ومبدأ يستقر في القلب ونسُمّيها عقيدة يعنى : شئ معقود عليه لا ينحل .

وحين تتأمل حديث القرآن عن الحواس تجده يرتبها دائماً هذا الترتيب : السمع والبصر والفؤاد لأنها عمدة الحواس ، فالشم مثلاً والتذوق واللمس لا نحتاج إليه إلا قليلاً ، أما السمع والبصر فعليهما تقوم مسألة الدعوة : السمع لسماع البلاغ ، والبصر لنرى آيات الله الدالة على قدرته تعالى .

وقد أثبت العلم الحديث هذا الترتيب للسمع والبصر والفؤاد مما يدل على أنه ترتيب من خالق عن حكمة وعلم وقدرة ، بحيث لا يأتي واحد منها قبل الآخر ، كما أثبت علماء وظائف الأعضاء صدق هذا الترتيب ، فأول أداة تؤدي مهمتها في الإنسان هي الأذن ثم العين ، وتعمل من ثلاثة إلى عشرة أيام من الولادة ، ثم من السمع والبصر

توجد القضايا التي يعمل فيها العقل .

إذن : فهذا ترتيب خلقى وتكوينى . كما أن السمع وهو أول حاسة تؤدي مهمتها في الإنسان هو أيضاً الإدراك الوحيد الذي يصاحب الإنسان في كل أطواره ، فالأذن تسمع مثلاً حتى في حالة النوم على خلاف العين ؛ ذلك لأن بالسمع يتم الاستدعاء ، لذلك تظل تؤدي مهمتها حتى في حال النوم .

كما أن العين لا ترى في الظلام ولها غطاء طبيعى ومغاليق تحجب الرؤية ، وليست الأذن كذلك ، فالصوت إذا خرج تسمعه جميع الأذان ، أما المرئى فقد يوجد معك في نفس المكان ولا تراه وقد يراه غيرك ، إذن : فالمسموع واحد والمرئى متعددة ، لذلك قال سبحانه : ﴿ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ .. (٧٨) ﴾ [المؤمنون]

فليس لك خيار في السمع ، لكن لك خيار في الرؤية ، فالمبصرات تتعدد بتعدد الابصار ، لكن السمع لا يتعدد بتعدد الاسماع .

لذلك من إعجازات البيان القرآنى في قصة أهل الكهف أن الله تعالى ضرب على آذانهم في الكهف ليناموا ولا تزعجهم الأصوات في هذه الصحراء الدويّة ، ولو بقى لهم السمع كشأن الخلق جميعاً لما استقر لهم قَرَار طوال هذه الفترة الطويلة ، ولافزعتهم الأصوات .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ﴾ [الكهف]

كذلك من آيات الإعجاز في القرآن الكريم أن جميع الآيات التي ذكرت السمع والبصر ذكرته بهذا الترتيب : السمع والأبصار ، إلا في آية واحدة في موقف القيامة قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٧) ﴾ [السجدة]

فقدّم البصر على السمع ؛ لأن في القيامة تفجؤهم المرائى أولاً قبل أن تفجأهم الأصوات ، وهذه من مظاهر الدقة في الأداء القرآنى المعجز .

وكان الحق سبحانه يقول : لا عُدْرُ لك عندي فقد أعطيتك سمعاً لتسمع البلاغ عنى من الرسول ، وأعطيتك عَيْنًا لتلتفت إلى آيات الكون ، وأعطيتك فؤاداً تفكر به ، وتنتهى إلى حصيلة إيمانية تدلُّ على وجود الخالق عز وجل .

إذن : ما أخذتُك على غُرّة ، ولا خدعتُك فى شيء ، إنما خلقتُك من عدم ، وأمددتُك من عدم ، ورتبتُ لك منافذ الإدراك ترتيباً منطقياً تكوينياً ، فأى عذر لك بعد ذلك .. وإياكم بعد هذا كله أن تشغلکم الامواء ، وتصرفكم عن البلاغ الذى جاءكم على لسان رسولنا .

والمتأمل فى تركيب كل من الأذن والعين يجد فيهما آيات ومعجزات للخالق - عز وجل - ما يزال العلماء لم يصلوا رغم تقدّم العلوم إلى أسرارها وكُنْهها .

ثم يقول سبحانه فى ختام الآية : ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨) [المؤمنون] لأن هذه نِعَم وآلاء وآيات الله ، كان ينبغى أن تشكر حقَّ الشكر .

البعض يقول فى معنى ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨) [المؤمنون] أنه تعالى عبّر عن عدم الشكر بالقلة ، وهذا الفهم لا يستقيم هنا ؛ لأن الله تعالى أثبت لعباده شكراً لكنه قليل ، وربك - عز وجل - يريد شكراً دائماً يصاحب كل نعمة ينعم بها عليك ، فساعة ترى الأعمى الذى

القفر الجرداء ، ولا يرضون بها بديلاً ، ويتحملون في سبيل البقاء بها العنت والمشقة ، حتى إنك لتقول : لماذا لا يتركون هذا المكان إلى مكان خصب .

وقد رأينا مثل هؤلاء الذين صبروا على أقدار الله في بلادهم ، رأيناهم في اليمن بعد أن أغرقها سيل العرم ، وكانت تُسمى « اليمن السعيد » ورأيناهم في السعودية وفي الكويت ، وحكى لنا أهل هذه البلاد ما كانوا فيه من الضيق وقسوة الحياة ، ثم جاءتهم عاقبة صبرهم ، وجعل الله - سبحانه وتعالى - هذه الجبال وهذه الصحراوات أغنى بلاد الدنيا ؛ لأنهم رَضُوا في الأولى بقضاء الله ، فابدلهم بصبرهم على لواء الصحراء نعيماً ، لو حُرِم منه المنعمون في الدنيا لماتوا من البرد .

ذلك لأن الخالق - عز وجل - نثر خيراته في كل أنحاء الأرض بالتساوي ، فكل قطعة طويلة من الأرض فيها من الخيرات مثل ما في القطعة الأخرى ، وفي يوم من الأيام كان أصحاب الزرع هم أصحاب المال وأصحاب السيادة ، ثم تغيرت هذه الصورة بظهور خيرات أخرى غير الزراعة ، فالخيرات - إذن - مضمورة في أنحاء الأرض ، لكن لها أوان تظهر فيه .

إذن : فَبَثَّ الخليفة ونشرها في أنحاء الأرض له حكمة أرادها الخالق عز وجل .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ تُحْشَرُونَ (٧٩)﴾ [المؤمنون] يعني : لا تفهموا أنكم بنشركم في الأرض وتفريقكم فيها أنكم تفلتون منا ، أو أننا لا نقدر على جمعكم مرة أخرى ، فكما نشرناكم لحكمة نجمعكم لحكمة لا يخرج من أيدينا أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٨٠)

﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ .. (٨٠)﴾ [المؤمنون] فعلان لا بد أن ينشأ بعد وجود الحياة ووجود الموت ، فالخالق - عز وجل - يُوجد الحياة أولاً ، ويوجد الموت ، ثم يجرى حدثاً منهما على ما يريده .

والحياة سبقت الموت في كل الآيات ، إلا في آية واحدة في سورة تبارك : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)﴾ [الملك] وعلة ذلك أن الله تعالى يعطى للإنسان بالحياة إرادة تُنشئ الحركة في كل أجهزته ، ولك أن تتأمل : ما الذى تفعله إن أردت أن تقوم من مكانك ؟ ماذا تفعل إن أردت تحريك يدك أو قدمك ؟ إنها مجرد إرادة وتتحرك أعضاؤك دون أن تدري أو تُجهد نفسك للقيام بهذه الحركات ، ودون أن تباشر أى شيء .

إذن : بمجرد إرادتك تتفعل لك الجوارح وأنت مخلوق لربك ، فإذا كان المخلوق يفعل ما يريد بلا معالجة ، فكيف نستبعد هذا فى حقّه - سبحانه وتعالى - ونكذب أنه يقول للشيء : كُنْ فيكون ، مع أننا نفعل ما نريد بجوارحنا بمجرد الإرادة ، ودون أن نأمرها بشيء أو نقول شيئاً ، والله سبحانه وتعالى يقول للشيء : كُنْ فيكون ، وأنت تفعل دون أن تقول .

وقد قدم الحق سبحانه الموت فى هذه الآية : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ

وَالْحَيَاةَ .. ﴿٢﴾ [الملك] : لان الحياة ستُورث الإنسان غروراً في سيطرة إرادته على جوارحه فيطغى ، فأراد ربه - عز وجل - أن يُنبهه : تذكر أنني أميتُ ؛ ليستقبل الحياة ومعها نقيضها ، فيستقيم في حركة الحياة .

وصفة الخلق والإماتة صفات لله قديمة قبل أن يخلق شيئاً أو يميت شيئاً ؛ لأنها صفات ثابتة لله قبل أن يباشر متعلقات هذه الصفات كما قلنا ، والله المثل الأعلى : الشاعر حين يقول قصيدة قالها لأنه شاعر ولا نقول : إنه شاعر لأنه قال هذه القصيدة ، فلولا صفة الشعر فيه ما قال .

وكما أن الحياة مخلوقة ، فالموت كذلك مخلوق ، وقد يقول قائل : إذا أطلقت رصاصة على شخص أردته قتيلاً فقد خلقت الموت . نقول : الحمد لله أنك لم تدع الإحياء واكتفيت بالموت ، لكن فرق بين الموت والقتل ، القتل نقض للبنية يتبعه إزهاق للروح ، أما الموت فتخرج الروح أولاً دون نقض للبنية .

لذلك يقول سبحانه : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ..﴾ (١٤٤) [آل عمران]

والنمرود الذي حاك إبراهيم - عليه السلام - في ربه أمر بقتل واحد وترك الآخر ، وادعى أنه أحيا هذا ، وأمات هذا ، وكانت منه هذه الأعمال سفسطة لا معنى لها ، ولو كان على حق لأمر بإحياء هذا الذي قتله ؛ لذلك قطع عليه إبراهيم - عليه السلام - هذا الطريق ونقله إلى مجال آخر لا يستطيع المراوغة فيه .

إذن : هدم البنية يتبعه خروج الروح ؛ لان للروح مواصفات

خاصة ، بحيث لا تحل إلا في بنية سليمة ، وقد أوضحنا هذه المسألة - والله المثل الأعلى - بلمبة الكهرباء ، فقوة الكهرباء كامنة في الأسلاك لا نرى نورها إلا إذا وضعنا اللمبة مكانها ، ويكون لها مواصفات بحيث لا تضيء إلا إذا توفرت لها هذه الصفات ، فإن كُسِرَتْ ينطفئ نورها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. ﴾ (٨٠) [المؤمنون] الليل يحل بغياب الشمس وحلول الظلمة التي تمنع رؤية الأشياء ، وقديماً كانوا يظنون أن الرؤية تتم حين يقع شعاع من العين على المرئى ، ثم جاء العالم المسلم الحسن بن الهيثم ، فأثبت خطأ هذه النظرية ، وقرر أن الرؤية تتم حين يقع شعاع من المرئى على العين فتراه ، بدليل أنك لا ترى الشيء إن كان في الظلام .

وظلمة الليل تنبهننا إلى أهمية الضوء الذي لا بدُّ منه لننتدى إلى حركة الحياة ، والإنسان يواجه خطورة إن سار في الظلام ؛ لأنه إما أن يصطدم بأضعف منه فيحطمه ، أو بأقوى منه فيؤلمه ويؤذيه .

إذن : لا بدُّ من وجود النور لتتم به حركة الحياة والسَّعى في مناكب الأرض ، وكذلك لا بدُّ من الظلمة التي تمنع الإشعاع عن الجسم ، فيستريح من عناء العمل ، وقد أثبت العلم الحديث خطر الإشعاعات على صحة الإنسان .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. ﴾ (٨٠) [المؤمنون] فجعلهما يختلفان ويتعاقبان ليؤدى كل منهما وظيفته في الكون ، يقول تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۚ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۚ ﴾ (٢) [البيد] وطالما أن لكل منهما مهمته ، فإياك أن تقلب الليل إلى نهار ، أو النهار إلى ليل ؛ لأنك بذلك تخالف الطبيعة التي خلقك الله عليها ، وانظر إلى هؤلاء

الذين يسلكون هذا المسلك فيسهرّون الليل حتى الفجر ، وينامون النهار حتى المغرب ، وكم أحدثوا من فساد في حركة الحياة ، فالتلميذ ينام في الدرس ، والعامل ينام ويُقصر في أداء عمله .

والنبي ﷺ يُنبِّهنا إلى هذه المسألة في قوله : « ... أطفئوا المصابيح إذا رقدتم »^(١) لأن الجسم لا يأخذ راحته ، ولا يهدأ إلا في الظلمة ، فيصبح الإنسان قوياً مستريحاً نشيطاً ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۖ (١١) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۚ (١٢) ﴾ [النبا]

ومن دقّة الاداء القرآني أن يراعى هؤلاء الذين يعملون ليلاً ، وتقتضى طبيعة أعمالهم السَّهَر ، مثل رجال الشرطة وعمال المخازن وغيرهم ، فيقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (٢٢) ﴾ [الروم] فالليل هو الأصل ، والنهار لمثل هؤلاء الذين يخدمون المجتمع ليلاً ؛ لذلك عليهم أن يجعلوا من النهار ليلاً صناعياً ، فيخلقوا النوافذ ويناموا في مكان هادئ ؛ ليأخذ الجسم حظه من الراحة والهدوء .

إذن : الليل والنهار ليسا ضدّين ، إنما هما خَلْقَان متكاملان لا متعاندان ، وهما كالذكر والأنثى ، يكمل كل منهما الآخر ، لا كما يدعى البعض أنهما ضدان متقابلان ؛ لذلك بعد أن أقسم الحق سبحانه بالليل إذا يغشى ، وبالنهار إذا تجلّى ، قال : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل] فالليل والنهار كالذكر والأنثى لكل منهما مهمة في حركة الحياة .

واختلاف الليل والنهار من حيث الضوء والظلمة والطول والقصر وفي اختلاف الأماكن ، فالليل لا ينتظم الكون كله ، وكذلك النهار ،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٦٢٤) وأحمد في مسنده (٢٨٨/٣) من حديث جابر

ابن عبد الله ، واللفظ للبخاري .

فحين يكون عندك لَيْلٌ فهو عند غيرك نهار ، يقول تعالى : ﴿يُولِجُ
الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ..﴾ (١٧) [فاطر]

وينتج عن هذا تعدد المشارق والمغارب بتعدد الأماكن بحيث كل
مشرق يقابله مغرب ، وكل مغرب يقابله مشرق ، لدرجة أنهم قالوا :
ينشأ ليل ونهار في كل واحد على مليون من الثانية .

وينشأ عن هذا كما قلنا استدامة ذكر الله على مدى الوقت كله ،
بحيث لا ينتهي الأذان ، ولا تنتهي الصلاة في الكون لحظة واحدة ،
فأنت تصلي المغرب ، وغيرك يصلي العشاء .. وهكذا . إذن : فالحق
سبحانه يريد أن يكون مذكوراً في كل الكون بجميع أوقات الصلاة في
كل وقت .

حتى إن أحد الصوفية وأهل المعرفة يقول مخاطباً الزمن : يا زمن
وفيك كل الزمن . يعنى : يا ظهر وفيك عصر ومغرب وعشاء وفجر ،
لكن عند غيرى .

ومن اختلاف الليل والنهار ينشأ أيضاً الصيف الحار والشتاء
البارد ، والحق سبحانه وتعالى كلف العبيد كلهم تكليفاً واحداً كالحج
مثلاً ، وربطه العبادات كلها بالزمن الهجرى ، فالصيف والشتاء يدوران
في الزمن ، ويتضح هذا إذا قارنت بين التوقيت الهجرى والميلادى ،
وبذلك مَنْ لم يناسبه الحج في الصيف حَجٌّ في الشتاء ؛ لأن اختلاف
التوقيت القمري يكون السنة كلها بكل الأجواء .

لذلك قالوا : إن ليلة القدر تدور في العام كله ؛ لأن السابع
والعشرين من رمضان يوافق مرة أول يناير ، ومرة يوافق الثانى ،
ومرة يوافق الثالث ، وهكذا .

ومن اختلاف الليل والنهار أنهما خلفه ، كما قال تعالى :
﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ
شُكُورًا ۖ ﴾ (٦٢)

فنحن نرى الليل يخطف النهار ، والنهار يخطف الليل ، لكن احكم
القضية في كل أطوار زمنها ، فما دام الحق - سبحانه وتعالى - جعل
الليل والنهار خلفه ، فلا بد أن يكون ذلك من بداية خلقهما ، فلو وجد
الليل أولاً ثم وجد النهار ، فلا يكون الليل خلفه ؛ لأنه لم يسبقه
شيء ، فهذا يعنى أنهما خلقا معاً ، فلما دار الزمن خلف بعضهما
الآخر ، وهذا لا ينشأ إلا إذا كانت الأرض مَكُورَةً ، بحيث يجتمع فيها
الليل والنهار في وقت واحد ، فالذي واجه الشمس كان نهاراً ، والذي
واجه الظلمة كان ليلاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ (٨٠) ﴾ [المؤمنون] لأن هذه المسائل
كان يجب أن تعقلوها خاصة ، وقد كانت اختلافات الاوقات مَبْنِيَةٌ على
التعقل ، أما الآن فهي مَبْنِيَةٌ على النقل ، حيث تقاربت المسافات ،
وصرنا نعرف فارق التوقيت بيننا وبين جميع أنحاء العالم بالتحديد .

كذلك كان الناس في الماضي ينكرون نظرية كروية الأرض ، حتى
بعد أن النقطوا لها صوراً أظهرت كرويتها وجدنا من مفكرينا من ينكر
ذلك . ونقول : لماذا نقف هذا الموقف من نظريات ثابتة قد سبق
قرآننا إلى هذا القول ؟ ولماذا نعطي الآخرين فكرة أن ديننا يغفل هذه
المسائل ، مع أنه قد سبق كل هذه الاكتشافات ؟

ولو تأملت قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ .. ﴾ (٣) [الرعد]
لوجدت فيه الدليل القاطع على صدق هذه النظرية ؛ لأن الأرض
الممدودة هي التي لا تنتهي إلى حافة ، وهذا لا يتأتى إلا إذا كانت

الأرض كروية بحيث تسير فيها ، لا تجد لها نهاية حتى تصل إلى
الموضع الذى منه بدأت ، ولو كانت الأرض على أى شكل آخر غير
الكروي مثل المربع أو المستطيل لكان لها نهاية . لكن لم تتوفر لنا
فى الماضى الآلات التى توضح هذه الحقيقة وتظهرها .

إذن : الحق سبحانه في قوله : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٨٠) [المؤمنون] ينبهنا إلى ضرورة إعمال العقول في المسائل الكونية : لأنها ستوفر علينا الكثير في الطريق إلى الله عز وجل ، ولماذا يُعمل الإنسان عقله ويتفَنَّن مثلاً في ارتكاب الجرائم فَيُرْتَب لها ويُخَطَط ؟ لكن الله تعالى يكون له بالمرصاد فيوقعه في مَزَلَق ، فيترك وراءه منفذاً لإثبات جريمته ، وثغرة تُوصَلُ إليه ؛ لذلك يقول رجال القضاء : ليست هناك جريمة كاملة ، وهذه مهمة القاضي أو المحقق الذي يحاور المجرم ليصل إلى هذه الثغرة .

وكان الحق - سبحانه وتعالى - يقول : لقد استخدمت عقلك فيما لا ينبغي ، وسخرته لشهوات نفسك ، فلا بد أن أوقعك في مزلق ينكشف فيه أمرك ، فإن سترتها عليك مرة فإياك أن تتمادى ، أو تظن أنك أفلت بعقلك وترتيبك وإلا أخذتك ولو بجريمة لم تفعلها ؛ لأنك لا تستطيع أن ترتب بعقلك على الله ، وعدالته سبحانه فوق كل ترتيب .

كما لو قُضِحَ إنسان بأمر هو منه برىء ، ولحقه الأذى والضرر بسبب هذه الإدانة الكاذبة ، فتأتى عدالة السماء فيستر الله عليه فضيحة فعلها جزاء لما قد أصابه فى الأولى ، وهذه مسألة لا يفعلها إلا رب .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما يُنبِّه العقل ويثيره : تفكّر ، تدبّر ، تعقّل ، ليدرك الأشياء الكونية من حوله ، فهذا دليل على أنه

سبحانه واثق من صُنْعته وإبداعه لكونه ؛ لذلك يثير العقول للبحث وللتأمل في هذه الصناعة .

وهذه المسألة نلاحظها فيمن يعرض صُنْعته من البشر ، فالذي يتقن صُنْعته يعرضها ويدعوك إلى اختبارها والتأكد من جودتها على خلاف الصناعة الرديئة التي يلفها لك صانعها ، ويصرفك عن تأملها حتى لا تكشف عيبها .

فحين ينبهك ربك إلى التأمل في صُنْعته فعليك أن تدرك المعزى من هذه الإثارة لتصل إلى مراده تعالى لك .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴾ (٨١)

أى : لم يتعظوا بكل هذه الآيات ، بل قالوا مثلما قال الاولون :

﴿ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا

أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (٨٢)

وسواء أكان هذا قولهم أو قول سابقين من الاولين ، فقد كان الشك عند الذين عاصروا الدعوة المحمدية فى مسألة البعث من الموت ، وكل كلامهم يؤدى إلى ذلك ، فهم تعجبوا من حدوث هذا الأمر .

ولذلك قال قائلهم : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧٩) ﴿

[يس]

﴿ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا

إِلَّا أَسْطِيرٌ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٨٣)

أتظنون أن الله تعالى إذا وعدكم بالموت ثم بالبعث أن هذا سيكون في الدنيا ؟ لذلك تقولون : وَعِدْنَا بهذا من قبل ولم يحدث ، وقد مات منا كثيرون ولم يعودوا ولم يُبْعَثُوا ، فَمَنْ قال لكم إنكم ستموتون اليوم وتُبْعَثون غداً ؟

البعث لا يكون إلا بعد أن يموت جميع الخلق ، ثم يُبْعَثُوا كلهم مرة واحدة .

إذن : هذا الكلام منهم مجرد سفسطة وجدل لا معنى له .
وكلمة ﴿وَعِدْنَا .. (٨٢)﴾ [المؤمنون] يعنى بالبعث ، والوعد عادة يكون بالخير، كما أن الوعيد يكون بالشر ، كما جاء في قول الشاعر :
وَأِنِّي إِذَا أَوْعَدْتُ أَوْ وَعَدْتُه لَعُخْلَفُ إِيعَادِي وَمُنْجَزُ مَوْعِدِي
يعنى : هو رجل كريم يترك الشر الذي توعد به ، ويفعل الخير الذي وعد به ، وإن قال العلماء : قد يستعمل هذا مكان هذا .

لكن ، هل الوعد للكفار بالبعث وما يتبعه من عذاب وعقاب يُعدُّ وَعْدًا ؟ قالوا : نعم يعد هذا الشر وهذا العذاب الذي ينتظر وَعْدًا بالخير لانه يُنبههم ويكفّهم إلى خطورته حتى لا يقعوا فيه إذن : هو خير لهم الآن حيث يُحذّرهم كما تحذر ولدك من الرسوب إن أهمل في دروسه .

ومن ذلك أيضاً في هذه المسألة ما أشرنا إليه من تكرار قوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٢)﴾ [الرحمن] في سورة الرحمن ، وأنها جاءت بعد ذكر نعم الله على سبيل التوبيخ لَمَنْ أنكر هذه النعم أو كذّب بها ، وتكررت مع كل نعمة تأكيداً لهذه التوبيخ ، لكن العجيب أن تذكر هذه الآية حتى بعد النقم أيضاً ، كما في قوله تعالى :

﴿يَوْمَلْ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنَحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦)﴾ [الرحمن]

وهل فى النار والشواظ نعمة ؟ نقول : نعم فيها نعمة ؛ لأنها نصيحة لك قبل أن تقع فى هذا المصير وتحذير لك فى وقت التدارك حتى تراجع نفسك .

وقولهم : ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٢)﴾ [المؤمنون] ﴿إِنْ هَذَا.. (٨٢)﴾ [المؤمنون] يعنى : ما هذا . وأساطير : جمع أسطورة مثل : أعاجيب وأعجوبة ، وهناك مَنْ يقول : إن أساطير جمع سطر أسطار أساطير مثل شكل وأشكال ، فهى جَمْع للجمع . وسواء أكانت جَمْع أسطورة أو جمع سطر ، فالمعنى لا يختلف ؛ لأن الشيء المسطور قد يعتبره الناس خرافة وكلاماً لا معنى له .

والأساطير هى الكلام المكذوب الذى لا أصل له ، فلا يُسمى الكلام أسطورة إلا إذا جاء وقته ولم يحدث ، فلك أن تقول أساطير إنما البعث الذى تقولون عنه ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٢)﴾ [المؤمنون] لم يات وقته بعد ، فلم يمت جميع الخلق حتى يُبعثوا ، فقد أخطاتم التوقيت وظننتم أنكم فى الدنيا تموتون وتبعثون هكذا على رؤوس الأشهاد ، والناس ما زالت فى سعة الدنيا .

إذن : ليس البعث كما تقولون ، بل هو حق ، ولكنكم لم تضعوا له الكلمة المناسبة ؛ لذلك يوجه إليهم هذه الاسئلة التقريرية التى تقيم عليهم الحجة :

﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن

كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤)﴾

ويأتى فى السؤال بأن الشرطية الدالة على الشك فى كونهم يعلمون .

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٨٥)

فما دُمتُم أقررتم بأن الأرض ومن فيها لله ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٨٥)
[المؤمنون] يعنى : ما الذى صرفكم عن مالك الأرض وخالقها ؟
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ
وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٨٦)

نلاحظ أنهم لم يجادلوا فى هذه المسألة ، ولم يقولوا مثلاً إنها سماء واحدة هى التى نراها ، مما يدل على أنها أمر غير منكور عندهم ، ولا بد أن الأنبياء السابقين قد أخبروهم خبر السماء ، وأنها سبع سموات ، وأصبحت عندهم قضية عقلية يعرفونها ، وإلا كان بوسعهم الاعتراض ، حيث لا يرون إلا سماء واحدة . إذن : لم يجادلوا فى هذا الموضوع .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٨٦) [المؤمنون] العرش مخلوق عظيم لا يعلم كُنْهه إلا الله الذى قال فيه ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ .. ﴾ (٥٤) [الاعراف] وقال ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. ﴾ (٧) [هود]

والعرش لم يره أحد ، إنما أخبر عنه ربه الذى خلقه ، فقال : لى كذا لى كذا ، ويكفى أن الله تعالى وصفه بأنه عظيم . وفى هذه أيضاً لم يجادلوا رسول الله ولم يقولوا إننا لم نر العرش ، مما يدل على أن عندهم حصيلة من تراث الأنبياء السابقين انتقلت إليهم فطرة من فطر التكوين البشرى فى السماع من الموجودين .

وقد وصف العرش بأنه عظيم عند البشر أيضاً ، ففي قصة سليمان ومملكة سبا قال الهدد : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل] لأن العرش رمزية لاستقرار الملك واستتباب الأمر للملك الذي لا ينازعه في ملكه أحد ، ولا يناوشه عليه عدو ؛ لذلك أول ما قال سليمان - عليه السلام - في أمرها قال : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا .. ﴾ [النمل] وكأنه يريد أن يسلب منها أولاً رمز العظمة والأمن والأمان والاستقرار في الملك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٨٧)

فما دام الأمر كذلك وما دُمت تعترفون بأن الله ملك السموات والأرض ، وله العرش العظيم ، فلماذا لا تتقون هذا الإله ؟ لماذا تعمدون على منهجه ؟ إن هذا الكون كله بما فيه خلق لخدمتك ، أفلا يلفتك هذا إلى الصانع المنعم .

لذلك يقول تعالى في الحديث القدسي : « يا ابن آدم ، خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتك من أجلى ، فلا تشغل بما هو لك عما أنت له »^(١) يعني : لا تلهك النعمة عن المنعم . وعلى العبد أن ينظر أولاً إلى خالقه ومالكة ، فيؤدي حقه ، ثم ينظر إلى ما يملك هو .

ومعنى : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٨٧) [المؤمنون] الانتقاء : أن تجعل بيتك وبين صفات الجلال من الله وقاية ، وسبق أن قلنا : من عجيب آيات القرآن أن تقول مرة (اتقوا الله) ومرة (اتقوا النار) ، والمعنى لا تعارض فيه كما يظنه البعض ، بل المعنى واحد : لأن النار جند

(١) أورد ابن كثير في تفسيره (٢٢٨/٤) : « ورد في بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وتكلمت بربك فلا تسب ، فاطلبنى تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فُتكت فلك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء » .

من جنود الله ومن صفات جلاله ، فالمراد : اتقوا عذاب الله ، واتقوا صفات القهر والجبروت بأن تجعل بيتك وبينها وقاية .
ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُخِيرُ
وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِلَّا كُفِّرَتْ كَلِمُونَ ﴾ (٨٨)

معنى ﴿ بِيَدِهِ .. ﴾ (٨٨) [المؤمنون] تدل على التمكن من الشيء ، كما تقول : هذا الأمر في يدي يعنى فى مكنتى وتصرفى ، أقلبه كيف أشاء ﴿ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴾ (٨٨) [المؤمنون] مادة ملك منها ملك ، ومنها ملك ، ومنها ملكوت .

الملك ما تملكه أنت ، حتى لو لم يكن عندك إلا ثوب واحد فهو ملك ، أما ملك فيعنى أن تملك مَنْ يملك ، وهذا يكون ظاهراً . أما الملكوت فالأشياء المخلوقة التى لا تقع عليها حواسك ، ولا يمكن أن تعلم عنها شيئاً إلا بإخبار خالقها ، والإنسان لا يرى كل ما فى الكون ، بل إن فى نفسه وذاته أشياء لا يعرفها ، فهذا كله من عالم الملكوت .

بل إن الإنسان لا يرى حتى الملك الظاهر المحسّ : لأنه لا يرى منه إلا على قَدْرٍ مَدُّ بصره ، وما خرج عن هذا النطاق لا يراه ، وإن كان يراه غيره ، ويمكن أن يدخل هذا الملك الذى لا تراه فى دائرة الملكوت بمعناه الواسع .

إذن : الملكوت يُطلق على الأشياء المحسوبة التى لا يراها أحد ، أو على الأشياء التى يراها واحد دون الآخر .

والإنسان إذا تعمَّق في عبادة الله وفي طاعته يفيض عليه من
التجليات ، ويعطيه من هذا الملكوت عطاءً مباشراً ، كما قال : ﴿مَنْ
لَدُنَّا .. ﴾ (٦٧) [النساء]

ألا ترى إبراهيم عليه السلام قال عنه ربه : ﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي
وَفَّى ﴾ (٣٧) [النجم] وقال عنه : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ
فَاتَّمَّهْن .. ﴾ (١٢٤) [البقرة] يعنى : يؤدى ما لله بدقة وعلى الوجه
الاكمل ؛ لذلك ياتمه ربه على أن يكون إماماً للناس ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ
لِلنَّاسِ إِمَامًا .. ﴾ (١٢٤) [البقرة]

فلما أحسن إبراهيم ما بينه وبين ربه وبلغ هذه المنزلة قال عنه
ربه : ﴿وَكَذَلِكَ نَرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (٧٥) [الأنعام]
لأنه أحسن فى الأولى فرقى إلى أعلى منها . كما لو دخل رجل
بيتك وشاهد ما عندك من نعيم ، ففرح لما أنت فيه ، وقال : ما شاء
الله تبارك الله ، ودعا لك بالزيادة ، فلما رأيت منه ذلك قلت له إذن :
تعالى أريك ما هو أعظم .

كذلك العبد الصالح الذى عبد الله وتقرَّب إليه بمنهج موسى عليهما
السلام ، فلما استقام على هذا المنهج وتعمَّق في عبادة الله وطاعته
أعطاه الله من علمه اللدنى دون واسطة ودون رسول ، حتى كان هو
مُعَلِّمًا لموسى عليه السلام .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ .. ﴾ (٨٨) [المؤمنون]
يجير : تقول : استجار بفلان فأجاره يعنى : استغاث به فساغاه ،
ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ .. ﴾ (٤٨) [الأنفال] والإنسان لا
يستجير بغيره إلا إذا ضَعُفَتْ قوته عن حمايته ، فيلجأ إلى قوى
يحميه ويدافع عنه .

إذن : هذه المسألة لها ثلاثة عناصر : مجير ، وهو الذى يقبل أن يغيثك ويحتضنك ويدافع عنك . ومُجَار : وهو الضعيف الذى يطلب الحماية . ومُجَار عليه : وهو القوى الذى يريد أن يبطش . ومن المعروف أن رسول الله ﷺ فى رحلته إلى الطائف وبعد أن فعلوا به ﷺ ما فعلوا استجار ، ودخل فى حِمى كافر .

فالحق - سبحانه وتعالى - يجير مَنْ استجار به ، ويغيث مَنْ استغاثه لكن ﴿ لَا يُجَارُ عَلَيْهِ .. ﴾ (٨٨) [المؤمنون] لأن الذى يجيرك إنما يجيرك من مساو له فى القوة ، فيستطيع أن يمنعك منه ، ويحميك من بطشه ، فَمَنْ ذَا الذى يحميك من الله ؟ وَمَنْ يجيرك إِنْ كَانَ الله هو طالبك ؟

لذلك يقول سبحانه فى مسألة ابن نوح : ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ .. ﴾ (٤٣) [هود] فالله - عز وجل - يجير على كل شيء ، ومن أصبح وأمسى فى جوار ربه فلا خوف عليه .

وتلاحظ هنا العلاقة بين صدر هذه الآية وعجزها : فالله تعالى بيده وفى قبضته سبحانه كل شيء ، والامر كله إليه ، فإياك أن تظن أنك تغفلت من قبضته بالنعمة التى أعطاك ؛ لأنه سبحانه قادر أن يسلبك إياها ، وساعتها لن يجيرك أحد ، ولن يغيثك من الله مغيث ، ولن يعصمك من الله عاصم .

ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢٦) [آل عمران]

وهنا أيضاً يقول سبحانه : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٨) [المؤمنون] إِنْ كَانَ عندكم علم بهذه المسألة ووصلت إليكم وعاينتموها .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ^(١) ﴾ (٨٩)

ففى هذه أيضاً يقولون « لله » : لأنه واقع ملموس لا يُنكر ، وطالما أن الأمر كذلك ﴿ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) ﴾ [المؤمنون] كيف تسحرون أو أسحرتكم عن هذا الواقع وصرفتم عنه إلى هذا الكلام الباطل ؟

هذه قضايا ثلاث جاءت على صورة سؤال لتدينهم بوضوح العقيدة فى الوجود الأعلى ، وبوضوح البينات فى إعجاز البلاغ عن الله ، وبوضوح الآيات فى آيات المنهج ، وقد أراد الحق سبحانه أن يأتى الكلام منهم وبإقرارهم هم على أنفسهم : ليكون حجة وشهادة حق عليهم .

ومعلوم أن الإقرار سيد الأدلة : لذلك سألهم : ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا .. ﴾ (٨٤) [المؤمنون]

﴿ وَقُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّعْيِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٨٦) [المؤمنون]

﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴾ (٨٨) [المؤمنون]

وهم يقولون فى هذا كله (الله) إذن : فماذا بقى لكم ؟ ما الذى منعكم أن تتقوا الذى تؤمنون بأنه المالك للأرض وللسماء وبيده كل شيء ؟ إنه مجرد استكبار وعناد وغطرسة ، وإلا فماذا تعنى كلمة (الله) التى تنطقون بها ؟

إنكم تعرفون الله ، وتعرفون مدلول هذه الكلمة : لأن مدلول الكلمة سابق على وجودها فى لغة البشر ، فاللغة عادة ألفاظ توضع لمعان

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤٦٧٩/٦) : « أى : فكيف تُخدعون وتُصرفون عن طاعته وتوحيده . أو : كيف يخيّل إليكم أن لا تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع . »

تدل عليها ، فالمعنى يُوجد أولاً ، ثم نضع له اللفظ الدالّ عليه ، وما دام أن لفظ (الله) يدور على ألسنتكم ولا يدُ أنكم تعرفون مدلوله ، وهو قضية لغوية انتهيتم منها ، وإلا فالامر العدمي لا اسم له . فالتلفزيون مثلاً : ما اسمه قبل أن يخترع ؟ لم يكن له اسم ؛ لأنه لم يكن له معنى ، فلما وُجد وُضع له الاسم .

وحيث دارت الألسنة بكلمة الله فمعنى ذلك أنه تعالى موجود قبل وجود الاسم ، فالمسألة - إذن - حجة عليكم .

لذلك عرض الحق - سبحانه وتعالى - هذه القضايا في صورة سؤال لينتزع منهم الإقرار بها ، كما لو أنكروا شخص جميلك فيه ، فإن قلتَ له على سبيل الإخبار : لقد قدمتُ لك كذا وكذا ، والخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب وله أن يعترف أو ينكر .

أما حين تقول له : ألم أقدم لك كذا وكذا ؟ على سبيل الاستفهام ، فإنه لا يملك إلا الاعتراف ، وينطق لك بالحق وبالواقع ، وتصل بإقراره إلى ما لا تؤديه الشهادة أو البينة عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

يعنى : دعونى أخبركم عن أمرهم ، ولماذا أنكروا الحق ولم ينطقوا به ، إنهم ينكرون الحق لأنهم كاذبون ويريدون أن يُثبتوا أن ما هم عليه أمر طبيعي ، لماذا ؟ لأنهم مستفيدون من الانحراف ومن الباطل ؛ لذلك يقفون في وجه الرسالة التي جاءت لتعزيل الميزان والقضاء على الانحراف والباطل ، ويلجئون إلى تكتيبيها وصرف الناس عنها ليظلوا ينتفعون هم بالباطل .

لذلك تأمل : لماذا يُكذَّب الناس ؟ يكذبون لأنهم ينتفعون من الكذب ، ويتعبدون الصدق ، ويضيق عليهم الخلق .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (٩١)

يا ليت الامر وقف بهم عند مجرد عدم الإيمان بالله ، إنما تعداه إلى أن وصفوا الله تعالى بما لا يليق من الصفات ، وما دام أن الله تعالى ينفي عن نفسه تعالى اتخاذ الولد ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ .. ﴾ (٩١) [المؤمنون] فلا بد أنهم قالوا : اتخذ الله ولداً ، فترقوا في فجورهم وطغيانهم ، وتجروا حتى على مقام العزة .

ونقول أولاً : ما الولد ؟ الولد ما ينجبه الإنسان من ذكر أو أنثى ، وقد سمعنا هؤلاء يقولون : عيسى ابن الله ، والعزير ابن الله ، وقالوا عن الملائكة : بنات الله ، وقد قال تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ .. ﴾ (٩١) [المؤمنون] ليشمل البنين والبنات .

ومعنى ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ .. ﴾ (٩١) [المؤمنون] أن الله تعالى كان موجوداً ، ثم اتخذ له ولداً ، فاتخاذ الولد إذن حادث ، وهذا يعني أنه قد مرت فترة لم يتخذ الله له فيها ولداً ، لذلك نسأل : ما الذي زاد في ملك الله بوجود الولد ؟ هل أصبحت السموات ثمانية ؟ هل زاد في الكون شمس أخرى أو قمر ؟ الكون كما خلقه الله تعالى ، وجعل فيه

ضرورياته وأصوله وفروعه لم يزد فيه شيء . إذن : فاتخاذ الولد عبثاً لم يحدث منه شيء .

ويقولون : اتخذ الله الولد ليؤنس خلقه بوجود ولده وشيء من راحته بين الخلق ، قالوا هذا في مؤتمر (نيقية) ، كأنه عندهم يقوم مقام الألوهية . لكن كم كانت مدة بقائه بينكم ؟ لقد أقام المسيح في الأرض بضعاً وثلاثين سنة قبل أن يُرفع ، فكيف يحرم من هذا الانس مَنْ سبقوا ميلاده عليه السلام ؟ وكيف يُحرم منه مَنْ أتوا بعده ؟ أليس في هذا ما يتعارض وعدالة الربوبية : لأن الخلق جميعاً خلق الله ، وهم عنده سواء ؟

ومنهم مَنْ يقول : إنه جاء ليرفع الخطيئة ، لكن الخطيئة ما زالت في الأرض بعدما فعل ما فعل . إذن : فكلها حُجَج واهية .

ولو ناقشنا هذه المسألة مناقشةً منطقيةً فلسفيةً : لماذا يتخذ الإنسان الولد ؟ يتخذ الإنسان الولدَ لأنه يحب الحياة ، وموته يختصر هذه الحياة ، فيريد الولد ليكون امتداداً لحياته ، ويضمن به بقاء الذكر جيلاً من بعده ، فإن جاء للولد ولد ضمن جيلين ؛ لذلك يقولون « أعزُّ من الولد ولد الولد » . لكن أي ذكر هذا الذي يتمسكون به ؟ إن الذكر الحقيقي ما تخلفه من بعدك من عمل صالح يسبقك عند الله .

والحق - سبحانه وتعالى - لا يحتاج إلى ذكر من بعده تعالى ؛ لأنه باقٍ لا يموت ، فهذه المسألة إذن ممنوعة في حقّه تعالى .

وقد يتخذ الولد ليكون سنداً وعوناً لأبيه حين يكبر وتضعف قواه ؛ لذلك يقولون : خير الزواج الزواج المبكر ؛ لأنه يساعدك على إنجاب أب يعولك في طفولة شيخوختك ؛ لأنك تنجب طفلاً وأنت

صغير ، فيعاصرك أكبر مدة من الزمن ، وتطول به قُرّة عينك على خلاف مَنْ ينجب على كِبَر ؛ لذلك قال : أب يعولك فى طفولة شيخوختك ولم يقل ابناً لأنك فى هذه الحال تحتاج إلى حنان الأب .

وهذه أيضاً ممتنعة فى حقه تعالى ؛ لأنه سبحانه القوى ، الذى لا يحتاج إلى معين ، ولا إلى عزوة .

مسألة أخرى : أن الإنسان يحب الولد ؛ لأنه بَعْضُ منه ، وهو سبب فى وجوده ، فيحب أن يكون له ولد من صُلْبِهِ ، وهذا فرع من حُبِّهِ للتملُّك ، فالإنسان أول ما يحب يحب أن تكون له أرض ، ثم يحب أن يزرعها ويأكل من خيراتها ، ثم يحب أن تكون له حيوانات يشرب لبنها ويستفيد منها ، ثم إنَّ تَمَّ له هذا كله يتطلع إلى الولد ، وكأنه تدرُّج من حب الجماد إلى النبات ، إلى الحيوان ، إلى الإنسان .

وهذه المسألة أيضاً لا تجوز فى حقه تعالى ، فإنَّ أحببت الولد ليكون جزءاً منك ومن صُلْبِكَ تعتز به وببُنوته ، فالخُلُقُ جميعاً عيال الله وأولاده ، فكيف يحتاج إلى الولد بعد ذلك ؟

إذن : كلها حجج ومسائل باطلة ؛ لذلك ردَّ الله عليهم ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ .. ﴾ (٩١) [المؤمنون] وأتى بمنّ الدالة على العموم ، يعنى : ما اتخذ الله شيئاً من بداية ما يُقال له ولد ، ولو كان حتى مُتَبَنًى ، كما تقول : ليس عندى مال ، فتتفنى أن يكون عندك مال يُعتد به أو ذو قيمة ، لكن هذا لا يمنع أن يكون عندك عدة جنيهاً أو قروش . فإن قلت : ما عندى من مال ، فقد نفيت أن يكون عندك أقلّ ما يُقال له مال .

ونردّ بهذه المسألة على مَنْ يقول أن (من) هنا زائدة ؛ لأن كلام الله دقيق لا زيادة فيه ، الزيادة فى كلام البشر ، والحق سبحانه منزّه عن هذه المسألة .

ثم يرتقى بنا الحق سبحانه في الرد عليهم فيقول : ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون] يعنى : معبود بحق أو بغير حق ؛ لذلك سمى الأصنام آلهة ، لكن كلمة الله انصرفت إلى المعبود بحق سبحانه وتعالى ، فنفى الحق سبحانه الشركاء معه فى العبادة ، كما جاء فى موضع آخر : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢)﴾ [الانبياء] يعنى : لو كان فيهما آلهة الله خارج منها لفسدت السماء والارض ، وكذلك لو كان فيهما آلهة مع الله لفسدتا أيضاً ؛ لأنّ إلهنا ليست استثنائية ، إنما هى اسم بمعنى غير ، وقد ظهر إعرابها على لفظ الجلالة بعدها (الله) .

ومسألة تعدد الآلهة لو تأملتها لبان لك بطلانها ، فإن كان مع الله آلهة لاقتسموا هذا الكون فيما بينهم ، وجعلوه قطاعات ، يأخذ كل منهم قطاعاً فيه ، فواحد للأرض ، وآخر للسماء ، وثالث لما بين الأرض والسماء وهكذا .

ولكن ، هل يستغنى قطاع من الكون عن الآخر ؟ أتستغنى الأرض عن السماء ؟ إذن : سيحدث تضارب لا يستقيم معه حال الكون .

كذلك نقول : الإله الذى أخذ الأرض مثلاً ، لماذا لم يأخذ السماء ؟ لا بدّ أنه أخذ الأرض بقوّته ، وترك السماء لعجزه ، ولا يصلح إلهاً مَنْ وُصِفَ بهذه الصفة ، فإن قالوا : إنهم جميعاً أقوياء يستطيع كل واحد منهم أن يخلق الخلق بمفرده نقول : إذن ما فائدة الآخرين ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿إِذَا لَدَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون] يعنى : لو استقل كل منهم بقطاع من الكون دون الآخر لفسدت الأمور ، كما رأينا فى دنيا البشر أن يحاول أحد

الملوك أن يستقل بقطاع من الأرض لا حق له فيه ، ورأينا ما أحدث من فساد في الأرض ، هذا مثال لقوله تعالى : ﴿وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون] وهي صورة من صور الفساد .

لذلك يعالج الحق سبحانه هذه القضية ويعلنها على الملأ : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُوا الْعِلْمَ .. (١٨)﴾ [آل عمران]

فليس هذا كلامنا ، وليست هذه شهادتنا ، بل كلام الله وشهادته سبحانه لنفسه ، لكن هل علم هؤلاء الآلهة بهذه الشهادة ؟ إن علموا بهذه الشهادة فسكوتهم عليها وعدم اعتراضهم عجز ، وإن لم يدروا فهم غافلون نائمون ، ففي كلتا الحالتين لا يصبح أن يكونوا آلهة .

وفي موضع آخر يرد عليهم الحق سبحانه : ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا .. (٤٢)﴾ [الإسراء] يعنى فى هذه الحالة ﴿لَأْتَفَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢)﴾ [الإسراء] يعنى : ذهبوا يبحثون عن الإله الذى أخذ منهم الكون ، وتعدى على سلطانهم ، إما ليجابوه ويحاكموه ، وإما ليتقربوا إليه .

لذلك سيقول عن الذين تدعون أنهم آلهة من دون الله : ﴿يَتَّخُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ .. (٥٧)﴾ [الإسراء] يعنى : عيسى والعزير والملائكة الذين قلتهم إنهم بنات الله ، هؤلاء جميعاً يتوسلون إلى الله ويتقربون إليه ﴿أَتَيْهِمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ .. (٥٧)﴾ [الإسراء]

وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .. (١٧٧)﴾ [النساء]

إنهم لا يستنكفون عن عبوديتهم لله ، بل يعتزون بهذه العبودية ،

وَيُغْضِبُهُمْ وَيَسُوؤُهُمْ أَنْ نَقُولَ عَنْهُمْ آلِهَةٌ ، أَوْ نَعْطِيَهُمْ مِنَ التَّقْدِيسِ أَكْبَرَ مِمَّا يَسْتَحِقُّونَ ؛ ذَلِكَ لِأَنِّ وَلَاءَهُمْ وَعَصَبِيَّتُهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى أَكْبَرُ مِنْ وَلَائِهِمْ وَعَصَبِيَّتِهِمْ لِنَفْسِهِمْ .

لذلك ، فإن هذه الأشياء التي يتخذونها آلهة من دون الله هي أول مَنْ يلعنهم ، فالأحجار التي عبدوها من دون الله - مع أن كلمة العبادة هنا خطأ ونقولها تجاوزاً ؛ لأن العبادة طاعة العابد لأمر المعبود ، وانتهاءه بنهيه ، والأحجار ليس لها أوامر وليس لها نواه - هذه الأحجار أعبد منهم الله ، وأعرف منهم بالله ؛ لذلك تكرههم الحجارة وتلعنهم ، وتتحول عليهم في القيامة ناراً تحرقهم .

اقرأ هذا الحوار الذي يتنافس فيه غار حراء الذي شهد بداية الوحي وأنس فيه رسول الله ﷺ بأول آيات القرآن ، وغار ثور الذي احتُمي فيه رسول الله عند الهجرة ، وكلاهما أحجار ، يقول الشاعر^(١) :

كَمْ حَسَدْنَا حِرَاءَ حِينَ تَرَى	الرُّوحَ أَمِينًا يَغْذُوكَ بِالْأَنْوَارِ
فَحِرَاءُ وَثُورُ صَارَا سَوَاءَ	بِهِمَا اشْفَعِ لِدَوْلَةِ الْأَحْجَارِ
عَبَدُونَا وَنَحْنُ أَعْبَدُ اللَّهَ	مِنَ الْقَائِمِينَ بِالْأَسْوَاحِ
تَخَذُوا صَمْتَنَا عَلَيْنَا دَلِيلًا	فَغَدُونَا لَهُمْ وَقُودَ النَّارِ
قَدْ تَجَنُّوا جَهْلًا كَمَا قَدْ تَجَنُّوهُ	عَلَى ابْنِ مَرْيَمَ وَالْحَوَارِ
لِلْمُغَالِي جَزَاؤُهُ وَالْمُغَالِي	فِيهِ تُنْجِيهِ رَحْمَةُ الْغَفَارِ

لذلك يقول تعالى لعيسى عليه السلام : ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ .. ﴾ (١١٦) [المائدة]

(١) من شعر فضيلة الشيخ الشعراوي رحمه الله .

فيقول عيسى : ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾ [المائدة]

نعم ، الله تعالى يعلم ما قال عبده ونبيه عيسى ، لكن يريد أن يقر عليهم بأنه كاره لقولهم هذه الكلمة .

والنبي ﷺ حينما هُزِمَ الرومان من الفرس حزن لهزيمة الرومان ، لماذا ؟ لأنهم أهل كتاب يعرفون الله ، ويعرفون البلاغ عن الله ، وإن كانوا كافرين به ، أما الفُرس فكانوا مَجُوسًا يعبدون النار ؛ لذلك يُطمئنه ربه بقوله : ﴿الَمْ (١) غَلَبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الروم]

فإن كانوا لا يؤمنون بمحمد ، فهم يؤمنون برب محمد ، فالعصبية - إذن - لله أكبر من العصبية للرسول المبلّغ عن الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٩١)﴾ [المؤمنون] يصفون بمعنى : يكذبون ، لكن عبّر عنه بالوصف كأن المعنى : إن أردت أن تعرف الكذب فاسمع إلى كلامهم فهو الوصف الدقيق له ، وقال في موضع آخر : ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ .. (٦٢)﴾ [النحل] فكلامهم هو الكذب بعينه ، وهو أصدق وصف له ؛ لأن الكذب ما خالف الواقع ، وهم لا يقولون إلا ما خالف الواقع .

كما لو سألت : ما الحماسة ؟ فأقول لك : انظر إلى تصرفات فلان ، يعني : هي الوصف الصادق للحماسة ، والترجمة الواضحة لها ، وكأنه بلغ من الوصف مبلغًا يُجسّم لك المعنى الذي تريده .

ومعنى : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ .. (١١)﴾ [المؤمنون] تنزهه ، وهى مصدر
وُجِدَ قبل أن يُوجَدَ المسيح ، فهى صفة لله تعالى أزلية ، حيث ثبت
تنزيه الله قبل أن يخلق الخلق ، فلما خلق الله السماء والأرض سُبِّحت
لله : ﴿سُبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٦)﴾ [الحديد] ولم ينقطع
التسبيح بعد ذلك ، قال الحق سبحانه : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ .. (١)﴾ [الجمعة]

وما دام الكل يُسَبِّحُ لله ، وما زال مُسَبِّحاً ، فسُبِّحَ أنت يا محمد :
﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى]

فكيف يكون الكون كله مُسَبِّحاً ، ولا تُسَبِّحُ أنت ، وأنت سيد هذا الكون ؟

ثم يقول الحق سبحانه عن ذاته العلية :

﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى

عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٢)﴾

العلم : إدراك قضية أو نسبة واقعة مجزوم بها وعليها دليل ، ولا
يصل إلى العلم إلا بهذه الشروط ، فإن كانت القضية مجزوماً بها
وواقعة ، لكن لا تستطيع أن تدلّ عليها كالطفل حين يقول : الله أحد ،
فهذا تقليد كما يُقَلَّدُ الولدُ أباه أو مُعلِّمه ، فهو يُقَلَّدُ غيره فى هذه
المسألة إلى أن يوجد عنده اجتهاد فيها ويستطيع هو أن يدلّ عليها .

فإن كانت القضية مجزوماً بها وليست واقعة ، فهذا هو الجهل ،
فليس الجهل كما يظن البعض ألا تعلم ، إنما الجهل أن تجزم بقضية
مناقضة للواقع .

لذلك تجد الجاهل أشق وأتعب لأهل الدعوة والمعلمين من الخالى
الذهن الذى لا يعرف شيئاً ، ليست لديه قضية بداية ، فهذا ينتظر
منك أن تُعلِّمه ، أمّا الجاهل فيحتاج إلى أن تُخرج من ذهنه القضية

الخاطئة أولاً ، ثم تضع مكانها الصواب .

والغيب : المراد به الغيب المطلق يعنى : ما غاب عنك وعن غيرك ، فنحن الآن مشاهد لمن حضر مجلسنا هذا ، إنما نحن غيب لمن غاب عنه ، وهذا غيبٌ مُقيد ، ومنه الكهرباء والجاذبية وغيرهما ؛ لأن هذه الاشياء كانت غَيِّبًا عَمَّنْ قبلنا مع أنها كانت موجودة ، فلما توصلنا إلى مقدماتها ظهرت لنا وصارت مشهداً ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ .. ﴾ (٢٥٥) [البقرة]

فأثبت الإحاطة للناس لكن بشرط مشيئته تعالى ، فإن شاء أطلعهم على الغيب ، وأوصلهم إلى معرفته حين يأتى أجل ميلاده وظهوره .

إذن : المعلوم لغيرك وغَيِّبٌ عنك ليس غيباً ، وكذلك الغيب عنك وله مقدمات تُوصِّلُ إليه ليس غيباً ، إنما الغيب هو الغيب المطلق الذى غاب عنك وعن غيرك ، والذى قال الله تعالى عنه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ (٢٦) إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. ﴾ (٢٧) [الجن]

والشهادة : يعنى المشهود ، لكن ما دام الحق سبحانه يعلم الغيب ، فمن باب أولى يعلم المشهود ، فلماذا ذكر الشهادة هنا ؟ قالوا : المعنى : يعلم الغيب الذى غَيِّبَ عني ، ويعلم الشهادة لغيرى .

ومن ناحية أخرى : ما دام أن الله تعالى غَيِّبٌ مستتر عنا ، وهناك كَوْنٌ ظاهر ، فربما ظن البعض أن المستتر الغيب لا يعلم إلا الغيب ، فاراد - سبحانه وتعالى - أن يؤكد على هذه المسألة ، فهو سبحانه غيب ، لكن يعلم الغيب والشهادة .

ونرى من الناس مَنْ يحاول أن يهتك ستار الغيب ، ويجتهد فى أن يكشف ما استتر عنه ، فيذهب إلى العرافين والمنجمين وأمثالهم ، وهو لا يدري أن الغيب من أعظم نِعَمِ الله على خَلْقِهِ ، فالغيب هو علة

إعمار الكون ، وبه يتم التعامل بين الناس ، ذلك لأن الإنسان ابن أغيار ، كثير القلب ، ولو علم كل منا وكُشِفَ له ما عند أخيه لتقاطع الناس ، وما انتفع بعضهم ببعض .

لذلك يقولون : لو تكاشفتُم ما تدافنتُم . يعنى : لو كُشِفَ لك عما فى قلب أخيك لَضُنُتَ عليه حتى يدفنه بعد موته .

إذن : فجعل هذه المسائل غيباً مستوراً يُحْشِنُ القلوب ، ويثرى الخير بين الناس ، فينتفع كل منهم بالآخر ، وإلا لو عَلمتَ لواحد سيئة ، وعرفتَ موقفه العدائى منك لكرهتَ حتى الخير الذى يأتيك من ناحيته ، ولتحرك قلبك نحوه بالحق والغل ، وما انتفعتَ بما فيه من حسنات .

لذلك ، نقول لمن يبحث عن غيب الآخرين : إن أردتَ أن تعرف غيب غيرك ، فاسمح له أن يعرف غيبك ، ولن تسمع له بذلك ، إذن : فدع الأمر كما أراده الله ، ولا تبحث عن غيب الآخرين حتى تستقيم دقة الحياة .

وربك دائماً يلفتك إلى النظر إلى المقابل ، ففي الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، دعوت على مَنْ ظلمك ، ودعا عليك مَنْ ظلمته ، فإن شئت أجبناك وأجبننا عليك ، وإن شئت تركتكما إلى الآخرة فيسعكما عفى »^(١) .

فالحق - تبارك وتعالى - يريد أن يُصَفَّى نفوس الخلق ، وأن يقف الناس عند حدود ما أطلعك الله عليه ، ولا تبحث عن المستور

(١) أورده الإمام أبو حامد الغزالي (١٨٢/٣) من قول يزيد بن ميسرة : إن ظلمت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول : إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك ، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفى .

حتى لا تتعب نفسك ، حتى تواجه مشاكل الحياة بنفسٍ صافية راضية
عنك وعن الناس .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٩٢) [المؤمنون] لأن ما
تشركونهم مع الله لا يعلمون شيئاً من هذا كله ، لا غيباً ولا شهادة :
لذلك لا ينفعك إن عبدته ، ولا يضرّك إن لم تعبدّه .
ثم يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴾ (٩٣)

رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٩٤)

﴿ قُلْ .. ﴾ (٩٣) [المؤمنون] أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿ رَبِّ .. ﴾
(٩٣) [المؤمنون] منادى حَذَفَتْ منه أداة النداء يعنى : يا رب ﴿ إِمَّا
تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴾ (٩٣) [المؤمنون] يعنى : من العذاب ﴿ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي
فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٩٤) [المؤمنون] أى : إن قَدَّرْتَ أَنْ تعذبهم فى حياتى
فلا تُعَذِّبهم وأنا فيهم .

وهذا من رقة قلبه ﷺ ، وحين اشتد به إيذاء الكفار وعنادهم
فى أول الدعوة أرسل الله إليه الملائكة تعرض عليه الانتقام من
قومه المكذّبين به ، لكنه يابى ذلك ويقول : « اللهم اهدِ قومى فإنهم
لا يعلمون »^(١) ويقول : « لعلّ الله يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَقُولُ :

(١) أخرج ابن أبى شيبه وأحمد فى الزهد وأبو نعيم وابن عساكر من طريق مجاهد عن عبيد
ابن عمير قال : إن كان نوح ليضربه قومه حتى يغمى عليه ، ثم يفيق فيقول : اهدِ قومى
فإنهم لا يعلمون . وقال شقيق : قال عبد الله : لقد رأيت النبى ﷺ وهو يمسح الدم عن
وجهه وهو يحكى نبياً من الأنبياء ، وهو يقول : اللهم اهدِ قومى فإنهم لا يعلمون . [أورده
السيوطى فى الدر المنثور ٤٨١/٣] . وانظر كتاب الزهد لأحمد بن حنبل (٢٧٨ ، ٢٨٠) .

لا إله إلا الله :

كما أن موقفه يوم فتح مكة واضح ومعروف : ذلك لأنه ﷺ أرسل رحمة للعالمين .

لكن ، هل قال الرسول ودعا بهذا الدعاء لأنه يعتقد أن الله يجعله معهم حين ينزل بهم العذاب ؟ نقول : لا : لأنه لم يقل هذه الجملة من نفسه ، إنما أمره الله بها ، ولم يكن رسول الله ليعتقد هذا الاعتقاد ، إذن : المسألة وحى من الله لا بد أن يبلغه ، وأن يقولها كما قالها الله : لأن مدلولها رحمة به فى الأ يرى من يعذب ، أو من باب قوله تعالى :

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لِّأُتْصِبِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً .. (٢٥)﴾ [الأنفال]

وهذا الدعاء الذى دعا به رسول الله يدفع عنه أى خاطر يطرأ عليه ، ويطمئنه أن هذا الأمر لن يحدث .

وقوله : ﴿إِنَّمَا تُرِيتَنِي .. (٦٣)﴾ [المؤمنون] عبارة عن (إن) و (ما) وهما يدلان على معنى الشرطية والزمنية ، فكانه قال : قل ساعة أن ينزل بهم العذاب : رب لا تجعلنى فى القوم الظالمين .

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٢٢٣١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٩٥) كتاب الجهاد من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهوم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى فإذا أنا بسخاية قد أظلمتني فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم على ثم قال : يا محمد فقال : ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبي ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا .

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُثَبِّتَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ (١٥)

أى : أننا قادرون على أن نثبت شيئاً مما وعدناهم به من العذاب ، لكنه ليس عذاب الاستئصال ؛ لأن الله تعالى أكرم أمته - حتى الكافر منها - بأن عافاها من هذا العذاب ، لأنه يأتى على الكافرين فلا يُبقى منهم أحداً ، ويمنع أن يكون من ذريتهم مؤمن بالله . فهب أن عذاب الاستئصال نزل بهم فى بدر مثلاً ، أكنّا نرى المؤمنين منهم ومن ذرياتهم بعد بدر ؟

إذن : لا يكون عذاب الاستئصال إلا إذا علم الله تعالى أنه لا فائدة منهم ، ولا حتى من ذريتهم من بعدهم ، كما حدث مع قوم نوح ، ألا ترى نوحاً عليه السلام يقول عنهم : ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ بَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (٢٧) [نوح]

ولا يمكن أن يقول نوح هذا الكلام ، أو يحكم على قومه هذا الحكم إلا بوحي من الله ؛ لأنه لا يستطيع أن يحكم على هذه القضية الكونية التى لا يعلمها إلا المكون الأعلى سبحانه ، فنحن نرى عتاة الكفر ورؤوس الضلال ، ثم يؤمنون بعد ذلك كله ويبلّون فى الإسلام بلاءً حسناً .

وانظر إلى عكرمة وخالد وعمرو بن العاص ، وكم تألم المؤمنون وحزنوا لأنهم أفلتوا من القتل ، لكن الله تعالى تدبير آخر ، وكأنه يذخرهم لخدمة الإسلام وحماية الدعوة .

فعكرمة بن أبى جهل يُظهر شجاعة نادرة فى موقعة اليرموك حتى يُطعن طعنة الموت ، ويستند إلى عمر ويقول وهو يجود بروحه فى سبيل الله : أهذه ميتة تُرضى عنى الله ورسوله ؟ هذا فى يوم

الخدمة^(١) الذي قال فيه الشاعر^(٢) :

إِنَّكَ لَوْ شَاهدْتَ يَوْمَ الخَدْمَةِ
إِذْ قَرُّ صَفْوَانٍ وَقَرُّ عَكْرَمَةٍ
وَلَحَقْتَنَّا بِالسُّيُوفِ الْمَسْلَمَةِ
يَقْلِقُنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمُجُمَةٍ
ضَرْبًا فَلَا تُسْمَعُ إِلَّا غَمَقَمَةٍ
لَهُمْ نَهْيٌ^(٣) حَوْلَهُ وَحَمَحَمَةٍ
لَمْ تَنْطَقِ بِاللَّوْمِ أَدْنَى كَلِمَةٍ^(٤)

أما عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فقد كان من أمرهما
ما نعرف جميعاً .

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾
﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾^(٩٦)

﴿ادْفَعْ .. (٩٦)﴾ [المؤمنون] تدل على المدافعة يعنى : أمامك خصم

(١) قال ابن الأثير : هو جيل معروف عند مكة . قال ابن برى : كانت به وقعة يوم فتح مكة .
ومنه يوم الخدمة ، وكان لقيهم خالد بن الوليد ، فهزم المشركين وقتلهم . [لسان
العرب - مادة : خندم] .

(٢) جاء فى لسان العرب : أن هذا الرجز نسبته ابن السيد البطلوسى فى العنث للراعى
الهذلى ، وذكر ابن برى أنه حماس بن قيس بن خالد الكنانى . وقيل : إن هذا الرجز لهريم
ابن الحطيم .

(٣) النهيت : الصياح . وقيل : هو الصوت من الصدر عند المشقة . [لسان العرب - مادة : نهت] .

(٤) أورد ابن منظور هذه الأبيات فى [لسان العرب - مادة : خندم] من قول الراعى الهذلى
لامراته وكانت لامته على انهزامه فقال هذه الأبيات . وكان قد قال قبل ذلك :

إِنْ يَقْبَلُوا الْيَوْمَ فَعَا بَى عَلَهُ
هَذَا سِلَاحٌ كَامِلٌ وَأَلَهُ
وَدُو غَرَارِينَ سَرِيْعُ السَّلَةِ

يهاجمك ، يريد أن يؤذيك ، عليك أن تدفعه عنك ، لكن دَفْعَ بالتي هي أحسن أى : بالطريقة أو الحال التي هي أحسن ، فإن أخذك بالشدة فقابلهُ باللين ، فهذه هي الطريقة التي تجمع الناس على دعوتك وتؤلفهم من حولك .

كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۚ ﴾ (١٥٩) [آل عمران]

فإن أردت أن تعطفهم نحوك فادفع بالتي هي أحسن ، ومن ذلك الموقف الذي حدث من رسول الله يوم الفتح ، يوم أن مكَّنه ربه من رقاب أعدائه ، ووقف أمامهم يقول : يا معشر قريش ، ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء »^(١) .

ونلاحظ أنهم كلموه بما يستميل قلبه ويعطفه نحوهم ، وذكَّروه بأواصر القرابة والرحم ، وحدثوه بما يُحَنِّن قلبه ، ولقَّنه ما ينتفعون هم به : أخ كريم وابن أخ كريم ، ولم يقولوا مثلاً : أنت قائد منتصر تستطيع أن تفعل بنا ما تشاء .

وفعلًا كان من هؤلاء ومن ذرياتهم نصراء للإسلام وأعوان لدعوة رسول الله .

وقصة فضالة^(٢) الذي كان يبغض رسول الله ، حتى قال قبل الفتح : والله ما أحد أبغض إلي من محمد ، وقد زاد غيظه من رسول

(١) قال ابن إسحاق : حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام في خطابه على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، إلى أن قال : ما ترون أني فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » [راجع : السيرة النبوية لابن هشام ٤/٤١٢] .

(٢) هو : فضالة بن عمير بن الملوح اللبني (الإصابة ت ٦٩٨٨) .

الله حينما رآه يدخل مكة ويحطم الاصنام ، فأراد أن يشق الصفوف إليه ليقتله ، وبعدها قال : « فوالله ، ما وضعت يدي عليه حتى كان أحب خلق الله إلي » ^(١) .

لكن ماذا ندفع ؟ ندفع (السيئة) . ونلاحظ هنا أن ربنا - تبارك وتعالى - يدعونا أن ندفع السيئة بالتي هي أحسن ، لا بالحسن : لأن السيئة يقابلها الحسنة ، إنما ربك يريد أن يرتقي بك في هذا المجال ، فيقول لك : ادفع السيئة بالأحسن .

وفي موضع آخر يعطينا ثمرة هذا التصرف الإيماني : ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٢٤) [فصلت] ولو تأملت معنى هذه الآية لوجدت أن المجازاة من الله ، وليست ممن عاملته هذه المعاملة : لأن الله تعالى يقول : ﴿ كَأَنَّهُ .. ﴾ (٢٤) [فصلت] ولم يقل : يصبح لك ولياً حميماً .

ذلك لأنك حين تدفع بالتي هي أحسن يخجل منك صاحبك ، ويندم على إساءته لك ، ويحاول أن يعوّضك عنها فيما بعد ، والأمر يعود إلى مثلها مرة أخرى ، لكنه مع كل هذا لا يُسمّى ولياً حميماً ، إنما هو ولي وحميم ؛ لأنه كان سبباً في أن يأخذك ربك إلى جانبه ، ويتولاك ويدافع عنك .

لذلك لما شتم أحدهم الحسن البصري وسبه في أحد المجالس ، وكان في وقت رطب البلح أرسل الحسن إليه طبقاً من الرطب وقال

(١) ذكر ابن عبد البر في كتاب الدرر في السير له أن النبي ﷺ مر به يوم الفتح وهو عازم على الفتك به فقال له : ما كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شيء كنت أذكر الله تعالى . فضحك رسول الله ﷺ وقال : أستغفر الله لك . ثم وضع يده على صدره . قال : فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما أجد على ظهر الأرض أحب إليّ منه . ذكره ابن حجر العسقلاني في الإصابة (ترجمة ٦٩٨٨) .

لخادمه : اذهب به إلى فلان وقل له : لم يجد سيدي أثمن من هذا يهديه إليك ، وقد بلغه أنك أهديت إليه حسناتك بالأمس ، وهي بلا شك أعظم من هديتي تلك^(١) .

إذن : من الغباء أن نتناول الآخرين بالهمز واللمز والطعن والغيبة ؛ فإنك بهذا الفعل كأنك أهديت لعدوك حسناتك ، وأعطيت أعظم ما تملك لأبغض الناس إليك .

ألا ترى موقف الأب حين يقسو على ولده ، فيستسلم له الولد ويخضع ، أو يظلمه أخوه فيتحمل ظلمه ولا يقابله بالمثل ، ساعتها يحنو الأب على ولده ، ويزداد عطفاً عليه ، ويحرص على ترضيته ، كذلك يعامل الحق - تبارك وتعالى - العباد فيما بينهم من معاملات - والله المثل الأعلى . لذلك قلنا : لو علم الظالم ما أعدده الله للمظلوم من الجزاء لَضَنَّ عليه بالظلم ؛ لأنه سيظلمه من ناحية ، ويرضيه الله من ناحية أخرى .

ويقال : إنه كان عند أحد الملوك رجل يُنفَس فيه الملك عن نفسه ، فإن غضب استدعى هذا الرجل وراح يشتم فيه ويسبّه أمام الناس حتى يهدأ ، فإذا أراد أن ينصرف الرجل أخذه على انفراد وأعطاه كيساً من المال ، وفي أحد الأيام احتاج هذا الرجل إلى مال ليقتضى أمراً عنده ، فحاول أن يتمكك ليصل إلى الملك ، ثم قال له : ألسنت في حاجة لأن تشتمني اليوم ؟

فمساءلتنا بهذا الشكل ، إذن : ما عليك إلا أن تدفع بالتى هي

(١) ذكره أبو حامد الغزالي (١٥٤/٣) أن رجلاً قال للحسن : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال : قد بلغني أنك أهديت إلى من حسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها فاعذرني فإنني لا أقدر أن أكافئك على التمام .

أحسن ، فإن صادفت من صاحبك مودة وصفاء ، وإلا فجزاء الله لك أوسع ، وعطاؤه أعظم ، وما أجمل قول الشاعر^(١) حين عبّر عن هذا المعنى :

يا مَنْ تُضَايِقُهُ الْفِعَالُ مِنَ التِّي وَمِنْ الَّذِي
ادْفَعْ فَدَيْتُكَ بِالتِّي حَتَّى تَرَى فَإِذَا الَّذِي

يعنى : إن أردت الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم : فاعمل بالتى هى أحسن .

ثم يقول سبحانه : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ (٩٦) [المؤمنون] معناه : أنت يا محمد تأخذ بحقك من هؤلاء إذا كنا نحن لا نعرف ما يفعلونه بك ، لكن الحال أننا نعرفه جيداً ونحصى عليهم ، وقد أعدنا لهم الجزاء المناسب ، فدع هذه المسألة لنا ولا تشغل نفسك بها .

وكان الحق - تبارك وتعالى - يريد أن ينزه ذات رسوله ﷺ من انفعالات الغضب ، وألا ينشغل حتى بمجرد الانفعال ؛ لأنه حين يتعرض لك شخص بسيئة تريد أن تجمع نفسك لترد عليه ، وخصوصاً إذا كان هذا الرد مخالفاً لطبعك الحسن وخلقتك الجميل ، فكانه يكلفك شيئاً فوق طاقتك .

فالله تعالى يريد أن يرحم نبيه وأن يريحه : دَعَكَ مِنْهُمْ ، وقوِّض أمرهم إلينا ، فنحن أعلم بما يصفون أى : بما يكذبون فى حقك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ (٩٧)

لماذا جاءت الاستعاذة من همزات الشياطين بعد هذه المسألة ؟ قالوا : لأن الشيطان يريد أن يتدخل ، ويظهر لك أنه معك ، وأنه

(١) الشيخ رحمه الله وهذا عنه .

يَفَارُ عَلَيْكَ ، فَيَحْرُضُكَ عَلَيْهِمْ وَيُغْفِرُكَ بِهِمْ ، وَيُدْفَعُكَ إِلَى الْاِنْتِقَامِ مِنْهُمْ
وَالْتَسْلُطُ عَلَيْهِمْ .

وهمزات : جمع هَمْزَةٍ ، وهى النَزْغَةُ أو النَخْصَةُ يثير بها الشيطان
الإنسان ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ
بِاللَّهِ .. (٢٠٠)﴾ [الاعراف]

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ (٩٨)

يعنى : إن دخل عليك الشيطان بهَمْزِهِ ووسوسته فقل : أعوذ بالله
من همزات الشياطين ، بل وأزيد من ذلك الزم جانب الحَيْطَةِ معه ،
فقل : أعوذ بالله أن يحضرون مجرد حضور ، وإن لم يهمزوا لى ،
فأنا لا أريدهم فى مَحْضَرى ، ولا أريد أن أجالسهم .

﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٩٩)

ذلك لمجرد أن تحضره سكرات الموت ويوقن أنه مَيِّتٌ تتكشف له
الحقائق ويرى ما لا نراه نحن ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿فَكَشَفْنَا
عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (٢٢) [ق]

فيتمنى الإنسان أن يرجع إلى الدنيا وهو ما يزال يحتضر ،
لماذا ؟ لأنه رأى الحقيقة التى كان ينكرها ويكذب بها ، والذين
يشاهدون حال الموتى ساعة الاحتضار يرون منهم إشارات تدل على
أنهم يرون أشياء لا نراها نحن ، كُلُّ حَسَبِ حاله وخاتمته .

وأذكر حين مات أبى ، وكان على صدرى ساعتها أنه قال لى :
يا أمين - وهذا اسمى فى بلدى - كيف تبنى كل هذه القصور ولا
تخبرنى بها ؟

والجنود الذين صاحوا فى المعركة : هُبِّى يا رياح الجنة . لا بُدُّ

أنهم رأوها وشَمُّوا رائحتها ، وإلا ما الذى جعلهم يتلهفون للموت ، ويشتاقون للشهادة إلا أنهم يرون حالاً ينتظرهم أفضل مما هم فيه ...

ومن هؤلاء الصحابي الجليل الذى حدثه رسول الله ﷺ عن أجر الشهداء عند الله ، وكان فى يده تمرات أو فى فمه يمضغها ، فقال : يا رسول الله ، أليس بينى وبين الجنة إلا أن أدخل هذه المعركة فأقتل فى سبيل الله ؟ قال : نعم ، فالقى التمرة من فمه ومضى إلى المعركة^(١) .

كانه استكثر أن يقعد عن طلب الجنة مدة مَضُغ هذه التمرات . فإلى هذه الدرجة بلغ يقين هؤلاء الرجال فى الله وفى رسول الله .

ونلاحظ فى هذه الآية : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ .. ﴾ (٩٩) [المؤمنون] هكذا بصيغة المفرد ﴿ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ (٩٩) [المؤمنون] جاء بالجمع على سبيل التعظيم ، ولم يقل : رب أرجعنى ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٩) [الحجر] فهنا الحق - تبارك وتعالى - يُعَظِّم ذاته ، لكن هذا يُعَظِّم الله الآن ، وهو فى حال الاحتضار ، وقد كان كافراً به ، وهو فى سعة الدنيا وبحبوبة العيش .

أو : أنه كرر الطلب : أرجعنى أرجعنى أرجعنى ، فجمعها الله تعالى . أو : أنه استغاث بالله فقال : رب ثم خاطب الملائكة : أرجعون إلى الدنيا .

لكن ، لماذا الرجوع ؟

(١) وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقال له : أرايت إن قُتِلْتُ فإين أنا ؟ قال : فى الجنة . فالقى تمرات فى يده ، ثم قاتل حتى قُتِل . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) ومسلم (١٨٩٩) فى صحيحه من حديث جابر بن عبد الله .

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ
هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٥)

أى : أننى تركت كثيراً من أعمال الخير ، فلعلنى إن رجعت بعد أن عاينت الحقيقة أستدرك ما فاتنى من الصالحات ، أو لعلنى أعمل صالحاً فيما تركت ، لأننى ضننتُ بمالى وبمجهودى وفضلنى على الناس ، وكنزتُ المال الكثير ، وتركته خلفى ثم أحاسب أنا عليه ، فإن عدت قدمته وأنفقته فيما يدخر لى ليوم القيامة .

ثم تاتى الإجابة : ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ..﴾ (١٥) [المؤمنون] أى : قوله : أرجعون لعلنى أعمل صالحاً فيما تركت ، إنها مجرد كلمة لا واقع لها ، كلمة يقولها وقت الضيق والشدة ، فإله تعالى لن يرجعهم ، ولو أرجعهم ما فعلوا ؛ لذلك نفاهما بقوله (كلا) التى ترد على قضايا تريد إثباتها ، ويريد الله تعالى نفيها كما ورد فى سورة الفجر :

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ (١٥)
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ (١٦)﴾ [الفجر]

فيرد الحق سبحانه : (كلا) لا أنت صادق ولا هو ، فليس المال والغنى وكثرة العرض دليل كرامة ، ولا الفقر دليل إهانة ، فكلتا القضيتين خطأ ، بدليل أنك إذا أعطاك الله المال ، ثم لا تؤدى فيه حق الله وحق العباد ، ولا يعينك على أداء ما فرض عليك صار المال وبالا عليك وإهانة لا كرامة . ما جدوى المال إن دخلت فى قوله تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ لَأُكْرِمُنَّكَ الْيَتِيمَ (١٧)﴾ [الفجر] ؟ ساعتها سيكون مالك حجة عليك .

كذلك الحال مع مَنْ يظن أن الفقر إهانة ، فإن سلب الله منك المال الذي يُطغيك فقد أكرمك ، وإن كنت لا تدري بهذا الإكرام .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمٍ يُعْشُونَ ﴾ [المؤمنون] ١٠٠ : كيف يتعشون الرجوع وبينهم وبينه برزخ يمنعهم العودة إلى الدنيا ؛ لذلك تُسمى الفترة بين الحياة الدنيا والآخرة بالحياة البرزخية ، فليست من الدنيا ، وليست من الآخرة .

وفي موضع آخر يُصور الحق سبحانه هذا الموقف بقوله : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ .. ﴾ [الأنعام] ٢٨ : لو رددناهم من الآخرة لعادوا لما كانوا عليه من معصية الله ، وإن كانت هذه قضية عقلية ففي واقعهم ما يثبت صدق هذه القضية ، وقرأ فيهم قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ .. ﴾ [الإسراء] ٨٢ فاخذ نعمة الله وتقلب فيها ، ثم تنصل من طاعة الله .

ويقول تعالى في هذا المعنى أيضاً : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ .. ﴾ [يونس] ١٧

إذن : المسألة اضطرابات ، كلما اضطروا دَعَوْا الله ولجئوا إليه ، وتوسَّلوا ، فخذوا من واقع حياتهم ما يدل على صدق حكمي عليهم لو عادوا من الآخرة .

والبرزخ : هو الحاجز بين شيئين ، وهذا الحاجز يأخذ قوته من صاحب بنائه ، فإن كان هذا الحاجز من صناعته - سبحانه وتعالى - فلن ينفذ منه أحد .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَرَجَ ^(١) الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَتَّخِذَانِ (٢٠) ﴾ [الرحمن] وما داما يلتقيان ، فما فائدة البرزخ هنا ؟

قالوا : نعم يلتقيان ، ولا يبغي أحدهما على الآخر ؛ لأن المسألة ليست سدًا أو بناءً هندسيًا ، إنما برزخ خاص لا يقدر عليه إلا طلاقة القدرة الإلهية التي خرقت النواميس ، فجعلت الماء السائل جبلًا ، بعد أن ضربه موسى بعصاه ، فصار كل فرق كالطود العظيم ، طلاقة القدرة التي فجرت الحجر عيونًا .

إذن : المسألة ليست (ميكانيكا) كما يظن البعض . والبرزخ بين الماء العالح والماء العذب آية من آيات الله شاخصة أمامنا ، يمكننا جميعاً أن نتأكد من صحة هذه الظاهرة .

لكن هذا البرزخ من أمامهم ، فلماذا قال تعالى : ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُعْثُونَ ﴾ (١٠٠) [المؤمنون]

قالوا : لأن اللفظ الواحد يُطلق في اللغة وله معان عدة واللفظ واحد ؛ لذلك يُسمونه المشترك ، فمثلاً كلمة عَيْن تطلق على العين الباصرة ، وعلى عين الماء ، وعلى الجاسوس ، وتُقال للذهب وللفضة ، وللرجل البارز في قومه ، والسياق هو الذي يُحدد المعنى المراد ؛ لذلك على السامع أن تكون عنده يقظة ليرد اللفظ إلى المعنى المناسب لسياقه .

وكذلك كلمة (النجم) فتعني الكوكب في السماء ، وتعني كذلك ما لا ساق له من النبات ، وهو العُشب الذي ترعاه البهائم ، ومنه قول الشاعر :

(١) مرج البحرين . أي : أرسلهما أو أطلقهما يجريان وهما يلتقيان عند مصب النهر .
[القاموس القويم ٢/ ٢٢١] .

أَرَأَى النُّجْمَ فِي سَيْرِي إِلَيْكُمْ وَيُرْعَاهُ مِنَ الْبَيْدَا جَوَادِي

فكلمة (وراء) تُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهَا معانٍ عدة ، قد تكون متقابلة يُعَيِّنُهَا السياق ، فتأتى وراء بمعنى (بَعْد) كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ رَّاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود] وتأتى بمعنى (غَيْر) كما فى قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ ابْتَغَى رَّاءِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون]

وتأتى بمعنى (أمام) كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ رَّاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف] فالملك كان أمامهم ينتظر كل سفينة قادمة . وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ مِنْ رَّاءِهِ جَهَنَّمَ ﴾ [إبراهيم]

فقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ رَّاءِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون] أى : من أمامهم .

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ فَإِذَا تَفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [١٠١]

الصُّورُ : البُوق الذى ينفخ فيه إسرافيل ، والمراد هنا النفخة الثانية للبعث .

والأنساب : جمع نَسَب ، وهو الالتقاء فى أصل مباشر ، كالتقاء الابن بالاب ، أو الأب بالابن ، أو التقاء بواسطة كالعمومة والخؤولة . والنسب هو أول أُلُحمة فى الكون تربط بين الناس فى مصالح مشتركة ، وهو الالتقاء الضرورى الذى يوجد لكل الناس ، فقد لا يكون لك أصدقاء ولا أصحاب ولا زملاء عمل ، لكن لا بُدَّ أن يكون لك نَسَبٌ وقرابة وأهل .

فحين ينفي الحق - سبحانه وتعالى - النسب يقول : ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ .. (١٠١)﴾ [المؤمنون] فليس النفي لوجود النسب ، فإذا نفخ في الصور منعت البُنُوَّة من الأبوة ، أو الأبوة من البُنُوَّة . إنما النسب موجود حقيقة ، لكن لأن النسب المعروف فيه التعاون على الخير والتآزر في دفع الشر ، فالنفي هنا لهذه المنفعة في هذا اليوم بالذات حيث لا ينفع أحد أحداً ، فالنسب موجود لكن دون نفع ، فالنفع من أمور الدنيا أن يوجد قوى وضعيف ، فالقوى يُعين الضعيف ، ويفيض عليه ، أما في هذا الموقف فالكل ضعيف .

كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرَأٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ [عبس]
ويقول : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ (٣٨)﴾ [المدثر]

لذلك حينما حدث رسول الله ﷺ أننا سنُحْشَر يوم القيامة حفاة عراة تعجبت السيدة عائشة ، واستحيت من هذا الموقف ، فأخبرها رسول الله أن الأمر ليس كذلك ، فهذا موقف ينشغل كل بنفسه ، والحال أصعب من أن ينظر أحد لأحد^(١) .

إذن : النفي لنفع الأنساب ، لا للأنساب نفسها .

وإن كان نفع الأنساب يمتنع لهول الآخرة فقد يتسامى الإنسان فيمنع نفعه حتى في الدنيا عن ذوى قرابته إن كانوا غير مؤمنين ، وقد ضربها الله مثلاً في قصة نوح - عليه السلام - وولده ، وخاطبه

(١) عن عائشة قالت : قال النبي ﷺ : يبعث الله الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً . فقالت عائشة : يا رسول الله فكيف بالمعورات ؟ قال : لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . أخرجه أحمد في مسنده (٩٠/٦) والنسائي في سننه (١١٤/٤) . والحاكم في مستدركه (٥٦٤/٤) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

ربه : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ ۞ (٤٦) ﴾ [هود] فامتنع النسب حتى في الدنيا ، فالبنوة ليست بنوة الدم واللحم ، البنوة - خاصة عند الأنبياء - بنوة عمل واتباع .

وإذا تأملت تاريخ المسلمين الأوائل لوجدتهم يعتزون بالإسلام ، لا بالأنساب ، فالدين والعقيدة هما اللُّحمة ، وهما الرابطة القوية التي تربط الإنسان بغيره ، وإن كان أدنى منه في مقاييس الحياة .

قرأنا في قصة بدر أن مصعب بن عمير^(١) - رضوان الله عليه - وكان فتى قريش المدلل ، وأغنى أغنيائها ، يلبس أفخر الثياب ويعيش ألين عيشة ، فلما أشرب قلبه الإيمان زهد في كل هذا النعيم ، وحرم من خير أهله ، ثم هاجر إلى المدينة ، وهناك رآه رسول الله ﷺ يلبس جلد شاة فقال : « انظروا ماذا فعل الإيمان بأخيكم »^(٢) .

وفي المعركة ، رأى مصعب أخاه أبا عزيز^(٣) أسيراً في يد واحد من الأنصار هو الصحابي أبو اليسر^(٤) فقال له مصعب : اشدد على

(١) هو : مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، أبو محمد ، هاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى والثانية ، وبعثه ﷺ إلى المدينة يُعلم مسلميها الفقه ويقرئهم القرآن ثم قدم على رسول الله ﷺ مع السبعين الذين وافوه في العقبة الثانية ، وكان مصعب رفيق البشارة ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، توفي في غزوة أحد . [صفة الصفوة ١/ ٢٠٥ ، ٢٠٦] .

(٢) عن عمر بن الخطاب قال : نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب (جلد) كبش قد تنطق به ، فقال النبي ﷺ : انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نور الله قلبه ، لقد رأيته بين أبيوين يفتنونه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون . أورده ابن الجوزي في صفة الصفوة (١/ ٢٠٦) . وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠٨/١) قال العراقي في تخريجه لأحاديث الإحياء (٢٩٥/٤) إسناده حسن .

(٣) هو زرارة بن عمير أخو مصعب بن عمير . له صحبة وسمع من النبي ﷺ ، واتفق أهل المغازي على أنه أسر يوم بدر . انظر الإصابة لابن حجر (ترجمة ٧٥٣ الكنى) .

(٤) اسمه كعب بن عمرو الأنصاري . شهد العقبة وبدرًا وله فيها آثار كثيرة وهو الذي أسر العباس بن عبد المطلب . كان قصيراً عظيم البطن ، مات بالمدينة عام ٥٥ هجرية . [الإصابة ترجمة ١٢٤٣] . وقد ضبط الحافظ ابن حجر كنيته (أبو اليسر) فقال (٢٠٧/٥) : « بفتح التحتانية باثنتين والمهمله » . وقال (٢١٨/٧) « بفتحتين » .

أسيرك - يعنى : إياك أن يفلت منك - فإن أمه غنية ، وستفديه بمال كثير ، فنظر أبو عزيز إلى مصعب وقال : أهذه وصاتك بأخيك ؟ فقال : هذا أخى دونك .

إذن : فلا أنسابَ بينهم ، حتى فى الدنيا قبل الآخرة .

وفى غزوة أحد استشهد مصعب بن عمير ، ولم يجدوا ما يكفونونه فيه إلا ثوباً قصيراً ، إن غطى رأسه انكشفت رجلاه ، وإن غطى رجله انكشفت رأسه ، فقال النبى ﷺ : « غطوا رأسه ، واجعلوا على رجله من الإذخر »^(١) .

والسيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان لما أسلمت وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، لكن اتهمها البعض بأنها هاجرت لا من أجل دينها ، ولكن من أجل زوجها ، فيشاء الله تعالى أن يظهر براءتها ، فیتنصر زوجها عبید الله بن جحش هناك وتظل هى على الإيمان ، ولما علم رسول الله ﷺ بأمرها أراد أن يعوضها فخطبها لنفسه ، ولم ينتظر إلى أن تجيء ليعقد عليها ، فوكل النجاشى ملك الحبشة ليعقد له عليها^(٢) .

وبعد زواجها من رسول الله ﷺ أراد أبوها أبو سفيان زيارتها ، وكانت تمهد فراش رسول الله ، فلما أراد أبو سفيان أن يجلس عليه نحتت جانباً ، ومنعته أن يجلس - وهو كافر - على فراش رسول الله ،

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٧٦) ، ومسلم فى صحيحه (٩٤٠) من حديث خباب بن الارت رضى الله عنه .

(٢) قال ابن الجوزى فى صفة الصفوة (٢٩/٢) : « بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضميرى إلى النجاشى ملك الحبشة ليخطبها عليه فزوجها إياه وأصدق عنه النجاشى أربعين ديناراً وبعث بها إلى شرحبيل بن حسنة . وقيل : وكنت خالد بن سعيد بن العاص فزوجها ، وذلك سنة سبع من الهجرة » .

فقال: أَضَنَّا بِالْفُرَاشِ عَلَى؟ فقالت: نعم^(١).

إذن: نَفَعَ الانساب يمتنع في الدنيا قبل امتناعه في الآخرة، لكن الحق - سبحانه وتعالى - تفضل بأن أبقى مطلوبات النسب في الدنيا ودعانا إلى الحفاظ عليها حتى مع الكافرين؛ لأنه سبحانه وسع الكافر، فعلى المؤمن أن يسعه من باب أولى، فإن رأيت الكافر في شدة وقدرت أن تُعينه فأعنه.

واقرا في هذا قوله تعالى: ﴿وَأِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا.. (١٥)﴾ [لقمان] فهما كافران، بل ويريدانك كافرا، ومع ذلك احفظ لهما حق النسب، ولا تقطع الصلة بهما.

ويروى أن إبراهيم - عليه السلام - وقد أعطاه الله الخلة، وقال عنه: ﴿وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧)﴾ [النجم] وابتلاه بكلمات فاتهم، مر عليه عابر سبيل بليل، فقبل أن يدخله ويضيفه سألته عن ديانتها، فأخبرته أنه غير مؤمن، فأعرض عنه إبراهيم - عليه السلام - وتركه ينصرف، فأوحى الله إليه: يا إبراهيم وسعتُ عبدى وهو كافر بى، وتریده أن يغير دينه لضيافة ليلة؟ فأسرع إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به، وأخبره بما كان من عتاب ربه له في شأنه، فقال الرجل: نعم الرب الذى يعاتب أحبابه فى أمر أعدائه، وشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم رسول الله.

(١) أورده ابن الجوزى فى صفة الصفوة (٢٢/٢) « أن أبا سفيان قال لابنته أم حبيبة بعد أن طوت فراش رسول الله ﷺ : يا بنية ، أرغبت بهذا الفراش عنى أم بى عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك . فقال : يا بنية لقد أصابك بعدى شر » ومعلوم أن أبا سفيان أسلم فيما بعد فى فتح مكة .

ويرتقى أهل المعرفة بالنسب ، فيرون أنه يتعدى الارتباط بسبب وجودك ، وهو الأب أو الأم ، فالنسب وإن كان ميلاد شيء من شيء ، أو تفرع شيء من شيء ، فهناك نسب أعلى ، لا لمن أوجدك بسبب ، وإنما لمن أوجدك بلا سبب الوجود الأول ، فكان عليك أن تراعى هذا النسب أولاً الذى أوجدك من عدم ، وإن أثبت حقاً للوالدين : لأنهما سبب وجودك . فكيف بالموجد الأعلى ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (١٠١) [المؤمنون] سأل : تقتضى سائلاً ومستثلاً ، أما الفعل (تساءل) فيدل على المفاعلة يعنى : كل منهما سائل مرة ، ومستثول أخرى ، كما تقول : شارك محمد عمراً ، وقاتل .. الخ .

وقد اعترض على هذه الآية بعض المستشرقين الذين يحبون أن يتوركوا على كتاب الله ، قائلين : إن المسلمين ينظرون إلى كتاب الله بمهابة وتقديس يمنعهم ويحجب عقولهم عن تعقل ما فيه ، لماذا وقد قال تعالى عن القرآن : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٨٢) [النساء] ؟

يقول هؤلاء : إن القرآن نفى التساؤل فى هذه الآية ، وأثبتته فى قوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (٢٥) [الطور] فى الحوار بين الكفار .

وهناك تساؤل بين المؤمنين والكافرين : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينًا ﴾ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فى جنات يتساءلون (٤٠) عَنْ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فى سَقَرٍ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نَطْعِمِ الْمَسْكِينِ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْفَاحِشِينَ (٤٥) وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ (٤٦) [المدثر]

ومرة يكون التساؤل بين المؤمنين بعضهم وبعض : ﴿وَأَقْبَلْ
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦)
فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ
الرَّحِيمُ (٢٨)﴾ [الطور]

إذن : كيف بعد ذلك ينفي التساؤل ؟ ويقول : ﴿وَلَا
يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)﴾ [المؤمنون]

وهذا التضارب الذى يروته تضارب ظاهرى : لأن هناك فرقا بين
أن تسمع عن شيء وبين أن تُفاجأ به وأنت غير مؤمن ، لقد قالوا :
﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٧)﴾ [المؤمنون]
فحين فوجئوا بالنفخ فى الصور ، وداهمتهم القيامة التى كانوا
يُكذِّبون بها بُهتوا ودُهِشُوا ، وخرست ألسنتهم عن الكلام من شدة
دهشتهم ، وكيف وما كانوا ينكرونه مائل أمامهم فجأة ، ثم يتدرجون
من هذه الحالة إلى أن يأخذوه أمرا واقعا لا مفر منه ، فيبدأون
بالكلام ويسأل بعضهم بعضا عما هم فيه وعما نزل بهم .

إذن : فالسؤال له زمن ، ونفى السؤال له زمن ؛ لذلك يقولون فى
مثل هذه المسألة أن الجهة مُنفكة ، فإذا رأيت شيئا واحدا أثبت مرة ،
ونفى أخرى من قائل واحد منسوب إلى الحكمة وعدم التضارب ،
فاعلم أن الجهة مُنفكة .

ومثل هذا الموقف من أهل الاستشراق وقفوه أيضا فى سؤال أهل
المعاصى ، حيث يقول تعالى فى إثبات سؤالهم : ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنَّهُمْ
مُسْتَوْثُونَ (٢٤)﴾ [الصافات] ويقول فى نفي سؤالهم ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ
ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩)﴾ [الرحمن] فكيف يثبت الفعل وينفيه ، والفاعل
واحد ؟

وهذا الاعتراض منهم ناشىء عن عدم فهم اللغة القرآن والمكة العربية ، أو لأنهم يريدون مجرد الاستدراك على كتاب الله وإثارة الشكوك حوله . لكن رُبُّ ضارئة نافعة ، فقد حرّكت شكوكهم ومآخذهم علماء المسلمين للتصدى لهم ، وللرد على أباطيلهم وكشف نواياهم ، فمثلنا كمثل الذى يستعد لملاقاة المرض بالطعم المناسب الذى يعطى للجسم مناعة وحصانة ضد هذا المرض .

وسيدنا عمر - رضى الله عنه - وكان القرآن ينطق على وفق ما يريد ، يرى الناس يقبلون الحجر الأسود ، فتوقع أن يتكلم الناس فى هذه المسألة ، وكيف أن الدين ينهاهم عن عبادة الأصنام وهى حجارة ويأمرهم بتقبيل الحجر ، وكان رضى الله عنه يقبله ويقول : « والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » ^(١) .

فلفت الناس إلى أصل التشريع وأن الحجرية لا عبادة لها عندنا ، لكن عندنا النبى ﷺ وهو مُشرّع لنا وواجب علينا اتباعه ، وهكذا كان ردّ عمر على من أثاروا هذه الفتنة .

ولما تكلم عمر فى غلاء المهور وكان ملهماً يوافق قوله قول القرآن الكريم ، وقفت له امرأة وراجعته وقالت له : اخطأت يا عمر ، كيف تنهى عن الغلاء فى المهور ، والله تعالى يقول : ﴿ وَأَتَيْتُمُ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً .. (٢٠) ﴾ [النساء]

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٥٩٧) ، ومسلم فى صحيحه (١٢٧٠) من حديث عمر ابن الخطاب رضى الله عنه . قال الطبرى : « إنما قال ذلك عمر لأن الناس كانوا حديثى عهد بعبادة الأصنام فخشى عمر أن يظن الجهال أن استلام الحجر من باب تعظيم بعض الأحجار كما كانت العرب تفعل فى الجاهلية فأراد عمر أن يعلم الناس أن استلامه اتباع لفعل رسول الله ﷺ لا لأن الحجر ينفع ويضر بذاته كما كانت الجاهلية تعتقده فى الأوثان » أورده ابن حجر فى الفتح (٤٦٣/٣) .

فأجاز أن يكون المهر قنطاراً من ذهب ، عندها قال عمر بجلالة قدره : « أصابت امرأة وأخطأ عمر »^(١) ليبين أنه لا كبير أمام شرع الله .

إذن : هذه مسائل مرسومة ولها أصل ، يجب أن تُعلم لنردّ بها حين نسال في أمور ديننا .

نعود إلى مسألة سؤال أهل المعصية ، حيث نغاه القرآن مرة وأثبتته أخرى . ونقول : جاء القرآن بأسلوب العرب وطريقتهم ، والسؤال في الأسلوب العربي إما سؤال ممنّ يجهل ويريد المعرفة ، كما يسأل التلميذ معلّمه ، أو يسأل العالم الجاهل لا ليعلم منه ، ولكن ليقرره بما يريد .

فإذا نفى الله تعالى السؤال ، فلا تظنوا أنه يسالكم ليعرف منكم ، إنما يسالكم لتقروا ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ ﴾ [الإسراء]

إذن : إثبات السؤال له معنى ، ونفيه له معنى ، فإذا نفى فقد نفى سؤال العلم من جهتهم ، وإذا أثبت فقد أثبت سؤال الإقرار من جهتهم ؛ لتكون الحجة ألزم ؛ لأن الإقرار سيد الأدلة .

وقد أوضحنا هذه المسألة بمثال : التلميذ المهمل الذي يتظاهر أمام أبيه بالمذاكرة ، فيفتح كتابه ويهزّ رأسه كأنه يقرأ ، فإذا ما سأل والدّه لم يجده حصل شيئاً ، فيقول له : ذاكرت وما ذاكرت .

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (١٦٧/١) بلفظ « امرأة أصابت ورجل أخطأ » أخرجه الزبير بن بكار . قال ابن كثير : فيه انقطاع ، وأورده أيضاً بنحوه وعزاه لابي يعلى . قال ابن كثير : إسناده جيد قوى .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ (١٧) [الأنفال] هكذا نفى وإثبات في آية واحدة لفاعل واحد ، لأن رسول الله ﷺ أخذ فعلاً حَفَنَةً من الحصى ورَمَى بها نحو الأعداء^(١) ، لكن هل في قدرته أن يُوصِلَ هذه الحفنة إلى أعين الأعداء جميعاً ؟ فالعمل والرمى للرسول ، والنتيجة والغاية لله عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢)
 وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ
 فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (١٠٣)

ثَقُلَتْ وخَفَّتْ هنا للحسنات. يعنى: كانت حسناته كثيرة أو كانت قليلة .
 ويمكن أن نقول : ثقلت موازينه بالسبيئات يعنى : كثرت الحسنات ، لكن القرآن تكلم من ناحية أن العمدة في الأمر الحسنات .
 والميزان يقوم على كفتين في أحدهما الموزون ، وفي الأخرى الموزون به ، وللوذن ثلاث صور عقلية : أن يخف الموزون ، أو يخف الموزون به ، أو يستويا ، وقد ذكرت الآية حالتين : خفت

(١) عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : « رفع رسول الله ﷺ يديه يعنى يوم بدر فقال : يا رب إن تهلك هذه العصاة قلن تصعد في الأرض أبداً ، فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب قارم بها في وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين » أخرجه أبو نعيم (ص ٤٠٤) والبيهقي (٧٩/٢) كلاهما في دلائل النبوة : وذكره ابن كثير في تفسيره (٢٩٤/٢) .

موازينه ، وثقلت موازينه ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ (٦) فهو فى عيشة راضية (٧) وأما مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأَمَّهُ هَارِبَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) ﴿ [القارعة]

أما حالة التساوى فقد جاءت لها إشارة رمزية فى سورة الاعراف :

﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿ (٤٧) ﴾ [الاعراف]

فَمَنْ غَلِبَتْ حَسَنَاتُهُ ذَهَبَ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَنْ غَلِبَتْ سَيِّئَاتُهُ ذَهَبَ إِلَى النَّارِ ؛ وَبَقِيَ أَهْلُ الْأَعْرَافِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ؛ لِأَنَّهُمْ تَسَاوَتْ عِنْدَهُمْ كِفَّتَا الْمِيزَانِ ، فَلَا هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَلَا هُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، فَهُمْ عَلَى الْأَعْرَافِ ، وَهُوَ السُّورُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ يَنْظُرُونَ إِلَى هَؤُلَاءِ وَإِلَى هَؤُلَاءِ .
ثم يقول تعالى فى شأنهم : ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ (٤٦) ﴿ [الاعراف] ؛ لِأَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ سَبَقَتْ غَضَبَهُ ، وَعَفْوُهُ سَبَقَ عِقَابَهُ .

ومعنى ثقلت موازينه وخفت موازينه يدل على أن الأعمال تصبح ولها كثافة وجرم يعطى ثقلاً ، أو أن الله تعالى يخلق فى كل عمل له كتلة ، فحسنة كذا بكذا ، والمراد من الميزان دقة الفصل والحساب .

ونلاحظ فى الآية : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ .. ﴾ (١٠٧) ﴿ [المؤمنون] بالجمع ولم يقل : ميزانه ، لماذا ؟ قالوا : لأنه يمكن أن يكون لكل جهة عمل ميزان خاص ، فللصلاة ميزان ، وللمال ميزان ، وللحج ميزان .. إلخ ثم تجمع له كل هذه الموازين .

وقوله : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ .. ﴾ (١٠٣) ﴿ [المؤمنون] لأنهم أخذوا لها القليل العاجل ، وفوتوا عليها الكثير الآجل ، وسارعوا إلى متعة فانية ، وتركوا متعة باقية ؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا

أجلها محدود ؛ والزمن فيها مظلون، والخير فيها على قدر إمكانات أهلها .
 أما الآخرة فزمنها مُتَيَقَّن ، وأجلها ممدود خالد ، والخير فيها على
 قدر إمكانات المنعم عز وجل ، فلو قارنتَ هذا بذاك لتبين لك مدى ما
 خَسِرُوا ، لذلك تكون النتيجة أنهم ﴿ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ (١٠٣) ﴿ [المؤمنون]
 ثم يعطينا الحق سبحانه صورة تُبَشِّعُ الجِزَاءَ فِي جَهَنَّمَ ، وتُصَوِّرُ
 أهوالها ، وذلك رحمة بنا لنرتدع من قريب ، ونعمل جاهدين على أن
 ننجى أنفسنا من هذا المصير ، وننفر من هذه العاقبة البشعة ، كما
 يقول الشرع بداية : سنقطع يد السارق ، فهو لا يريد أن يقطع أيدي
 الناس ، إنما يريد أن يمنعهم ويحذرهم هذه العاقبة .

ومن ذلك قوله تعالى في مسألة القصاص : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ
 حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ .. ﴾ (١٧٨) ﴿ [البقرة]

وقد هُوجِمَ القصاص كثيراً من أعداء الإسلام ، إذ يقولون : يكفي
 أن قُتِلَ واحد من المجتمع ، فكيف نقتل الآخر ؟ والقرآن لم يضع
 القصاص ليقتل الاثنين ، إنما وضعه ليمنع القتل ، وليستبقى القاتل
 والقتيل أحياء ، فحين يعرف القاتل أنه سيقتل قصاصاً يمتنع
 ويرتدع ، فإن امتنع عن القتل فقد أحيينا القاتل والقتيل ، وقد عبروا
 عن هذا المعنى فقالوا : القتل أنفى للقتل .

يقول تعالى في تبشيع جهنم :

﴿ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ (١٠٤) ﴿

اللفح : أن تمس النار بحرارتها الشيء فتشويه ، ومثله النّفْحُ^(١)

(١) قال الزجاج : تلفح وتنفح بمعنى واحد إلا أن النّفْحَ أعظم تأثيراً منه . قال أبو منصور :
 ومما يؤيد قوله قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مُسْتَهْمُ تَلْفَحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ .. ﴾ (١٠٣) ﴿ [الأنبياء] [لسان
 العرب - مادة : لفح] .

﴿وَهُمْ فِيهَا كَالْحُوتِ﴾ (١٠٤) [المؤمنون] كلمة « كالح » ، نقولها حتى في العامية : فلان كالح الوجه . يعنى : تغير وجهه تغيراً ينكر لا تستريح له ، وضربوا للوجه الكالح مثلاً برأس الخروف المشوية التى غيرت النار ملامحها ، فأصبحت مشوهة كالحكة تلتصق الشفة العليا بجبهته ، والسفلى بصدره ، فتظهر أسنانه فى شكل منفر .

بعد ذلك يخاطبهم الحق سبحانه خطاباً يلقى اللوم عليه ويحملهم مسئولية ما وصلوا إليه ، فلم يعذبهم ربهم ابتداءً ، إنما عذبهم بعد أن أنذرهم ، وأرسل إليهم رسولا يحمل منهجا يبين ثواب الطائع وعقاب العاصى ، ونبئهم إلى كل شيء ، ومع ذلك عصوا وكذبوا ، ولم يستأنفوا عملاً جديداً على وفق ما أمر الله . إذن : فهم المقصرون .

﴿أَلَمْ تَكُنْ مِنْ آيَاتِنَا تَنْبِيْهِ عَلَيْهِمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (١٠٥)

يعنى : أنتم السبب فيما أنتم فيه من العذاب ، فليس للناس على الله حجة بعد الرسل ، وليس لأحد عذر بعد البلاغ ، لذلك حينما يدخل أهل النار النار يخاطبهم ربهم : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ..﴾ (٧١) [الزمر]

فالآية تثبت أنهم هم المذنبون أمام نفوسهم : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١١٨) [النحل] فلم نفاجئهم بعقوبة على شيء لم نبصِّرهم به ، إنما أرسلنا إليهم رسولا يأمرهم وينهاهم ويبيِّنهم وينذرهم .

والإنذار بالشر قبل أن يقع نعمة من النعم ، كما قلنا فى سورة الرحمن عن قوله تعالى : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) [الرحمن] وهل النار

والشواظ نعمة ؟ نعم نعمة ! لأننا نحذرك منها قبل وقوعها ، وأنت ما زلتَ في سعة الدنيا ، وأمامك فرصة الاستدراك .

والآيات - كما قلنا - تُطَلَّق على الآيات الكونية التي تلتفت الناس إلى وجود الخالق الأعلى الذي أنشأ هذا الكون بهذه الهندسة البديعة ، وتُطَلَّق على المعجزات التي تثبت صدق الرسول في البلاغ عن الله ، وتُطَلَّق على الآيات الحاملة للأحكام وهي آيات القرآن .

وقد جئناكم بكل هذه الآيات بُتْلَى عليكم وتسمعونها وترونها ، ومع ذلك كذبتُم ، ومعنى ﴿ تَتْلَى عَلَيْكُمْ .. ﴾ (١٠٥) [المؤمنون] أننا نبهناكم إليها ، ولفغنا أنظاركم إلى تأملها ، حتى لا تقولوا : غفلنا عنها .

﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكَُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ (١٠٦)

﴿ شِقْوَتُنَا .. ﴾ (١٠٦) [المؤمنون] أى : الشقاوة^(١) وهي الألم الذي يملك كل ملكات النفس لا يترك منها جانباً ، يقولون : فلان شقى يعنى مُضِيقٌ عليه ومُتَعَبٌ في كل أمور حياته ، لا يرى راحة في شيء منها .

وكانهم بقولهم : ﴿ غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا .. ﴾ (١٠٦) [المؤمنون] يريدون أن يُبْعِدُوا المسألة عن أنفسهم وَيُلْقُونَ بها عند الله تعالى ، يقولون : يا رب لقد كتبت علينا الشقوة من الأزل ، فلا ذنبَ لنا ، وكيف نسعد نحن أنفسنا ؟ يقولون : لو شاء ربنا ما فعلنا ذلك .

ونقول لهم : لقد كتب الله عليكم أزلاً ؛ لأنه سبحانه علم أنكم ستختارون هذا .

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ (١٠٧)

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٦٨٧/٦) : « قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم شقوتنا ، وقرأ الكوفيون إلا عاصم » شقاوتنا ، . . .

فوصفوا أنفسهم بالظلم ، كما قال سبحانه عنهم فى آية أخرى :
﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٢٨) [الانعام]

فيقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ (١٠٨)

﴿ اخْسَرُوا ﴾ (١٠٨) [المؤمنون] كلمة بليغة فى الزجر تعنى : السكوت مع الذلة والهوان ؛ لذلك يقولونها للكلاب ، وقد تقول لصاحبك : اسكت على سبيل التكريم له ، كما لو حدثك عن فضلك عليه ، وأنت قد دمت له كذا وكذا فتقول له : اسكت اسكت ، تريد له العزة ، والأ يقف أمامك موقف الضعف والذلة .

والخسوء من معانيها أنك تضعف عن تحمل الشيء ، كما فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (٤) [الملك] يعنى : ضعيف عن تحمل الضوء .

وفى قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ (٦٥) [البقرة] يعنى : مطرودون مبعدون عن سمو الإنسانية وعزتها ؛ لذلك نرى القردة مفضوحى السوءة ، خفيفى الحركة بما لا يتناسب وكرامة الإنسان .

إذن : ليس المراد أنهم أصبحوا قردة ، إنما كونوا على هيئة القردة ؛ لذلك نراهم حتى الآن لا يهتمون بمسألة العرض وانكشاف العورة .

إذن : المعنى ﴿ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ (١٠٨) [المؤمنون] اسكتوا سكوتاً بذلة وهوان ، ويكفى ما صنعتموه بالمؤمنين بى ؛ فيقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقًا مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا
وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٠٩)

والمراد هنا الضعاف من المؤمنين أمثال عمار وبلال وخباب بن
الارت^(١)، وكانوا يقولون هذا الكلام ، وهو كلام طيب لا يرد ، بل
يجب أن يُسمع ، وأن يُحتذى به ، ويُؤخذ قدوة .

﴿فَاتَّخَذَتْهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ
مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ (١١٠)

تكلما عن هذه المسألة في قوله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ
يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا
إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ (٣٢) وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا
مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا
كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾

[المطففين]

إذن : اتخذ الكفار ضعاف المؤمنين محلَّ سخيرية واستهزاء ،
وبالغوا في ذلك ، حتى لم يعد لهم شغل غير هذا ، وحتى شغلهم
الاستهزاء والسخيرية عن التفكير والتأمل فلم يبقَ عندهم طاقة فكرية

(١) قاله مجاهد فيما نقله عنه القرطبي في تفسيره (٤٦٨٨/٦) .

(٢) فكهين : أى يفتابون الناس ويتناولون منهم ويتندرون بهم ، والفكه : الذى يُحدث أصحابه
ويضحكهم . [لسان العرب - مادة : فكه]

تفكر فيما آمن به هؤلاء ، وهذا معنى : ﴿ حَتَّىٰ أُنسَوٰكُمْ ذِكْرِي .. ﴾ [المؤمنون] أى : شغلکم الاستهزاء بالمؤمنين عن الإيمان بمن خلقكم وخلقهم .

ويا ليت الأمر توقف عند هذا الحد من السخرية ، إنما تعداه إلى أن يضحكوا من أهل الإيمان ، وَيُضْحِكُوا أَهْلَهُمْ ﴿ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ [المؤمنون] وفى الآية الأخرى : ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ [المطففين] وسخرية أهل الباطل من أهل الحق موجودة فى كل زمان ، وحتى الآن نرى مَنْ يسخرون من أهل الاستقامة والدين والورع ويتندرون بهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنِّي جَزَيْتَهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [١١٣]

لما صبر أهل الإيمان على الاستهزاء والسخرية عوضهم الله تكريماً ونعياً ، وهذه مسألة يجب ألا يغفل عنها المؤمن حين يسخر منه أعداؤه ، عليه أن يتذكر عطاء ربه وجزاء صبره ، وإن كان الساخر منك عبداً له قدرته المحدودة ، فالعِزُّم لك ربك بقدره لا حدود لها ، ولك أن تقارن إذن بين مشقة الصبر على أذاهم ، ولذة النعيم الذى تجده بعد ذلك جزاء صبرك .

﴿ قَلَّ لَكُمْ لَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدُ سِنِينَ ﴾ [١١٤]

لبث : مكث وأقام ، فالمعنى : ما عدد السنين التى ظللتموها فى الأرض ، لكن لماذا هذا السؤال ؟

قالوا : لأن الذى شغلکم عن دين يضمن لكم ميعاداً خالداً ، ونعياً باقياً هو الدنيا التى صرفتكم بزينتها وزخرفها وشهواتها

- وعلى فرض أنكم تمتعتم بهذا فى الدنيا - فهل يُقارن بما أُعدّ للمؤمنين فى الآخرة من النعيم المقيم الذى لا يفوتهم ولا يفوتونه ؟

والقيامة حين تقوم ستقوم على قوم ماتوا فى ساعتها ، فيكون لبثهم قريباً ، وعلى أناس ماتوا من أيام آدم فيكون لبثهم طويلاً ، إذن : فاللبث فى الأرض مقول بالتشكيك كما يقولون ، لكن هل يدرك الأموات المدة التى لبثوها فى الأرض ؟ معلوم أنهم لا يدركون الزمن ؛ لأن إدراك الزمن إنما يتأتى بمشاهدة الأحداث ، فالمرء لا يشعر بالزمن ؛ لأنه لا يعيش أحداثاً ، كالسنائم لا يدرك المدة التى نامها ، وكلُّ مَنْ سئلَ هذا السؤال قال ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ..﴾ (٢٥٩) ﴿ [البقرة]

قالها العزيز الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه ، وقالها أهل الكهف الذين أنامهم الله ثلاثمائة سنة وتسعاً ؛ لأن هذه هى أطول مدة يمكن أن يتخيلها الإنسان لنومه ، ولا يستطيع النائم تحديد ذلك بدقة ؛ لأن الزمن ابنُ الحدث ، فإن انعدم الحدث انعدم الزمن .

لذلك يقول تعالى عَمَّنْ مَاتُوا حَتَّى مِنْ أَيَّامِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ (٤٦) ﴿ [النازعات]

وكذلك يقول هؤلاء أيضاً فى الإجابة على هذا السؤال :

﴿قَالُوا الْيَوْمَ نَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِ الْعَادِينَ﴾ (١١٣) ﴿

أى : أصحاب العُدِّ الذين يمكنهم العُدُّ والحساب ؛ لأننا لم نكن فى وعينا لنعدّ كما لبثنا ، والمراد بالعادين هم الملائكة الذين يعدّون الأيام ويحسبونها^(١) .

(١) ذكر القرطبي فى تفسيره (٤٦٠ / ٦) فى معنى (العادين) قولين :

- الحساب الذين يعرفون ذلك . قاله قتادة .

- الملائكة الذين كانوا معنا فى الدنيا . قاله مجاهد .

﴿ قَلَّ إِن لِّشْتَرِ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْأَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١١٤)

إِنْ : بمعنى ما ، يعنى : ما لبثتم إلا قليلاً ، فمهما قدرتم من طول الحياة حتى مَنْ مات منذ أيام آدم عليه السلام ، فسيكون قليلاً بالمقارنة بالزمن الذى ينتظركم فى الجزاء الأخرى ، فما لبثتموه فى الدنيا لا يُقاس بعذاب الآخرة الممتد الباقى ، هذا ﴿ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١١٤) [المؤمنون] تعلمون طول ما تصيرون إليه من العذاب الخالد المقيم .

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١١٥)

(حسبتُمْ) ظننتم يعنى : ماذا كنتم تظنون فى خلقنا لكم ؟ كما قال فى موضع آخر : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (٢) [العنكبوت] وكلمة ﴿ عَبَثًا .. ﴾ (١١٥) [المؤمنون] العبث هو الفعل الذى لا غاية له ولا فائدة منه ، كما تقول : فيم تعبث ؟ لمن يفعل فعلاً لا جدوى منه ، وغير العبث نقول : الجد ونقول : اللعب واللهو ، كلها أفعال فى حركات الحياة . لكن الجد : هو أن تعمل العمل لغاية مرسومة .

أما اللعب فهو أن تعمل عملاً هو فى واقع الأمر لا غاية له الآن إلا دُرْبَتِكَ أنت على الحركة وشغل ملكاتك حتى لا تتوجه إلى فساد شئ أو الإضرار بشئ ، كما تشتري لولدك لعبة يلهو بها ، وينشغل بها عن الأشياء القيِّمة فى المنزل ، والتي إن لعب بها حطَّماها ، فانت

تصرف حركاته إلى شيء لتمنعه عن أشياء ضارة ، أو تُعلِّمه باللعب شيئاً يفيدُه فيما بعد ، كالسباحة أو ركوب الخيل .

واللهو كاللعب في أنه يكون لغاية قد تاتي بعد ، أو لغاية تنفي ضرراً ، إلا أن اللعب حين تزاوله لا يشغلك عن مطلوب ، أما اللهو فهو الذي يشغلك عن مطلوب ، فمثلاً الطفل دون السابعة يلعب في أوقات الصلاة ، فيُسمَّى فعله لعباً ، فإن كان في العاشرة يُسمَّى فعله لهواً ؛ لأنه شغله عن الصلاة ، وهي واجبة عليه .

واللعب يُدربك على أشياء قد تحتاجها وقت الجد فتكون سهلة عليك ، أما العبث فلا فائدة منه ، لذلك قال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا .. ﴾ (١١٥) [المؤمنون] فنفي أن يكون الخلق عبثاً بلا غاية ؛ لأن الله تعالى خلق الخلق لغاية مرسومة ، ووضع لهم منهجاً يحدد هذه الغاية ، ولا يضع المنهج للخلق إلا الخالق .

كما قلنا سابقاً : إن الصانع الذي صنع هذا الميكروفون لم يصنعه ثم طلب منا أن نبحث له عن مهمة ، إنما قبل أن يصنعه حدد له مهمته والغاية منه ، وهي أن ينقل الصوت لمسافات بعيدة ، إذن ؛ فالغاية مرسومة بداية وقبل العمل .

فالذي يحدد الغاية هو الصانع المبدع للشيء ، وهو أيضاً الذي يحدد صلاح الصنعة لغايتها ، ويحدد قانون صيانتها لتؤدي مهمتها على أكمل وجه ، وأنت أيها الإنسان صنعة الله فدعه يحدد لك غايتك ، ويضع لك منهج حياتك وقانون صيانتك ، بأفعل كذا ولا تفعل كذا .

إذن : فساد الدنيا يأتي من أن الصنعة تريد أن تأخذ حق الصانع في تحديد الغاية ، وفي تحديد المنهج ، وقانون الصيانة ، وليس من مهمتها ذلك ، والخالق حينما يحدد لك الغاية يضع لك المنهج الذي

يُعينك على غايتك ، إنما أنت : متى تستطيع أن تدرك الأشياء لتضع غاية أو تضع قانون الصيانة ؟

إنك لا يمكن أن تبلغ هذا المبلغ قبل سنِّ العشرين على أحسن تقدير ، فَمَنْ - إذن - يضع لك غايتك وقانون صيانتك قبل هذه السنِّ ؟ لا أحدٌ غير خالقك عز وجل ، ولن يستقيم الحال إلا إذا تركنا الصَّنْعة للصانع غايةً ومنهجاً وصيانة .

وكيف تظن أن الله تعالى خلقك عبثاً ، وهو الذى استدعاك للوجود وأعدَّ لك مقومات حياتك وضرورياتها ، وحنَّك بإعمال عقلك فى هذه المقومات لتستطيع أن تُرفِّه بالطاقة والقدرة المخلوقة لله تعالى لتُسعدَ نفسك وتُرفِّه حياتك .

وقد كنا فى الماضى نجلس على ضوء المسرجة ، والآن على أضواء النيون والكريستال ، ومهما ترفهت حياتك وتوفرت لك وسائل الراحة فلا تنسَ أنها عطاء من الله فى المادة وفى الطاقة وفى العقل المفكر ، كلها مخلوقة لله عز وجل ، لا تملك أنت منها شيئاً ، بدليل أن الله إذا سلبك العقل لصرت مجنوناً ، ولو سلبك الطاقة والقدرة لصرت ضعيفاً لا تستطيع مجرد التنفس ، فهذه نعمٌ موهوبة لك ليست ذاتية فيك .

إذن : عليك أن تتأمل فى خالقك عز وجل ، وما وهبك من مقومات الحياة ، لتعلم أن هذا الخلق لا يمكن أن يكون عبثاً ، ولا بد أن له غاية رسمها الخالق سبحانه ، وأنت فى ذاتك تحاول أن تضع لك غاية فى جزئية ما من الغاية الكبرى التى خلقك الله لها .

ألا ترى الولد الصغير كيف تعتنى به وتُعلمه وتنفق عليه مرحلة بعد الأخرى ، حتى يصل إلى الجامعة ، وتتعلق أنت بأمل كبير فى أن

يكون لولدك هذا مكانة في المجتمع ومنزلة بين الناس ؟ هذه العملية في حد ذاتها غاية ، لكن بعد أن يحصل على الوظيفة المرموقة والمكانة والمنزلة ينتهى الامر بالموت .

إذن : لا بُدَّ من وجود غاية أخرى أعظم من هذه ، غاية لا يدركها الفناء ، وليس لها بعد ، هذه الغاية الكبرى هي لقاء الله وملاقاة الجزاء ، إما إلى الجنة وإما إلى النار .

وعلينا أن نأخذ كل مسائل الحياة وجزئياتها في ضوء هذه الحقيقة ، أننا لم نُخلَق عبثاً ، بل لغاية مرادة الله ، ولها أسباب توصل إليها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١١٥) [المؤمنون] (تُرْجَعُونَ) يعنى : رَغَمًا عَنْكُمْ ، وبدون إرادتكم ، كان شيئاً ما يسوقهم ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُونا إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴾ (١٢) [الطور] يعنى : يُدْفَعُونَ إليها ، وَيُضْرَبُونَ على أَعْقَابِهِمْ ، وَيُسَاقُونَ سَوْقَ الدَّوَابِّ .

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا

هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ (١١٦)

﴿ فَتَعَالَى .. ﴾ (١١٦) [المؤمنون] تنزَّه وتقدَّس ، وكلمة العلو تعنى علو المنزلة . نقول : علا فلان على فلان ، أما حين نقول : تعالى الله ، فالمراد العلو الاعلى ، وإن وهب علواً للغير فهو علو الدانى ، وعلو المتغير ، بدليل أنه تعالى يُعَلِّيك ، وإن شاء سلبك ، فالعلو ليس ذاتياً فيك .

وكلمة الملك نعرفها فيمن يملك قطعة من الأرض بمن فيها ويحكم وله رعية ، ومن هذه المادة : المالك . ويُطلق على أي مالك لأي شيء ، ولو لم يكن لديه إلا الثوب الذي يلبسه فهو مالك ، أما : الملك فهو من يملك الذين يملكون ، فله ملك على المالكين ، وهذا الملك لم يأخذ ملكه بذاته ، إنما بإيتاء الله له .

لذلك يقول تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ .. ﴾ (٢٦) [آل عمران]

قلو كان ملك هؤلاء الملوك ذاتياً ما نُزِعَ منهم ، ألا ترى الملك من ملوك الدنيا يقوى ويستتب له الأمر ، ويكون له صولجان وبطش وفَتَك .. إلخ ، ومع كل هذا لا يستطيع الاحتفاظ بملكه ؟ وفي لحظة ينهار هذا الملك ولو على يد جندي من جنوده ، بل وربما تلفظه بلاده ، ولا تقبل حتى أن يُدفن بها ، وتتطوع له بعض الدول ، وتقبل أن تُوارى رفاته بأرضها ، فأى ملك هذا ؟

وهذه آية من الآيات نراها في كل عصر - وكأنها قائمة - دليلاً على صدق الآية : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ .. ﴾ (٢٦) [آل عمران] إذن : إن ملكك الله فاعلم أنه ملك موهوب ، مهما استتب لك فلا تضمن بقاءه ؛ لأن الله تعالى ملك لغاية ، ولا يملك لغاية إلا هو سبحانه .

لذلك كان الحق - سبحانه وتعالى - ﴿ الْمَلِكُ الْحَقُّ .. ﴾ (١١٦) [المؤمنون] يعنى : الذى لا يزحزحه أحد عن ملكه ، أو يسلبه منه ، وهو الذى يتصرف فى ملكه كيف يشاء لا ينازعه فيه أحد ، وإن أعطى من باطن ملكه تعالى ملكاً لأحد ، فيظل فى يده سبحانه زمام هذا الملك ، إن شاء بسطه ، وإن شاء سلبه ونزعه . فهو وحده الملك

الحق ، أما غيره فملكهم موموب مسلوب ، وإن ملك سبحانه أناساً .
أمر أناس في الدنيا يأتي يوم القيامة فيقول : ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ.. (١٦)﴾ [غافر]

وتلحظ أن كلمة ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ .. (٢٦)﴾ [ال عمران] سهلة على خلاف ﴿تَنْزِعُ الْمُلْكَ .. (٢٦)﴾ [ال عمران] ، ففي النزاع دليل على المشقة والمعاناة ؛ لأن صاحب الملك يحاول أن يتمسك به ويتشبث وينازع ، لكن أينازع الله ؟

فقوله سبحانه : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ .. (١١٦)﴾ [المؤمنون] المراد : تعالى عن أن يكون خلقكم عبثاً ، وتعالى عن أن تشرذوا من قبضته ، أو تخرجوا عن نفوذه ، أو تستقلوا بخلقكم عن سيطرته ، وتعالى أن تُفَلِّتُوا من عقابه أو تمتنعوا عنه ؛ لأنه لا إله غيره : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)﴾ [المؤمنون]

فالحق تبارك وتعالى يحكم في إطار : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ [الإخلاص]
فإذا قال لك شيئاً فاعلم أنه لا إله غيره يعارضه .

والعرش : رمز لاستتباب الأمر للمالك ؛ لأنه ينشغل بتدبير ملكه والقضاء على المناوئين له وتاديب أعدائه ، فإذا ما استتب له ذلك جلس على عرشه ، إذن : الجلوس على العرش يعنى استقرار الأمور واستتباب أمر الملك ؛ لذلك فإن الحق سبحانه بعد أن خلق الخلق استوى على العرش .

والعرش يفيد أيضاً السيطرة والتحكم ، وعرش الله عرش كريم ؛

لأنه تعالى عليك لا لِيُذَكَّ ويهينك ، وإنما تعالى عليك ليعاليك إليه ويعطيك من فضله . كما سبق أن قلنا : إن من مصلحتنا أن يكون الله تعالى مُتَكَبِّراً ، ومن عظمة الحق سبحانه أن يكون له الكبرياء ، فساعة يعلم الجميع أن الكبرياء لله وحده لا يتكبر أحد على أحد .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣٧) [الجاثية]

لذلك يقولون في الأمثال : (اللى ملوش كبير يشتري له كبير)
يعنى : ليعيش في ظله ، فالحق - تبارك وتعالى - يتعالى لصالح خلقه .

ومن ذلك ما قلناه في مسألة العبودية ، وأنها مكروهة ثقيلة إن كانت للبشر : لأن السيد يأخذ خير عبده ، إنما هي محبوبة إن كانت لله تعالى : لأن العبودية لله يأخذ العبد خير ربه .

فإن كانت عروش الدنيا للسيطرة والتخكم في مصائر الناس وامتصاص دمائهم وأخذ خيراتهم ، فعرش ربك عرش كريم ، والكريم في كل شيء أشرف غاياته ، اقرأ قوله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعِيُونَ ﴾ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿ (٢٦) [الدخان]

وحيث يوصينا بالوالدين ، يقول سبحانه : ﴿ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ (٢٣) [الإسراء]

فالعرش الكريم أشرف غايات الملك : لأن الملك ليس تسلطاً وقهراً ، إنما هو مُلْكٌ لصالح الناس ، والحق - تبارك وتعالى - حينما خلق الحياة بزرع فيها أسباب الفضل ، ولكنه جعل فيها القوى القابرة ، وجعل فيها الضعيف العاجز ، ثم أمر القوى أن يأخذ بيد الضعيف ،

وَأَنْ يَعُولَهُ ، فَالْكَرَمُ اسْتِطْرَاقُ نَفْعِ الْقَوَى لِلضَّعِيفِ ، فَكُلُّ خَصْلَةٍ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ تُوصَفُ بِالْكَرَمِ .

إِذَنْ : إِيَّاكَ أَنْ تَقْهَمَ أَنَّ عَرْشَ رَبِّكَ لِلْسَّيْطَرَةِ وَالْعُلُوِّ وَالْجَبْرُوتِ ؛ لِأَنَّهُ عَرْشُ كَرِيمٍ .

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١١٧)

﴿يَدْعُ مَعَ اللَّهِ ..﴾ (١١٧) [المؤمنون] يعنى : يعبد مع الله ، والعبادة طاعة المعبود فى أمره ونهيه ، لكن كيف تدعو إلهاً ، لا ينفعك ولا يضرُك ، ولا برهانَ عندك على ألوهيته ؛ لذلك هُددته سبحانه وتوعده بقوله : ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ..﴾ (١١٧) [المؤمنون] أى : ربه الحق ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١١٧) [المؤمنون]

وعجيبٌ أن تبدأ السورة بقوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) [المؤمنون] وتنتهى بقوله : ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١١٧) [المؤمنون] أى : ينقيض ما بدأتُ به ، وعليك أنت أن تتأمل ما بين هذين القوسين ، وما دامت المسألة مسألة إيمان يفلح أهله ، وكفر لا يفلح أهله ، فتمسكوا بربكم ، والتزموا منهجه فى (افعل) و (لا تفعل) .

وَأَنْ غَلِبَتْكُمْ النَفْسُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الذُّنُوبِ فَتَذَكَّرُوا :

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١١٨)

إِنْ هَفُوتُمْ هَفْوَةً فَايَاكُمْ أَنْ تَنْسُوا هَذِهِ الْحَقِيقَةَ ، وَالْجَنُّوْا إِلَى رَبِّكُمْ
فَإِنَّهُ غَفَّارٌ شَرَعَ لَكُمْ التَّوْبَةَ لِتَتُوبُوا ، وَالْاِسْتِغْفَارَ لِتَسْتَغْفِرُوا ، وَهُوَ
سَبْحَانَهُ أَرْحَمُ بِكُمْ مِنَ الْوَالِدَةِ بَوْلَدِهَا ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ .

وَالْمَعْنَى ﴿ اَغْفِرْ .. ﴾ (١١٨) [المؤمنون] أَيْ : الذُّنُوبَ السَّابِقَةَ
الْمَاضِيَةَ ﴿ وَأَرْحَمَ .. ﴾ (١١٨) [المؤمنون] أَيْ : اَرْحَمْنَا أَنْ نَقَعَ فِي الذُّنُوبِ
فِيمَا بَعْدَ ، وَاعْصَمْنَا فِي مُسْتَقْبَلِ حَيَاتِنَا مِنَ الزَّلَلِ . إِنْ : تَمَسَّكَ بِرَبِّكَ
وَبِمَنْهَجِ رَبِّكَ فِي كُلِّ حَالٍ ، لَا يَصْرَفُكَ عَنْهُ صَارْفٌ .



وَقَدْ رَأَى أَعْمَالَهُ قَلِيلًا مِمَّا أَمْسَتْ زَا وَتَلَبَّاهُ تَوْبَةً وَتَوْبَةً زَا
 يَهُ . اِيْزَقْتَمَشَا رَاغِيْتَمَشَا ، اِيْزَقْتَمَشَا تَمَشَا وَتَمَشَا وَتَمَشَا وَتَمَشَا
 تَوْبَةً تَمَشَا تَمَشَا . اِيْزَقْتَمَشَا تَمَشَا تَمَشَا تَمَشَا تَمَشَا

تَمَشَا تَمَشَا تَمَشَا - زَا (تَمَشَا) (تَمَشَا) . تَمَشَا تَمَشَا
 تَمَشَا تَمَشَا تَمَشَا زَا تَمَشَا زَا (تَمَشَا) (تَمَشَا) تَمَشَا تَمَشَا
 تَمَشَا تَمَشَا تَمَشَا . تَمَشَا تَمَشَا تَمَشَا تَمَشَا تَمَشَا . تَمَشَا تَمَشَا
 تَمَشَا تَمَشَا تَمَشَا تَمَشَا . تَمَشَا تَمَشَا تَمَشَا تَمَشَا

سُورَةُ النَّازِعَاتِ



سورة النور^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ لِّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

اسمها سورة (النور)^(٢) ، وإذا استقرأنا موضوع المُسمَّى أو المُعَنون له بسورة (النور) تجد النور شائعاً في كل أعطافها - لا أقول آياتها ولا أقول كلماتها - ولكن النور شائع في كل حروفها ، لماذا ؟

قالوا : لأن النور من الألفاظ التي يدل عليها نطقها ويعرفها أكثر من أى تعريف آخر ، فالناس تعرف النور بمجرد نُطق هذه الكلمة ، والنور لا يُعرَّف إلا بحقيقة ما يؤديه ، وهو ما تتضح به المرثيات ، وتتجلى به الكائنات ، فلولاً هذا النور ما كنا نرى شيئاً .

إذن : يُعرف النور بخاصيته ، وهو الذى يجعل لك قدرة على أن

(١) سورة النور ، هي السورة رقم ٢٤ في ترتيب المصحف الشريف ، وتقع في الجزء الثامن عشر من المصحف ، وهي سورة مدنية بالإجماع ، قاله القرطبي في تفسيره (٤٦٩٢/٦) ، نزلت بعد سورة النصر وقبل سورة الحج ، وهي السورة رقم ١٧ في ترتيب النزول بالمدينة ، راجع : الإتيان في علوم القرآن ، للسيوطي (٢٧/١) . وعدد آياتها ٦٤ آية .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٤٦٩٢/٦) : « مقصود هذه السورة ذكر أحكام العفاف والستر . وكتب عمر رضى الله عنه إلى أهل الكوفة : علموا نسائك سورة النور » .

ترى المرثيات ، بدليل أنها إن كانت فى ظلمة لا تراها . إذن : فالنور لا يُرى ، ولكن نرى به الأشياء ، فإله تعالى نور السموات والأرض يُنورهما لنا ، لكن لا نراه سبحانه .

لكن ، هل كل الأشياء مرئى ؟ أليس منها المسموع والمشموم والمستذوق ؟ قالوا : نعم ، لكن الدليل الأول على كل هذه وفعل الحوادث هى المرثيات ؟ لأن كل أدلة الكون مرئية نراها أولاً ، ثم حين تسمع ، وحين تشم ، وحين تلمس ، وحين تميز الثقل من الخفيف ، أو القريب من البعيد . فهذا كله فرع ما يوجد فيك ، بعد ما تؤمن أن الله الذى أوجدك هو الذى أوجد لك كل شيء ، فإذا ما نظرت إلى النور وجدت النور أمراً حسياً ترى به الأشياء .

وكانوا فى الماضى يعتقدون أن الإنسان يبصر الأشياء بشعاع يخرج من العين ، فيسقط على الشيء فتراه ، إلى أن جاء العالم الإسلامى الحسن بن الهيثم ، وأبطل هذه النظرية وقال : إن الشعاع يأتى من المرئى إلى العين فتراه ، وليس العكس ، واستدل على ذلك بأن الشيء إن كان فى الظلام لا نراه ، ونحن فى النور ، فلو أن الشعاع يخرج منك لرأيت .

وفى ضوء هذه النظرية فهمنا قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مَبْصُورَةً ۝ (١٢) ﴾ [الإسراء] فهى مبصرة : لأن الشعاع يأتى من هناك ، فكانها هى التى ترى .

لكن ، ما نفع هذا النور الحسى للإنسان الخليفة فى الأرض ؟ أنت حين ترى الأشياء تتعامل معها تعاملأ يعطيك خيرها ويكف عنك شرها ، ولو لم تر الأشياء ما أمكنك التعامل معها ، وإلا فكيف تسير فى مكان مظلم فيه ما يؤذيك مثل الثعابين أو زجاج متكسر ؟

إذن : لا تستطيع أن تهتدى إلى مواضع قدمك ، وتأخذ خير الأشياء ، وتتجنب شرها إلا بالنور الحسى ، كذلك إن سرت فى ظلمة وعلى غير هدى ، فلا بد أن تصطدم بأقوى منك فيحطمك ، أو بأضعف منك فتحطمه .

لذلك سمى الحق - تبارك وتعالى - المنهج الذى يهديك فى دروب الحياة نوراً .

والناس حين لا يوجد النور الربانى الإلهى يصنعون لأنفسهم أنواراً على قدر إمكاناتهم وبيئاتهم بداية من المرسجة ولمبة الجاز ، وكان الناس يتفاوتون حتى فى هذه - حتى عصر الكهرباء والفلوروسنت والنيون وخلافه من وسائل الإضاءة التى يتفاوت فيها الناس تفاوتاً كبيراً - هذا فى الليل ، فإذا ما أشرقت الشمس أطفأ الجميع أنوارهم ومصابيحهم ، لماذا ؟ لأن مصباح الله قد ظهر واستوى فيه الجميع لا يتميز فيه أحد عن أحد .

وكذلك النور المعنوى نور المنهج الذى يهديك إن كان الله فيه توجيه ، فأطفىء مصابيح توجيه البشر لا يصح أن تستضىء بنور ونور ربك موجود ، بل عليك أن تبادر وتأخذ ما تقدر عليه من نور ربك ، فكما أخذت نور الله الحسى فالغيت به كل الأنوار ، فخذ نور الله فى القيم ، خذ نور الله فى الأخلاق وفى المعاملات وفى السلوك يغنيك هذا عن أى نور من أنوار البشر ومناهجهم .

ألا ترى النمرود كيف بهت حينما قطع عليه إبراهيم - عليه السلام - جدله والجاه إلى الحجة التى لا يستطيع الفكك منها ، حين قال له : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .. ﴾ (٢٥٨) [البقرة]

والحق - تبارك وتعالى - يفيض من أنواره وصفات كماله علي خلقه الذين جعلهم خلفاء له سبحانه في الأرض ، فقال : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ۝ (٣٠) ﴾ [البقرة] والخليفة في الأرض ليس جيلًا واحدًا خلقه الله واستخلفه في الأرض إلى قيام الساعة ، إنما الخليفة أجيال وأنسال تتوالى ، يموت واحد ويُولد آخر في حلقات موصولة الأنسال لا الذوات .

والخليفة لا ينجح في خلافته إلا إذا سار فيها على وفق مراد من استخلفه ، وآفة الناس في خلافتهم لله في الأرض أن يعتبروا أنفسهم أصلاء لا خلفاء ، فالخليفة في ذهنه دائماً هذه الخلافة ؛ لذلك يلتفت إلى الأصل ، وينظر ماذا يريد منه من استخلفه .

والحق - تبارك وتعالى - جعل له خليفة في الأرض لتظهر عليه سمات قدرته تعالى وصفات كماله ، فالله تعالى قادر ، الله عالم ، الله حكيم ، الله غنى ، الله رحيم ، الله غفور .. الخ وهو سبحانه يعطى من صفاته ويفيض منها على خلقه وخليفته في أرضه بعضاً من هذه الصفات ، فيعطيك من قدرته قدرة ، ومن رحمته رحمة ، ومن غنائه غنى ، لكن تظل الصفة في يده تعالى إن شاء سلبها ، ألا ترى القوى قد يصير ضعيفاً ، والغنى قد يصير فقيراً ؟

ذلك لنعلم أن هذه الصفات ليست ذاتية فينا ، وأن هذه الهبات ليست أصلاً عندنا ، إنما هي فيض من فيض الله وهبة من هباته سبحانه ، لذلك علينا أن نستعملها وفق مراده تعالى ، فإن أعطاك ربك القدرة فإنما أفاض بها عليك لتفيض أنت بها على غيرك ، أعطاك العلم لتنتشره على الناس ، أعطاك الغنى لترعى حق الفقير .

إذن : ما دام أن الله تعالى أفاض عليك من صفات الكمال واحتفظ

هو سبحانه بملكية هذه الصفات ، فإن شاء سلبها منك ، فعليك أن تستغل الفرصة وتنتهز وجود هذه الخصلة عندك ، فتثمرها فيما أراد الله منك قبل أن تُسلب ، حتى إذا سلبت منك نالتك من غيرك .

فتصدق وأنت غنى لتنال صدقة الآخرين إن أصابك الفقر ، وأكرم اليتيم لتجد من يكرم يتيماً من بعدك ، فإن قابلت أحداث الحياة بهذه النظرة اطمأن قلبك ، وأمنت من حوادث الزمن ، واستقبلت الأحداث بالرضا ، وكيف تهتم وأنت في مجتمع يرعاك كما رعيته ، ويحملك كما حملته ، ويتعاون معك كما تعاونت معه ؟

وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْقِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً ﴾ [النساء]

إذن : الحق - تبارك وتعالى - يريد من خليفته في أرضه أن يكون جماعاً لصفات الكمال التي تسعد الخلق بآثار الخالق فيهم ، وهذه هي الخلافة الحقة .

وسورة النور جاءت لتحمل نور المعنويات ، نور القيم ، نور التعامل ، نور الأخلاق ، نور الإدارة والتصرف ، وما دام أن الله تعالى وضع لنا هذا النور فلا يصح للبشر أن يضعوا لأنفسهم قوانين أخرى ؛ لأنه كما قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور] فلو لم تكن هذه الشمس ما استطاع أحد أن يصنع لنفسه نوراً أبداً .

فالحق - تبارك وتعالى - يريد لخليفته في أرضه أن يكون طاهراً شريفاً كريماً عزيزاً ؛ لذلك وضع له من القوانين ما يكفل له هذه الغاية ، وأول هذه القوانين وأهمها قانون التقاء الرجل والمرأة التقاء سليماً في وضع النهار ؛ لينتج عن هذا اللقاء نسل طاهر جدير

بخلافة الله في أرضه ؛ لذلك أول ما تكلم الحق سبحانه في هذه السورة تكلم عن مسألة الزنى .

والعجيب أن تأتي هذه السورة بعد سورة (المؤمنون) التي قال الله في أولها ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [٢] ﴿ [المؤمنون] ثم ذكر من هؤلاء المؤمنين المفلحين ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُروُجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ [٥] ﴿ [المؤمنون] وهذا قال : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي . . ﴾ [٢] ﴿ [النور] فجاء بالمقابل للذين هم لفروجهم حافظون .

نفهم من هذا أنه لا يلتقى رجل وامرأة إلا على نور من الله وهدى من شريعته الحكيمة ؛ لأنه عز وجل هو خالق الإنسان ، وهو أعلم بما يصلحه ، وهو خالق ذراته ، ويعلم كيف تتسجم هذه الذرات بعضها البعض ، وهو سبحانه خالق ملكات النفس ، ويعلم كيف تتعايش هذه الملكات ولا تتنافر .

إذن : طبيعى إن أردت أن تنشئ خليفة في الكون على غير مراد الله وعلى غير مواصفات الحق ، لا بد أن يضطرب الكون وتتصارع فيه ملكات النفس ، وماذا تنتظر من هذا الخليفة إن جاء في الظلام ؟ ساعتها تظهر أمراض النسل من وأد الأولاد وقتلهم حتى في بطون الأمهات ، وقد يتشكك الرجل في ولده ، فيبغضه ويهمله ويتركه للتشرد .

إذن : لن تستقيم هذه المسألة إلا حين يأتي الخليفة وفق مواصفات ربه ، وأن يلتقى الزوجان على ما شرع الله في وضوح النهار ، لا أن يندس كل منهما على الآخر في ظلمة الإثم ، فيحدث المحذور الذى تختلط به الأنساب ، ويتفكك رباط المجتمع .

إن من أقسى تجارب الحياة على المرء أن يشك في نسبة ولده إليه ، وأن تعترضه هذه الفكرة ، فيهمل ولده وفلذة كبده ، وينفق هنا

وهناك ويحرمه على خلاف النسل الطاهر ، حيث يتلف الأب لولده ، ويجوع ليشبع ، ويتعري ليلبس .

فالحق سبحانه يريد النسل المحضون بالأبوين في أبوة صحيحة شرعية وأمومة صحيحة شرعية اجتماعا على نور الله .

ولك أن تُجرى مقارنة بين امرأة حملت سفاحاً وأخرى حملت حملاً شرعياً طاهراً ، ستجد الأولى تحمله على مضض وكُرْه ، وتود أن تتخلص منه وهو جنين في بطنها ، فإن تحملت على نفسها إلى حين ولادته تخلصت منه في ليلتها ولو بالقائه على قارعة الطريق .

أما صاحبة الحمل الشرعي فتتلف على الولد ، وإن تأخر بعض الوقت صارت قلقة تدور بين الأطباء ، فإن أكرمها الله بالحمل طارت به فرحاً وفخراً ، وحافظت عليه في مشيها وحركاتها ونومها وقيامها إلى حين الوضع ، فتتحمل آلامه راضية ثم تحتضنه وترضعه وتعيش حياتها في خدمته ورعايته .

فإنه يريد أن يأتي خليفته في أرضه من إخصاب طاهر على أعين الناس جميعاً وفي نور الله المعنوي ، يريد للزوج أن يأتي من الباب في ضوء هذا النور ، لا أن يتلصص في الظلام من باب الخدم .

لذلك يتوعد الحق - سبحانه وتعالى - مَنْ يخالف هذا المنهج ويريد أن يفسد شرف الخلافة التي يريد الله طاهرة ، ويدنس النسل ، ويؤغر الصدور بالأحقاد والعداوات ، ويزرع الشك في نفوس الخلق ، وجرائم العرض لا يقتصر ضررها على العداوات الشخصية إنما تتعدى هذه إلى الإضرار بالمجتمع كله .

وانظر إلى الإيدز الذي يهدد المجتمعات الآن ، وهو ناتج عن

الالتقاء غير الشرعى ، وخطر الإيدز لا يقتصر على طرفيه إنما يتعداهما إلى الغير ، إذن : من صالح المجتمع كله أن نقيم حد الزنا حتى لا يستشرى هذا الداء .

ونعجب من هؤلاء الذين يهاجمون شرع الله فى مسألة الحدود حين تقضى برجم الزانى المحصن حتى الموت ، ألا يعلم هؤلاء أننا نُضْحِي بواحد لنحفظ سلامة الملايين فى صحة وعافية ؟ ألا يرون ما يحدث مثلاً فى وباء الطاعون الذى أعجز العلماء حتى الآن ، ولم يجدوا له علاجاً ، وكيف أن الشرع أمرنا أن نزل الطاعون بارض الأ نذهب إليها ، وأمر من فيها ألا يخرجوا منها ، لماذا ؟ لنحصر هذا الوباء حتى لا يستشرى بين الناس .

كذلك الحال فى مسألة الزنا : لأن الزانى لا يقتصر شره عليه وحده ، إنما يتعدى شره إلى المجتمع كله ، مع مراعاة أن الشرع فرق بين الزانى المحصن وغير المحصن ، وكذلك الزانية ، ففى حالة الإحصان تتعدد المئات فى المكان الواحد ، لذلك سئلنا فى سان فرانسيسكو : لماذا أبحتم تعدد الزوجات ، ولم تبيحوا تعدد الأزواج ؟ هذا منهم على سبيل قياس الرجل على المرأة : لماذا لا تتزوج المرأة وتجمع بين أربعة رجال ؟

قلت : اسألوهم ، أليس عندهم أماكن يستريح فيها الشباب جنسياً - يعنى بيوت للدعارة - قالوا : نعم فى بعض الولايات ، قلت : فيماذا احتطتم لصحة المجتمع وسلامته ؟ قالوا : نُجْرِى عليهم كشفاً دورياً كل أسبوع ، قلت : وهل هذا الكشف الدورى يستوعب الجميع ؟ أم أنه مجرد (ششن) وعينات عشوائية .

إذن : من الممكن أن يتسرّب المرض بين هؤلاء الشباب ، وهب

أنك أجريت على إحداهن الكشف يوم الأحد مثلاً ، وفي يوم الاثنين جاءها المرض ، فإلى كم واحد سينتقل المرض إلى أن يأتي الأحد القادم ؟ فهذه مسألة لا تستطيع السيطرة فيها على الداء .

ثم أتجرون هذه الفحوصات على المتزوجين والمتزوجات ؟ وهل اكتشفتهم بينهم مثل هذه الأمراض ؟ قالوا : لا لم يحدث أن اكتشفنا هذا بين المتزوجين . قلت : إذن كان عليكم أن تنتبهوا إلى سبب هذه الداءات ، وأنها تأتي من تعدد ماءات الرجال في المكان الواحد ؛ لأن لكل ماء سياله وله ميكروبات تتصارع ، إن اجتمعت في المكان الواحد فينشأ منها المرض .

لكن حين يكون للزوجة زوج واحد ، فلن نرى مثل هذه الداءات في المجتمع ، ومن هنا يأتي دور الوازع الديني ، فإن فقد الوازع الديني فلا بد من الوازع الحسي ليزجر مثل هؤلاء ويوقفهم عند حدود الله رغماً عنهم ، حتى وإن لم يكونوا يؤمنون بها .

إذن : هذه أفضية ومشاكل وداءات حدثت للناس بقدر ما أحدثوا من الفجور ، وبقدر ما انتهكوا من حُرُمات الله ، وانظر مثلاً لمن يضطر للسفر إلى مثل هذه البلاد ، كم يكون حذراً مُفزعاً حين يقيم مثلاً في فندق ، فيأخذ أدواته الشخصية ، ويخاف أن يستعمل أشياء غيره ، ويحرص على نظافة المكان وتغيير الفراش قبل أن ينام عليه .. الخ كل هذه الاحتياطات .

فالشرع حين يأمر بقتل الزاني أو الزانية إنما فعل ذلك ليسلّم المجتمع بأسره ، وكثيراً ما نواجه مثل هذه الاعتراضات من أصحاب الرحمة الحمقاء والشعارات الجوفاء ، أهُم أرحم بالخلق من الخالق ؟ ألا يرون للزلازل أو لحوادث السيارات والطائرات التي تحصد الآلاف

من الأرواح ؟ فلماذا هذه الضجة حين نبتز العضو المريض من المجتمع ؟

قوله تعالى : ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا .. (١)﴾ [النور] السورة : مأخوذة من سور البيت ، وهي طائفة من نجوم القرآن أو آياته محوطة ببداية ونهاية ، تصل أحكاماً وقد تكون طويلة كسورة البقرة ، أو قصيرة كالإخلاص والكوثر ، فليس للسورة كمية مخصوصة ؛ لأنها توقيفية .

﴿أَنْزَلْنَاهَا .. (١)﴾ [النور] نفهم من أنزل أن الإنزال من أعلى إلى مَنْ هو أدنى منه ، كما يكتب الموظف مثلاً يريد التظلم لرئيسه : أرفع إليك كذا وكذا ، فيقول الأعلى : وأنا أنزلت القرار الفلاني ، فالأدنى يرفع للأعلى ، والأعلى يُنزل للأدنى .

لذلك يقول تعالى : (أنزلنا) حتى للشئ الذي لا ينزل من السماء ، كما قال سبحانه : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] فالحديد وإن كان مصدره الأرض ، إلا أنه لا يكون إلا بقدرة الأعلى سبحانه .

﴿وَفَرَضْنَاهَا .. (١)﴾ [النور] الشئ المفروض يعنى الواجب أن يعمل ؛ لأن المشرع قاله وحكم به وقدره ، ومنه قوله سبحانه : ﴿فَنُصِفُ مَا قَرَضْتُمْ .. (٢٣٧)﴾ [البقرة] أى : نصف ما قدرتم ، إذن : كل شئ له حكم فى الشرع ، فإن الله تعالى مقدّره تقديراً حكيماً على قدره .

وقوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. (١)﴾ [النور] الآيات الواضحات ، وتُطلق الآيات - كما قلنا - على الآيات الكونية التى تلتفت أنظارنا إلى قدرة الله وبديع صنّعه ، وتُطلق على المعجزات التى تثبت صدق الرسل ، وتُطلق على آيات القرآن الحاملة للأحكام .

سُورَةُ النُّورِ

﴿١٠١٩٣﴾

وفى هذه السورة كثير من الاحكام الى ان قال فيها الحق سبحانه : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... (٣٥)﴾ [النور] وقال : ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ .. (٣٥)﴾ [النور] فطالما انكم اخذتم نور الدنيا ، واقررتم انه الاحسن ، وانه اذا ظهر الغي جميع انواركم ، فذلك خذوا نور التشريع واعملوا به واعلموا انه نور على نور .

إذن : لديكم من الله نوران : نور حسى ونور معنوى .
﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١)﴾ [النور] بعد ان قال سبحانه انزلت كذا وكذا اراد ان يلهب المشاعر لتستقبل آياته الاستقبال الحسن ، وتطبق احكامه التطبيق الامثل يقول : انزلت إليكم كذا لعلمكم تنكرون ، ففيها حثٌ والهاب لتستفيد بتشريع الحق للخلق .

ثم يتحدث الحق سبحانه عن اول قضية فيما فرضه على عباده :

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَلَيْهِمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾

قلنا : إن الحق سبحانه تناول هذه المسألة حرصاً على سلامة النشء ، وطهارة هذا الإنسان الذى جعله الله خليفة له فى الأرض ، وحين نتأمل السياق القرآنى فى هذه الآية نجد أن كلمة الزانى تدل على كُلٍّ من الأنثى والذكر ، وفى اللغة الاسم الموصول : الذى للمفرد المذكر ، والذى للمفردة المؤنثة ، واللذان للمثنى المذكر ، واللذان للمثنى المؤنث ، والذين لجمع الذكور ، واللائى لجمع الإناث .

لكن هناك أسماء تدل على كل هذه الصيغ مثل : مَنْ ، ما ، ال .

تقول : جاء مَنْ أكرمتني ، وجاءت من أكرمتني ، وجاء من أكرموني .

فكذلك (ال) في (الزاني) تدل على المؤنث وعلى المذكر ، لكن الحق سبحانه ذكرهما صراحة ليُزيل ما قد يحدث عند البعض من خلاف : أيهما السبب في هذه الجريمة ، هذا الخلاف الذي وقع فيه حتى الائمة والفقهاء ، فهناك مَنْ يقول : الزاني واطئ وفاعل ، والمرأة موطوءة ، فالفعل للرجل لا للمرأة ، فهو وحده الذي يتحمل هذه التبعة .

لذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه يحكى أن رجلاً ذهب للنبي ﷺ وقال : يا رسول الله وطئت امرأتى في رمضان . فقال له النبي ﷺ : « كُفِّر » (١)

وأخذ الشافعي من هذا الحديث أن الكفارة إنما تكون على الرجل دون المرأة ، وإلا لقال له الرسول : كُفِّرَا .

لكن يجب أن نفرق بين واطئ وجامع : الواطئ فعل الرجل حتى وإن كانت الزوجة كارهة رافضة ، أما الجماع فهو حال الرضا والقبول من الطرفين ، وفي هذه الحالة تكون الكفارة عليهما معاً ؛ لذلك صرح الحق تبارك وتعالى بالزاني والزانية ليزيل هذه الشبهة وهذا الخلاف .

وأرى في هذه المسألة أن الذي استفتى رسول الله هو الرجل ، ولو كانت المرأة لقال لها أيضاً : كُفِّرِي ، فالحكم خاص بمن استفتى .

والمتأمل في آيات الحدود يجد مثلاً في حد السرقة قوله تعالى

(١) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : احترقت قال رسول الله ﷺ : لم ؟ قال : وطئت امرأتى في رمضان نهاراً . قال : « تصدق ، تصدق » قال : ما عندي شيء . فأمره أن يجلس ، فجاءه عرقان فيهما طعام . فأمره رسول الله ﷺ أن يتصدق به . أخرجه مسلم في صحيحه (١١١٢) .

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ .. (٣٨) [المائدة] فبدأ بالمذكر ، أما في حدِّ الزنا فقال : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ .. (٢) [النور] فبدأ بال مؤنث ، لماذا الاختلاف في التعبير القرآني ؟

قالوا : لأن دور المرأة في مسألة الزنا أعظم ومدخلها أوسع ، فهي التي تغري الرجل وتشيره وتهيج عواطفه ؛ لذلك أمر الحق - تبارك وتعالى - الرجال بقَضِّ البصر وأمر النساء بعدم إبداء الزينة ، ذلك ليسدَّ نوافذ هذه الجريمة ويمنع أسبابها .

أما في حالة السرقة فعادةً يكون عبءُ النفقة ومُؤنة الحياة على كاهل الرجل ، فهو المكلف بها ؛ لذلك يسرق الرجل ، أما المرأة فالعادة أنها في البيت تستقبل ، وليس من مهمتها توفير تكاليف الحياة ، لكن لا مانعَ مع ذلك أن تسرق المرأة أيضاً ؛ لذلك بدأ في السرقة بالرجل .

إذن : بمقارنة آيات القرآن تجد الكلام موزوناً دقيقاً غاية الدقة ، لكل كلمة ولكل حرف عطاؤه ، فهو كلام رب حكيم ، ولو كانت المسألة مجرد تقنين عادي ما التفت إلى مثل هذه المسائل .

ثم يأتي الحد الرادع لهذه الجريمة ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً﴾ .. (٢) [النور] اجلدوا : أمر ، لكن لمن ؟ لم يقل أيها الحاكم أو القاضي ؛ لأن الأمر هنا للامة كلها ، فأمر إقامة الحدود منوط بالامة كلها ، لكن أتنهض الامة بأسرها وتعددها بفعل واحد في كل مكان ؟

قالوا : الامة مثل النائب العام للوالي ، عليه أن يختار من يراه أهلاً للولاية لينفذ له ما يريد ، ومن ولى قاضياً فقد قضى ، وما دام الأمر كذلك فإياك أن تؤلى القضاء من لا يصلح للقضاء ؛ لأن التبعة - إذن - ستكون عليك إن ظلم أو جار ، فالساو والالف في

﴿فَاجْلِدُوا...﴾ [النور] تدل على معان كبيرة ، فالامة فى مجموعها لا تستطيع أن تجلد كل زان أو زانية ، لكن حين تولى إمامها بالبيعة ، وحين تختاره ليقوم حدود الله ، فكانها هى التى أقامت الحدود وهى التى نفذت .

لذلك النبى ﷺ يقول : « مَنْ وَلَّى أَحَدًا أَمْرًا وَفِي النَّاسِ خَيْرٌ مِنْهُ لَا يَشُمُّ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ » (١)

لماذا ؟ لانك حين تُؤلّى أمور الناس مَنْ لا يصلح لها فى وجود مَنْ يصلح إنما تُشيع الفساد فى المجتمع ، ولا تظن أنك تستطيع أن تخفى شيئاً عن أعين الناس ، فلهم من الوعى والانتباه ما يُفرقون به بين الكفاء وغيره ، وإن سكتوا وتغافلوا فإنهم يتساءلون من وراءك : لماذا ولى هذا ، وترك مَنْ هو أكفأ منه ؟ لابد أن له مؤهلات أخرى ، دخل بها من الباب الخلفى ، ولماذا لا تفعل مثله ؟ عندها تسود الفوضى وتضيع الحقوق وينتشر الإحباط والتكاسل والخمول ، ويحدث خلل فى المجتمع وتتعطل المصالح .

ومع هذا كله لا نستطيع أن نلوم الوالى حين يختار مَنْ لا يصلح قبل أن نلوم أنفسنا أولاً ، فنحن الذين اخترناه ودلّسنا فى البيعة له ، فسأله الله علينا ليدلّس هو أيضاً فى اختياره ، أما لو أدى كل منا واجبه فى اختيار مَنْ يصلح ما وصل إلى مراتب القيادة مَنْ يدلّس على الناس ، وبذلك تستقيم الأمور ، ويتقرب الإنسان للولاية بالعمل وبالجد والإخلاص والأمانة والصدق والتفانى فى خدمة المجتمع .

(١) عن أبى بكر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً فأمر عليهم أحداً محابة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم » أخرجه أحمد فى مسنده (٦/١) .

ومن رحمة الله تعالى بالخلق أن يقذف الإخلاص وحب العمل ويزرع الرحمة بالخلق في بعض القلوب ؛ لذلك ترى في كل مصلحة أو في كل مكتب موظفا متواضعا يحب الناس ويحرص على قضاء مصالحهم ، تراه يرتدى نظارة سميكة يرى من خلالها بصعوبة ، وهو دائماً منكب على الأوراق والملفات ، ويقصده الخلق لقضاء مصالحهم : يا فلان أفندي ، أعطني كذا ، واكتب لي كذا ، وقد وسع الله صدره للناس فلا يرد أحداً .

هذه المسائل كلها نفهمها من الواو والالف في ﴿فَاجْلِدُوا ..﴾ [النور] أما الجلد فهو الضرب ، نقول : جلده : يعني ضرب جلده ، ورأسه : يعني ضرب رأسه ، وظهره : ضرب ظهره . والجلد ضربٌ بكيفية خاصة ، بحيث لا يقطع لحماً ولا يكسر عظماً ؛ لأن الضربة حسب قوتها وحسب الآلة المستخدمة في الضرب ، فمن الضرب ما يكسر العظم ولا يقطع الجلد ، ومنه ما يقطع الجلد ولا يكسر العظم ، ومنه ما يؤلم دون هذا أو ذاك .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ..﴾ [النور] تحذير من الرحمة الحمقاء ، الرحمة في غير محلها ، وعلى حد قول الشاعر :

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

فالرأفة لا تكون في حدود الله ، أرفوا بهم في مسائلكم الخاصة فيما بينكم ، وعجيب أن تدعوا الرأفة في مسائل الحدود وأنتم من ناحية أخرى تضربون وتسرقون أموال الناس ، وتنتهكون حرمانهم ، وتثيرون بينهم الفتنة والحروب ، فإين الرأفة إذن ؟

إذن : لا مجال للرحمة والرأفة في حدود الله ، فلسنا أرحم بالخلق

من الخالق ، وما وُضِعَتْ الحدود حياً في تعذيب الناس ، إنما وُضِعَتْ
وشُدُّد عليها لتمنع الوقوع في الجريمة التي تستوجب الحد ، فقطع يد
واحدة تمنع قَطْع آلاف الأيدي .

والذين يتهمون الإسلام بالقسوة والبشاعة في تطبيق الحدود
أنسوا ما فعلوه في هيروشيما ، وما زالت آثاره حتى الآن ؟ أنسوا
الحروب التي يشعلونها في أنحاء العالم ، والتي تحصد آلاف الأرواح ؟
أهي الرحمة الحمقاء التي لا معنى لها ؟ أم هي الكراهية لحدود الله ؟

ونذكر في الماضي أنه كان يخرج مع فوج الحجيج قوة حماية
وحراسة من الجيش ، تحمي الحجيج من قطاع الطرق ، وكانوا
يُسَمُّون بعثة الحج هذه (المحمل) ، فلما أقامت السعودية حكم الله
وطبقت الحدود أمنت الطرق ، واستغنى الناس عن هذه الحراسات مع
اتساعها وتشعب طرقها ووعورتها بين الجبال والوديان والصحاري
الشاسعة التي لا يمكن أن تحكمها أو تحرسها عين بشر ، لا بدُّ لها
من تقنين الخالق عزوجل .

ومع ذلك حين أحصوا الأيدي التي قُطِعَتْ وجدوها قليلة جداً ،
وأغلبها من خارج المملكة - وأذكر أنني قلت مرة في خطبة عرفة :
ارجعوا إلى حكامكم وقولوا لهم : اقطعوا يد السارق ، فالذي لا يقطع
يد السارق في نيته أن يسرق ؛ لذلك يخاف على يده ، فحين تذكر له
مسألة قَطْع يد السارق ترتجف يده . والذين يعارضون حدود الله هم
أنفسهم يسكرون على مبدأ أن هلاك الثلث جائز لإصلاح الثلثين ، لكن
تقف حدود الله غُصَّة في حلقهم .

والجلد مائة جلدة يخص الزاني غير المحصن يعني غير المتزوج ،
أما المتزوج فله حكم آخر لم يأت في كتاب الله ، إنما أتى في سنة

رسول الله ﷺ ؛ ذلك لأن القرآن الكريم ليس كتاباً منهجاً فقط ، إنما كتاباً منهجاً ومعجزة ومعه أصول ، من هذه الأصول أنه قال في آية من آياته : **إِنَّا وَكَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ فِي أَنْ يُشْرَعَ لِلنَّاسِ .**

والحكم الذي يؤخذ من القول عُرْضَةٌ لأن نتعمك فيه ونقف أمامه نُقَلِّبُ الْفَاضِلَ أَوْ نَوُولَهُ ، أَمَّا إِنْ أُخِذَ الْحُكْمُ مِنْ فِعْلِ الْمَشْرِعِ ، فَلَيْسَ فِيهِ شَكٌّ أَوْ تَمَحُّكٌ ، وَلَيْسَ قَابِلًا لِلتَّأْوِيلِ لِأَنَّهُ فِعْلٌ ، وَقَدْ فَعَلَ الرَّسُولُ وَرَجَمَ الزَّانِيَ وَالزَّانِيَةَ الْمُحْصَنَيْنِ فِي قِصَّةِ مَاعِزٍ وَالْغَامِدِيَّةِ ، لِأَنَّهُ مَفُوضٌ مِنَ اللَّهِ .

ولا بد أن نفرق بين الحَدِّينِ ، ففي حَدِّ الْأَمَةِ إِنْ زَنَتْ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ **فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ** .. (٢٥) ﴾ [النساء] البعض فَهَمَّ مِنَ الْآيَةِ أَنَّهَا تَشْمَلُ حَدَّيَ الرَّجْمِ وَالْجُلْدِ ، فَقَالُوا : فِي الْجُلْدِ يُمْكِنُ أَنْ تَجْلُدَ خَمْسِينَ جَلْدَةً ، لَكِنْ كَيْفَ نَجْزِي الرِّجْمَ ؟ وَمَا دَامَ الرِّجْمُ لَا يُجْزَأُ فَلَيْسَ عَلَيْهَا رَجْمٌ .

ولو تأمل هؤلاء نَصَّ الْآيَةِ لَخَرَجُوا مِنْ هَذَا الْخِلَافِ ، فَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَقُلْ ﴿ **فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ** .. (٢٥) ﴾ [النساء] وَسَكَتَ ، إِنَّمَا قَالَ ﴿ **مِنَ الْعَذَابِ** .. (٢٥) ﴾ [النساء] فَخَصَّ بِذَلِكَ حَدَّ الْجُلْدِ ؛ لِأَنَّ الْعَذَابَ إِيلَامٌ حَيٌّ ، أَمَّا الرِّجْمُ فَهُوَ إِزْهَاقُ حَيَاةٍ ، فَهُمَا مُتَقَابِلَانِ .

أَلَا تَرَى قَوْلَ الْقُرْآنِ فِي قِصَّةِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْهَدَّيْدُ : ﴿ **لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ** .. (٢١) ﴾ [النمل] فَالْعَذَابُ غَيْرُ الذَّبْحِ .
إِذَنْ : تَجْزِئَةُ الْحَدِّ فِي الْجُلْدِ فَقَطْ ، أَمَّا الرِّجْمُ فَلَا يُجْزَأُ . فَإِنْ زَنَتْ الْأَمَةُ الْمُحْصَنَةُ رُجِمَتْ .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. (٢)﴾ [النور]
هذا كلام مُوجع ، وإهاجة لجماعة المؤمنين ، فهذا هو الحكم ، وهذا
هو الحدُّ قد شرعه الله ، فإن كنتم مؤمنين بالله وبالحساب والعقاب
فطبّقوا شرع الله ، وإلا فراجعوا إيمانكم بالله وباليوم الآخر لأننا نشكُّ
فى صدق هذا الإيمان .

وكان الحق - تبارك وتعالى - يهيجنا ويثيرنا على أهل هذه
الجريمة ، لناخذ على أيديهم ونُخوِّفهم بما شرع الله من الحدود .

فالمعنى : إن كنتم تؤمنون بالله إلهاً حكيماً مشرعاً ، خلق خلقاً ،
ويريد أن يحمي خلقه ويُطهره ليكون أهلاً لخلافته فى الأرض الخلافة
الحقة ، فاتركوا الخالق يتصرف فى كونه وفى خلقه على مراده عزَّ
وجلَّ ، فالخلق ليس خلقكم لتتدخلوا فيه .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [النور]
فالامر لا يقف عند حدِّ التعذيب والجُدد ، إنما لا بدُّ أن يشهد هذا
العذاب جماعة من المؤمنين ، والطائفة هم الجماعة وأقلها أربعة
لماذا ؟ قالوا : لأن النفس قد تتحمل الإهانة إن كانت سراً لا يطلع
عليها أحد ، فلا يؤلمه أن تُعذِّبه أشدَّ العذاب بينك وبينه ، إنما لا
يتحمل أن تشتمه أمام الناس . إذن : فمشاهدة الحدِّ إهانة لصاحبه ،
وهى أيضاً زَجْرٌ للمشاهد ، ونموذج عملى رادع .

لذلك يقولون : الحدود زواجر وجوابر ، زواجر لمن شاهدها أى :
تزجره عن ارتكاب ما يستوجب هذا الحدِّ ، وجوابر لصاحب الحدِّ
تجبر ذنبه وتُسقط عنه عقوبة الآخرة ، فلا يمكن أن يستوى مَنْ أقر

وأقيم عليه الحد بمن لم يقر ، ولأن الزنا لم يثبت بشهود أبداً ، وإنما بإقرار ، وهذا دليل على أن الحكم صحيح فى ذهنه ، ويرى أن فضوح الدنيا وعذابها أهون من فضوح الآخرة وعذابها ، إلا لما أقر على نفسه .

فالمسألة يقين وإيمان ثابت بالقيامة وبالبعث والحساب ، والعقوبة اليوم أهون ، وإن كان الزنا يثبت بالشهود فلربما دلسوا ، لذلك النبى ﷺ كان يأتيه الرجل موقراً بالزنا فيقول له : « لعلك قبلت ، لعلك غمزت ، لعلك لغست » ^(١) يعنى : لم تصل إلى الحد الذى يسمى زنا ، يريد رسول الله ﷺ أن يدرأ الحد بالشبهة ^(٢) .

ولهذا المبدأ الإسلامى السمع إن أخذت الزانى وذهبت ترجمه فأكمه الحجر فحاول الفرار يامرنا الشرع ألا نتبعه وألا نلاحقه ، لماذا ؟ لأنه اعتبر أن فراره من الحد كأنه رجوع عن الإقرار ^(٣) .

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٨٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٢٢٨/١ ، ٢٥٥ ، ٢٧٠ ، ٢٨٩ ، ٣٢٥) عن ابن عباس قال : لما أتى ماعز بن مالك النبى ﷺ قال له : لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت ؟ قال : لا يا رسول الله . قال : أنكثها ؟ - لا يكفى - قال : فعند ذلك أمر برجمه .

(٢) عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « ادأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله ، فإن الإمام أن يخطيء فى العفو خير له من أن يخطيء فى العقوبة » أخرجه الترمذى فى سننه (١٤٢٤) ، والحاكم فى مستدركه (٢٨٤/٤) ، والدارقطنى فى سننه (٨٤/٢) قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٣) أخرج الإمام أحمد فى مسنده (٤٥٠/٢) ، والترمذى فى سننه (١٤٢٨) أن ماعزاً لما وجد من التجارة يشتد فرس حتى مر بوزل لسه لحي جعل (عظم حنكه) فضربه به وضربه الناس حتى مات ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « هلا تركتموه » قال الترمذى : هذا حديث حسن .

يقول الحق سبحانه (١) :

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢)

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ..﴾ (٣) [النور] لأن الزواج يقوم على التكافؤ ، حتى لا يستغلي أحد الزوجين على الآخر ، والزاني فيه خسة ، فلا يليق به إلا خسيصة مثله يعنى : زانية ، أو أخس وهي المشركة ؛ لأن الشرك أخس من الزنا ، لأن الزنا مخالفة أمر توجيهي من الله ، أما الشرك فهو كفر بالله ؛ لذلك فالمشركة أخبث من الزانية . وما نقوله في زواج الزاني نقوله في زواج الزانية ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ..﴾ (٣) [النور]

وهنا يعترض البعض : كيف إن كانت الزانية مسلمة : أينكحها مشرك ؟ قالوا : التقابل هنا غرضه التهويل والتفطيع فقط لا الإباحة ؛ لأن المسلمة لا يجوز أن تتزوج مشركاً أبداً ، فالآية توبيخ لها :

(١) سبب نزول الآية : ورد في سبب نزول هذه الآية عدة روايات ، منها :

- أخرج أحمد في مسنده (١٥٩/٢ ، ٢٢٢) عن عبد الله بن عمر أن رجلاً من المؤمنين استأنن رسول الله ﷺ في امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح وتشترط له أن تنفق عليه فاستأنن رسول الله ﷺ أو ذكر له أمرها . فقرأ عليه رسول الله ﷺ هذه الآية . وأخرجه كذلك الواحدي في أسباب النزول (ص ١٨٠) .

- أخرج الترمذي في سننه (٣١٧٧) وأبو داود في سننه (٢٠٥١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كان رجل يقال له مرثد بن أبي مرثد وكان رجلاً يحمل الاسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة وكانت امرأة بفي بمكة يقال لها عناق وكانت صديقة له وأنه قال لرسول الله ﷺ : أنكح عناقاً ، أنكح عناقاً ؟ فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد على شيئاً حتى نزلت الآية ، فقال رسول الله ﷺ : يا مرثد ، الزاني لا ينجح إلا زانية أو مشركة فلا تنكحها .

يا خسيسة ، لا يليق بك إلا خسيس مثلك أو أخس .

وأرى أن النص محتمل لانفكاك الجهة ؛ لأن التي زنت تدور بين امرين : إما أنها أقبلت على الزنا وهي تعلم أنه مُحَرَّم ، فتكون عاصية باقية على إسلامها ، أو أنها ردت حكم الزنا واعتزضت عليه فتكون مشركة ، وفي هذه الحالة يستقيم لنا فهم الآية .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور] فهذا سبب طُهر الأنسال أن يُحرَّم الله تعالى الزنا ، فيأتي الخليفة طاهر النسل والعنصر ، محضوناً باب وأم ، مضموماً بدفع العائلة ، لا يتحملون عليه نسمة الهواء ؛ لأنه جاء من وعاء طيب طاهر نظيف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ
فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا
وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

الرمي : قذف شيء بشيء ، والمحصنات : جمع مُحْصَنَةٍ من الإحصان ، وهو الحفظ ، ومنه قولنا : فلان عنده حصانة برلمانية مثلاً . يعنى : تكفل القاتنون بحفظه ؛ لذلك إن أرادوا محاسبته أو مقاضاته يرفعون عنه الحصانة أولاً ، ومنه أيضاً كلمة الحصن وهو الشيء المنيع الذى يحمى من بداخله .

يقول تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ . ﴾ [الأنبياء] يعنى : الدروع التى تسمى الإنسان وتحفظه فى الحرب .

والمحصنات : تُطَلَّق على المتزوجة ، لأنها حصنت نفسها بالزواج
أن تميل إلى الفاحشة ، وتطلق أيضاً على الحرة ، لأنهم في الماضي
كانت الإماء هن اللاتي يدعين لمسألة البغاء ، إنما لا تقدم عليها
الحرائر أبداً .

لذلك فإن السيدة هنداً^(١) التي تُسيدها الآن بعد إسلامها ، وهي
التي لاكت كبد سيدنا حمزة في غزوة أحد ، لكن لا عليها الآن ؛ لأن
الإسلام يجب ما قبله . لما سمعت السيدة هند رسول الله ﷺ ينهى
النساء عن الزنا قالت : أو تزني حرة^(٢) ؟ لأن الزنا انتشر قبل
الإسلام بين البغايا من الإماء ، حتى كانت لهن رايات يرفعنها على
بيوتهن ليُعرفن بها .

والمعنى : يرمون المحصنات بما ينافي الإحصان ، والمراد الزنا
﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ۖ ﴾ [٤] [النور] وهذا
يُسمى حد القذف ، أن ترمى حرة بالزنا وتتهمها بها ، ففي هذه
الحالة عليك أن تأتي بأربعة شهداء يشهدون على ما رميتها به ، فإن
لم تفعل يُقام عليك أنت حد القذف ثمانين جلدة ، ثم لا ينتهي الأمر
عند الجلد ، إنما لا تُقبل منك شهادة بعد ذلك أبداً .

﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۖ ﴾ [٤] [النور] لماذا ؟ لأنه لم يعد
أهلاً لها ؛ لأنه فاسق ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [٤] [النور] والفاسق
لا شهادة له . وهكذا جمع الشارع الحكيم على القاذف حد الجلد ، ثم

(١) هي : هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية بن أبي سفيان ، وهي زوجة أبي سفيان بن
حرب ، وهي التي لاكت كبد حمزة عم رسول الله ﷺ في غزوة أحد بعد أن قتله وحشي
بتدبير منها .

(٢) أورده ابن كثير في تفسيره (٣٥٣/٤) في تفسير آية ﴿ يٰۤاَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ
يَبْتَغِينَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُنْكِحَنَّ بِأَلْفِ شَيْءٍ وَلَا يُسْرِفْنَ وَلَا يَزْنِينَ ۖ ﴾ [الممتحنة] وفيه أنها قالت :
يا رسول الله وهل تزني امرأة حرة ؟ قال : لا والله ما تزني الحرة .

أسقط اعتباره من المجتمع بسقوط شهادته ، ثم وصفه بعد ذلك بالفسق ، فهو في مجتمعه ساقط الاعتبار ساقط الكرامة .

هذا كله ليزجر كل مَنْ تسوّل له نفسه الخوض في أعراض الحرائر واتهام النساء الطاهرات ؛ لذلك عبّر عن القذف بالرمي ؛ لأنه غالباً ما يكون عن عجلة وعدم بينة ، فالحق - تبارك وتعالى - يريد أن يحفظ مجتمع الإيمان من أن تشيع فيه الفاحشة ، أو مجرد ذكرها والحديث عنها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾
﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

اختلف العلماء في معنى الاستثناء هنا : أهو استثناء من الفسق ؟ أم استثناء من عدم قبول الشهادة ؟

ذكرنا أن مشروعية التوبة مئة وتكرّم من الحق - تبارك وتعالى - لأنه لو لم تشرع التوبة كان مَنْ يقع في معصية مرة ، ولا تقبل منه توبة يتجراً على المعصية ويكثر منها ، ولم لا ؟ فلا دافع له للإقلاع .

إذن : حين يشرع الله التوبة إنما يحمي المجتمع من الفاقدين الذين باعوا أنفسهم ، وفقدوا الأمل في النجاة . فمشروعية التوبة كرم ، وقبولها كرم آخر ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. (١١٨)﴾ [التوبة] أي : شرع لهم التوبة ليتوبوا فيقبل منهم .

وقوله تعالى : ﴿وَأَصْلَحُوا .. (٥)﴾ [النور] تدل على أن مَنْ وقعت منه سيئة عليه أن يتبعها بحسنة ، وقد ورد في الحديث الشريف :

« وأتبع السيئة الحسنة تمحها »^(١) لذلك تجد الذين أسرفوا على أنفسهم في ناحية ما ، حينما يكبرون ويحبون التوبة تراهم شغوفين بحب الخير وعمل الطاعات ، يريدون أن يكفروا بها ما سبق من السيئات ، على خلاف من حافظ على نفسه ، ونأى بها عن المعاصي ، فتراه بارداً من ناحيتها يفعل الخير على قدر طاقته .

وكان الحق - تبارك وتعالى - يحذر عباده : يا عبادي احذروا : من أخذ مني شيئاً خلسة أو ترك لي حكماً ، أو تجراً على بمعصية سيتعب فيما بعد ، ويلقى الأمرين : لأن السيئة ستظل وراءه تطارده وتجهده لأغفرها له ، وسيحتاج لكثير من الحسنات وأفعال الخير ليجبر بها تقصيره في حق ربه .

ثم يقول الحق سبحانه^(٢) :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٣/٥ ، ١٥٨) والترمذي في سننه (١٩٨٧) والدارمي في سننه (٣٢٣/٢) من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال قال ﷺ : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالف الناس بخلق حسن » . واللفظ للترمذي .

(٢) سبب نزول الآية : عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ۚ ﴾ [النور] قال سعد بن عبادة وهو سيد الانصار : أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : ألا تسمعون يا معشر الانصار إلى ما يقول سيديكم ؟ قالوا : يا رسول الله إنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً ، وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيظه . فقال سعد : والله يا رسول الله إنني لأعلم أنها حق وأنها من عند الله ، ولكن قد تعجبت أن لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أميحه ولا أحرکه حتى آتي بأربعة شهداء ، فوالله إنني لا آتي بهم حتى يقضى حاجته ، فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية من أرضه عشياً فوجد عند أهله رجلاً فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يهيجه حتى أصبح وغدا على رسول الله ﷺ فاخبره بما كان ، فكره رسول الله ما جاء به واشتد عليه فقال سعد بن عبادة : الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويبطل شهادته في المسلمين . فقال هلال : والله إنني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً . فنزلت آية ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ ۚ ﴾ [النور] فقال رسول الله ﷺ : أبشر يا هلال ، فقد جعل الله لك مخرجاً ومخرجاً . فقال : قد كنت أرجو ذلك من ربي . وذكر باقي الحديث . أخرجه الواحدى في أسباب النزول (ص ١٨٠ ، ١٨١) .

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ

أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾

وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾

بعد أن تكلم الحق - تبارك وتعالى - عن الذين يرمون المحصنات ،
وبين حكم القذف ، أراد أن يبين حكم الرمي إن كان من الزوج لزوجته ؛
لأن الأمر هنا مختلف ، وربما يكون بينهما أولاد منه أو من غيره ، فعليه
أن يكون مؤدباً بآداب الشرع ، ولا يجرح الأولاد برمي أمهم ولا ذنب لهم .
لذلك شرع الحق - سبحانه وتعالى - في هذه الحالة حكماً خاصاً
بها هو الملاعة ، وقد سُميت هذه الآية آية اللعان .

ويروى أن هلال بن أمية ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال له :
يا رسول الله إني رأيت فلاناً على بطن زوجتي ، فإن تركته لآتي
بأربعة شهداء لقضى حاجته وانصرف ، وإن قتلتها فقد اعتديت عليه^(١).
إذن : ما حلّ هذا اللغز ؟

وينبغي أن نعلم أن الله تعالى لا ينزل التشريع والحكم بداية ،
إنما يترك في الكون من أفضية الحياة وأحداثها ما يحتاج لهذا الحكم ،
بحيث ينزل الحكم فيصادف الحاجة إليه ، كما يقولون : موقع الماء
من ذى الغلة الصّادى ، يعنى : حين ينزل الحكم يكون له موضع
فيتلقفه الناس ، ويشعرون أنه نزل من أجلهم بعد أن كانوا

(١) لفظ الحديث عند الإمام أحمد في مسنده (٢٣٨/١) من حديث ابن عباس رضى الله
عنهما أن هلال بن أمية - وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم - جاء من أرضه عشاء فوجد
عند أهله رجلاً فرأى بعينه وسمع بأذنيه فلم يهيج حتى أصبح فغدا على رسول الله ﷺ
فقال : يا رسول الله ، إني جئت أهلى عشاء فوجدت عندها رجلاً فرأيت بعيني وسمعت
بأذنى ، الحديث .

يستشرفون لحكم فى مسألة لم يأت فيها حكم .

وقد شرع الله تعالى حكم الملاءنة أو اللعان خاصة ، لهذه الحالة التى يلاحظ فيها الزوج شيئاً على أهله ، وقد يضع يده عليه ، لكن لا يستطيع أن يأتى عليه بشهود ليثبت هذه الحالة ؛ لذلك جعله الشارع الحكيم يقوم وحده بهذه الشهادة ، ويكررها أربع مرات بدل الشهداء الأربع .

يقول : أشهد الله أننى صادق فيما رميتُ به امرأتى ، يقولها أربع مرات ، وفى الخامسة يقول : ولعنة الله علىَّ إن كنتُ كاذباً ، وهكذا ينتهى دور الزوج فى الملاءنة .

وَيَذَرُوهَا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ
لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ
كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾

(يَذَرُ) أى : يدفع العذاب عن الزوجة أن تشهد هى الأخرى أربع شهادات بالله ، تقول : أشهد الله أنه كاذب فيما رمانى به ، وفى الخامسة تقول : غضب الله علىَّ إن كان هو من الصادقين . فإن امتنعت الزوجة عن هذه الشهادة فقد ثبت عليها الزنا ، وإن حلفت فقد تعادلا ، ولم يعد كل منهما صالحاً للآخر ، وعندها يُفَرَّقُ الشرع بينهما تفريقاً نهائياً لا عودة بعده ، ولا تحل له أبداً^(١) .

(١) وقد وردت الرواية بأن امرأة هلال بن أمية والتى رماها بالزنا مع شريك بن سحماء شهدت أربع شهادات أنها لم تفعل ، فلما كانت الشهادة الخامسة سككت سككة حتى ظنوا أنها ستعترف ثم قالت : لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت على القول ففُرق رسول الله ﷺ بينهما وقال : « انظروا ، فإن جاءت به جعداً حمش الساقين . فهو لشريك بن سحماء ، وإن جاءت به أبيض سبطاً قصير العينين فهو لهلال بن أمية » . فجاءت به جعداً حمش الساقين . أى : تصقق وثبت كذب المرأة وثبت صدق هلال ، فقال ﷺ : « لولا ما نزل فيهما من كتاب الله لكان لى ولها شأن » ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢٦٨/٢) .

هذا التشريع فَضَّلَ من الله ؛ لأنه أنهى هذه المسألة على خير ما تنتهى عليه ؛ لذلك يقول سبحانه بعدها :

(١)
﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾

أى : لولا هذا لَفُضِّحْتُمْ ولتفاقت بينكم العداوة ، لكن عصمكم فضل الله فى هذا التشريع الحكيم المناسب لهذه الحالة .

والقذف جريمة بشعة فى حَقِّ المجتمع كله ، تشيع فيه الفاحشة وتتقطع الاواصر ، هذا إن كان للمحصنات البعيدات ، وهو أعظم إن كان للزوجة ، لكن ما بالك إن وقع مثل هذا القول على أم ليست أما لواحد ، إنما هى أم لجميع المؤمنين ، هى أم المؤمنين السيدة عائشة - رضى الله عنها وأرضاها - فكانت مناسبة أن يذكر السياق ما كان من قَذْف السيدة عائشة ، والذي سُمِّي بحادثة الإفك ؛ لماذا ؟

لأن الله تعالى يريد أن يُعطينا الأسوة فى النبوة نفسها ، ويريد أن يُسَلِّى عائشة صاحبة النسب العريق وأم المؤمنين ، وقد قيل فيها ما قيل ؛ لذلك ستنظر السيدة عائشة أسوة لكل شريفة تُرْمَى فى عَرَضِهَا ، ويحاول أعداؤها تشويه صورتها ، نقول لها : لا عليك ، فقد قالوا مثل هذا فى عائشة .

وتقوم آيات الإفك دليلاً على صندق رسول الله ﷺ - فى البلاغ

(١) تكررت ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ [النور] أربع مرات فى هذه السورة . قال أبو يحيى زكريا الأنصارى فى (فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن) ص ٢٨٥ : « كره لاختلاف الأجوبة فيه . إذ جواب الأول محذوف تقديره : لفضحكم . وجواب الثانى قوله ﴿لَنَسْكُمُ فى مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور] . وجواب الثالث محذوف تقديره : لعجل لكم العذاب . وجواب الرابع ﴿مَا وَكَّنْ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور]

عن ربه ، فذكر أنهم يرمون المحصنات ، ويرمون زوجاتهم ، والأفطع من ذلك أن يرموا زوجة النبي وأم المؤمنين ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١ ﴾

الإفك : لدينا نسب ثلاث للأحداث : نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية حين تتكلم ، ونسبة خارجية . فحين أقول : محمد مجتهد . هذه قضية ذهنية ، فإن نطق بها فهي نسبة كلامية ، فهل هناك شخص اسمه محمد ومجتهد ، هذه نسبة خارجية ، فإن وافقت النسبة الكلامية النسبة الخارجية ، فالكلام صدق ، وإن خالفت فالكلام كذب . فالصدق أن تطابق النسبة الكلامية الواقع ، والكذب ألا تطابق النسبة الكلامية الواقع ، والكذب قد يكون غير متعمد ، وقد يكون متعمداً ، فإن كان متعمداً فهو الإفك ، وإن كان غير متعمد كان أخبره شخص أن محمداً مجتهد وهو غير ذلك ، فالخير كاذب ، لكن المخبر ليس كاذباً .

فالإفك - إذن - تعمّد الكذب ، ويعطى ضد الحكم ، كأن تقول : محمد مجتهد . وأنت تعلم أنه مهمل ؛ لذلك كان الإفك أفطع أنواع الكذب ؛ لأنه يقلب الحقائق ويخلق واقعاً مضاداً لما لم يحدث .

(١) العصبة : الجماعة المترابطة [القاموس القويم ٢/٢٢] قال في [لسان العرب - مادة : عصب] « العصبة : جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين » .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٢٧٢/٣) : « الأكثر على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله ابن أبي بن سلول قبحه الله ولعنه وهو الذي تقدم النص عليه في الحديث وقال ذلك جماعة وغير واحد . وقيل : المراد به حسان بن ثابت وهو قول غريب » .

يقول تعالى : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم] وهى القرى التى جعل الله عاليها سافلها ، وكذلك الإفك يُغَيِّرُ الواقع ، ويقلبه رأساً على عقب .

والعصبة : الجماعة التى ترتبط حركتها لتحقيق غاية متحدة ، ومن ذلك نقول : عصاة مخدرات ، عصاة سرقات ، يعنى : جماعة اتفقوا على تنفيذ حدث لغاية واحدة ، ومنه قوله تعالى فى سورة يوسف : ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ..﴾ [١٤]

وما دام أهل الإفك عصبة فلا بُدَّ أن لهم غاية واحدة فى التشويه والتبشيع ، وكان رئيسهم عبد الله بن أبى بن سلول ، وهو شيخ المنافقين ، ومعدور فى أن يكون كذلك ، ففى اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة كانوا يصنعون لعبد الله بن أبى تاجاً لينصبوه ملكاً على المدينة^(١) ، فلما فوجئ برسول الله واجتماع الناس عليه وأنفضاضهم من حوله بقيت هذه فى نفسه .

لذلك فهو القائل : ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ..﴾ [المنافقون] يقصد أنه الأعزُّ ، فردُّ عليه الحق - تبارك وتعالى - صدقت ، لكن العزة ستكون لله وللرسول وللمؤمنين ، وعليه فالخارج منها أنت .

وهو أيضاً القائل : ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ..﴾ [المنافقون] والعجيب أنه يعترف أن محمداً رسول الله ،

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢٠/٥٨٤) : أن قومه كانوا قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم . فجاءهم الله تعالى برسوله ﷺ وهم على ذلك . فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ، ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضغن .

ويقولها علانية ، ومع ذلك ينكرها بأعماله وتصرفاته ، ويحدث تشويشاً في الفكر وفي أداء العبارة .

وما دام أن الحق سبحانه سَمَّى هذه الحادثة في حق أم المؤمنين عائشة إفكاً فلا بُدَّ أنهم قلبوا الحقائق وقالوا ما يناقض الواقع .

والقصة حدثت في غزوة بنى المصطلق ، وكان ﷺ إذا أراد غزوة أجرى قرعة بين زوجاته : مَنْ تخرج منهن معه . وهذا ما تقتضيه عدالته ﷺ ، وفي هذه الغزوة أقرع بينهن فخرج السهم لعائشة فخرجت معه ، وبعد الغزوة وأثناء الاستعداد للعودة قالت السيدة عائشة : ذهبت لأقضى حاجتي في الخلاء ، ثم رجعت إلى هودجى التمس عقداً لى من (جَزَع ظَفَّار)^(١) وهو نوع نفيس .

فلما عادت السيدة عائشة وجدت القوم قد ذهبوا ، ولم تجد هودجها فقالت فى نفسها لا بُدَّ أنهم سيفتقدوننى وسيعودون . لكن كيف حمل القوم هودج عائشة ولم تكن فيه ؟ قالوا : لأن النساء كنَّ خِفَافاً لم يثقلن ، وكانت عائشة نحيفة ، لذلك حمل الرجال هودجها دون أن يشعروا أنها ليست بداخله . ثم نامت السيدة عائشة فى موضع هودجها تنتظر مَنْ يأتيتها ، وكان من عادة القوم أن يتأخر أحدهم بعد الرحيل ليتفقد المكان ويُعقب عليه ، علَّه يجد شيئاً نسيه القوم أو شخصاً تخلف عن الرُّكْب .

(١) الجَزَع والجَزَع : نوع من الخرز اليماني ، وهو الذى فيه بياض وسواد تُشَبَّه به العين . وظَفَّار : قرية من قرى حمير منسوبة إلى ظفار أسد مدينة باليمن [لسان العرب - مادتا : جزع ، ظفر] .

وكان هذا المعقب هو صفوان بن المعطل^(١) ، فلما رأى شبح إنسان نائم فاقترب منه ، فإذا هي عائشة رضى الله عنها ، فأناخ ناقته بجوارها ، وأدار وجهه حتى ركب وسار بها دون أن ينظر إليها وعف نفسه ، بدليل أن القرآن سمى ما قالوه إفكاً يعنى : مناقضاً للواقع ، فصفوان لم يفعل إلا نقيض ما قالوا .

ولما قدم صفوان يقود ناقته بعائشة رآه بعض أهل النفاق فاتهموهما ، وقالوا فى حقهما ما لا يليق بأب المؤمنين ، وقد تولى هذه الحملة رأس النفاق فى المدينة عبد الله بن أبى ومسطح بن أثانة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش امرأة طلحة بن عبيد الله وأخت زينب بنت جحش ، فروجوا هذا الاتهام وأذاعوه بين الناس .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. ﴾ (١١) [النور] لكن ما الخير فى هذا الكلام وفى إذاعته ؟ قالوا : لأن القرآن حين نزلهم عائشة وتنزل براءتها من فوق سبع سموات فى قرآن ينل ويُتعبد به إلى يوم القيامة ، وحين يفضح قوم على لسان القرآن ، لا بد أن يعتبر الآخرون ، ويخافوا إن فعلوا مخالفة أن يفتضح أمرهم ؛ لذلك جاء هذا الموقف درساً عملياً لمجتمع الإيمان .

نعم ، أصبحت هذه الحادثة خيراً ؛ لأنها نوع من التأييد لرسول الله ولدعوته ، فالحق - تبارك وتعالى - يؤيد رسوله فى الأشياء المسرة ليقطع أمل أعدائه فى الانتصار عليه ، ولو بالتدليس ، وبالمكر ولو بالإسرار والكيد الخفى ، ففى ذروة عداة قريش لرسول الله كان

(١) هو : صفوان بن المعطل بن رخصة السلمى الذكوانى ، أبو عمرو : صحابى شهد الخندق والمشاهد كلها ، وحضر فتح دمشق ، واستشهد بآرمينية . وقيل : فى سميساط . روى عن النبى ﷺ حديثين . توفى عام ١٩ هـ (الاعلام للزركلى ٢٠٦/٣) . وقال الحاكم فى مستدركه (٥١٨/٣) : مات بشمشاط سنة ستين وقبره هناك .

إيمان الناس به يزداد يوماً بعد يوم .

وقد ائتمروا عليه وكادوا له ليلاً ليلة الهجرة ، فلم يفلحوا ، فحاولوا أن يسحروه ، وفعلاً صنعوا له سحراً ، ووضعوه في بئر ذروان في مُشْط ومشاطة ، فأخبره بذلك جبريل عليه السلام ، فبعث رسول الله ﷺ علياً فجاء به^(١) .

إذن : عجزوا في المواجهة ، وعجزوا في التبييت والكيد ، وعجزوا حتى في استخدام الجن والاستعانة به ، وهنا أيضاً عجزوا في تشويه صورة النبوة والنُّيل من سمعتها ، وكان الحق سبحانه يقول لأعدائه : اقطعوا الأمل فلن تنالوا من محمد أبداً ، ومن هنا كانت حادثة الإفك خيراً لجماعة المؤمنين .

ومع ذلك ، لم يجرؤ أحد أن يخبر السيدة عائشة بما يقوله المنافقون في حقها ، لكن تغير لها رسول الله ﷺ ، فلم يعد يداعبها كعادته ، وكان يدخل عليها فيقول : « كيف تيكم » وقد لاحظت عائشة هذا التغير لكن لا تعرف له سبباً إلى أن تصادف أن سارت هي وأم مسطح أحد هؤلاء المنافقين ، فعثرت فقالت : تعس مسطح فنهرتها عائشة : كيف تدعو على ابنها ، فقالت : إنك لا تدريين ما يقول ؟ عندها ذهبت السيدة عائشة إلى أمها وسألتها عما يقوله الناس فأخبرتها .

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٢٢٦٨) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢١٨٩) كتاب السلام أن رسول الله ﷺ قال : « جاءني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي ، أو الذي عند رجلي للذي عند رأسي : ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : من طبعه ؟ قال : لبيد بن الأعصم . قال : في أي شيء ؟ قال : في مشط ومشاطة . قال : وجف طلعة ذكر . قال : فأين هو ؟ قال : في بئر ذروان » .

لذلك لما نزلت براءة عائشة في القرآن قال لها أبو بكر : قومي
فاشكري رسول الله ، فقالت : بل أشكر الله الذي برأني^(١) .
ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ
الْإِثْمِ .. ﴾ (١١)

عادة ما يستخدم الفعل (كَسَبَ) المجرد في الخير ، والفعل
اكتسب المزيد الدال على الافتعال في الشر ، لماذا ؟ قالوا : لأن فعل
الخير يتمشى وطبيعة النفس ، وينسجم مع ذراتها وتكوينها ، فالذي
يُقدم على عمل الخير لا يقاوم شيئاً في نفسه ، ولا يعارض ملكة من
ملكاته ، أو عادة من العادات .

وهذه نلاحظها حتى في الحيوانات ، ألا ترى القطة : إن وضعت
لها قطعة لحم تجلس بجوارك وتأكلها ، وإن أخذتها منك خطفاً تفرّ
بها هاربة وتأكلها بعيداً عنك . إذن : في ذاتية الإنسان وفي تكوينه -
وحتى في الحيوان - ما يُعرف به الخير والشر ، والصواب والخطأ .

وأنت إذا نظرت إلى ابنتك أو زوجتك تكون طبيعياً مطمئناً : لأن
ملكات نفسك معك موافقة لك لا تعارضك في هذا الفعل ، فإن حاولت
النظر إلى ما لا يحل لك تختلس النظرة وتسرقها ، وتحاول سترها
حتى لا يلحظها أحد ، وقد ترتبك ويتغير لونك ، لماذا ؟ لأنك تفعل
شيئاً غير طبيعي ، لا حق لك فيه ، فتعارضك ملكات نفسك ، وذرات
تكوينك . فالأمر الطبيعي تستجيب له النفس تلقائياً ، أما الخطأ والشر
فيحتاج إلى افتعال ، لذلك عبّر عن المكر والتجيبات والكيد
بـ (اكتسب) الدال على الافتعال .

(١) قصة حادثة الإفك وردت بطولها في صحيح البخاري (حديث ٤٧٥٠) ، وكذا مسلم في
صحيحه (٢٧٧٠) ، وأحمد في مسنده (٦ / ٥٩ ، ٦٠) من حديث عائشة رضي الله
عنها .

وقوله تبارك تعالى : ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١)
[النور]

تولى كبر الشيء : يعنى قام به وله حظ وافر فيه ، او نقول : هو ضالع فيه ، والمقصود هنا عبد الله بن أبى الذى قاد هذه الحملة ، وتولى القيام بها وترويجها ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١) [النور] أى : يناسب هذه الجريمة .

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ (١٢)

يُوجِّهَنَا الْحَقُّ - تبارك وتعالى - إلى ما ينبغى أن يكون فى مثل هذه الفتنة من ثقة المؤمنين بأنفسهم وبإيمانهم ، وأن يظنوا بأنفسهم خيراً وينأوا بأنفسهم عن مثل هذه الاتهامات التى لا تليق بمجتمع المؤمنين ، فكان على أول أذن تسمع هذا الكلام على أول لسان ينطق به أن يرفضه ؛ لأن الله تعالى ما كان ليُدلس على رسوله وصَفْوَتِهِ من خلقه ، فيجعل زوجته محل شك واتهام فضلاً عن رَمِيهَا بهذه الجريمة البشعة .

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ (١٢) [النور] كان من المنتظر قبل أن تنزل المناعة فى القرآن أن تاتى من نفوس المؤمنين أنفسهم ، فيردون هذا الكلام .

و (لولا) أداة للحض والحث ، وقال : ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ ..﴾ (١٢) [النور] لأنه جال فى هذه الفتنة رجال ونساء ، والقرآن لا يحثهم على ظن الخير برسول الله أو بزوجته ، وإنما ظن الخير بأنفسهم

هم : لأن هذه المسألة لا تليق بالمؤمنين ، فما بالك بزوجة نبي الله
ورسوله ﷺ ؟

﴿ وَقَالُوا .. (١٢) ﴾ [النور] أى : قبل أن ينزل القرآن ببراءتها ﴿ هَذَا
إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور] يعنى : كذب متعمد واضح بين لأنه فى حق مَنْ ؟
فى حق أم المؤمنين التى طهرها الله واختارها زوجة لرسوله ﷺ .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَوْلَا جَاءَهُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ
فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ (١٣)

وسبق أن ذكرت الآيات حُكْمُ القذف ، وأن على مَنْ يرمى
المحصنة بهذه التهمة عليه أن يأتى بأربعة شهداء ليثبت صدق
ما قال ، فإن لم يأت بهم فهو كاذب عند الله ، ويجب أن يُقام عليه
حدُّ القذف .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٤)

﴿ أَفَضْتُمْ .. (١٤) ﴾ [النور] أن تندفع إلى الشيء اندفاعاً تقصد فيه
السرعة ، ومعنى السرعة أن يأخذ الحدث الكبير زمناً أقل مما يتصور
له ، كالمسافة تمشيها فى دقيقتين ، فتسرع لتقطعها فى دقيقة
واحدة ، فكانهم أسرعوا فى هذا الكلام لما سمعوه ، كما يقولون :
خبٌ فيها ووضع .

لكن ، لماذا تفضلُ الله عليهم ورحمهم ، فلم يمسهم العذاب ، ولم يُجازهم على افترائهم على أم المؤمنين ؟

قالوا : لأن الحق - تبارك وتعالى - أراد من هذه المسألة العبرة والعظة ، وجعلها للمؤمنين وسيلة إيضاح ، فليس المراد أن يُنزل الله بهم العذاب ، إنما أن يُعلمهم ويعطيهم درساً في حفظ أعراض المؤمنين .

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ١٥ ﴾

انظر إلى بلاغة الأداء القرآني في التعبير عن السرعة في إفشاء هذا الكلام وإذاعته دون وعي ودون تفكير ، فمعلوم أن تلقى الأخبار يكون بالأذن لا باللسنة ، لكن من سرعة تناقل هذا الكلام فكانهم يتلقونه بالسنتهم ، كان مرحلة السماع بالأذن قد ألغيت ، فبمجرد أن سمعوا قالوا .

﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ١٥ ﴾ [النور]

﴿ بِأَفْوَاهِكُمْ .. ١٥ ﴾ [النور] يعني : مجرد كلام تتناقله الأفواه ، دون أن يدققوا فيه ؛ لذلك قال بعدها ﴿ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ .. ١٥ ﴾ [النور] وهذا الكلام ليس هيئاً كما تظنون ، إنما هو عظيم عند الله ؛ لأنه تناول عرض مؤمن ، وللمؤمن حرمة ، فما بالك إن كان ذلك في حق رسول الله ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٦)

هذا ما كان يجب أن تقابلوا به هذا الخبر ، أن تقولوا لا يجوز لنا ولا يليق بنا أن نتناقل مثل هذا الكلام . وكلمة ﴿ سُبْحَانَكَ .. ﴾ (١٦) [النور] يقال عند التعجب من حدوث شيء . والمعنى : سبحان الله نُفْرَظُهُ ونُجْلُهُ ونُعْلِيهِ أن يسمح بمثل هذا الكذب الشنيع في حق رسوله ﷺ ، فهذا كلام لا يصح أن نتكلم به ولو حتى بالنفى ، فإن كان الكلام بالإثبات جريمةً فالكلام بالنفى فيه مظنة أن هذا قد يحدث . كما لو قلت : الورع فلان ، أو الشيخ فلان لا يشرب الخمر ، فكانه رغم النفي جعلته مظنة ذلك ، فلا يصح أن ينسب إليه السوء ولو بالنفى ، فذلك ذمٌ في حقه لا مدح .

كذلك التحدث بهذه التهمة لا يليق بأب المؤمنين ، ولو حتى بالنفى ، ومعنى ﴿ بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٦) [النور] كذب يبهت سامعه ، ويدهشه لفظاعته ، وشناعته . فنحن نائف أن نقول هذا الكلام ، ولو كنا منكرين له .

﴿ يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٧) ﴿ وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١٨)

الوعظ : أن تأتي لقمة الأشياء فتعظ بها ، كالرجل حينما يشعر بنهايته يحاول أن يعظ أولاده ويوصيهم ، لكن لا يوصيهم بكل أمور الحياة ، إنما بالأمور الهامة التي تمثل القمة في أمور الحياة . ووعظ

الحق - تبارك وتعالى - لعباده من لطفه تعالى ورحمته ، يعظكم :
لأنه عزيز عليه أن يؤخذكم بذنوبكم .

وتذيل الآية بهذا الشرط : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [النور] حث
وأهجة لجماعة المؤمنين ، لينتهوا عن مثل هذا الكلام ، وألا يقعوا فيه
مرة أخرى ، وكأنه تعالى يقول لهم : إِنْ عُدْتُمْ لمثل هذا فراجعوا
إيمانكم ؛ لأن إيمانكم ساعتها سيكون إيماناً ناقصاً مشكوكاً فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ
ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [١٩]

﴿ يُحِبُّونَ .. ﴾ [النور] الحب عمل قلبي ، والكلام عمل لسانی ،
وترجمة عملية لما في القلب ، فالمعنى : الذين يحبون هذا ولو لم
يتكلموا به ؛ لأن لهذه المسألة مراحل تبدأ بالحب وهو عمل القلب ، ثم
التحدث ، ثم السماع دون إنكار .

ولفضاعة هذه الجريمة ذكر الحق سبحانه المرحلة الأولى منها ،
وهي مجرد عمل القلب الذي لم يتحول إلى نزوع وعمل وكلام إذن :
المسألة خطيرة :

والبعض يظن أن إشاعة الفاحشة فضيحة للمتهم وحده ، نعم هي
للمتهم ، لكن قد تنتهي بحياته ، وقد تنتهي ببراءته ، لكن المصيبة

(١) الفاحشة : الفعلة القبيحة . والفواحش : الأمور القبيحة المنكرة [القاموس القويم
٧٣/٢] .

أنها ستكون أسوة سيئة في المجتمع .

وهذا توجيه من الحق - سبحانه وتعالى - إلى قضية عامة وقاعدة يجب أن تُراعى ، وهي : حين تسمع خبراً يחדش الحياء أو يتناول الأعراض أو يחדش حكماً من أحكام الله ، فإياك أن تشيعه في الناس ؛ لأن الإشاعة إيجاد أسوة سلوكية عند السامع لمن يريد أن يفعل ، فيقول في نفسه : فلان فعل كذا ، وفلان فعل كذا ، ويتجرا هو أيضاً على مثل هذا الفعل ، لذلك توعد الله تعالى مَنْ يَشِيعُ الْفَاحِشَةَ وينشرها ويذيعها بين الناس ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ..﴾ (١٩)

والحق - تبارك وتعالى - لم يعصم أحداً من المعصية وعمل السيئة ، لكن الأسوء من السيئة إشاعتها بين الناس ، وقد تكون الإشاعة في حق رجل محترم مُهاب في مجتمعه مسموع الكلمة وله مكانة ، فإن سمعت في حقه ما لا يليق فلربما زهدك ما سمعت في هذا الشخص ، وزهدك في حسناته وإيجابياته فكانك حرمت المجتمع من حسنات هذا الرجل .

وهذه المسألة هي التعليل الذي يستتر الله به غيب الخلق عن الخلق ، إذن : ستر غيب الناس عن الناس نعمة كبيرة تُثري الخير في المجتمع وتُتميه ، ويجعلك تتعامل مع الآخرين ، وتنتفع بهم على علأتهم ، وصدق الشاعر الذي قال :

فَحُذِّ بِعِلْمِي وَلَا تَرَكْنِي إِلَى عَمَلِي وَاجْنِ الثَّمَارَ وَخَلِّ الْعُودَ لِلنَّارِ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ

وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٠)

انظر كم فضل من الله تعالى تفضل به على عباده في هذه الحادثة ، ففي كل مرحلة من مراحل هذه القضية يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ .. ﴾ (٢٠) [النور] وهذا دليل على أن ما حدث كان للمؤمنين نعمة وخير ، وإن ظنوه غير ذلك .

لكن أين جواب لولا ؟ الجواب يفهم من السياق وتقديره : لَفَضْلِكُمْ وَلَهْلِكْتُمْ ، وحصل لكم كذا وكذا ، ولك أن تُقَدِّرَهُ كما تشاء . وما منع عنكم هذا كله إلا فضل الله ورحمته .

وفي موضع آخر يوضح الحق سبحانه منزلة هذا الفضل : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٥٨) [يونس] فالحق - سبحانه وتعالى - شرع منهجاً ويجب من يعمل به ، لكن فرحة العبد لا تتم بمجرد العمل ، وإنما بفضل الله ورحمته في تقبل هذا العمل . إذن : ففضل الله هو القاسم المشترك في كل تقصير من الخلق في منهج الخالق عز وجل .

وبعد هذه الحادثة كان لا بد أن يقول تعالى :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوٰتِ الشَّيْطٰنِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوٰتِ الشَّيْطٰنِ فَإِنَّهُ يَمُرُّ بِالْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكٰى مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ مُمِيعٌ ۝١١ ﴾

(١) زكا : طهر وصلى فهو زكى وهى زكية . [القاموس القويم ٢٨٧/١] قال القرطبي في تفسيره (٤٧٤٢/٦) : أى : ما اعتدى ولا أسلم ولا عرف رشداً ، على قراءة (زكى) أما على قراءة (زكى) : أى أن تزكيتكم لكم وتطهيره وهدايته إنما هي بفضل لا بأعمالكم .

كان الشيطان له خطوات متعددة ليست خطوة واحدة ، وقد أثبت الله عداوته لبنى آدم ، وهى عداوة مُسَبِّة ليست كلاماً نظرياً ، إنما هو عدو بواقعة ثابتة ، حيث امتنع عن السجود لآدم ، وعصى أمر الله له ، بل وأبدى ما فى نفسه وقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (١٢) [الاعراف]

وقال : ﴿ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (٦١) [الإسراء] وهكذا علل امتناعه بأنه خير ، وكان عداوته لآدم عداوة حسد لمركزه ومكانته عند ربه . والحق - تبارك وتعالى - حينما يخبرنا بعداوة الشيطان من خلال امتناعه عن السجود ، إنما يحذرنا منه ، وينبئنا إلى خطره ويربى فينا المناعة من الشيطان ؛ لأن عداوته لنا عداوة مركزة ، ليست عداوة يمارسها هكذا كيفما اتفق ، إنما هى عداوة لها منهج ولها خطة .

فاول هذه الخطة أنه عرف كيف يقسم ، فدخل على الإنسان من باب عزة الله عن خلقه ، فقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٧) [ص] فلو أرادنا ربنا - عز وجل - مؤمنين ما كان للشيطان علينا سبيل ، إنما تركنا سبحانه للاختيار ، فدخل علينا الشيطان من هذا الباب ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٩٠) [الحجر] فمن اتصف بهذه الصفة فليس للشيطان إليه سبيل .

إذن : مسألة العداوة هذه ليست بين الحق سبحانه وبين الشيطان ، إنما بين الشيطان وبني آدم .

فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴾ (٧١) [النور] نداء : يا من آمنتم بياله كأنه يقول : تنبّهوا إلى شرف إيمانكم به ، وابتعدوا عما يُضعف هذا الإيمان ، أو يفتى فى عضد المؤمنين بأى وسيلة ، وتأكدوا أن الشيطان له خطوات متعددة .

﴿ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ .. ﴾ (٢١) [النور] فَإِنَّ وَسْوسَ لَكَ مِنْ جَهَّةٍ ، فَتَابَيْتَ عَلَيْهِ وَوَجَدَ عِنْدَكَ صَلَابَةً فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ وَجْهَكَ إِلَى نَاحِيَةٍ أُخْرَى ، وَزَيَّنَ لَكَ مِنْ بَابٍ آخَرَ ، وَهَكَذَا يَظَلُّ بِكَ عَدُوكَ إِلَى أَنْ يُوقِعَكَ ، فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ نَقْطَةً ضَعْفٌ فِي تَكْوِينِهِ ، فَيَظَلُّ يَحَاوِرُهُ إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى هَذِهِ النِّقْطَةِ .

والشيطان : هو المتمرد العاصي من الجن ، فالجن مقابل الإنس ، فمنهم الطائِع والعاصي ، والعاصي منهم هو الشيطان ، وعلى قِمتهم إبليس ؛ لذلك يقول تعالى في سورة الكهف : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. ﴾ (٥٠) [الكهف]

وسبق أن ذكرنا أنك تستطيع أن تُفَرِّقَ بَيْنَ المَعْصِيَةِ مِنْ قَبْلِ النَّفْسِ وَالْمَعْصِيَةِ مِنْ قَبْلِ الشَّيْطَانِ ، فَالنَّفْسُ تُلَحُّ عَلَيْكَ فِي مَعْصِيَةٍ بَعِيْنَهَا لَا تَتَعَدَّاهَا إِلَى غَيْرِهَا ، أَمَّا الشَّيْطَانُ فَإِنَّهُ يَرِيدُكَ عَاصِيًا عَلَى أَىِّ وَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ ، فَإِنْ اِمْتَنَعْتَ عَلَيْهِ فِي مَعْصِيَةٍ جَرَّكَ إِلَى مَعْصِيَةٍ أُخْرَى أَيْكَ كَانَتْ .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ .. ﴾ (٢١) [النور] وَلَكِ أَنْ تَسْأَلَ : أَيْنَ جَوَابُ (مَنْ) الشَّرْطِيَّةِ هُنَا ؟ قَالُوا : حُذِفَ الْجَوَابُ لِأَنَّهُ يُفْهَمُ مِنَ السِّيَاقِ ، وَدَلُّ عَلَيْهِ بِذِكْرِ عِلَّتِهِ وَالْمُسَبِّبِ لَهُ ، وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُقَدِّرَ الْجَوَابُ : مَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ يُذَقُّهُ رَبُّهُ عَذَابَ السَّعِيرِ ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانِ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، فَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِهِ ، فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الْعَذَابُ ، فَهَذَا الْمُسَبِّبُ مَقَامُ جَوَابِ الشَّرْطِ .

والكلام ليس كلام بشر ، إنما هو كلام رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَأَسْلُوبُ الْقُرْآنِ أَسْلُوبُ رَاقٍ يَحْتَاجُ إِلَى فِكْرٍ وَاعٍ يَلْتَقِطُ الْمَعَانِي ، وَلَيْسَ مَجْرَدُ كَلَامٍ وَحَشْوٍ .

الآ ترى بلاغة الإيجاز في قوله تعالى من سورة النمل : ﴿ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٢٨) [النمل]
ثم يقول تعالى بعدها : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢٩) [النمل]

وتأمل ما بين هذين الحدثين من أحداث حُذفت للعلم بها ، فوعى القارئ ونباهته لا تحتاج أن نقول له فذهب الهدد .. وو إلخ فهذه أحداث يُرتبها العقل تلقائياً .

وقد أوضح الشيطان نفسه هذه الخطوات وأعلنها ، وبين طرقه في الإغواء ، ألم يقل : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١٦) [الاعراف] فلا حاجة للشيطان بأصحاب الصراط المعوج لأنهم أتباعه ، فالشيطان لا يذهب إلى الخمارة مثلاً ، إنما يذهب إلى المسجد ليُفسد على المصلين صلاتهم ، لذلك البعض ينزعج من الوسواس التي تنتابه في صلاته ، وهي في الحقيقة ظاهرة صحية في الإيمان ، ولولا أنك في طاعة وعبادة ما وسوس لك .

لكن مصيبتنا أن الشيطان يعطينا فقط طرف الخيط ، ففسير نحن خلفه (نكَّرَ في الخيط كَرًا) ولو أننا ساعة ما وسوس لنا الشيطان استعذنا بالله من الشيطان الرجيم ، كما أمرنا ربنا تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنَّمَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. ﴾ (٢٠٠) [الاعراف]
إذن : إياك أن تقبل منه طرف الخيط : لأنك لو قبلته فلن تقدر عليه بعد ذلك .

ومن خطوات الشيطان أيضاً قوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَآئِيَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ .. ﴾ (١٧) [الاعراف]

إذن : للشيطان فى إغواء الإنسان منهج وخطّة مرسومة ، فهو يأتى الإنسان من جهاته الأربع : من أمامه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله . لكن لم يذكر شيئاً عن أعلى وأسفل : لأن الأولى تشير إلى علو الربوبية ، والآخرى إلى ذلّ العبودية ، حين ترفع يديك إلى أعلى بالدعاء ، وحين تضع جبهتك على الأرض فى سجودك ؛ لذلك لا يأتيك عدوك من هاتين الناحيتين .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ .. ﴾ (٢١) [النور]

قلنا : إن فضل الجزاء يتناوبه أمران : جزاء بالعدل حين تأخذ ما تستحقه ، وجزاء بالفضل حينما يعطيك ربك فوق ما تستحق ؛ لذلك ينبغى أن نقول فى الدعاء : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ؛ وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب . فإن عاملنا ربنا - عز وجل - بالعدل لضعفنا جميعاً .

لكن ، فى أى شىء ظهر هذا الفضل ؟ ظهر فضل الله على هذه الأمة فى أنه تعالى لم يُعذّبها بالاستئصال ، كما أخذ الأمم السابقة ، وظهر فضل الله على هذه الأمة فى أنه تعالى أعطاها المناعة قبل أن تتعرض للحادث ، وحذرنا قديماً من الشيطان قبل أن نقع فى المعصية ، وقبل أن تفاجئنا بالأحداث ، فقال سبحانه : ﴿ فَلَقْنَا يَادَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ .. ﴾ (١١٧) [طه] ولا لفرق الإنسان فى دوامة المعاصى .

لأن التنبيه للخطر قبل وقوعه يُربى المناعة فى النفس ، فلم يتركنا ربنا - عز وجل - فى غفلة إلى أن نقع فى المعصية ، كما نُحصن نحن أنفسنا ضد الأمراض لناخذ المناعة اللازمة لمقاومتها .

وقوله تعالى : ﴿ مَا زَكَّىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ۖ ﴾ (٢١) [النور] (زَكَّى) تطهر وتنقى وصفى ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّيٰ مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢١) [النور] وقال : ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢١) [النور] لانه تعالى سبق أن قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴾ (١٩) [النور] ذلك فى ختام حادثة الإفك التى فزّت المجتمع الإسلامى فى قمته ، فمست رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق وزوجته أم المؤمنين عائشة وجماعة من الصحابة .

لذلك قال تعالى (وَاللَّهُ سَمِيعٌ) لما قيل (عليمٌ) [النور : ٢١] بما تُكَنُّه القلوب من حُبِّ لإشاعة الفاحشة .

ثم يقول الحق سبحانه (١) :

﴿ وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٢)

تورط فى حادثة الإفك جماعة من أفاضل الصحابة ممن طُبِع على الخير ، لكنه فُتِن بما قيل وانساق خلف مَنْ رُوِّجوا لهذه الإشاعة ،

(١) سبب نزول الآية : قال القرطبي فى تفسيره (٤٧٤٢/٦) : « المشهور من الروايات أن هذه الآيات نزلت فى قصة أبى بكر بن أبى قحافة ومسطح بن أثانة ، وذلك أنه كان ابن بنت خالته وكان من المهاجرين البدرين المساكين وكان أبو بكر ينفق عليه . فلما كان أمر الإفك وقال مسطح فى عائشة ابنة أبى بكر ما قال حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بِنافعة أبداً . »

(٢) يأتل : معناه يحلف . وقالت فرقة : معناه يقصر . [القرطبي ٤٧٤٢/٦] .

وكان من هؤلاء مسطح بن أثاثه ابن خالة أبى بكر الصديق ، وكان أبو بكر ينفق عليه ويرعاه لفقره ، فلما قال فى عائشة ما قال وخاض فى حقها أقسم أبو بكر ألا ينفق عليه ، وقد كان يعيش وأهله فى سعة أبى بكر وفضله ؛ لأن هذه الفتنة جعلت بعض أهل الخير يضمن به .

وهذا نموذج لمن ينكر الجميل ولا يُقدّر صنائع المعروف ، وهذا الفعل يُزهد الناس فى الخير ، ويصرفهم عن عمل المعروف ، والله تعالى يريد أن يُصحح لنا هذه المسألة ، فهذه نظرة لا تتفق وطبيعة الإيمان ؛ لأن الذى يعصى الله فىك لا تكافئه إلا بأن تطيع الله فيه .

وحين تترك مَنْ أساء إليك لعقاب الله وتعفو عنه أنت ، فإنما تركته للعقاب الأقوى ؛ لأنك إن عاقبته عاقبته بقدرتك وطاقتك ، وإن تركت عقابه الله عاقبه بقدر طاقته تعالى وقدرته .

إذن : العافى أقسى قلباً من المتنتقم ، وسبق أن مثلنا لذلك بالآخ حين يعتدى على أخيه الأصغر ، فيأتى الأب فيجد صغيره مهاناً مظلوماً ، فيأخذه فى حضنه ، ويحاول إرضاءه وتعويضه عما لحقه من ظلم أخيه ، كذلك الحال فى هذه المسألة والله المثل الأعلى .

ومن هنا يجب عليك أن تُسرَّ بمن جعل الله فى جانبك ، وتُحسن إليه ، لا أن تُردَّ له الإساءة بمثلها .

إذن : نزلت هذه الآية فى مسطح بن أثاثه حين أقسم أبو بكر ألا ينفق عليه وعلى أهله ، وأن يمنع عنه عطاءه وبره ، نزلت لتصحيح للصديق هذه النظرة وتوجّه انتباهه إلى جانب الخير الباقي عند الله لا عند الناس .

فقال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾ (٢٢) [النور]

﴿ يَأْتَلِ ﴾ (٢٢) [النور] ائتلى مثل ائتلى تماماً ، ومنها تألى
يعنى : حلف واقسم ، يوجه الحق - تبارك وتعالى - الصديق أبا
بكر ، ويذكر لفظ ﴿ أُولُوا ﴾ (٢٢) [النور] الدال على الجماعة لتعظيمه
لما له من فضل ومنزلة فى الإسلام ، ففى كل ناحية له فضل ؛ لذلك
أعطاه وصفين مثل ما أعطى للنبي ﷺ ، فقال للصديق : ﴿ وَلْيَعْفُوا
وَلْيَصْفَحُوا ﴾ (٢٢) [النور] وقال للنبي ﷺ : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ
وَاصْفَحْ ﴾ (١٣) [المائدة]

كذلك ، ألا ترى الصديق ثانى اثنين فى الغار ، وثانى اثنين فى
أمور كثيرة ، فهو ثانى اثنين فى الهجرة ، وثانى اثنين فى قبول
دعوة الإسلام الاولى ؛ لذلك صدق سيدنا رسول الله ﷺ حين قال عن
الصديق : « كنت أنا وأبو بكر فى الجاهلية كفرسى رهان » . يعنى :
فى التسابق فى الخير « فسبقته إلى النبوة فاتبعنى ، ولو سبقنى إليها
لاتبعته » (١) .

ولما كان لأبى بكر أفضال كثيرة فى زوايا متعددة لم يخاطبه
بصيغة المفرد ، إنما بصيغة الجمع تكريماً وتعظيماً .

ألا ترى الصديق مع ما عُرف عنه من الحلم ورقة القلب لما انتقل
رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وحدثت مسألة الردة يقف ويقول :
« والله لو منعونى عقاب بعير كانوا يؤدونها لرسول الله لجالدتهم

(١) عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله ﷺ : « إن أمن الناس على فى صحبتى وماله
أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ،
لا يبقين فى المسجد باب إلا سدُّ ، إلا باب أبى بكر » أخرجه البخارى فى صحيحه
(٣٦٥٤) .

بالسيف ، لو لم أجد إلا الذر ^(١) .

هذا موقف الصديق رقيق القلب ، لئِن الجانب ، صاحب الرحمة والحنان ، الذى تقول عنه ابنته « إنه رجل بكاء ^(٢) » يعنى : كثير البكاء . فى حين يعارضه فى أمر الحرب عمر مع ما عُرِف عنه من الشدة والقسوة على الكفار . لكن هذا التناقض فى موقف كل منهما يقوم دليلاً على أن الإسلام ليس طبعاً غالباً على المسلم إنما موقف يعود المسلم إليه ، فموقف الردة هو الذى جعل من الصديق أسداً شجاعاً قاسى القلب ، ولو أن عمر فى مكانه من المسئولية وفعل كما فعل الصديق لقالوا : شدة ألفها الناس من عمر .

فكان الإسلام لا يريد أن يطبع المسلم على طبع خاص يظل عليه ، إنما الموقف هو الذى يطبعك إيمانياً ، وهذا ما ذكرناه فى قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. ﴾ (٢٩) [الفتح]

فالمسلم ليس مفطوراً لا على الشدة وحدها ، ولا على الرحمة وحدها ، إنما عليه أن يتصرف فى كل موقف بما يناسبه على ضوء ما شرع الله .

فقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الْفَضْلُ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ .. ﴾ (٢٢) [النور] يقول للصديق : أنت رجل فاضل صديق ، وعندك سعة فلا تعطى ولا تؤثر

(١) حديث مستق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٢٨٤ ، ٧٢٨٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٠) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة بلفظ : « والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه » .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٦) كتاب الصلاة عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن » .

على نفسك من ضيق ، ولا يليق بالفاضل أن يقطع صلته ورحمه لمثل هذا الخطأ الذي وقع فيه مسطح ، خاصة أنه أخذ جزاءه كما شرع الله ، وعُوقِبَ بِحَدِّ الْقَذْفِ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ، وليس لك أن تعاقبه بعد ذلك .

ومن سماحة الإسلام أن مَنْ وقع في حَدٍّ وعُوقِبَ به لا يجوز لأحد أن يُعَيِّرَهُ بذنبه ؛ لأنه تاب وأتاب وطهره الله منه بالحدِّ ، وانتهت المسألة ، وليس لأحد أن يدخل بين العبد وربه .

فكان الحق - تبارك وتعالى - يقول : ارجع إلى فضلك يا أبا بكر ، وعُدْ أنت إلى سعتك ، وَكُنْ مَوْصُولَ الْمَرْوَةِ ، ولا تقطع رحمك ، يريد - سبحانه وتعالى - أَنْ يُصَفِّيَ مَا فِي النَّفْسِ مِنْ آثَارِ هَذِهِ الْفِتْنَةِ الَّتِي زَلَزَلَتْ الْمُجْتَمَعَ الْمُؤْمِنَ فِي الْمَدِينَةِ .

ولا يليق بذى الفضل والسَّعَةِ أَنْ يَعامَلَ النَّاسَ بِالْعَدْلِ ، فصحيح أن مسطح كان يستحق هذه القطيعة وهذا الحرمان ، إنما هذا الجزاء لا يليق بالصدِّيق صاحب الفضل والسَّعَةِ .

ولو أُجْرِيَتْ إحصاء للمؤمنين بإله وللكافرين في الكون ، ستعلم أن المؤمنين قَلَّةٌ والكافرين كثرة ، فهل قال الله تعالى لجنود خيره في الكون : أعطوا مَنْ آمَنَ ، وَاَتْرَكُوا مَنْ كَفَرَ ؟ وكأَنَّ الْحَقَّ - تبارك وتعالى - يعطينا مَثَلًا في ذاته عز وجل ، فكما أنه يعطي مَنْ كَفَرَ به ويرزقه ، بل ربما كان أحسن حالا مِنْ آمَنَ ، فانت كذلك لا تمنع عطاءك عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ .

لذلك يقول سبحانه في آية أخرى :

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٢٤)

[البقرة]

فَإِنْ كُنْتَ بَارِكًا بِأَحَدٍ وَبَدَرَ مِنْهُ شَيْءٌ فَلَا تَحْلِفْ بِاللهِ أَنْكَ لَا تَبْرُهُ ،
فَقَدْ تَهَدَأَ ثَوْرُكَ عَلَيْهِ ، وَتَرِيدُ أَنْ تَبْرَهُ ، وَتَتَحَجَّجُ بِحَلْفِكَ ، إِنْ :
لَا تَجْعَلُوا اللهُ عُرْضَةً لِحَلْفٍ يَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمَعْرُوفِ .

ثُمَّ يَقُولُ سُبْحَانَهُ : ﴿ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴾ (٢٧) [النور] صَحِيحٌ أَنْ مَسْطَحٌ مِنْ ذَوَى قُرْبَى أَبِي
بَكْرٍ وَمِنَ الْمَسَاكِينِ ، لَكِنْ يَعْطِيهِ اللهُ نِيْشَانًا آخَرَ ، فَلَمْ يَخْرُجْهُ مَا قَالَ
مِنْ وَصْفِ الْمُهَاجِرِ ، وَلَمْ يَخْرُجْهُ ذَنْبُهُ مِنْ هَذَا الشَّرَفِ الْعَظِيمِ .

فَمِنْ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ أَنْ السَّيِّئَةَ لَا تُحْبِطُ الْحَسَنَةَ ، إِنَّمَا
الْحَسَنَةُ بَعْدَ السَّيِّئَةِ تَحْبِطُهَا ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ
السَّيِّئَاتِ .. ﴾ (١١٤) [النور] مِثْلُهَا : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ كَالْحَبِّ ذُرِّيَّتُهُ وَالشَّرَّ كَالْهَبِّ يَمْسِكُ ظُفْرَ فَيْسَةٍ يَدُ الْغَافِقِ ﴾ [هود]

فَرُغِمَ مَا وَقَعَ فِيهِ مَسْطَحٌ ، فَقَدْ أَبْقَاهُ اللهُ فِي الْعَثْبِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ ،
وَتَحْنِينَ قَلْبِهِ ، وَأَبْقَاهُ فِي الْمُهَاجِرِينَ .

﴿ وَتَعْفُوا وَتَصْفَحُوا .. ﴾ (٢٧) [النور] الْعَفْوُ : تَرَكَ الْعَقُوبَةَ عَلَى
الذَّنْبِ ، لَكِنْ قَدْ تَعْفُو عَنْ الْمَذْنِبِ ثُمَّ تُؤَنِّبُهُ ، وَتَمَنَّ عَلَيْهِ بِعَفْوِكَ ،
وَتُذَكِّرُهُ دَائِمًا أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ مِنْكَ هَذَا الْعَفْوَ ؛ لِذَلِكَ يَحْتَنُّ رَبَّنَا - تَبَارَكَ
وَتَعَالَى - عَلَى الصَّفْحِ بَعْدَ الْعَفْوِ ، وَالصَّفْحُ : تَرَكَ الْمَنْ وَعَدَمَ ذِكْرَ
الزَّلَّةِ لِصَاحِبِهَا حَتَّى تَصْبِحَ الْعَقُوبَةُ عِنْدَهُ أَهْوَنَ مِنْ عَفْوِكَ عَنْهُ .

ذَلِكَ لِأَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ حِينَمَا يُشْرَعُ لِلْبَشَرِ مَا يُنْظَمُ الْعِلَاقَاتِ
بَيْنَهُمْ يِرَاعَى جَمِيعَ مَلَكَاتِ النَّفْسِ ، لَا يَقْتَصِرُ عَلَى الْمَلَكَاتِ الْعَالِيَةِ
فَحَسَبَ ، إِنَّمَا لِكُلِّ الْمَلَكَاتِ الَّتِي تَنْتَظِمُ الْخَلْقَ جَمِيعًا ، وَلِيَأْخُذَ كُلُّ مَنَّا
عَلَى قَدْرِ إِيمَانِهِ وَامْتِنَالِهِ لِأَمْرِ رَبِّهِ

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ
وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (١٢٦) [النحل]

ولو تأملنا حقيقة المثلية في ردّ الإساءة لوجدناها صعبة في تقديرها ، فإنّ ضربك شخصاً ضربة ، أعندك القدرة التي تردّ بها هذه الضربة بمثلها تماماً بنفس الطريقة ، وب نفس القوة ، وب نفس الألم ، بحيث لا تكون أنت مُعتدياً ؟ إنك لو تأملت هذه المثلية لفضّلت العفو بدل الدخول في متاهات أخرى .

وسبق أن ذكرنا قصة المراهب الذي اشترط على المدين إن تأخر في السداد أن يقطع رطلاً من لحمه ، ولما تأخر الرجل في السداد خاصمه عند القاضي ، وأخبره بما كان بينهما من شرط ، وكان القاضي ذكياً فقال للمراهب : خذ السكين واقطع رطلاً من لحمه ، لكن إن زاد أخذناه منك ، وإن نقص أخذناه منك ، فتراجع المراهب لأنه لا يستطيع تقدير هذه المسألة .

فإن انصرفنا عن المعاقبة بالمثل وسعنا العفو ، وانتهت المسألة على خير ما يكون .

وفي مرتبة أخرى يقول سبحانه : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣٤) [آل عمران]

فالحق - تبارك وتعالى - يجعل لنا مراتب في ردّ السيئة ، فالعقاب بالمثل مرتبة ، وكظم الغيظ مرتبة ، والعفو مرتبة ، والصنح مرتبة ، وأعلى ذلك كله مرتبة الإحسان إلى من أساء إليك ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣٤) [آل عمران]

ثم يجعل الحق سبحانه من نفسه أسوة لعباده فيقول : ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ..﴾ (٢٢) [النور] فكما تحب أن يغفر الله لك ذنبك ، فلماذا لا تغفر أنت لمن أساء إليك ؟ وكان ربنا - عز وجل - يريد أن يصلح ما بيننا ؛ لذلك لما نزلت هذه الآية في شأن أبي بكر

قال : أحب يا رب ، أحب يا رب ، أحب يا رب ^(١) .
ومعنى ﴿ أَلَا ... ﴾ (٢٢) [النور] أداة للحض واللحظ على هذا الخلق
الطيب ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٢) [النور] فمن تخلق باخلاق الله تعالى
فليكن له غفران ، وليكن لديه رحمة ، ومن منا لا يريد أن يتصف
ببعض صفات الله ، فيتصف بأنه غفور ورحيم ؟
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا ^(٢)
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢٣)

نلاحظ أن الآيات تحدثت عن حد القذف وما كان من حادثة الإفك ،
ثم ذكرت آية العتاب لأبي بكر في مسألة الرزق ، ثم عاد السياق إلى
القضية الأساسية : قضية القذف ، فلماذا دخلت مسألة الرزق في هذا
الموضوع ؟

قالوا : لأن كل معركة فيها خصومة قد يكون لها آثار تتعلق
بالرزق ، والرزق تكفل الله به لعباده : لأنه سبحانه هو الذي
استدعاهم إلى الوجود ، سواء المؤمن أو الكافر ، وحين تعطى
المحتاج فإنما أنت مناول عن الله ، ويد الله الممدودة بأسباب الله .
والحق تبارك وتعالى يحترم ملكية الإنسان مع أنه سبحانه رازقه

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره (٢٧٦/٢) أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال : بلى والله
إننا نحب أن تغفر لنا يا ربنا . ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال : لا
انزعها منه أبداً ، في مقابلة ما كان قال ، والله لا أنفقه بنافعة أبداً .
(٢) المحصنة : التي أحصنها زوجها ، والمحصنات : العفاف من النساء . [لسان العرب ..
مادة : حصن] .

ومعطيه ، لكن طالما أعطاه صار العطاء ملكاً له ، فإن حُتِّه على النفقة بعد ذلك يأخذها منه قَرْضاً ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقرضُ الله قَرْضاً حَسَناً .. ﴾ (٢٤٥) [البقرة]

فإن أنفق الموسر على المعسر جعله الله قَرْضاً ، وتولى سداده بنفسه ؛ ذلك لأن الله تعالى لا يرجع في هبته ، فطالما أعطاك الرزق ، فلا يأخذك منك إلا قَرْضاً .

لذلك يقول تعالى : ﴿ هَأنأنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ .. ﴾ (٣٨) [محمد]

وفي موضع آخر يقول عن الاموال : ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخْفِمْكُمْ^(١) تَبْخُلُوا وَيَخْرُجْ أَصْغَانَكُمْ ﴾ (٣٧) [محمد] لأن الإنسان تعب في جمع المال وعرق في سبيله ، وأصبح عزيزاً عليه ؛ لذلك يبخل به ، فأخذه الله منه قَرْضاً مردوداً بزيادة ، وكان الرزق والمال بهذه الأهمية لأنه أول منَاط لعمارة الخليفة في الأرض ؛ لذلك ترك الحديث عن القضية الأساسية هنا ، وذكر هذه الآية التي تتعلق بالرزق .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى .. ﴾ (٢٣٨) [البقرة] وقد ذُكرتْ وسط مسائل تتعلق بالعدة والكفارة ، وعدة المتوفى عنها زوجها ، فما علاقة الصلاة بهذه المسائل ؟

قالوا : لأن النزاعات التي تحدث غالباً ما تُغيّر النفس البشرية وتثير حفيظتها ، فإذا ما قمتَ للوضوء والصلاة تهدأ نفسك وتطمئن .

(١) أحفاد : الح عليه في السؤال أو طالبه بقوة والحاج . قال تعالى : ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخْفِمْكُمْ تَبْخُلُوا .. ﴾ (٣٧) [محمد] أي : إن يجهدكم بطلبها ويلج عليكم تبخلوا . [القاموس القويم

وتستقبل مسائل الخلاف هذه بشيء من القبول والرضا .
نعود إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ ..
(٢٢) [النور] المحصنة : لها إطلاقات ثلاث ، فهي المتزوجة لأن
الإحصان : الحفظ وكأنها حفظت نفسها بالزواج ، أو هي العفيفة ،
وإن لم تتزوج فهي مُحْصَنَةٌ في ذاتها ، والمحصنة هي أيضاً الحرة ؛
لأن عملية البغاء والزنا كانت خاصة بالإماء .

و ﴿ الْغَافِلَاتِ .. (٢٣) [النور] : جمع غافلة ، وهي التي لا تدري
بمثل هذه المسائل ، وليس في بالها شيء عن هذه العملية ، ومن ذلك
ما ورد في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ سأل بريرة خادمة
السيدة عائشة : « ما تقولين في عائشة يا بريرة ؟ » فقالت : تعجن
العجين ثم تنام بجانبه فتأتي الدواجن فتأكله وهي لا تدري^(١) . وهذا
كناية عن الغفلة لأنها ما زالت صغيرة لم تنضج نُضْجَ المراهقة ومع
نُضْجِ المراهقة نُضْجِ اليقين والإيمان .

وتلاحظ هذه الغفلة في البنت الصغيرة حين تقول لها : أنت تزوجين
فلاناً ؟ تقول : لا أنا أتزوج فلاناً ، ذلك لأنها لا تدري معنى العلاقة
الزوجية ، إنما حينما تكبر وتفهم مثل هذه الأمور فإن ذكرت لها
الزواج تستحي وتخزي أن تتحدث فيه ؛ لأنها عرفت ما معنى الزواج .
لذلك لما أمرنا الشرع باستئذان البنت للزواج جعل إذنها سكوتها ،
فإن سكنت فهذا إذن منها ، ودليل على فهمها لهذه العلاقة ، إنما إن

(١) قطعة من حديث طويل عن حادثة الإفك أخرجه البخاري في صحيحه (٢٦٩/٥ - ٢٧٢ -
بشرح فتح الباري) عن عائشة رضي الله عنها وفيه « أن علي بن أبي طالب قال :
يا رسول الله ، لم يضيّق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تصدقك . فدعا
رسول الله ﷺ بريرة فقال : يا بريرة هل رأيت فيها شيئاً يريبك ؟ فقال بريرة : لا والذي
يمتك بالعق ، إن رأيت منها أمراً أغمصه عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام
عن العجين فتأتي الداجن فتأكله . »

قالت : نعم أتزوجه لأنه جميل و .. و .. ، فهذا يعنى أنها لم تفهم بعد معنى الزواج .

إذن : الغافلة حتى عن مسائل الزواج والعلاقات الزوجية ، ولا تدرى شيئاً عن مثل هذه الأمور كيف تفكر فى الزنا ؟

ثم يذكر ربنا - تبارك وتعالى - جزاء هذه الجريمة : ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾ [النور]

وإن كانت الغافلة هى التى ليس فى بالها مثل هذه الأمور ، ولا تدرى شيئاً حتى عن الزواج والعلاقات الزوجية بين الرجل والمرأة ، فيكيف نقول : إنها تفكر فى هذه الجريمة ؟

واللعن : هو الطرد والإبعاد من رحمة الله ، وأيضاً الطرد والإبعاد عن حظيرة المؤمنين ؛ لأن القاذف حكمه أن يُقام عليه الحد ، ثم تسقط شهادته ، ويسقط اعتباره فى المجتمع الذى يعيش فيه ، فجمع الله عليه الخزي فى الدنيا بالحد وإسقاط الاعتبار ، إلى جانب عذاب الآخرة ، فاللعن فى الدنيا لا يعفيه من عذاب الآخرة .

وقلنا : إن العذاب : إيلام حى ، وقد يُوصَف العذاب مرة باليم ، ومرة بمهين ، ومرة بعظيم ^(١) ، هذه الأوصاف تدور بين العذاب

(١) - ورد وصف العذاب بالاليم فى ٧٢ موضعاً فى القرآن منها : ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٦)﴾ [البقرة] ، ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (٣٦)﴾ [الإنسان] .

- وورد وصف العذاب بأنه مهين فى ١٤ موضعاً ، منها : ﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٦)﴾ [البقرة] ، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً (٥٧)﴾ [الأحزاب] .

- وورد وصف العذاب بالعظيم فى ٢٢ موضعاً ، منها : ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ [البقرة] ، ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً (٦٢)﴾ [النساء] .

وبالإضافة لهذا فقد وصف الحق سبحانه العذاب بأوصاف أخرى ، منها :

- عذاب شديد : ٢١ مرة .	- عذاب مقيم : ٥ مرات .
- عذاب الخلد : مرتان .	- عذاب الخزي : مرتان .
- عذاب غليظ : ٤ مرات .	- عذاب قريب : مرة واحدة .
- عذاب غير مرئود : مرة واحدة .	- عذاب السعير : ٤ مرات وغيرها .

والمُعَذَّب ، فمن الناس مَنْ لا يؤلمه الجُلد ، لكن يهينه ، فهو فى حقه عذاب مهين لكرامته ، أما العذاب العظيم فهو فوق ما يتصوره المتصور ؛ لأن العذاب إيلاء من مُعَذَّب لمُعَذَّب ، والمُعَذَّب فى الدنيا يُعَذَّب بأيدي البشر وعلى قَدْر طاقته ، أما العذاب فى الآخرة فهو بجبروت الله وقَهْر الله ؛ لذلك يُوصَف بأنه عظيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٧٤)

نعلم جميعاً أن اللسان هو الذى يتكلم ، فعماذا اُضافت الآية :
﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ .. ﴾ (٧٤) [النور]

قالوا : فى الدنيا يتكلم اللسان وينطق ، لكن المتكلم فى الحقيقة أنت ؛ لأنه ما تحرك إلا بمرادك له ، فاللسان آلة خاضعة لإرادتك ، إذن : فهو مجرد آلة . أما فى الآخرة فسوف ينطق اللسان على غير مراد صاحبه ؛ لأن صاحبه ليس له مراد الآن .

ولتقريب هذه المسألة : ألا ترى كيف يخرس الرجل اللبيب المتكلم ، ويُمسك لسانه بعد طلاقته ، بسبب مرض أو نحوه ، فلا يستطيع بعدها الكلام ، وهو ما يزال فى سَعَةِ الدنيا . فما الذى حدث ؟ مجرد أن تعطلت عنده آلة الكلام ، فهكذا الامر فى الآخرة تتعطل إرادتك وسيطرتك على جوارحك كلها ، فتتطق وتتحرك ، لا بإرادتك ، إنما بإرادة الله وقدرته .

فالمعنى ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ .. ﴾ (٧٤) [النور] أى : شهادة ونطقاً على مراد الله ، لا على مراد أصحابها .

ولم نستبعد نُطْقَ اللسان على هذه الصورة ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٢) [يس] وقد جعل فيك أنت أيها الإنسان نموذجاً يؤكد صدق هذه القضية . فقل لي : ماذا تفعل إن أردت أن تقوم الآن من مكان ؟ مجرد إرادة القيام ترى نفسك قد قُمْتَ دون أن تفكر في شيء ، ودون أن تستجمع قواك وفكرك وعضلاتك ، إنما تقوم تلقائياً دون أن تدري حتى كيفية هذا القيام ، وأي عضلات تحركت لأدائه .

ولك أن تقارن هذه الحركة التلقائية السلسة بحركة الحفار أو الأوناش الكبيرة ، وكيف أن السائق أمامه عدد كبير من العصي والأذرع ، لكل حركة في الآلة ذراع معينة .

فإذا كان لك هذه السيطرة وهذا التحكم في نفسك وفي أعضائك ، فكيف تستبعد أن يكون لربك - عز وجل - هذه السيطرة على خلقه في الآخرة ؟

إذن : فاللسان محل القول ، وهو طَوْع إرادتك في الدنيا ، أما في الآخرة فقد شَلَّتْ هذه الإرادة ودخلت في قوله تعالى : ﴿ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (١٦) [غافر]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَيُّدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٤) [النور] وهذه جوارح لم يَكُنْ لها نُطْق في الدنيا ، لكنها ستنتطق اليوم . ويحاول العلماء تقريب هذه المسألة فيقولون : إن الجارحة حين تعمل أي عمل يلتقط لها صورة تسجل ما عملت ، فنُطْقها يوم القيامة أن تظهر هذه الصورة التي التقطت .

والأقرب من هذا كله أن نقول : إنها تنتطق حقيقة ، كما قال تعالى حكاية عن الجوارح : ﴿ وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ

الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ [فصلت]

ومعنى : ﴿الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أن لكل شيء في الكون نُطقاً يناسبه ، كما نطقت النملة وقالت : ﴿يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ..﴾ (١٨) [النمل] ونطق الهدد ، فقال : ﴿أَحْطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ (٢٢) [النمل]

وقد قال تعالى عن نطق هذه الاشياء : ﴿وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..﴾ (٤٤) [الإسراء]

لكن ، إن أراد الله لك أن تفقه نطقهم ففقه كما فقه سليمان عليه السلام ، حين فهم عن النملة : ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا ..﴾ (١٩) [النمل] كما فهم عن الهدد ، وخاطبه في قضية العقيدة .

وإن كان النطق عادة يفهم عن طريق الصوت ، فلكل خلق نطقه الذي يفهمه جنسه ؛ لذلك نسمع الآن مع تقدم العلوم عن لغة للاسماك ، ولغة للنحل ... إلخ .

وسبق أن قلنا : إن الذين قالوا من معجزات النبي ﷺ أن الحصى سُبِّحَ في يده ، نقول : عليكم أن تعدلوا هذه العبارة ، قولوا : سمع رسول الله ﷺ تسبيح الحصى في يده ، وإلا فالحصى مُسَبِّحٌ في يده ﷺ ، كما هو مُسَبِّحٌ في يد أبي جهل .

ولو سألت هذه الجوارح : لم شهدت على وأنت التي فعلت ؟ لقلت لك : فعلنا لأننا كنا على مرادك مقهورين لك ، إنما يوم ننحل عن إرادتك ونخرج عن قهرك ، فلن نقول إلا الحق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (٢٥)

قوله : ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ .. (٢٥)﴾ [النور] أى : يوم أن تحدث هذه الشهادة ، وهو يوم القيامة ﴿يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ .. (٢٥)﴾ [النور] الدين : يُطْلَقُ على منهج الله لهداية الخلق ، ويُطْلَقُ على يوم القيامة ، ويُطْلَقُ على الجزاء .

فالمعنى : يوفيههم الجزاء الذى يستحقونه ﴿الْحَقُّ .. (٢٥)﴾ [النور] أى : العدل الذى لا ظلم فيه ولا تفسير ، فليس الجزاء جزافاً ، إنما جزاء بالحق ؛ لأنه لم يحدث منهم توبة ، ولا تجديد إيمان ؛ لذلك لا بُدَّ أن يقع بهم ما حذرناهم منه وأخبرناهم به من العقاب ، وليس هناك إله آخر يُغَيِّرُ هذا الحكم أو يؤخره عنهم .

لذلك بعد أن قال تعالى : ﴿تَبَّتْ يُدَا أَبِي لَهَبٍ^(١) وَتَبَّ^(٢) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ^(٣) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ^(٤) وَأَمْرَأَتُهُ^(٥) حَمَّالَةَ الْحَطَبِ^(٦) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ^(٧)﴾ [المسد]

قال بعدها : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ^(١) اللَّهُ الصَّمَدُ^(٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ^(٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ^(٤)﴾ [الإخلاص]

(١) أبو لهب : هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم . قرشى ، عمُ رسول الله ﷺ من أشد الناس عداوة للمسلمين ، كان غنياً عتياً ، كبر عليه أن يتبع ديناً جاء به ابن أخيه ، فآذى أنصاره ، وحرّض عليهم وقتلهم ، كان أحمر الوجه مشرقاً ، فلُقب فى الجاهلية بأبى لهب ، مات بعد وقعة بدر بأيام عام ٢ هـ . [الإعلام للزركلى ١٢/٤] .

(٢) هى : أم جميل ، واسمها أروى بنت حرب بن أمية وهى أخت أبى سفيان ، وكانت عوناً لزوجها أبى لهب على كفره وجحوده وعناده ، فلهاذا تكون يوم القيامة عوناً عليه فى عذابه فى نار جهنم ، فتحمل الحطب فتلقى على زوجها . ليزداد على ما هو فيه . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٥٦٤/٤] .

يعنى : ليس هناك إله آخر يُغَيِّرُ هذا الكلام ، فما قلته سيحدث لا محالة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ (٢٥) [النور] و ﴿ الْحَقُّ .. ﴾ (٢٥) [النور] هو الشيء الثابت الذى لا يتغير ، فكل ما عدا الله تعالى مُتَغَيِّرٌ ، إذن : فالله بكل صفات الكمال فيه سبحانه لا تَغْيِيرَ فيه ، لذلك يقولون : إن الله تعالى لا يتغير من أجلنا ، ولكن يجب أن نتغير نحن من أجل الله ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ .. ﴾ (١١) [الرعد]

فالله هو الحق الثابت ، هذا بالبراهين العقلية وبالواقع ، وقد عرفنا الكثير من البراهين العقلية ، أما الواقع فإلى الآن لم يظهر من يقول أنا الله ويدعى هذا الكون لنفسه ، وصاحب الدعوى تثبت له إن لم يقم عليها معارض ومعنى ﴿ الْمُبِين ﴾ (٢٥) [النور] الواضح الظاهر الذى تشمل أحقيته الوجود كله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ
وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ
مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢٦)

قلنا فى تفسير ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ .. ﴾ (٢) [النور] أن الزواج يقوم على التكافؤ ، حتى لا يستعلى طرف على الآخر ، ومن هذا التكافؤ قوله تعالى : ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ .. ﴾ (٢٦) [النور]

ثم يقول سبحانه : ﴿أَوَلَيْكَ .. (٢٦)﴾ [النور] أى : الذين دارت عليهم حادثة الإفك ، وخاض الناس فى حقهم ، وهما عائشة وصفوان ﴿مَبْرُؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ .. (٢٦)﴾ [النور] أى : مما يُقال عنهم ، بدليل هذا التكافؤ الذى ذكرته الآية ، فمن أطيب من رسول الله ﷺ ؟ وكما ذكرنا أن الله تعالى ما كان ليدُلّس على رسوله ﷺ ويجعل من زوجاته مَنْ تحوم حولها الشبهات .

إذن : فلا بد أن تكون عائشة طيبة طيبة تكافى وتناسب طيبة رسول الله ؛ لذلك برأها الله مما يقول المفترون .

وقوله : ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)﴾ [النور] مغفرة نزلت من السماء قبل القيامة ، ورزق كريم ، صحيح أن الرزق كله من الله بكرم ، لكن هنا يراد الرزق المعنوى للكرامة وللمنزلة وللسمو ، لا الرزق الحسى الذى يقيم قوام البدن من أكل وشرب وخلافه .
ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا^(١) وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧)﴾

كلمة بيت : نفهم منها أنه ما أعد للبيتوتة ، حيث يأوى إليه الإنسان آخر النهار ويرتاح فيه من عناء اليوم ، ويسمى أيضاً الدار ؛ لأنها تدور على مكان خاص بك ؛ لذلك كانوا فى الماضى لا يسكنون إلا فى بيوت خاصة مستقلة لا شركة فيها مثل العمارات الآن ،

(١) أى : حتى تطلبوا الأئس والالفة والرضا ، أو حتى تستشعروا الأئس وتعلموه . [القاموس القويم ٢٧/١] .

يقولون : بيت من بابه . حيث لا يدخل ولا يخرج عليك أحد ، وكان السُّكْنُ بهذه الطريقة عَصْمَةً من الريبة : لأنه بيتك الخاص بأهلك وحدهم لا يشاركهم فيه أحد .

لكن هناك أمور تقتضى أن يدخل الناس على الناس : لذلك تكلم الحق - تبارك وتعالى - هنا عن آداب الاستئذان وعن المبادئ والنظم التى تنظم هذه المسألة : لأن ولوج البيوت بغير هذه الآداب ، ودون مراعاة لهذه النظم يُسبِّبُ أموراً تدعو إلى الريبة والشك : لذلك فى الفلاحين حتى الآن : إذا راوا شخصاً غريباً يدخل حارة^(١) لا علاقة له بها لا بُدَّ أن يسأل : لماذا دخل هنا ؟

إذن : فشرع الله لا يحرم المجتمع من التلاقى ، إنما يضع لهذا التلاقى حدوداً وآداباً تنفى الرِّيبَ والشبهة التى يمكن أن تاتى فى مثل هذه المسائل .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى آداب الاستئذان : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا .. (٢٧)﴾ [النور]

﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا .. (٢٧)﴾ [النور] من الأُنْسِ والاطمئنان ، فحين تجلس وأهلك فى بيتك ، وأقبل عليك غريب لا تعرفه ، إذا لم يُقَدِّمْ لك ما تأنس به من الحديث أو الاستئذان لا بُدَّ أن تحدث منه وَحْشَةً ونفور إذن : على المستأذن أن يحدث من الصوت ما يأنس به صاحب الدار ، كما نقول : يا أهل الله ، أو نطرق الباب ، أو نتحدث مع الولد الصغير ليخبر منْ بالبيت .

ذلك لأن للبيوت حرمتها ، وكل بيت له خصوصياته التى لا يجب

(١) الحارة : كل محلة دنت منازلهم فهم أهل حارة . [قاله ابن منظور فى لسان العرب - مادة : حير] .

صاحب البيت أن يطلع عليها أحد ، إما كرامة لصاحب البيت ، وإما كرامة للزائر نفسه ، فالاستئذان يجعل الجميع يتحاشى ما يؤذيه .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ .. ﴾ (٢٧) [النور]

أى : خير للجميع ، للزائر وللمزور ، فالاستئذان يمنع أن يتجسس أحد على أحد ، يمنع أن ينظر أحد إلى شيء يؤذيه ، وهب أن أبا الزوجة أراد زيارتها ودخل عليها فجأة فوجدها فى شجار مع زوجها ، فلربما اطلع على أمور لا ترضيه ، فيتفاقم الخلاف .

ثم تخدم الآية بقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٧) [النور] يعنى : احذروا أن تغفلوا هذه الآداب ، أو تتهاونوا فيها ، كمن يقولون : نحن أهل أو أقارب لا تكليف بيننا ؛ لأن الله تعالى الذى شرع لكم هذه الآداب أعلم بما فى نفوسكم ، وأعلم بما يصلحكم .

بل ويتعدى هذا الأدب الإسلامى من الغريب إلى صاحب البيت نفسه ، ففى الحديث الشريف « نهى أن يطرق المسافر أهله ليل ^(١) » إنما عليه أن يخبرهم بقدومه حتى لا يفاجئهم وحتى يستعد كل منهما لملاقاة الآخر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُوْذَنَ
لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ازْجِعُوا فَازْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (٢٨)

(١) عن جابر بن عبد الله قال ، قال رسول الله ﷺ : « إذا أطال أحدكم الفية فلا يطرق أهله ليلاً » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٤٤) ومسلم فى صحيحه (١٥٢٨/٢) كتاب الإمارة .

فإذا استأذنت على بيت ليس فيه أحد ، فلا تدخل ؛ لأنك جئت للمكين لا للمكان ، إلا إذا كنت تريد الدخول لتتخلص على الناس وتتجسس عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ .. (٢٨) [النور] كيف والدار ليس فيها أحد ؟

ربما كان صاحب الدار خارجها ، فلما رآك تستأذن نادى عليك من بعيد : تفضل . فلا بد أن ياذن لك صاحب الدار أو من ينوب عنه في الإذن ؛ لأنه لا ياذن إلا وقد أمن خلو الطريق مما يؤذيك ، أو مما يؤذي أهل البيت .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ .. (٢٨) [النور]

لأنك إن تمسكت بالدخول بعد أن قال لك : ارجع فقد أثرت الريبة في نفسه ، فعليك أن تمتثل وتحترم رغبة صاحب الشأن ، فهذا هو الأزكى والأفضل ، ألا ترى قول رسول الله ﷺ : « دَعْ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ »^(١) .

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (٢٨) [النور] أى : عالم سبحانه بدخائل النفوس ووساوس الصدور ، فإن قال لك صاحب الدار ارجع فوقفت أمام الباب ولم تنصرف ، فإنك تثير حولك الظنون والأوهام ، وربك - عز وجل - يريد أن يحميك من الظنون ودخائل النفوس .

ثم يقول الحق سبحانه :

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (١١٧٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٠٠/١) والترمذي في سننه (٢٥١٨) وقال : حديث حسن صحيح ، من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما ، وتامه : « فإن الصدق طمأنينة ، وإن الكذب ريبة » .

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ

لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٢٩)

سأل الصديق أبو بكر رضى الله عنه رسول الله ﷺ : يا رسول الله نحن قوم أهل تجارة ، نذهب إلى بلاد ليس لنا فيها بيوت ولا أهل ، ونضطر لأن ننزل فى أماكن (عامة كالفنادق) نضع فيها متاعنا ونبيت بها ، فنزلت هذه الآية^(١) .

و ﴿جُنَاحٌ ..﴾ (٢٩) [النور] يعنى : إثم أو حرج ، وهذه خاصة بالأماكن العامة التى لا يسكنها أحد بعينه ، والمكان العام له قوانين فى الدخول غير قوانين البيوت والأماكن الخاصة ، فهل تستأذن فى دخول الفندق أو المحل التجارى أو الحمام ... إلخ ، هذه أماكن لا حرج عليك فى دخولها دون استئذان .

فمعنى ﴿غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ..﴾ (٢٩) [النور] أى : لقوم مخصوصين ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ ..﴾ (٢٩) [النور] كأن تنام فيها وتاكل وتشرب وتضع حاجياتك ، فالمتاع هنا ليس على إطلاقه إنما مقيد بما أحله الله وأمر به ، فلا يدخل فى المتاع المحرمات .

لذلك قال بعدها : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٢٩) [النور] يعنى : فى تحديد الاستمتاع ، فلا تأخذه على إطلاقه فتدخل فيه

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان قال : لما نزلت آية الاستئذان فى البيوت ، قال أبو بكر : يا رسول الله ، فكيف بتجار قريش الذين يهتفون (أى : يتنقلون ويترددون) بين مكة والمدينة والشام ، ولهم بيوت معلومة على الطريق ، فكيف يستأذنون ويسلمون وليس فيها سكان ؟ فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ..﴾ (٢٩) [النور] . أورده السيوطى فى أسباب النزول (ص ١٢٧ - طبعة دار التحرير للطبع والنشر ١٩٦٣م) .

الحرام ، وإلا قالبغايا كثيراً ما يرتادون مثل هذه الأماكن ؛ لذلك يُحصنك ربك ، ويعطيك المناعة اللازمة لحمايتك .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا أَرْوَاجَهُمْ
ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٣٠)

تحدثت سورة النور من أولها عن مسألة الزنا والقذف والإحصان ، وحذرت من اتباع خطوات الشيطان التي تؤدي إلى هذه الجريمة ، وتحدثت عن التكافؤ في الزواج ، وأن الزاني للزانية ، والزانية للزاني ، والخبيثون للخبيثات والطيبون للطيبات .

وهذا منهج متكامل يضمن سلامة المجتمع والخليفة لله في أرضه ، فالله تعالى يريد مجتمعاً تضيء فيه القيم السامية ، مجتمعاً يخلو من وسائل (العكنة) والمخالفة والشحناء والبغضاء ، فلو أننا طبقنا منهج الله الذي ارتضاه لنا لارتاح الجميع في ظله .

ومسألة غَضُّ البصر التي يأمرنا بها ربنا - عز وجل - في هذه الآية هي صمام الأمان الذي يحمينا من الانزلاق في هذه الجرائم البشعة ، ويسد الطريق دونها ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. ﴾ (٣٠) [النور]

وقلنا : إن للإنسان وسائل إدراكات متعددة ، وكل جهاز إدراك له مناط : فالأذن تسمع الصوت ، والأنف يشم الرائحة ، واللسان للكلام ، ولذوق المطعومات ، والعين لرؤية المرئيات ، لكن أفقن شيء يصيب الإنسان من ناحية الجنس هي حاسة البصر ؛ لذلك وضع

الشارع الحكيم المناعة اللازمة في طرفي الرؤية في العين الباصرة وفي الشيء المبصر ، فأمر المؤمنين بغض أبصارهم ، وأمر المؤمنين بعدم إبداء الزينة ، وهكذا جعل المناعة في كلا الطرفين .

وحين تتأمل مسألة غَضُ البصر تجدها من حيث القسمة العقلية تدور حول أربع حالات : الأولى : أن يغض هو بصره ولا تبدى هي زينتها ، فخطُ الفتنة مقطوع من المرسل ومن المستقبل ، الثانية : أن يغض هو بصره وأن تبدى هي زينتها ، الثالثة : أن ينظر هو ولا تبدى هي زينتها . وليس هناك خطر على المجتمع أو فتنة في هذه الحالات الثلاث فإذا توفر جانب انعدام الآخر . إنما الخطر في القسمة الرابعة : وهي أن ينظر هو ولا يغض بصره ، وأن تتزين هي وتبدى زينتها ، ففي هذه الحالة فقط يكون الخطر .

إذن : فالحق - تبارك وتعالى - حرّم حالة واحدة من أربع حالات : ذلك لأن المحرمات هي الأقل دائماً ، وهذا من رحمة الله بنا ، بدليل قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ .. ﴾ (١٥١) [الأنعام] فالمحرمات هي المحصورة المعدودة ، أما المحلات فهي فوق الحصر والعَدُّ ، فالأصل في الأشياء أنها حلال ، وإذا أراد الحق سبحانه تحريم شيء نص عليه ، فانظر إلى هذه المعاملة الطيبة من ربك عز وجل .

وكما أمر الرجل بغض بصره ، كذلك أمرت المرأة بغض بصرها ، لأن اللُفْتة قد تكون أيضاً للرجل ذي الوسامة و .. و فإن كان حظ المرأة في رجل تتقحمه العين ، فلربما نظرت إلى غيره ، فكما يُقال في الرجال يُقال في النساء .

هذا الاحتياط وهذه الحدود التي وضعها الله عز وجل والزمنا بها

إنما هي لمنع هذه الجريمة البشعة التي بُذِنتُ بها هذه السورة ؛ لأن
النظر أول وسائل الزنا ، وهو البريد لما بعده ، ألا ترى شوقي رحمه
الله حين تكلم عن مراحل الغزل يقول :

نَظْرَةٌ فابْتِسَامَةٌ فَسَلَامٌ فَكَلَامٌ فَمَوْعِدٌ فَلِقَاءٌ

فالامر بغض البصر ليس منافذ فساد الاعراض ، ومنع أسباب
تلوث النسل ؛ ليأتى الخليفة لله في الأرض طاهراً في مجتمع طاهر
نظيف شريف لا يتعالى فيه أحد على أحد ، بان له نسباً وشرفاً ،
والآخر لا نسب له .

ذلك ليطمئن كل إنسان على أن مَنْ يليه في الخلافة من أبناء أو
أحفاد إنما جاءوا من طريق شرعي شريف ، فيجتهد كل إنسان في أن
يُنشئ أطفاله تنشئة فيها شفقة ، فيها حنان ورحمة ؛ لأنه واثق أنه
ولده ، ليس مدسوساً عليه ، وأغلب الظن أن الذين يهملون أطفالهم ولا
يراعون مصالحهم يشكّون في نسبهم إليهم .

ولا يصل المجتمع إلى هذا الطُّهر إلا إذا ضمنت له الصيانة
الكافية ، لئلا تشرذم منه غرائز الجنس ، فيعتدى كل نظر على ما لا
يحل له ؛ لأن النظر بريد إلى القلوب ، والقلوب بريد إلى الجنس ، فلا
يعفَ الفرج إلا بعفاف النظر .

ونلاحظ في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. ﴾
[النور] دقة بلاغ الرسول عن ربه - عز وجل - وأمانته في نقل
العبارة كما أنزلت عليه ، ففي هذه الآية كان يكفي أن يقول رسول
الله : غُضُّوا أَبْصَارَكُمْ ، لكنه التزم بنص ما أنزل عليه ؛ لأن القرآن لم
ينزل للأحكام فقط ، وإنما القرآن هو كلام الله المنزل على رسوله
والذي يُتَعَبَّدُ بتلاوته ، فلا بد أن يُبلِّغه الرسول كما جاءه من ربه .

لذلك قال في البلاغ عن الله (قُلْ) وفي الفعل (يَغْضُوا) دلالة على ملحظية (قل) ، فالفعل (يَغْضُوا) مضارع لم تسبقه أداة جزم ، ومع ذلك حذفت منه النون ، ذلك لأنه جعل (قُلْ) ملحظية في الأسلوب .
والمعنى : إِنْ تَقُلْ لَهُمْ غُضُّوا أَبْصَارَكُمْ يَغْضُوا ، فالفعل - إذن - مجزوم في جواب الأمر (قُلْ) .

إذن ﴿ قُلْ .. ﴾ [النور] تدل على أمانة الرسول في البلاغ ، وعلى أن القرآن ما نزل للأحكام فحسب ، إنما هو أيضاً كلام الله المعجز ؛ لذلك نحافظ عليه وعلى كل لفظة فيه ، وكأن رسول الله ﷺ يقول : ما أتيتُ لكم بشيء من عندي ، ومهمتي أن أبلغكم ما قاله الله لي .
وقوله : ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ .. ﴾ [النور] فما داموا مؤمنين بإله حكيم ، وقد دخلوا حظيرة الإيمان باختيارهم لم يُرغمهم عليه أحد ، فلا بدُّ أن يلتزموا بما أمرهم ربهم به وينفذوه بمجرد سماعه .

والغَضُّ : النقصان ، يقال : فلان يَغْضُ من قَدْر فلان يعنى : ينقصه ، فكيف يكون النقصان في البصر ؟ أينظر بعين واحدة ؟ قالوا : البصر له مهمة ، وبه تتجلى المرائي ، والعين مجالها حر ترى كل ما أمامها سواء أكان حلالاً لها أو مُحَرَّماً عليها .

فنقص البصر يعنى : قَصْرُه على ما أحل ، وكفَّه عما حُرِّم ، فالنقص نقص في المرائي وفي مجال البصر ، فلا تعطى له الحرية المطلقة فينظر إلى كل شيء ، إنما تُوقَفه عند أوامر الله فيما يرى وفيما لا يرى .

و ﴿ مِنْ .. ﴾ [النور] في قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. ﴾ [النور] البعض يرى أنها للتبعيض كما تقول : كُلُّ من هذا الطعام يعنى : بعضاً منه ، فالمعنى : يَغْضُوا بعض البصر ؛ لأن بَعْضه حلال لا أغض عنه بصرى ، وبعضه محرم لا أنظر إليه .

أو : أن ﴿ مِنْ .. ﴾ [النور] هنا لتأكيد العموم في أدنى مراحله ،
وسبق أن تكلمنا عن (مِنْ) بهذا المعنى ، ونحن كلما توغلنا في التفسير
لا بد أن نقابلنا أشياء ذكرناها سابقاً ، ونحيل القارئ عليها .

قلنا : فرق بين قولك : ما عندي مال ، وقولك : ما عندي من
مال . ما عندي مال ، يحتمل أن يكون عندك مال قليل لا يُعْتَدَ به ،
لكن ما عندي من مال نفى لجنس المال مهما قلَّ ، فمن تعنى بداية
ما يقال له مال .

فالمعنى هنا : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. ﴾ [النور]
يعنى : بداية ما يُقال له بصر ، ولو لمحة خاطفة ، ناهيك عن التامل
وإدامة البصر .

وقلنا : إن الشرع لا يتدخل في الخواطر القلبية والهواجس ، إنما
يتدخل في الأعمال النزوعية التي يترتب عليها فعل ، قلنا : لو مررت
ببيستان فرأيت به وردة جميلة ، فاعجبت بها وسُررت وانبسطت لها
أسارير نفسك ، كل هذا مباح لك لا حرج عليك فيه ، فإن تعدى الأمر
ذلك فمددت إليها يدك لتقطفها ، هنا يتدخل الشرع يقول لك : قف ،
فليس هذا من حقك لأنها ليست لك .

هذه قاعدة عامة في جميع الأعمال لا يستثنى منها إلا النظر
وحده ، وكان ربنا - عز وجل - يستسمحنا فيه ، هذه المسألة من
أجلنا ولصالحنا نحن ولراحتنا ، بل قل رحمة بنا وشفقة علينا من
عواقب النظر وما يُخلفه في النفس من عذابات ومواجيد .

ففى نظر الرجل إلى المرأة لا نقول له : انظر كما تحب واعشق
كما شئت ، فإن نزعْتَ إلى ضمة أو قبلة قلنا لك : حرام . لماذا ؟ لأن
الأمر هنا مختلف تماماً ، فعلاقة الرجل بالمرأة لها مراحل لا تتفصل
إحداها عن الأخرى أبداً .

فساعة تنظر إلى المرأة هذا إدراك ، فإن أعجبك وانبسط لها أساريك ، فهذا وجدان ، لا بد أن يترك في تكوينك تفاعلاً كيمياوياً لا يهدأ ، إلا بأن تنزع فإن طاولت نفسك في النزوع فقد اعتديت ، وإن كبت في داخلك هذه المشاعر أصابتك بعقد نفسية ودعتك إلى أن تبحث عن وسيلة أخرى للنزوع ؛ لذلك رحمت ربك من بداية الأمر ودعاك إلى منع الإدراك بغض البصر .

لذلك بعد أن أمرنا سبحانه بغض البصر قال : ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۖ ﴾ [النور] (٣٠) لأنك لا تملك أن تفصل النزوع عن الوجدان ، ولا الوجدان عن الإدراك ، وإن أمكن ذلك في الأمور الأخرى ، فحين نمنعك عن قطف الورد التي أعجبك لا يترك هذا المنع في نفسك أثراً ولا وجداً ، على خلاف ما يحدث إن منعت عن امرأة أعجبك ، وهيئك الوجدان إليها .

وحفظ الفروج يكون بأن نقصرها على ما أحله الله وشرعه فلا أنيله لغير محل له ، سواء كان من الرجل أو من المرأة ، أو : أحفظه وأصونه أن يرى ؛ لأن رؤيته تهيج إلى الشر وإلى الفتنة .

﴿ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ۖ ﴾ [النور] يعني : أظهر وأسلم وأدعى لراحة النفس ؛ لأنه إما أن ينزع فيرتكب محرماً ، ويلج في أعراض الناس ، وإما ألا ينزع فيكدر نفسه ويؤلمها بالصبر على ما لا تطبيق .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور] فهو سبحانه خالق هذه النفس البشرية ، وواضع مسألة الشهوة والغريزة الجنسية التي هي أقوى الغرائز ليربط بها بين الرجل والمرأة ، وليحقق بها عملية النسل وبقاء الاستخلاف في الأرض ، ولو لم تربط هذه العلاقة بالشهوة الملحة لزهّد الكثيرون في الزواج وفي الإنجاب وما يترتب عليه من تبعات .

ألا ترى المرأة وما تعانيه من آلام ومتاعب في مرحلة الحمل ، وأنها ترى الموت عند الولادة ، حتى إنها لتقسم أنها لا تعود ، لكن بعد أن ترى وليدها وتنسى آلامها سرعان ما يعاودها الحنين للإنجاب مرة أخرى ، إنها الغريزة التي زرعها الله في النفس البشرية لدوام بقائها .

وللبعض نظرة فلسفية للغرائز ، خاصة غريزة الجنس ، حيث جعلها الله تعالى أقوى الغرائز ، وربطها بلذة أكثر أثراً من لذة الطعام والشراب والشم والسمع .. إلخ فهي لذة تستوعب كل جوارح الإنسان وملكاته ، وما ذلك إلا حرصاً على بقاء النوع ودواماً للخلافة في الأرض .

ثم يقول الحق سبحانه لرسوله :

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ

يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ^(١) أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنْ^(٢)

(١) البعل : الزوج والزوجة فهو مصدر سمي به بلفظه فلا يؤنث ، والجمع : بعول [القاموس القويم ٧٦/١] .

(٢) غير أولى الإربة : أى : غير أولى الحاجة . والإربة الحاجة . والجمع مآرب أى حوائج . قال القرطبي في تفسيره (٤٧١/٦) : « اختلف الناس في معناه . فقيل : هو الأحق الذي لا حاجة به إلى النساء . وقيل : الأبله . وقيل : الرجل يتبع القوم فيأكل معهم ويرتفق بهم وهو ضعيف لا يشتهى النساء » ثم قال : « وهذا الاختلاف كله متقارب المعنى . ويجتمع فيمن لا لهم له ولا همة ينتبه بها إلى أمر النساء » .

الرِّجَالِ وَالطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ
وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا
إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا إِنَّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

ذكر هنا المقابل ، فأمر النساء بما أمر به الرجال ، ثم زاد هنا مسألة الزينة . والزينة : هى الأمر الزائد عن الحد فى الفطرية ؛ لذلك يقولون للمرأة الجميلة بطبيعتها والتي لا تحتاج إلى أن تتزين : غانية^(١) يعنى : غنيت بجمالها عن التزين فلا تحتاج إلى كحل فى عينيها ، ولا أحمر فى خديها ، لا تحتاج أن تستر قلبها^(٢) بأسورة ، ولا صدرها بعقد .. إلخ .

فإن كانت المرأة دون هذا المستوى احتاجت لشيء من الزينة ، لكن العجيب أنهم يُبالغون فى هذه الزينة حتى تصبح كاللافتة النيون على كشك خشبي مائل ، فترى مُسنَّات يَضَعْنَ هذا الألوان وهذه المساحيق ، فيَظْهَرْنَ فى صورة لا تليق ؛ لأنه جمال مُصْطَنع وزينة متكلفة يسمونها تطرية ، وفيها قال المتنبي ، وهو يصف جمال المرأة البدوية وجمال الحضرية :

حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيةٍ وَفِي الْبَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبٍ^(٣)
ومن رحمة الله بالنساء أن قال بعد ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ .. (٣١)﴾
[النور] قال : ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا .. (٣١)﴾ [النور] يعنى : الأشياء

(١) الغانية : الجارية الحسناء ، ذات زوج كانت أو غير ذات زوج ، سميت غانية لأنها غنيت بحسنها عن الزينة . [لسان العرب - مادة : غنى] .
(٢) القلب : سوار المرأة . والقلب من الأسورة : ما كان قلداً واحداً . [لسان العرب - مادة : قلب] .
(٣) الحضارة : الإقامة فى الحضر . والحضر : خلاف البادية ، وهى المدن والقرى والريف . سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التى يكون لهم بها قرار . [لسان العرب - مادة : حضر] .

الضرورية ، فالمرأة تحتاج لأن تمشى فى الشارع ، فتظهر عينيها وربما فيها كحل مثلاً ، وتظهر يدها وفيها خاتم أو حناء ، فلا مانع أن تظهر مثل هذه الزينة الضرورية .

لكن لا يظهر منها القُرْطُ مثلاً ؛ لأن الخمار يستتره ولا (الديكولتيه) أو العقد أو الاسورة أو الدُمْلَك ولا الخلخال ، فهذه زينة لا ينبغى أن تظهر . إذن : فالشارع أباح الزينة الطبيعية شريطة أن تكون فى حدود ، وأن تقصر على مَنْ جُعِلَتْ مِنْ أَجْلِهِ .

ونلاحظ فى قوله تعالى : ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ..﴾ (٣١) [النور] المراد تغطية الزينة ، فالجارية التى تحتها من باب أولى ، فالزينة تُغَطَّى الجارية ، وقد أمر الله بستّر الزينة ، فالجارية من باب أولى .

وقوله تعالى : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ..﴾ (٣١) [النور] الخمر : جمع خِمَار ، وهو غطاء الرأس الذى يُسَدِّل ليستر الرقبة والصدر . الجيوب : جميع جيب ، وهو الفتحة العليا للثوب ويسمونها (القَبَّة) والمراد أن يستر الخمار فتحة الثوب ومنطقة الصدر ، فلا يظهر منها شيء .

والعجيب أن النساء تركنَ هذا الواجب ، بل ومن المفارقات أنهن يلبسنَ القلادة ويُعلّقن بها المصحف الشريف ، إنه تناقض عجيب يدل على عدم الوعي وعدم الدراية بشرع الله مُنْزِل هذا المصحف .

وتأمل دقة التعبير القرآنى فى قوله تعالى ﴿وَلْيَضْرِبْنَ ..﴾ (٣١) [النور] والضرب هو : الوقع بشدة ، فليس المراد أن تضع المرأة الطرحة على رأسها وتتركها هكذا للهواء ، إنما عليها أن تُحْكِمَهَا على رأسها وصدرها وتربطها بإحكام .

لذلك لما نزلت هذه الآية قالت السيدة عائشة : رحم الله نساء المهاجرات ، لما نزلت الآية لم يكن عندهم خمر ، فعمدن إلى المروط فشققوها وصنعوا منها الخمر^(١) .

إذن : راعى الشارع الحكيم زى المرأة من أعلى ، فقال : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ..﴾ (٣١) [النور] ومن الأدنى فقال : ﴿يَدَيْنِ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَيبِهِنَّ ..﴾ (٥٩) [الأحزاب]

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَا يَتَّبِعُنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ..﴾ (٣١) [النور] أى : أزواجهن : لأن الزينة جُعِلَتْ من أجلهم ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ ..﴾ (٣١) [النور] أبو الزوج ، إلا أن يخاف منه الفتنة ، فلا تبدى الزوجة زينتها أمامه .

ومعنى ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ ..﴾ (٣١) [النور] أى : النساء اللاتى يعملن معها فى البيت كالوصيفات والخادومات ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ..﴾ (٣١) [النور] والمراد هنا أيضاً ملك اليمين من النساء دون الرجال .

ويشترط فى هؤلاء النساء أن يكن مسلمات ، فإن كن كافرات كهؤلاء اللاتى يستقدمونهن من دول أخرى ، فلا يجوز للمرأة أن تبدى زينتها أمامهن ، وأن تعتبرهن فى هذه المسألة كالرجال ، لأنهن غير مسلمات وغير مؤتمنات على المسلمة ، وربما ذهبت فوصفت ما رأت من سيدتها للرجل الكافر فينشغل بها .

ومن العلماء من يرى أن ملك اليمين لا يخص النساء فقط ، إنما الرجال أيضاً ، فللمرأة أن تبدى زينتها أمامهم ، قالوا : لأن هناك استقبالا عاطفيا وامتناعا عاطفيا فى النفس البشرية ، فالخادم فى

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٥٨ ، ٤٧٥٩) من حديث عائشة رضى الله عنها . والمروط جمع مروط وهو كساء يؤتزر به وتتلقع به المرأة .

القَصْرَ لا ينظر إلى سيدته ولا إلى بناتها ؛ لأنه لا يتسامى إلى هذه المرتبة ، إلا إذا شجّعته ، وفتحَ له الباب ، وهذه مسألة أخرى .

وقوله تعالى : ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرَةِ مِنَ الرِّجَالِ .. ﴾ (٣١) [النور] أى : التابعين للبيت ، والذين يعيشون على فضلاته ، فتكون حياة التابع من حياة متبوعه ، فليس عنده بيت يأويه ؛ لذلك ينام فى أى مكان ، وليس عنده طعام ؛ لذلك يُطعمه الناس وهكذا ، فهو ضائع لا هدف له ولا استقلالية لحياته ، وترى مثل هؤلاء يأكلون فضلات الموائد ويلبسون الخِرَقَ وينامون ولو على الأرض صفة .

مثل (الأهل) أو المعتوه الذى يعطف الناس عليه ، وليس له مطمع فى النساء ، ولا يفهم هذه المسألة ، فلا يُخاف منه على النساء ؛ لأنه لا حاجة له فيهن ؛ ولا يتسامى لأن ينظر إلى أهل البيت .

ومعنى : ﴿ غَيْرِ أُولَى الْإِرَةِ مِنَ الرِّجَالِ .. ﴾ (٣١) [النور] يعنى : كان يكون كبير السنّ واهن القوى ، لا قدرة له على هذه المسائل ، أو يكون مجبوباً^(١) ، مقطوع المتاع ، ولا خطرَ من مثل هؤلاء على النساء .

وقوله تعالى : ﴿ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. ﴾ (٣١) [النور]

نلاحظ هنا أن الطفل مفرد ، لكن وُصِفَ بالجمع ﴿ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. ﴾ (٣١) [النور] لماذا ؟ قالوا : هذه سمة من سمات اللغة ، وهى الدقة فى التعبير ، حيث تستخدم اللفظ المفرد للدلالة على المثني وعلى الجمع .

(١) الجَبُّ : القطع . والمجبوب : الخصى الذى قد استؤصل ذكره وخُصْيَاه . فهو مقطوع الذكر . [لسان العرب - مادة : جيب] .

كما نقول : هذا قاضٍ عدلٌ ، وهذان قاضيان عدلٌ ، وهؤلاء قضاة عدلٌ ، ولم نقل : عدلان وعدول ، فإذا وحد الوصف في الجميع بدون هوئى كان الوصف كالشئ الواحد ، فالقاضى لا يحكم بمزاجه وهواه ، والآخر بمزاجه وهواه ، إنما الجميع يصدر عن قانون واحد وميزان واحد . إذن : فالعدل واحد لا يُقال بالتشكيك ، وليس لكل واحد منهم عدل خاص به ، العدل واحد .

كذلك الحال في ﴿ الطِّفْلِ .. ﴾ [النور] مع أن المراد الاطفال ، لكن قال (الطفل) لأن غرائزه مشتركة مع الكل ، وليس له هوئى ، فكل الاطفال - إذن - كأنهم طفل واحد حيث لم يتكوّن لكل منهم فكره الخاص به ، الجميع يحب اللهو واللعب ، ولا شئ وراء ذلك ، فالجمعية هنا غير واضحة لوجود التوحيد في الغرائز وفي الميول .

بدليل أنه إذا كبر الاطفال وانتقلوا إلى مرحلة البلوغ وتكوّن لديهم هوئى وفكر وميل يقول القرآن عنهم : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ .. ﴾ [النور] فنظر هنا إلى الجمع لعدم وجود التوحد في مرحلة الطفولة المبكرة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات] فوصف ضيف وهو مفرد بالجمع (مكرميين) : ذلك لأن ضيف تدل أيضاً على الجمع ، فالضيف من انضاف على البيت وله حق والتزامات لا بد أن يقدمها المضيف ، مما يزيد على حاجة البيت ، والضيف في هذه الالتزامات واحد ، سواء كان مفرداً أو جماعة ؛ لذلك دلّ بالمفرد على الجمع .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. ﴾ [النور] يظهر على كذا : لها معنيان في اللغة : الاول : بمعنى يعلم كما في

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ .. ﴾ (٢٠) [الكهف]
يعنى : إن علموا بكم وعرفوا مكانكم .

والثانى : بمعنى يعلو ويغلب ويقهر ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ﴾ (٩٧) [الكهف] أى : السد الذى بناه ذو القرنين ،
فالمعنى : ما استطاعوا أن يعلوه ويرتفعوا عليه .

وهنا ﴿ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. ﴾ (٢١) [النور] يعنى :
يعرفونها ويستبينونها ، أو يقدرّون على مطلوباتها ، فليس لهم علم أو
دراية بهذه المسائل .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَا يَضُرُّنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِعِلْمٍ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ .. ﴾ (٢١) [النور]

الحق - تبارك وتعالى - يكشف ألعيب النساء وحيلهن فى جذب
الانظار ، فإذا لم يلفتك إليها النظر لفتك الصوت الذى تحدث به مشيتها
كانها تقول لك : يا بجم اسمع ، يا للى ما نتاش شايف اسمع ، وفى
الماضى كنّ يلبسن الخخال الذى يحدث صوتاً أثناء المشى ، والآن
يجعلنّ فى أسفل الحذاء ما يحدث مثل هذا الصوت أثناء المشى ،
وأول من استخدم هذه الحيل الراقصات لجذبهن إليهن الانظار .

ومعلوم أن طريقة مشى المرأة تُبدي الكثير من زينتها التى لا
يراها الناس ، وتُسبب كثيراً من الفتنة ؛ لذلك يقول تعالى بعدها وفى
ختام هذه المسائل : ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴾ (٢١) [النور]

لم يقل الحق تبارك وتعالى : يا من أذنبتم بهذه الذنوب التى سبق
الحديث عنها ، إنما قال ﴿ جَمِيعاً .. ﴾ (٢١) [النور] فحث الجميع على

التوبة ؛ ليدل على أن كل ابن آدم خطاء ، ومهما كان المسلم متمسكاً ملتزماً فلا يأمن أن تقوته هفوة هنا أو هناك ، والله - عز وجل - الخالق والاعلم بمن خلق ؛ لذلك فتح لهم باب التوبة وحثهم عليها ، وقال لهم : ما عليكم إلا أن تتوبوا ، وعلى أنا الباقي .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣٢)

بعد أن تكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن مسألة حفظ الفروج ودعا إلى الحفاظ على طهارة الأنساب ، أراد أن يتكلم عن هؤلاء الرجال أو النساء الذين لم يتيسر لهم أمر الزواج ؛ ذلك ليعالج الموضوع من شتى نواحيه ؛ لأن المشرع لا بد أن يستولى بالتشريع على كل ثغرات الحياة فلا يعالج جانباً ويترك الآخر .

و ﴿ الْأَيْمَى .. ﴾ [النور] جمع أيم ، والأيم من الرجال من لا زوجة له ، والأيم من النساء من لا زوج لها .

ونلاحظ أن الأمر في ﴿ أَنْكِحُوا .. ﴾ [النور] جاء هكذا بهمزة القطع ، مع أن الأمر للواحد (انكح) بهمزة الوصل ، ذلك لأن الأمر هنا (أنكحوا) ليس للمفرد الذي سينكح الأيم ، إنما لغيره أن ينكحه ، والمراد أمر أولياء الأمور ومن عندهم رجال ليس لهم زوجات ، أو نساء ليس لهن أزواج : عَجَلُوا بِزَوَاجِ هَؤُلَاءِ ، وَيَسِّرُوا لَهُمْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ ، وَلَا تَتَشَدَّدُوا فِي نَفَقَاتِ الزَّوَاجِ حَتَّى تُعْفُوا أَبْنَاءَكُمْ وَبَنَاتَكُمْ ، وَإِذَا لَمْ تَعِينُوهُمْ فَلَا أَقْلَ مِنْ عَدَمِ التَّشَدُّدِ وَالْمَغَالَاةِ .

وفى الحديث الشريف : « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » ^(١) .

ومع ذلك فى مجتمعاتنا الكثير من العادات والتقاليد التى تعرقل زواج الشباب أخطرها المغالاة فى المهور وفى النفقات والنظر إلى المظاهر .. إلخ وكان الحق - تبارك وتعالى - يقول لأولياء الأمور : يسرّوا للشباب أمور الالتقاء الحلال ومهدّوا لهم سبيل الإعفاف .

وقد أعطانا القرآن نموذجاً لما ينبغى أن يكون عليه ولي الأمر ، فقال تعالى عن سيدنا شعيب عليه السلام : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ .. (٢٧) ﴾ [القصاص] ذلك لأن موسى - عليه السلام - سيكون أجيراً عنده ، وربما لا يتسامى إلى أن يطلب يد ابنته ؛ لذلك عرضها عليه وخطبه لها وشجّعها على الإقبال على زواجها ، فإزال عنه حياء التردد ، وهكذا يجب أن يكون أبو الفتاة إن وجد لابنته كفواً ، فلا يتردد فى إعفافها .

وقوله تعالى : ﴿ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ .. (٣٢) ﴾ [النور]

وقوله ﷺ : « تُنكِحُ الْمَرْأَةَ لَارْبَعٍ : لِمَالِهَا ، وَجَمَالِهَا ، وَحَسَبِهَا وَدِينِهَا ، فَاظْفَرِ بِذَاتِ الدِّينِ ، تَرْبِطَكَ يَدَاكَ » ^(٢) .

ولما سُئِلَ الحسن - رضى الله عنه - عن مسألة الزواج قال لوالد

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٨٤) من حديث أبى هريرة بلفظ « إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض » . وأخرجه ابن ماجة فى سننه (١٩٦٧) بلفظ « إذا أتاكم » وقد رجح الترمذى أنه مرسل من رواية الليث بن سعد .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٩٠) . ومسلم فى صحيحه (١٤٦٦) كتاب الرضا عن حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال القرطبى فيما نقله عنه ابن حجر فى فتح البارى (١٣٦/٩) : « معنى الحديث أن هذه الخصال الأربع هى التى يرغب فى نكاح المرأة لأجلها ، فهو خير عما فى الوجود من ذلك ، لا أنه وقع الأمر بذلك ، بل ظاهره إباحة النكاح لقصد كل من ذلك ، لكن قصد الدين أولى » .

الفتاة الذي جاء يستشيرها : زوجها مَنْ تآمنه على دينه ، فإن أحب ابنتك أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها . وماذا يريد الإنسان في زوج ابنته أكثر من هذا ؟

فالدين والخلق والقيم السامية هي الأساس الذي يُبنى عليه الاختيار ، أما المال فهو شيء ثانوي وعرضي زائل ؛ لذلك يقول تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ بَيْنَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور]

فالفقر قد يكون سبباً في عدم الإقبال على البنت ، أو عدم إقبال أهل البنت على الزوج ، لكن كيف يتخلى الله عنا ونحن نتقيه ونقصد الإعفاف والطهر ؟ لا يمكن أن يرضى الله على زوجين التقيا على هذه القيم واجتمعا على هذه الآداب ، ومن يدريك لعل الرزق يأتي للثنين معاً ، ويكون اجتماعهما في هذه الرابطة الشرعية هو باب الرزق الذي يفتح للوجهين معاً ؟

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور] فعتاء الله دائم لا ينقطع ؛ لأن خزائنه لا تنفذ ولا تنقص ، والإنسان يمسك عن الإنفاق ؛ لأنه يخاف الفقر ، أما الحق - تبارك وتعالى - فيعطى العطاء الواسع ؛ لأن ما عنده لا ينفذ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَيْسَتَعَفِيفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ
عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا
تُكْرِهُوا فَبَيِّتَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِبَبْنُو أَعْرَضَ الْحَيَوةِ
الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ

فى حالة إذا لم ننكح الأيامى ، ولم نُعَنهم على الزواج ، ولم يقدروا هم على القيام بنفقاته يصف لهم الحق - سبحانه وتعالى - العلاج المناسب ، وهو الاستعفاف ، وقد طلب الله تعالى من المجتمع الإسلامى سواء - تمثل فى أولياء الأمور أو فى المجتمع العام - أن ينهض بمسألة الأيامى ، وأن يعينهم على الزواج ، فإن لم يقم المجتمع بدوره ، ولم يكن لهؤلاء الأيامى قدرة ذاتية على الزواج ، فليستعفف كل منهم حتى يغنيهم الله ، مما يدل على أن التشريع يبنى أحكامه ، ويراعى كل الأحوال ، سواء أطاعوا جميعاً أو عصوا جميعاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ .. ﴾ (٣٣) [النور] يعنى : يحاول العفاف ويطلبه ويبحث عن أسبابه ، يجاهد أن يكون عفيفاً ، وأول أسباب العفاف أن يَغْضُ بصره حين يرى ، فلا يوجد له مُهَيِّج ومثير ، فإن وجد فى نفسه فُتُوَّة وقوة فعلية أن يُلْجِمها ويضعفها بالوسائل الشرعية كما قال النبى ﷺ : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة - يعنى : نفقات الحياة الزوجية - فليتزوج ، ومن لم يجد فعليه بالصوم فإنه له وجاء^(١) »^(٢) .

والصوم يعمل على انكسار هذه الشهوة ويُهْدِيء من شراسة الغريزة ؛ ذلك لأنه يأكل فقط ما يقيم أودّه ، ولا يبقى فى بدنه ما يثير الشهوة ، كما جاء فى الحديث الشريف : « بحسب ابن آدم لقيمات يُقَمِّنْ صُلْبُه ... »^(٣) .

(١) الوجاء : هو أن تُضرب الخصيتان ضربة شديدة تذهب شهوة الجماع وينزل منزلة الخصى . وقال ابن منظور فى [اللسان - مادة : وجأ] : أراد أن الصوم يقطع النكاح كما يقطع الوجاء .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٦٥) ، ومسلم فى صحيحه (١٤٠٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) ، والترمذى فى سننه (٢٢٨٠) من حديث المقدم ابن معدى كروب وتامه : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلاث لطفامه وثلاث لشرابه وثلاث لنفسه » .

أو : أن يُفَرِّغ الشاب نفسه للعمل النافع المفيد الذي يشغله ويستنفد جهده وطاقته ، التي إن لم تصرف في الخير صرفت في الشر ، وبالعمل يثبت الشاب ذاته ، ويثق بنفسه ، ويكتسب الحلال الذي يُشجِّعه مع الأيام على الزواج وتحمل مسئولياته .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَيْسْتَ عُفْفٌ .. ﴾ (٣٢) [النور] ولم يقل : وليعف ، فالمعنى ليسلك سبيل الإعفاف لنفسه وليسع إليه ، بأن يمنع المهيج بالنظر ويهْدِيء شراسة الغريزة بالصوم ، أو بالعمل فيشغل وقته ويعود آخر النهار متعباً يريد أن ينام ليقوم في الصباح لعمله نشيطاً ، وهكذا لا يجد فرصة لشيء مما يغضب الله .

ومعنى : ﴿ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا .. ﴾ (٣٣) [النور] أى : بذواتهم قدرة أو بمجتمعهم معونة .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ .. ﴾ (٣٣) [النور] يدل على أن الاستعفاف وسيلة من وسائل الغنى ؛ لأن الاستعفاف إنما نشأ من إرادة التقوى ، وقد قال تعالى في قضية قرآنية : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق) فمن هذا الباب يأتيه غنى الله .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ .. ﴾ (٣٢) [النور]

الكتاب : معروف أنه اجتماع عدة أشياء مكتوبة في ورق ، والمراد هنا المكاتبة ، وهى أن تكتب عقدًا بينك وبين العبد المملوك ، تشترط فيه أن يعمل لك كذا وكذا بعدها يكون حراً ، إن أدَّى ما ذكر في عقد المكاتبة .

﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا .. (٣٢)﴾ [النور] يعنى : إن كانت حريتهم ستؤدى إلى خير كان ترفع عنهم ذلة العبودية ، وتجعلهم ينشطون فى الحياة نشاطاً يناسب مواهبهم .

لذلك جعل الحق - سبحانه وتعالى - هذه المكاتبه مصرفاً من مصارف الزكاة ، فقال تعالى : ﴿وَفِى الرِّقَابِ .. (١٧٧)﴾ [البقرة] يعنى : المماليك الذين نريد أن نكف رقابهم من أسر العبودية وذللها بالعتق ، وإن كان مال الزكاة يُدفع للفقراء وللمساكين .. إلخ ففى الرقاب يدفع المال للسيد ليعتق عبده .

كما جعل الإسلام عتق الرقاب كفارة لبعض الذنوب بين العبد وبين ربه ؛ ذلك لأن الله تعالى يريد أن ينهى هذه المسألة .

﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ .. (٣٢)﴾ [النور]

الحق - تبارك وتعالى - هو الرازق ، والمال فى الحقيقة مال الله ، لكن إن ملكك وطلب منك أن تعطى أخاك الفقير يحترم ملكيتك ، ولا يعود سبحانه فى هبته لك ؛ لذلك يأخذ منك الصدقة على أنها قرض لا يردّه الفقير ، إنما يتولى ربك عز وجل رده ، فيقول : ﴿مَنْ ذَا الَّذِى يُقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥)﴾ [البقرة] ولم يقل سبحانه : يقرض فلاناً ، وإنما يقرض الله لأنه تعالى هو الخالق ، ومن حق عبده الذى استدعاه للوجود أن يرزقه ويتكفل له بقوته .

واحترام الملكية يجعل الإنسان مطمئناً على آثار حركة حياته وثمره جهده ، وأنها ستعود عليه ، وإلا فما الداعى للعمل ولبذل المجهود إن ضاعت ثمرته وحُرم منها صاحبها ؟ عندها ستتعطّل مصالح كثيرة وسيعمل الفرد على قُدْر حاجته فحسب ، فلا يفيض عنه شيء للصدقة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٢) [النور]

يُقَالُ لِلْمَمْلُوكِ : فَتَى ، وَلِلْمَمْلُوكَةِ : فَتَاةٌ ، فَقَدْ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ : عَبْدِي ^(١) وَأُمْتِي إِنَّمَا يَقُولُ : فَتَاىَ وَفَتَاتِى ، فَهَذِهِ التَّسْمِيَةُ أَكْرَمُ لَهُؤُلَاءِ وَأَرْفَعُ ، فَالْفَتَى مِنَ الْفُتُوَّةِ وَالْقُوَّةِ كَأَنَّكَ تَقُولُ : هَذَا قُوَّتِي الَّذِي يَسَاعِدُنِي وَيُعِينُنِي عَلَى مَسَائِلِ الْحَيَاةِ ، فَالنَّبِيُّ ﷺ يَرِيدُ أَنْ يَرْفَعَ مِنْ شَأْنِهِمْ .

وَمِنْ هَؤُلَاءِ جَمَاعَةُ الْمَمَالِكِ الَّذِينَ حَكَمُوا مِصْرَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ، وَكَانُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ وَالْأَعْيَانِ .

وَالْبِغَاءُ ظَاهِرَةٌ جَاءَ الْإِسْلَامَ فَوَجَدَهَا مَنِتَشِرَةً ، فَكَانَ الرَّجُلُ الَّذِي يَمْلِكُ مَجْمُوعَةً مِنَ الْإِمَاءِ يَنْصِبُ لَهُنَّ رَايَةً تَدُلُّ عَلَيْهِنَّ ، وَيَأْتِيَهُنَّ الشَّبَابُ وَيَقْبِضُ هُوَ الثَّمَنُ ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنِ سُلُولٍ رَأْسُ النِّفَاقِ ، وَكَانَ عِنْدَهُ (مَسِيكَةٌ ، وَمَعَاذَةٌ) وَفِيهِ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ^(٢) .

وَتَأْوِيلُ الْآيَةِ : لَا تُكْرِهُوا الْإِمَاءَ عَلَى الْبِغَاءِ ، وَقَدْ كُنَّ يَبْكِينَ ، وَيَرْفُضُنَّ هَذَا الْفِعْلَ ، وَكُنَّ يُؤْذِنُ وَيَتَعَرَّضُنَّ لِلْغَمَزِ وَاللَّمَزِ ، وَيَتَجَرَّأُ

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : أَطْعَمَ رَبِّكَ ، وَضَمَّ رَبِّكَ . وَلِيَقُلْ : سَيِّدِي مَوْلَايَ . وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : عَبْدِي ، أُمْتِي ، وَلِيَقُلْ : فَتَاىَ وَفَتَاتِى وَغَلَامِى » أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (٢٥٥٢) ، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٢٢٤٩) كِتَابُ الْأَلْفَاظِ مِنَ الْأَدَبِ .

(٢) قَالَ الزَّهْرِيُّ : كَانَتْ جَارِيَةً لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنِ سُلُولٍ يُقَالُ لَهَا مَعَاذَةٌ يُكْرَهُهَا عَلَى الزَّانَا ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامَ نَزَلَتْ ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ..﴾ (٣٢) [النور] . أَخْرَجَهُ الْبِزَارِيُّ فِي مُسْنَدِهِ (أَوْرَدَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ ٢/٢٨٨) وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ : نَزَلَتْ فِي أُمَةٍ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنِ سُلُولٍ يُقَالُ لَهَا مَسِيكَةٌ . كَانَ يَكْرَهُهَا عَلَى الْفُجُورِ وَكَانَتْ لَا بَأْسَ بِهَا فَتَاىَ فَنَزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ..﴾ (٣٢) [النور] قَالَه الْأَعْمَشُ .

عليهن الناس ، وكان من هؤلاء الإمام بنات ذوات أصول طيبة شريفة ، لكن ساقتهن الأقدار إلى السبى فى الحروب أو خلافه ، فى حين أن الحرة العفيفة تسير لا يتعرض لها أحد بسوء .

ومعنى : ﴿ إِن أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ۖ ﴾ (٣٣) [النور] يتكلم القرآن هنا عن الواقع بحيث إن لم يُردن تحصنًا فلا تُكرهوهن ﴿ لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ﴾ (٣٣) [النور] طلبًا للقليل من المال الزائل ﴿ وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣٣) [النور] لأنهن فى حالة الإكراه على البغاء يفقدن شرط الاختيار ، فلا يتحملن ذنب هذه الجريمة ، عملاً بالحديث النبوى الشريف : « رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي : الْخَطَا وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ » (١) .

لذلك يُطمئن الحق - تبارك وتعالى - هؤلاء اللاتي يُردن التحصن والعفاف ، لكن يكرههن سيدهن على البغاء ، ويرغمهن بأى وسيلة : اطمئنن فلا ذنب لكن فى هذه الحالة ، وسوف يُغفر لكن والله غفور رحيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا لِّلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكَ ۖ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣٤)

المعنى : لا عذر لكم : لأن الله تعالى قد أنزل إليكم الآيات الواضحة التى تضمن لكم شرف الحياة وطهارتها ونقاء نسل الخليفة

(١) أخرج معناه ابن ماجه فى سننه (٢٠٤٥) والبدارقطنى فى سننه (١٧٠/٤) والحاكم فى المستدرک (١٩٨/٢) وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس بلفظ : « إن الله تجاوز عن أمتي : الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » وانظر كشف الخفاء (٥٢٢/١) .

لله في الأرض ، وهذه الآيات ما تركت شيئاً من أقضية الحياة إلا تناولته وأنزلت الحكم فيه ، وقد نلتمس لكم العذر لو أن في حياتكم مسألة أو قضية ما لم يتناولها التشريع ولم ينظمها .

لذلك يقول سيدنا الإمام على - رضى الله عنه - عن القرآن : فيه حكم ما بينكم ، وخبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، مَنْ تركه من جبار قصمه الله ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهَدَى فِي غَيْرِهِ أَضْلَهُ اللَّهُ^(١) .

ولا يزال الزمان يُثَبِّتُ صِدْقَ هَذِهِ الْمَقُولَةِ ، وانظر هنا وهناك لتجد مصارع الآراء والمذاهب والأحزاب والدول التي قامت لتناقض الإسلام ، سواء كانت رأسمالية شرسة أو شيوعية شرسة . إلخ . كلها انهارت على مَرَأَى وَمَسْمَعٍ مِنَ الْجَمِيعِ .

نعم ، مَنْ تركه من جبار قصمه الله ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهَدَى فِي غَيْرِهِ أَضْلَهُ اللَّهُ ، لأنه خالفك ، وهو أعلم بما يُصْلِحُكَ ، فلا يليق بك - إذن - أن تأخذ خُلُقَ اللَّهِ لك ثم تتكبر عليه وتضع لنفسك قانوناً من عندك أنت .

وسبق أن قلنا : إن الآيات تطلق على ثلاثة إطلاقات : الآيات الكونية التي تلفتك إلى الصانع المبدع عز وجل ، وعلى المعجزات التي تأتي لتثبت صِدْقَ الرَسُولِ فِي الْبَلَاغِ عَنْ اللَّهِ ، وتُطْلَقُ عَلَى الْآيَاتِ الْحَامِلَةِ لِلْأَحْكَامِ وَهِيَ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَفِي الْقُرْآنِ هَذَا كُلُّهُ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣٤)

[النور]

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢٨٩/٣) .

أى : جعلنا لكم موعظة وعبرة بالأمم السابقة عليكم ، والتي بلغت شأوها فى الحضارة ، ومع ذلك لم تملك مقومات البقاء ، ولم تصنع لنفسها المناعة التى تصونها فانهارت ، ولم يبق منهم إلا آثار كالتى نراها الآن لقدماء المصريين ، وقد بلغوا من الحضارة منزلة أدهشت العالم المتقدم الحديث ، فيأتون الآن متعجبين : كيف فعل قدماء المصريين هذه الحضارة ؟

وكان أعظم من حضارة الفراعنة حضارة عاد التى قال الله عنها : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) ﴾ [الفجر] يعنى : ليس لها مثل فى الدنيا ﴿ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَفَّوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾ [الفجر] يعنى : لن يفلت من المخالفين أحد ، ولن ينجو من عذاب الله كافر .

والمثل كذلك فى مسألة الزنا وقذف المحصنات العفيفات ، كحادثة الإفك التى سبق الكلام عنها ، وأنها كانت مثلاً وعبرة ، كذلك كانت قصة السيدة مريم مثلاً وقد اتهمها قومها ، وقالوا : ﴿ يَأْخُذْ هَارُونُ مَا كَانَ أبوكِ امراً سوءاً وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا (٢٨) ﴾ [مريم]

وكذلك كانت قصة يوسف عليه السلام وامرأة العزيز ، وكلها مسائل تتعلق بالشرف ، ولم تخل من رمى العفيفات المحصنات ، أو العفيف الطاهر يوسف بن يعقوب عليهما السلام .

وهذه الآيات مبينات للوجود الأعلى فى آيات الكون ، مبينات لصدق المبلغ عن الله فى المعجزات ، مبينات للأحكام التى تنظم حركة

الحياة في آيات القرآن ، ثم أريناهم عاقبة الامم السابقة سواء من قبل
منهم على الله بالطاعة ، أو من أعرض عنه بالمعصية ، ولا يستفيد من
هذه المواعظ والعبر إلا المتقون الذين يخافون الله وتثمر فيهم
الموعظة .

❖ ❖ ❖ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ**
فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ
يُوْقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ
زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ
لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

قلنا : فإن الله تعالى أعطانا النور الحسى الذى نرى به مرائى
الاشياء ، وجعله وسيلة للنور المعنوى ، وقلنا : إن الدنيا حينما تغلظ
ينير كل منا لنفسه على حسب قدراته وإمكاناته فى الإضاءة ، فإذا
ما طلعت الشمس وأنار الله الكون أطفأ كل منا نوره ؛ لأن نور الله
كاف ، فكما أن نور الله كاف فى الحسسيات فنوره أيضا كاف فى
المعنويات .

فإذا شرع الله حكما معنويا ينظم حركة الحياة ، فلا يترككم أن
تعارضوه بشيء من عندكم ، فكما أطفأتم المصابيح الحسية أمام
مصباحه فاطفئوا مصابيحكم المعنوية كذلك أمام أحكامه تعالى
وأوامره ، والامر واضح فى الآيات الكونية .

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ..﴾ [النور] ﴿٣٥﴾ كما نقول والله المثل الأعلى : فلان نور البيت ، فالآية لا تُعرَف الله لنا ، إنما تُعرَفنا أثره تعالى فينا ، فهو سبحانه مُنَوِّرُ السموات والأرض ، وهما أوسع شيء نتصوره ، بحيث يكون كل شيء فيهما واضحاً غير خفى .

ثم يضرب لنا ربنا - عز وجل - مثلاً توضيحياً لنوره ، فيقول : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ..﴾ [النور] ﴿٣٥﴾ أى : مثل تنويره للسموات وللأرض ﴿كَمِشْكَاةٍ ..﴾ [النور] ﴿٣٥﴾ وهى الطاقة التى كانوا يجعلونها قديماً فى الجدار ، وهى فجوة غير نافذة يضعون فيها المصباح أو المِسرْجة ، فتحجز هذه الفجوة الضوء وتجمعه فى ناحية فيصير قوياً ، ولا يصنع ظلاً أمام مسار الضوء .

والمصباح : إناء صغير يُوضَع فيه زيت أو جاز فيما بعد ، وفى وسطه فتيل يمتص من الزيت فيظل مشتعلًا ، فإن ظل الفتيل فى الهواء تلاعب به وبدد ضوءه وسبب دخانًا ؛ لأنه يأخذ من الهواء أكثر من حاجة الاحتراق ؛ لذلك جعلوا على الفتيل حاجزًا من الزجاج ليمنع عنه الهواء ، فيأتى الضوء منه صافياً لا دخان فيه ، وكانوا يسمونه (الهباب) .

وهكذا تطور المصباح إلى لعبة وصعد نوره وزادت كفاءته ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ..﴾ [النور] ﴿٣٥﴾ لكنها ليست زجاجة عادية ، إنما زجاجة ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ..﴾ [النور] ﴿٣٥﴾ يعنى : كوكب من الدُر ، والدُر ينير بنفسه .

كذلك زيتها ليس زيتاً عادياً ، إنما زيت زيتونة مباركة .